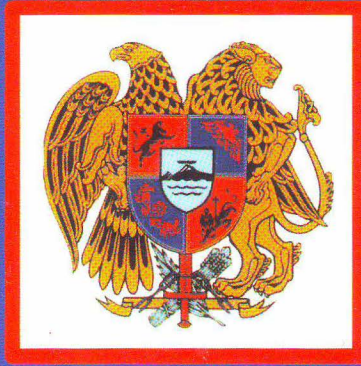


موجز تاريخ الشعب الأرمني

من العصور القديمة إلى العصور الحديثة

تأليف : جورج بورنوتيان

ترجمة : سحر توفيق



الدار المصرية اللبنانية



جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

صندوق ساتينج شاكر

العنوان الأصلي للكتاب ،

A Concise History of the Armenian People

(From Ancient Times to the Present)

Fifth Edition

Completely Revised

By : George A. Bournoutian

والصادر عن : Mazda Publishers, Inc. Costa Mesa, California, 2006

* استكمل المؤلف الأحداث منذ عام 2006 حتى عام 2010

جميع الحقوق محفوظة ©

جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

صندوق ساتينج شاكر

بورنوتيان ، جورج .

موجز تاريخ الشعب الأرمني: من العصور القديمة إلى العصور الحديثة
جورج بورنوتيان ؛ ترجمة : سحر توفيق . ط 1 . - القاهرة : الدار
المصرية اللبنانية ، 2012 .

480 ص ؛ 24 سم .

تدمك : 7 - 726 - 427 - 977 - 978

1 - أرمينيا - تاريخ

أ - العنوان 947.56

رقم الإيداع : 2012 / 1627

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - القاهرة .

تليفون : 23910250 + 202

فاكس : 23909618 + 202 - ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

الطبعة الأولى: صفر 1433هـ - يناير 2012م

موجز تاريخ الشعب الأرمني

(من العصور القديمة إلى العصور الحديثة)

تأليف: جورج بورنوتيان

مراجعة: د. محمد رفعت الإمام

ترجمة: سحر توفيق

إشراف: بيرج ترزيان

الدار المصرية اللبنانية

جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

صندوق ساتينج شاكر

المحتويات

- 8.....مقدمة الطبعة الخامسة
- 9.....بإحفظات تفسيرية

الجزء الأول، من الاستقلال حتى الحكم الأجنبي

- 11.....(تمسور القديمة حتى 1500)
- 13.....مقدمة الجزء الأول
- 15..... 1 • المرتفعات ومفارق الطرق، أرض أرمنية
- 19..... 2 • آرا وسميراميس، أورارتو، أول مملكة في أرمنية
- 26..... 3 • من سفينة نوح إلى الأبحاث الأثرية: أصول الشعب الأرمني
- من مرزبانان (حكام) ولاية فارسية إلى ملوك: اليرفانديون،
30..... أول حُكَّام أرمن مستقلون
- 5 • بين الفيالق الرومانية وسلاح الفرسان البارثي:
الأرتاشيزيون وتشكيل المملكة الأرمنية
- 40.....
- 52..... 6 • الأسرة الأرساكية / الأرشاكونية:
- 52..... أولاً، الأرساك في أرمنية: كيان بارثي وتاج روماني
- 59..... ثانياً، الصليب والكتابة. الأرشاكيون.
- 7 • معابد النار والأيقونات:
- 73..... أرمنية تحت الحكيمين الفارسي والبيزنطي.
- 87..... 8 • أهل الكتاب، أرمنية تحت الهيمنة العربية.
- 9 • أرض متعددة التيجان، الأسرة البجراتونية وممالك
99..... أرمنية في القرون الوسطى
- 10 • الشرق والغرب يلتقيان،
112..... مملكة قيليقية الأرمنية

- 11 • من الأغلبية إلى الأقلية ،
126..... الأرمن تحت الحكم التركي والمغولي والهيمنة التركمانية
- الجزء الثاني ، من الحكم الأجنبي إلى الاستقلال (1500-2005)**
- 191..... مقدمة الجزء الثاني
الأمرء والسلاطين ،
- 12 • الأرمن في الإمبراطورية العثمانية..... 13
13 • الخوجات والميليكات والشاهات ، الأرمن في إيران..... 14
14 • من المغول إلى الهند البريطانية ، الأرمن في جنوب آسيا..... 15
15 • أقليات مُحيمية ، الجاليات الأرمنية في العالم العربي وأثيوبيا
(من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر)..... 16
16 • وعود الحرية ، الأرمن في الإمبراطورية الروسية..... 17
17 • بين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، تشتت الأرمن في أوروبا الشرقية والغربية
(من أواخر القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر)..... 258
18 • القضية الأرمنية والحل النهائي ، الأرمن في تركيا العثمانية..... 274
19 • رعايا القيصر ، الأرمن فيما وراء القوقاز وروسيا..... 298
20 • ألفيوم ، الجمهورية الأرمنية الأولى..... 319
21 • من السياسة الاقتصادية الجديدة إلى البيريسترويكا ،
أرمنية السوفيتية أو جمهورية أرمنية الثانية..... 338
22 • المهجر الجديد ، الجالية الأرمنية في العالم أجمع خلال القرن العشرين..... 362
23 • من الصراعات الأيديولوجية إلى السياسات التحزبية ،
أحزاب ومنظمات المهجر..... 392
24 • الامام المتزايدة للاستقلال ، جمهورية أرمنية الثالثة..... 401

مقدمة الطبعة الخامسة

ما بين عامي 1992 و 1994، وباقتراح من لويز مانوجيان سيمون، الرئيسة السابقة للاتحاد الخيري الأرمني العام، كتبت دراسة من جزئين، بعنوان A History of the Armenian People. كان الهدف من هذا العمل هو أن يتمكن الأرمن في الولايات المتحدة من النظر إلى أنفسهم بموضوعية، وكذلك لكي يتعرف غير الأرمن على تاريخ شعب عريق فقد معظم أرضه التاريخية وتشتت في أنحاء المعمورة.

والسماح للكتاب أن يلفت انتباه الجمعيات الأرمنية في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وبيئات المحاضرات التي أنفق عليها الاتحاد الخيري الأرمني العام، وكذلك مساندة باربارا كيجيان، ونفذت الطبعة الأولى. وظهرت طبعات أخرى خلال الفترة من 1995 إلى 2001، وهي النهاية طُبعت عشرة آلاف نسخة. وتم نشر طبعة من مجلد واحد منقح في 2001، كما نُشرت طبعات أخرى في 2002، 2003، 2005.

وسرعان ما وجدت هذه الدراسة، أول مسح شامل لتاريخ الأرمن منذ العصور القديمة حتى أتوقت الحاضر بالإنجليزية، طريقها ككتاب علمي إلى طلبة السنوات الأخيرة في المدارس الثانوية وطلبة السنوات الأولى من الجامعة. فقد قام بعض الأساتذة من المؤرخين بتقرير الكتاب على طلبتهم، واستفادوا من الخرائط وجدول التسلسل الزمني. وأنا أدين بالشكر للطلبة ولأساتذتهم لما قدموه من تعليقات واقتراحات، والتي ضمنتها في هذه الطبعة المعدلة.

لقد كان نفاذ النسخ بسرعة، وقيام الأصدقاء والنقاد بالإشارة إلى أخطاء، أو إلى غياب بعض المواد المهمة في بعض الفصول، والحاجة إلى المزيد من المراجع الشاملة والفهرس، كل هذا شجعتني على إعداد طبعة معدلة. وقد أضفت مواد جديدة حول الأدب، وضمنت بعض التفاصيل التي كانت غائبة في الطبعات السابقة.

ومرة أخرى، يفحص هذا الكتاب تاريخ أرمنية وشعبها في علاقتها ببقية العالم. وسوف تساعد الخرائط القارية على ربط التاريخ الأرمني بتاريخ الأمم الأخرى. والعمل الحالي يحتوي بعض التفسيرات الحديثة للآراء التقليدية في التاريخ الأرمني. وغرضه الأساسي هو أن يجعل الأرمن وغير الأرمن على ألفة بشعب وثقافة غائبين من معظم المقررات والنصوص التاريخية.

جورج بورنوتيان

ملاحظات تفسيرية

نظام التواريخ

في محاولة لتقديم نظرة عالمية والحد مما يبدو نوعاً من التحيز المسيحي أو الغربي، فسرت بعض النصوص الأكاديمية أن تستبدل مصطلح: ق.م. (قبل الميلاد)، بـ (ق.ع.ح. (قبل العصر الحاضر)، (CE (Common Era) بدلاً من م. (ميلادية). وقد أقيمت في هذا الكتاب على المألوفة القديمة، لكنني استخدمت الطريقة الحديثة في جداول التسلسل الزمني. يجدير بالذكر أن عديداً من الثقافات لها تقاويم مختلفة. وتقويم الكنيسة الأرمنية مثلاً يختلف عن التقويم المستخدم في العالم الغربي اليوم بفارق 551 سنة. والتقاويم المسيحية واليهودية والعربية والفارسية والروسية قبل الثورة، ضمن غيرها من التقاويم تختلف أيضاً عن تقويمنا. ولتبسيط الأمور، تم تعديل كل التواريخ وفقاً لنظام التقويم المستخدم في الغرب.

وجدير بالذكر أن بعض الأحداث التاريخية أو فترة حكم بعض الحكام في الأزمنة القديمة لا توجد لها تواريخ محددة. وفي هذه الحالات استخدم تاريخ تقريبي. والتواريخ الموضوعة بين الأقواس تالية لأسماء الملوك أو الجثاثة تشير إلى فترات حكمهم؛ وفيما عدا ذلك فهي تشير إلى حياة الشخصية⁽¹⁾.

المصطلحات الجغرافية

ثمة محاولة أخرى لتصحيح التحيز النابع من المركزية الأوروبية، وهي تعديل بعض، وليس كل، المصطلحات الجغرافية المستخدمة بشكل عام. ومن ثم، بدلاً من الشرق الأوسط والشرق الأدنى أو الشام، يستخدم بعض المؤرخين اليوم مصطلحات أكثر دقة، مثل غرب آسيا؛ وأحياناً بدلاً من الشرق الأقصى أو الشرق، يستخدمون شرق آسيا؛ ويُشار إلى شبه القارة الهندية باسم جنوب آسيا؛ ويشار إلى "ما وراء القوقاز" بتعبير شرق القوقاز.

(1) ووفقاً للتقاليد المتبعة في اللغة العربية بالنسبة لترجمة التواريخ الخاصة بالأمم الأخرى، فقد تم وضع الرموز كلها حسب التاريخ الميلادي المستخدمة في مصر، ق.م. (قبل الميلاد)، وم. (ميلادية).

ولم يتم قبول هذه الفكرة دولياً بعد، ومن ثم فسوف أستبقي المصطلحات التقليدية أو، في بعض الحالات، المصطلحات المستخدمة حالياً في وسائل الإعلام الإخبارية. ولهذا فإن مصطلح ”الشرق الأوسط“ أو ”العالم العربي“ يضم البلدان الحالية لمصر وسوريا وتركيا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين والكويت والسعودية واليمن وكل دول الخليج. أما ”آسيا الصغرى“ أو ”الأناضول“ فتشير إلى تركيا الحالية. وتشير ”أرمنية الغربية“ إلى الجزء الشرقي من تركيا الحالية، بينما تشير ”أرمنية الشرقية“ إلى أرمنية القوقاز بالإضافة إلى أجزاء من أذربيجان وجورجيا. ويشير مصطلح ”القوقاز“ إلى الجمهوريات الحالية لأرمنية وجورجيا وأذربيجان. ويشير تعبير ”بلاد ما بين النهرين“ إلى سوريا الحالية. ويشير تعبير ”البلقان“ إلى الدول الحالية: اليونان وألبانيا وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا. أما كلمة ”الشام“ فهي تضم أساساً لبنان وأجزاء من الأراضي السورية لسوريا. ومصطلح ”أذربيجان“، فيما يختص بالفترة قبل القرن العشرين، فهو يشير إلى أذربيجان الفارسية، أو إلى مناطق في شمال غرب إيران جنوب نهر آراكس. أما مصطلح ”فارس“، فسوف يستبدل باسم إيران في الجزء الثاني من الكتاب.

الجزء الأول

من الاستقلال إلى الحكم الأجنبي
(العصور القديمة حتى 1500 م.)



مقدمة الجزء الأول

عبر تاريخهم الذي يصل إلى ثلاثة آلاف عام، نادرًا ما قام الأرمن بدور المعتدي؛ وبدلاً من ذلك، برعوا في الزراعة، والفنون والحرف والتجارة. شيدَّ الأرمن صروحاً هندسية فريدة، ونحتوا تماثيل بديعة، وكتبوا مخطوطات مستنيرة، وأدباً، وقدموا عدداً من الأطروحات الفلسفية والقانونية المهمة. وبالإضافة إلى ذلك، هناك عدد مهم من الأعمال الفلسفية والعلمية التي تنتمي لثقافات أخرى واندثرت، ولم يبق منها إلا ترجمتها إلى اللغة الأرمنية التي منحها الحياة. فضلاً عن ذلك، أسهم الأرمن، بفضل موقعهم الاستراتيجي في التجارة الدولية، في التطور الثقافي والعلمي للشرق والغرب على السواء. لكن تاريخي الجامعات وحتى الأساتذة لا يعرفون عن الأرمن أو عن تاريخهم إلا القليل جداً. إذ أن المؤرخين يركزون في أبحاثهم -عادة- على سجل المعتدين الذين سيطروا على الأمم الأخرى. ولا تحتوي نصوص تاريخ العالم المستخدمة في الجامعات إلا إشارة أو اثنتين إلى الأرمن. ومن ثم، رغم إنجازاتهم، ظل الأرمن يحتلون حيزاً أقل في نصوص التاريخ العام مما يحتله المغول أو غيرهم من مدمري الحضارات.

ومن المؤكد أن التاريخ الأرمني تاريخ يصعب جمعه. فالمصادر المكتوبة قبل اختراع الأبجدية الأرمنية في القرن الخامس الميلادي تتطلب معرفة باللغات الآرامية والإغريقية والفارسية الوسيطة والسريانية. أما النصوص اللاحقة على هذا التاريخ فتتطلب معرفة باللغات العربية واللاتينية والجورجية والتركية والفارسية الحديثة والمغولية والروسية والفرنسية والألمانية، بالإضافة إلى الأرمنية الكلاسيكية والحديثة. كما أن ما تعرضت له أرمينية من الغزو المتكرر والزلازل الكثيرة قد تسبب، دون شك، في تدمير أدلة تاريخية بالغة القيمة. ويضاف إلى ذلك أن تقسيم أرمينية التاريخية بين الدول المجاورة لها جعل الأبحاث الأركيولوجية والأرشيفية مهمة حساسة، وصعبة في الغالب. هذا فضلاً عن أن تطبيق الأساليب البحثية الحديثة في الأبحاث التاريخية لدراسة التاريخ الأرمني لم يحدث إلا مؤخراً.

تعد أرمنية واحدة من الأمم الصغيرة القليلة التي استطاعت أن تعيش رغم الاعتداءات المتكررة والتدمير والظلم والاضطهاد. وقد وُصف الأرمن عبر التاريخ بأنهم قادرون على التكيف والمرونة، كما أنهم يتميزون بالإقدام والصمود. فكيف استطاعوا أن يستمروا في الحياة بينما اختفت أمم أكبر وأكثر قوة؟ وفي نفس الوقت، كيف استطاعوا أن يقدموا مساهمات متميزة إلى حضارات العالم؟ إنه التاريخ المدهش للشعب الأرمني.

المرتفعات ومفارق الطرق أرض أرمينية

أرمينية هضبة تحف بها الجبال، ويتراوح ارتفاعها من 3000 إلى 7000 قدم، تقريباً، شوق مستوى سطح البحر. وتمتد إلى هضبة الأناضول في الغرب، والهضبة الإيرانية في الجنوب الغربي، وسهول ما وراء القوقاز في الشمال، وجبال قره داغ وسهل الموغان في الجنوب والجنوب الشرقي. وتمتد أراضي أرمينية المرتفعة بين خطي طول 38° و 48° شرقاً، وبين خطي عرض 37° و 41° شمالاً. وتبلغ مساحتها 120 ألف ميل مربع. وبمصطلحات الحاضر، تشمل أرمينية التاريخية معظم أراضي شرق تركيا، والجزء الشمالي الشرقي من إيران، وأجزاء من جمهوريتي أذربيجان وجورجيا، بالإضافة إلى منطقة الجمهورية الأرمينية الحالية.

وثمة عدد من الحدود الطبيعية تحيط بأرمينية. تنفصل الأراضي الأرمينية المرتفعة من الشرق عن الأراضي الواطئة المجاورة لبحر قزوين بنهري الكور (Kur (Kura وآراكس (Arax (Araxes. وتفصل جبال بنطس Pontus، والتي تتصل بسلسلة جبال القوقاز الأقل ارتفاعاً، أرمينية عن البحر الأسود وجورجيا عند الحدود الشمالية. وتقع سلسلة جبال طوروس، التي تصل بين جبال زاغروس العليا والهضبة الإيرانية، عند حدود أرمينية الجنوبية لتفصلها عن سوريا وكردستان وإيران. أما الحدود الغربية لأرمينية، فهي تقع بشكل عام بين نهر الفرات الغربي والامتداد الشمالي لجبال طوروس الشرقية. وقد أقام الأرمن أيضاً مجتمعات شرق نهر الكور، وصلت إلى بحر قزوين، كما أقاموا دولاً غرب نهر الفرات، وصلت إلى قيليقية⁽¹⁾ على البحر المتوسط.

مرت البنية الجيولوجية لأرمينية، منذ حوالي خمسين مليون عام، بمراحل متعددة:

(1) Cilicia. ذكرت باسم كليزيا (المعجم الكبير، ج 1، القاهرة، 1970، ص 224). وجاءت باسم قاليقلا (ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة عام 1955، بيروت، مجلد 4 ص 229) (المترجمة).

مما خلق جبلاً عظيمة، وقمماً بركانية مرتفعة، خادمة الآن، في كل مكان من الهضبة. وأعلى قمة جبلية هي قمة جبل أارات (16946 قدماً)، ومن القمم المرتفعة أيضاً، على سبيل المثال، جبل سيبان (14540 قدماً)، وجبل أراجاتس (13410 قدماً)، والقمة الصغرى لجبل أارات (12839 قدماً)، وجبل بينجيول (10770 قدماً)، وهو الجبل الذي ينبع منه نهر الفرات وآراكس. وهناك عدد من السلاسل الجبلية والأراضي المرتفعة داخل أرمينية، من ضمنها جبال زيتون وساسون وقره باغ وسيونيك وقاردنيس وأريجوس وسيقان وجيغام وبامباج وسلسلة جبال أرمينية. وتقسم هذه الجبال والمرتفعات الهضبة

إلى مناطق منفصلة، وهي ظاهرة كان لها أبعاد سياسية وتاريخية مهمة (انظر

1). وتتشكل أراضي المنطقة بشكل رئيسي من أنواع حجرية عديدة، مثل: الحجر

والبازلت والكوارتز وحجر السبج البركاني. وتحتوي الجبال أيضاً على العديد من المعادن

منها: النحاس والحديد والزنك والرصاص والفضة والذهب. وهناك أيضاً مناجم

كبيرة، وكذلك مناجم للبوراكس وحجر التوف البركاني الذي يستخدم للبناء.

وتمثل الجبال الكثيرة مصدرًا للعديد من الأنهار غير الصالحة للملاحة، والتي

صنعت العديد من الوديان الضيقة العميقة والوهاد ومساقط المياه. وأطول هذه الأنهار

هو نهر آراكس، والذي ينبع من جبال غرب أرمينية، وبعد أن يلتحم بنهر كور، يصب في

بحر قزوين. يجري نهر آراكس في سهول أارات ويخصبها. وفي هذه السهول تقع أهم

المدن الأرمينية مثل أرمافير وبقانداسات وأرتاشات ويريقان ودفين وآني وناخيتشيقان

وقاغارشابات. والنهر التالي في الأهمية هو نهر الفرات، والذي ينقسم إلى فرعين، شرقي

وغربي، ويجريان كلاهما غرباً، ثم يستديران إلى الجنوب نحو بلاد ما بين النهرين. وكان

نهر الفرات هو الحدود الجنوبية القديمة التي تقسم ما أصبح أرمينية الكبرى وأرمينية

الصغرى. أما نهر الكور ودجلة وروافدهما، فيجريان مسافة قصيرة داخل أرمينية.

وهناك نهران آخران، هما أخوريان، وهو رافد لنهر آراكس، ونهر هرازدان، وينبع من

بحيرة سيقان، ليحمل المياه إلى منطقة جافة وصخرية محرومة من الغابات. وهناك أنهار

صغيرة في الغرب والشمال تصب إما في نهر كور أو بحيرة سيقان.

وهناك عدد من البحيرات تقع في أراضي أرمينية، وأهم هذه البحيرات وأكبرها

بحيرة فان، والتي تقع حالياً في تركيا. وتكتظ مياه بحيرة فان بمادة البوراكس؛ مما يجعلها

غير صالحة للشرب. أما بحيرة سيفان، وهي أعلى البحيرات في موقعها . حيث تقع على ارتفاع 6300 قدم عن سطح البحر. فهي تقع داخل جمهورية أرمينية الحالية. وتقع بحيرة أورميا (Urmiyeh/Rezaiyeh) . حالياً في إيران، وهي أكثر البحيرات ضحالة وشديدة الملوحة. وهناك عدد من البحيرات الأصغر موجودة أيضاً في غرب أرمينية. (انظر خريطة 1).

تقع أرمينية في نطاق المنطقة المعتدلة، وتتمتع بمناخات متنوعة. ويعتبر الشتاء بشكل عام طويلاً ويمكن أن يكون قاسياً للغاية، بينما الصيف قصير وشديد الحرارة. وبعض التسهيلات تناسبها الزراعة أكثر بسبب انخفاضها، ولذا كانت تضم مراكز سكنية عبر التمرين. وقد ساعد التنوع المناخي للمنطقة المعتدلة على وجود تنوع كبير في المجموعات النباتية والحيوانية المنتشرة في غرب آسيا وما وراء القوقاز.

والمناخ في أرمينية جاف بشكل عام؛ مما جعل الري الصناعي ضرورة على مر التاريخ. والواقع أن التربة، وهي بركانية، شديدة الخصوبة، وإن توافرت لها مياه كافية تكون قادرة على إنتاج محاصيل مكثفة. وتغلب الزراعة على المناطق الأقل ارتفاعاً، بينما ينتشر رعي الأغنام والماعز في المناطق المرتفعة.

ورغم أن الأرمن معروفون كحرفيين وتجار، فإن أغلبيتهم كانوا يعملون بالزراعة في المقام الأول حتى الأزمنة الحديثة. وعلاوة على زراعة محاصيل الحبوب، يزرع الأرمن الخضر، وأنواع مختلفة من البذور الزيتية، والفاكهة بشكل خاص. وتشتهر الفاكهة الأرمينية منذ العصور القديمة، وقد أشار الرومان إلى الرمان والمشمش . وهما أشهر الفاكهة الأرمينية. وأطلقوا على الأخير اسم "البرقوق الأرميني" .

ولأن هضبة أرمينية تقع في منطقة الفلج الأناضولي، فهي معرضة إلى هزات أرضية زلزالية. وقد سجلت زلازل عنيفة هناك منذ القرن التاسع، وبعض هذه الزلازل دمر مدناً بأكملها. وأحدث هذه الزلازل، في 7 ديسمبر 1988، قتل ما يقرب من 25 ألف نسمة، ودمر العديد من المجتمعات السكنية.

لقد وجهت الجغرافيا تاريخ معظم الأمم، ولا يصدق هذا القول بحذايفه إلا على أرمينية. إن موقع أرمينية الفريد كمعبر بين آسيا وأوروبا كان جذاباً باستمرار للغزاة ونتج عنه فترات طويلة من السيطرة الأجنبية. الآشوريون، والإسكثيون، والإغريق، والرومان،

والفرس، والعرب، والأكراد، والأتراك، والمغول، والتركمان، والروس.. كل هذه الأمم تركت بصماتها على الأرض والشعب. ولكن موقع أرمينية الجغرافي وفر لأهلها أيضاً الرخاء المادي والازدهار الثقافي. والواقع أن أرمينية قامت بدور الطريق الرئيسي للتجار منذ العصور القديمة. وفي المقابل، أصبح الأرمن قناة الاتصال التي مكّنت أوروبا أن تتعلم من آسيا (أثناء العصور القديمة والوسطى)، كما ساعدت آسيا على أن تقبّس التكنولوجيا عن أوروبا (في العصور الحديثة).

وقد اختفت كثير من الدول الصغيرة والكبيرة المجاورة لأرمينية من التاريخ، لكن أرمينية تمكنت هي وشعبها من البقاء. ومن المفارقات أن الأرض نفسها التي جذبت الغزاة الأجانب وشجعت على ظهور النبلاء ذوي الحكم الذاتي، كانت أيضاً مسئولة جزئياً عن الحفاظ على هويتها. فرغم الجبال العديدة التي تقسم أرمينية إلى وديان - والتي منحت من إقامة دولة متحدة تحت حكم مركزي قوي خلال فترات عديدة من تاريخها - هذه الحقيقة نفسها كانت نعمة مستترة. فعلى خلاف الدول شديدة المركزية، مثل الدول الآشورية، والتي اختفت ثقافتها بالكامل مع انهيار عاصمتها، فإن افتقار أرمينية للوحدة السياسية ساعد على بقاء ثقافتها حتى عندما كان ملوكها يعزلون أو تتعرض عواصمها للتدمير.

آرا وسميراميس
أوراتو، أول مملكة في أرمينية
(تقريباً، 870-585 ق.م)

كانت منطقة أرمينية التاريخية، ومعها بلاد ما بين النهرين، واحدة من أولى المناطق التي قامت بالزراعة البدائية في العالم . وهي مرحلة من مراحل التاريخ حاول فيها الإنسان أن يستبدل الصيد وجمع الثمار التي كانت سائدة في العصر الحجري القديم والأوسط بإنتاج الطعام في العصر الحجري الحديث. وسرعان ما بدأ استخدام النحاس في المنطقة، والذي ظل استخدامه على مدى الألفيتين التاليتين محصوراً في مناطق الأناضول وما وراء القوقاز وما بين النهرين ومصر. وفي 3000 ق.م تمكن أبناء ما بين النهرين من عمل البرونز، وهو سبيكة من النحاس والقصدير، وسرعان ما انتشر بين أبناء القوقاز أيضاً. وكانت إقامة المجتمعات السكنية المستقرة والزراعة واستخدام الأدوات المعدنية عوامل جعلت منطقة ما وراء القوقاز وآسيا الصغرى ليست فقط مهاداً للحضارة، ولكن أيضاً أعطتها الثروة وجعلتها جذابة لمختلف الغزاة.

بين عامي 3000 و1500 ق.م، تعلمت القبائل الهندوأوروبية، التي تركزت حول مناطق الأرال وبحر قزوين والبحر الأسود، فن صناعة الحديد وبدأت تتحرك إلى المناطق الأقدم والأغنى في العالم القديم. دخلت القبائل الهندوأوروبية الشرقية القادمة من آسيا، والهندوأوروبية الغربية القادمة من أوروبا إلى منطقة ما وراء القوقاز ثم إلى آسيا الصغرى. وربما واجهت القبائل الشرقية جماعات من أهالي القوقاز، الأصليين، مثل: الخوريين Hurrians والكاسيين Kassites والميتانيين Mitanni، وأدخلت كلمات جديدة وآلهة جديدة وخلق ذلك ثقافة هجينة. وأسست القبائل الغربية مملكة الحيثيين في آسيا الصغرى، والتي تطورت حتى أصبحت في 1300 ق.م. إمبراطورية تمتد إلى نهر الفرات. وفي الوقت نفسه، كانت القبائل الآشورية السامية قد أسست مملكة في الجنوب، وبالتدريج بدأت تختلط أو تحل محل الثقافات السامية الأقدم لما بين النهرين. كان أهل المنطقة من

القوقازيين والأناضوليين قد شكلوا تحالفات مع القبائل الهندوأوروبية الشرقية، وأسسوا اتحادات جديدة، أقامت مع الحيثيين والآشوريين علاقات تجارية، أو دخلت معها في حروب. وتذكر السجلات الموجودة منذ فترة الملك الحيثي سوبيلولوما (تقريباً 1388-1347 ق.م)، والحاكمين الآشوريين المشهورين شالمانصر الأول (تقريباً 1275-1246 ق.م)، وتغلاط بيلسر الأول Tiglath-Pileser (تقريباً 1115-1077 ق.م)، تذكر هذه السجلات منطقة وشعب هاياسا Hayasa، والأرمني شوبريا Arme-Shupria، والنابيري Nairi، والأوراراتي (أورارتو) Uruatri (Urartu)، واتحادات أخرى (انظر خريطة 2). وفي 1200 ق.م، انهارت إمبراطورية الحيثيين ومن المحتمل أن يكون الفريجيون قد حلوا محلها. بينما دخلت المملكة الآشورية في فترة من السبات.

أصول الأورارتو

ساعد غياب دولة مسيطرة في غرب آسيا، بعد انهيار إمبراطورية الحيثيين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، على أن يتمكن الأورارتيون، وهم أناس يحتمل أن يكونوا من سلالة الخوريين، من دمج عدد من القبائل المحلية والقبائل الهندوأوروبية الشرقية الموجودة في هضبة أرمنية وتكوين اتحاد جديد. ومن الواضح أن فجر عصر الحديد، حوالي 1100 ق.م، في المنطقة، والتهديد الذي مثلته الإمبراطورية الآشورية المجاورة، كانا من الأسباب التي ساعدت على توحيد أجزاء من الأناضول وما وراء القوقاز تحت قيادة أورارتية. وكان الأورارتيون يسمون أنفسهم بيائنا Biaina ويدعون أرضهم بيانيلي Bianili. وبحلول القرن التاسع ق.م، كانوا قد شكلوا أول مملكة على الأرض، التي أصبحت فيما بعد أرمنية.

ويشير بعض المؤرخين إلى عصر مملكة أورارتو (تقريباً: 870-585 ق.م)، بمملكة فان. وقد شهد عصرها عدداً من التطورات الجديدة في العالم كله؛ إذ خرجت بلاد الإغريق من عصورها المظلمة وظهرت أثينا وإسبرطة. وألفت الإلياذة والأوديسا، وظهر الطراز الدوري Doric في المعمار. وفي بلاد الفرس (إيران) بدأ زرادشت يلقي تعاليمه. وفقدت مصر مجدها القديم وسيطر عليها الليبيون والنوبيون والآشوريون وأخيراً الكوش الذين كان مقرهم أثيوبيا الحالية. وفي الهند، كتبت الأوبانيشاد، وظهرت الديانة

الهندوسية، وتمت صياغة نظام التميز الطبقي. وتطور الإقطاع في الصين، بينما ازدهرت حضارة الأولميك في المكسيك.

أورارتو كمنافس للأشوريين

اتفق قيام مملكة أورارتو أيضاً مع عودة النهضة إلى المملكة الآشورية في القرن التاسع ق.م. والواقع أن كثيراً من البيانات الخاصة بأورارتو تأتي من هذه الدولة المجاورة والمعادية. كانت أول إشارة إلى مملكة أورارتو على يدَي الملك الآشوري آشور ناصر بعل (تقريباً 884-859 ق.م)، والذي قام بحملة عليها. وطوال القرون الثلاثة التالية، كانت الحروب قائمة بين الآشوريين وأورارتو. وكان الآشوريون دائماً ينتصرون انتصاراً محدوداً، ولم يتمكنوا أبداً من إخضاع بلادهم. وكانت مملكة أورارتو هي السبب في إيقاف توسع الآشوريين إلى الأناضول، وشمال فارس، وما وراء القوقاز. ويمكن رؤية تاريخ مملكة أورارتو كجزء من الصراع بين الهندوأوروبيين السجده والساميين القدامى. وفي بعض المناطق، اتحد العرقان لتشكيل دول جديدة؛ وفي مناطق أخرى أدت الخلافات الثقافية واللغوية والدينية إلى صراعات طويلة. وباستثناء الصين، شهد العالم الأوراسي كله فترة من التحول الهائل. وفي النهاية، سيطر الهندو-أوروبيون، وخلقوا الحضارات القديمة في بلاد الإغريق وفارس والهند.

كان أول ملك لأورارتو، والذي ذكره الحاكم الآشوري شالمانصر الثالث Shalmaneser III (تقريباً 860-825 ق.م)، هو آرامو Aramu، والذي حكم في النصف الأول من القرن التاسع ق.م، والذي وسع من نفوذه حتى ميديا. وبينما ذكر فضل آرامو لتنظيمه مملكة متحدة، فقد ذكر ساردوري الأول Sarduri I (تقريباً 845-825 ق.م) لتأسيسه أسرة حاكمة سوف تظل حتى القرن السادس ق.م. وكان أول أعماله هو بناء العاصمة، مدينة توشبا (وهي مدينة فان الحالية)، على الضفة الشرقية لبحيرة فان. ووصلت السلطة الأورارتية إلى قمته أثناء حكم إيشبوني Ishpuini (تقريباً 825-810 ق.م)، ومينو Minua (تقريباً 810-785 ق.م)، وأرجيشتي الأول Argishti (تقريباً 785-753 ق.م)، وابنه ساردوري الثاني (تقريباً 753-735 ق.م). وقد ساعد انحدار المملكة الآشورية لفترة قصيرة في أواخر القرن التاسع ق.م على هيمنة أورارتو على المنطقة.

وبحلول القرن الثامن ق.م، كانت مملكة أورارتو قد امتدت من الفرات غرباً، إلى

أراضي بحر قزوين شرقاً، وضاف بحيرة أورميا في الجنوب، وجبال القوقاز في الشمال؛ أي المنطقة التي سوف يطلق عليها فيما بعد أرمينية الكبرى (انظر الخريطة 3). ويذكر الآشوريون خلال غزواتهم العديدة مدناً صغيرة وقلعاً وبعدياً من المراكز السكنية الأورارتية. وقد حفر منوا قنوات ري كبيرة، بعضها لا تزال تعمل حتى اليوم. كما زرعت بساتين الكروم والفواكه ومختلف الحبوب، وأصبحت أورارتو منطقة منتجة للغذاء.

وكان توافر النحاس والحديد والمعرفة المبكرة بعلم الميتالورجيا⁽²⁾ مما ساعد الحرفيين على إنتاج الأسلحة البرونزية والحديدية وغيرها من الأدوات للحرب والتجارة. وتزايد عدد السكان نتيجة كل هذا النشاط. وفي ذلك الوقت، غزا الأورارتيون

موساسير Musasir، غرب بحيرة أورميا Urmia، وتحولت إلى مركز ديني للملكة. واستطاع الأورارتيون هزيمة الآشوريين في عدد من الحروب، واستولوا على

والأسرى، ومدوا سيطرتهم على شمال سوريا. وبنوا عدداً من القلاع لحماية مملكتهم. غزو الآشوريين والبدو. وأسس أرجيشتي الأول أهم حصنين: في 782 ق.م. على سهل

أرارات، بنى قلعة إربوني (أرين برد). والتي تعتبر "سلف" مدينة يريفان الحالية؛ مما يجعلها من أقدم المراكز الحضرية التي استمرت معمورة في البلاد. وفي 775 ق.م، بنى

حصن أرجيشتهينيلي (أرماقير) غرب يريفان، على ضفة نهر آراكس (انظر الخريطة 3). ولم تتوقف نتائج حكم تغلاط بيليسر الثالث (تقريباً 745-727 ق.م) وسارجون الثاني

(تقريباً 722-705 ق.م) على إيقاف تدهور الدولة الآشورية، بل إنهما أيضاً حولها إلى إمبراطورية جديدة، تمكنت من تخلل الكثير من أراضي أورارتو، فدمروا ونهبوا مدنها،

وأخذوا الأسرى. وأقام سارجون شبكة كبيرة من الجواسيس لإبلاغه بأخبار جيرانه الشماليين. وبعض هذه التقارير عاشت، مما مكن المؤرخين من تجميع بعض الأحداث

التي وقعت في ذلك العهد. ويصرح المؤرخون بأن حكام أورارتو كان عليهم أن يحاربوا الآشوريين والقمريين Cimmericians، الذين كانوا يغزونهم من الشمال. وفي 714 ق.م،

تمكن الغزاة من الاتجاهين من غزو وتدمير مناطق من أورارتو، وأجبروا الملك روسا الأول Rusa I (تقريباً 735-714 ق.م) على الانتحار. ومع ذلك، كانت أورارتو بمثابة منطقة

(2) الميتالورجيا metallurgy - علم استخراج المعادن وسبكها.

حاجزة أمام غزو القمريين، وعندما ضعفت، استطاع القمريون أن يتدفقوا إلى الأناضول وسوريا، وهاجموا بلاد آشور.

تدهور مملكة أورارتو

شهد القرن السابع ق.م الصعود التدريجي لدولة بابلية جديدة، وصحوة محدودة في مصر، وكذلك ظهور مراكز القوة الهندوأوروبية في بلاد فارس. وكانت كل من أورارتو والدولة الآشورية في حالة تدهور، فانفتحتا على السلام، وحاولتا معاً الوقوف أمام القمريين -الاسكيثيين، الغزاة الجدد من البدو، الذين تخللوا المنطقة قادمين عبر ممرات في جبال هونان. وكان ملكاً أورارتو. وهما أرجيشتي الثاني (حوالي 714-685 ق.م)، وروسا الثاني (حوالي 685-645 ق.م). يدفعان الجزية للآشوريين وركزا على صدّ البدو.

وكان آخر ملوك آشور الأقوياء هو آشور بانيبال الثاني (حوالي 668-624 ق.م)، والذي حاول استعادة عظمة آشور بتدمير مملكة عيلام Elam في غرب فارس، وهو الفعل الذي ساعد على نهضة ميديا Media، البلد المجاور لعيلام. وفي نفس الوقت، حدثت صحوة محدودة في أورارتو، وبنى أرجيشتي وروسا قلعة عظيمة هي قلعة تيشيبايني (كرمير بلور Karmir Blur) Teishebaini على مرتفع في شمال إربوني Erebuni لوضع الخزانة الملكية فيها، ولتقوم بدور حصن آمن من الإسكيثيين.

ويلتف تاريخ السنوات الأخيرة من مملكة أورارتو بالغموض؛ إذ ظهر عدد من القادة وسط الصراعات الداخلية والخارجية. وبين هؤلاء إريمينا، والذي ربما ينتمي إلى الجماعة الأرمنية للاتحاد الأورارتي (انظر الفصل 3)، ومن المحتمل أنه أقام تحالفات مع القبائل المجاورة. قاد إريمينا حركة تمرد ضد الهيمنة الأورارتية، وهو الفعل الذي لا بد أنه، مجتمعاً مع الهجمات الإسكيثية المتكررة، أدى إلى إضعاف الإمبراطورية بدرجة كبيرة. وفي الوقت نفسه، كان تدهور كل من أورارتو والدولة الآشورية قد مكّن الميديين Medes من الظهور كقوة جديدة. وحوالي 670 ق.م بنى الميديون عاصمتهم في إكباتانا Ecbatana، واحتلوا أجزاء من فارس. وقاموا هم والبابليون بتوحيد قواتهم لإنهاء الهيمنة الآشورية على بلاد ما بين النهرين. وفي 612 ق.م نهبوا وخرّبوا مدينة نينوي، عاصمة الدولة الآشورية، وفي 610 ق.م مُحيت الدولة الآشورية من الوجود.

وقسم الميديون والبابليون الإمبراطورية الآشورية والدول التابعة لها. وشكّل البابليون

المملكة البابلية الجديدة بأخذ الأراضي الواقعة غرب نهر دجلة حتى البحر المتوسط. بينما ضم الميديون المناطق الواقعة شرق نهر دجلة وغزوا أورارتو. ويبدو أنهم إما أخضعوا أورارتو، أو أنهم عقدوا معاهدة يأخذون الجزية بمقتضاها من القبيلة المسيطرة على المنطقة، والتي من المحتمل أنها كانت القبيلة الأرمنية في ذلك الوقت (انظر الفصل 3). وعلى أية حال، كان الاتحاد الأورارتي، في وقت ما بين 605 و585 ق.م، قد أصبح خاضعا للإمبراطورية الميديّة.

الثقافة الأورارتية

أثناء الدولة الأورارتية التي امتدت على مدى ثلاثة قرون، بنى الأورارتيون والقصور والمدن والقلاع، وتم الكشف عن آثار بعض هذه المنشآت في العصر الحديدي. وبالإضافة إلى ذلك، صنعوا أدوات وأسلحة وحلّي وآنية فخارية، والتي ظلت يستخدمها وهي معروضة اليوم في متاحف أرمنية، وفي متحف هرميتاج بسان بطرسبرج، روسيا. وضمت معابد أورارتو آلهة محلية وآلهة هندوأوروبية، وآلهة آشورية. وقد اتخذت الإلهة نانا البابلية وأصبح اسمها "نانيه"، إلهة للحكمة. وكان خالدى⁽³⁾ هو الإله الأكبر وإله الحرب؛ وتيشبايني إله الرعد؛ وكان شيفيني أو أرديني يمثل إله الشمس. وكانت الجياد مهمة في الاقتصاد وكذلك في النشاط العسكري، ووضعت صورة الجواد على الدروع الأورارتية. وقد وجدت تأثيرات آشورية وإتروسكانية Etruscan مبكرة في الفن الأورارتي، بما يشهد على المدى الذي وصلت إليه التجارة في العالم القديم. وكانت المصنوعات الأورارتية من البرونز والحديد، مثل المراجل والثريات والدروع المزخرفة، لها قيمتها الكبيرة، وقد عثر عليها في كل مكان ما وراء القوقاز وبلاد الإغريق. ورغم أنها كانت في البداية منقولة من الآشوريين والحيثيين، فإن طرازًا أورارتيًا متميزًا سرعان ما ظهر، كما ظهرت توليفة من عديد من الأشكال الفنية الأخرى، والتي يمكن رؤيتها في زخارف جدران القصر الموجود في مجمع إيريوني في يريفان. وحلت الكتابات الأورارتية بالخط المسماري القاني محل الخط المسماري الآشوري، والذي كان هو نفسه من قبل قد حل محل الحروف التصويرية الأورارتية. كان لهذه الكتابة وتدية الشكل أكثر من خمسمائة شكل، كثير منها لها معانٍ

(3) تذكر بعض المراجع تسمية الأورارتيين بالخالديين نسبة إلى هذا الإله (المترجمة).

متعددة. وأصبحت أورارتو ثرية بسبب التجارة والحرب، فالسجلات تصف الثروات العظيمة، التي أخذها الإسكِيثيون والآشوريون في غزواتهم على أورارتو. وعلى خلاف آشور، التي كانت قليلة التسامح نسبياً وتعتمد فقط على قوتها العسكرية، أخذت أورارتو من الثقافات الأخرى، وانهمكت في التجارة والعلاقات السياسية الأنديلوماسية. كانت آشور تفخر بإدارتها المركزية، لكن ما أن انهار هذا المركز، حتى انكسرت الإمبراطورية الآشورية. أما الاتحاد الأورارتي، والذي كان دولة غير مركزية إلى حد بعيد، وتتصف بالتسامح، فقد استطاع أن يبقى. وتبنت القيادة الجديدة، التي تألفت من الأرمن، تلك الخصائص.

أكثر من ألف عام، عندما بدأ المؤرخون الأرمن تسجيل تاريخ أمتهم، لم يكونوا بوجود أورارتو. ولكن المؤرخ الأرميني العظيم، موقسيس خوريناتسي Movses Khorenatsi⁽⁴⁾، في محاولته الاستفادة من التقاليد الشفاهية والقصص البطولية عن الأبطال والأندال، ومن بينها هايك ويعل، صور نضال الأرمن ضد الآشوريين. كما حول أرامو، أول حاكم لأورارتو، إلى ملك أسطوري أرميني، هو آرا العادل Ara the Fair. وجسد الآشوريين بالملكة الشريرة، الجميلة المغوية، سميراميس (شامور - أمات، تقريباً 810-805 ق.م)، والتي كانت تشتهي أرامو وتسببت في موته. ورغم أن أرامو وسميراميس لم يكونا في عصر واحد، فقد تم استخدامهما في قصة موقسيس خوريناتسي كرمز للصراع بين أمتيهما. ومن المفارقة، أن الشطايا المسمارية التي تسجل عظمة مملكة أورارتو ظلت صامته أمام أسلافهم التاريخيين، الذين لم يعد بإمكانهم فهمها أو تفسير معانيها. وقد اختفت أورارتو، مثلها في ذلك مثل معظم الحضارات القديمة، تحت طبقات من الحضارات القديمة والوسيلة، حتى أعيد اكتشافها في القرنين التاسع عشر والعشرين.

(4) اشتهر هذا المؤرخ في مصر باسم "موسى الخوريني"، وقد جاء إلى مصر وهو في العشرينات من عمره حيث تعلم الخطابة والتاريخ والقواعد اللغوية للغة الإغريقية. وعاد إلى أرمينية عام 440 تقريباً. بعد أن أتم دراسته في جامعة الإسكندرية. وعمل على كتابه الأشهر تاريخ الأرمن بتكليف من الأمير إسحق البكراتي، الذي استشهد في إحدى المعارك ضد الفرس في عام 482 (دائرة المعارف الأرمينية السوفيتية، مجلد 8، ص40).

من سفينة نوح إلى الأبحاث الأثرية أصول الشعب الأرميني

كما هو الحال مع كثير من الشعوب القديمة، تضم أصول الشعب الأرميني عناصر من الأسطورة ومن مجادلات الباحثين التي لم تصل إلى حل. ويمكن جمع التفسيرات في ثلاث روايات: اليونانية والأرمنية والحديثة.

التفسيرات اليونانية

رغم أن المصادر الإغريقية تقول أن أرمينية سميت باسم، أو أسست على يد أرمينوس التيسالي Armenus Thessalian. أحد العمالقة من رفاق جيسون، فإن المؤرخين الإغريق، والذين كتبوا كلهم بعد ظهور الأرمين بفترة طويلة، ولكن قبل أي من كتابات المؤرخين الأرمين بفترة طويلة أيضاً، قد تركوا عدداً من التفسيرات التاريخية فيما يختص بأصول الشعب الأرميني. وأكثر الروايات انتشاراً هما روايتا هيرودوت وسترابو⁽⁵⁾. ووفقاً لرواية هيرودوت، مؤرخ القرن الخامس ق.م، كان الأرمين في الأصل يعيشون في تراقيا Thrace. ومن هناك عبروا إلى فريجيا Phrygia في آسيا الصغرى. واستقروا في البداية في فريجيا، ثم انتقلوا تدريجياً غرب نهر الفرات إلى المنطقة، التي أصبحت أرمينية فيما بعد. وكانت لغتهم تشبه لغة الفريجيين، بينما كانت أسماؤهم وملابسهم أشبه بأسماء وملابس الميديين.

وطبقاً للمؤرخ والجغرافي سترابو، الذي كتب في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، جاء الأرمين من اتجاهين: جماعة جاءت من الغرب، أو من فريجيا، والجماعة الأخرى جاءت من الجنوب، أو منطقة زاغروس Zagros. وبتعبير آخر، وفقاً للإغريق القدماء، لم يكن الأرمين من سكان المنطقة الأصليين. ويبدو أنهم جاءوا في وقت ما بين هجرة الفريجيين إلى آسيا الصغرى، بعد اضمحلال إمبراطورية الحيثيين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وغزو القمرين لأورارتو في القرن الثامن ق.م. وقد أتاح انهيار أورارتو للأرمين أن

(5) Strabo (م 23 - 64 ق.م)، جغرافي ومؤرخ يوناني (المترجمة).

يوطدوا أنفسهم بمثابة سكان المنطقة الأساسيين. وقد مر زينوفون⁽⁶⁾ بأرمينية عام 401 ق.م، وسجل أن سكان المنطقة المحليين كلهم في ذلك الوقت كانوا قد ذابوا في الأرمن.

التفسيرات الأرمينية التقليدية

وفقاً للروايات الأرمينية المبكرة، والتي كتبت في وقت ما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين. فإن الشعب الأرميني من نسل يافث، أحد أبناء نوح. بعد أن استقرت الفلك على جبل أزارات، استقرت عائلة نوح في البداية في أرمينية، وبعد عدة أجيال تحركوا جنوباً إلى أرض بابل. ولكن قائد الأرمن. هايك Haik، أحد أحفاد يافث، شعر بالحزن بسبب الطغيان والشر في بابل، فثار وتمرد وقرر العودة إلى أرض الفلك. ولكن بيل Bel الشري، قائد البابليين، تعقب هايك. وفي الحرب التي أعقبت ذلك، انتصر الخير على الشر عندما قتل هايك بيل، وأسس الأمة الأرمينية. وأصبح هايك أول حاكم أرميني واستمر أحفاده (هاي Hai في اللغة الأرمينية تعني "أرميني")، يحكمون الأرمن حتى أقام الملك باروير Paruir، حفيد هايك، مملكة أرمينية، وكان عليه أن يواجه الخصم الآشوري الجبار. هذه الأسطورة، والتي ربما ترجع إلى زمن الأساطير القديمة لبلاد ما بين النهرين، ومن ضمنها أسطورة جلجامش، لا تخلط فقط بين الحقائق التاريخية والقصص الخيالية. ولكنها أيضاً تنجح في وضع الأرمن في مكان بارز داخل التراث الإنجيلي. فنوح، على أي حال، هو "آدم الثاني"، وأحفاده اختبروا وبوركوا من قبل الرب ليعيدوا تعمير الأرض. ومن ثم فإن الأرمن، مثلهم في ذلك مثل اليهود، كان لهم دعوة خاصة لمحاربة البابليين الأشرار، وللحياة وفقاً لشرائع الرب. ولا بد أن الفيضانات الدورية التي كانت تحدث في بلاد ما بين النهرين قد تركت ذكريات حية في ذاكرة من عاشوا في غرب آسيا. كما لا بد أن الغزوات العديدة على المنطقة، خاصة غزوات آشور وحروبها مع الحكام قبيل الأرمن، قد تركت آثارها على فولكلور سكان المنطقة من القوقازيين والهندأوروبيين. ولهذا فليس من المدهش أنه بين عامي 440 و 840 ميلادية، قام المؤرخون الأرمن الأوائل، مثل مؤسس خوريناتسي، والذين لم يكن لديهم المعطيات التاريخية والأركيولوجية التي نملكها اليوم، قاموا بتسجيل التراث الشفاهي مستبدلين آشور ببابل، وحكام أورارتو بمملكة هايك في

(6) Zenophon (431-355 ق.م). مؤرخ وقائد عسكري يوناني. قاتل في خدمة الفرس في كردستان وأرمينية (المترجمة).

أرمنية. كما أن هذا المؤرخ استخدم أيضاً أساطير تجران Tigran وأزدهاك Azhdahak وأرتاشيز Artashes وساتنيك Satenik وأردافارد Ardavazd، لصياغة تاريخه عن الأرمن. ولم يكن الهدف هو الدقة والصحة، ولكن على الأصح، تأمين مكان للأرمن في تاريخ المسيحية، تلك الديانة التي كان الأرمن في هذا الوقت قد اعتنقوها بكل قلوبهم.

التفسيرات الأكاديمية الحديثة

كشفت الأبحاث الأركيولوجية الحديثة في القوقاز والأناضول عن روايات هلامية وغير مكتملة للأصول المحتملة للشعب الأرمني. حتى أعوام 1980، اتفق الباحثون، دون إجماع، على أن الأرمن كانوا جماعة هندأوروبية، والذين إما جاءوا إلى المنطقة مع الإيرانيين الأوائل من منطقة بحر آرال، أو أنهم جاءوا من البلقان مع الفريجيين بعد سقوط الحيثيين. ويؤكد بعض الباحثين أن كلمة "هاي" مشتقة من كلمة "هاي-يوس" Haiyos (التي تعني الحيثيين). ومن ثم، فإن الأرمن. أثناء هجرتهم مروراً بأراضي الحيثيين، اتخذوا اسم تلك الإمبراطورية. ويؤكد آخرون أن الأرمن الفريجيين عبروا إلى آسيا الصغرى، وأخذوا اسم موسخي Muskhi، وتركزوا في منطقة أرمني-شوبريا Arme-Shupria شرق نهر الفرات، حيث إن لغتهم لا تحتوي أية كلمات هندأوروبية. وقد استقروا في المنطقة حتى غير الغزاة القمريون والإسكيثيون من هيكل السلطة في المنطقة. وهنا استطاع الأرمن تعزيز سيطرتهم على أورارتو، وبمرور الوقت، ذاب فيهم معظم سكان المنطقة الأصليين ليشكلوا الأمة الأرمنية. ولهذا، فإن أرمنية، والأرمن، والاسم الإغريقي. الفارسي للأرمن، مشتق من اسم أرمني شوبريا.

وهناك أبحاث في الفترة الأخيرة تقدم احتمالاً آخر، وهو أن الأرمن ليسوا مهاجرين جاءوا إلى المنطقة، وإنما هم جزء من السكان الأصليين. ورغم أن هذه الفكرة قد اكتسبت بعض المصداقية في العقدين الأخيرين (نتيجة بعض المكتشفات الأركيولوجية الحديثة في أرمنية)، إلا أنه يظل هناك عدد من الأسئلة التي لا تجد إجابة: ماذا كانت اللغة التي تحدث بها الأرمن الأوائل؟ هل الأرمن أعضاء لجماعة ليست من أصل هندأوروبي، تحدث القوقازية. واكتسبت فيما بعد لهجة هندأوروبية؟ أو هل هم، كما يعتقد الكثيرون، كانوا إحدى الجماعات الأصلية في المنطقة، والتي كانت تتحدث الهندأوروبية؟

ويؤكد عدد من اللغويين أن الأرمن، هم والخوريين Hurrians والكاسيين Kassites وغيرهم، كانوا من الشعوب الأصلية للأناضول أو القوقاز الذين عاشوا في منطقة هاياسا Hayasa في شمال أرمينية حتى وصول الجماعات الهندوأوروبية. وقد اتخذ الأرمن بعض الكلمات من هؤلاء القادمين الهندأوروبيين. وهذا يفسر لماذا تعتبر اللغة الأرمينية فرعاً فريداً من شجرة اللغات الهندأوروبية، وربما يفسر أيضاً أصل كلمتي هاي وهاياستان Hayastan ("أرمينية" في اللغة الأرمينية). وللتدليل على ذلك، يشير أولئك الباحثون إلى اللاحقات اللغوية التي تنتمي إلى لغة الخوريين، وغياب التأنيث والتذكير وغير ذلك من التكوينات اللغوية. ويضيف الأركيولوجيون أن صورة الأرمن في عدد من آثار القرن السادس الفارسية تصور خصائص عرقية مشابهة لخصائص أهل القوقاز الآخرين.

وهناك باحثون آخرون يعتمدون أيضاً على الأدلة اللغوية، إذ يعتقدون أن اللغات الهندأوروبية ربما نشأت أصلاً في القوقاز وأن الأرمن، نتيجة للضغط الواقع عليهم من الإمبراطوريات الكبرى في المنطقة مثل الحيثيين والآشوريين، اندمجوا مع بعض القبائل المجاورة وتبنوا بعض الكلمات والأساطير السامية والكارثيلية Kartvelian (الجهورية). وفي النهاية شكلوا اتحاداً يسمى نايري Nairi، والتي أصبحت جزءاً من دولة أورارتو المتحدة. وأتاح تدهور وسقوط أورارتو للمكون الأرميني من السكان أن يحصلوا على السيادة، وفي القرن السادس ق.م، تمكنوا من تأسيس كيان منفصل، أطلق عليه الإغريق والفرس، وهما القوى الكبرى الجديدة في العالم القديم، اسم أرمينية.

وربما في يوم من الأيام تفسر دراسات لغوية وأركيولوجية أخرى الأصول الدقيقة للهندأوروبيين والشعب الأرميني. أما في الوقت الراهن، فإن المؤرخين الغربيين يستمرون في تأكيد أن الأرمن جاءوا من تراقيا وفريجيا، بينما يجادل الأكاديميون في أرمينية، خاصة بعد المكتشفات الأركيولوجية الأخيرة، التي تشير إلى أن المنطقة الغربية فيما وراء القوقاز ربما كانت لها أصول من جنس بشري أقدم، يجادلون لترجيح التفسير الجديد: أي ذلك الذي يقول أن الأرمن هم السكان الأصليون لأرمينية التاريخية.

**من مرزبانات (حكام) ولاية فارسية إلى ملوك
اليرقانديون، أول حكام أرمين مستقلون
(تقريباً، 585-189 ق.م)**

كانت القرون الأربعة التي تفصل بين نهاية مملكة أورارتو وبداية المملكة الأرمينية تحت حكم أسرة أرتاشيسيان (أرتاكسياد) (Artaxiads) (Artashesian dynasty)، هي سنوات التكوين ليس فقط بالنسبة للأرمن. ولكنها أيضاً كذلك بالنسبة لعدد من شعوب وثقافات ذلك الزمان. كثير مما نعرفه اليوم من ديانات ولغات وفنون وفلسفات وتشريعات نشأت أثناء تلك الفترة، والتي شهدت سيطرة الهندو-أوروبيين وازدهار العصر الكلاسيكي القديم في أوراسيا.

قامت في الشرق الأوسط، على أنقاض الإمبراطورية الميديّة، أول دولة فارسية أو إيرانية عظمى. والتي سيطرت طوال القرنين التاليين على كثير من بلدان المنطقة، بالإضافة إلى آسيا الوسطى ومصر. وفي أوروبا، شهدت بلاد الإغريق القديمة عصرها الذهبي ونشأة الدول المُدن، وكذلك أفولها، وفي النهاية غزوها على يد فيليب المقدوني Philip of Macedon. وغزا الإسكندر الأكبر قسماً كبيراً من العالم المتحضر، وهزم إمبراطورية فارس. وتعرفت آسيا وشمال إفريقيا على الثقافة الهيلينية عن طريقه. وأسست روما جمهوريتها، ونشرت سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطالية، وحاربت قرطاج، واستولت على بلاد الإغريق من خلفاء الإسكندر، وواجهت سيطرتهم في آسيا وإفريقيا. وقامت الإمبراطورية المورانية Mauryan Empire بتوحيد الهند، وانتشرت الديانات البوذية والجائنية⁽⁷⁾ والهندوسية في جنوب آسيا. وفي شرق آسيا، أثناء حكم أسرتي تشو وتشين (قن)، بدأت الصين تتوحد وراء السور العظيم، تحت التوجيه الفلسفي والاجتماعي للكونفوشية والطاوية، والتقيد المفرط بالدين، و«كتاب التغييرات» Book of

(7) الديانة الجائنية Jainism نشأت في القرن السادس ق.م. في الهند، مع البوذية. على يد مهاويرا (المترجمة).

Changes⁽⁸⁾. واستمرت حضارة الأولميك Olmec⁽⁹⁾ في الازدهار في المكسيك. بينما بدأ ظهور الدول المدن في أفريقيا جنوب الصحراء.

كان من المعتقد، حتى عقود قليلة ماضية، أن أول أسرة حاكمة أرمنية لم تظهر حتى بدايات القرن الثاني بعد الميلاد. ولكن هناك أدلة جديدة على وجود أسرة قبل ذلك، وهي الأسرة اليرفاندية (Yervanduni (Orontid/Eruandid/Yervandian) الذين تولوا حكم أرمنية كحكام معينين من قبَل الميديين والفرس. وبعد سقوط الإمبراطورية الفارسية أمام الإسكندر الأكبر، بدأ الحكام اليرفانديون يتصرفون بشكل مستقل.

ورغم أن البعض يعتقدون أن اليرفانديين كانوا من أصل أورارتي، فإن أصولهم غير معروفة. وربما كانوا ذوي روابط، بالدم أو بالزواج، بالعائلة الملكية الفارسية. ومن الممكن أنه لو لم يكونوا أنفسهم أرمن، فإن اليرفانديين في النهاية قد امتزجوا بالأرمن عن طريق الزواج. واسم يرفاندي مشتق من ”يرفاند“ وهو اسم لأربعة حكام على الأقل. ولا يعرف الكثير عن اليرفانديين. فقد محت الأسر المتعاقبة والغزو المتكرر معظم آثار الثقافة الأرمنية لتلك الفترة. ولكن، في نمرود داغ Nemrud Dagh بتركيا، يوجد نصب تذكاري يرجع إلى القرن الأول ق.م، أقامه حاكم من حكام كوماجينيه Commagene كانت له علاقة باليرفانديين، ويذكر عدداً من أسلافه اليرفانديين الذين حكموا أرمنية.

أرمنية والميديون

كما سبق الذكر، كان الميديون والبابليون، حتى عام 610 ق.م، قد هزموا وقسموا الإمبراطورية الآشورية. ولم تستمر المملكة البابلية الجديدة لأكثر من قرن. وكان أشهر حكامها هو نبوخذ نصر (ويسمى أيضا بختنصر)، الذي فتح القدس وأخذ الكثير من اليهود عبيداً، فبدأ بذلك عهد الأسر البابلي. وفي ذلك الوقت، كان الميديون قد استولوا على أجزاء من أورارتو وبلاد ما بين النهرين، وفي عام 585 ق.م كانوا قد أصبحوا قوة

(8) هو كتاب Ching I، وهو من أقدم النصوص الصينية. يقدم فكرة خاصة عن نظام الكون والفلسفة، التي تعتبر جوهر المعتقدات الصينية القديمة. (الترجمة)

(9) كان شعب الأولميك يعيش في القسم الجنوبي من المكسيك. وقد ازدهرت حضارتهم في وقت يقدر بين 1400-400 ق.م. (الترجمة)

عظمى. وعيّن الميديون الحكام المحليين ليحتفظوا بسيطرتهم على دولتهم الواسعة، والتي ضمت عيلام وقيبا وكيا، وپارتيا، وفارس، وكذلك أورارتو/أرمينية. وكان يدير هذه المقاطعة الأخيرة أحد أفراد الأسرة اليرفاندية.

الأرمن والإمبراطورية الفارسية

في أواسط القرن السادس قبل الميلاد، تمرد عدد من تلك الجماعات الخاضعة، ومنها اليرفانديين، على الميديين تحت قيادة القائد الفارسي قورش العظيم Cyrus. وفي عام 553 ق.م كان قورش قد أمّاح بالميديين، وأسس الأسرة الأخمينية الفارسية. ثم غزا قورش وابنه قمبيز Cambyses منطقة، تمتد من الهند إلى بحر إيجه والبحر المتوسط، ومن ضمنها أرمينية ومصر. وفي تلك الأثناء، قام الفرس بتحرير اليهود من أسر البابليين، وسمحوا لهم بإعادة بناء معبد القدس. وكان داريوس الأول (العظيم)، من العائلة الأخمينية Achaemenid أيضاً، هو الذي صهر هذه المنطقة الكبيرة المتعددة الأجناس في الإمبراطورية الفارسية العظمى، التي استمر حكمها حتى غزاها الإسكندر الأكبر في عام 331 ق.م.

ولا يعرف الكثير عن الأرمن في تلك الفترة، غير أنه من المحتمل أنهم استمروا هم والجماعات التي تسكن المملكة الأورارتية السابقة، يتشاركون في الأرض والهيمنة العسكرية. وتقول الروايات أنه عندما كان قورش رهينة في بلاط الميديين، نمت الصداقة بينه وبين أحد الرهائن الآخرين، وهو الأمير الأرميني تيجران-يرفاندي Tigran-Yervand، وهكذا تأسست علاقات جيدة بين الأرمن والفرس، والتي سرعان ما مكنت الأرمن من حكم كل الدولة الأورارتية السابقة.

على أية حال، بحلول أواخر القرن السادس ق.م، كانت سلطة الأرمن ونفوذهم الثقافي قد ازدادا بشكل كبير. والواقع أنه بعد ثلاثة أجيال فقط من سقوط أورارتو، كان الأرمن قد أصبحوا من الأهمية لدرجة إدراجهم ضمن الولايات الفارسية الرئيسية والشعوب التي وضعت في نقوش "البيهستون" Behistun، وهو صرح تم تصميمه تقريباً عام 520 ق.م لتخليد ذكرى منجزات وفتوحات داريوس. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها اسم أرمينية (محفور Armina) في سجل تاريخي. ورغم أن الأرمن، كما سبق الذكر،

يشيرون إلى أنفسهم باسم "هاي". فقد تبنى غير الأرمن المصطلح الذي استخدمه الفرس والأغريق (وهؤلاء الأخيرون يشيرون إلى الأرمن باسم Armenioi). وهناك دليل على أن داريوس قاد عدداً من الحملات ضد الأرمن، الذين تمردوا على ضرائبه الجديدة. وربما قام بتعيين عائلة فارسية أو عائلة أرمنية أخرى حكاماً جددًا للولاية بدلاً من اليرفانديين، فقد اختفى ذكرهم كحكام إقليميين حتى القرن التالي. وقسم داريوس إمبراطوريته إلى ثلاثة وعشرين ولاية. ووضع أعضاء عائلات أو أصدقاء ممن يثق بهم حكاماً لتلك الولايات (انظر خريطة 4). وقد أدرجت أرمنية بصفحتها الولاية العاشرة في الكتابات الفارسية لـ "نقش رستم"⁽¹⁰⁾. وفي القرن الخامس ق.م. أشار هيرودوت إلى أن الأرمن يحتلون الولاية الثالثة عشرة، بينما يعيش بقية أبناء الأسرة الأورارتية (ذكرهم هيرودوت باسم Alarodians) في الولاية الثامنة عشرة. وسرعان ما أصبح الأرمن القوة المسيطرة في تلك الولايات، وأخضعوا، أو ذابت فيهم، الجماعات الأخرى.

اليرفانديون، أول حكام أرمن

سرعان ما تم توصيل الإمبراطورية الفارسية بطريق ملكي كبير ربط بين سوسا⁽¹¹⁾ في وسط فارس وسارديس في غرب آسيا الصغرى. وكان بالطريق استراحات للرسل الملكيين والمسافرين، وبلغت هذه المحطات خمس عشرة محطة على الطريق في أرمنية الجنوبية وحدها، الذي كان يمتد عبر 150 ميلاً داخل أرمنية (انظر خريطة 4). ورغم أن الأرمن كانوا يضطرون لدفع جزية سنوية كبيرة من الفضة والحياد، وكذلك المساهمة بفرق عسكرية في الجيش الإمبراطوري، فإن تضمينهم في الإمبراطورية والاتصالات التي وفرها الطريق الملكي، أتاح لهم أن يوحدوا بشكل تدريجي كثيراً من أراضي الدولة الأورارتية السابقة. كان الأخمينيون متسامحين، ما دام السلام سائداً والجزية تؤدي. فسبحوا للشعوب الخاضعة لهم، ومن ضمنها الشعب الأرمني، باتباع العادات المحلية وعبادة آلهتهم الخاصة.

ومنذ أواخر القرن الخامس ق.م فصاعداً، تركت أرمنية لولاتها وكانت تعيش بسلام

(10) موقع أثري في إيران حالياً، يحتوي عدداً من مقابر الأخمينيين. ومنهم مقبرة داريوس الأول، الذي أضاف نقشاً ذكر فيه أسماء البلدان التي غزاها وأصبح حاكماً عليها (الترجمة).

(11) Susa. ذكرت في معجم البلدان باسم سوس. ج. 3، ص 281-280.

بشكل عام داخل الإمبراطورية الفارسية حتى نهاية الأسرة الأخمينية. وأدى الأرمين الخدمة في الجيش الفارسي في الحملات الإغريقية. وغيرها من الحملات أثناء القرنين الخامس والرابع ق.م. وكانوا ضمن الجيش الفارسي لداريوس الثالث يدافعون عن فارس ضد الإسكندر الأكبر.

والمصدر الرئيسي عن أرمينية في تلك الفترة هو كتاب «المسيرة عبر البلاد» (Anabasis [The March Up-Country]) والذي كتبه المؤرخ الإغريقي زينوفون. كان الأخير ضمن القوات الإغريقية التي دخلت فارس في عام 401 ق.م للتدخل لتسوية نزاع بالنيابة عن أحد أطراف نزاع على وراثة العرش. ولسوء حظ الإغريق، كان مرشحهم لهذه الوراثة قد هُزم قبل وصولهم واضطروا للتراجع عبر أرمينية (انظر خريطة 4). يذكر زينوفون شخصاً باسم يرفاند. ابن زوجة الملك الفارسي أرتاكسيركس الأول Artaxerxes، والذي كان يحكم الأجزاء الشرقية من أرمينية. ويسجل أن المنطقة كان سكانها من الأرمين وغير الأرمين. وهؤلاء الأخيرون ظلوا منعزلين في الأراضي المرتفعة. ومن بين القبائل المتعددة، يشير إلى قبيلة الكاردوخيين Kardukhoi والخالديين⁽¹²⁾ Khaldoioi: وربما كانت القبيلة الأخيرة هي أولئك الأورارتيون الذين قاوموا الاندماج في الشعب الأرميني. ويدعي بعض المؤرخين أنهم أسلاف الأكراد الحاليين، بينما يرى مؤرخون آخرون أن الأكراد هم سلالة الميديين القدامى.

ويشير زينوفون أيضاً إلى تيريبازوس Tiribazus، حاكم الأجزاء الغربية من أرمينية، وصديق شخصي لملك الفرس، والذي كان وحده يحظى بشرف مساعدة الملك في ركوب جواده. وفي وصفه للأرض نفسها، لا يشير إلى وجود أية مدن كبرى، لكنه يسجل أن المنطقة تتكون من قرى ذات منازل محصنة مقامة فوق الأرض، ولها مأوى شتوي تحت الأرض. وكان جزء كبير من السكان يتحدثون اللغة الأرمينية، وكان لأهالي المرتفعات لهجتهم الخاصة. وكان الوالي يعمل مع كبار القبيلة، الذين يقومون بدور الوساطة بين الناس والإدارة الإقليمية. وكان السكان، في الغالب الأعم، يعملون بالزراعة وتربية الدواجن والمواشي والدواب، ومن ضمنها الجياد الأرمينية الشهيرة، والتي كانت الآلاف منها ترسل كجزية سنوية إلى بلاد فارس. ويقول زينوفون إن الطعام كان كثيراً، ويشمل أنواعاً من

(12) الخالديون. وهو اسم أطلق على الأورارتيين لعبادتهم إلهاً اسمه خالدي. كما سبقت الإشارة (الترجمة).

اللحوم والخضر والخبز والزيت والأنبذة. ويصف أيضاً نوعاً من البيرة يُشرب بما يشبه القشة، وهذه إحدى الإشارات المبكرة لهذا المشروب في التاريخ المسجل. ووصف الأرمن بأنهم قصار القامة ذوي أجسام ممتلئة ولهم شعر أسود مستقيم، وعيون سوداء. وأنوف بارزة. وفي نحت بارز في پرسبوليس Persepolis، رُسم الأرمن يقدمون جواً وأشياء أخرى كجزية. وقد لبسوا ثياباً تشبه إلى حد كبير ثياب الميديين في ذلك الوقت. وقد ربطت شعورهم خلف أعناقهم، وارتدوا سترات طويلة تصل إلى الركبتين فوق بنطلون مربوط عند الكعبين. وكانت الأرامية، لغة الإدارة الإمبراطورية. قد أدخلت إلى أرمينية حيث استمرت قروناً عديدة تستخدم في الوثائق الرسمية. بينما كانت الحروف الفارسية القديمة تستخدم في معظم الكتابات في ذلك الوقت. ويذكر زينوفون أنه استخدم مترجماً فارسياً ليتحدث مع الأرمن، وأنهم في بعض القرى الأرمينية ردوا عليه بالفارسية. ومن الثابت أن معرفة اللغة الفارسية كانت منتشرة بين الأرمن؛ إذ إن تأثير اللغة الفارسية على اللغة الأرمينية واضح في آلاف الكلمات الفارسية التي لا تزال موجودة في اللغة الأرمينية حتى اليوم. وسرعان ما تبنى الأرمن البنية الاجتماعية الفارسية ومجموعة الآلهة الزرادشتية. وقد شمل ذلك أرمازاد Aramazd، إله السماء والأرض؛ وميهر Mihr، إله الضوء، وأستغيك Astghik، إلهة الحب، وفاهاجن Vahagn، إله الحرب، وتير Tir، إله العلوم والفنون. كما اتخذ الفرس عبادة الإلهة الأرمينية أناهيت Anahit، إلهة الخصب والحكم. وببطء، اتخذت عقيدة الميثرا Mithra⁽¹³⁾ وكذلك عقائد وديانات أخرى كانت سائدة في الإمبراطورية الفارسية، طريقها إلى أرمينية أيضاً. وتشير كثرة معابد الإلهة أناهيت في أرمينية والمهرجانات المخصصة لها إلى أن هذه الإلهة كانت محببة بشكل خاص بين الأرمن، وأنهم اعتبروها الإلهة الحامية لهم. ورغم تأثير الثقافات الميديّة والفارسية، فقد بدأت شخصية ثقافية أرمينية متأثرة بتقاليد محلية تتشكل تدريجياً.

ومع أفول الدولة الأخمينية، بدأ بعض الولاة يؤكدون استقلالهم. وفي منتصف القرن الرابع ق.م، كان اليرفانديون قد وحدوا معظم أرمينية في مقاطعة واحدة، وأسسوا تحالفات بالزواج مع جارتهم الغربية، كوماجينيه Commagene، وأصبحوا في الواقع وحدة مستقلة داخل الإمبراطورية الفارسية.

(13) عبادة الإله ميثرا، وهو إله آري الأصل. كان يُعبد في إيران بوصفه إله العقود والاتفاقات. وهو محارب قوي جبار عند الزرادشتيين. وكان المحاربون يتعبدون له. وهم على ظهور جيادهم قبل الذهاب إلى المعركة. وقد انتشرت هذه العبادة في بلدان كثيرة في آسيا، ووصلت إلى بلاد الإنغريق، ومما يستحق الذكر أنها كانت خاصة بالرجال (المت ترجمة).

الإسكندر الأكبر والهيلينية

أثناء هذين القرنين. حاول الفرس مرات متكررة احتلال بلاد الإغريق نفسها، وهو صراع سجلته هيرودوت في كتابه عن تاريخ الحروب الفارسية. ورغم أن فارس لم تنجح أبداً. فإنها قد مثلت تهديداً لليونان لإمدادها الدول المدن الإغريقية المنافسة بالذهب. وهذا التهديد تم إنهاؤه عندما عبر الإسكندر الأكبر إلى آسيا وهاجم الإمبراطورية الفارسية. وحاول داريوس الثالث. آخر ملوك الأخمينيين. الدفاع عن إمبراطوريته بالاشتراك مع ولاته. ومن ضمنهم الوالي الأرميني والذي كان يرقاندياً أيضاً. لكنه هُزم في معارك إيسوس عام 333 ق.م ومعركة جاوجاميللا Gaugamela في عام 331 ق.م. ووفقاً للمؤرخين الرومان اللاحقين، كان الفريق العسكري الأرميني المشارك في تلك المعارك كبيراً جداً. وبفتحه جزءاً كبيراً من العالم المتحضر، أسس الإسكندر مدناً جديدة ومستعمرات عسكرية، وتمكن من ترسيخ الوجود الإغريقي والمقدوني في جزء كبير من آسيا وشمال أفريقيا (انظر خريطة 4). وامتزجت الثقافة الإغريقية بثقافات الأهالي من الشعوب الشرقية، كما نشأت ثقافة هيلينية في أرمينية بعد وفاته.

السلوقيون (64-312 ق.م)

عقب وفاة الإسكندر الأكبر عام 323 ق.م. قُسمت الأراضي التي غزاها في آسيا وأفريقيا بين اثنين من فواده. فأخذ سلوقس أراضي الإمبراطورية الفارسية السابقة وأسس الأسرة السلوقية. بينما أخذ بطليموس مصر وأسس الأسرة البطلمية (انظر خريطة 5). ورغم أن السلوقيين الأوائل جاءوا ومعهم المفهوم الإغريقي عن الدول المدن المتبعة لنظام حكم الأقلية (الأوليغاركية). فإن تلك الأفكار الغربية لم تقبل بسهولة في كل جزء من الإمبراطورية الفارسية السابقة. وإذ كانت الثقافة الإغريقية أساساً ثقافة مدنية، فقد كان على السلوقيين أن يؤسسوا مدناً جديدة لكي يجتذبوا سكاناً وإداريين من الإغريق. وبدأ التصنيف والتمييز العرقيين يظهر بين الإغريق وغير الإغريق. وفي النهاية تبنى السلوقيون الفكرة الفارسية للملكية. في حين احتفظوا بالثقافة والديانة الهيلينية في المقام الأول. وفي بدايات حكمهم. تنازل السلوقيون عن الأراضي الهندية إلى تشاندراجوبتا ماوريا

Chandragupta Maurya⁽¹⁴⁾ في مقابل 500 فيل لاستخدامها ضد أعدائهم. وبعد خمسين عامًا، كانت الإمبراطورية السلوقية قد نقصت أكثر، عندما أعلنت فارس الشرقية استقلالها تحت حكم البارثيين Parthians وانفصلت آسيا الوسطى تحت حكم أسرة إغريقية باكترية Greco-Bactrian.

الحكم اليرفاندي في أرمينية

أثناء ذلك، كان انهيار الإمبراطورية الأخمينية قد خلق فرصة لليرفانديين لتأكيد استقلالهم التام. فحيث أن الإسكندر لم يمر أبدًا من خلال أرمينية، ومن ثم فلم يترك أي وجود عسكري في المنطقة، رفض اليرفانديون أداء الجزية للإغريق. وبعد موت الإسكندر، احتفظ الأرمن بهذا الموقف تجاه الحكام الذين فرضهم السلوقيون. واستطاع اليرفانديون السيطرة على وادي آراكس، ووصلوا إلى بحيرة سيفان Sevan وشيدوا عاصمة جديدة في يرفاندشات Yervandashat، عند التقاء نهر آراكس Arax وأخوريان Akhurian، لتكون بديلاً عن أرمافير Armavir، التي كانت معرضة لهجمات السلوقيين. ووفقاً للأحاديث المروية عن ذلك العهد أنهم بنوا أيضاً مركزاً دينياً جديداً في بجاران Bagaran شمال يرفاندشات على الضفة الغربية لنهر أخوريان. ورغم أن اليرفانديين حكموا أغلب أراضي أرمينية، لم يكن في مقدورهم أبداً أن يبسطوا سيطرتهم على المناطق الغربية الأكثر تأثراً بالثقافة الهيلينية.

وبحلول القرن الثالث ق.م، ظهرت ثلاث أرمينيات: أرمينية الصغرى، في الشمال الغربي لنهر الفرات؛ وأرمينية الكبرى؛ وصوفين أو تسوبك Sophe or Tsopk. في الجنوب الغربي (انظر خريطة 6). ووقعت أرمينية الصغرى تحت النفوذ الهيليني، وكانت تقع من حين لآخر تحت السيطرة السياسية إما للسلوقيين حكام پنتس Pontus، أو قبادوكيا Cappadocia. أما أرمينية الكبرى، التي كانت تضم معظم أرمينية التاريخية، فقد احتفظت بكثير من استقلالها السياسي؛ نتيجة العزلة الجغرافية النسبية التي كانت تتمتع بها، ونتيجة الحروب بين السلوقيين ومنافسيهم، ونقل الكرسي السلوقي في الحكومة

14 (تشاندراجوبتا ماوريا (ولد 340. وحكم 320-298 ق.م) مؤسس الإمبراطورية الماورية Maurya. التي شملت معظم شبه القارة الهندية. ويعتبر أول موحد للهند. (المنترجمة)

إلى أنطاكية Antioch في سوريا. أما صوفين، فقد كانت واقعة على الطريق الملكي، مما جعلها تمر بحالات مختلفة، اعتماداً على ظروفها السياسية، إما مستقلة، أو جزء من أرمينية الكبرى. واستمر اليرفانديون يحكمون أرمينية الكبرى وصوفين، ورغم أن عدداً من الملوك السلوقيين، ومنهم سلوقس الأول، حاولوا إخضاع تلك المناطق، فإنهم سرعان ما قبلوا الوضع الاستقلالي لليرفانديين.

وانتهت سيطرة الأسرة اليرفاندية في أرمينية بعد ذلك بقليل. وقد حدث ذلك عندما حاول السلوقيون، تحت حكم أنتيوخس الثالث Antiochus III (223-187 ق.م)، استعادة إمبراطوريتهم وتحويل أرمينية إلى ولاية تابعة. قام أنتيوخس بتشجيع أحد النبلاء الأرمن، وهو أرتاشيز Artashes (Artaxias)، الذي ربما كانت له علاقة باليرفانديين، على التمرد، وفي 190 ق.م تقريباً، قام بالاشتراك مع أحد أقاربه بالإطاحة بأخر الحكام اليرفانديين. ووضع أسس أول مملكة أرمينية.

ولابد أن نحكم على أن اليرفانديين كانوا حكاماً متمسكين بحقوقهم. قاوموا داريوس الأول في عدد من ثورات التمرد. وحصلوا على درجة من الحكم الذاتي أثناء اندثار الإمبراطورية الفارسية. ورفضوا الحكام الإغريق، وصدوا السلوقيين، واستطاعوا الاحتفاظ باستقلالهم بشكل عام.

المجتمع والثقافة

على مر قرنين من الوجود السلوقي، بدأت اللغة الإغريقية، التي كانت قد أصبحت آنذاك لغة التجارة والفنون في الشرق الأوسط، بدأت شيئاً فشيئاً تحل محل اللغة الآرامية كلغة إدارية لأرمينية، ولغة منطوقة بكثرة بين أبناء الطبقة العليا. وبنيت في أرمينية معابد إغريقية الطابع لأبولو وأرتميس. وظهرت عملات عليها نقوش وكلمات إغريقية، كما حدث في كل آسيا. كانت التجارة العالمية تمر في أرمينية، جالبة معها الثقافة والعلوم، من الشرق والغرب معاً.

ورغم حقيقة أن التقويم الإغريقي، والقانون، والمعتقدات الدينية الإغريقية، وكذلك المسرح والفلسفة والفن والعمارة، كلها سلكت طرقاً إلى داخل أرمينية، فإن أرمينية الكبرى لم تتأثر بالهيلينية إلا جزئياً. وظلت الثقافة الفارسية، وكذلك اللغة والعادات الأرمينية هي

السائدة والمهيمنة. وكان أهم تغيير هو ظهور المدن مثل يرفاندشات Yervandashat و يرفاندكيرت Yervandakert . وأرشاماشات (Arsamosata) Arshamashat. وهو الأمر الذي سهّل فيما بعد توحيد أرمينية الكبرى.

5

بين الضيالق الرومانية وسلاح الفرسان البارثي
الأرتاشيزيون وتشكيل المملكة الأرمنية
(تقريباً 189 ق.م - 10 ميلادية)

كان القرنان الأخيران قبل ميلاد المسيح عصرًا مهمًا في الحضارة العالمية. فقد بدأت فيهما أسرة هان العظيمة حكمها، الذي استمر لأربعمائة عام في الصين. ورسخت قبيلة ياماتو تأسيسها لأول دولة يابانية. واستمر البطالمة يحكمون مصر. وتسببت غزوات متعددة في تفتت الإمبراطورية المورية Mauryan Empire في الهند. وتعرفت مقاطعاتها الغربية على عناصر من الحضارة الهيلينية. وفي بلاد فارس، شكلت جماعة إيرانية أخرى هي البارثيون Parthians من شرق البلاد إمبراطورية جديدة تحت حكم الأسرة الأرشاكونية. وأهم تطور حدث في الغرب كان ظهور الجمهورية الرومانية، التي أبادت القرطاجيون في أفريقيا، وغزت بلاد الإغريق ومقدونيا. وحلت محل الدولة السلوقية في سوريا وآسيا الصغرى. وشهدت الفترة نفسها ولادة أول مملكة أرمنية معترف بها، وظهرت أهميتها الإستراتيجية بالنسبة للدول العظمى المحيطة بها.

وكما ذكرنا. كان اليرفانديون قد قاوموا انتهاكات السلوقيين وحافظوا على استقلال أرمينية الكبرى. وكان صعود روما وشق طريقها داخل بلاد الإغريق ومقدونيا يهدد السلوقيين في سوريا. وحاول أنتيوخس الثالث، آخر حاكم مهم من حكام السلوقيين، أن يستعيد الإمبراطورية السلوقية بإيقاف تقدم البارثيين الذين، بحلول القرن الثاني ق.م، كانوا قد تسللوا إلى فارس بالتدرج حتى وصلوا إلى وسطها. ومن ثم فقد سعى إلى مد سيطرته على المناطق المتمتعة بالحكم الذاتي والمتاخمة لحدوده. وفي بداية القرن الثاني ق.م. نجح أنتيوخس في حث بعض أعضاء العائلة اليرفاندية على تحدي حاكمهم وتغيير ولائهم والتحالف مع السلوقيين. وقبل كل من أرتاشيز وزاريه Zareh (Zariadres) عرضه. وتمردا على آخر حكام اليرفانديين، ونالا ألقابًا عسكرية من أنتيوخس. ورسخا نفسيهما كحكامين لأرمينية. فتولى أرتاشيز حكم يرفاندشات وأرمينية الكبرى كلها. أما زاريه فقد تولى حكم صوفين.

وإذ شعر أنتيوخس بالأمان في الشرق. تخيل إمبراطورية هيلينية جديدة. تحت قيادة السلوقيين. وبناء على ذلك تقدم إلى مقدونيا واليونان وحاول طرد الرومان من هناك. وتوسيع سيطرة السلوقيين على وطن الإسكندر الأكبر. ولكنه هُزم. في عام 190 ق.م. على يد الرومان في معركة ماجنيسيا Magnesia. وفقد في معاهدة سلام أپاميا (Peace of Apamea 189 ق.م) ممتلكاته في آسيا الصغرى وشمال غرب سوريا. ومن ثم أصبحت قدم روما أكثر ثباتاً في آسيا. وظل الوجود الروماني مؤثراً في المنطقة لثمانية قرون تالية. لكن المملكة السلوقية آنذاك كانت قد أصبحت قاصرة على سوريا وفلسطين، حيث لقيتها مشاكل جديدة: إذ قام أنتيوخس الرابع، المعروف باسم إيفانيس Epiphanes، بانتهاك حرمة معبد القدس، فثار اليهود، تحت قيادة يهوذا مكابيوس Judas Maccabeus، في عام 168 ق.م. وهو صراع انهمك فيه السلوقيون طوال السنوات الثلاث التالية. وانتهر البارثيون هذه الفرصة فاستولوا على بلاد فارس وأصبحوا مركز قوة جديد في الشرق. ووضعت روما إستراتيجية لإضعاف السلوقيين أكثر. ولحماية ممتلكاتها في الوقت نفسه. فشجعت تقسيم الإمبراطورية السلوقية السابقة في آسيا الصغرى إلى ولايات أصغر، صديقة لروما، وهو ما سوف يصبح حاجزاً أمام أية محاولة من البارثيين للتقدم غرب بلاد ما بين النهرين. وهكذا ظهرت أرمينية وقبادوكيا وكوماجينية، وپنطس كيلدان حليفة للرومان. وبعد معركة ماجنيسيا واتفاق أپاميا، اعترفت روما رسمياً بهذه البلدان كممالك مستقلة.

أرتاشيز وتأسيس أسرة جديدة

في عام 189 أو 188 ق.م، اعترفت روما بأرتاشيز ملكاً على أرمينية، والذي كان يدعى أنه ينتمي بروابط وثيقة إلى عائلات النبلاء اليرفانديين والفرس في وقت واحد. ووقتها أصبح كل من الفرس والروم على السواء ينظرون إلى أرمينية كدولة ذات سيادة. واستهل أرتاشيز حكمه بإجراء مسح لأرضه. وقد وجدت في منطقة بحيرة سيفان أحجاراً تبين حدوده ومنقوش عليها بالآرامية، وهذا التسجيل هو الأول من نوعه على الإطلاق في أرمينية.

ولتأكيد الوضعية الجديدة لهذا البلد. ولقطع الصلة بالماضي اليرفاندوني، بنى أرتاشيز عاصمة جديدة، هي أرتاشات (Artashat) (Artaxata)، على الضفة اليسرى لنهر آراكس بالقرب من حورقراقب الحالية Khorvirap. وظلت هذه المدينة، التي تم تخطيطها جيداً على الطراز الهيليني، عاصمة لأرمينية طوال الفرون الأربعة التالية. وأحضر أرتاشيز تماثيل لمختلف الأنهة الإغريقية والفارسية إلى العاصمة الجديدة من المركز الديني اليرفاندوني في باجانان؛ ليجعل من أرتاشات المركز الديني والسياسي للمملكة الأرمينية الجديدة. وبسبب اتساع حجم المدينة وعظمة حصونها، ظهرت الأسطورة التي تقول إن هانيبال القرطاجي ساعد في تخطيطها وبنائها. ورغم أن كلاً من سترابو وبلوتارخ كررا هذا الادعاء، فلا يوجد دليل آخر يدعمه. أقام أرتاشيز هيكلًا إداريًا ونظامًا ضريبياً، ووزع الأرض بين أفراد عائلته وأتباعه المخلصين. وبالإضافة إلى ذلك، فقد وسع الأرض التابعة له بضم المناطق التي يسكنها الميديون والألبان القوقازيون⁽¹⁵⁾، والأبييريون (الچورچيون). لكن محاولاته للاستيلاء على صوفين من زاربه كانت بلا جدوى. وظلت أرمينية الصغرى، تحت حكم بنطس. خارج سيطرة أرتاشيز أيضاً (انظر خريطة 7).

وأخيراً استطاع السلوقيون، الذين كانوا يحاولون استعادة سيطرتهم على الساحل السوري وما بين النهرين، إخضاع اليهود في عام 165 ق.م، وهاجموا كلاً من فارس وأرمينية عند نهاية حكم أرتاشيز. وهزم أرتاشيز على يد أنتيوخس الرابع، وأسر لكن أطلق سراحه واستمر يحكم مقابل دفع جزية. وبالنسبة لروما، التي كانت تنظر إلى أرمينية والدول الأخرى الحاجزة باعتبارها حلفائها، أو بالأحرى كولايات تابعة في المستقبل، استاءت من الحالة في أرمينية، لكن مشاكلها الداخلية وحملتها النهائية على قرطاج شغلتها عن التدخل في شئون آسيا. ولم يستطع السلوقيون، على المدى الطويل، أن يستعيدوا سيطرتهم، ولم يحكموا طوال الأعوام المائة التالية إلا بعض أجزاء سوريا. لكن البارثيين ملأوا فراغ القوة. وتحت قيادة ميتراديتس الأول (171-138 ق.م)، والذي كان من العائلة الأرشاكونية، أصبحوا قوة عظيمة. متبنين ثقافة أسلافهم. التي تجمع بين الثقافتين الفارسية والهيلينية. وسرعان ما رسخوا دعائمهم في بلاد ما بين النهرين، وبنوا عاصمة أخرى عند طيسفون

(15) يختلف ألبان القوقاز عن الألبان المعروفين حالياً. وكانت ألبانيا القوقاز تقع تقريباً في منطقة جمهورية أذربيجان الحالية (المترجمة)

Ctesiphon على نهر دجلة. وأثناء ذلك فتعت روما بتقوية وضعها في آسيا الصغرى، وتمديد نفوذها تدريجياً إلى نهر الفرات. ولهذا كان الأمر مجرد مسألة وقت قبل أن تنهك القوات الجديدتان في صراع تنافسي، سوف يستمر لأكثر من ثلاثة قرون.

وآنذاك، كان عدم تدخل روما قد ترك خليفتي أرتاشيز، أرتافازد الأول (Artavazd) 160-115 ق.م) و(تيجران الأول (Tigran I (Tigranes) 115-95 ق.م) معرضين لنزوات البارثيين. هُزم أرتافازد على أيدي البارثيين واضطر لإرسال ابن أخيه رهينة إلى قطسيفون⁽¹⁶⁾. وفي الفترة الباقية من ذلك القرن، كانت العلاقات مع فارس سلمية، طالما كانت أرمينية تدفع الجزية وتقدم الرهائن. وساعد السلام على ازدهار التجارة بين الصين وروما وفارس في القرن الأول ق.م، تلك التجارة التي أصبحت ممكنة بسبب طريق الحرير. واكتشف البارثيون أهمية أرمينية كمرکز تجاري رئيسي، وأصبحت مدينة أرتاشات أحد مراكز التوقف المهمة في تلك التجارة بين الشرق والغرب. وأسس الأرتاشزيون داراً لسك النقود في أرمينية لتسهيل التجارة. وكانت التجارة وظهور مدن جديدة سبباً في مزيد من تشجيع التأثيرات الثقافية الهلينية. وفي الوقت نفسه، ساعد توسع صوفين إلى الجنوب والغرب على مزيد من التقارب الثقافي بين البلدين الأرمينيتين. وظلت اللغتان الإغريقية والفارسية هما لغتا الطبقات العليا الأرمينية، بينما كان العامة من جماهير المنطقتين الأرمينيتين يتكلمون اللغة الأرمينية. واستمرت اللغة الآرامية، التي دخلتها كثير من المصطلحات الفارسية، هي لغة الإدارة.

وسادت طوال القرن السابق على العصر المسيحي صراعات القوة بين روما والبارثيين، مع محاولة كل منهما الفوز بالسيطرة على أقسام الدولة السلوقية المتشظية. وكذلك أرمينية. وبعد تدمير قرطاجة، وإجراء عدد من الإصلاحات المحلية، وضعت روما عينها مرة أخرى على آسيا. وصلت الفيالق الرومانية إلى سوريا، وأجبرت الحكام المحليين على قبول السلطة الرومانية. وسعيًا لتأمين آسيا الصغرى، سيطرت روما على قبادوكيا وكوماجيني. وفي عام 96 ق.م، التقى سوللا، الحاكم الروماني لصقلية مع ممثلي البارثيين؛ لتقسيم المناطق المتنازع عليها في بلاد ما بين النهرين إلى مناطق للنفوذ.

(16) قطسيفون، وتسمى أيضاً تيسفون وطيسفون، مدينة قديمة في العراق تقع على نهر دجلة إلى الجنوب الشرقي من بغداد. كانت عاصمة البارثيين وعاصمة الساسانيين من بعدهم. (المترجمة)

لكن تصرفات روما في آسيا اثارت عداوة ملك البونتيين Pontic. ميتريداتس السادس إيپاتوز Mithradates VI Eupator، وهو أحد النبلاء الذين اكتسبوا الثقافة الهيلينية ومن أصل فارسي، والذي كان يتمنى استعادة الامبراطورية السلوقية، وسرعان ما صعد في مهمة لتحرير آسيا الصغرى واليونان من الرومان.

وفي ذلك الوقت، كان الوضع في روما أبعد ما يكون عن الاستقرار: إذ لم تكن الإصلاحات الاجتماعية التي قام بها الإخوة جراتشي Gracchi قد طُبِّقت بالكامل، وثار غير الرومانيين على موضوع المواطنة الكاملة. ولأن روما كانت قد غزت مناطق واسعة في وقت قصير، فلم تكن مستعدة لإدارتها. وكان العسكريون ومجلس الشيوخ يتناهسون على السلطة. وتعرض الحكم الجمهوري لازمات متكررة لأن الجنرالات، خاصة أولئك الذين حصلوا على الشهرة والثروة في الحملات الخارجية، حاولوا فرض سيطرتهم على الدولة.

تيجران العظيم

بعد موت تيجران الأول ملك أرمينية عام 95 ق.م، وافق ابنه تيجران الثاني، والذي كان رهينة في طيسفون، على التخلي عن عدد من الوديان في جنوب شرق أرمينية للفرس، مقابل حرته. وكان أول عمل يقوم به تيجران بعد توليه السلطة في بلاده، هو غزو صوفين وتوحيد المنطقتين الأرمينيتين سياسياً. ومنذ ذلك الوقت، فيما عدا فترات قصيرة جداً، ظلت صوفين جزءاً من أرمينية الكبرى. أما أرمينية الصغرى فقد استمرت خارج المملكة الأرمينية، والواقع أنها لن تكون أبداً تحت حكم واحد مثل أرمينية الكبرى. وقد تبين تيجران وميتراديتس ملك بنطس أن وجود الرومان والبارثيين في المنطقة كان خطراً مستمراً على استقلال بلادهما. وشجعتهما الحرب الأهلية في روما والمشاكل حول وراثة العرش في فارس على محاولة خلق قوة ثالثة في المنطقة، فقاما بعمل حلف تقوده بنطس وأرمينية، حلف سوف يقوم بتحدي فارس وروما. وتم تعزيز التحالف بزواج تيجران من ابنة ميتراديتس. وإذ أصبحت حدود ميتراديتس الشرقية آمنة، قام بضم قبادوكيا وساحل آسيا الصغرى. وعندما تحققت فارس وروما أن مثل هذا التحالف يمكن أن يهدد مصالحهما، اتفقتا على إرجاء خلافاتهما والتركيز على القضاء على التهديد الجديد. وكانت هذه هي المرة الأولى، وليست الأخيرة، التي خططت فيها القوتان الكبرى آنئذ

لتقسيم أرمينية والمناطق المحيطة بها. لكن سوللا Sulla، الذي رأى مثله في ذلك مثل من أعقبه من القادة الرومان أن الحملة الناجحة على الشرق فرصة للكسب السياسي والمادي. عاد لطرده الحاكم البنطي من قيادوكيا . وفي عام 84 ق.م. استطاع أن يرغم ميثراديتس على الخروج من اليونان وعاد إلى روما ليتقلد لقب ديكتاتور. لكن ميثراديتس لم يستسلم. وظل يشغل الرومان طوال السنوات العشر التالية بغزوه المتكرر على اليونان وتحديه للسلطة الرومانية في آسيا الصغرى.

وظل ميثراديتس يلزم الرومان حدودهم. ومن ثم ظلت الحدود الغربية آمنة، وركز تيجران على الشرق. وكان موت الملك البارثي والغزوات، التي قامت بها قبائل البدو القادمة من وسط آسيا على فارس: مما أتاح لتيجران في عام 90 ق.م أن يستعيد الوديان التي تنازل عنها للبارثيين؛ ثم توسع إلى الجنوب واستولى على أجزاء من بلاد ما بين النهرين. وفي عام 85 ق.م بدأ تيجران استخدام اللقب الفارسي "ملك الملوك" (شاهنشاه). واتخذ أربعة نواب ملوك يصاحبونه في المراسم الرسمية. وعندما قامت مجموعة من النبلاء السوريين بدعوة تيجران للحكم. قام بضم كوماجيني Commagene وشمال سوريا وقيليقية وفينيقيا. وهكذا امتدت إمبراطورية تيجران من البحر المتوسط إلى بحر قزوين، وأصبحت أرمينية، لفترة قصيرة، إمبراطورية (انظر خريطة 8).

وأصبحت أنطاكية، المركز السلوقي العظيم وعاصمة سوريا. مركز قيادة تيجران في الشام. وهكذا سيطر تيجران على كثير من منطقة غرب الفرات، التي كانت في السابق تابعة للسلوقيين. ولكي يحسن إدارة إمبراطوريته الواسعة، بنى تيجران عاصمة جديدة هي تيجراناكيرت (Tigranocerta) (Tigranakert)، ونقل اليهود والعرب والإغريق، قسرياً، من بلاد ما بين النهرين وقيليقية وقيادوكيا لكي يعمرها هي وغيرها من المدن الأرمينية الجديدة بالسكان. وكانت تيجراناكيرت مدينة عظيمة ذات أسوار، قيل إنها كانت من الضخامة؛ بحيث كان يمكن بناء المخازن واسطبلات الخيل داخلها. وأقام مسرحاً تؤدي فيه المسرحيات الإغريقية، وأحيطت المدينة بالحوائق وأراضي الصيد. ولسوء الحظ لم يتوصل أحد إلى آثار تيجراناكيرت، كما أن موقعها مختلف عليه، ومع ذلك من المحتمل أنها تقع بين تل-إرمن Tell-Ermen، وأميدا Amidala (ديار بكر الحالية)، ومارتيروبوليس Martyropolis (ميفاركين الحالية).

وباحتلال تيجران لأهم المراكز الهيلينية. لم تعد الثقافة الهيلينية على أطراف أرمينية، ولكنها توغلت إلى معظم نواحي الحياة الأرمينية. وكان زواج تيجران من ابنة ميتراديتس، ووصول الكثير من الإغريق إلى إمبراطوريتهم يعني أن اللغة اليونانية، مع الفارسية، ظلتا لغة الطبقات العليا. بينما استمرت الأرمينية اللغة التي يستخدمها جماهير الناس. وأصبح المسرح الإغريقي هو الشكل الرئيسي للترفيه. ولكن بروتوكول بلاط تيجران وكذلك تكليفات ومتطلبات النبلاء استمرا متأثرين بالفارسية. وهما الأمران اللذان لم تكن تربطهما صلة من أي نوع بالتقاليد الإغريقية أو الرومانية.

وعندما تقاعد سوللا من الحياة العامة عام 79 ق.م، سعى القادة العسكريون الجدد إلى تحسين موقفهم. ووافق المجلس الروماني بكل سرور على خروج حملات إلى البلاد الأجنبية للإقلال من الاضطرابات الأهلية ولإنهاء الحروب الميترادية، والتي ظلت شوكة في مناطق سيطرة الرومان الشرقية. وفي عام 74 ق.م قام القائد الروماني لوكولوس Lucullus بغزو پنطس. وأرغم ميتراديتس على اللجوء إلى أرمينية. ورغبة في عدم التراجع عن التحالف الأرميني البنطسي ضد روما، رفض تيجران تسليم حماه وواجه هجمات الرومان على أرمينية. وفي عام 69 ق.م، حاصر لوكولوس تيجراناناكيرت. وعندما قام سكان المدينة، الذين كان أغلبهم من غير الأرمن، بفتح البوابات، وقعت تيجراناناكيرت في يد القوات الرومانية فنهبتها. وتحالف ولاة تيجران المحليون مع الرومان، وفقد تيجران سيطرته على سوريا وبلاد ما بين النهرين. وحاول لوكولوس أن يستولي على أرتاشات لكنه فشل. ولم يستطع أن يعقد تحالفاً مع فارس، فعاد إلى روما. وهنا بدأ تيجران وميتراديتس إعادة فتح پنطس وشمال سوريا وكوماجيني Commagene.

لكن روما لم تتخل عن مطلبها، فأرسلت بومبي (بومبيوس الكبير)، الذي هزم ميتراديتس. وأجبره على الهروب نحو الشرق. ثم تقدم بومبي نحو أرمينية. وفي ذلك الوقت، أقدم اثنان من أبناء تيجران على خيانتهم، فانضم أحدهما إلى بومبي. وانضم الآخر إلى معسكر البارثيين. واستحث الوجود الروماني في أرمينية البارثيين أيضاً، الذين أرادوا تأمين سيطرتهم على الأراضي الواقعة شرق الفرات. ولكي ينهي الفرس التهديدات الرومانية والأرمينية، ولاستعادة الأراضي التي فقدتها، استغلوا فرصة الضعف الذي أصبحت فيه أرمينية. فهاجموها من الشرق. قاوم تيجران الهجمات البارثية على

أرتاشات، لكن عندما وصل بومبي. تحقق من عدم جدوى مقاومة الرومان. وفي عام 66 ق.م. وافق على اتفاق سلام أرتاشات. ولكي يحتفظ بومبي بأرمينية صديقة لروما وحاجراً بينها وبين الفرس. ترك أرمينية دون أن يدمرها. وسمح لتيجران أن يستعيد اللقب الفارسي "ملك الملوك" (شاهنشاه). وحكم تيجران لعشر سنوات أخرى. وتوفي عام 55 ق.م. وبعد أن حل بومبي مشكلاته في أرمينية. تعقب ميتراديتس. الذي انتحر على جزيرة قريبة من ساحل البحر الأسود. فأعاد بومبي تنظيم آسيا الصغرى وسوريا إلى مقاطعات رومانية وممالك تابعة. بل إنه أيضاً أطاح بحكم آخر السلوقيين. وربما كان مجرد مدعٍ. وأنهى فصلاً في التاريخ الهيليني بالشرق الأوسط.

يفخر الأرمين بتيجران ويعتبرونه أعظم حكامهم: إذ أقام الإمبراطورية الأرمينية الوحيدة، والتي كانت دولة. حولت أرمينية من أمة صغيرة إلى قوة يُعمل حسابها. وفي فخرهم به. أضافوا إليه خطأ بعض الخصال القومية. والواقع أن تيجران كان يتحدث اليونانية والفارسية، ولم تكن لديه تلك المشاعر المعاصرة، التي يشعر بها الأرمين تجاه قوميتهم. كان ملكاً هيلينياً، احتفظ في الوقت نفسه بالكثير من الفخامة الفارسية في بلاطه، وربما يكون قد احتفظ بعدد من الزوجات كما كانت العادة في آسيا في تلك الفترة. ومن المحتمل أنه أعدم ابنه اللذين تمردا عليه. وفي كل ذلك لم يكن يختلف عن أي حاكم معاصر له. وتكمن عظمة تيجران في محاولته صياغة كيان سياسي مستقل، والتحرر من القيود التي فرضت على أرمينية بسبب موقعها الجغرافي. ويرجع نجاحه المبكر أساساً إلى وجود فراغ سياسي سائد، لم يكن من الممكن أن يستمر. وكانت إمبراطورية تيجران تتكون من شعوب متعددة أُجبروا على الانتقال إلى أماكن جديدة، ولم يكونوا يحملون حباً للأرمين. ومن الناحية الثقافية، لم يكن من الممكن لسوريا الهيلينية تماماً والمتمدية كاملاً أن تعيش. جنباً إلى جنب، مع أرمينية الريفية وذات الثقافة المتأثرة بالفرس. وأخيراً، لقد عزز حكم تيجران الطويل الأمد المكائد العائلية وخيانة ابنه. ورغم شجاعة تيجران ومجهوداته التي تستحق الإعجاب بلا شك، فإن النتيجة النهائية كانت بقاء أرمينية معلقة بين جيرانها الأقوياء.

أرمينية الأرتاشيزية بعد تيجران العظيم

بدأ ابن تيجران الباقي، أرتافازد الثاني (55-35 ق.م) حكمه كصديق لروما، ولكن تحت مناخ سياسي مختلف تماماً عن فترة حكم والده. ومع زوال الدولة السلوقية، وانتصارات بومبي التي ثبتت قدم روما في الشرق الأوسط، أصبح موقف روما يميل إلى موقف الفاتح لا الحليف. وأدى الوجود الروماني في سوريا، وتدخلاتها العدوانية في شؤون بلاد فارس، إلى أن تبحت فارس عن أصدقاء جدد في المنطقة. وإذا كانت أرمينية جارة مباشرة لفارس، وتقع على طريق تجارتها، بالإضافة إلى ما لها من روابط عرقية ولغوية وثقافية بها، فقد اجتذبت في النهاية إلى فلك البارثيين.

أعاق التنافس بين يوليوس قيصر وكراسوس وبومبي. والذين عرفوا كأول حكومة ثلاثية، وجود سياسة متسقة لروما في آسيا. ومع نجاح حملات يوليوس قيصر في أوروبا الغربية، سعى كراسوس الثري للحصول على المجد من خلال حملة ضد بلاد فارس. وطلب كراسوس مساعدة الأرمين، مما وضع أرتافازد في موقف صعب. فالبارثيون بكل وضوح سيقتربون أي تعاون عسكري لأرمينية مع روما فعلاً عدوانياً منها ضدهم. لكن روما كانت تعتبر أرمينية حليفة لها، ووفقاً لبعض المصادر، نصح أرتافازد كراسوس ألا يهاجم فارس من ناحية سوريا، ولكن أن يسير إليها من خلال أرمينية؛ حيث يمكن أن يتلقى الإمدادات والدعم. كانت إستراتيجية أرتافازد هي مساعدة روما، ولكن في المقابل، المطالبة بوجود عسكري روماني لحماية أرمينية من انتقام البارثيين. لكن كراسوس في تعجله رفض عرض أرتافازد وسار من خلال سوريا. وهنا غير أرتافازد تحالفه من روما إلى فارس، إما طواعية، أو وفقاً لبلوتارخ، مضطراً عندما قام البارثيون باحتلال أرمينية. وفي 53 ق.م، لقي كراسوس والفيالق الرومانية هزيمة منكرة في معركة كارهي Carrhae. وقتل كراسوس، وأسر الفرسان الأتلية الرومانية. وتم تذييل التقارب الجديد بين أرمينية وفارس بزواج أخت أرتافازد من الوريث الشرعي البارثي. ووفقاً للمصادر الرومانية، كان أرتافازد والملك البارثي يشاهدان مسرحية إغريقية في حفل الزفاف، عندما قدمت رأس كراسوس على طبق من الفضة. وهنا فقدت روما ثققتها بأرمينية، لكن معركة قيصر مع بومبي وتورطه مع كليوباترا أعاقته أي فعل يمكن اتخاذه للانتقام لكراسوس واستعادة الأتلية الرومانية.

وفي ذلك الوقت، بذل أرتافازد كل مجهود ممكن لكسب ود روما، بينما ظل حليفاً للفرس. وفي أعقاب اغتيال قيصر، ظهر ثلاثي حاكم ثان في روما، يتكون من مارك أنطونيوس، وأوكتافيو (والذي عرف باسم أغسطس فيما بعد) وليبيدوس. في 41 ق.م، سعى مارك أنطونيوس، بدفع من كليوباترا، إلى تقوية وضعه في روما بمحاولة استعادة الألوية الرومانية من البارثيين. ومثل كراسوس، طلب أنطونيوس مساعدة أرمينية، وفي البداية تعاون أرتافازد معه، ولكن في عام 36 ق.م، عندما تعرضت قوات أنطونيوس لنكسة، رحب أرتافازد بالرومان ليقضوا الشتاء في أرمينية، لكنه رفض بذل قوات للحرب. ورأى أنطونيو أن هزيمته سببها أرتافازد، وفي 35 ق.م، سار إلى أرتاشات، وأخذ أرتافازد وبعض أعضاء عائلته إلى مصر، حيث تم إعدامه فيما بعد. واحتفل أنطونيوس بـ ”قهر أرمينية“ بسك عملة تذكارية للمناسبة، وفي فعل رمزي، أهدى أرمينية إلى ابنه الأصغر من كليوباترا. وهرب أرتاشيز الثاني، أحد أبناء أرتافازد، إلى فارس، وفي 30 ق.م قام باستعادة بلاده، بمساعدة البارثيين. بعد أن قضى على الحامية العسكرية الرومانية بالكامل. وجاء موت أرتاشيز في عام 20 ق.م ليترك أرمينية مفتوحة أمام انقسامات داخلية مختلفة، إما تنظر إلى أغسطس، والذي أصبح الإمبراطور الروماني في ذلك الوقت، أو إلى البارثيين. ثم تولى حكم أرمينية عدد من الأرتاشيزيين، ومن ضمنهم ملكة اسمها إيراتو Erato (وتظهر صورتها على إحدى العملات)، إما كتابعين للرومان أو البارثيين. وفي حوالي العام العاشر الميلادي، انتهت الأسرة، بعد فترة من نزاعات السلطة التي قضت على كثير من المنافسين. ثم سيطرت الإمبراطورية الرومانية تحت حكم أغسطس وورثته المباشرين على أرمينية في أغلب النصف الأول من القرن الأول من العصر المسيحي.

المجتمع والثقافة

أثناء فترة حكم أسرة أرتاشيزيان، ازداد تغلغل الهيلينية في أرمينية الكبرى. وأصبحت الآلهة الإغريقية المعادلة للآلهة الفارسية. الأرمينية أكثر انتشاراً؛ إذ أصبح زيوس بديلاً لأرمازد، وهيفاستوس بديلاً عن ميهر، وأرتيميس بدلاً من أناهيت، وهرقل بديلاً عن فاهاجن، وأفروديت بدلاً من أستغيك، وتير بدلاً من أبوللو. ولا بد أن الاتجاهات الفنية كانت مشابهة لتلك التي وجدت في كوماجينيه، والتي مزجت بين التقاليد الأحمينية والإغريقية.

وبلا شك، أحضر كهنة الإغريق وطوائفهم عديدًا من التماثيل إلى أرمينية، والتي لم يبق منها في وقتنا الحالي إلا الرأس البرونزي لأفروديت (رغم أن بعض المصادر تؤكد أنها لاناهايت أو إلهة أخرى). ولم يبق لنا من تلك الفترة أية لوحات من فن التصوير أو أي صروح معمارية. فلم يترك تدمير الثقافة الهيلينية - على أيدي كل من الساسانيين والمسيحيين الأوائل. وكذا بسبب الغزوات العديدة لأرمينية - إلا بقايا قليلة. ورغم التأثيرات الإغريقية والفارسية. استمر الأرمن في الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم؛ مما قد يكون علامة على شعور ناشئ بالهوية والخوف من ذوبانهم داخل ثقافات أخرى كما حدث لكوماجيني وقبادوكيا . وقد جاءت معظم معلوماتنا عن تلك الفترة من المصادر الرومانية والعملات التي سُكّت في تلك الفترة. ولم يكن الرومان بالضرورة موضوعيين فيما يختص بالأمور السياسية الخاصة بالأرمن. أما العملات، خاصة عملات تيجران العظيم، فهي تصور التاج الأرمني، والذي يُسمى تيارا Tiara. وكان فريدًا في تصميمه. إذ كان الإكليل الملكي المرصع بالجوهر ملفوفًا حول خوذة أشبه بالقبعة، على شكل مخروط قصير مزين بالطيور على جانبي نجمة ثمانية؛ وكان للتاج حاشية تصل إلى الكتفين. وصور الملوك الأرمن في تلك الفترة دون لحية مثل معظم الحكام الهيلينيين. ولم يبق شيء من أدب تلك الفترة، ولكن المصادر تشير إلى أن مشاهير الإغريق لجأوا إلى أرمينية، وأن أرتاقازد كان يكتب المآسي والخطب والقصص التاريخية باللغة الإغريقية. وكانت المسرحيات الإغريقية تُعرض في تيجراناكيرت وأرتاشات، وذهب عدد من الأرمن ليدرسوا في روما، وأحد هؤلاء يسمى تيران Tiran أصبح صديقًا لشيرون Cicero.

وكانت التجارة هي أساس الاقتصاد؛ خاصة أثناء حكم تيجران العظيم. يشير بلوتارخ إلى الأموال الكبيرة في تيجراناكيرت، والثراء الشامل لأرمينية. وكانت هناك دور لسك العملة في تيجراناكيرت وأرتاشات ودمشق وأنطاكية. واحتفظ الأرمن بجيش مجهز ولم يستخدموا المرتزقة. وكان معظم الناس فلاحين.. لكنهم لم يكونوا شديدي الارتباط بالأرض بعد، ولكن كانت أوضاعهم تقترب بازدياد من شكل عبودية الأرض. كانت الأرض ملكًا للملك والنبلاء، أو مجتمع القرية. وكانت العبودية موجودة، ولكنها لم تكن مؤسسة مهمة. ولم تشكل أساسًا للاقتصاد. وظهر النبلاء أو النخرار nakharars لأول مرة في تلك الفترة. فقد قام تيجران بتعيين بعضهم كحكام للمناطق البعيدة في إمبراطوريته،

بينما جعل آخرين، مثل النبلاء الأربعة العظماء أو نواب الملك، يعملون في خدمته في البلاط. وبدأ هيكل إداري مفكك إلى حد ما في الظهور في نهاية عصر أرتاشيزيان، والذي تطور إلى نظام أشبه بالنظام الإقطاعي، وكان له فيما بعد تأثير كبير على سياسات أرمينية، وعلى المجتمع الأرمني طوال القرون الخمسة عشرة التالية.

استطاعت أول أسرة أرمينية حاكمة أن تعيش لمدة مائتي عام، وأن تكون - لفترة قصيرة - قوة عظمى في المنطقة. وكان تدخل الرومان في آسيا وامتداد حكمهم إلى نهر الفرات يهدد العاصمة المجاورة للبارثيين، طيسفون. ولم يستطع البارثيون إزاحة الوجود الروماني، كما لم تتخلَّ روما عن أملها في أن تصبح مصدر قوة سياسية واقتصادية في الشرق الأوسط. وحاول الأرتاشازيون، في البداية، خلق دولة قوية قادرة على تحدي هذا التهديد المزدوج، وأدى انهيارها إلى بذل جهد فاشل في عمل علاقات توازن مع القوتين العظيمين. وفي فجر العصر المسيحي، أصبح استقلال أول مملكة أرمينية ضحية التنافس الشرقي - الغربي في آسيا الغربية.

6

الأسرة الأرساكية / الأرساكونية

أولاً

الأرساك في أرمينية : كيان بارثي. وتاج روماني (66-252 م)

كانت القرون الأربعة الأخيرة من العصر الكلاسيكي فترة عظيمة لحضارات العالم. ففي الأمريكتين. تشكلت حضارات التيوتيهواكية Teotihuacan، والموتشي Moche. والمايا. وفي الهند. دخلت أسرة جوبتا Gupta العصر الكلاسيكي الهندي. لتنتشر نفوذها إلى أركان جنوب آسيا. وفي الصين. حكمت أسرة هان لقرنين آخرين. واستطاعت الحفاظ بإدارتها المنظمة على وحدة الصين الثقافية. رغم التشرذمات السياسية وانتهاكات البدو التي استمرت لثلاثة قرون أخرى. وأحكمت قبيلة ياماتو حكمها على اليابان وغزت كوريا. وبدأت تتبنى بعض نواحي الثقافة الصينية. ومن ضمنها حروف الكتابة. ولكن أعظم التغييرات حدثت في فارس وروما. ورغم أن البارثيين استطاعوا أن يظلوا في الحكم قرنين آخرين. فقد ابتلوا بالغزو من البدو الرحل في الصحراء. وبالمعارك بين نبلائهم والأوبئة. والتخريب. وهجمات الرومان. وفي أوائل القرن الثالث. حلت محلهم أسرة فارسية جديدة أكثر قوة. هي الأسرة الساسانية. وسعت الأسرة الجديدة إلى القضاء على الهيلينية. وإحلال الديانة والثقافة الفارسيتين السابقتين على دخول الإسكندر محلها. ولا شك أن روما تركت أعظم أثر سياسي وثقافي على أوروبا والشرق الأوسط. فقد كانت الإمبراطورية الرومانية. التي حلت محل الجمهورية. مسئولة عن "السلام الروماني" *pax Romana*. وهي فترة من الأمان والنظام والانسجام والازدهار الثقافي والتوسع الاقتصادي. وبحلول القرن الرابع. كان انتشار المسيحية وقيام الإمبراطورية الرومانية الشرقية. الأمر الذي ضمَّ معه التراث الروماني أن يستمر لألفية أخرى. واعتمد مصير الأمم الصغيرة في المنطقة بوضوح على السياسة الرومانية. كما وضع مما حدث لليهود. الذين ثاروا ضد روما فأجبروا على ألفي عام من الشتات. أما بالنسبة للأرمن. فقد بلغت تلك الفترة قمتها في تشكيل دينهم ولغتهم القومية.

بعد وفاة الإمبراطور أغسطس عام 16 ميلادية. حاول حكام فارس من الأرشاكونيين التخلص من السيطرة الرومانية على أرمينية وبلاد ما بين النهرين. وكانت أرمينية الصغرى تدور في فلك الرومان أثناء حكم أغسطس. وأصبحت حينئذ تحت السيطرة الكاملة للرومان. الذين قاموا بتعيين عدد من الحكام الأرمن وغير الأرمن لحكمها. وكان قرب قوات رومانية كبيرة العدد في الشمال والغرب يهدد أمن فارس. كانت المكائد الرومانية. وسعي الأباطرة تيبيريوس وكاليجولا وكلاوديوس لأخذ الرهائن. يعطل السلام الداخلي لفارس باستمرار. ولهذا فطوال الخمسين سنة التالية ظلت أرمينية محل صراع بين الرومان والفرس. كان الحكام الرومان أو الأيبيريون (الجورجيين). أو غيرهم من الأجانب يحكمون أرمينية. بينما حاول البارثيون تولية مرشحيهم وتشجيع الشعب الأرمني على الثورة ضد روما. وسرعان ما دخل النبلاء الأرمن. الذين يعيشون في الجزء الشرقي من أرمينية في فلك البارثيين. بينما استمر أولئك الذين يعيشون في الجزء الغربي من أرمينية ينتظرون الحماية من الحكام الرومان في سوريا.

وفي عام 51 ميلادية. تولى فولوجسس الأول Vologeses عرش فارس. وتحدى روما بشكل مباشر عندما سعى للحصول على عرش أرمينية لأخيه الأصغر تردات Trdat (Tiridates). وظهرت فرصة عندما غزا ابن الملك الأيبيري أرمينية. واستولى على قلعة جارني من عمه. الذي كان الحاكم المعين من قبل روما. هذا العدوان والنهب الأيبيري. بالإضافة إلى سوء الإدارة الرومانية. لم يُثِر غضب الأرمن فقط. بل دفع فولوجسيس أيضاً إلى غزو أرمينية والاستيلاء على أرتاشات وتيجراناكيرت. لكن دخول فصل الشتاء أرغم البارثيين على الانسحاب. وعاد الأمير الأيبيري يعيثُ فساداً ودماراً وتخريباً في الشعب الأرمني. الذين ثاروا في النهاية ضد الحكم الروماني كله. وهنا استطاع البارثيون احتلال أرمينية وتولية تردات ملكاً.

وفي سنة 54 ميلادية. أرسل الإمبراطور نيرون الجنرال كوربولو ليتولى قيادة الجيش في سوريا. وليعيد توطيد السيطرة الرومانية على أرمينية. وأغار كوربولو على المناطق الأرمينية المؤيدة لفارس وشجع حكام أيبيريا وكوماجيني على مهاجمة الأراضي الحدودية لأرمينية. وفي الوقت نفسه. أغار البارثيون على المعسكرات الرومانية وهددوا مؤيدي

الرومان في أرمينية. وعندما حلّ عام 59، اضطر قولوجسس إلى أن يتجه لاحتواء الثورات الداخلية في فارس. بالإضافة إلى مواجهة القوة المتزايدة للكوشانيين Kushans في الشرق. فترك تردات دون دعم. غزا الرومان أرمينية، وأحرقوا المدن وعاثوا في السكان قتلاً واستعباداً. واستولى كوربولو على تيجراناكيرت وحرق العاصمة أرتاشات بالكامل. وهرب تردات إلى فارس. وعيّن نيرون تيجرانيس. من نسل هيرود العظيم حاكم أرمينية الصغرى، ملكاً على أرمينية.

وغادر كوربولو متجهاً إلى سوريا، وتم تعيين قائد جديد هو بايتوس Paetus، ووجه إليه الأمر بضم أرمينية. وكان البارثيون قد حلوا مشاكلهم الداخلية، فتحركوا لإعادة تأكيد مطلبهم. وفي عام 62 ميلادية، حاصر البارثيون الرومان في رانديا Rhandea، ووافق الرومان على الانسحاب من أرمينية. وأرسل قولوجسس رسلاً إلى نيرون يعرض عليه حلاً وسطاً، يصبح بمقتضاه تردات ملكاً على أرمينية الكبرى، على أن يتلقى تاجه من روما. رفض نيرون العرض: إذ كان يأمل في نصر عسكري آخر على أيدي كوربولو. ولكن الحملات الرومانية لم تسفر عن شيء. ونشأت عنها أزمة. وأخيراً في عام 64 ميلادية، وفي رانديا مرة أخرى. قبل الرومان تسوية السلطة المشتركة. ومنذ ذلك الوقت، سيظل الملوك الأرمن يأتون من بيت أرشاكوني الملكي الفارسي، بينما يتلقون سلطتهم من روما. وسافر تردات إلى روما وقام نيرون بتتويجه عام 66 ميلادية في احتفالات عظيمة كملك على أرمينية. وقدم نيرون تمويلاً لإعادة بناء أرتاشات. والتي سُميت تكريماً له لفترة مؤقتة باسم نيرونيا. واتحدت أرمينية الكبرى وصوفين لتصبح المملكة الأرمينية الأرشاكونية. أما أرمينية الصغرى، فقد ظلت دولة تابعة لروما يحكمها عضو من بيت هيرود.

الأرشاكيون في أرمينية

وهكذا. أسس تردات الأول الفرع الأرمني من الأرشاكيونيين البارثيين في عام 66 ميلادية. والذين سيصبحون بعد قرنين من الزمان أسرة حاكمة أرمينية. معروفة باسم الأرشاكيونيين (أرشاكيان) (Arshakuni (Arshakian). والتسلسل الزمني للأسرة الأرتسيكية/الأرشاكونية محل جدل. فلم يترك الملوك الأرشاكيون عمالات (لم يُمنح الأرشاكيونيون في أرمينية حق سك العملة)، وهي أداة أساسية يستخدمها المؤرخون

لمعرفة تواريخ حكم كل ملك. ولا توجد إلا مصادر قليلة حول تلك الفترة، نتيجة اندفاع الساسانيين إلى استئصال ومحو الثقافة الهلينية، فقد كان الساسانيون، كما سيأتي، يكونون كراهية خاصة للأرشاكين البارثيين وأقاربهم الأرمن. وأخيراً، دمر المسيحيون الأرمن الأوائل كثيراً من الصروح والسجلات التي بقيت بعد ما فعله الساسانيون.

بدأ الأرشاكيون الأرمن حكمهم بإعادة بناء أرمينية. فقد تم ترميم قلعة جارجي. وأضافت أخت تردت معبداً جديداً هناك. وأصبحت التأثيرات البارثية، سياسياً واجتماعياً وثقافياً، هي السائدة في أرمينية. ولا يُعرف الكثير عن فترة حكم تردت الأول، اللهم إلا تهديدات شعب الآلان Alans. وهو شعب جاء من القوقاز، وحملة قام بها تردت الأول على أيبيريا. وعادت التجارة بين آسيا وأوروبا، مما مكن أرمينية من تأمين استقلالها. ورغم أن نجم فارس بدأ في الأفول إبّان القرن الثاني الميلادي، فإن الأباطرة الرومان الذين جاءوا بعد نيرون (من جالبا إلى نيرفا) احترمو هذه الاتفاقية الخاصة بملوك الأرمن. وفي عام 72 ميلادية، عندما أغار الآلان على أرمينية وفارس، قرر الإمبراطور فيسباسيان أن يضم أرمينية الصغرى إلى مقاطعة قبادوكيا الرومانية، وأن يقوم بتحسين حدودها.

وكان الإمبراطور تراجان هو الذي خرق معاهدة رانديا، في عام 114م عندما اشتعلت حرب أهلية في فارس، فقام بغزو أرمينية. وكان مبرره هو استعادة الملك الشرعي لأرمينية الذي استبدل بمرشح لم توافق عليه روما. ورغم أن المرشح الذي لم يحظ بالموافقة كان قد قدم نفسه وطلب من تراجان تتويجه، ورفض الأخير. وأمر بقتله، وضم أرمينية كولاية رومانية. وظل تراجان في السنوات الثلاث التالية في الشرق. وفي عام 116م، تم الاستيلاء على طيسفون عاصمة الفرس أيضاً. وقام تراجان بتتويج ملك بارثي جديد، والذي أصبح تابعاً لروما. وهكذا وسعت روما حدودها إلى ما وراء نهر الفرات ووصلت إلى الخليج العربي، وهو أقصى امتداد وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية. لكن النصر كان قصير العمر، فقد كانت الخسائر العسكرية، وحركات التمرد، وموت تراجان في قيليقية عام 117م: الأمر الذي أجبر الإمبراطور الجديد، هادريان، على التراجع إلى حدوده السابقة عند نهر الفرات. وأعيد سريان اتفاقية رانديا عندما جاء أمير بارثي آخر، هو فاجارش الأول Vagharsh 117-140م، وتولى عرش أرمينية. وأثناء حكمه المديد، عادت التجارة والازدهار، وأسست مدينة فاغارشابات Vagharshapat، أو إتشيميادزين Ejmiansin الحالية.

البنية الاجتماعية لأرمينية تحت حكم الأرتسيكين

وفي الوقت نفسه، تغيرت البنية الاجتماعية لأرمينية. فقد أحضر تردت ومن أعقبه من حكام الأرشاكيونيين في أرمينية النبلاء البارثيين وأعضاء العائلات إلى أرمينية؛ حيث استقروا في إقطاعيات جديدة. واستمرت عائلات أخرى من النبلاء تهاجر إلى أرمينية. خاصة بعد سقوط الأرشاكيين في فارس. ومن بين تلك العائلات، كانت عائلات ماميكونيان وكامساراكان. وكانت ملامح الثقافة الهيلينية مثل اللغة والآلهة والمسرح وغيرها مألوفة بالنسبة للطبقات العليا لكل من أرمينية وفارس، ومن ثم شعر النبلاء البارثيون بأنهم في وطنهم. وأصبح من المعتاد أن يتزوج الأرتستقراطيون فيما بينهم. وكان الناس يتكلمون كلاً من اللغة الفارسية والبارثية. وبدأت الحروف الآرامية تتراجع تدريجياً لتحل محلها حروف الكتابة البارثية، التي كانت مشتقة من الآرامية. ووجد المزيد من الكلمات الفارسية طريقه إلى المفردات الأرمينية. وترجع معظم الكلمات الفارسية البالغة ألفين ومشتقاتها في اللغة الأرمينية الكلاسيكية إلى تلك الفترة، وتتعلق أساساً بالحرب والصيد والتجارة والبلاط والهيكل السياسي.

وكما سبق الذكر، كانت روما من حين لآخر تتحدى اختيار البارثيين للتاج الأرميني بغزو أرمينية. وكانت الطريقة الوحيدة لتوكيد استمرار الحكومة ولتثبيت تدخل الرومان، هو تبني العادة البارثية من تعيين نبلاء من ذوي الرتب العالية للبلاط المتوارث والوظائف الإدارية، وإقطاعهم الإقطاعيات في مقابل الخدمة العسكرية.. ومن ثم تشكلت طبقة نبلاء تدين بالولاء؛ حيث تعتمد أوضاعهم وأراضيهم على الأرشاكيين. وفي النهاية قُسمت أرمينية إلى خمس عشرة مقاطعة. وظهرت تراتبية بارزة على رأسها الملك، الذي كان الأول بين أقرانه، والذي كان يحكم المقاطعة المركزية لأرمينية. ويأتي بعده مباشرة النبلاء، المعروفون باسم "نخرا". وكانت حقوق النخرا في أراضيهم وألقابهم لا يمكن نقلها ويتم توارثها من خلال قانون حق البكورة. وكان النخرا الرئيسيون يستطيعون أن يحشدوا ما يصل إلى عشرة آلاف من الفرسان المقاتلين في وقت الحرب، ومن ثم حلت قوة إقطاعية محل الجيش الأرتاشيزي. ومنح أربعة من النخرا لقب بتيشخ bdeskhk (نائب الملك أو الحاكم العسكري لمنطقة حدودية)، ومنحوا مناطق واسعة ومسئولية عن

حراسة الحدود الشمالية والجنوبية لأرمينية. وكانت المقاطعات الأخرى لأرمينية الكبرى تحت سيطرة النخرار الآخرين (انظر خريطة 9). وللاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على النخرار، كان الملك - كما أصبح من التقاليد فيما بعد في الإقطاع الغربي - يمنحهم مناصب مختلفة. وعلى سبيل المثال، أعطي منصب المتوج عائلة بجاتوني Bagratuni: وأصبح ماميكونيان Mamikonians هم السبارايتت sparapets أو قادة القوات المسلحة؛ وأصبحت عائلة جنوني Gnunis هم الهازارايتت hazarapct. أو كبار الموظفين المسؤولين عن الضرائب والإنتاج الغذائي. كما كان هناك منصب مارديبيت mardpet، أو الحاجب الملكي، والذي كان مسؤولاً عن قصر الملك والخزانة وشئون الأسرة. وكان الماردبيت دائماً مخصباً مما يشير إلى وجود حريم ملكي.

ولم يكن النخرار متساوين في المنزلة: إذ كان مكان كل منهم أو وسادته على المائدة الملكية يشير إلى مكانته. وتلك عادة فارسية أخرى. وقائمة المناصب، التي تسمى جهنمامك، تختلف بالطبع من وقت لآخر. كان "السيبوه" sebuhs، أو الأمراء الصغار، يأتون بعد النخرار والأزات، أو الفرسان، الذين كانوا يمتلكون إقطاعيات صغيرة، وتتشكل منهم قوات الفرسان. وكانت هذه الجماعات الثلاث كلها مستثناة من العقاب البدني، كما كانت، فيما عدا الأزات، مستثناة من الضرائب. وكانت بقية المجتمع تقع تحت تصنيف الـ "راميك" ramik، وهؤلاء يشملون سكان المدن وأقناتن الريف (شيناكان). وكان الراميك يقومون بدور المشاه في أوقات الحرب ويدفعون الضرائب. وكان الحرفيون والتجار، والذين كان بعضهم من الأجانب، يعيشون في المدن. وكانت مؤسسة العبودية، في ذلك الوقت، تتضاءل.

وشهد القرن الثاني من حكم أرشاكوني في أرمينية استمرار التنافس الروماني البارثي، وتهديدات من حين لآخر من الأيبيريين والآلان. واحتفظ النخرار بمناطقهم محمية جيداً بمساعدة الطبيعة الجبلية المحيطة. كما احتفظوا باستقلال أرمينية بتكاتفهم معاً بالإضافة إلى مساعدة البارثيين. وبعد فاجارش، تولى حكم أرمينية عدد من القواد الرومان والفرس. وفي 186م، أصبح أمير بارثي آخر يسمى فاغارش Vagharsh ملكاً على أرمينية (فاغارش الثاني Vagharsh). وفي عام 191م ترك أرمينية لتولي تاج فارس وتوج ابنه خسرو ملكاً على أرمينية (خسرو الأول). وحكم خسرو أثناء فترة حكم

الأباطرة الرومان سبتيروس Septimus وسقيروس Severus وكاراكال Caracalla. واضطر لمواجهة التوسع الروماني في بلاد ما بين النهرين. وسرعان ما أسر كاراكالاً خسرو، ثم أرسل الموظفين الرومان ليحكموا أرمينية. ولكن لا روما ولا فارس كانت تتوقع ما تلا ذلك: لقد ثار الأرمن ثورة مسلحة، حتى أنهم هزموا الجنرال الروماني الذي أرسل لقمعهم. ويبدو أن الشعب الأرميني كان، عند بدايات القرن الثالث الميلادي، قد تعب من تدخل الرومان في شئونهم. والأكثر أهمية، أن الحكام الأرشاكيين، الذين بقوا في أرمينية لفترات زمنية طويلة قد أصبحوا أرمن. واعتبروا أرمينية وطنهم. وفي الوقت نفسه، كان الأرمن قد قبلوا العادات البارثية ووجدوا أن لغتهم مشابهة للغتهم، وأن الحكم البارثي كان أكثر رقة وتساهلاً، فكانوا يفضلون البارثيين على الرومان. وبعد اتفاق جديد بين روما وفارس، تم تويج ابن خسرو، تردات الثاني (217-252م) ملكاً على أرمينية. ووفقاً للتقاليد الراسخة، تلقى تاجه من الإمبراطور الروماني، والذي كان في هذا الوقت هو ماكريينوس Macrinus. لكن تردات الثاني كان أول ملك أرشاكوني تربى في أرمينية، وجاء بعد أبيه ملكاً على أرمينية. وكان حكمه المديد، مقترناً بالحروب الأهلية في روما، فلم يمكن أرمينية من أخذ راحة من التنافس الشرقي-الغربي فحسب. ولكن مكنتها أيضاً من فصل نفسها عن الأسرة الأرتساكية الفارسية، وتأسيس فرع أرميني بالكامل-الأرشاكيون- عند بداية القرن الثالث.

ثانياً

الصليب والكتابة - الأرشاكيون

(217- 428 م)

الساسانيون وأرمينية

بنهاية القرن الثاني، بدأت السلطة الأرشاكية في فارس تضعف. وكان ذلك بسبب أن السياسة الرومانية في سوريا شجعت حكامها العسكريين على التدخل باستمرار في السياسات الفارسية لتقويض الأرشاكين. وهي إستراتيجية كانت ناجحة إلى حد بعيد. وجاء انتشار وباء الجدري للعين ليضيف إلى المتاعب الاقتصادية الناجمة عن الحرب، ومن ثم أضعف سلطة الأرشاكين، حتى أنه في عام 226م. قام أردشير، مؤسس الأسرة الساسانية، بالإطاحة بهم. وغيرت الثورة الساسانية من الشرق الأوسط. وأضررت بالروابط السياسية والدينية الأرمينية. الفارسية.

اختلف الساسانيون في أوجه كثيرة أساسية عن سبقتهم في فارس. وتلك حقيقة كانت لها عواقب مهمة بالنسبة لأرمينية. فقد احتفظ الساسانيون بإدارة شديدة المركزية وتمسكوا بذكرى أرمينية كجزء من المملكة الفارسية الأخمينية. واذ كانت الدولة الساسانية خصماً لروما أقوى مما كانت عليه الدولة الأرشاكية، فإنها لم تتردد في انتهاك اتفاقية رانديا، والتصرف من جانب أحادي تجاه أرمينية. وكان حماس الساسانيين المتوقد للديانة الزرادشتية كديانة رسمية للإمبراطورية لا يعني فقط اضطهاد الطوائف الدينية الأخرى في أرمينية، بل أيضاً استئصال الثقافة الهيلينية في فارس، وإلى حد ما، في أرمينية. واذ لم تعد أرمينية قادرة على الاعتماد على أقربائها من الأسرة الأرشاكية في فارس. كان عليها أن تعتمد على روما وحدها للحماية. لقد أفاد الحكم الساساني أرمينية في شيء واحد: فقد أصبح من الممكن لأرمينية أن تولي العرش لأعضاء من العائلة الملكية الخاصة بها. مما أدى إلى ظهور أسرة أرمينية ملكية حقيقية. تسمى الأسرة الأرشاكونية. واستطاع الأرشاكيون أن يتولوا الملك تحت حكم الساسانيين لقرون من الزمان. ويرجع ذلك إلى مهاراتهم السياسية والمساعدة الرومانية من حين لآخر، وحدثين وحدا شعب الأرمن كما لم يحدث من قبل: دخول المسيحية، واختراع الأبجدية الأرمينية.

كان على تردت الثاني أن يحكم في مواجهة هذه السياسة الفارسية الجديدة تجاه أرمينية وبلاد ما بين النهرين. فتعاونت أرمينية مع روما أثناء حملات الإمبراطور سفيروس ألكسندر Severus Alexander لإيقاف توسع أردشير. ولكن في عام 244 م كانت الحالة قد تغيرت بشدة؛ إذ هزم الملك الساساني العظيم، شابور الأول (240-270م) الإمبراطور الروماني جورديان في بلاد ما بين النهرين. ثم عقد اتفاقية سلام مع الإمبراطور فيليب، الذي وافق ليس فقط على دفع فدية للأسرى وجزية سنوية، ولكن أيضاً على التخلي عن الحماية الرومانية لأرمينية الكبرى. وبعد ستة عشر عاماً، تعرضت روما للمزيد من المهانة عندما هُزم الإمبراطور فاليريان، ووقع في الأسر، على يد شابور في كارهي بسوريا. وفي 252 م غزا شابور أرمينية واحتلتها. ومن المحتمل أن تردت الثاني هرب إلى روما في ذلك الوقت، وضم شابور أرمينية إلى الإمبراطورية الفارسية، ووضع ابنه هورمازد Hurmazd على عرشها. وحكم هورمازد أرمينية حتى موت والده عام 270م، عندما تركها ليتولى العرش الفارسي. وخلفه أخوه، نارسية، الذي حكم أجزاء من أرمينية حتى عام 293م. ورغم أن قوة فارس، والسيطرة المباشرة للساسانيين على أرمينية الكبرى، وقمت في سبيل الحكم المستقل للأرشاكانيين، فإنها قد أفادت في تمتع أرمينية بفترة ممتدة من السلام. وتحسن حظ الرومان بعد وفاة شابور، وبنهاية القرن الثالث، استطاعت روما تحت حكم دقلديانوس توكيد نفوذها في الأجزاء الغربية من أرمينية الكبرى وبلاد ما بين النهرين. وعقد اتفاق وساطة بين روما وفارس؛ مما أتاح للرومان استعادة حكم الأسرة الأرشاكية الأرمينية وتولية الملك خسرو الثاني، الذي يبدو أنه حكم المقاطعات الغربية لأرمينية الكبرى بين عامي 279 و287م. وتأمّر الساسانيون، الذين ظلوا ينظرون إلى أرمينية كلها كمنطقة تابعة لهم، ضد خسرو والنخزار المؤيدين لروما من خلال شقيق الملك، الذي قتل خسرو وتعاون هو وأرمن آخرون مؤيدون لفارس مع الساسانيين لإعادة توطيد السيطرة على كل أرمينية الكبرى. أما ابن خسرو، تردت الثالث، فإما أنه هرب إلى روما أو كان في روما بالفعل. حيث تلقى تعليمه على الطريقة الرومانية، مثله في ذلك مثل أبناء حلفاء روما الآخرين. وأصبح قاتل خسرو حاكماً على أرمينية الكبرى. وفي عام 293 م غادرها نارسية Narseh ليتولى حكم فارس. وفي ذلك الوقت ظل تردت في بلاد دقلديانوس حتى هزمت روما نارسية عام 298م، واستعاد تردت عرش أبيه بمساعدة جيش روماني. وفي

اتفاقية سلام نصيبين (نزيب) (Nisibis (Mdsbin). اتفقت فارس وروما مرة أخرى على استقلال أرمينية، تحت حكم الأسرة الأرشاكية كدولة حاضرة بين الإمبراطوريتين. لكن الحدود الأرمينية أعيد تخطيطها مرة أخرى. وفُصلت معظم صوفيين عن أرمينية الكبرى. وأصبح النخرا الأرمن ولاة مستقلين ومحالفين لروما. وتوسعت أرمينية الصغرى نحو الجنوب، وانفصلت عن قبادوكيا، وأصبحت مقاطعة منفصلة.

تنازل دقلديانوس عن العرش، وحدث انقسام داخل الإمبراطورية، وبذل قسطنطين مجهوداته لتوحيدها، وقد شغلت هذه الأحداث الرومان طوال السنوات الأولى من القرن الرابع، فبقيت أرمينية دون حماية في فترة زمنية حرجة للغاية. فقد تولى ملك ساساني قوي آخر هو شابور الثاني (309-379م). وأعاد شابور تجديد هجمات الفرس على أرمينية وسوريا، وشجع على التحول إلى الزرادشتية في أرمينية. وقرب ما بين الطوائف المحلية والزرادشتية التقليدية بتدمير التماثيل ومنع عبادة الأوثان. وعلى هذه الخلفية، أثناء حكم تردت الثالث، المعروف بتردات العظيم، أصبحت أرمينية أول دولة تعتنق المسيحية كديانة رسمية.

المسيحية في أرمينية

كان تحول أرمينية إلى الديانة المسيحية من أهم الأحداث الحاسمة في تاريخ الأرمن. وباعتناق الديانة الجديدة في القرن الرابع، تخلت أرمينية عن ماضيها الشرقي المتأثر بالفرس، ووضعت أسس ديانة مسيحية متميزة ذات شخصية خاصة بها. وفي بعض العصور، كانت تعتبر هويتها جزءاً من العالم الغربي.

وتعتمد الرواية التقليدية للتحول إلى المسيحية على خليط من الحقائق والخيالات التي سُجلت، بعد قرن من ذلك، على يديّ المؤرخ الأرمني المعروف باسم أجاتانجيلوس Agathangelos. وتروي عن الحروب التي خاضها ملك أرمني. هو خسرو (ربما خسرو الثاني)، ضد الأسرة الساسانية الفارسية، ومحاولات فارس لتدمير الأرشاكيين الأرمن. وعين الملك الفارسي خائناً يسمى أنك (قد يكون شقيق خسرو) لقتل الملك الأرمني. واستقر أنك في أرمينية، على وعد من الساسانيين بمكافأته، وتصادق مع خسرو وقتله ومعظم أفراد عائلته. وقام رجال البلاد الأرمن الغاضبين بذبح أنك بدوره هو وأفراد

عائلته. ولم ينج من الموت سوى صبيين: ابن خسرو تردات (وقد تكون إشارة إلى تردات الثالث)، الذي أخذ إلى روما، وابن أنك (والذي سيصبح في المستقبل القديس جريجوري المُنوّر (Gregory the Illuminator)، الذي أخذ للحياة مع المسيحيين في قبادوكيا . وبعد سنوات، وفقاً لرواية أجاتانجيلوس، عاد تردات إلى أرمينية بمساعدة الرومان. لاستعادة عرش أبيه. وعندما مر عبر قيصرية Caesarea، قابل ابن أنك، الذي كان معلموه المسيحيون قد أطلقوا عليه اسم جريجوري، وأخذته تردات ضمن حاشيته، وهو لا يعلم شخصيته الحقيقية. وبعد استعادة أرمينية، اكتشف تردات قدرات عظيمة في جريجوري. فرفع مقامه في البلاط. وكان جريجوري بالطبع قد دخل الديانة المسيحية وتجنب الطقوس الوثنية. وسرعان ما بدأ النبلاء الذين شعروا بالغيرة منه ينشرون الإشاعات عن أصله. مما أدى إلى تعذيبه وسجنه في خورفيراب (أي "حفرة عميقة"). ومرت سنوات. واستمر تردات. مثل أبيه الروحي دقلديانوس، في اضطهاد المسيحيين. ومن بين شهداء تلك الفترة جاياتي Gayane وهريبيسي Hripsime، واللذان كانتا عذراوان رفضتا عروض تردات وحكم عليهما بالموت. ووفقاً لأجاتانجيلوس، عوقب تردات على ذنوبه بالتحول إلى خنزير بري. ولم يستطع أحد أن يشفيه من هذا التحول حتى رأت أخته، خسروفيدوخت، في المنام ملاكاً يأمرها بتحرير جريجوري، والذي، رغم السنوات الطويلة في السجن الانفرادي، استطاع البقاء في الحفرة بتدخل إلهي أو بشري. واستطاع جريجوري شفاء الملك. والذي أعلن في 301 م أن المسيحية هي الديانة الرسمية الوحيدة، ليجعل من أرمينية أول دولة مسيحية. ثم سافر جريجوري إلى قيصرية ليتلقى ترسيم رجل الدين على يد الأسقف الإغريقي هناك. وهو فعل سوف يكون له أصداء خطيرة فيما بعد على الكنيسة الأرمنية. وعند عودته. قام جريجوري بتعميد الملك وكل النبلاء الأرمن. ودمر المعابد الوثنية. وبنى مكانها كنائس وأديرة للشهداء الأرمن. وفي قاغارشابات، على بقعة دله عليها المسيح عندما ظهر له في رؤيا، بنى الكاتدرائية العظيمة كاتدرائية إتشميادزين (والاسم يعني «البقعة التي نزل بها الابن الوحيد من السماء») على أنقاض معبد أناهيت.

ظلت هذه القصة الأسطورية حتى العصور الحديثة مقبولة باعتبارها الوصف الدقيق للعوامل. التي أدت بأرمينية لأن تصبح أول دولة تتخذ المسيحية ديناً رسمياً. لكنها، مثل

معظم القصص، لا تشرح القصة بالكامل، ولا تعطي تسلسلاً دقيقاً للأحداث، ولفهم أسباب تحول أرمينية إلى الدين المسيحي، لا بد أن ننظر إلى التطورات السياسية والاجتماعية في فارس وروما وأرمينية خلال القرن السابق. ورغم أن الوثائق التاريخية نادرة ومتناثرة ومربكة، فإنه من الواضح أن الضغوط الخارجية، خاصة من بلاد الفرس الزرادشتية، وحكامها الجدد المتعصبين من الأسرة الساسانية هي التي أعطت العرش الأرمني الحافز على توحيد الشعب وراء المسيحية.

وكانت المسيحية تنتشر كديانة سرية وممنوعة في فلسطين وسوريا، اللتين كانتا ولايتين تابعيتين لروما، خاصة في مدينة الرها، ومنها انتشرت إلى جنوب أرمينية في وقت مبكر يرجع إلى القرن الأول. وتدعي رواية أرمينية أخرى أن أحد الملوك، وهو أبكار ملك الرها، قد طلب من المسيح أن يأتي إلى مملكته لمعالجه من مرض. وبعد القيامة (قيامه المسيح)، ذهب الرسولان ثاديوس وبارثولوميو إلى الرها لنشر المسيحية في سوريا. ثم ذهب ثاديوس إلى أرمينية حيث كان يعظ، وقتل شهيداً بأمر من الملك الأرمني. ونتيجة لهذه الرواية، تعتبر الكنيسة الأرمينية نفسها رسولية. وفي القرن الثاني، كان في أرمينية عدد من الخلايا المسيحية السرية في المقاطعات الجنوبية والغربية، والتي ضمنت حماية بعض النبلاء المحليين. وفي القرن الثالث، كانت العبادات المسيحية تمارس في أرمينية، رغم أنها كانت لا تزال شبه سرية، إلى جانب المعتقدات الهيلينية والسابقة على الهيلينية. وعقيدة مثنوية أخرى هي المانوية⁽¹⁷⁾. ووفقاً لإيوسيبوس Eusebius⁽¹⁸⁾، ثمة أسقف أرميني يسمى موشغ Mushegh، تبادل مراسلات في عام 250م مع المسيحيين في الإسكندرية. ومن المحتمل أن جريجوري، الذي كان أصلاً من عائلة بارثية، قد اتصل بالمسيحيين في أرمينية خلال النصف الثاني من القرن الثالث.

تغيرت الحالة بشدة بعد أن حول الساسانيون الزرادشتية من ديانة للطبقة العليا من المجتمع إلى ديانة رسمية لفارس. فقد برزت عقيدة رسمية، يدعمها نشاط إرسالي

(17) المانوية: ديانة فارسية أسسها ماني. مزيجاً من الزرادشتية واليهودية والمسيحية. وهي ديانة مثنوية. أي تؤمن بوجود الهين للخير والشر.

(18) Eusebius: إيوسيبوس القيصري (263-339م). كان أسقفاً لكنيسة مدينة قيصرية الفلسطينية. تلقى تعليمه في مكتبة الإسكندرية وعاش فترة في مصر. يعتبر -أبو مؤرخي الكنيسة-. لأعماله في تسجيل تاريخ الكنيسة المسيحية المبكرة. (المنزجعة)

شديد التحمس. وكان تهديداً لهوية أرمنية السياسية والدينية أيضاً. ومن ناحية أخرى. كان الاضطهاد المكشوف للمسيحيين في الإمبراطورية الرومانية قد خفت حدته برحيل دقلديانوس. وازدادت شعبية الديانة المسيحية في سوريا. والمقاطعات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية. وفي عام 313م. أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلان Edict of Milan. وبموجبه أعفي المسيحيين من أداء الشعائر الوثنية. ومنح ديانتهم التسامح نفسه الممنوح للديانات الأخرى. وأعاد إليهم أملاكهم المصادرة.

والتاريخ التقليدي لعام 301 م محل جدل. من غير المحتمل أن يكون تردت قد قيل ديانة كان يمتقتها دقلديانوس. وهو الإمبراطور الذي كان جيشه يحافظ على استمرار تردت على العرش. والأكثر احتمالاً أن تردت وبعض قواده قد تحولوا إلى الديانة المسيحية في عام 301م. لكنهم لم يعلنوا ذلك حتى صدور مرسوم ميلان. وبعده مباشرة. ربما في عام 314م وليس في التاريخ المتعارف عليه في عام 301م. كانت أرمنية مستعدة سياسياً لأن تصبح أول أمة تتخذ المسيحية ديانة رسمية. وينبغي أن نذكر أن الكنائس الأثيوبية والقبطية والسريانية كلها أيضاً تدعى أنها أول مؤسسات مسيحية. ويرى بعض المؤرخين أن المسيحية أصبحت الديانة الرئيسية للإمبراطورية الرومانية بعد مجمع نيقية Nicea مباشرة (325م). و أخيراً. في سنة 380م. أعلن الإمبراطور ثيودسيوس Theodosius المسيحية الديانة الرسمية الوحيدة للإمبراطورية الرومانية. واستهل ثاني مجمع مسكوني في القسطنطينية (381م)⁽¹⁹⁾.

وفي المسيحية. وجد زعماء الأرمن ديانة تتسامح معها حليفتهم القوية، وفي الوقت نفسه تمتلك توهجاً قوياً يكفي للوقوف أمام الزرادشتية. ورغم أن الوثنية استمرت لبعض الوقت. بل ونتج عنها استشهاد عدد من قادة الكنيسة الأرمنية. فإن الديانة المسيحية الجديدة فرضت على الجميع. ودُمرت المعابد الهيلينية. وبنيت الكنائس مكانها. كما حدث مع الرومان الذين بنيت كنائسهم المبكرة فوق المزارات الوثنية. وحدث الشيء نفسه بالنسبة لكاتدرائية إتشميادزين. التي بُنيت بعد الرؤيا الإلهية لجريجوري فوق المعبد الكبير لأنهايت في فاغارشابات. وراحت المبشرون المسيحيون ينشرون العقيدة الجديدة

(19) التمرعة المسكونية ecumenicalism التي تنوق إلى الوحدة المسيحية في العالم. (المرجمة)

في جميع أنحاء أرمينية وجورجيا وألبانيا القوقازية. وكانت هذه الجهود كئيبة باستمرار المسيحية كديانة لأرمينية وكحائل أمام المعتقدات الفارسية الميثوية⁽²⁰⁾.

واتبع نظام الكنيسة النظام الإقطاعي. فقد كانت عائلة جريجوري المُنور Gregory the Illuminator تتوارث. لبعض الوقت. منصب الجاثليق. أو البطريرك الأعلى للكنيسة الأرمينية. واختير الأساقفة من بين عائلات النخّار. وكانت المناصب الدينية الأدنى تغطي لفئة من طبقة الأزمات azat ويتلقون إقطاعيات من الأساقفة مقابل خدماتهم. وقام الأساقفة والكهنة بدور القضاة. مع قيام البطريرك الأكبر بدور القاضي الأكبر. وأصبحت الكنيسة مركز قوة رئيسياً في أرمينية. وساعدت في خلق هوية أرمينية متميزة. وبعد مرور قرن تقريباً على هذه الأحداث. جاء اختراع الحروف الأرمينية ليزيد من تقوية هذه الهوية المتميزة.

أرمينية في القرن الرابع

مجعاً نيقية والقسطنطينية

في سنة 325م. أثناء حكم ترادات الثالث. جمع الإمبراطور قسطنطين أول مجمع مسكوني للكنيسة المسيحية للالتقاء في نيقية بأسيا الصغرى. وقد مثل أرمينية في هذا المجمع أريستاكيس Aristakes. ابن جريجوري. وكان هدف المجمع الأساسي هو تحديد قانون الإيمان المسيحي. وحل الخلاف بين أريوس والأسقف ألكسندر أسقف الإسكندرية. أكد أريوس⁽²¹⁾ أن المسيح لم يكن من نفس جوهر الله. ومن ثم فهو ليس إلهاً. بينما رأى ألكسندر. وخليفته إثناسيوس. مبدأ الجوهر الواحد. رفض المجمع الأريوسية Arianism. لكن كان هناك بعض الأساقفة الذين لم يقبلوا قرارات نيقية كلها. وكان بقاء الانقسام بين الأساقفة يعني استمرار سلطة الإمبراطور على الكنيسة. ومن ثم. فإن قسطنطين ومجموعة ممن خلفوه سمحوا باستمرار المناظرة الأريوسية. وتبع ملوك أرمينية نموذج حكام روما. وتكررت صداماتهم مع قادة كنيستهم. وظل الأمر كذلك حتى عام 381م. عندما قبل الإمبراطور ثيودوسيوس أحكام المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية. والذي أيد الإثناسية. فانتهى أخيراً الصراع بين الكنيستين الأرمينية والإغريقية ومملكتيهما.

(20) التي تؤمن بوجود الهين للخير والشر. مثل الديانة المانوية التي كانت مزيجاً من الزرادشتية واليهودية والمسيحية. (المرجمة)
(21) أريوس Arius (250-336م) لاهوتي نصراني (سكندري) يوناني. قال بأن المسيح مخلوق وليس إلهاً. (المرجمة)

أرشاك الثاني

كان القرن الرابع فترة مضطربة بالنسبة لأرمينية؛ إذ تسببت فترة حكم شابور الثاني التي طالت سبعين عاماً، ومحاولاته إزاحة الوجود الروماني من أرمينية وبلاد ما وراء النهرين في تخريب الاقتصاد الأرمني. وأتاحت الأحوال السياسية والاجتماعية الاقتصادية في أرمينية أن يقوم النخراخ بدور رئيسي في السياسة المحلية. وكان بعض النخراخ يفضلون روما، وبعض آخر يفضل فارس، بينما كان آخرون يحاولون إرساء أسس استقلالهم الخاص.

وكما في كثير من الفترات التاريخية للأرشاكيين، لا توجد معلومات كافية عن الحكام بين ترداد الثالث وأرشاك الثاني. وهناك إشارات إلى خسرو الثالث (المعروف باسم "كوتاك" «Kotak» القصير) في عدد من المصادر كحاكم، منذ عام 330م إلى عام 338م. وبنائه عاصمة جديدة في دفين. وهناك معلومات أكثر عن حكم أرشاك الثاني Arshak. ويؤكد بعض المؤرخين أن أرشاك الثاني بدأ حكمه عام 338م، رغم أنه من المرجح أنه استهل حكمه عام 350م. بعد حملة شابور الثالث على روما. وكل ما هو معروف عن أرشاك تقريباً يأتي من مصادر كنسية. والتي، كما سوف نرى. كان لديها أسباب في رسم صورة بعيدة عن الإطراء لهذا الحاكم. يبدو أن أرشاك كان قد تولى العرش كنسوية بين الإمبراطور قسطنطين الثاني وشابور. وكانت إقامة البلاط الملكي نادرة في العاصمة الجديدة دفين أثناء حكم أرشاك: إذ كانت إعادة البناء والتنظيم هما أهم أهدافه.

وكانت الكنيسة تضع من أهدافها إعادة البناء والتنظيم أيضاً. كان الجاثليق الأرمني الجديد، نيرسيس الأول. من البيت الجريجوري. قد دعا إلى أول مجمع للكنيسة الأرمينية في أشتيشات Ashtishat. ونتيجة لهذا المجمع، أقيمت المستشفيات ودور الأيتام، وتم منع ممارسة الشعائر الوثنية والزرادشتية. وأثناء هذه الفترة، سُمح للرجال المتزوجين بالالتحاق بمناصب دينية عليا. بشرط ألا يعيشوا بعد ذلك مع زوجاتهم. لكن بمرور الوقت، تكونت تراتبية من طبقتين. فكان الإكليروس الأعزب أعلى منزلة، والإكليروس غير الأعزب أقل منزلة.

واحتفظ أرشاك، متبعاً لنموذج الأباطرة الرومان، بموقف مؤيد للأريوسية. وعندما اعترض نيرسيس، وضع أرشاك بدلاً منه جاثليقاً أكثر تعاوناً. ثم حاول أن يضع سادة الإقطاع تحت سيطرته بقتل من يعارضونه. تمرد النبلاء ولجأ أرشاك وأتباعه إلى

مدينة أرشاكافان الجديدة، التي سرعان ما تم تدميرها. وضاعفت الأرملة بارانتسيم Parantsem من مشاكل أرشاك. ووفقًا لبعض الروايات أنه تزوج منها وزوجته الأولى لا تزال على قيد الحياة. واتهمه البعض بأنه قتل زوجته لكي يتزوج بارانتسيم. كان وضع أرشاك مرتبطًا بالوجود الروماني في غرب أرمينية. وطالما استطاعت روما أن تقاوم شابور، كان هو في أمان. ولكن عندما هزم شابور الإمبراطور جوليان (المرتد). وأجبر الإمبراطور جوفيان على تسليم أرمينية الغربية عام 364م. كان مصير أرشاك قد أصبح محتومًا. وصدرت الأوامر بإحضار الملك وقائد جيشه فاساك ماميكونيان Vasak Mamikonian إلى فارس حيث تعرضا للتعذيب والإعدام. ثم قُتلا. وقاومت بارانتسيم بشجاعة بطولية، لكنها أيضًا فقدت حياتها. وهرب پاپ. ابن أرشاك. إلى پنطس. ونهب شابور عددًا من المدن الأرمينية. وأخذ آلاف الأسرى إلى فارس. ومرة أخرى حول أرمينية إلى ولاية فارسية. وأقيمت معابد زرادشتية لتحل محل بعض الكنائس. وتم تعيين اثنين من النخرار المواليين للفرس لحكم أرمينية كاثنين من التابعين للساسانيين. وكانا على علاقة بالبيت الملكي الفارسي، ومن المحتمل أنهما تحولوا إلى الزرادشتية.

تقسيم أرمينية

لم يكن من الممكن أن تتحمل روما سيطرة الفرس على أرمينية. وفي 367م. قام الإمبراطور فالينز Valens، الذي أصبح حاكمًا للمقاطعات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية. بتوفير التمويل والقوات اللازمة لـ پاپ والجنرال الأرمني موشغ ماميكونيان Mushegh Mamikonian. واستطاعت القوة الأرمينية الرومانية هزيمة الفرس في باجاقان. وطلب پاپ من الجاثليق نيرسيس أن يعود. وحاول أن يوفق بين الكنيسة والنخرار. لكن مثل فالينز ووالده من قبله. كان پاپ يؤيد الأريوسية. ونتيجة لذلك. نشأ صراع بين الكنيسة والنخرار: وسرعان ما قُتل نيرسيس وانقلب معظم النخرار. ومن ضمنهم موشغ ماميكونيان، على الملك. وتخلّى نخرار صوفين، الذين استطاعوا الاحتفاظ باستقلالهم منذ اتفاق نصيبين. عن الملك وأعادوا تسمية مناطق صوفين الخمس بالدولة الخماسية أو الولايات الجنوبية كمنطقة مستقلة تحت حماية روما. وفي عام 374م. قُتل پاپ بارتياح في روما. وأعقبه ابن اخته، الذي لم يحكم طويلًا وحل محله بيت ماميكونيان، والذي

كان حكمه قصير المدى. ولحسن حظ أرمنية، مات شابور عام 379م، أما الإمبراطورية الرومانية، فسرعان ما قُسمت إلى قسمين غربي وشرقي (بيزنطي) (انظر خريطة 10). وفي النهاية قامت أسرة ماميكونيان بإعادة العرش الأرشاكي لابني باب الصغيرين، ولكنهم احتفظوا بعلاقات قوية بمركز القوة، بتزويجهما من فتاتين من أسرة ماميكونيان. وأجبر النخرار المواليون لفارس أرشاك الثالث، الابن الأصغر لـ باب، على الهرب عام 385م إلى الجزء الغربي من البلاد، والسعي إلى حماية بيزنطة. وقام النخرار بتصعيد أمير أرشاكي موالي لفارس، هو خسرو الرابع، ليكون ملكاً على أرمنية. وعلى أثر الحروب الطويلة التي لم تؤد إلا إلى مزيد من التورط والمآزق، قرر الإمبراطور ثيودوسيوس وشابور الثالث تقسيم أرمنية سنة 387م. وأخذت بيزنطة القسم الأصغر، الذي يمتد غرب ثيودوسيوبوليس Theodosiopolis (أرضروم Erzerum الحالية) في الشمال، ومارتيروبوليس في الجنوب، ويشمل ذلك أرمنية الصغرى الأكثر ميلاً إلى الهيلينية. وحكم أرشاك الثالث باعتباره ملكاً والياً تابعاً لبيزنطة. أما فارس فقد أخذت معظم أرمنية الكبرى، ومن ضمنها مدينتي أرتاشات ودفين. وحكم خسرو الرابع كملك تابع لساسانيين. ولإضعاف سلطة الأرمن السياسية والاقتصادية، جرد الفرس أرمنية الكبرى من ست من مقاطعاتها: جوجارك Gugark تم تحويلها لتصبح جزءاً من جورجيا الشرقية. وأرتساخ Artsakh ويوتيك Utik جعلت جزءاً من ألبانيا القوقازية، وألحقت بايتاكاران Paytakaran، وكورجاك Korjyak وبيرسأرمنية Persarmenia بفارس مباشرة (انظر خريطة 11).

وبعد وفاة أرشاك الثالث، لم يعين البيزنطيون ملكاً أرمنياً آخر، وانتهى خط ملوك الأرشاكيين في أرمنية البيزنطية. ورحل بعض نخرار أرشاك إلى أرمنية الفارسية، وأصبح الباقون ولاية لبيزنطة. وبدأ الحكام الإغريق والثقافة الإغريقية تغلغلها في أرمنية البيزنطية. أما في أرمنية الفارسية، فتولى فرامشابهه (389-417) Vramshapuh عقب خسرو الرابع. وقُتل ساهاك Sahak. آخر البطارقة من أسرة جريجوري، منصب الجاثليق. ويعتبر فرامشابهه شخصية مهمة في التاريخ الأرمني: إذ يُذكر له أنه كان القوة المحركة وراء ابتكار الأبجدية الأرمنية.

إن أعظم حدث في عصر الأسرة الأرشاكية هو ابتكار الأبجدية الأرمنية. وقبل القرن الخامس، كان الأرمن يستخدمون اليونانية للتعبير الفني والثقافي، واللاتينية ونوعي الكتابة الفارسية الوسطى (بهلوي) للاتصالات الرسمية والنقوش. والسريانية للطقوس الدينية. ولأن أغلبية الأرمن لم يكونوا يعرفون القراءة أو الكتابة، امتلكت أرمنية تراثًا شفاهيًا ثريًا. ولم يسجل التاريخ، وإنما كان يتلى من الذاكرة ويغنيه الجوسان gusans، أو الشعراء المنشدون، من الأرمن والفرس.

ورأى زعماء أرمنية سواء الملكيين أو الدينيين، أن تقسيم أرمنية حدث ينبئ بدمار هائل، واكتشفوا مخاطر وجود أرمنية تحت الإدارة والسيطرة الدينية لبيزنطية وفارس. وواجهت الكنيسة الأرمنية في حداثتها مشاكل أخرى أيضًا. فمن ناحية، كان تأثير الكنيسة السريانية، والتي كان الأرمن يستخدمون طقوسها، يتجاوز بشكل متزايد سلطة الكنيسة الأرمنية. وكانت المجامع المسكونية، من ناحية أخرى، تنذر بالسيطرة الكنسية المستقبلية لبيزنطة في المنطقة. وبالإضافة إلى ذلك، على عكس التقليد المنتشر، لم تمسك المسيحية بزمام السكان جميعًا في الحال: فما زالت الوثنية والزرادشتية تسيطران على كثير من التابعين والمتحولين إلى المسيحية.

وتأكد لدى كل من الجاثليق ساهاك Sahak والملك فرامشاپوه Vramshapuh أنه من أجل الاحتفاظ بأي قدر من السيطرة السياسية والكنسية على أمة مُقسّمة، فإن عامل اللغة الأرمنية يعد عاملاً توحيدياً حاسماً. ولذا، طلبا من ميسروب ماشتوتس Mesrop Mashtots، الذي كان قسيساً وعالمًا واسع الاطلاع، أن يبتكر أبجدية يمكن أن تميز أرمنية، لغويًا ودينيًا، عن القوى العظمى المحيطة بها. وكان ماشتوتس قد ولد في مقاطعة تارون Taron، ودرس اللغتين اليونانية والسريانية. وكان الهزارايت hazarapet (المشرف على مالية المملكة) قد عينه في السكرتارية الملكية. ووفقًا لتلميذه، كوريون Koriun، الذي كتب سيرة أستاذه في أواسط القرن الخامس، كان ماشتوتس متمكنًا من القانون الوضعي والفنون العسكرية، قبل أن يكرس نفسه للحياة الدينية. وقد سافر إلى جميع أنحاء أرمنية، وتعرف جيدًا على خطورة ذوبان الأمة الأرمنية في الأمم الأخرى. سافر ماشتوتس وعدد من تلاميذه، وأخذوا يفحصون أنواع الأبجديات المختلفة، ومن

ضمنها عينات من المحاولات السابقة لابتكار أبجدية أرمنية (وأبرزها عمل الأسقف السرياني، دانييل)، كما راحوا يستشيرون الخطاطين. وباستخدام الحروف اليونانية والسريانية وحروف من أبجديات أخرى، قام ماشتوتس في حوالي 405 ميلادية، بتشكيل الحروف الستة والثلاثين للأبجدية الأرمنية. ولإعطاء الأبجدية الجديدة هالة تقديسية، ولجعلها أكثر قبولاً، أذيعت أساطير ادعت أن الأبجدية، مثلها مثل الوصايا العشر، قد أنزلت على ماشتوتس في رؤيا إلهية. ولكن المعجزة كانت في الحروف نفسها، التي تمثل الأصوات الساكنة الكثيرة المتفردة للغة الأرمنية، والتي ظلت في واقع الأمر دون تغيير لمدة 1600 سنة. وفتح تلاميذ ماشتوتس مدارس في جميع أنحاء المقاطعات الأرمنية لتعليم الأبجدية الجديدة. ولحسن الحظ، كان ملوك الساسانيين أثناء تلك السنوات متسامحين للغاية، وكذلك كان الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، الذي سمح لتلاميذ ماشتوتس بإدارة مدارس في أرمنية البيزنطية أيضاً. ووفقاً للرواية الأرمنية، ذهب ماشتوتس حينئذ لابتكار أبجدية للجورجيين والألبان القوقازيين أيضاً.

وبعد ذلك مباشرة، دخل الأرمن في مرحلة ترجمة أهم النصوص المسيحية والفلسفية إلى اللغة الأرمنية. وكان أول عمل يتم ترجمته هو الإنجيل بالطبع. وتمت الترجمة عن النسختين السريانية والإغريقية، وينظر إليها علماء الدين المسيحي باحترام كبير. وقام الجاثليق والملك بدعم جهود رجال الدين والكتبة بحماس شديد لترجمة ونقل كتابات الآباء المسيحيين المبكرين. وتراث المجامع الكنسية، ومختلف الأعمال الدينية. وقام الأرمن الذين درسوا في أثينا والرها ونصيبين وأنطاكية، والذين كانوا على معرفة بالأعمال الإغريقية مثل القواعد اللغوية والمنطق والفلسفة والبلاغة، بترجمة الكثير من الأعمال مثل بورفيري وديودوخس وبروبوس وغيرهم من الفلاسفة الأفلاطونيين الجدد، بين أشياء أخرى. وكان أرسطو مفضلاً بشكل خاص كما يظهر من وجود أكثر من ثلاثمائة مخطوط من أعماله في الأرشيفات الأرمنية.

ترك المترجمون تراثاً للحضارة الغربية أيضاً، فهناك عدد من النصوص السريانية واليونانية لم تُحفظ إلا في الترجمات الأرمنية. ومن بين هذه النصوص: كتاب هيبولوتوس Hippolotus تعليقات على منح البركة عند موسى،

Commentaries on the Benediction of Moses. والنص الكامل لكتاب يفرانيم Ephraim تعليقات على الدياتسارون Commentary on the Diatessaron. والجزء الأول من حوليات يوسيبوس Chronicle of Eusebius، وكتاب تيموثي أيلوروس (بطيريك الإسكندرية) تنفيد مفهوم مجمع خلقيدونية Refutation of the Definition of the Council of Chalcedon، وغرام الإسكندر الأكبر The Romance of Alexander، وتأليف سودو كاليسثينيس Pseudo-Callisthenes. وفي ذروة العصور الوسطى وعصر النهضة، عندما كانت أوروبا الغربية تعيد اكتشاف آداب وثقافة العالم القديم. شكلت هذه الترجمات الأرمنية خيطاً مهماً للوصول إلى معرفة الماضي.

بدأ المترجمون الأرمن إنتاجهم الكبير في القرن الخامس (المعروف بالعصر الذهبي) واستمروا حتى النصف الثاني من القرن السابع، عندما أبطأت الفتوحات العربية إلى حد ما من سرعتهم. وكتبت أعمال أصيلة، ومن ضمنها أعمال تاريخية. بعد سقوط الأسرة الأرشاكية عام 428 (انظر الفصل السابع).

التجارة والفن والعمارة

إن الصرح الوحيد السابق على المسيحية الباقي من تلك الفترة هو المجمع الموجود في جارني Garni. وقد دُمر المعبد، الذي بنى في القرن الأول بعد الميلاد، بسبب زلزال في عام 1679م. وتم ترميمه منذ ثلاثين عاماً. وبقيت أيضاً أجزاء من التحصينات الأصلية وقلعة جارني وحمام. وتقدم لنا جارني أيضاً النموذج الوحيد من الفن الزخرفي لتلك الفترة في شكل عمل من الفسيفساء في الحمام يصور آلهة البحر والأسماك. وهناك عدد من أعمال النحت البارز ورأس منحوت من حجر التوفة، تمثل ملوكاً غير معروفين من الأسرة الأرشاكية، هي كل ما تبقى من الأعمال النحتية لتلك الفترة. وقد بنيت أول كنائس في أرمينية في قاغارشاپات وأشتيشات، وبالقرب من بحيرة سيقان. كانت هذه الكنائس ذات صحن وحيد، وغالباً بُنيت فوق أسس لمعابد وثنية سبق أن دُمرت على أيدي المسيحيين الأرمن الأوائل. وبعض المعابد تم تحويلها مباشرة بكل بساطة، وذلك بنقل مكان كوة صدر الكنيسة إلى الجانب الشرقي التقليدي. وفي القرن الخامس بدأت تظهر كاتدرائيات ذات قبة مركزية وكنائس من الطراز البازيليكي ذي القبة. ولم يبق

من الكنائس المبكرة التي بُنيت في القرن الرابع إلا القليل. ورغم أن الكاتدرائية الأم في أرمينية، إتشميادزين، ترجع أيضاً لتلك الفترة، فقد أُعيد بناؤها بالكامل في أواخر القرن الخامس، وتم توسيعها مرات عديدة طوال تاريخها. ويجري ترميم كنيسة إيريروك، وهي أيضاً من آثار تلك الفترة، مثل غيرها من الكنائس الأرمنية الواقعة في منطقة الجمهورية الأرمنية؛ ولكن تلك الكنائس الموجودة في تركيا وناخيتشيفان وأذربيجان وإيران وچورجيا كلها، باستثناءات قليلة، تركت أطلالاً.

في عصر الأسرتين الأرتسكية والأرشاكونية، ازدهرت التجارة على الطريق من طيسفون إلى أرمينية والبحر الأسود، مما مكّن التجار والحرفيين من بيع بضائعهم في روما وفارس. كان الطريق يسير من طيسفون إلى أرمينية والبحر الأسود، وأصبحت مدن أرتاشات ودفين وناخيتشيفان وثيودوسيوبوليس مراكز تجارية مهمة بين الهند وأيبيريا وفارس وأوروبا. وأصبحت دفين بشكل خاص نقطة عبور حيث يلتقي التجار لإتمام عملياتهم التجارية.

وبعد موت فرامشاپوه، وضع الساسانيون في البداية أميراً فارسياً ليحكم أرمينية الفارسية. وفيما بعد وضعوا أحد أبناء فرامشاپوه هو أرتاشيز الرابع، والذي حكم حتى 428 ميلادية. وإذا كان النحرار يفضلون أن يحكموا أنفسهم، فقد طلبوا تحية الملك وتغيير الجائليق ساهاك، ونجحوا في ذلك. وهكذا أصبحت أرمينية أرضاً مقسمة بين البيزنطيين والفرس. وليس لها قائد وطني.

وقبل الساسانيين، كان الملوك الأرمن الذين كانوا على علاقة بالفرس عليهم أن يتعاملوا أساساً مع روما. وبعد استيلاء الساسانيين على فارس، عادت أرمينية تناور بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، وانتهى بها الأمر إلى التقسيم والقضاء على أسرتها الحاكمة الثانية. إن هذا الصراع العنيف المتواصل بين فارس وبيزنطة وظهور العرب سوف يُخضع أرمينية للتشرذم، وسوف يتركها بلا قائد لأكثر من أربعة قرون. لكن الأرمن كسبوا ثلاثة أسلحة قوية: دين جيد، وأبجدية، وقواداً محليين، وكل هذا جعل أرمينية قادرة على احتمال العواصف القادمة.

معابد النار والأيقونات أرمنية تحت الحكمين الفارسي والبيزنطي (428-640 م)

تزامن مرور أكثر من قرنين بين انهيار مملكة أرمنية الثانية ووصول العرب مع أفول العالم القديم وبزوغ فجر المرحلة المبكرة من القرون الوسطى. فقد اضمحلت الإمبراطورية الرومانية الغربية وتمزقت، وعادت إلى الظهور تدريجياً على شكل ممالك متعددة في جميع أرجاء أوروبا الغربية. وظهرت مملكة سوبا Soba⁽²²⁾ في أفريقيا. وسقطت إمبراطورية جوبتا Gupta الهندية العظمى في أيدي غزاة من الشمال. ووصلت البوذية إلى اليابان. واستعادت الصين أخيراً إمبراطوريتها تحت حكم سلالاتي سوتانج. واستمرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، أو البيزنطية في كفاحها ضد فارس الساسانية في أرمنية وبلاد ما بين النهرين. وكان لتعصب رجال الدين الزرادشتيين واليونانيين وقعه على المجموعات الدينية الأخرى التي تعيش في الشرق الأوسط. وعلاوة على ذلك، أدت الحرب المستمرة إلى إهدار واستنفاد الموارد الفارسية والبيزنطية. ومهدت مثل تلك الأوضاع لنشأة قوة سياسية ودينية جديدة، ألا وهي العرب والإسلام.

جاء انتشار المسيحية واختراع الأبجدية الأرمنية، والحكم الذاتي المتنامي للنخرا في فترة عصبية تماماً، فأرمنية التي قُسمت، وقتذاك، كانت تحتاج لكل خصائص الهوية القومية، التي يمكن حشدها لتستطيع الصمود أمام الثقافات الأكثر قوة، التي تحكمت في مصيرها. وكانت هذه حقيقة خاصة في منتصف القرن الخامس، عندما انتهت العهود القصيرة التي تميل إلى التسامح في الحكمين الساساني والبيزنطي؛ إذ استخدم كل من الفرس والبيزنطيين استراتيجيات مختلفة لإدارة المقاطعات الأرمنية الخاصة بهم. ولهذا، فخلال ما يزيد على قرنين بعد التقسيم، واجه الإقليمان الأرمنيان أوضاعاً سياسية ودينية واقتصادية/اجتماعية شديدة التباين.

(22) ربما المقصود أحد فروع مملكة النوبة، التي تفرعت إلى ثلاثة ممالك في القرن الرابع الميلادي، منها الدولة الجنوبية، والتي كانت عاصمتها سوبا الواقعة على نهر سوبا جنوب الجزيرة في السودان حالياً. (المترجمة)

أرمنية الفارسية

عُيِّن الساسانيون حاكماً للحدود، أو مرزبان، لحكم أرمنية الفارسية مع عاصمتها في دفين. وهيمن المرزبان على الحامية المحلية، وكانت له سلطة إدارية وقضائية مطلقة، وحتى فيما يتعلق بالشؤون الدينية. وكان يساعده هازاربت hazarapet، والذي كانت له سلطة تفوق سلطة الهازاربيت الأوائل في عهد الأرشاكيين. واستقر رئيس المجوس magpet (رئيس الكهنة الزرادشتيين) في دفين. وأقام مسئولو الضرائب في كل مقاطعة من أرمنية، وأشرف مراقب خاص على مناجم الذهب الأرمنية. وإلى جانب بقاء دفين عاصمة إدارية ودينية، ظلت مركزاً للتجارة، مع استخدام كل من الفرس والبيزنطيين لأرمنية ممراً لقوافلهم. وكانت منتجات النسيج والفخار والمجوهرات التي تصنع في أرمنية تُصدر إلى المناطق المجاورة.

واستمرت سيطرة النخرا الأرمن على عديد من المناطق المرتفعة، وظلوا في معظم الأمر يتمتعون بالحكم الذاتي. ويدفعون الضرائب للفرس ويقوم ملك فارس بتعيينهم. وكان عدد من النخرا البارزين قد مُنحوا ألقاب (ووظائف) مرزبان وسبارابت؛ واستمر أحد أبناء أسرة ماميكونيان في قيادة فرق النخرا العسكرية. وتصف بعض المصادر المساكن الرائعة والمجوهرات والملابس التي كان يرتديها المرزبان الأرمني وغيره من كبار الموظفين بأنها مطابقة تماماً لتلك التي يرتديها نظراؤهم من الفرس.

وكان كثير من المسيحيين يعيشون في الإمبراطورية الفارسية، وخاصة في بلاد ما بين النهرين وغرب فارس. ولكن ما أن تولى البيزنطيون قيادة الكنيسة، حتى أصبح يُنظر للمسيحيين. بما فيهم الهراطقة. الذين يعيشون تحت الحكم الفارسي كمصدر تهديد، وكانوا من حين لآخر يتعرضون لاضطهاد البيزنطيين. وسرعان ما بدأ العرش الفارسي في تعيين قيادة للكنيسة الأرمنية. وتم استبعاد البيت الجريجوري الذي كان محل ارتياب من كل من الفرس والنخرا فيما يتعلق بمناصرة قضية استعادة المملكة وحكومة أرمنية أكثر مركزية. وأعطى لقب جاثليق الكنيسة الأرمنية لمرشحين آخرين بما فيهم عدد من غير الأرمن. ونتيجة التحكم الفارسي في الشؤون الإكليريكية، فقدت الكنيسة الاتصال مع الغرب. وأصبحت معزولة بصورة متزايدة عن الكنائس المسيحية الأخرى، وكان لابد لهذه العزلة أن تؤدي لنتائج عقائدية وسياسية خطيرة في السنوات التالية.

في عام 431م. تسببت هرطقة أخرى. هي النسطورية⁽²³⁾. في دفع أساقفة الكنيسة المسيحية إلى الدعوة للمجمع المسكوني الثالث. هذه المرة في إفيسوس Ephesus. كان نسطوريوس. بطريرك القسطنطينية. يعتقد في انفصال الطبيعيتين البشرية والإلهية في المسيح، وبدأ جدله في هذا الأمر. وعلى الرغم من أن المجمع أدانه. فقد استمرت المشكلة. ونتج عنها بعد عقدين الانقسام الأول بين المسيحيين. وكان الأساقفة الأرمن في إثمياذرين لا يزالون تحت الهيمنة الفارسية في ذلك الوقت. وعلى الأرجح لم يكن لهم من يمثلهم في مجمع إفيسوس. وبعد هذا المجمع. كان هناك ترحيب في فارس بالنسطوريين كأعداء للبيزنطة والبيزنطية. وكان الساسانيون يرون أحياناً الكنيسة الأرمنية جزءاً من الكنيسة النسطورية في فارس.

حروب فاردانانك

على مدى الأعوام الخمسين الأولى التي تلت التقسيم، تُركت أرمينية بشكل عام حرة التصرف في شئونها الدينية والثقافية، وإقامة مجامعها الكنسية الخاصة. ولكن الوضع قد تغير بشدة عام 439م مع اعتلاء يزيدجرد الثاني العرش. فقد حاول هو وأعضاء حاشيته فرض الزرادشتية على كل الشعوب غير الفارسية في إمبراطوريته. وعندما قاومت أرمينية، زيدت الضرائب، وأرسل بعض النخرا للتحرب ضد بدو آسيا الوسطى الذين كانوا يهددون فارس. وجاءت الضربة الأخيرة عندما بعث ملك فارس كهنة زرادشت لدعوة السكان إلى الدخول في دينهم. وقد عمّ الغضب الفلاحين الأرمن وخاصة المقيمين في دقّين لدى وصول الكهنة الزرادشت الذين أرسلوا لبناء معبد للنار في العاصمة. وتجمع بعض النخرا ورجال الكنيسة في أرتاشات عام 447م وبعثوا إلى الملك رسالة، أعلنوا فيها أنه رغم كونهم مخلصين لفارس، فإنهم أيضاً مخلصون لكنيستهم. لكن مجموعة أخرى من النخرا لم يكن رد فعلها بالقوة نفسها. وسعى فريق آخر موالٍ لفارس إلى إجراء حوار ووساطة مع سادتهم. وتزعم هؤلاء المرزبان الأرمني فاساك سيوني Vasak Siuni، الذي

(23) Nestorianism: مذهب نسطوريوس. الذي ذهب إلى أن الطبيعيتين الإلهية والبشرية ظلتا منفصلتين في يسوع المسيح. وقد اعتُبر هذا المذهب هرطقة عام 431. (المترجمة)

كانت عائلته تتقلد منصب نائب الملك أحياناً، والذي كان يرى نفسه كأمير للشعب الأرمني. كانت مقاطعته الجبلية على حدود فارس، وكان ولداه رهنيتين في طيسفون. وكان معظم رجال الكنيسة معارضين له، وكذلك جزء كبير من السكان وكثيرون من النخراي الآخرين، وكان يتزعمهم جميعاً السباراييت فاردان ماميكونيان Vardan Mamikonian.

واستمرت المقاومة ضد الفرس بمعدل أقل على مدى عقد من الزمان. وبحلول عام 450م كان الأرمن قد أعلنوا التمرد ضد الفرس، واستطاعوا مع الجورجيين والألبان القوقازيين، الذين كانوا يواجهون ضغوطاً مماثلة من فارس، أن يهزموا جيشاً ساسانياً، وبعثاً عن حليف أقوى، سعى الأرمن إلى دعم من القسطنطينية. ولم تتحقق المساعدات من البيزنطيين، واستمر فاساك وأتباعه في معارضة التمرد، والذي رأوه بلا شك ضاراً بوضعهم الرسمي كممثلين للفرس. وفي عام 451م التقى جيش الفرس الرئيسي بالتمرديين على سهل أفاراير Avarayr في أرتاز Artaz (قريبة في وقتنا الحاضر من ماكو، إيران) في معركة هلك فيها فاردان ماميكونيان وجيشه بالكامل، وأصبحوا من شهداء الكنيسة الأرمنية. ولم يشارك فاساك سيوني في المعركة، ومنذ ذلك الحين يلصق به مؤرخو الكنيسة تهمة الخيانة. ولكنه في زمنه، اعتبره الفرس هو والنخراي المؤيدين لهم مسؤولين عن العصيان وسجنوهم. ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن فاساك كان سياسياً أكثر فطنة.

أدى موت فاردان ووقوفه أمام أعتى الجيوش إلى رفعه هو وبقية الأبطال، الذين سقطوا في القتال إلى مرتبة الشهداء الدينيين والوطنيين، وأعطاهم أهمية لم يتمتعوا بها في حياتهم. راجت الروايات عن المعركة، وساعدت على حشد السكان ضد الفرس. ونتج عن ممارسات الاضطهاد الفارسي واعتقال النخراي المحايدين وحتى المواليين لفارس، وإعدام عدد من رجال الكنيسة، قويت الإرادة الأرمنية، وبدأت مقاومة محلية أرمنية. ولا بد أن الساسانيين قد دهشوا من عزيمة الأرمن، فسرعان ما أطلق يزدجرد سراح عديد من النخراي وانتهج سياسة أكثر مرونة في أرمينية.

وعلى مدى العقدین التاليين، سعى الأرمن إلى الثأر لشهداء أفاراير بسلسلة من عمليات التمرد والعصيان في أرمينية وجورجيا، مدعومين من جانب الكنيسة الأرمنية. وأصبح النزاع معروفاً بحروب فاردانانك. وفي 481م، تمكن الثوار تحت زعامة ماميكونيان آخر، قاهان، من السيطرة على دفين. كرسى المرزبانية. وهزموا الجيش الفارسي عام 482م.

وأدت الخلافات مع جورجيا إلى وقوع خسائر أرمنية وأجبرت قاهان ماميكونيان على مواصلة كفاحه كمقاتل فدائي لمدة عام. وفي أثناء ذلك كان الساسانيون يعانون من مشكلاتهم الداخلية الخاصة. حيث كانوا يتعرضون لهجمات البدو الغزاة. كما واجهوا نزاعات حول وراثة العرش. واضطروا إلى أن يتعاملوا مع هرطقة مزدك⁽²⁴⁾ وأتباعه. الذين اتبعوا مذهباً يتسم بالشيوعية والزهد. ولهذا، تجددت العلاقات السلمية عام 484م، عندما مُنح قاهان ماميكونيان لقب سبارايت. واستعاد مقاطعته مقابل تأييده لمرشح ساساني للعرش. ومُنحت أرمنية حرية العقيدة. وحق التقاضي أمام المحكمة الفارسية مباشرة. متجاوزة بذلك المرزبان. وبعد عام تم تعيين قاهان نفسه مرزباناً. وحكم البلاد عقدين من الزمان. وما يدعو للدهشة أن الاتفاقية التي كانت معروفة لدى مصادر أرمنية بمعاهدة نوقارساك Nuvarsak لم تُذكر في مصادر فارسية. مما يشير إلى أحد أمرين: إما أن التمرد الأرمني اعتُبر حادثاً صغيراً في التاريخ الفارسي. أو أنه لم يتبق أي من المصادر الفارسية التي ذكرت هذه الاتفاقية. ومع ذلك، يحتفل الأرمن اليوم بأقارير ونوقارساك كانتصارات معنوية. ومثل تجربة اليهود في ماسادا Masada⁽²⁵⁾، يرى الأرمن كفاحهم رمزاً لبقاء هويتهم الدينية والثقافية أمام قوى ساحقة. وبعد موت قاهان، استمر المرزبانان الأرمن الثمانية، الذين حكموا بصورة متقطعة في مواجهة الضغوط من جانب الزرادشت حتى الغزوات العربية.

وبعد نوقارساك بدأت فترة من إعادة البناء. وعمل كل من النخرا والكنيسة على إعادة بناء وتنظيم أرمنية، وتم استعادة قُاغارشابات ودقين. وانتعشت أرمنية اقتصادياً مرة أخرى عندما عاد مرور التجارة عبرها إلى بيزنطة. ورغم وجود بعض العراقيل خلال الحروب الفارسية البيزنطية، استمرت النهضة الأرمنية حتى منتصف القرن السادس.

24 (مزدك Mazdak): (توفي 524 أو 528 م تقريباً). كان فيلسوفاً فارسياً شديد الميل إلى الاشتراكية الاجتماعية. راجت أفكاره في فترة حكم الملك الساساني كافاذ الأول Kavadh I. وأعدم هو وأتباعه شنقاً في مذبحه قام بها خسرو الأول. ابن كافاذ. كان مزدك مؤسس فلسفة تسمى المزدكية. يشترك أتباعها مع أتباع المانوية في الفكر المثوي الديني (التهن للخير والشر. أو النور والظلام). (المترجمة)

25 ماسادا حدث مأساوي جرى في 73 بعد الميلاد. حيث حاصر الرومان مجموعة من اليهود المتطرفين في قلعة ماسادا اليهودية لمدة عام. وفي النهاية استطاع الرومان اختراق جدران القلعة. فوجدوا أن اليهود الموجودين بها قد انتحروا جميعاً لكي لا يقموا في أيدي الرومان. (المترجمة)

المجمع المقدس في خلقيدونية Chalcedon

في غضون ذلك، انعقد المجمع الكنسي المسكوني الرابع في خلقيدونية عام 451م. وأعلن المجمع أن طبيعتي المسيح البشرية والإلهية لم تكونا منفصلتين كما ادعى نسطوريوس، ولا مشوشة كما دافع عن ذلك يوتيخوس Eutyches⁽²⁶⁾، ولكنهما اتحدتا بلا لبس أو تغيير أو انقسام. وقد رفض عدد من الكنائس الشرقية، ومن بينها الكنيسة القبطية والأثيوبية بقيادة بطريرك الإسكندرية مرسوم خلقيدونية المؤيد لمذهب الطبيعيتين، باعتباره نسخة معدلة من النسطورية ومن ثم فهو هرطقة. وأكدوا أن المسيح كانت له طبيعة واحدة فقط، وهي إلهية، وقد أصبحت هذه الكنائس تُعرف بكنائس مذهب الطبيعة الواحدة. وحاول زعماء دينيون مسيحيون، مدركين خطورة الوضع، أن يجدوا طريقة لاسترضاء المجموعات المعارضة. وفي 482م أقنعوا الإمبراطور زينون Zeno بإصدار "قانون الوحدة" أو الهنوتيكون Henoticon. واعترف القانون بأن الأسس العقائدية للمجامع المسكونية الثلاثة الأولى في العالم كافية تماماً. وجاء فيه "إن المسيح كانت له نفس طبيعة الألوهية مع الأب، وكانت له نفس الطبيعة البشرية معنا". وتجنبوا ذكر عبارة "طبيعة واحدة" أو "طبيعتين".

ورغم أن هذا الحل الوسط قد أرضى في البداية زعماء كنائس الطبيعة الواحدة، فإنه سرعان ما رفضها أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (المنافزة) ومذهب الطبيعتين (الديافزة). إذ كان "قانون الوحدة" من وجهة نظر أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة شديد الغموض، ورآه أصحاب مذهب الطبيعتين تنازلاً لمذهب الطبيعة الواحدة. ولم يحضر الأرمن المجمع الكنسي بسبب الكفاح الفارداني ومعركة أقارير، التي حدثت في العام نفسه الذي انعقد فيه مجمع خلقيدونية. وقد وصلت القوانين الكنسية للمجمع و"قانون الوحدة" الذي أصدره زينون إلى أرمينية تدريجياً في صياغات مختلفة. ولم يجتمع الأساقفة الأرمن قبل أواخر القرن الخامس، وبالتحديد عام 491م في مدينة قاغارشابات، بعد انحسار التهديد الفارسي، ورفضوا قرار خلقيدونية. وبعد سنوات قليلة،

(26) يوتيخوس (380-456). كان كاهناً وديناً في القسطنطينية. ورد ذكره لأول مرة عام 431م في مجمع إفيسوس. لمعارضته الشديدة لتعاليم نسطوريوس. وإدائه للنسطورية واعتبارها هرطقة. وقد اعتبر هو نفسه مهترقا عندما رفض تعبير "أم الرب". (المترجمة)

في دفين عام 506م، كرروا اعتراضهم مع الجورجيين والألبان القوقازيين. وكان ذلك. لكن قانون الوحدة لزينون لم يُرفض. وأسهم في الإبقاء على الحوار بين الكنيستين الأرمنية والإغريقية. كان القرار حكيماً. حيث كان ثلث أرمنية لا يزال تحت الإدارة البيزنطية. وفي نفس الوقت أصرت الكنيسة الأرمنية على أن المسيح لم يكن ذا طبيعة واحدة. بل على العكس. واصلت تفسيرها الفريد، والذي يرى أن طبيعتي المسيح لا يمكن فصلهما. ورغم أن بشرية المسيح لم تكن مؤكدة، فإنها لم تكن مرفوضة بالكلية. وقد صنف كثير من الفقهاء الكنيسة الأرمنية ضمن المنتمين إلى مذهب الطبيعة الواحدة. ومن وجهة نظر المتشددين من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، فإن الأرمن ليسوا أحاديين حقاً، لكن. إذا نظرنا بشكل أكثر مرونة، سنجد أن الأرمن أقرب إلى اعتناق مذهب الطبيعة الواحدة. هل كان قرار رفض مجمع خلقيدونية سياسياً أم دينياً؟ لقد كان على الأرجح كلاهما؛ إذ إن الأساقفة الأرمن، وهم يشهدون التحكم البيزنطي في أرمنية الغربية، كانوا يخشون أن تقوم السلطة الكهنوتية القوية في القسطنطينية في النهاية بابتلاع كنيستهم. وكان التقليد الرسولي للكنيسة الأرمنية قد لقي تحدياً منذ زمن بعيد من جانب الإغريق، الذين زعموا أنه حيث إن الأسقف الإغريقي لقيصرية قام بترسيم جريجوري، فإن الكنيسة الأرمنية تعتبر تابعة لبطريك القسطنطينية. وكان الفرس في نفس الوقت يمدون مظلة التسامح إلى النساطرة ومجموعات مسيحية أخرى منشقة. وبتأكيد كل من الموقف المذهبي الفريد. ورسولية كنيستهم، استطاع الأرمن ليس فقط الاحتفاظ بكنيستهم القومية، ولكن أمكنهم أيضاً تجنب المشاكل مع الفرس.

ولكن الضغوط البيزنطية استمرت على مدى العقود القليلة التالية، وتزايدت إبان عهد الإمبراطور جوستنيان. وأُجبر الأرمن في النهاية على التخاصم مع القسطنطينية. وفي 552م، تبنت الكنيسة الأرمنية تقويمها الخاص، وفي مجمع دفين الثاني عام 554م، اعتبرت الكنيسة الأرمنية نفسها منفصلة تماماً عن القسطنطينية، وأصبح القرار رسمياً عام 608 أو 609م، وأدى إلى ترسيخ الانفصال التام للكنيسة الأرمنية، وأدى أيضاً إلى انفصال الكنيستين الجورجية والأرمنية.

أرمنية البيزنطية

حاول البيزنطيون تحويل أرمنية البيزنطية تدريجياً إلى منطقة مشابهة لبقية إمبراطوريتهم. وتم تقسيم أرمنية الصغرى، التي كانت بالفعل تحت السيطرة الكاملة للقائد العسكري البيزنطي، وكان يلقب "دوق أرمنية" أو القائد الأرمني، وكانت قد أصبحت مستوعبة جزئياً للثقافة البيزنطية، تم تقسيمها إلى وحدات إدارية لأرمنية الأولى وعاصمتها سيباستيا (سيفاس Sivas) وأرمنية الثانية. وعاصمتها ميليتينه Melitene (مالاتيا Malatya). أما الجزء الغربي من أرمنية الكبرى، الذي كان قد مُنح لبيزنطة في تقسيم عام 387م، فقد أصبح معروفاً بأرمنية الداخلية، حيث تقلد حاكم مدني تلقب بـ "كومس أرمنية" أو الحاكم الأرمني، منصباً مساوياً للمرزبان الفارسي (انظر خريطة [1]). وقد اعتمد هذا الحاكم البيزنطي على النخرار القلائل الباقين في المنطقة لكسب تعاون السكان. واحتفظ عدد من عائلات النخرار والأمراء مثل ماميكونيان وأرشاكوني بممتلكاتهم، ولكنهم دفعوا الضرائب وزودوا ببيزنطة بالقوات العسكرية.

وحتى انعقاد مجمع خلقيدونية، كانت الكنيسة المسيحية موحدة، وظلت اليونانية هي اللغة الأدبية للطبقات العليا. وكان النخرار قد ترك لهم حرية التصرف، وكانوا في أغلب الأحوال في خدمة الحكومة الإمبراطورية. وكان النخرار في المقاطعات الجنوبية من أرمنية الداخلية - منطقة صوفين، المعروفة وقتذاك بحكومة الخمسة، أو الولايات الجنوبية - يعتبرون حلفاء (للإمبراطورية) وحائض صد ضد فارس، وكما سبق التنويه، كانوا لا يقعون تحت السيطرة العسكرية أو الإدارية لبيزنطة. وقد وضعت الضغوط الفارسية على السكان الأرمن لهذه المقاطعات البيزنطيين في صورة أكثر إيجابية. وأسهمت هذه الأوضاع في حدوث استيعاب تدريجي لأرمنية الصغرى وأجزاء من أرمنية البيزنطية، فلم تكن هناك تحديات لحشد الشعب حولها، ولا تهديدات علنية لهويتهم القومية.

وعلى أية حال، أدى دخول الأبجدية وما لحقها من النشاط الأدبي والتعليمي، واتحاد ذلك مع استقلال الكنيسة الأرمنية، إلى تغيير الجو العام. وساء الوضع عام 485م عندما تمرد النخرار في الحكومة الخماسية، التي كانت لها روابط وثيقة مع القسطنطينية. وقد دفع هؤلاء النخرار أيضاً إلى التمرد أحد أمرين، إما العصيان والمقاومة الأرمنية في أرمنية الفارسية، أو تم إغراؤهم بوعود من فارس. وتبع التمرد استيلاء بيزنطة على

الحكومة الخماسية ووضعتها في نفس وضعية بقية أرمينية. لتكون محكومة من جانب مسئولين من الإمبراطورية.

ورغم الإدارات المنفصلة. كانت هناك قنوات اتصال متعددة بين أرمينية الفارسية والبيزنطية. فقد كانت التجارة القادمة من الصين وفارس تمر عبر أرثشاث ونصيبين إلى أرمينية البيزنطية. وأبقى النسطوريون الفرس على مدرسة لاهوتية ضخمة ومركز للترجمة في الرها. حيث كان يدرس فيها الأرمن الخاضعون لفارس. وكان الزواج يتم بطريقة عادية بين الأرمن الذين يقيمون على حدود المنطقتين. كما كان السفر مسموحاً به رغم وضع بعض القيود عليه.

وبدأ الإمبراطور زينون في إجراء أول تغييرات رئيسية في أرمينية البيزنطية. فقدم عدداً من القوانين الرومانية إلى أرمينية الداخلية لصياغتها كي تتوافق مع أرمينية الأولى والثانية. وأمر بسيطرة أشد صرامة على الحدود. وأغلقت مدرسة الرها، وأجبرت على الانتقال إلى نصيبين في الإمبراطورية الفارسية. وتزايد نشاط الجواسيس البيزنطيين في المناطق الحدودية، مما دفع الفرس إلى وضع القيود على السفر. ورغب البيزنطيون على وجه الخصوص في كسر الاحتكار الفارسي للحرير الصيني، الذي كان مطلوباً بشدة في البلاط الإمبراطوري. وقد أدت التصرفات العدائية البيزنطية، ورفض دفع حصتهم في نفقات حراسة الممرات في القوقاز ضد الغزوات البدوية، إلى بدء نزاعات جديدة مع فارس.

وجرت الحروب (من عام 503 إلى 505م، ومن عام 524 إلى 531م) في أرمينية البيزنطية وبلاد ما بين النهرين. وعلى الرغم من أنها شنت ضد البيزنطيين، فإن المشكلات الداخلية في فارس أعاقتهم عن تحقيق أفضلية تامة في مواجهة مواطن الضعف لدى البيزنطيين. ومع ذلك ففي 531م تمكنت فارس الساسانية من حل مشكلة الديانة المزدكية Mazdakite بقتل الزنديق مزدك وأتباعه، كما حلت مشكلة النزاع على العرش، عندما قام خسرو الأول بإعدام إخوته جميعاً وأولادهم الذكور ما عدا واحد منهم. وفي 533م توصل خسرو الذي كان يعرف بأنوشروان Anushirvan إلى اتفاق "سلام دائم" مع الإمبراطور جوستيان، يقوم البيزنطيون بموجبه بدفع مبالغ ضخمة من الذهب من أجل صيانة الحدود القوقازية وبوضع حامية عسكرية صغيرة على حدودهم الشرقية.

أرمنية البيزنطية في عهد جوستينيان

بعد أن أنهى جوستينيان حربه مع الفرس، شرع في إعادة تنظيم الإمبراطورية، بادئاً بتغييرات رئيسية في أرمنية البيزنطية. وفي 536م أصدر مرسوماً بإلغاء الإدارات المتعددة في أرمنية وتوحيدها تحت قيادة قائد عسكري واحد (القائد العسكري لأرمنية) ومقر قيادته في ثيودوسيوبوليس Theodosiopolis. وأدى إنشاء تحصينات جديدة للفصل بين بيزنطة وفارس إلى عزل أرمنية البيزنطية عن جارتها عملياً. ولم يعد المقيمون في الأرمنييتين قادرين على مواصلة الاختلاط أو الإبقاء على أي درجة من الوحدة من خلال التفاعل التجاري أو الثقافي.

وقام جوستينيان بتقسيم أرمنية البيزنطية إلى أربعة وحدات إدارية. أرمنية الأولى (وتضم أرمنية الداخلية مضافاً إليها معظم أرمنية الأولى السابقة)، وعاصمتها ثيودوسيوبوليس؛ وأرمنية الثانية (بقية أرمنية الأولى السابقة مضافاً إليها مقاطعة في الشمال الغربي)، وعاصمتها سيستانيا؛ وأرمنية الثالثة (أرمنية الثانية سابقاً) ومركزها في ميليتينه؛ وأرمنية الرابعة (الحكومة الخماسية أو الولايات الجنوبية) ومركزها مارتيروبوليس (انظر خريطة 12). واستقر الحكام وجامعو الضرائب في كل منطقة لضمان اندماج أرمنية البيزنطية في بقية الإمبراطورية.

وفقد النخرا حركهم الذاتي، واتخذ البيزنطيون إجراءات قانونية لمحو الهوية الأرمنية وجعلها بيزنطية بأسرع ما يمكن. وامتد القانون الروماني كاملاً إلى كل أرمنية البيزنطية، وكان لذلك عواقب خطيرة بالنسبة للنخرا. فطبقاً للقانون الروماني، يمكن للبنات والأولاد الأصغر أن يرثوا. وهكذا أُجبر النخرا الأرمن الذين حافظوا على أرضهم سليمة لأجيال تحت قيادة الذكر الأكبر سنًا في البيت أو التانوتير (tanuter) إلى تقسيمها بين أطفالهم. وفي النهاية سوف تنفت أراضي النخرا إلى ممتلكات صغيرة ضئيلة القيمة. وتمرد عدد من النبلاء الأرمن، وقتل عدد من المسؤولين البيزنطيين. حتى أن بعض النخرا تحولوا إلى فارس لطلب المساعدة. وقد تم التصرف مع هؤلاء النخرا إما بترحيلهم إلى البلقان أو تم اجتذابهم بوظائف كبيرة في بيزنطة. واستمرت مخططات محو الهوية الأرمنية، التي

كانت قد بدأت قبل ذلك، خلال القرن السادس. وقد أغضبت حصون بيزنطة المسلحة على الحدود وسياساتها التوسعية. وعلى الأخص تهريبها سرًا للحديد، أغضبت خسرو. وشجعت مطالب النخزار الأرمن في المنطقة البيزنطية الفرس على بدء حرب جديدة عام 540م، والتي امتدت حتى 562م. وتم التوصل حينئذ إلى هدنة لمدة خمسين عامًا تتحمل فارس خلالها تكلفة حراسة الممرات القوقازية. ولكنها في المقابل ستتسلم من بيزنطة جزية سنوية من الذهب.

الصراعات الفارسية البيزنطية والتقسيم الثاني لأرمينية

ساء الوضع في الأرمينيتين خلال الربع الأخير من القرن السادس. وفي 571م بنى المرزبان الفارسي معبد نار في دقّين. وتمرد الأرمن الفرس تحت قيادة فاردان ماميكونيان آخر عرف بفاردان "الأحمر"، والذي سعى لنيل حماية الإمبراطور جوستين الثاني Justin II، الذي لم يكن يرغب في دفع الجزية السنوية الضخمة من الذهب إلى فارس، فكسر الهدنة عام 572م. وعرض مساعدة الأرمن الفرس، ولكن عندما تحولت الحرب ضد بيزنطة، تنازل جوستين. وفي 575م، توصل خليفته إلى تفاهم مع فارس لكي يحتفظ بأجزاء من بلاد ما بين النهرين. وهرب فاردان وعدد من النخزار الأرمن مع بعض أتباعهم إلى بيزنطة. وعلى أية حال، لم تدم هذه الهدنة أيضًا، وتقاتل الخصمان مرة أخرى في أرمينية البيزنطية. وكان الإمبراطور موريس (582-602 م) Maurice أكثر نجاحًا في محاربة الفرس؛ حيث دبر سياسة حرق الأرض على الحدود مع فارس، التي أدت إلى وجود أرض واسعة خالية من السكان على حساب الأرمينيتين. وتم إبعاد الأرمن الذين فقدوا منازلهم في تلك المناطق إلى قبرص. وعندما قام بهرام تشوبين Bahram Chubin بخلع خسرو الثاني المعروف بـ Parviz عام 591م، وجدها موريس فرصة لتوسيع الحدود البيزنطية. فتدخل في العام نفسه، وساعد الأمير الفارسي على استرداد عرشه. وساعدت الشهرة الجديدة التي اكتسبتها بيزنطة في الشؤون الداخلية لفارس من تمكينها فورًا، ليس فقط من إلغاء الجزية السنوية، ولكن أيضًا من تسلم جزء كبير من أرمينية الفارسية. وفي هذا التقسيم الثاني تغيرت الحدود بين القطاعين من الركن الشمالي الشرقي لبحيرة فان أعلى نهر هر ازدان Hrazdan إلى الركن الشمالي الغربي لبحيرة سيفان. وبقيت دقّين في

المنطقة الفارسية، ولكن يريفان وقعت في الجانب البيزنطي. وسميت المناطق الإضافية أرمينية الداخلية والدنيا والعميقة.

ولتعميق الأمور، أعاد البيزنطيون تسمية المناطق الأرمينية سابقا والتي أصبحت في حياتهم. فأصبحت أرمينية الأولى أرمينية الكبرى، وبقيت أرمينية الثانية بالاسم نفسه. وأعيد تسمية أرمينية الثالثة بأرمينية الأولى. وألغى استخدام عبارة أرمينية الثالثة، وسميت أرمينية الرابعة يوستيانا Ioustiniana، وضمت حكومة الخمسة أيضا بالإضافة إلى أراضٍ في الشمال والشرق (انظر خريطة 13). ونفذ كل من موريس وخسرو سياسة إخلاء أرمينية من السكان، وإرسال النخار إلى مناطق مختلفة من إمبراطوريتهم للقتال في أفريقيا أو البلقان أو آسيا الوسطى.

وأدى مقتل موريس وأولاده على يدي فوكاس Phocas عام 602م إلى بدء حرب جديدة مع فارس. وهزم خسرو الثاني البيزنطيين هزيمة منكرة، ودخل بجيشه على بعد ميل واحد من القسطنطينية. واستمرت الحرب بعد موت فوكاس، وصعود هرقل إلى العرش في 610م. وبحلول عام 620م، احتل الفرس كل أرمينية والشرق الأوسط ومعظم آسيا الصغرى، وأخذوا الصليب الحقيقي (الذي صُلب عليه المسيح) من القدس إلى قسطنطين. كان الوضع في بيزنطة ميئوسا منه عندما قرر الإمبراطور هرقل استخدام أسطولته البحري لنقل قوات بالقرب من الخطوط الفارسية. وفي 622م حقق الهجوم البيزنطي نجاحا. وبحلول عام 628م كانت آسيا الصغرى والشرق الأوسط وأرمينية في أيدي بيزنطة. وقُتل خسرو الثاني على أيدي قواته، وعقد ابنه سلاما مع هرقل، وأعاد الصليب الحقيقي، وقبِل اتفاقية عام 591م للسلام وتخطيط الحدود. ومنذ ذلك الوقت لم يعد الساسانيون في موقع يمكن أن يمثل تهديدا لبيزنطة، وسرعان ما تدهورت دولتهم.

وتحقق هرقل أكثر من أسلافه من الأهمية الإستراتيجية لأرمينية. ولكي يركز قواته في ذلك الوقت في مواجهة الغارات الأفارسية والسلافية المتكررة على الحدود الغربية لبيزنطة، كان يحتاج حليفا قويا وأن يضمن الأمان في أرمينية على الجناح الشرقي لإمبراطوريته. ولهذا أوجد منصب أمير أرمينية. ولم يقلد فيه أحد أفراد أسرة ماميكونيان، ولكن عضوا من عائلة صغيرة من النخار لحكم أرمينية. وكان الرجل الذي اختاره هو تيودور رشتوني Theodore Rshtoni، الذي قام بدور مهم في الفترة التالية من تاريخ أرمينية.

ترك قرنان من الحرب والإبعاد وإعاقة التجارة أثرهما على الأرمنييتين. وخاصة أرمنية البيزنطية. ولهذا فمن المدهش أن تكون الأنشطة الفنية والعلمية والأدبية قد استمرت خلال تلك الفترة، بل وازدهرت أيضًا.

وقد تجلى فن العمارة في الكنائس المتعددة التي شُيدت في تلك الفترة. وُبنيت طوال تلك الفترة منشآت بازيليكية (رومانية مستطيلة لها نصف دائرة ناتئة في أحد طرفيها) وصليبية، بقباب مركزية. وتعود كاتدرائيات القديس جون في ماسترا Mastara وأفان Avan والقديسة هريبيسيميه St. Hripsime وأيضًا كنائس أودزن Odzun والقديسة جايانيه St. Gayane وأروج Aruj. تعود جميعها إلى تلك الفترة. وقد أكد عدد من مؤرخي العمارة القديمة أن الأرمن كانوا أول من أنشأ قبة حجرية فوق ملتقى أعمدة. وكانت هذه الفكرة قد حل محلها آراء جديدة تؤكد أن منشآت مشابهة تم تصميمها في دول مختلفة في الوقت نفسه. ورغم هذا بقيت حقيقة أن أسلوب هندسة العمارة الأرمنية أثرت بشدة على مثيلاتها في جورجيا وألبانيا القوقازية والبلقان. وكانت أعمال النحت الرئيسية في تلك الفترة عبارة عن بعض النحت البارز في أماكن العبادة. وهناك مثال جيد لذلك في كنيسة بچني Ptghni، وهو نحت بارز يمثل مؤسس الكنيسة، وهو نخرار أماتوني Amatune، وهو يصطاد أسدًا. وهناك أمثلة قليلة فقط من اللوحات الزيتية، وأكثرها أهمية إنجيل مصور يمزج بصورة لطيفة بين الفن البيزنطي والساساني في أسلوب أرمني فريد.

كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية. الاقتصادية في أرمنية الفارسية مناسبة أكثر للنشاط الأدبي، ولكن الجانب البيزنطي أسهم أيضًا بكثير من الأعمال الفلسفية والعلمية الإغريقية التي ترجمت إلى الأرمنية.

وأدت الأعمال الأدبية، وعلى الأخص الأعمال الأرمنية الأصلية في التاريخ وعلم اللاهوت والفلسفة إلى إضفاء أهمية كبيرة على تلك الفترة، والحق أن القرن الخامس يُسمى بالعصر الذهبي للأدب الأرمني. ومن المحتمل أن يكون أول عمل في التاريخ الأرمني منسوبًا إلى پاوستوس بوزاند Pawstos Buzand. فقد وصفت رواياته الملحمية أحداث القرن الرابع حتى تقسيم أرمنية عام 387م. وكان المؤلف مؤيدًا عظيمًا لماميكونيان، ويمدنا بمعلومات قيمة عن فارس وبيزنطة. وقد كُتبت أعماله إما في القرن الرابع

باللغة اليونانية، وترجمت إلى الأرمنية في القرن التالي، أو كتبت في أرمنية خلال القرن الخامس. وكتب ديفيد أنهاغت David Anahaght رسائل فلسفية أصيلة. بالإضافة إلى تعليقات حول الأعمال الفلسفية الإغريقية. وكتب إنزك Eznik من كوغب Koghb أطروحة بعنوان ضد الطوائف دحض فيها الزرادشتية والمناوية (أتباع ماني الفارسي 216-276 م، الذي دعا إلى الإيمان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام) والغنوسية⁽²⁷⁾. وكتب المؤرخ التبشيري أجاتانجيلوس (Agathangelos) Agatangeghos تاريخ تحول أرمنية إلى المسيحية، وألف كوريون Koriun السيرة الذاتية لمعلمه، ميسروب ماشوتوس. كما دُونت معركة أقارايير والأحداث التي وقعت في الفترة من 430 إلى 465م في كتاب يفيشيه Eghishe تاريخ قاردا. وجاء وصف تقسيم أرمنية وكفاح الشعب الأرمني ضد الزرادشتية خلال الفترة من 384 إلى 485 في تاريخ لازاروس پاربي Lazarus Parpi (Ghazar Parpetsi). كما كُتبت أعمال أدبية في وصف الشهداء الأرمن في تلك الفترة، وأكثر هذه الأعمال شهرة استشهاد شوساهانيك Martyrdom of Shusahanik، ابنة قاردا ماميكونيان.

وأكثر الأعمال طموحاً في تلك الفترة كان عمل موسى الخوريني الذي يبدأ تاريخه بأصول الشعب الأرمني، وينتهي عام 440م. وقد نشأ جدل علمي نشط حول عمل الخوريني، وقد أكد بعض الباحثين على أن هذا العمل من غير المحتمل أن يكون قد كُتب خلال القرن الخامس، بل إنه كُتب بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون، وجادل آخرون في أنه كتب بالفعل في هذه الفترة. وعلى أية حال، فرغم أغلاطه العديدة في التأريخ والترتيب الزمني، فإن العمل يُعد ثروة من المعلومات حول المرحلة المبكرة من التاريخ الأرمني.

لقد قدم الأدب الفزير وأنشطة الترجمة لتلك الفترة مساهمة ضرورية وأساسية في رفع الوعي القومي، وفي الكفاح الأرمني ضد الضغوط الثقافية والدينية لكل من فارس وبيزنطة. وعلاوة على ذلك، فقد هب الأرمن لمواجهة تحديات أكثر أهمية، وهي الغزوات العربية ووصول الإسلام.

(27) الغنوسية gnosticism: مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا أن المادة شر. وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية. ويُسمى هذا المذهب أيضًا بمذهب العرفان. (المتروحة)

أهل الكتاب

أرمينية تحت الهيمنة العربية
(640-884)

تزامن احتلال العرب لأرمينية، الذي استمر قرنين ونصف قرن، مع الفتح الإسلامي للشرق الأوسط بأكمله وشمال أفريقيا وإسبانيا وصقلية وقبرص، وأخيراً تمكنت أوروبا بعد صدمتها الأولى من النجاحات الإسلامية أن توقف توسعاتهم بهزيمة العرب في القسطنطينية وطوروس Tours. وقبل انتهاء هذه الفترة، حاولت أوروبا أن تنعش الإمبراطورية الرومانية، عندما تُوج شارلمان إمبراطوراً، وشهدت الهند أوج دراما السنسكريتية (لغتها الأدبية القديمة)، وعاشت أزهى فترات ازدهار عمارتها الحجرية. قاومت حملات المسلمين الأولى من السند، وأسست مملكة هاراشا Harasha التي لم تدم طويلاً، ورسخت أسرة تانج نفسها بقوة كسلطة جديدة في الصين، وتبعت اليابان مرسوم إصلاح تاكا، وأنشأت حكومتها الإمبريالية. وفي الأمريكتين، كانت حضارة المايا في أوج ازدهارها، وبدأ عصر التياهووناكو هواري Tiahuanaco Huari في بيرو.

غزوات العرب لأرمينية

بدأت الغزوات العربية، التي استهلت بغارات في 640م ووصلت في أوجها إلى السيطرة على معظم أرمينية في أواخر القرن الثامن. بدأت لأول مرة عملية تغيير جزئي في التكوين العرقي لأرمينية الكبرى. لم يستوطن أحد من الغزاة أو الفاتحين السابقين في أرمينية، وإنما كان المعتدون الأوائل يأتون للسلب أو لترسيخ هيمنة سياسية على منطقة الأناضول أو ما بين النهرين، التي كانت تقصل إمبراطورياتهم عن الإمبراطوريات التابعة لمنافسيهم إلى الشرق أو إلى الغرب. كان أولئك الغزاة السابقين يمثلون حكومات وإمبراطوريات مركزية ومنظمة، لم يكن مواطنوها يرغبون في التنازل عن مساكنهم وثقافتهم والاستقرار بشكل دائم في أراضٍ أجنبية. ولكن العرب كانوا مختلفين. حيث تم تجنيد قواتهم من بين قبائل عديدة، وتسلم عدد من هؤلاء إقطاعات من الحكومة المركزية واستوطنوا

في سوريا وبلاد ما بين النهرين وفارس وأرمينية. وعلى مدى القرون الثمانية التالية حذا بدو رحل آخرون. مثل الأكراد والأتراك والمغول والتركمان، حذو النموذج العربي. وبينما بدأوا يستوطنون في أرمينية. كان الأرمن في المقابل يتعرضون للقتل، وللتحول عن دينهم. وللتهجير. وهو ما أثر بصورة خطيرة على تاريخ أرمينية في العصر الحديث.

وعلى عكس فتحهم السريع لفارس. استغرق العرب نصف قرن من الزمان لإخضاع أرمينية. فقد أسهمت جبال أرمينية وأقسام هيئتها الإدارية غير المركزية في إنشاء جيوب لمقاومة قادرة على الصمود طويلاً. بدأت الغارات الأولى عام 640م. ونجحت في الاستيلاء على دقّين. وعلى مدى عامين. واجهت الغارات العربية مقاومة أعنف من جانب ثيودور رشتوني Theodore Rshtuni، الذي كان الإمبراطور هرقل قد عينه أميراً (إشخان Ishkhan) لأرمينية قبل ذلك بعام. عندما وحّد المناطق الأرمينية الفارسية والبيزنطية في كيان واحد. وفي 644م. استطاع جيش أكبر هزيمة قوة أرمينية بيزنطية. ووجه البيزنطيون اللوم لرشتوني بسبب الهزيمة وحاولوا تغييره. وفي الوقت نفسه حاول الإمبراطور البيزنطي. منتهزاً فرصة الحملات العسكرية العربية على فارس وأرمينية. فرض قرارات خلقيدونية على الكنيسة الأرمينية. فدعا رشتوني والجاثليق نيرسيس الثالث Nersis III. الذي كان يُعرف بالبناء. إلى انعقاد المجمع الكنسي في دقّين، وأعلنوا في 649م رفضهم لتلك المحاولات.

الأمويون وأرمينية

في 650م بعث معاوية حاكم سوريا جيشاً كبيراً استطاع التغلغل في معظم أرمينية. ودافع رشتوني عن فاسبوركان Vaspurakan على أمل أن يتدخل الساسانيون أو البيزنطيون ضد العرب. بيد أن ما لاقاه رشتوني على أية حال هو استمرار المطالب البيزنطية لقبول قرارات مجمّع خلقيدونية كشرط مسبق لآية مساعدة، والانهيال النهائي للإمبراطورية الساسانية أمام العرب. وفي 652م. اتخذ رشتوني مع عدد من النخزار قراراً حاسماً بإقامة سلام مع العرب.

كانت الاتفاقية مع معاوية جيدة بالنسبة للأرمن، حيث تضمنت إعفاء أرمينية من الضرائب لعدة سنوات. وأن العرب يستطيعون في وقت الحرب الاعتماد على الفرسان

الأرمن الذين وافقوا على احتفاظ أرمينية بهم. كما تم الاتفاق على عدم تعيين حكام عرب على أرمينية. وأن تقوم القوات العربية بحماية أرمينية ضد الهجمات البيزنطية. وفي المقابل تدفع أرمينية الجزية أو ضريبة الرؤوس. ولكن باعتبارهم من "أهل الكتاب". مُنحوا حق حرية العقيدة. وهكذا تمكن رشتوني من الحصول على مكسب من الحاكم المسلم لم يكن قادرًا على انتزاعه من الإمبراطور المسيحي لبيزنطة.

كان بزوغ هذه القوة الجديدة في الشرق الأوسط يعني تغييرات سياسية كبيرة بالنسبة لأرمينية. ليست كلها ضارة. فمع تدمير الإمبراطورية الساسانية. وتراجع الإمبراطورية البيزنطية إلى غرب الفرات، توقف الصراع بين الشرق والغرب في أو على أرض أرمينية لأول مرة منذ ألف عام. بالإضافة إلى أنه. ولأول مرة أيضًا منذ 387م. كانت أرمينية الكبرى موحدة. ويُعامل شعبها كمجموعة واحدة من جانب حكامهم. ولسوء الحظ. كان هذا يعني أيضًا أن العائلات الأرمينية النبيلة مثل بجاتوني Bagratuni وماميكونيان Mamikonian وجنوني Gnuni وكامسراكان Kamsarakan وأرتزروني Artsruni وأماتوني Amatuni وسيوني Siuni ورشتوني Rshtuni. ستتصارع فيما بينها للفوز بمنصب قائد الأرمن.

أغضبت المعاهدة بين دمشق ورشتوني البيزنطيين ومؤيديهم من بين الأرمن: إذ رفضت عائلة ماميكونيان والجاثليق المعاهدة. ولحقوا بقوة بيزنطية لطرد رشتوني الذي لجأ إلى جبال سيونيك. وأرسل معاوية جيشًا جديدًا أجبر البيزنطيين على التراجع وأعاد رشتوني إلى الحكم.

وتزامن موت رشتوني عام 654م مع أزمة الخلافة والصراع السني - الشيعي. فكان بمثابة فرصة مثالية للبيزنطيين لإعادة عائلة ماميكونيان إلى السلطة. وعاد أيضًا نيرسيس جاثليق الكنيسة الأرمينية. واستكمل بسرعة بناء كنيسة زفارتنوتس Zvartnots. وبحلول عام 661م، كان الصراع على الخلافة قد انتهى. وتمكنت عائلة بني أمية بقيادة معاوية من الانتصار على عليّ وتابعيه (الشيعية)، وأسست أسرة حاكمة. وأجبر الأمويون في ذلك الوقت الجاثليق الأرميني وعائلة ماميكونيان على قبول السيطرة العربية وعلى دفع جزية سنوية من الذهب مقابل حكم أرمينية.

جدد البيزنطيون ضغطهم لإخضاع أرمينية سياسياً وكنسياً؛ حيث قام جوستيان الثاني Justinian وحلفاؤه من الخزر بغزو أرمينية في أواخر القرن السابع، ولكنهم هُزموا بواسطة قوة أرمينية عربية. ولم يكن العرب قد بدأوا بعد الاستقرار في أرمينية، التي ظلت مستقلة ذاتياً إلى حد كبير حتى ذلك الوقت. بنى الأرمن الكنائس والقلاع، وتوسعت الزراعة وزادت التجارة بصورة فعلية. وتناوبت السلطة السياسية بين عائلتي ماميكونيان وبجراتوني، وكانت كلتاها تحت الهيمنة العربية، بينما استمر النخار الباقون في حيازة أراضيهم التي ورثوها عن أسلافهم. وعلى عكس الاعتقاد الشائع، لم يكن هناك اضطهاد ديني من جانب المسلمين خلال تلك الفترة. إذ كان جاثليق الكنيسة الأرمينية حرّاً في التنقل، واحتفظ بسلطته القضائية على الكنيسة الألبانية القوقازية التي حاولت محاولات فاشلة أن تحذو حذو الجورجيين وتتحد مع الكنيسة الإغريقية.

انتهى السلام النسبي والازدهار في القرن الثامن. وأنشأ الأمويون في أواخر عهدهم، وخاصة مع قدوم خلفائهم العباسيين، إمبراطوريات ضخمة تطلبت ضرائب إضافية. وتزايدت الضرائب في جميع أنحاء الإمبراطورية العربية، وتم تشديد السيطرة المركزية بشكل كبير من أجل جمع هذه الضرائب. وكان استمرار هجمات الخزر وبيزنطة على أرمينية قد كشف بوضوح عدم قدرة الزعماء الأرمن على الدفاع بصورة فعالة عن الحدود الأرمينية للإمبراطورية العربية. وأصبحت أرمينية عبئاً بالنسبة للأمويين الذين كان عليهم طبقاً لشروط معاهدة 652م أن يدفعوا مالاً مقابل الإبقاء على سلاح الفرسان. وكان الحكم المباشر سوف يضمن سيطرة أكبر ومزيداً من الضرائب. لذلك، ففي 701م، بدأ الخليفة الأموي ضم أرمينية رسمياً بإرسال أخيه على رأس قوة كبيرة.

أعاد كل من البيزنطيين والعرب تنظيم الأراضي الأرمينية وهي تحت حكمهم. فقد قام البيزنطيون، الذين فقدوا أقاليمهم في أرمينية الكبرى، باستبدال أرمينية الأولى والثانية بمقاطعات عسكرية تسمى "ثيمات themes"⁽²⁸⁾. وسميت الثيمة الرئيسية منها أرمينياكون Armeniakon. وعُين لرئاسة كل تيمة قائد عام مسؤول عن الشؤون المدنية والعسكرية. وكان يتم تجنيد قوات من الأهالي، ويحصل أفرادها على أرضٍ مقابل

(28) وهي مناطق جغرافية محددة كوحدة دينية تابعة للمركز أعلى.

خدماتهم العسكرية. ولم تكن الأراضي قابلة للبيع، ولكن في المقابل، كانت تُورث للأبناء الذكور، الذين تولوا مسؤولية الخدمة العسكرية. وفي النهاية، تجزأت تلك الثيمات إلى قطع أصغر، وظلت تحت تحكم القادة العسكريين البيزنطيين حتى وصول الأتراك. وأنشأ الأمويون الولاية الأرمنية والتي تضمنت معظم أرمينية الكبرى، وشرق جورجيا، وألبانيا القوقازية (انظر خريطة 14). واعتُبرت دفين عاصمة الولاية وأصبحت مقر الحاكم المسلم أو الأوستيكان ostikan. ووضع العرب حاميات في المدن الرئيسية، بينما احتفظ النخرا الأرمن باستقلالهم الذاتي تحت الحاكم المسلم، مع عدم هيمنة عائلة بمفردها على الحكم، وفُرض تطبيق الشريعة الإسلامية في أرمينية. واحتُجز عدد من الزعماء العقائديين والعلمانيين وتم إرسالهم إلى دمشق كرهائن. وفي 703م تمرد النخرا الكارهين لمثل هذه السياسات القمعية، وناشدوا بيزنطة طلباً للمساعدة. وأدى التمرد إلى قدوم قوة عربية أكبر، والتي جنبت الكنيسة، ولكنها أهلكت عدداً كبيراً من النخرا أصحاب المقامات الرفيعة في مذبحة بناخيشيفان Nakhichevan.

وفي 705م، تعرض الأمويون لهجمات الخزر، وكانوا يواجهون في الوقت نفسه سخطاً متزايداً من جانب السكان المسلمين من غير العرب، فخففوا من القيود، وسمحوا للأرمن مرة أخرى بقدر من الاستقلال. وحارب بعض النخرا مع العرب ضد الخزر، وشهد العقدان التاليان مرحلة تعاون وثيق بين العرب والأرمن. كان العرب متساهلين، وعلى الأخص تجاه الكنيسة التي لم تكن قد شاركت في التمرد، والتي وفقاً للشريعة الإسلامية، كان ينظر إليها بصفتها القائد الرئيسي للأرمن. وساعد هذا المناخ على أن تتمكن الكنيسة لأول مرة من تنظيم مجموعة الشرائع الكنسية الخاصة بها، فيما يُعد علامة بارزة في تاريخ الكنيسة الأرمنية.

البولسيون Paulicians

ربما كان الحافز الأول لجمع الشرائع هو ظهور البولسيين. بدأت الحركة البولسية في أواخر القرن السادس، ولكنها اكتسبت زخماً في القرن السابع بعد علو شأن الإسلام، وضعف سلطة الكنائس الرسمية. كان البولسيون خلفاء المنشقين من المسيحيين الأوائل والمانويين الذين تمسكوا بمذهب الثنائية، وهو الاعتقاد بالقوى المتضادة بوجه عام لكل

من الخير والشر. كان البولسيون من أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا، ومعارضين للقيم الاجتماعية التقليدية للكنيسة الرسمية. كانوا ضد الإنجاب وأكل اللحوم والملكية الخاصة. وشكلوا حركة سرية شنت هجمات مسلحة ضد السلطات الأرمنية والعربية والبيزنطية، الدينية والعمانية على السواء. ومع نهاية القرن السابع، انتشرت حركة البولسيين في أجزاء من أرمينية وفارس والمناطق الشمالية لبلاد ما بين النهرين، وشكلت تهديداً كبيراً للسلطات المدنية. وفي 719م دعا چون من أودزن، جاثيق الكنيسة الأرمنية المؤيد من النخرار والعرب، إلى انعقاد المجمع الكنسي في دفين، وفيه أصدر أمراً علنياً بقمع البولسيين. وقد صدرت مراسيم مشابهة في مجمع آخر للمجمع الكنسي عام 726م. وفي النهاية ترك البولسيون أرمينية وأسسوا جمهورية شمال غربي الفرات، حيث ظلوا شوكة في جنب بيزنطة. وشهد عام 726م أيضاً بدء الخلاف الذي استمر قرناً من الزمان حول الأيقونات في الإمبراطورية البيزنطية، وهي الأزمة التي أدت إلى تحرير الكنيسة الأرمنية لبعض الوقت من المزيد من تدخلات الكنيسة الإغريقية.

العباسيون وأرمينية

في 750م وقع حدث في العالم الإسلامي أدى إلى ظهور نظام جديد. وحدث تغيير في علاقاته بأرمينية. هذا الحدث هو انطلاق الثورة العباسية. فعلى خلاف ما فعله الأمويون. أنشأ العباسيون إمبراطورية إسلامية حقيقية، وليس مجرد إمبراطورية عربية. وأصبح من الممكن في ذلك الوقت شغل الوظائف العليا بالنسبة للفرس والأترك، وحتى من تحولوا من المسيحية. وانتقلت العاصمة من المركز العربي في دمشق إلى بغداد. وأصبحت الإدارة أكثر اقتراباً من النظام الإمبراطوري. وأدت المطالب المالية إلى زيادة الضرائب والتي كانت بالفعل في صعود منذ أواخر العصر الأموي.

وانتهز الأرمن فرصة الارتباك الذي حدث في دمشق ودبروا تمرداً صغيراً، وسعوا للحصول على مساعدة من بيزنطة ضد العرب. وأدى التنافس بين عائلتي ماميكونيان وبيجراتوني. بالإضافة إلى الخلاف الدائر حول المعتقدات الدينية والمؤسسات التقليدية في بيزنطة إلى فشل الثورة. وسرعان ما استعاد العباسيون السيطرة العربية على أرمينية. ولم يفر بثقة بغداد المباشرة. لا البجراتونيون الذين كان يراهم العباسيون موالين للأمويين.

ولا الماميكونيان، الذين كانوا يرونهم موالين لبيزنطة. وأدى الانخفاض في حجم التجارة، والاختفاء الفعلي للفضة، وفرض ضرائب ثقيلة، والإبقاء على سلاح الفرسان الأرمني الذي كان في ذلك الوقت تابعاً للأرمن. أدى ذلك كله إلى دفع بعض النخرار الأرمن مثل عائلة أماتوني Amatuni إلى الهجرة لبيزنطة. ومع حلول الربع الثالث من القرن الثامن، تمكن البجراتونيون من إصلاح العلاقات مع العباسيين وكسبوا اعترافهم بهم كقادة للأرمن. لم ينل هذا التقارب رضا عائلتي ماميكونيان وأرتزروني Artsruni أو رضا البيزنطيين، وفي 774م حرضوا على قيام تمرد في أرمينية قُتل خلاله عدد من جباة الضرائب العرب. وحذر البجراتونيون النخرار الآخرين من إثارة بغداد. ولكن نصيحتهم قوبلت بالتجاهل، واحتشدت قوة أرمينية لمواجهة العرب. وهُزم الأرمن في بحري فاند عام 775م، وتكبدوا أرواح معظم الجيل الحاكم من النخرار، مما أدى إلى إضعاف كبير لعدد من البيوت الأرمينية مثل رشتوني Rshtuni وجنوني Gnuni وماميكونيان. وفي الواقع لم يلعب هذا البيت الأخير بعد ذلك دوراً مهماً في تاريخ أرمينية. أما البجراتونيون فقد استعادوا وضعهم كقادة للأرمن وعززوه.

أكمل عصر هارون الرشيد (786-809م) اتحاد الإمبراطورية العباسية مع نهاية القرن الثامن، وشهد تغييراً آخر مهماً فيما يتعلق بأرمينية والعالم العربي. فلأول مرة تشجّع الجنود والتجار العرب على الاستيطان وتأسيس جاليات جديدة في المناطق التي يسيطر عليها العرب، بما فيها أرمينية. وأدت التجارة إلى نشر الإسلام في المدن الساحلية لأفريقيا وجنوب آسيا، وعينت بغداد عائلات عربية لتحكم أو تنشئ مستعمرات في أرمينية وأجزاء أخرى من مناطق ما وراء القوقاز. وأصبحت باردا Barda (Partav) وتفليس Tiflis وجاندزك Gandzak ودقّين وناخيتشيفان وديار بكر مراكز إدارية للعرب يحكمها أمراء. وجرى التزاوج المختلط بين العرب وأهل هذه المناطق. وتحول الكثيرون إلى الإسلام، بالإكراه أحياناً، وعن اختيار صادق أحياناً أخرى. وأدى كل ذلك إلى استيعاب بعض العشائر العربية مثل شبليان وجحاف في رتب النخرار الأرمن. وكانت ولاية "أرمينية" في ذلك الحين مقسمة إلى أرمينية وجورجيا وآران Arran (ألبانيا القوقازية). ولم يدم طويلاً وضع الأمراء العرب كحكام أو قادة مؤقتين لحاميات عسكرية. ولكن مثلما فعل القيسيون Kaysites الذين استقروا بالقرب من بحيرة فان. جعلوا أجزاء من أرمينية

موطناً جديداً لهم. ولحسن حظ أرمنية أن تلك الإمارات العربية لم تشمل أبداً أغلبية من السكان. ولم تكن متحدة.

وبموت هارون الرشيد بدأ اضمحلال بطيء للخلافة والسلطة المركزية العربية استغرق زمناً طويلاً. وخلال الاضمحلال، بدأت الإمارات تتصرف باستقلالية عن بغداد. وأجبر الحكام المسلمون على الانتقال من دفين إلى باردا Barda في الركن الواقع أقصى الشرق من أرمنية. وأتاح هذا الانقسام للسلطة العربية الفرصة لنهوض زعامة بجاتونية، تحت قيادة أشوت مساكر Ashot Msaker ("أكل اللحوم") (826-790).

نهوض البجاتونيين

في بداية القرن التاسع، وسّع أشوت من إقطاعياته على حساب ماميكونيان وكامساراكان الذين كان الضعف قد نال منهم، وخارت قواهم. وتصادم مع عدد من الأمراء المستقلين الذين تخاصموا مع الخلافة وكوفئوا من بغداد بلقب "أمير أرمنية". وفي هذه الأثناء، أسس عمه البيت البجاتوني في أيبيريا Iberia (جورجيا). وبعد موت أشوت عام 826م، انتحل ابنه الأكبر بجات Bagrat لقب "أمير الأمراء"، بينما اتخذ لابنه الأصغر لقب سبارايت. وفي أثناء ذلك، كان الأرتزرونيون Artsrunis يقيمون قاعدة للسلطة في فاسيوراكابان Vaspurakan، بينما عقد أمراء سيونيك تحالفاً بالزواج مع باباك Babak. وهو فارسي مزدكي. تمرد عام 816م على بغداد، وولد سلطته على أجزاء من أرتساخ بين حران وأذربيجان. ومن المهم أن نذكر أن بعض البيوت الأرمنية تحالفت مع المسلمين ضد بغداد أو حتى ضد أرمن آخرين. ونفس الشيء حدث مع المسلمين، الذين كانوا من حين إلى آخر يتحالفون مع أرمن ضد مسلمين آخرين. وفي بغداد كان هناك نزاع داخلي حول الخلافة بين المأمون ابن زوجة هارون الفارسية، والأمين. ابن الزوجة التركية. وكان النصر في النهاية حليف المأمون وخلفه بعد ذلك أخاه المعتصم.

في عام 836م أرسل المعتصم قائداً فارسياً مسلماً يدعى أفشين Afshin للقبض على باباك. ووعد أفشين الأرمن والفرس بدرجة من الحكم الذاتي وخفض الضرائب إذا تعاونوا معه ضد باباك. وتعرض باباك للخيانة، وتم القبض عليه بعد عام. وتجمع عدد من أتباعه حول زعيم آخر يدعى مازيار Mazyar. وبدأوا ثورة اجتماعية ضد الفرس من أصحاب

الأراضي (الإقطاعات) في منطقة قزوين الذين تحولوا إلى الإسلام. وأتهم أفسين الذي كسب نفوذاً في أذربيجان بمساندة المتمردين، وقُتل عام 841م على يد الخليفة. وفي النهاية عُين قائد جديد في أذربيجان من قبيلة الساجد، والتي سيكون لها تأثير مهم على أرمينية. وكان ذلك في الوقت الذي امتد فيه الاضطراب الاجتماعي من فارس إلى أرمينية. مع ظهور مجموعة من الهراطقة المعروفين بالتوندراكين Tondrakians. ويبدو أنهم كانوا إما بقايا البولسيين الذين فروا من الاضطهادات البيزنطية بعد سقوط جمهوريتهم. أو من التابعين لباباك، أو من الطبقات الدنيا من المجتمع الذين تأثروا بأي من المجموعتين.

في أثناء ذلك، كان المعتصم قد بدأ في استخدام العبيد والمرتزة الأتراك في جيشه الرئيسي. وكما حدث مع الحرس الجرمانى البريتوري German Praetorian Guard (المرتزة) الذين اكتسبوا قوة متزايدة في روما، فإن هذه السياسة، أدت إلى هيمنة الأتراك على الخلافة حتى وصول الدولة البويهية الفارسية في بداية القرن العاشر. ودفع التنافس بين الفصائل التركية والعربية والفارسية المعتصم عام 836 لنقل العاصمة شمالاً إلى سامراء، الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، حيث ظلت هناك حتى عام 870م. وفي عام 874م، نصّب الأتراك المتوكل خليفة جديداً في سامراء. واتخذ الخليفة الجديد إجراءات شديدة الصرامة لاستعادة سلطة الخليفة. فتوقفت ترجمة الأعمال الفلسفية الإغريقية، وتعرض اليهود والمسيحيون للاضطهاد.

وعلى هذه الخلفية حدث التمرد الثاني الكبير في أرمينية خلال عامي 850-851م، والذي كان هذه المرة ضد ضرائب المتوكل وسياساته القمعية. وتم إرسال حاكم مسلم جديد إلى أرمينية، ولكنه مُنع من الدخول. وبدلاً من ذلك أرسل بَجرات بَجراتوني Bagrat Bagratuni ابن أشوت مساكم مبعوثاً بالضرائب المطلوبة إلى الخليفة نفسه، موضحاً بذلك أنه على الرغم من تبعية أرمينية للخليفة، فإنها ستحتفظ بحالة الاستقلال الذاتي. واعتبر الخليفة هذا العمل تمرداً، وغزا جيش الأوستيكان أرمينية، ولكنه هُزم أمام بجات. الذي تحالف مع الأرتزرونيين في فاسبوراكان. بعد ذلك أرسل الخليفة جيشاً جديداً. وأرسل الأرتزرونيون هدايا تم تسليمها عن طريق السيدة هرپسيم Hripsime، والدة نخرار فاسبوراكان Vaspurakan، والتي نجحت في وقف الغزو العربي لأراضيها. واضطر بجات إلى القتال بمفرده، وسرعان ما تم القبض عليه وأرسل إلى سامراء، حيث قتل عام 852م.

وعندئذ ثار السكان الأرمين وقتلوا القائد العسكري العربي، وأجبروا الجيش العربي على الخروج من الأراضي البجراتونية في تارون. ووجد التمرد معظم النخرار ضد المسلمين، فأرسل الخليفة جيشاً ضخماً لقمع العصيان وإخضاع جميع النخرار بصورة نهائية. ورفض سمبات بجاتوني Smbat Bagratuni شقيق بجات والسبارايت مشاركة المتمردين، ربما كإشارة إلى الخليفة بأنه، كزعيم جديد للأرمن، كان موالياً وراعياً في المساومة. لكن المتوكل لم يقبل أية مساومات. وقام الجيش العربي تحت قيادة القائد التركي بوغا Bugha بتدمير أرمينية وجورجيا وألبانيا القوقازية. ومع حلول عام 853م قبض بوغا على معظم الشخصيات المهمة من النخرار، بما فيهم سمبات بجاتوني، وأحضرهم إلى سامراء. ولكي ينقذوا أرواحهم، وافقوا جميعاً، باستثناء سمبات، على الدخول في الإسلام. وسُمح لهم بالعودة إلى وطنهم بعد موت المتوكل. ورفض سمبات بمفرده أن يتحول إلى الإسلام، وبقي في سامراء ومات بعد ذلك بوقت وجيز.

كانت حملات المتوكل بمثابة المحاولة الأخيرة للخلافة للتحكم المباشر في أرمينية. وقد عجل مقتله على أيدي قواته التركية عام 861م بالمزيد من انهيار الدولة العباسية. وأثناء أسر النخرار، كان الأمراء العرب يتوسعون في أراضيهم بلا قيود. وفي نفس الوقت، كانت بيزنطة قد انتعشت أخيراً تحت حكم باسيل الأول (867-886م) Basil I المنحدر من السلالة المقدونية. وبعد عودتهم، استمر النخرار، وخاصة بجاتوني وأرتزروني، في كفاحهم ضد الأمراء العرب. وحدثت أكبر الاشتباكات في المناطق الجنوبية التي قام فيها الأرمين بشن اشتباكاتهم الخاصة ضد العرب في المناطق الجنوبية وبشكل رئيسي في تارون Taron، ساسون Sasun، وفاسبوراكان Vaspurakan، وموك Mook.

الفن والأدب والعمارة

من أهم المؤرخين الأرمين لهذه الفترة الأسقف سيببوس Bishop Sebeos وزينوب جلاك Zenob Glak وچون ماميكونيان John Mamikonian (چون ماميكونيان الزائف). والراهب غيقوند Ghevond Vardapet. وقد آمدنا تاريخ سيببوس بمعلومات قيمة حول بيزنطة وفارس في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع، ثم وصف ظهور الإسلام والغزوات العربية لفارس وأرمينية والإمبراطورية البيزنطية حتى 661م. وكتب

زينوب جلاك وچون ماميكونيان كتاب: تاريخ تارون. والذي يفصل الأحداث في مقاطعة تارون Taron خلال الحروب الفارسية البيزنطية وتلك التي حدثت داخل بيت ماميكونيان. ووصف تاريخ غيغوند السيطرة العربية على أرمينية منذ عام 661 حتى 788م. كانت إحدى نتائج الصراعات الأرمينية العربية في تلك الفترة. ميلاد الملحمة الشعبية الشفاهية متهورو ساسون Daredevils of Sasun. وبطلها ديفيد الساسوني David of Sasun. وهذه القصة التي سُجلت بعد قرون تصف البجراتيين بقيادة ديفيد. والرشثونيين في صورة العم توروس. ومسر. ميليك. يمثل القائد المسلم. وتم أيضاً تمثيل بوغا وأرتزونني. ويصور نصر ديفيد على القوات العربية الأكثر قوة كنوع من كفاح داود وجالوت. بين الخير والشر.

وفي مجال العلوم. أنجبت أرمينية في القرن السابع أنانيا شيراكاتسي (أنانياس الشيراكي) Anania Shirakatsi (Ananias of Shirak) الذي درس الرياضيات على المعلم اليوناني في طرابيزون. ولدى عودته إلى أرمينية ألف كُتُباً في الحساب والحوليات. والأوزان والمقاييس. وفي الدورة القمرية والجغرافيا والكونيات. وكان لأنانيا دور فاعل في تحسين التقويم الأرميني وتغييره من نظام متحرك إلى نظام ثابت. كما أمدت معرفته بجغرافيا ما وراء القوقاز وفارس والطرق التجارية والأوزان والمقاييس المستخدمة في فارس المؤرخين بمعلومات نادرة وقيمة. وكتابه الجغرافيا يشرح الأقاليم الخمسة عشر الأرمينية. ويعطى معلومات أخرى مفصلة حول جورجيا وفارس وألبانيا القوقازية.

ومن الشخصيات الأدبية الأخرى في هذه الفترة جاثليق الكنيسة الأرمينية جون من أودزون Catholicos John of Odzun الذي كتب ضد البولسيين: ومنهم أيضاً إستيبانوس من سيونيك Stepanos of Siunik. الذي كتب تعليماً حول "الحجر السماقي" Porphyry. وترجم كتاب ديونيسوس التراقي في القواعد اللغوية Dionysius of Trax's Grammar. كما كتب تراثيل دينية (شاركان sharakans). وكان من بين مؤلفي التراثيل الآخرين نساء مثل خسروفيدوخت. من جوغتن Khosrovidukht of Goghtn. وساهاجدوخت. من سيونيك Sahakdukt of Siunik. وقد عاشت كلاهما خلال القرن الثامن.

وفي مجال الهندسة المعمارية، تُعد كنيسة زفارتنوتس (644-652م) Zvartnots مثالاً للكنائس ذات المسقط الأفقي على شكل الزهرة الرباعية، وهو عادة ما يتكون من أربع دعائم مرتبة بالتبادل مع أربع حنايا داخل شكل مربع به أربع غرف ملحقة على أركان المربع الخارجية. أما كنيسة زفارتنوتس فيحيط بها ممر دائري على مستويين يقع بين الحائط الخارجي الذي يتخذ هو الآخر شكلاً دائرياً. والحائط الداخلي المكون من حنايا ودعائم. ورغم أن الكنيسة دُمرت في القرن العاشر، فإن بقاياها تعتبر الأمثلة الأساسية للنحت في هذه الفترة، في شكل نحت بارز يمثل العمال ومخططي البناء. وفي مجال التصوير، نجد أنجياً مصوراً مؤرخاً في 862م، تم تنفيذه بتفويض من أسرة أرتزروني، يستحق الذكر لأسلوبه شديد التميز والبراعة.

مع أواخر القرن التاسع، وبعد ما يزيد على قرنين من الغزوات العربية. كان الأرمن لا يزالون يشكلون أغلبية السكان، وكان الأمراء العرب يواجهون صعوبة في الإبقاء على ممتلكاتهم في أرمينية. واستُغلت جبال أرمينية ووديانها التي يسيطر عليها النخرار كملاذات متعددة للاستقلالية الأرمينية. وأصبح ابن سمبات، أشوت بجاتوني، يحث على حشد القوة، واستمر في ممارسة الضغط على الأمراء العرب. واكتسبت عائلة بجاتوني احتراماً متزايداً في أرمينية. وأدركت الخلافة التي نالها الضعف، والأسرة المقدونية الناشئة في بيزنطة، قيمة التحالف الأرميني. لذلك كانت الأوضاع ملائمة لظهور مملكة أرمينية جديدة.

أرض متعددة التيجان الأسرة البجراتونية وممالك أرمينية في القرون الوسطى (884-1045م)

تزامن قرنان تقريباً من حكم الأسرة البجراتونية لأجزاء من أرمينية الكبرى مع الوقت الذي تفككت فيه إمبراطورية شارل الأول والثاني ملكي إنجلترا. وبدأت تتكون ولايات منفصلة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا. كان فن العمارة الروماني يتطور. وبدأت الإصلاحات الرهبانية في كلوني Cluny تجعل الأديرة مراكز حيوية للعقيدة والحياة الثقافية. وعانت أوروبا من غارات قبائل الفايكنج في أوجها. وبدأت في إسبانيا عمليات الاسترداد (reconquista)⁽²⁹⁾. بينما كان النورمانديون يعدون لفتح إنجلترا. بعد ذلك مباشرة. انفصلت الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية والكاثوليكية الرومانية. وبدأت اليابان والصين في استخدام الكتل الخشبية في طباعة الكتب. وحكمت أسرة سونغ في الصين. أما في اليابان فقد أتى قانون البوشيدو⁽³⁰⁾ بمحاربي الساموراي. وكتبت السيدة موراساكي أول رواية معروفة في العالم. قصة جنجي The Tale of Genji. وبلغت العلوم العربية والفارسية أوجها مع ابن سينا. وأصبح التصوف الإسلامي قوة أديبية ودينية كبيرة في الشرق الأوسط. وتأسست أول دولة روسية في كييف وتحولت بعد ذلك مباشرة إلى المسيحية بواسطة البعثات التبشيرية من بيزنطة. وانتشر الإسلام في جنوب الصحراء الأفريقية. كما ظهرت هناك أيضاً مملكتا غانا وكانم Kanem. وفتح المسلمون شمال الهند. واستقرت قبائل الإنكا في وادي كوزكو في بيرو، وانهارت حضارة المايا الكلاسيكية. وحل التولتك محل الأولميك في المكسيك.

(29) يطلق الأوروبيون هذا التعبير على محاولات استرداد شبه جزيرة أيبيريا من العرب. ويؤرخ لها من ثورة بيلايو عام 718م. ومعركة كوفادونيا عام 722م. أي بعد الفتح الإسلامي لها مباشرة. وتسمى الفترة التالية لذلك بفترة "الاسترداد" أو reconquis- ta. وهي فترة تتميز بوجود ممالك مسيحية وإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية. وانتهت بسقوط غرناطة في 1492م (الترجمة). (30) تعني كلمة بوشيدو في اللغة اليابانية "طريق المحارب". وهي مجموعة من القوانين الأخلاقية التي كان يتبناها المحاربون في اليابان أثناء العصور الوسطى. (الترجمة).

إحياء المملكة الأرمنية

في النصف الثاني من القرن التاسع، كانت أرمنية تعاني فراغًا في السلطة. وكان البيزنطيون والعباسيون مشغولين بشؤون داخلية وخارجية، تمنعهم من تركيز انتباههم على أرمنية، ولكن كانت هناك عدة بيوت للنخراز قوية بما يكفي لاستغلال الوضع. كان البعض قد ترك أرمنية، بينما مات آخرون بالخارج أو ضعفوا نتيجة صراعاتهم الداخلية. كما أسهم ارتداد النخراز في سامراء، وغيابهم الذي امتد ثماني سنوات عن أرمنية في مزيد من ضعف الكيان السياسي.

وإزاء هذا الفراغ السياسي، خطا أشوت بجراتوني Ashot Bagratuni ابن سمبات Smbat شهيد سامراء. فبعد موت أبيه على الفور، اتخذ لقب تانوتير (tanuter) (زعيم العشيرة) وسبارابت البيت البجراتوني، وأصبح مركزًا لحشد المقاومة الأرمنية ضد الهيمنة العربية. وادعى البجراتونيون أن لهم صلة نسب بالملك التوراتي ديفيد، وكانوا يرتدون عمائم بين حين وآخر، وتقلدوا أسماء عربية.

وسرعان ما كان أشوت قادرًا على زيادة قوة البجراتونيين وهيبتهم. وما بين عامي 855 و862م وسع منطقة نفوذه بضم ممتلكات كل من أسرتي ماميكونيان وكامساراكان، وبإقامة تحالفات بالزواج مع البجراتونيين في جورجيا والأرتزرونيين في فاسوراكان. وهكذا، كانت الأجزاء الشمالية والجنوبية والغربية من أرمنية الكبرى إما تحت سيطرة البجراتونيين أو متحالفة معهم. وبالإضافة إلى ذلك، أصر أشوت على الاحتفاظ بعلاقات صداقة مع سادة سيونيك في الشرق. وبوجود مقر جاثليق الكنيسة الأرمنية ضمن حدوده، تمتع أشوت أيضًا بالدعم الحاسم للكنيسة.

لكن أشوت والبجراتونيين الذين جاءوا من بعده واجهوا عدة عقبات داخلية وخارجية منعتهم نهائيًا من إعادة توحيد أرمنية الكبرى بالكامل. كانت العقبة الأولى هي السيونيين والأرتزرونيين. وهما البيتان الآخران اللذان كانا يحتفظان ببعض القوة من ضمن بيوت النخراز الباقية في أرمنية، واللذان كانا في الغالب يمتنعان عن تأييد البجراتونيين أو يتحالفان ضدهم. والعقبة الثانية التي كانت أكثر العوائق الداخلية إلحاحًا تمثلت في الأوستيكان (الحاكم المسلم) العربي والإمارات العربية. كان الأوستيكان يقيم بين باردا ودفين بالتبادل، وأدى ذلك بالتالي إلى الوقعة بين البجراتونيين من ناحية وجورجيا وسيونيك من ناحية أخرى. واحتلت الإمارات الأراضي الوسطى لأرمنية الكبرى. بين البجراتونيين

والأرتزرونيين. وبهذا الشكل. نادراً ما كان أشوت وخلفاؤه قادرين على الربط بين الأراضي الموجودة بحوزة الأرمن وجعلها جبهة متحدة ضد العرب. وبالإضافة إلى ذلك. ظلت مدن متعددة أهمها دفين وناختشيفان تحت السيطرة العربية معظم تلك الفترة.

ومثلت قوات خارجية تهديداً أكثر مباشرة للبحر اتونيين. فمع ظهور الأسرة المقدونية في بيزنطة في النصف الثاني من القرن التاسع، بدأت القسطنطينية تتدخل مرة أخرى في الشؤون الأرمنية. ولم تقم مسيحياتهم المشتركة. ولا الأصل المشترك بالنسبة للأباطرة المقدونيين الذين كانوا ينحدرون من أصول أرمنية. بدور ذي بال لتعزيز تحالف أرمني بيزنطي قوي ضد العرب. بل على العكس. أبقى البيزنطيون على سياستهم المتعلقة بتكرار المطالبة بتنازلات لاهوتية، والسيطرة على الأراضي الأرمنية مقابل المساعدة العسكرية. وعلاوة على ذلك. أتاح التدهور المستمر للخلافة العباسية ظهور سلالات حاكمة مسلمة صغيرة على الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية لأرمنية، والتي هددت أمنها على نحو دوري.

وعلى الرغم من أن أشوت قد تنازل عن لقب الـ "سبارابت" لأخيه الأصغر، فلا شك في أنه احتفظ بالسيطرة الكاملة على جيش النخرا. الذي كان في ذلك الوقت لا يزال يتمتع ببعض مظاهر الوحدة. ولتعزيز وضعه أكثر، جدد أشوت التحالف مع بيزنطة. ووافق رسمياً على الأقل على إجراء حوار حول توحيد الكنيستين الأرمنية والإغريقية الأورثوذكسية. وأدرك الخليفة العباسي المستعين بالله⁽³¹⁾ أن تزايد سلطة البجراتونيين يمكن أن يعوق الاستقلال المتزايد للإمارات العربية، فأنعم في 862 على أشوت بلقب أمير الأمراء. ووفقاً لبعض المؤرخين منحه أيضاً سلطة فرض ضرائب. ورغم أن هذا اللقب يشمل السيادة على جورجيا وأجزاء أخرى من القوقاز. فإن وجود الأوستيكان في باردا كان يعني أن حكم أشوت لن يمتد بأية حال إلى أبعد من أجزاء من أرمنية الكبرى. وفرضت الكنيسة الأرمنية، بدعم من أشوت. سيادتها على الكنيسة الألبانية القوقازية. وكان أشوت معترفاً به كحاكم لأرمنية من جانب معظم النخرا ومن الكنيسة، عندما بعث له الخليفة المعتمد عام 884م تاجاً ملكياً. وهكذا توج أشوت (الأمير البجراتوني الخامس بهذا الاسم)، وأصبح بالتالي الملك أشوت الأول. وبعد ذلك مباشرة قام الإمبراطور البيزنطي باسيل الأول، لكي يحتفظ بنفوذه على السلالة الحاكمة الجديدة. بإرسال تاج أيضاً. وأنداك، أصبح لأرمنية مرة أخرى مملكة وسلالة حاكمة.

(31) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد المستعين بالله. ولد سنة 220 هـ. وتولى الخلافة 248-252 هـ (خُلع) (862-866م). (المترجمة)

وخلال السنوات الست التالية. لم يقتصر آشوت على بسط نفوذه السياسي على الإمارات. ولكنه استطاع أيضاً تمكين البجراتونيين الجورجيين من تعزيز سيطرتهم في أيبيريا (انظر خريطة 15). وتمكن آشوت من السيطرة على دفين ولكنه لم ينقل بلاطه وحاشيته إلى هناك. مفضلاً البقاء في باجانان التي أحكم قبضته عليها. وكان لهذا القرار عواقب وخيمة. لأن ذلك ترك دفين. مركز أرمينية. بلا حماية من حين لآخر. وأحياناً تحت سيطرة عربية.

وكشف موت آشوت عام 890م فوزاً عن عدد من المشكلات التي سوف يُبتلى بها البجراتونيون بصورة دائمة. وانتهت خمسمائة عام من الانقسامات واللامركزية بتشرذم سياسي وفقدان هيكل الدولة الواحدة. وعلاوة على ذلك. كانت عائلات النخرا الكبيرة قد انقسمت منذ القرن السادس إلى أفرع أصغر تقالبت فيما بينها. ذلك بالإضافة إلى أن ناخيتشيفان ووادي أراكر. اللذان كانا في قبضة المسلمين. أصبحا يفصلان أراضي سيوني في الشرق عن مناطق أرتزروني في الجنوب. وهكذا استمرت دفين وتفليس وناخيتشيفان ومدن أخرى مركزية تحت السيطرة العربية. وذلك بالإضافة إلى أن الأمراء لم يكونوا دائماً مطيعين للخلافة العباسية. وهي المشكلة التي كانت أحياناً تضيد الأرمن والبجراتونيين. وتضرهم أحياناً أخرى.

وبعد موت آشوت. اعتلى ابنه سمبات الأول (890-914م) العرش. وسرعان ما واجه العديد من المشكلات الداخلية والخارجية التي كانت تواجه والده. وأدى افتقاره إلى خبرة والده إلى عدم استطاعته قيادة الكنيسة أو النخرا بصورة كلية. وخاصة الأرتزرونيين: وحتى عمه رفض الاعتراف بابن أخيه. أما الأرتزرونيون. الذين كانوا قد أعلنوا أن البجراتونيين لم يكونوا في الماضي إلا واضعي أكاليل التسويج التقليدية لملوك عائلة أركاشكوني. فقد شككوا حينذاك في شرعية البجراتونيين كملوك. لكن سمبات. في الفترة الأولى من حكمه. تمكن من الاحتفاظ بدعم بيزنطة وأقاربه الجورجيين وجاثليق الكنيسة الأرمينية. وكذلك محمد بن أبي الساج حاكم أذربيجان الذي كان أوستيكاناً³².

32. هو محمد بن ساج وشهير بمعهد الأفضين التوفي (914). في 974. عُيِّنَ ولياً للأمير من بيت أصفوي على مكة. وعندما توفي محمد بن فتوفان في مصر. قام سورفيدني في مز مرة هائلة للاستيلاء على مصر من سنة حمرويه. وفي 984 أو 984. عينه عميق أخو نعمت حاكم على أذربيجان. شهر كدهك دموي ومعدان. (مترجمة)

اتسم الجزء الأخير من حكم سمبات بالفشل الذريع. فقد هاجم محمد بن أبي الساج أرمينية. واستولى على دقين وناخيتشيفان. وألقى القبض على جاثليق الكنيسة الأرمينية. تمكن سمبات من عقد اتفاقية سلام مع محمد بن أبي الساج ودفع فدية لاستعادة الجاثليق الأرميني الذي غادر إلى المعر الجاثليقي في دقين. التي كانت وقتذاك في أيدي المسلمين. ورغم أن ألبانيا القوقازية بقيت موالية. فإن عائلات سيوني وأرتزروني في فاسبوراكان كانت قد أبدت رغبة في السلام لمحمد بن أبي الساج. واستغل الأخير الوضع لغزو أرمينية مرة أخرى. وتم القبض على زوجة سمبات والاستيلاء على الخزينة الملكية. ومن أجل تحرير زوجته. اضطر سمبات إلى أن يرسل ابنه الأكبر أشوت كرهينة. وأن يقدم ابنة أخيه لتصبح زوجة لمحمد بن أبي الساج. وأن يدفع جزية لابن محمد. حاكم دقين. ثم هاجم محمد بن أبي الساج فاسبوراكان. وجعل عائلة الأرتزروني ولاة له. وأخذ أخو النخزار رهينة.

وتحسنت الأوضاع لفترة محدودة عندما قام الخليفة المكتفي خشية من نفوذ محمد بن أبي الساج بتحرير أرمينية من سيطرة الساجد. وعندئذ جدد قادة سيونيك وفاسبوراكان بسرعة ولاءهم للبيجراتونيين. لكن الصورة تغيرت بشدة عندما أصبح يوسف. أخو محمد بن أبي الساج. أوستيكاناً عام 901م. ومنتهزاً فرصة موت محمد بن أبي الساج. طلب سمبات أن يصبح والياً خاضعاً مباشرة للخليفة. ومن ثم يتخطى الأوستيكان. وتجاهل يوسف سيادة الخليفة. وغزا الأراضي البيجراتونية. ونتج عن تراخي بغداد توقيع اتفاقية عام 903م. التي قبل سمبات بموجبها سلطة يوسف وتسلم تاجاً مقابل إذعانه. وضعف موقف سمبات أكثر من ذلك عندما ورط نفسه في نزاع بين أمير جورجي وملك جورجيا البيجراتوني. وأيضاً في نزاع بين عائلتي سيوني وأرتزروني. مما أدى بالتالي إلى نفور الأستين معاً منه. وطالب يوسف. مستغلاً حالة الانقسام بين المسيحيين. بضرائب إضافية على الجزية التي يدفعها سمبات إلى بغداد. ولإضعاف سمبات أكثر. منح يوسف عام 908م تاجاً إلى جاجيك أرتزروني. مما أدى إلى إقامة مملكة تتمتع بالحكم الذاتي في الجنوب. كانت أرمينية البيجراتونية على طريق التفتت. وبعد عام هاجمت قوة موحدة من المسلمين وعائلة أرتزروني أراضي سمبات. وعاثت دماراً وتخريباً في البلاد. وسعى سمبات للحصول على مساعدات من بيزنطة والخليفة. ولكن كلاً منهما كان مشغولاً

بمشكلات داخلية. وقام يوسف بالقبض على أمراء أرمن وقتلهم، وكان من بينهم ابن لسميات وابن أخ له. ولوقف إراقة الدماء، استسلم سمبات، وتم تعذيبه وصلبه. وساعد موت سمبات على تحقيق هدف ما، على أية حال. فقسوة يوسف تجاه سمبات والنخرار الآخرين كلفته تأييد جاجيك أرتزروني وزعماء أرمن آخرين انضموا إلى ابن سمبات. أشوت الثاني. المعروف بـ "إركات" (الحديدي)، وأخرجوا المسلمين من معظم أرمينية الكبرى. وانضم البجراتونيون الجورجيون أيضاً لهذا الحشد. وتوج أشوت الثاني عام 914م. لكن ابن عم أشوت بقي موالياً ليوسف الذي عينه حاكماً على دفين. وبعد ذلك على الفور قدم البيزنطيون. الذين كانوا منزعجين من الأحداث الجارية في أرمينية. مساعدتهم لإزالة التهديد الإسلامي نهائياً. ذهب أشوت الثاني إلى القسطنطينية حيث تمت مناقشة وحدة مسيحية ضد العدو المشترك. وفي 915م عاد أشوت مع جيش بيزنطي. ورغم أنه لم يستطع أخذ دفين فقد وسع نفوذه إلى حد بعيد. وجاء تمرد يوسف ضد الخليفة والقبض عليه عام 919م ليزيل الخصم الأكثر خطورة للبجراتونيين، وفي نفس الوقت أنهى الحكم الذاتي لابن عم أشوت في دفين. وبدأ جاجيك أرتزروني في قاسبوراكين وأشوت الثاني عهداً جديداً من إعادة البناء والإنشاء في أرمينية الكبرى. وكما سبقت الإشارة. كانت هناك مشكلة كبرى للبجراتونيين. وهي موقف بيزنطة، التي كانت تقدم المساعدة أحياناً. ولكنها كانت في المقابل تطالب بإذعان سياسي وديني. ولم يكن أشوت الثاني مستثنى من ذلك. فما أن أصلح علاقاته مع الأوستيكان الجديد حتى أرسلت بيزنطة القوات لزعزعة استقرار أرمينية. وفي الوقت نفسه، أطلق سراح يوسف من السجن. واستعاد منصب الأوستيكان. وبدأ هجمات جديدة على جيرانه المباشرين في سيونيك وقاسبوراكين. وتمكن أشوت والنخرار الموالين له من هزيمة كل من العرب واليونانيين. وكانت الأعوام الأخيرة من حكم أشوت هادئة. ومن المفارقات أن كلاً من أشوت ويوسف ماتا عام 929م. وبدأت أرمينية عهداً جديداً عندما انتهى ذلك الفاصل الزمني من حكم الساجيين في أذربيجان.

وتولى عباس أخو أشوت زعامة البجراتونيين في عام 929م. وحكم حتى عام 953م. وظل عباس مشغولاً بسبب ظهور السلالات الحاكمة المتعددة الكردية/الفارسية في أذربيجان وأجزاء من أرمينية مثل الرواديد Rawadids. متحدة مع التهديد المتواصل من

بيزنطة والأمراء العرب في بلاد ما بين النهرين. اختار عباس الإقامة في منطقة هيمنته. وعزز دفاعاته من حصن كارس الذي أصبح عاصمة له. وأصبح جاجيك الفاسبوراكاني في ذلك الحين هو أقوى زعيم أرمني. وقد اختار عددًا من الجائقة الأرمن وأقاموا في بلاطه أساسًا لأن دفين ظلت في أيدي المسلمين. وأصبحت فاسبوراكان مركزًا سياسيًا وثقافيًا رئيسيًا، وأصبحت جزيرة أغممار في بحيرة فان مقرًا للكرسي الجائقي لأرمنية. ومع حلول منتصف القرن العاشر. والفضل لجهود جاجيك. استعادت أرمنية كثيرًا من وضعها السياسي والاقتصادي السابق.

بدأ عهد أشوت الثالث (953-977م) ذروة السبعين عامًا للحكم البجراتوني. ففي أعقاب موت جاجيك حاكم فاسبوراكان. أصبح أشوت الزعيم غير المتنازع عليه للأرمن. جاء الجائقي إلى أني العاصمة الجديدة لأشوت. وتوجه ملكا. وفي المقابل دعم أشوت الكنيسة ورعى إقامة عديد من الصروح الجديدة. وحرص أشوت على أن تقبل الكنيسة الألبانية القوقازية مرة أخرى سلطة الكنيسة الأرمنية. كما تمكن أيضًا من الاستيلاء على دفين. كانت أرمنية قوية نسبيًا وموحدة. وعندما وصل الإمبراطور البيزنطي جون تريميسكس John Tzimiskes على رأس جيش في 974م. أجبر على الانسحاب. وشعر أشوت بأمان تام وثقة حتى أنه منح أخاه قلعة كارس. وسمح له أن يستخدم لقب ملك. كما أعطى أيضًا منطقة شمال بحيرة سيفان إلى ابنه. الذي سرعان ما اتخذ لقب ملك لوري King of Lori. وتكرر هذا النموذج لسوء الحظ في فاسبوراكان. التي قُسمت بين ورثة جاجيك. ومع حلول الربع الأخير من القرن العاشر كانت سيونيك أيضًا قد أصبحت مملكة (انظر خريطة 15). كانت هذه التيجان والألقاب الكثيرة لا تمثل خطرًا شريطة أن تكون أرمنية تحت سيطرة حاكم قوي في أني. والواقع أن منح الألقاب ربما أوقف المشاجرات وأرضى أولئك الذين. لولا ذلك. لكان من المحتمل أن ينقلبوا ضد المملكة. أو يتحالفوا مع الأعداء. أو يتمرّدوا بعد موت الملك. وظهرت مشكلات بالطبع خلال عهود الملوك الضعفاء. أو عندما كانت الضغوط الخارجية قاهرة. بالإضافة إلى أن بعض الأساقفة في هذه "الممالك" اتجهوا من حين إلى آخر إلى تجاهل سلطة الجائقي. ولقبوا أنفسهم بالجائقة.

وبعد موت أشوت الثالث. تولى ابنه سمبات الثاني العرش. وكان عليه أن يتعامل مع عمه في كارس ومع المسلمين. وانتقلت دفين مرة أخرى إلى حكام آخرين. ولكن سمبات قضى سنواته في توسيع مدينة أني. التي أصبحت مركزًا حضريًا رئيسيًا بها كاتدرائية

وكنايس عديدة. وتصالح سمبات بمساعدة البجراتونيين الجورجيين مع عمه، وتولى زعامة البجراتونيين الأرمن. كما كان التنافس بين الأمراء المسلمين عاملاً مكن سمبات من مقاومة التقدم الإسلامي وتوسيع ممتلكاته.

وفي عام 990م، تولى العرش جاجيك بجراتوني الأول، ويسمى كذلك حتى لا يختلط الأمر بينه وبين جاجيك الفاسبوراكاني. وكانت فاسبوراكان ممزقة جداً إلى درجة عدم قدرتها على تحديه. وتمتع جاجيك بتأييد أو خضوع كل عشيرته الذين حكموا في أجزاء مختلفة من أرمينية. وكذلك النخرار الآخرين. ولسوء الحظ، تمكنت البيزنطة تحت حكم باسيل الثاني من السيطرة على جورجيا الغربية. وكانت بالتالي قريبة من أرمينية بما يكفي لإحداث مؤامرات فيما بعد.

انهيار البجراتونيين

كان موت جاجيك عام 1020م بداية الانحدار السريع للبجراتونيين وانهيارهم. كانت قوى التدمير في المملكة كامنة داخلها منذ وقت طويل، ولكنها ظلت مكبوحة أمام سلطان الحكام البجراتونيين الأقوياء. وأدى التنافس بين أبناء جاجيك إلى تقسيم المملكة. وجاء ذلك في وقت وافق ظهور الأتراك على مسرح الأحداث، وكان باسيل الثاني يوسع إمبراطوريته بضم الجيران الضعفاء. وكان البيزنطيون قد استولوا بالفعل على جنوب غرب أرمينية. عندما أوصى ملك فاسبوراكان العجوز سينيكريم Senekerim، الذي لم يكن له أولاد، بمملكته عام 1022م إلى باسيل. كما ترك ملك آني البجراتوني، هوفهانس سمبات Hovhannes Smbat مملكته أيضاً إلى باسيل خشية الانتهاك البيزنطي. وبعد موته عام 1042م حاولت الفصيلة الموالية لبيزنطة تسليم المدينة، ولكن وريثه جاجيك الثاني ومؤيديه قاوموا. وبقيت آني مستقلة. وحكم جاجيك ثلاث سنوات قاتله أثناءها أمير دفين والبيزنطيون وأحد أقاربه من لوري. وذهب إلى القسطنطينية ليدافع عن قضيته، ولكنه أجبر على التنازل. وهكذا في 1045م انتهت آخر مملكة كبرى في أرمينية التاريخية. وقد استولى البيزنطيون على آني، وفي 1064م تم ضم مملكة كارس البجراتونية أيضاً، ولم يبق مستقلاً سوى مملكتين جبليتين وإمارة، وهي: مملكة سيونيك (حتى 1166م)، ومملكة لوري (حتى 1100م تقريباً)، وإمارة خاتشن Khachen في كاراباغ (حتى 1450م تقريباً).

استقر الأرمن في الأجزاء الشرقية للإمبراطورية الرومانية قبيل العصر المسيحي. وارتقوا إلى مناصب بارزة. وحتى الإمبراطور هرقل يعد منحدرًا من أصل أرمني. وعلى الرغم من أن جوستينيان بدأ نقل عائلات أرمنية بالقوة إلى بيزنطة. فإن أعدادهم كانت قليلة جدًا. وبدأ الأرمن ينتقلون إلى بيزنطة بأعداد كبيرة في أواخر القرن السادس. عندما فرّ قاردران ماميكونيان الأحمر مع تابعيه وجائليق الكنيسة چون الثاني إلى القسطنطينية بعد تمرد فاشل ضد الساسانيين. وحسبما تواتر. فقد دخل قاردران وحاشيته الجيش البيزنطي واستقروا في پرجاموم Pergamum. وفي عهد موريس والتقسيم الثاني لأرمنية، تم ترحيل آلاف الأرمن بالقوة إلى الإمبراطورية البيزنطية، حيث استقرت مجموعة كبيرة منهم في قبرص. وفي النصف الثاني من القرن السابع، سيق البولسيون الأرمن من منازلهم في أرمنية، وتم توطينهم في أراضٍ بيزنطية، وخاصة في پنطس. وبعد الغزوات العربية وحتى القرن العاشر هاجر مزيد من النخرار الأرمن مع عائلاتهم بالكامل إلى بيزنطة، واستوطن البعض قيليقيّة. وأدى انحدار وسقوط المملكة البجراتونية في القرن الحادي عشر إلى نزوح مزيد من النخرار إلى قيليقيّة، وأيضًا إلى القسطنطينية. ومراكز حضرية أخرى من الإمبراطورية، كما وصل المزيد في أعقاب الغزوات التركية المغولية التالية. وأصبح الأرمن قوة تجارية وإدارية مهمة في القسطنطينية عقب سقوط بيزنطة في أيدي الأتراك.

ويعتبر المؤرخون أن الأرمن كانوا إحدى المجموعات الأكثر تأثيرًا في الإمبراطورية البيزنطية متعددة الجنسيات. فقد اشتغل الأرمن بالتجارة والإدارة والزراعة وشكلوا عنصرًا مهمًا في الجيش. واستنادًا إلى ما ذكره بروكوبيوس Procopius، مؤرخ القرن السادس البيزنطي، كان هناك ستة عشر جنرالًا في جيش جوستينيان وحده، وكانت فرقهم الأرمنية معروفة بشجاعتهما. وتقلد عديد من الأرمن مناصب مهمة في الجيش خلال الفترة من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر. وكان عدد منهم، مثل پتروناس Petronas وكوراكواس Curacuas وموسيل Musele، مسئولين عن الانتصارات التي حققها البيزنطيون ضد العرب والغزاة الآخرين. وكان يطلق على الزعماء العسكريين الأرمن حكامًا إقليميين، بينما أصبح آخرون القوة المحركة وراء العرش، وكان لهم دور فعّال في

رفع شأن عدد من الأباطرة. ولم يكن هرقل وحده من أصل أرمني، ولكن الأسرة المقدونية التالية. وفقاً لما ذكره معظم الباحثين في التاريخ البيزنطي، كانت من أصل أرمني أيضاً. وتعتبر فترة حكم هذه الأسرة (التي امتدت من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر) أوج الهيمنة الأرمنية داخل الهيكل السياسي والعسكري للإمبراطورية. وحقق الأباطرة والجنرالات الأرمن والفرق العسكرية الأرمنية أعظم انتصاراتهم العسكرية ضد العرب والسلافيين والبلغاريين. ومما يدعو إلى السخرية أن هذه السلالة الأرمنية هي نفسها التي كانت مسئولة بصورة رئيسية عن إنهاء المملكة الجراتونية. ولكنهم على أية حال، وكما سنرى في الفصل التالي، كانوا أيضاً مسئولين بصورة غير مباشرة عن قيام دولة أرمنية حديثة في قيقية.

قام الأرمن بدور مهم في الحياة الثقافية لبيزنطة أيضاً. إذ كان رئيس أكاديمية القسطنطينية خلال أوجها، الفيلسوف ليو (الذي عُرف أيضاً كعالم رياضيات Leo the Mathematician). وكان عم ليو. جون العالم في القواعد اللغوية John the Grammarian. كان عالماً آخر من العلماء الأرمن المهمين.

تجارة وفن وهندسة معمارية وتعلم

لم يقيم الملوك الجراتونيون بسك أية عملات معدنية: إذ كانت العملات المعدنية العباسية والبيزنطية منتشرة على نطاق واسع في أرمينية. وكانت أرمينية في ذلك الوقت تصدر بضائع مصنعة، فضة ونحاس وحديد وزرنيخ وبوراكس (مسحوق أبيض متبلر) وملح. وكان السمك المجفف يُصدّر إلى بلاد ما بين النهرين، وتُرسل الصقور. كجزية إلى الخليفة. وكانت الخيل والبغال الأرمنية عالية الثمن، كما كان بأرمينية غابات، وكان خشب الجوز يُصدّر إلى بغداد. وكذلك الفراء والمنتجات الجلدية. وكانت الأبسطه (السجاجيد) الأرمنية مطلوبة أيضاً في هذه الفترة. وخصوصاً تلك المصنوعة من صوف الماعز، وازدهرت صناعة النسيج. ويرجع ذلك أساساً إلى الأصباغ الأرمينية. وكانت الصبغة ذات اللون الأحمر النبيذي. التي يطلق عليها العرب اسم الصبغة القرمزية، ذات قيمة منذ العصور القديمة. وكانت تُصنع من القشور المجففة للحشرة القرمزية، وهي حشرة تتغذى

على جذور نبات معين ينمو على منحدرات جبل آارات. بالإضافة إلى أن أرمينية أنتجت الحرير في مناطق أرتساخ وسيونيك وجنجه.

أنجب العهد البجراتوني عدداً من المؤرخين المهمين. مثل أريستاكيس Aristakes من لاستيفرت Lastivert، الذي وصف العلاقات الأرمينية البيزنطية وحركة التوندراكيان Tondrakian⁽³³⁾ في أواخر العهد البجراتوني. واختتم تاريخه بوصف تفصيلي لغزو السلاجقة لآني ومعركة مانزكيرت عام 1071م. وكتب جاثليق الكنيسة الأرمينية جون دراسخاناكيرتسي Draskhanakertsi (الجاثليق هوفهانس الخامس Catholicos Hovhannes V المعروف بـ "المؤرخ") تاريخ أرمينية History of Armenia. وأحد أكثر الأعمال قيمة في تلك الفترة قام به ستيبان التاروني Stepan of Taron (معروف أيضاً بالأسوغيك Asoghik) وهو كتاب تاريخ العالم Universal History، الذي يتصف بالدقة في تأريخ الأحداث. ولا يروى العمل فقط تاريخ الأرمن بالتفصيل حتى القرن الحادي عشر، ولكنه أيضاً يحتوي على معلومات قيمة ومختصرة حول الجورجيين واليهود والفرس والرومان واليونانيين والعرب والمصريين والبلغار والأبخاز. كما يصف كتاب تاريخ عائلة أرتزروني History of the House of the Artsrunik بقلم توماس الأرتزروني الأوضاع في قاسبوركان خلال فترة حكم الملك جاجيك أرتزروني، ويعد كتاب تاريخ الألبان القوقازيين History of the Caucasian Albanians . بقلم موقسيس داسخورانتسي Movses Daskhurantsi (تشير إليه بعض المصادر باسم موقسيس كاغانجاتقاسي Movses Kaghangatvatsi). يعد المصدر الوحيد المتبقي بأية لغة والذي تحدث حول هذا الشعب الذي انتهى بالذوبان في الأرمن والفرس والعرب والأترك. وهناك شخصيات أخرى بارزة في مجال الأدب مثل خسروف من أندزيف Khosrov of Andzev الشاعر الصوفي الرائع والمفسر الديني؛ والأسقف أوختانس السيباستي Ukhtanes of Sebastia، الذي وصف انفصال الكنيستين الجورجية والأرمينية، والمؤرخ شاپوه الزائف بجراتوني Pseudo-Shapuh Bagratuni. وهناك أعمال أدبية صغيرة مثل قصائد شعر وتعليقات لجريجور ماجيستروس باهلافوني Grigor Magistros Pahlavuni؛ والترانيم التي كتبها الجاثليق پتروس الأول Petros I؛ والقصائد

(33) التوندراكيان Tondrakians أعضاء طائفة مسيحية اتهمت بالهرطقة. وكانت مضادة للإقطاع وازدهرت في العصور الوسطى الأرمينية. بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر. وتركزت حول مدينة توندراك. شمال بحيرة فان (المتروحة).

التأينية لفاردان من آني. وأخيراً، هناك الكتابات الفلسفية لـ جون الفيلسوف John the Philosopher وقصائد شعر الصوفي المشهور جريجور من ناريك (القديس جريجوري الناريكي Grigor of Narek (St. Gregory of Narek)، مؤلف كتاب المراثى Book of Lamentations.

كان العهد البجراتوني أكثر العهود إنتاجاً لعمارة الكنيسة الأرمنية. والواقع أن معظم الكنائس في أرمينية الحالية باقية من تلك الفترة، فقد دعم الملوك البجراتونيون والتجار الأغنياء والنخراة إنشاء عديد من الكنائس في آني، وبعضها لا يزال باقياً حتى الآن. كما تم استكمال بناء الكنائس الواقعة على بحيرة سيفان وكاتدرائيات كارس وأرجينا وآني وأديرة مارماشين Marmashen وخذزكونك Khdzkunk. كما بدأ في هذا العهد إنشاء أديرة تاتيف Tatew، وساناهاين Sanahin، وهاغبات Haghpat، وجيفارد Geghard، وماكارفانك Makaravank، واستمرت عملية الإنشاء طوال القرنين التاليين. ويرجع إلى هذه الفترة أيضاً حصن وكنيسة أمبرد Amberd وكنيسة بدجني Bdjuni. وتعد كاتدرائية الصليب المقدس في اغتمار من أروع المنشآت المعمارية. وقد بنيت بتفويض من جاجيك أرتزروني. وتشمل هذه الجوهرة من الهندسة المعمارية والنحت البارز تصويراً جدارياً أيضاً يمثل آدم وحواء، وبشارة السيدة العذراء بالمسيح، ويوم الحساب. وهناك قطع فنية رائعة أخرى من النحت البارز تتمثل في "الختشكارات" المتعددة، أو الصليبان الحجرية المنحوتة، والتي بدأت في الظهور في القرن التاسع، ووصلت إلى أوجها في القرن الرابع عشر.

وتمثل المخطوطات المزخرفة لهذه الفترة عدداً من المدارس. وهي إما تم ضغط زخارفها على حساب الشكل البشري، أو تؤكد المظهر الطبيعي للشكل البشري كما هو مصور في إنجيل إتشميادزين عام 989م. والمثال الأكثر تفرداً في زخرفة المخطوطات هو إنجيل موغني الذي استقطر أساليب قديمة متعددة وأساليب معاصرة للوصول إلى أسلوب أرمني متميز. ومع حلول القرن الحادي عشر كان التأثير البيزنطي قد بدأ يجد طريقه إلى عدد من المنمنمات الأكبر التي قام البجراتونيون بالتكليف بصنعها، كما نرى في إنجيل طرابزون في مكتبة المخيتاريين في البندقية وإنجيل الملك جاجيك الكارسي. استعاد البجراتونيون المملكة الأرمنية، وتمكنوا لبعض الوقت من موازنة الضغوط العربية والبيزنطية والأرمنية الداخلية. وحافظوا على أجزاء من أرمينية مستقلة ومنعوا

تأسيس مستوطنات إسلامية رئيسية كبرى في أرمينية. ولكن سياسة البيزنطيين التدخلية بلا هوادة هي التي دمرت البجراتونيين في النهاية كما دمرت الأرتزرونيين. ومن دواعي السخرية أن سياسة بيزنطة تجاه أرمينية أسهمت في هلاك إمبراطوريتها هي نفسها، فمع اختفاء منطقة الحاجز الأرمني وعدم قدرة البيزنطيين على أن يحلوا محل الجيوش الأرمينية، أصبح الطريق مفتوحاً أمام الأتراك السلاجقة لاختراق المنطقة (انظر الفصل 11). سقطت أني في 1064م وتبعتها كارس بعد عام، وفي النهاية في 1071م، هزم السلاجقة الإمبراطور البيزنطي في مانزكيرت، وسرعان ما سقطت أرمينية التاريخية تحت الحكم التركي. لكن البجراتونيين الجورجيين استمروا في الازدهار، وحكموا أجزاءً من جورجيا حتى القرن التاسع عشر.

10

الشرق والغرب يلتقيان

مملكة قيليقية الأرمنية

(تقريباً 1075-1375)

يمثل عصر قيليقية، الذي بلغ ذروته في تأسيس المملكة الأرمنية الجديدة عام 1199م، فصلاً فريداً في تاريخ الشعب الأرمني. فالأول مرة يقيم الأرمن دولة مستقلة في أراضٍ خارج أراضيهم التاريخية. وهي أيضاً المرة الأولى التي كان فيها الأرمن في منطقة تقع على شاطئ البحر مباشرة، واتصلوا بشكل وثيق مع الأمم الناشئة في أوروبا الغربية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

وقيليقية سهل واسع على ساحل آسيا الصغرى المطل على البحر المتوسط، يحيط بها ثلاثة سلاسل جبلية (جبال طوروس في الشمال الغربي، وجبال طوروس الشرقية في الشمال الشرقي، وجبال أمانوس في الشرق)، وبذلك مثلت قيليقية بلاذاً محصنة، فالممرات الجبلية الضيقة، وأشهرها تلك المعروفة ببوابات قيليقية، جعلت الدفاع عنها سهلاً أمام الغزاة. وكان الساحل والأنهار القابلة للملاحة، وكذلك عدد من المراكز التجارية، ملامح جعلت المنطقة مثالية لأولئك الأرمن الذين أُجبروا على مغادرة أرمينية في القرن الحادي عشر.

الأرمن في قيليقية

كانت قيليقية تحت الحكم البيزنطي منذ أواسط القرن العاشر. وبعد استعادتها من العرب، طرد البيزنطيون المسلمين، وأحضروا إليها المسيحيين، خاصة الأرمن من أرمينية الصغرى. لإعادة تعمير الأرض. وبعد الغزوات البيزنطية والتركية على أرمينية، وصل عدد أكبر من الأرمن إلى قيليقية. ومعهم عائلاتهم وحاشياتهم. وبعد سقوط المملكة البجراتونية؛ عين الإمبراطور البيزنطي عدداً من القادة العسكريين الأرمن لحكم قيليقية. وأوكل إليهم البيزنطيون مسئولية حماية هذا الممر الموصول إلى قلب بيزنطة من الهجمات التركية والعربية. وإذا كان سادة الأرمن قد فقدوا إقطاعياتهم، ولأنهم بعيدون إلى حد

ما عن مركز بيزنطة، وتحميهم الجبال، استطاع عدد منهم أن يحصلوا على قدر من الاستقلال.

ومن بين رؤساء الجماعات هؤلاء، عائلتان، هما: عائلة روبين Rubenids وعائلة هيثوم Hctumids، والذين ظهروا كقوى مهيمنة، وبنهاية القرن الحادي عشر، تنافسا على السيطرة على السهل. وفيما بعد، ادعت عائلة روبين أن هناك روابط بينهم وبين أسرة بجاتوني Bagratums، وتحذوا سلطة بيزنطة ميكزاً، وسيطروا على المنطقة الجبلية شرق بوابات قيليقية، واتخذوا من قلعة فاهكا Vahka مركزاً لقيادة قواتهم. وظل الهيثوميون ولاية أوفياء لبيزنطة، وجعلوا قلعتي لامبرون وبابيرون قاعدة لسلطنتهم. وسرعان ما سعى الروبينيون إلى مد سيطرتهم جنوباً إلى السهول الواسعة بطرقها وموانئها التجارية. وأوصلتهم هذه السياسة العدوانية إلى الصراع مع الهيثوميين. وفي هذا الوقت وقع حدث ساعد على تحقيق طموحات عائلة روبين، وهو وصول قوات أوروبا الغربية في الحملة الصليبية الأولى. (1096-1099م)

الحملة الصليبية والأرمن

كانت الحملات الصليبية متنفساً لطموحات الغرب السياسية والدينية والاقتصادية. ففي عام 1010م، قام الحاكم الفاطمي لمصر، الحاكم بأمر الله بنقض "روح" اتفاقية تم التوصل إليها في 807م بين هارون الرشيد وشارلمان، تسمح للحجاج المسيحيين بزيارة المواقع المسيحية المقدسة في القدس. كان اضطهاد الحاكم بأمر الله للمسيحيين، وتدمير عديد من الكنائس، بالإضافة إلى الصراع المسلح بين المغامرين المسلمين للسيطرة على سوريا والقدس، مما جعل الحج بالغ الصعوبة. ولكن الفتح السلجوقي للقدس في أواخر القرن الحادي عشر قد جلب بعض الهدوء بالفعل، لكن سنوات المعاناة تركت انطباعاتاً سلبية في أوروبا.

في عام 1095م، كان البيزنطيون يتعرضون لهجوم السلاجقة، فطلبوا المساعدة العسكرية من أوروبا. كان أحد أهدافهم هو استعادة القدس تحت السيطرة المسيحية. وحيث أن الكنيستين اليونانية والرومانية قد انفصلتا في عام 1054م، فإن قيام حملة إلى داخل الأراضي البيزنطية السابقة سوف تعطي روما نفوذاً في أية مناقشة مستقبلية لبنود

لم الشمل. لهذا كانت الدعوة البيزنطية شديدة الإغراء ولا يمكن مقاومتها بالنسبة للبابا أوربان الثاني Pope Urban II. وبالإضافة إلى ذلك، كانت البابوية متورطة في صراع مرير مع الأباطرة الألمان على قيادة أوروبا المسيحية. فإذا استطاع البابا إقناع الإمارات الأوروبية الأخرى بإرسال جيوشهم تحت لواء الكنيسة فسوف يكتسب بذلك وضعاً أعلى.

وفي عام 1095م، في كليرمون بفرنسا، دعا البابا إلى حرب مقدسة. وكانت النتيجة جمع جيش جرار من اللوردات والفرسان ورجال الدين والمغامرين. ووجد الملوك الذين كانوا يحاولون ترسيخ نظامهم أن الحملة ستكون متفلساً يتخلصون من خلاله من بعض الجماعات المثيرة للمتابعب. ورحب أعضاء عائلات النبلاء الصغار والذين لا أرض لهم، فقد أملوا في أن يحصلوا على إقطاعيات في الشرق الأوسط، بينما كان البعض الآخر يسعى لمكاسب مالية من الإمدادات والتجارة. أما بالنسبة للثقاة الورعين، فإن الوعد بالحصول على صك الغفران المطلق من البابا كان دافعاً أساسياً.

ولم يكن المسلمون، ولا البيزنطيون، مستعدين لمثل هذه المجموعة من المسيحيين الأتقياء، والمحاربين الأكفاء، والنهابين. وسرعان ما قام الإمبراطور البيزنطي بعقاب كل من يرتكب جرائم النهب والسلب. وراح يذكر الفرسان بأن أية منطقة تسترد لابد أن ترد إلى سلطته. وكان المسلمون منقسمين في صراع بين الدولة الفاطمية الشيعية في مصر، وقوات الخليفة السني في بغداد، بالإضافة إلى الطموحات الانشقاقية للأمرء المحليين الذين كانوا يتطلعون إلى حكم مستقل. وبمجرد الوصول إلى قيليقية، الممر إلى سوريا والقدس، سعى الصليبيون إلى الأرمن ليكونوا أدلاء لهم، ولكي يمدوهم بالمؤن أو الجنود. وفي عام 1099م، سقطت القدس في أيدي المسيحيين، الذين ذبحوا سكانها من المسلمين واليهود. وجاءت وفاة ممثل البابا لتترك المنطقة في أيدي البارونات الإقطاعيين، الذين سرعان ما استولوا على ولايات طرابلس، والرُّها، وأنطاكية، والقدس. ولم يكن البيزنطيون ولا العرب بالقوة الكافية لمقاومة القادمين الجدد. وأيد الروبينيون الصليبيين، أو "الفرنجة" كما كان يسميهم أهل البلاد، وسرعان ما أصبحوا القوة المهيمنة في قيليقية.

ومنذ البداية، اضطر الأرمن والقادة الصليبيون للتعامل مع طموحاتهم الإقليمية. ومثلاً الرها، التي كان يحكمها حاكم أرمني، تولاها بالندوين ملك بولونيا، الذي انتحل لقب "كونت الرها". وسرعان ما فقد رؤساء صغار آخرون من الأرمن والبيزنطيين والعرب

أراضيهم التي استولى عليها الحكام الصليبيون الطموحون لأنطاكية وطرابلس. وظلت عائلتا رويين وهيثوم السادة الأرمن الوحيدين القادرين على حكم أراضيهم الخاصة. وانتهاز الروينيون الفرصة فتوسعوا على حساب البيزنطيين. فقام توروس (1102-1129م) بالاستيلاء على قلعة بردزبيرد Bardzberd وأنازربا Anazarba من الإغريق، وجعلها مركزاً للحكم الرويني. واستطاع أخوه، ليفون أو ليو (1129-1137م) توسيع المناطق الروينية حتى البحر. وقام الروينيون ببعض التحالفات مع الحكام اللاتين، خاصة مع الكونت ريمون حاكم أنطاكية، مما جعل وضعهم أكثر ثباتاً وأماناً. وفي عام 1137م، قام الإمبراطور البيزنطي جون كومنينوس John Comnenus، بعد استعادة سيطرة بيزنطة على صربيا والمجر، بغزو قيليقية الأرمنية في طريقه إلى أنطاكية، والتي كان ينبغي أن يسلمها الصليبيون لبيزنطة. وتعاون الهيثوميون مع الإمبراطور في الاستيلاء على القلاع الروينية وأنطاكية. وأخذ ليفون وزوجته وابناه، روبن وتوروس، أسرى إلى القسطنطينية، بينما بقي الكونت ريمون في أنطاكية كوال لبيزنطة.

توفي ليفون وزوجته ورويين في الأسر، لكن توروس استطاع الهرب (وأصبح عقب ذلك توروس الثاني). وعاد إلى قيليقية حيث نجح بعد بضعة سنوات في استعادة السلطة الروينية. وقد سهل له مهمته موت جون كومنينوس في عام 1143م، وسقوط الرُّها أمام الزنكيين، وهو ما دفع إلى قيام الحملة الصليبية الثانية الفاشلة في أعوام 1147-1149م. هرب الأرمن من الرُّها إلى قيليقية وأنطاكية، وتم تقسيم إمارة الرُّها بين البيزنطيين والمسلمين. وفي هذا الوقت تقريباً، قامت امرأة من النبلاء بمنح الجاثليق الأرمني قلعة هرومكلا (قلعة الروم Hromkla) الواقعة على نهر الفرات. ورغم حقيقة أنها كانت في معظم الوقت في مناطق يحكمها المسلمون، فقد أصبحت "الكرسي المقدس" (المقر الجاثليقي) للأرمن طوال السنوات المائة التالية.

استعاد توروس الثاني (1144-1169م) أراضي أبيه، وعندما تعرضت العلاقات الودية بين أنطاكية وبيزنطة للكسفة، قام بعمل تحالف مع الكونت ريجينالد أمير أنطاكية. لكن الإمبراطور مانويل كومنينوس طلب إخضاع قيليقية كولاية تابعة، وقام بغزو المنطقة. وتوسط بالدوين، الذي كان في هذا الوقت قد أصبح ملكاً على القدس وله علاقة زواج بالإمبراطور البيزنطي، واحتفظ توروس بأرضه كتاباً اسمياً.

وكان صعود الدولة الزنكية واستيلائها على دمشق تحت قيادة نور الدين مما أجبر المسيحيين على التخلي عن خلافتهم والسعي إلى التحالفات المشتركة. واستطاع توروس أن يحفظ السلام بالإبقاء على علاقات حسنة مع البيزنطيين والمسلمين على السواء. حتى أنه حاول عقد تحالف زواجي بين عائلتي روبين وهيثوم، لكنه فشل. وخلقت ديپلوماسيته وتحالفاته دولة روبينية قوية اعترفت بها الإمارات البيزنطية واللاتينية.

مات توروس عام 1169م. وقام أخوه مليه Mleh، الذي ربما دخل في الإسلام، بقتل ابن توروس. وتحالف مع نور الدين وتولى حكم قيليقية الروبينية. لكن موت الزعيم الزنكي ترك مليه بلا قوة، فُنحى عن العرش ليتولاه ابن أخي توروس، روبين الثاني (1175-1187م). وناضل روبين مع الهيثوميين والحاكم الجديد لأنطاكية، بوهمند Bohemond. ولم يكن حاكمًا قديرًا، فتنازل عن العرش لأخيه، ليثون، الذي تولى مصير العائلة في عام 1187م. ومرة أخرى، أُلقت أحداث خارجية بعائلة روبين إلى أوضاع مواتية.

وقام صلاح الدين، الذي كان كرديًا تربى في خدمة الزنكيين، بالاستيلاء على القاهرة من الفاطميين عام 1171م. ووحدها مع سوريا وأسس الدولة الأيوبية. وفي عام 1187م استولى على القدس. ورغم أنه لم يعد على المسيحيين، فإن هذا الفعل دفع إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة (1189-1192م). ورغم مجهودات البابا، فقد كانت هذه الحملة الصليبية في الأساس شأنًا علمانيًا وملكيًا. قاد الحاكم الألماني، فريديريك بارباروسا، وريتشارد الأول ملك إنجلترا (قلب الأسد)، وفيليب الثاني أوجستس ملك فرنسا، جيشًا عظيمًا من الفرسان الذين استطاعوا الاستيلاء على عكا، لكنهم فشلوا في استعادة القدس. وبعد غرق فريديريك في قيليقية، تفكك جيشه الجرار. وكان وجود صلاح الدين في وضع أفضل. بالإضافة إلى التنافس بين ريتشارد وفيليب، وكذلك رحيل ملوك أوروبا في النهاية. فلم يبق في أيدي المسيحيين إلا دويلات الشريط الساحلي: أنطاكية وطرابلس وصور. ورغم أن الحملة الصليبية الثالثة كانت فشلًا ذريعًا، فإن إحدى نتائجها كانت استيلاء ريتشارد على قبرص وبيعها إلى جي دي لوزينيان Guy de Lusignan، والذي ستصبح عائلته فيما بعد حكام قيليقية الأرمنية.

تُركت الدويلات اللاتينية في حالة ضعف، فأصبح لقيليقية الآن أهمية إستراتيجية جديدة، وطلب القادة الأوروبيون المدنيون مساعدتها العسكرية والمالية للقوات الصليبية. سعى ليفون إلى استثمار الوضع لصالحه بالسعي إلى عرش ملكي. وهناك بعض الأدلة تشير إلى أن فريديريك بارباروسا قد وعد ليفون بتتويجه ملكًا مقابل مساعدته أثناء الحملة الصليبية الثالثة. وبعد بعض المراسلات، تلقى ليفون أخيرًا تنويجًا من وريث فريديريك، الإمبراطور الألماني هنري السادس. وتم تنويجه باسم الملك ليفون الأول (ليو الأول) في 6 يناير 1199م في كاتدرائية طرسوس أمام نبلاء أسرتي روبين وهيثوم والنبلاء الصليبيين. وقد تم تكريسه على يد الجاثليق الأرمني. وتلقى الشارة الملكية من النائب البابوي والإمبراطوري، كونراد، أسقف ماينز Mainz. ووصل تاج ثانٍ من الإمبراطور البيزنطي تذكرة بأن بيزنطة لا تزال ترى قيليقية وحاكمها كولاية تابعة لها.

وكان تنويج ليفون بداية أزمة استمرت طوال حياة المملكة: قضية الوحدة الدينية مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. جاء تاج ليفون من الإمبراطور الروماني المقدس ونال البركة من البابا، الذي تنظر إليه أوروبا الغربية باعتباره رئيس العالم المسيحي. ولا يوجد ما يدل على أن ليفون وافق على سيادة الكنيسة الرومانية قبل تنويجه. لكن، بعد الحدث، طلب من رجال الدين الأرمن أن يجرؤ تغييرًا صغيرًا في القانون الكنسي الأرمني، وأن يتنازلوا بإظهار "احترام خاص" للبابا كوريث للقديس بطرس. ولقيت فكرة الانتقال نحو روابط أقوى بروما تأييد بعض رجال الدين، مثل الأسقف نيرسيس أسقف لامبرون Lambron. لكن بعد وفاته عام 1199م، رفض رجال الدين الأرمن أي حل وسط. ونتج عن هذا الصدع إضعاف الأسرة الحاكمة، واستغله كل من الكنيسة البابوية والصليبيين. جاء صعود ليفون إلى مرتبة الملك، واعتراف أوروبا به، ليضع قيليقية على الخرائط الأوروبية، حيث أصبح يشار إليها باسم "أرمنية الصغرى". ومكّن ذلك أيضًا ليفون من السيطرة على سهول قيليقية وموانئها. فاستطاع إضعاف سلطة عائلة هيثوم، وأسس عاصمة جديدة في سيس Sis (انظر خريطة 16)، واستطاع أن يقيم عددًا من التحالفات القائمة على الزواج مع قبرص وأنطاكية وبيزنطة. وثبت أن أحد هذه التحالفات، مع أنطاكية،

مثير للمشاكل. فقد تزوجت ابنة أخت ليفون، أليس، من ابن بوهمند أمير أنطاكية. لكن سرعان ما تزلزلت ومعها ابنتها منه. ريموند روبن، وبعد موت بوهمند، أراد ليفون أن يتولى وصي أرمني على العرش بحكم أنطاكية وتوحيدها مع قيليقية. وهو ما سوف ينتج عنه دولة أرمنية أقوى وأكثر أهمية. وفي البداية، أيد البابا والإمبراطور خطة ليفون، لكن التجار الإيطاليين في أنطاكية وابن بوهمند الأصغر، والذي كان يحكم طرابلس، رفضوا. وبعد ثلاث سنوات من الحرب، جردوا الوريث الصغير، ريموند روبين، من حقه في العرش. ورغم مثل هذه المشاكل، فقد أنشأ حكم ليفون مملكة استمرت لقرنين تقريباً. ولم تكن علاقاته بالنبلاء قائمة على نظام النحرار الأرمني، ولكن على نظام إقطاعي غربي من السيادة على ولايات تابعة. واستخدم القانون الإقطاعي الغربي في القضايا الخاصة بالبلاط والنبلاء. والواقع أن قانون أنطاكية Assizes of Antioch، وهو المدونة الأساسية للقانون المستخدم في الولايات الصليبية، لم يبق منه إلا الترجمة الأرمنية له. كان النبلاء يعينون فرساناً حسب التقليد الأوروبي، وأصبحت المبارزات والدوريات الرياضية منتشرة. وسرعان ما حلت المصطلحات اللاتينية والفرنسية للنبلاء والألقاب الرسمية محل المصطلحات الأرمنية المقابلة؛ وعلى سبيل المثال كلمة بارون (baron) بدلاً من نحرار. وكونستابل (Gonstapl) بدلاً من سباربيت. وأصبحت اللغتان اللاتينية والفرنسية من اللغات المقبولة في البلاط. حتى أن الأبجدية الأرمنية أضيفت إليها بعض الحروف لتستوعب الأصوات الجديدة مثل "o" و "a"، والتي جاءت من اللغات الأوروبية. وأصبح الزي الإقطاعي الغربي هو القاعدة السائدة، وأصبحت الأسماء الفرنسية منتشرة بين رجال البلاط وزوجاتهم. وأخيراً، بعد أن أقرّ عرف التحالفات الأوروبية، تزوجت سيدات من عائلات النبلاء الأرمنية من عائلات النبلاء الأوروبية والبيزنطية. وأصبح التحول إلى الكاثوليكية أو الأرثوذكسية الإغريقية منتشرًا بين النبلاء. أما بقية المجتمع الأرمني فلم يقدّم هذه الاتجاهات الموالية لأوروبا. وأصبحت الزيجات بين التجار الأرمن أهل كثيرًا، وكانت الجماهير بشكل عام بقيادة الكنيسة الرسولية الأرمنية ضد الغرب بلا جدال. وقام الجاثليق الأرمني، بمساعدة أربعة عشر أسقفًا على الأقل، بالإشراف على الشؤون الدينية لقيليقية من هرومكلا. وتم بناء عدد من الأديرة الدينية الأرمنية أيضًا.

أهم نتيجة لحكم ليفون الناجح هي نمو التجارة. فقد كان عديد من طرق التجارة من وسط آسيا والخليج العربي تمر بقيليقية. اتصل التجار الأرمن بغيرهم من التجار وفتحوا بيوتًا تجارية في الصين وأوروبا. وسجلت الإرساليات الأوروبية أنه في ذلك الوقت كانت الكنائس الأرمنية تبنى في أماكن بعيدة مثل الصين. وميناء آياس Ayas. على خليج الإسكندرون. والذي أصبح فيما بعد مركزًا رئيسيًا للتجارة بين الشرق والغرب. وقد ذكر ماركو بولو أنه كان نقطة الانطلاق لرحلته إلى الصين. وكانت بازارات آياس تباع الصبغات والحريير والتوابل والقطن والنبيد والزبيب والسجاد واللؤلؤ. وكانت تصدر الأقمشة الكليكية المصنوعة من صوف الماعز والملح والحديد والخشب. ووقع ليفون معاهدات مع الدول المدن الإيطالية: جنوا، والبندقية، وهيزا. منحهم بمقتضاها إعفاءات ضريبية في مقابل التجارة. وسرعان ما تحولت موانئ طرطوس وأضنة وماميسترا Mamistra إلى مدن كبيرة مليئة بالتجار الأجانب. وسيطر عليها الإيطاليون. الذين وفقًا للمعاهدات كانت لهم مؤسساتهم التجارية وكنائسهم ومحاكمهم. وسرعان ما أصبحت الإيطالية هي اللغة الثانوية للتجارة في قيليقية.

مات ليفون عام 1219م. تاركًا واحدة من بناته كوريثة له. واسمها إيزابيل أو زابيل Isabelle or Zabel. وعند وفاة ليفون. كانت الأحوال في الشرق الأوسط أصعب بكثير عن القرن السابق. إذ كانت الحملة الصليبية الرابعة (1202-1204م)، بقيادة البندقيين، لم تهاجم المسلمين. لكنها استولت على القسطنطينية ونهبتها. وتسببت في إضعاف الإمبراطورية البيزنطية بدرجة كبيرة. وكانت أسرة صلاح الدين، الدولة الأيوبية. قد أصبحت قوة كبيرة في مصر. مما حث على إرسال الحملة الصليبية الخامسة الفاشلة (1218-1221م) وتولى الأمير نصف الأرمني. ريموند روبن. والذي كان قد طرد من أنطاكية. عرش ليفون بتأييد من البابا. لكن سرعان ما طرده النبلاء الأرمن. بقيادة الهيثوميين. الذين رأوا فرصة لتولي الحكم. وكانت إيزابيل في هذا الوقت قد تزوجت فيليب أمير أنطاكية. ظنًا منها أنه سوف يتبنى العادات الأرمنية وينضم إلى الكنيسة الأرمنية. لكن فيليب ازدري العادات الأرمنية وقضى معظم وقته في أنطاكية. وقرر النبلاء الأرمن إنهاء الزواج: وتم القبض على فيليب. وفيما بعد قُتل مسمومًا. وقام الوصي الهيثومي. قسطنطين. بتدبير زواج إيزابيل من ابنه. هيثوم. ويبدو أن إيزابيل كانت مغرمة

بفيليب. فهربت من المملكة. وحتى بعد زواجها من هيثوم رفضت الحياة مع زوجها لبعض الوقت. ولكن في عام 1226م، تم تتويجهما معاً في سيس. ومن ثم بدأ الخط الحاكم الذي جمع بين أسرتي روبين وهيثوم.

حكم هيثوم وإيزابيل من عام 1226 إلى عام 1252م. وتم تسجيل حكمهما المشترك في عملات تذكارية تحمل صورتيهما؛ وهذه هي المرة الثانية التي ظهرت فيها صورة امرأة على عملة أرمنية. وبعد موت إيزابيل، استمر هيثوم يحكم حتى عام 1270م، وهي أطول فترة حكم فيها ملك من ملوك قيليقية على الإطلاق. وكان أخو هيثوم، سمبات، يخدم بصفته كونستابل (قائد الجيش). وكان على علاقة حميمة بالملك ومستشاراً له. ورغم أن الأيوبيين، وبعدهم المماليك، وكذلك السلاجقة، كانوا يقومون بهجمات دورية على قيليقية من حين لآخر، فإن ذلك العصر بشكل عام معروف بازدهار الفنون. ومع ذلك، فقد كان أهم حدث سياسي في تلك الفترة هو وصول المغول إلى الشرق الأوسط.

المغول وقيليقية الأرمنية

قام جنكيز خان، الذي استطاع في وقت قصير أن يفتح جزءاً كبيراً من آسيا، بتوحيد المغول في عام 1206م. وبعد وفاته عام 1227م، استكمل ابنه وحفيده فتح الصين وروسيا. ودخلوا شرق أوروبا. حيث هزموا الجيوش الغربية في بولندا، والمجر وألمانيا، ووصلوا إلى البحر الأدرياتيكي. وكان من الواضح أن مثل تلك الإمبراطورية كبيرة جداً وشديدة التنوع بحيث لا يستطيع حاكم واحد أن يحكمها، وفي النهاية قسم المغول إمبراطوريتهم إلى أربع وحدات. حكمت المجموعة الأولى منغوليا وغرب سيبيريا وآسيا الوسطى. أما المجموعة الثانية، والمعروفة باسم الخانيين، فقد حكمت فارس وأرمينية وجورجيا والشرق الأوسط. واحتلت المجموعة الثالثة، والتي تُسمى القبيلة الذهبية the Golden Horde، روسيا وأوكرانيا وأجزاء من بولندا، بينما تحركت المجموعة الرابعة إلى الصين وأسست أسرة يوان تحت حكم قوبلاي خان، الذي قام بدور قائد المغول. وفعل الكثير لرفع شأن التجارة العالمية (انظر خريطة 17). كان أغلب الخانيين من أصحاب العقيدة الشامانية Shamanists. وحاربوا المسلمين من السلاجقة والمماليك في الشرق الأوسط. ولهذا فقد بذل البابا والصليبيون والأرمن كل مجهود للحصول على تحالف مع الخانيين. وفي الوقت نفسه لتحويلهم إلى المسيحية.

كان هيثوم هو أول من تبين أهمية هذه القوة الجديدة في المنطقة وأرسل أخيه سمبات إلى مركز المغول في قره قورم Karakorum. التقى سمبات بأخي قوبلاي Kublai، مونجك خان Mongke Khan، وفي عام 1247م. اتفق معه على التحالف ضد المسلمين. وفي طريق عودته. عبر سمبات أرمينية التاريخية. وهي المرة الأولى التي رأى فيها قائد قيليقي أرض أسلافه. وفي عام 1254م. زار هيثوم قره قورم بنفسه وجدد التحالف. ساعد هذا التحالف قيليقي في البداية. ولكن في عام 1260م. هُزم الخانيون على أيدي المماليك. وتراجعوا إلى فارس. وهنا هاجم المماليك قيليقي ودمروها. وفي عام 1269م. تخلى هيثوم عن العرش لابنه ليغون الثاني (1269-1289م). الذي أجبر على دفع جزية سنوية كبيرة للمماليك. استمر المماليك في هجماتهم أثناء حكم ابنه. هيثوم الثاني Hetum II، ونهبوا هرومكلا في عام 1292م. مما اضطر المقر الجاثليقي للانتقال إلى سيس. وتزوجت أخت هيثوم من عائلة لوزينيان من قبرص. وورث أطفالها فيما بعد عرش قيليقي. وحاول هيثوم الثاني. الذي كان كاثوليكيًا ورعًا. تحقيق تقارب أكثر مع روما. ولم تحقق مجهوداته الهدف منها. وتنازل في البداية لأخيه. ثم فيما بعد لابن أخيه. ليغون الثالث. ورغم أن قيليقي تمتعت بقدر من الانتعاش الاقتصادي تحت حكم الهيثوميين، فإن الفترة المضطربة لحكم هيثوم الثاني سببت نوعًا من عدم الاستقرار السياسي في المملكة. في وقت كانت في أشد الحاجة إلى قيادة قوية وفعّالة للتعامل مع التهديد الإسلامي. ذلك أنه في هذا الوقت تحول المغول الخانيون إلى الإسلام. وهو الدين الذي كان يدين به أغلبية الشعوب الخاضعة لهم. وقام هيثوم. الذي كان وقتذاك راهبًا فرنسيسكانيًا. بالاشتراك مع ليغون وأربعين من نبلاء قيليقي. بمحاولة واحدة إضافية للتحالف مع المغول ضد المماليك. وعند وصولهم لدى مركز قيادة الخانيين في شمال سوريا، كان مصير الاثنين والأربعين جميعًا هو الموت.

انهيار قيليقيّة الأرمنية

وتولى العرش أخ آخر لهيثوم، هو أوشين Oshin. وعقد مجمعين للكنيسة في سيس عام 1307م وفي أضعنة عام 1316م. حيث وافق عدد من رجال الدين والنبلاء الأرمن. بأمل الحصول على مساعدة عسكرية من أوروبا، على العمل بالتطبيقات الكنسية الرومانية.

والاعتراف بالبابا. لكن الشعب الأرمني ثار ضد هذا القرار. ومات أوشين في عام 1320م. فتولى ابنه ليغون الرابع، والذي اتبع سياسة تأييد أقوى للغرب. وعندما مات عام 1341م، لم يبق بعده سليل مباشر من نسل روبين. هيثوم المشترك، وتم تبادل العرش بين أسرة لوزينيان القبرصية ونبلاء آل هيثوم.

حكم كل من جي دي لوزينيان وقسطنطين الهيثومي الثالث والرابع لوقت قصير نسبياً، وتنازلوا للمماليك في مقابل فترات من السلام. وتمت تنحيتهما عن العرش على أيدي منافسين أو على أيدي قادة أرمن مرتابين في مشاعرهم المؤيدة للغرب. وتم تتويج آخر ملوك قيليقية. ليفون الخامس من نسل لوزينيان، في سبب عام 1374م. وبعد عام قبض عليه المماليك، وأخذوه إلى القاهرة حيث افتداه بعض أقاربه الأوروبيين. وحاول ليغون إحياء الروح الصليبية في أوروبا، لكنه مات في فرنسا عام 1393م، ودفن أصلاً في دير الرهبان السلسيتيين (السماويين) Celestins Conven. لكن المقبرة تم تدميرها ونهبها مع بقية الدير أثناء الثورة الفرنسية. وقد تم ترميم المقبرة الفارغة لليغون، وهي حالياً في كنيسة سانت دنيس. مكان دفن الملوك الفرنسيين. ومن المثير للسخرية أن لقب ليغون كملك أرمنية ورثه جون الأول حاكم قبرص، والذي أورثه لنسله الذين أورثوه لبيت ساقوى: وهؤلاء استخدموا اللقب حتى القرن التاسع عشر. وفي النهاية رحل النبلاء القيليقيون الأرمن إلى بيزنطة وأرمنية وجورجيا. بينما هاجر التجار الأرمن إلى فرنسا وهولندا وإيطاليا وهولندا. وبعد قرن أصبحت قيليقية السابقة جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وأصبحت المدن والقرى الأرمنية فيها تحت الحكم التركي.

الثقافة والفنون

رغم الأغلبية الأرمنية، كانت قيليقية وطناً لمجموعة متنوعة من الشعوب، كلهم أسهموا في إثراء الثقافة الكليكية. فقد عاش في هذه المنطقة الإغريق واليعاقبة السريان والعرب واليهود، وكل منهم يدعم مؤسسته الدينية الخاصة. وأقام التجار الإيطاليون والفرسان الأوروبيون فيها، أو كانوا يمرّون كثيراً بموانئ قيليقية، وانتشرت اللغة الفرنسية والعادات الفرنسية بين النبلاء الأرمن. وكان معظم التجار يتحدثون الإيطالية. ووجدت الأعمال الأوروبية، ومن ضمنها أعمال تاريخية مكتوبة أصلاً باللاتينية، طريقها

إلى التراجم الأرمنية. وكما ذكرنا من قبل. لم يعش كتاب قانون أنطاكية Assizes of Antioch، أو المدونة الأساسية للقانون المستخدم في الدول الصليبية. إلا في ترجمته الأرمنية. كما كان عدد من الأعمال الأصلية لتلك الفترة مهمة أيضًا. تم تسجيل التاريخ المبكر لقيليقية في كتاب يوميات ماتيو من الرُّها Chronicle of Matthew of Edessa. وكذلك يوميات القائد سمبات The Chronicle of Constable Smbat، أخو هيثوم الأول، هي أكثر الروايات القيمة عن تاريخ مملكة قيليقية. ومراجعتُه لبُنود القانون الأرمني في العصور الوسطى، والتي وضعها مخيتار جوش Mkhitar Gosh. وقصة رحلته إلى بلاط المغول، من المؤلفات المهمة أيضًا. وقدم هيثوم أمير قبرص، أحد أبناء إخوة هيثوم الأول، رواية أخرى قيمة، معروفة ب: اليوميات الصغيرة Little Chronicle. ومكتوبة في عام 1307م، وتحتوي على مسح تاريخي وجغرافي لآسيا، ويليه تاريخ المغول، مع التركيز خاصة على الصراعات بين الخانيين والمماليك. وينتهي بخطة ترسم لحملة صليبية جديدة. والجالثيق نيرسيس، الذي كان معروفًا باسم شنورهاي (Shnorhali the Gracious). ترك كتابه رثاء سقوط الرُّها Lamentations on the Fall of Edessa، وكذلك عديد من التراثيل (الشاراكان)، والتي استخدمت في القداسات الأرمنية.

وظهر الشعر، ومن ضمنه قصائد حب وموضوعات دينوية أخرى، في القرنين الأخيرين من مملكة قيليقية الأرمنية. وقد كتبت قصائد جون الإرزنجي (هوفهانيس إرزنجاتسي) John of Erzinga (Hovhannes Erzingatsi)، باللغة الأرمنية المبكرة التي يشار إليها أحيانًا باللغة الأرمنية الوسيطة.

وفي مجال العلوم، نجد مخيتار الهيري (خوي) Mkhitar of Her (Khoi)، مؤسس الطب الأرمني؛ والذي مكّنه معرفته باللغات العربية والإغريقية والفارسية من كتابة أعمال متخصصة في فروع متعددة للطب. ومن الشخصيات الأدبية المهمة أيضًا نيرسيس من لامبرون Nerses of Lambron، وفاردان العظيم (فاردان أريثلتسي) Vardan the Great (Vardan Areveltsi). وكان الأول فيلسوفًا متعدد المواهب ومترجمًا وخطيبًا وموسيقياً؛ بينما كان الأخير قد زار البلاط المغولي في آسيا الوسطى وصادق هولانو في فارس. وتُعد موسوعته التاريخية Historical Compilation مصدرًا تاريخيًا ثريًا، خاصة حول الحكم المغولي في أرمينية وفارس.

وما بقي من عمارة قيليقية يشبه قلاع الصليبيين وحصونهم، ويستعير طراز الصروح البيزنطية والغربية في تلك الفترة. ورغم عدم وجود أعمال نحتية باقية من قيليقية، فإن الأوعية الكنسية وأغلفة الأناجيل الفضية من القرن الثالث عشر تظهر تميّزاً حرفية صناع الفضة في قيليقية. ومع ذلك، فإن فخر تلك الفترة هو بلا شك المخطوطات المزخرفة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وفيها تظهر صور الناس والحيوانات والزهور والتصميمات الهندسية، وقد صورت بألوان زاهية وبماء الذهب اللامع. وأشهرها مخطوطات توروس روسلين Toros Roslin، الذي كان يستخدم التقاليد الفنية المعاصرة والمذهب الطبيعي في موضوعات مأخوذة من الإنجيل مع مزجها بعناصر آسيوية وأوربية. وثمة أسباب متعددة لظهور مملكة قيليقية الأرمنية وسقوطها. الموقع الجغرافي لقيليقية، ووصول العائلات الإقطاعية الأرمنية، والضعف المؤقت لبيزنطة. كل ذلك أتاح ظهور عائلتي روبين وهيثوم، وأعطى مجيء الحملات الصليبية الأرمن الأهمية الكافية سياسياً واقتصادياً وإستراتيجياً لإقامة إمارة في البداية ومملكة فيما بعد. لكن فشل الحملات الصليبية المتعاقبة؛ وانقسام القوات المسيحية؛ ورفض الكنيسة الأرمنية قبول السيادة الرومانية؛ وظهور الدولتين الأيوبية والمملوكية؛ وسقوط آخر معقل للصليبيين في عام 1291م؛ ودخول المغول الخانيون في الإسلام. كل ذلك أسهم في سقوط المملكة الأرمنية. ومع دخول القرن الرابع عشر، أصبحت أوروبا مشغولة ببناء دولها الخاصة. وكان إخراج المسلمين من كثير من مناطق إسبانيا يؤذن بنهاية الروح الصليبية. وتخلت أوروبا إلى حد كبير عن اهتمامها بالمسيحيين الذين يعيشون في آسيا، وكان لذلك عواقب وخيمة على الغرب. فسرعان ما سوف يقوم الأتراك العثمانيون بتدمير بيزنطة ودخول أوروبا الشرقية. حيث سيظلون بها حوالي أربعة قرون.

الجالية الأرمنية في القدس

كان أحد نواتج ظهور مملكة قيليقية بروز الجالية الأرمنية العلمانية والدينية في القدس. ويمكن تتبع جذور الوجود الأرمني في تلك المدينة منذ القرن الأول من التاريخ الميلادي. وعندما جاء القرن السابع، كانت أديرة أرمنية عديدة قد بنيت بها. وبعد القطيعة مع الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية، تعرض الأرمن للاضطهاد على أيدي حكام المدينة البيزنطيين.

وبعد الفتح العربي عام 638م، أصبح التحكم في الأماكن المقدسة للمسيحيين في القدس وسيلة ورمزاً لسلطة الجاليين الأرمنية والإغريقية في المدينة. ورغم أن الأرمن في القدس كانوا أقل عدداً من الإغريق، فقد تمتعوا بعلاقات أفضل مع العرب، الذين كانوا يرون البيزنطيين عدوهم الطبيعي. ولهذا مُنحت الكنيسة الأرمنية في البداية القوامة على عدد من الصروح الكنسية المهمة، رغم أن الخلافات بين الكنيستين الإغريقية الأرثوذكسية والأرمنية على التحكم لم تتوقف طوال تلك السنوات.

وحسُن وصول الحملات الصليبية من وضع الأرمن كثيراً، ومكنهم من حيازة موقع للكنيسة الجورجية بنوا عليه كاتدرائية ودير سانت جيمس، وأسسوا النظام الرهباني لسانت جيمس، وأصبح مقر البطريركية والدير قلب الجالية الأرمنية في القدس. يوفر الإقامة للحجاج والتجار الزائرين. وفي بداية القرن الرابع عشر، رفض رهبان سانت جيمس قبول سياسات الجاثليقوسية القيليقية، التي تميل إلى الكاثوليكية اللاتينية، وأعلنت أن قيادتها والقيَم على الأماكن الأرمنية المقدسة هي البطريركية الأرمنية في القدس. وبعد أن استعاد المسلمون القدس تحت قيادة صلاح الدين، استعاد الأرمن موقعهم المفضل، وأعفوا من الجزية. وأثناء الفترة المملوكية، استطاع الأرمن أن يحبطوا محاولات الكنيسة الجورجية الأرثوذكسية لاستعادة موقع سانت جيمس، ولكن أُجبروا على الاشتراك في القوامة على أجزاء من موضع القبر المقدس مع الكنيستين الجورجية والإغريقية (انظر الخريطة 18).

من الأغلبية إلى الأقلية الأرمن تحت الحكم التركي والمغولي، والهيمنة التركمانية (تقريباً 1071-1500)

في خلال السنوات الخمسمائة التي فصلت بين وصول الأتراك السلاجقة إلى أرمينية وتأسيس الأسرة الصفوية Safavid في فارس، وأثناءها انتقلت أوروبا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث المبكر. وفي الشرق الأوسط، استمر الحكم العباسي لقرنين آخرين. لكن الخلافة كانت في حالة اضمحلال، وظهر عديد من القادة العسكريين الأتراك والأكراد والفرس، وأسسوا أسر حاكمة خاصة ببلادهم. ونتج عن وصول الأتراك السلاجقة ظهور دولة إسلامية قوية جديدة. ومع حلول النصف الثاني من القرن الثالث عشر، تغيرت الحالة بالكامل عندما غزا المغول بغداد، وأنهوا الخلافة العباسية. وبعد قرنين آخرين، استعاد الأتراك السلطة في الأناضول تحت قيادة العثمانيين، وفي النهاية استولوا على القسطنطينية، وأطاحوا بالإمبراطورية البيزنطية.

شهدت الفترة نفسها في الغرب تغييرات، مكنته منذ البدايات المبكرة للعصر الحديث. أو فيما بعد 1500م، من قيادة العالم عسكرياً واقتصادياً. مهدت نهضة التجارة والمدن. والطبقة الوسطى الأرضية للحكومات النيابية. وأدى أسر البابوية في أفينيون Avignon⁽³⁴⁾، وحرب المائة عام⁽³⁵⁾، والموت الأسود⁽³⁶⁾، وحرب الوردتين⁽³⁷⁾، إلى إضعاف الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وتسهيل قيام ملكيات قوية. وتمكنت أوروبا في عصر النهضة من اكتشاف تراثها الإغريقي الروماني، وتقوية روح الفردية وتمهيد المسرح

34 استقرت البابوية في أفينيون نتيجة صراعات شديدة في روما حول المقعد البابوي. وهناك اتجهت إلى شكل ثنائي. ودخلت في طرائق مثيرة للجدل. مثل صكوك الغمران. ولعبت دوراً في الصراع بين فرنسا وإنجلترا (حرب المائة عام). واستمر ذلك طوال الفترة من 1309 إلى 1377م. نولى فيها البابوية سبعة كلهم فرنسيين. (المترجمة)

35 صراع طويل دام حوالي 116 سنة. بين إنجلترا وفرنسا. من 1337 إلى 1453م. (المترجمة)

36 وبأ. بدأ في جنوب غرب آسيا. وانتشر في أوروبا في أواخر سنوات 1340م. وحصد حوالي 75 مليون من سكان العالم على الأقل في تلك الفترة. (المترجمة)

37 حرب على العرش في بريطانيا (1455-1485م). بين فرعين من فروع العائلة المالكة. واكتسبت اسمها من اتحاد كل عائلة زماً لها ورثة بلون مختلف. (المترجمة)

للتقدم العلمي والتعبير الفني. وفي غضون ذلك، شهدت القرون نفسها إعادة الاستيلاء على إسبانيا تدريجياً، والتي كانت ذروتها في سقوط غرناطة عام 1492م. ومن المفارقات، أنه في الوقت نفسه تقريباً أحيا العثمانيون الوجود الإسلامي في أوروبا بدخولهم إلى شرق ووسط أوروبا. وغزا المغول الدولة الروسية الأولى. وظلوا يحكمونها لثلاثة قرون. وتركوا بعض مؤسساتهم الاجتماعية السياسية ليرثها حكام روسيا في المستقبل. وتسببت الغزوات العثمانية وسياسة العزل، التي اتبعتها أسرة مينج في الصين في إغلاق طرق التجارة البرية مع آسيا، ودفعت أوروبا إلى عصر الاستكشافات. وبمساعدة لها وزنها من التكنولوجيا الآسيوية، تمكن كولومبوس وفاسكو دي جاما من اكتشاف الأمريكتين والطريق البحري إلى الهند والصين.

وفي أفريقيا، تزعمت مصر قضية الإسلام ضد المغول والصليبيين. واستطاع الإسلام أن يصل إلى مناطق أفريقيا جنوب الصحراء، وأصبح الديانة الرئيسية لشمال ووسط أفريقيا. وانتعشت ممالك ودول مالي وبنين ويوروبا⁽³⁸⁾ وصنغي⁽³⁹⁾، حتى الاحتلال الأوروبي، الذي بدأ عندما استكشفت البرتغال الساحل الغربي لأفريقيا في نهاية ذلك العصر.

أما الهند، التي تعرضت لغزوات عربية على السند في أوائل القرن السابع. فقد عادت تغزوها جيوش إسلامية جديدة، استطاعت احتلال شمال الهند، وأسست سلطنة دلهي. وأنهت نفوذ البوذية وقسمت الهند إلى ثقافتين: إسلامية وهندوسية. وفي جنوب شرق آسيا، وصلت إمبراطورية الخمير إلى ذروتها باستكمال بناء معبد أنجكور فات Angkor Wat، وحصلت فيتنام على استقلالها عن الصين.

وفي الصين نفسها، فقدت أسرة سونج سيطرتها على الشمال لأسرة تشين. وسرعان ما غزا المغول معظم الصين وأسسوا أسرة يوان. وتبنى قوبلاي خان الثقافة الصينية. ونقل عاصمته إلى بكين، وزاره ماركو بولو. وأرست الإمبراطورية الجديدة دعائم الاستقرار والسلام مما سهل التجارة بين الشرق والغرب، ونقل التكنولوجيا إلى أوروبا الغربية. وبعد قرن، طرد المغول من الصين على يد أسرة مينج، والتي شجعت في البداية

(38) في نيجيريا الحالية. (المترجمة)

(39) في الساحل الغربي لأفريقيا. (المترجمة)

التجارة والاستكشاف. ولكنها فيما بعد أغلقت الصين أمام كل الأجانب. وفي اليابان. قام اثنان متعاقبان من الشوجونيات (الحكام العسكريين) بالحفاظ على اليابان معزولة ودافعوا عنها ضد غزوات المغول. وأخيرًا. في الأمريكتين. ازدهرت حضارة الإنكا في بيرو. والأزتك في المكسيك. وتحولتا إلى دولتين منظميتين كبيرتين.

وفي المقابل. كانت أرمنية التاريخية تدخل إلى أسوأ فترات تاريخها. فقد سقطت آخر أسرة حاكمة أرمنية. وهاجر عدد كبير من النبلاء والجنود والحرفيين إلى القسطنطينية وقيليقية وشرق أوروبا. وفوق ذلك. شهدت القرون الأربعة التالية وصول آلاف الغزاة من البدو الرُّحل. وهو ما كان له عواقب كبيرة ثقافية وديموجرافية على أرمنية والأرمن.

الأتراك في أرمنية

منذ القرن العاشر. كانت بعض الجماعات التركية من وسط آسيا. خاصة من قبيلة أوغوز Oghuz. تقوم بغارات وتستقر في أجزاء من أذربيجان وشمال القوقاز وجنوب روسيا. وحتى في شمال آسيا الصغرى. دون أن تتسبب في تغييرات كبيرة للتركيب السكاني: إذ كانت السياسة البيزنطية لإضعاف أرمنية عن طريق إزالة قواتها العسكرية قد تركت المنطقة بلا دفاع. وأغرقت بعض الجماعات التركية الغازية بالإغارة على جنوب أرمنية. وحتى وصول السلاجقة في أواسط القرن الحادي عشر. لم تكن هناك خطة تركية منظمة لغزو أرمنية. وبين عامي 1040 و1045م. قام قائد أوغوزي. هو طغرل Toghrul من العائلة السلجوقية. باحتلال معظم فارس وأسس إمبراطورية. وسرعان ما واجه السلاجقة مشكلة واجهت كل الغزاة من القبائل البدوية. بعد استقرارهم في المناطق الجديدة. وبالتحديد. كيف يتعاملون مع بعض أفراد قبائلهم الذين يرغبون في الاستمرار في الغزو والنهب. وخشية تدمير إمبراطوريتهم الجديدة. وجه السلاجقة طاقات هذه العناصر غير المستجيبة للنظام إلى أرمنية التي كانت بلا دفاع. بأمل الفوز بمنطقة جديدة. وهكذا. وطوال العقدين التاليين. تعرضت أرمنية للهجوم بشكل دوري.

حارب الأرمن والبيزنطيون الغزاة. لكن لسوء الحظ. لم يخوضا تلك الحروب معًا. لم يتبين البيزنطيون صعوبة الحالة. لكنهم على العكس. حاولوا إلغاء أي شكل من أشكال الاستقلال الأرمني. وأن يضعوا الكنيسة الأرمنية تحت تحكم القسطنطينية. وأحيانًا. دفعت التصرفات البيزنطية بعض الأرمن إلى التعاون مع الأتراك ضد بيزنطة. وفي عام

1071م هزم الجيش السلجوقي بقيادة ألب أرسلان Alp Arslan الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes وأسرره. وبذلك خسر البيزنطيون مملكة بجاتوني. التي كانوا قد دمروها قبل سنوات قليلة. أمام الأتراك. ونُهبت مدن كثيرة. ودمرت كنائس. وأقيمت التجارة. وأجبر كثير من السكان على التحول إلى الإسلام أو أخذوا عبيداً. ونشأت عدة أسر حاكمة في الأناضول. مثل: أسرة دانيشمند Danishmendids. وقارامان Qaramanids. وشاه أرمان Shah-Armans. وسلاجقة الروم. لكن بعض النخرار في أرتساخ (كاراباغ) Artsakh (Karabagh). وسيونيك (زانجور) Siunik (Zangezur). وجوجارك (لوري) Gugark (Lori). وساسون Sasun. وغيرها من المناطق الجبلية. استطاعوا الاحتفاظ بقوات عسكرية قوية. وظلوا محتفظين باستقلالهم الذاتي. ورحل عدد من النخرار مع عائلاتهم وحاشياتهم. وأسسوا مراكز قوة جديدة في جورجيا وقيليقية (انظر الفصل العاشر). ولم يتحول كل الأرمن إلى الإسلام بالقوة: فقد تحول بعض الحرفيين والعسكريين الأرمن طواعية لأسباب اقتصادية. كما أسهمت الزيجات بين الطبقات العليا الأرمنية والتركية في بعض حالات الدخول إلى الإسلام. والواقع أن عدداً من الأمراء المستقلين في الأناضول كانوا من أصول أرمنية. لكن معظم الشعب الأرمني. خاصة أهل الريف. ظلوا على دينهم المسيحي.

وصلت أهمية السلاجقة إلى أفاق جديدة عندما استولوا على القدس. وحصلوا على لقب "سلطان" من الخليفة. وسرعان ما راحوا يعينون وزراء من الفرس. ويتخذون ألقاباً فارسية وبدأوا يعتبرون أنفسهم ملوكاً لدولة مركزية. كان الأرمن والمسلمون المستقرون في أمان. وانتعشت التجارة إلى حد ما. وفي أواسط القرن الثاني عشر. عندما أطاحت قبائل تركية بدوية جديدة بالسلاجقة في فارس. تغيرت الأوضاع بدرجة كبيرة لصالح المسيحيين. وكانت الحملات الصليبية قد رسخت وجوداً مسيحياً قوياً في الشرق الأوسط. فكانت جورجيا تنهض كقوة فيما وراء القوقاز. وكان الأرمن في قيليقية يؤسسون دولة قابلة للنمو. واستعادت بيزنطة حيويتها تحت حكم أباطرة كومنينوس the Comneni emperors⁽⁴⁰⁾. وانقسمت الجماعات التركية إلى دويلات صغيرة متناثرة في آسيا الصغرى وما وراء القوقاز.

(40) أسرة كومنينوس: أسرة من أباطرة بيزنطة. انعشت الإمبراطورية البيزنطية المضحلة. أثناء حكمها على مدى أكثر من قرن من 1081-1185. (الترجمة)

كانت الفترة بين اضمحلال الدولة السلجوقية ووصول المغول فترة من الإحياء بالنسبة للأرمن. وكانت القوة الدافعة الأساسية هي بروز جورجيا وأسرّة بجاتوني الجورجية، والتي كانت من أصل أرمني، كأبرز قوة فيما وراء القوقاز وشرق الأناضول. وتحت حكم دايفد البنّاء (1089-1125م) David the Builder، قام الجيورجيين بتجنيد النخار الأرمن من عائلات أرتزوني Artsruni وياهلافوني Pahlavuni، وزاكاريان Zakarian، وأوربليان Orbelian، وپروشيان Proshian. وكذلك الأزمات الذين فقدوا أملاكهم، والذين التحقوا بالجيش الجورجي لطرده الأتراك من أرمنية. واستمر وريث دايفد في هذه السياسة. وفي النهاية أعاد تعمير الكثير من أرمنية بهؤلاء الأرمن المتطوعين. وتحت حكم الملكة تمار (1184-1213م) Tamar، نجح الزاكاريون - قادة القوات الأرمنية - الجورجية، في استعادة جزء كبير من أرمنية الكبرى.

حكم الزاكاريون أرمنية من أني ودفين كولايات تابعة للملوك الجورجيين (انظر خريطة 19). وقد استسلم معظم هؤلاء النخار لقيادة الأسرة الزاكارية. وجاء تنويع ليو والاعتراف الرسمي لأوروبا بمملكة قيليقية الأرمنية في عام 1199م: ليفتح طرق التجارة من أوروبا إلى آسيا عبر أرمنية وجورجيا، وجاء بثروات جديدة إلى المنطقة. وتزوج الزاكاريون مع عدد من عائلات النخار، ومثلما فعل الملوك الجورجيين، أسسوا بلاطات متوارثة لعائلاتهم. ولأول مرة، ظهر نخار أرمن جدد، رجال لم يكونوا جزءاً من البيوت الإقطاعية القديمة، ولكن ظهروا من خلال منجزاتهم العسكرية أو التجارية. واشتروا، أو عيّنت لهم أراضٍ، وأصبحوا مستفيدين من المؤسسات الدينية والثقافية. ومع نقل مقر الجائليق الأرمني إلى قيليقية، ظهر قادة جدد للكنيسة في أرمنية التاريخية. وكان التجار يعيشون في المدن، حيث منحت لهم حقوق جديدة، وأسسوا طوائف. أما الفلاحون، فكما في الماضي، ظلوا ملتصقين بالأرض ويدفعون معظم الضرائب. ولسوء حظ أرمنية وجورجيا. كانت أيام الانتعاش هذه قصيرة العمر. فكما ذكرنا، ظهرت قوة جديدة في تاريخ العالم، قوة لم تنه فقط الفاصل الأرمني - الجورجي المشترك، ولكن غيرت تاريخ روسيا والشرق الأوسط كثيراً: إنها المغول.

قبل عشر سنوات من الاجتياح المغولي الكبير لما وراء القوقاز. كانت قوة مغولية صغيرة قد هزمت الجيش الأرميني. الجورجي ونهبت المنطقة. وفي سيرهم باتجاه الشرق. دفع المغول القبائل التركية غرباً، فدخل بعضهم إلى أرمينية واستخدموها قاعدة لمقاومة المغول. ورغم أن الأرمن والجورجيين والمسلمين نجحوا في طرد الغزاة. فإن الخسائر البشرية وتدمير الممتلكات والمحاصيل كانت شديدة. وفي هذه الظروف السيئة ظهرت الجيوش المغولية الكبيرة عام 1236م، واستطاعوا فتح المدن بسرعة، وعوقبت بقسوة المدن التي قاومت. بينما كوفئت المدن التي استسلمت. وانتشرت أنباء ذلك بسرعة وكانت النتيجة أنه عندما جاء عام 1245م، كانت كل أرمينية التاريخية وأجزاء من جورجيا قد استسلمت. وسُحق الحكام المسلمون لغرب أرمينية أيضاً.

وأثناء فترة تعزيز قواهم. لم يفرض المغول الشامانيون ضرائبهم أو تنظيماتهم الإدارية على المنطقة. ولكن في أواسط القرن الثالث عشر، قاموا بعمل إحصاء للسكان وفرضوا ضرائب باهظة على كل الناس، مسلمين ومسيحيين. وتم قمع عدد من الثورات بقسوة. وأجبر القادة العسكريين من الأرمن والجورجيين على الخدمة في الجيش المغولي، حيث هلك كثير منهم في معارك. وتمكن المغول أيضاً من جذب عدد من النخراار لدخول خدمتهم طوعياً. ومن أبرز هؤلاء عائلة أوربليان من سيونك، وعائلة حسن جلايان من أرتساخ. وللوصول إلى أهدافهم، أثار المغول النخراار ضد بعضهم البعض. وكانوا من حين لآخر يستخدمون المسلمين ضد المسيحيين أو العكس. وفي سنة 1258م، قام المغول الخانيون تحت قيادة هولاكو بنهب بغداد. فأنهوا الخلافة العباسية، وقتلوا الكثير من المسلمين. ومن المفارقات المثيرة للدهشة، أن هذا الفعل أثار غضب جماعة مغولية أخرى، هي القبيلة الذهبية، والتي احتلت روسيا، وكان بعض هؤلاء القادة قد تحولوا إلى الإسلام. وبعد هزيمة المغول الخانيين على أيدي المماليك في سوريا عام 1260م، تصادمت المجموعتان المغوليتان في القوقاز.

ونجت الكنيسة الأرمينية بشكل عام من فوضى تلك الفترة: فقد شعر عدد من القادة المغول، الذين تحولوا إلى المسيحية النسطورية، بالتعاطف مع الأرمن المسيحيين. ومن حين لآخر كان يتم إعفاء الكنائس ورجال الدين الأرمن من الضرائب. وقد ذكر قادة

الكنيسة الأرمنية المزايا التي منحها لهم الحكام المغول الأوائل ليحصلوا على تنازلات كبيرة من الخانات الأتراك والمغول الذين كانوا يحكمون أرمينية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كما عامل المغول التجار الأرمن معاملة طيبة. وشجع المغول الصينيون التجارة. واستخدم التجار الإيطاليون من البندقية وجنوا، استخدموا مواني قيليقية أو البحر الأسود للقيام بتجارة ذات شأن مع الصين. كانت القوافل التجارية تحظى بالحماية وقام المغول بتأمين رحلة سالمة لها في آسيا الوسطى. وكانت الصادرات الأساسية هي الحرير والمجوهرات والتوابل. وفتح التجار الأرمن فروعاً تجارية في بكين، وتبريز، وسلطانية. وبخاري، وطرايزون، وكذلك في عدد من المدن في روسيا وإيطاليا.

جاء عام 1300م وقد دخل الخانيون في الإسلام، وعاد الأرمن يعانون من معاملتهم باعتبارهم كفاراً. فزادت الضرائب، واضطر الأرمن إلى وضع شارات خاصة لتعريفهم كمسيحيين، وخصّصت مناطق خصبة كثيرة لقبائل البدو، مما دمر الاقتصاد الزراعي وتسبب في الفقر والتجويع. ولم يكن انهيار الخانيين في أواسط القرن الرابع عشر إلا ليزيد الحالة سوءاً. فقد هاجمت جماعات قبلية متعددة شرق أرمينية، بينما بدأ الأتراك العثمانيون في إخضاع غرب أرمينية.

تيمور والأتراك. التتار في أرمينية

بقيت الضربة الأخيرة للمنطقة لآخر الغزاة الكبار من وسط آسيا، إنه تيمور لنك. كان تيمور مغولياً اتخذ القومية التركية، وفي الفترة من عام 1386 حتى عام 1403م قام هو وقبائله التركية التتارية بغزو أرمينية، فاجتاحوا المدن، ودمروا المحاصيل، وقتلوا عشرات الآلاف. واستعيدوا أعداداً أكثر. ووصل لدرجة أنه حارب القبائل التركمانية الذين كانوا قد استقروا في المنطقة. فهزم القبيلة الذهبية ووجه ضربة مدمرة للعثمانيين. كان التدمير أشد قسوة من أي شيء آخر من قبل. فقد حوّل أرمينية إلى أطلال.. اختفت مدن وقرى كثيرة بأكملها. وتوقفت التجارة تماماً، وقُتل رجال الكنيسة والتجار والنخار. ولم يسلم من السلب والنهب إلا المناطق الجبلية في أرتساخ وجوجارك وسيونيك وساسون، وتحول بعض سكان هذه المناطق إلى قطع الطريق من أجل أن يستطيعوا الاستمرار في الحياة. أخذ تيمور الكثير من الحرفيين الأرمن إلى سمرقند. حيث ساعدوا في بناء عاصمته

الكبيرة. ورغم أنه فتح دلهي. فإن هدفه كان النهب وليس الاستقرار. وبعد وفاة تيمور. حكم أعضاء عائلته فيما وراء القوقاز وآسيا الوسطى. لكن أحد أفراد أسرته. هو بابور Babur، فتح دلهي بعد ذلك في 1526م. وبدأ فيها حكم أسرة مغولية Mughal⁽⁴¹⁾. والتي استمرت تحكم حتى عام 1858م. ومن المفارقات أن التجار الأرمن لعبوا دوراً مهماً في التجارة الهندية أثناء الفترة المغولية (انظر الفصل الرابع عشر).

ترك موت تيمور فراغاً ملاءه العثمانيون والتموريون والشيروانشاهات Shirvanshahs. وآق قوينلو Aq-Qoyunlu، وقره قوينلو Qara-Qoyunlu، وبقية من الأمراء الجورجيين القلائل. ركز العثمانيون جهودهم على ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية. وفي سنة 1453م أخذ محمد الفاتح القسطنطينية، وبدأ العثمانيون نهضتهم، التي بلغت ذروتها بالاستيلاء أو السيطرة على الشرق الأوسط بأكمله ومعظم شمال أفريقيا وكثير من أوروبا الشرقية. ولم يتمتع عليهم سوى فارس والأجزاء الشرقية من أرمينية وجورجيا. وسيطر الشروانشاهات على جزء من جمهورية أذربيجان الحالية، بينما أرسى التيموريون، أسيادهم الإسميون، قاعدتهم في شرق فارس. ووقعت أرمينية التاريخية تحت سلطان قبيلتين من التركمان، هما قره قوينلو، وآق قوينلو، وهما قبيلتان كانتا في المنطقة قبل تيمور.

سيطرت قبيلة قره قوينلو، أو "الكبش الأسود"، والذين كانوا يميلون إلى المذهب الشيعي، على المنطقة شرق بحيرة فان حتى عام 1468م. ودارت الحروب بين التيموريين وقره قوينلو، فاستمروا في إنزال الخراب والفضوى بأرمينية وجورجيا. وكان اثنان من حكام قره قوينلو، هما: إسكندر (1420-1438م) وجيهان شاه (1438-1468م)، واللذان كانا بحاجة إلى تعاون الأرمن من الإقطاعيين والقادة الدينيين، كانت لهما علاقات طيبة بالكنيسة الأرمنية والنخزار. وهكذا تزامن سقوط قيليقية وضمحلل الكرسى المقدس في سبب مع نهضة القادة الأرمن الدينيين والعلمانيين في شرق أرمينية. وبعد مجمع فلورنسا (1439م)، حيث قبل ممثلون أرمن من حلب والقرم الاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية. وهو أمر لم تصدق عليه الكنيسة الأرمنية أبداً. قرر قادة الكنيسة في أرمينية نقل المقر الجاثليقي بعيداً عن النفوذ الروماني. ومكنتهم موافقة جيهان شاه من الدعوة إلى انعقاد مجمع قومي

(41) الأسرة المغولية الهندية. وتسمى في اللغات الأوروبية Mughal أو Moughal، وهي سلالة تركية (فرع من التيموريين). أسسها بابور الذي ينتمي لتيمور لك وجهانجير. وأشهر سلاطينها السلطان أكبر (جلال الدين). وهمايون وشاه جهان. (المترجمة)

عام 1441م. وقرر المجمع عودة المقر الجاثليقي مرة أخرى إلى إتشميادزين Ejmiasin. وسرعان ما تحدى الأساقفة القليليين هذا الانتقال، وانتهى الأمر إلى انفصال كرسي جاثليقي أرميني آخر، وإن كان أقل أهمية (حتى النصف الثاني من القرن العشرين) في سيس. وأصبحت إتشميادزين مرة أخرى المركز الديني الرسمي للشعب الأرميني.

حكم أق قوينلو، أو "الكبش الأبيض". وكانوا سُنيين. كل الأراضي الأرمينية غرب بحيرة فان إلى نهر الفرات. وهزموا قره قوينلو عام 1468م وحكموا أرمينية كلها وأذربيجان ومعظم جورجيا وجزءاً كبيراً من فارس حتى نهاية القرن الخامس عشر. عندما حل محلهم الصفويون. وأجبر أق قوينلو تحت قيادة أوزون حسن (1453-1478م) Uzun Hasan الأرمين على ارتداء ملابس تميزهم كمسيحيين. وفرضوا عليهم ضرائب باهظة. وظهرت أسوأ الأحوال أثناء حكم يعقوب (1478-1490م). الذي فرض مزيداً من الضرائب. وصودرت أراضي معظم من بقي من النخار. أو لكي يتخذوا ممتلكاتهم، قاموا بالتبرع بها للكنيسة كأوقاف. وأصبح بعضهم من رجال الكنيسة. بينما جمع البعض ما يستطيعون من رؤوس الأموال وانصرفوا إلى التجارة. واستطاع عدد قليل جداً من النبلاء الصغار أو سلاسل بيوتات أكبر، مثل أمراء خاتشن Khachen. أن يحتفظوا بممتلكاتهم في مرتفعات قره باغ (وفيما بعد ناجورنو قره باغ. أو إقليم كاراباغ Karabagh) وسيونيك. ولحق عدد من القبائل الكردية من فارس وسوريا بمن وصل قبيلهم إلى أرمينية. وعلى الرغم من كل تلك المصاعب الاقتصادية، فقد استعاد أق قوينلو النظام. وعاد السلام إلى أرمينية. مما مكّن الناس من الإفاقة إلى حد ما قبل الجولة التالية من الحروب بين العثمانيين والصفويين.

الأدب والفن والتعليم

رغم أربعمائة عام من الغزو والدمار. استطاع الأرمين أن يقدموا أعمالاً تاريخية وأدبية. كان أهم مؤرخي القرن الثالث عشر كيراكوس الجنجي Kirakos of Ganja. وستيبانوس أوريليان Stepanos Orbelian. وجريجور أكانتس Grigor Akants. وتوفماً المتسويى Tovma of Metsop. وكان كيراكوس قد وقع في أسر المغول فتعلم لغتهم. ويُعد تاريخه مصدرراً أساسياً لعصر المغول والزاكاريين في أرمينية. أما ستيبانوس أوريليان. الذي كان أسقفًا ومن إحدى عائلات سيوني. فقد زار البلاط المغولي وكتب تاريخ سيونيك.

.The History of the Family and the Province of Siunik المائلة والإقليم
History of the Nation أكانتس تاريخ المغول. بعنوان تاريخ أمة الرماة
History of the Archers. وأخيراً. كتب توقما المتسوي تاريخ تيمورلنك وخلفائه
Tamerlane and His Successors. وهو كتاب يشرح بالتفصيل التدمير الرهيب الذي
لحق بأرمينية على أيدي التركمان. وفي مجال الأدب. استخدم فريك Frik. وهو شاعر
علماني. اللغة العامية لوصف المعاناة التي عاناها الناس أثناء غزوات المغول: بينما ألف
قنسطنطين من أرزينجا Constantine of Erzinga قصائد عامية حول موضوعات غير
دينية مثل الحب وجمال الطبيعة.

وظهر في تلك الفترة أيضاً عدد من الفلاسفة وعلماء النحو الأرمن. وكان معظمهم
نتاج مدرسة تاتيف Tatew School. ومن بينهم يسايي من نيش Esayi of Nich. وجون
من فوروتان John of Vorotan. وأراكيل من سيونيك Arakel of Siunik. وأهم هؤلاء
جميعاً. جريجور من تاتيف Grigor of Tatew.

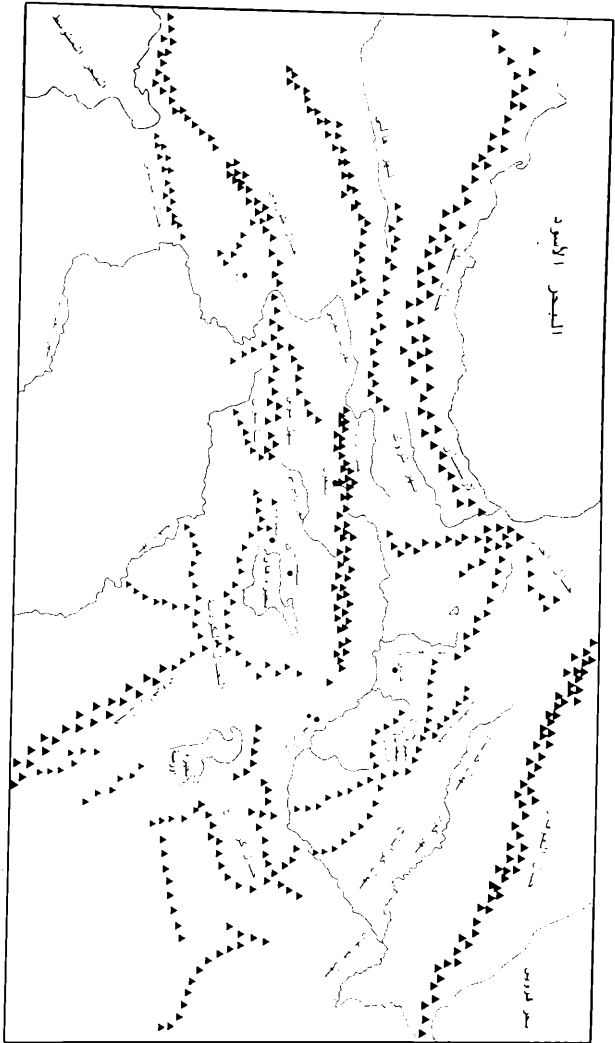
كانت إحدى نتائج الغزوات المتعددة واحتلال أرمينية على أيدي قوات مختلفة أن
الأرمن أُجبروا على تعلم اللغات الفارسية والتركية والمغولية والجورجية والأيفورية.
وكانوا كثيراً ما يعملون مترجمين في التجارة وفي البلاط. ويشير الرحالة الأوروبيون إلى
المترجمين والوسطاء الأرمن في آسيا الوسطى. والهند. ومختلف البلاطات المغولية.
وقامت الأديرة. كما في السابق، بدور مراكز للتعليم. وظهر عدد من العلماء الأرمن. وأهم
هؤلاء أميردوفلات الأماسي Amirdovlat of Amasia.

ويمكن أن نرى أديرة تاتيف وجلادزور Gladzor. وكنائهما في سيونيك. كنوع من
الجامعات. حيث كانت تُدرّس الفنون والعلوم. وكذلك الدراسات الدينية. وكانت هذه
المراكز نشطة بشكل خاص ضد انتهاكات الإرساليات الكاثوليكية. وفي القرن الرابع
عشر. نجح الدومينيكان في جعل عدد من العلمانيين ورجال الدين الأرمن يتحولون إلى
الكاثوليكية في ناخيتشيفان. وأسسوا Fratres Unitores (بالأرمنية unitork). وهو فرع
أرمني كاثوليكي من المذهب الدومينيكاني. ورغم أن اللاهوتيين الأرمن من جلادزور
لعبوا دوراً مهماً في مقاومة وتحجيم هذه التأثيرات اللاتينية في أرمينية. فإن بعض
الأفكار اللاهوتية الغربية أثرت على أعمال يسايي من نيش Esayi of Nich. ووجون من

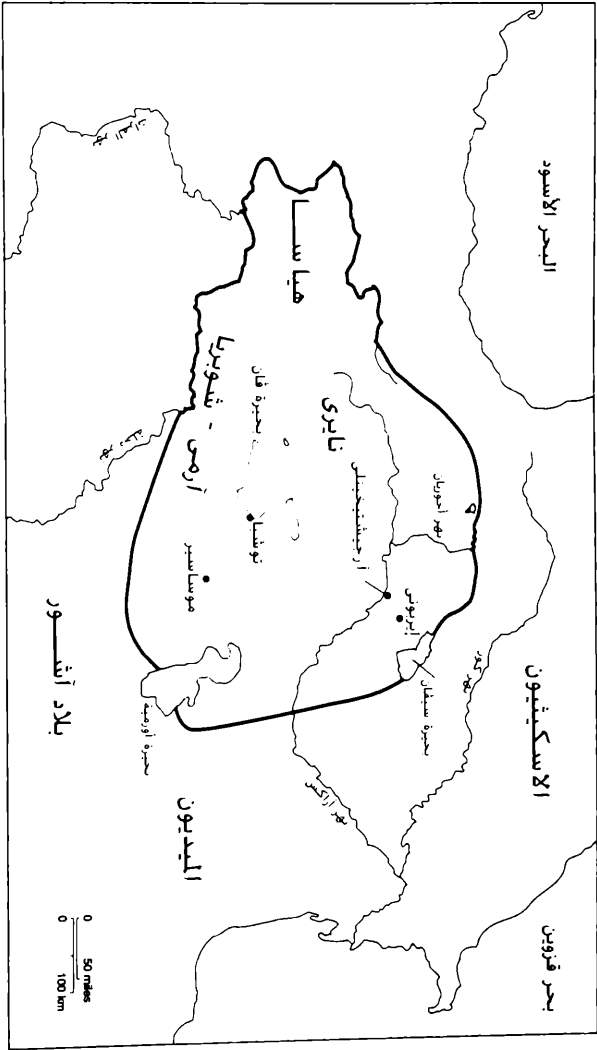
تسورتسور John of Tsortsor. أو ترجمت على يد هاكوب من كرنا Hakob of Kma. ولم تقف تلك الأيام المليئة بالاضطراب والتشوش عائقاً أمام التجارة أو بناء الكنائس. إذ كان أحد طرق التجارة يمر عبر جورجيا وشمال أرمينية إلى طرابزون. حيث يستمر إلى البندقية وجنوا. وكان التجار الأرمن نشطون في هذه التجارة. واستطاعوا مراكمة ثروة معتبرة. وجد جزء منها طريقه كتبرعات للأديرة وبناء الكنائس. وترجع إلى هذه الفترة كنائس نورفانك Noravank، وخوراكيرت Khorakert وآرني Areni وإغفارد Eghvard. وعدد من الكنائس التي بنيت فيما بعد في آني. وتم استكمال عدد من الأديرة أيضاً. مثل: ساناهين Sanahin. وهوفنانافانك Hovnannavank وهريجافانك Harijavank وهاغارتسين Haghartsin وسبيتكافور Spitakavor وتغر Tegher وكشاريس Kecharis وجوشفانك Goshavank وجفارد Geghard. وأخيراً فإن المقر الجائليقي في جاندزاسار بأرتساخ (قره باغ) Gandzasar in Artsakh (Karabagh). وبني في هذه الفترة. ويبدو النحت الجداري بالجص أو الحجر في تصميمات هندسية، تمزج بين حيوانات حقيقية وأخرى متخيلة. كما كان في القصور والكنائس أثناء فترة بجراتوني. وقد ظهر الآن بشكل أكثر نضجاً. وتدل الأوعية الدينية وأغلفة الكتب الفضية. خاصة تلك التي فوضت عائلة بروشيان Proshian حرفيين لعملها. على فنون صائفي الفضة. ووصل فن صناعة الخاتشكار khachkars. كما سبق الذكر. إلى ذروته في تلك الفترة. وظهر تأثر المخطوطات المذهبية بتأليفها الزخرفي بالأعمال الكليكية؛ ومن الأمثلة الجيدة لتلك الفترة إنجيل هاغبات Haghpats وإنجيل جلادزور Gladzor.

لأكثر من ألفي عام. تمكنت أرمينية بفضل موقعها الجغرافي وطبيعة شعبها القادرة على التكيف من الاحتفاظ بمكانة فريدة في العصور القديمة والكلاسيكية والوسيطية. وقدمت أرمينية عدداً من الأسر الحاكمة. وطورت فنها وعمارتها ولغتها وأدبها الخاص، وكانت واحدة من أولى الدول التي اتخذت المسيحية ديانة رسمية. وهو قرار أثر في تاريخها اللاحق كله. وأسهمت أرمينية بطريقة صغيرة في عصر النهضة من خلال حفظ عدد من الأعمال الكلاسيكية وقيامها بدور الوسيط في نقل البضائع والأفكار من آسيا إلى أوروبا. ومن المحتمل أن علاقات أرمينية مع الصين قد ساعدت أيضاً في نقل بعض التكنولوجيا التي أسهمت في التفوق والاستكشاف الأوروبي.

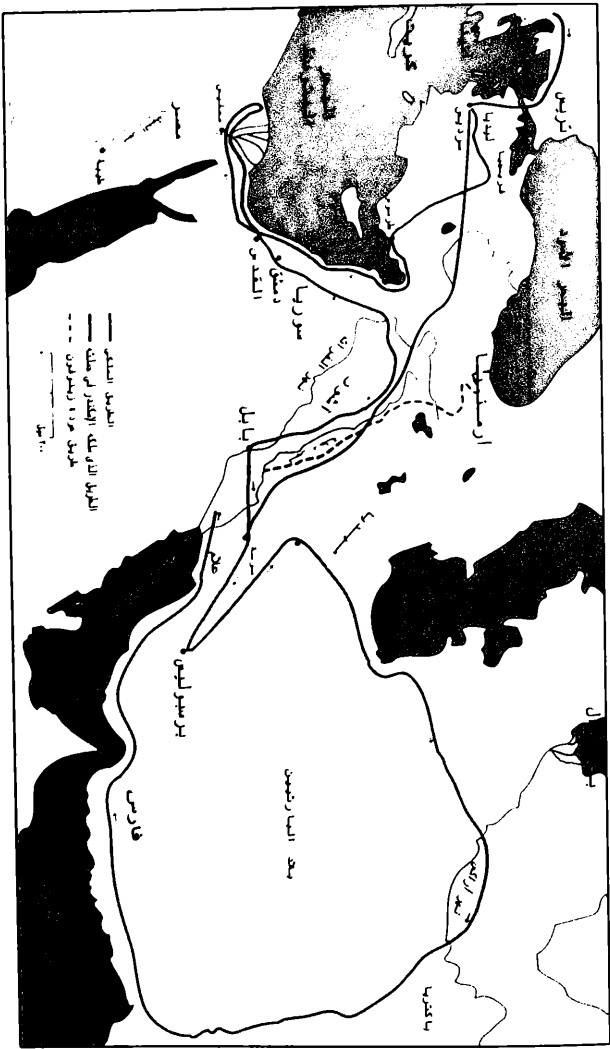
ولكن، بنهاية العصر الوسيط. اختفى الهيكل السياسي لأرمينية. واستمرت التغييرات الديموجرافية التي بدأت في القرن الحادي عشر بلا انقطاع حتى فجر القرن التاسع عشر (انظر الفصول 16، 13، 12). وانتهت أخيرًا بتراجع الشعب الأرمني ليصبح أقلية في أجزاء كثيرة من أراضيه التاريخية.



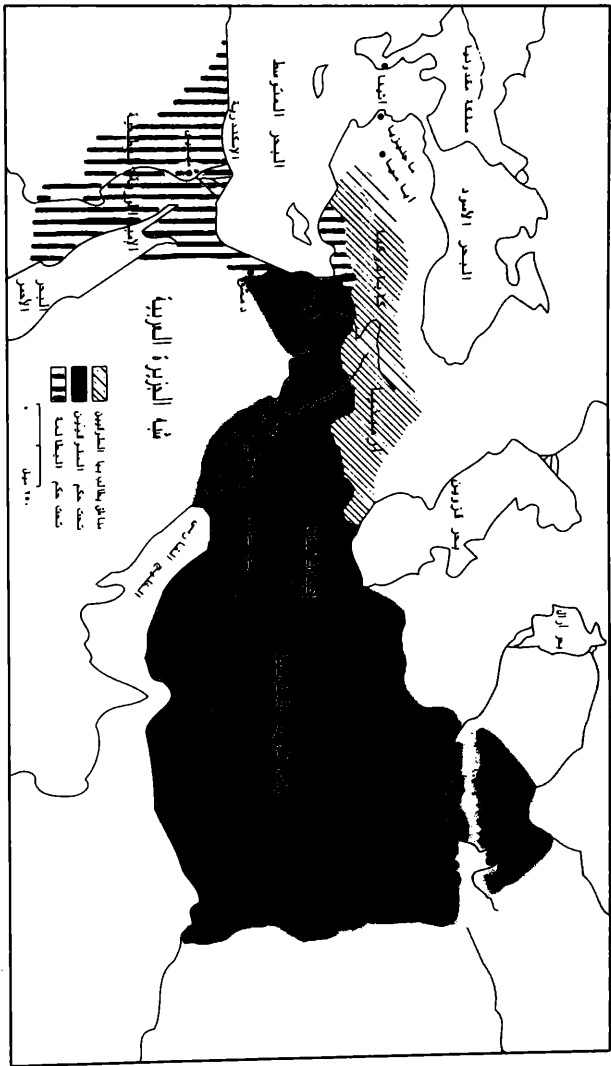
1- خريطة طقسية لأرمينيا .



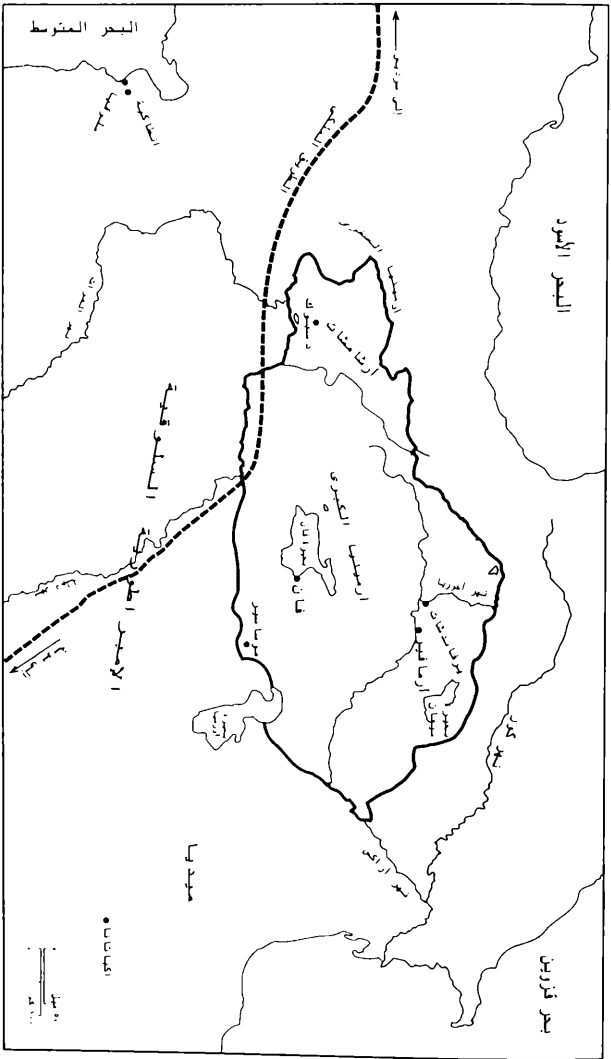
3- أوزارتو (750 ق.م. - 100 ق.م.)



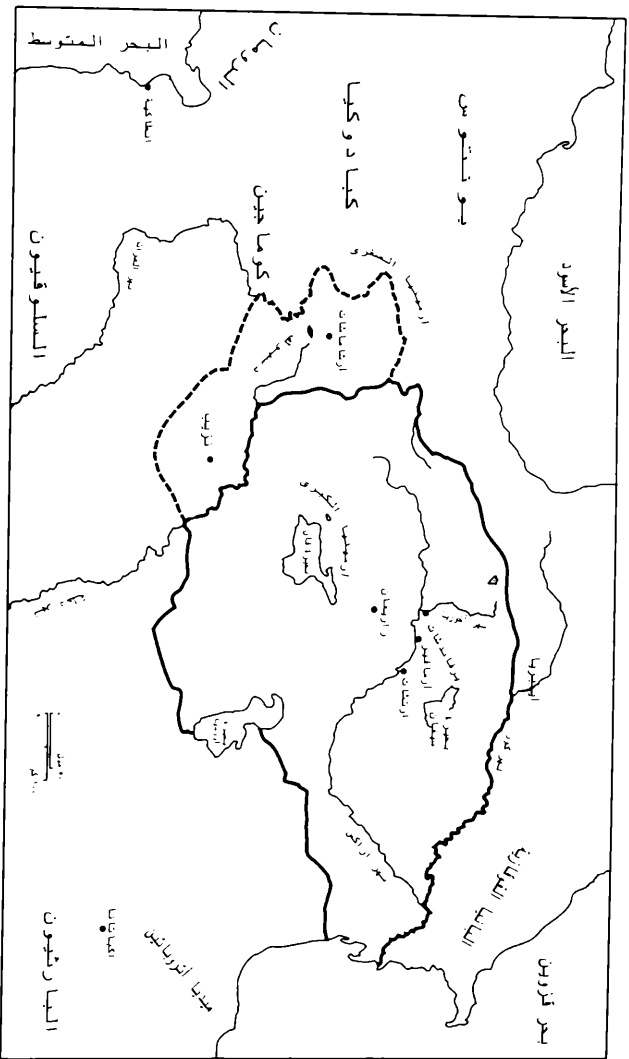
4- الإمبراطورية الفارسية (تقريباً 500-300 ق.م.)



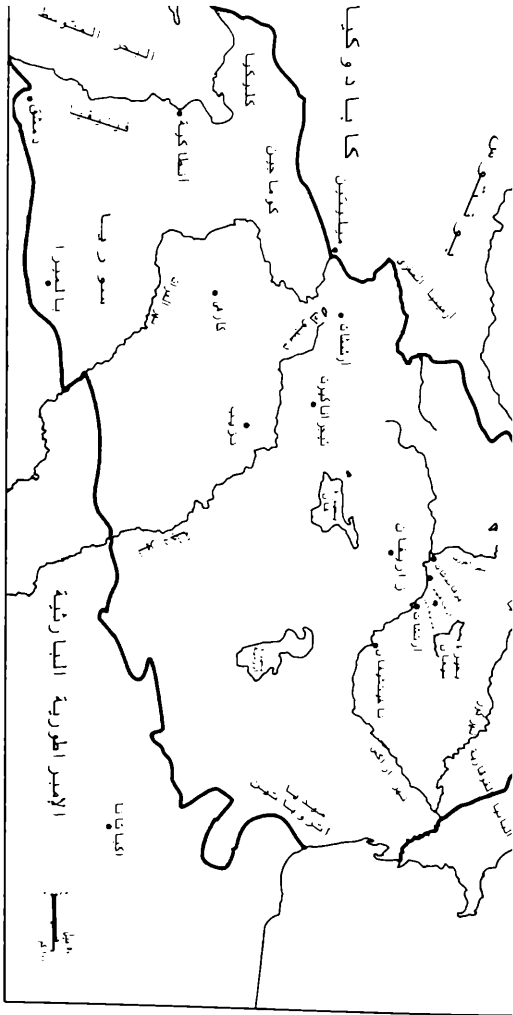
5- الإمبراطورية الهيتية (تقريباً 300 ق.م).



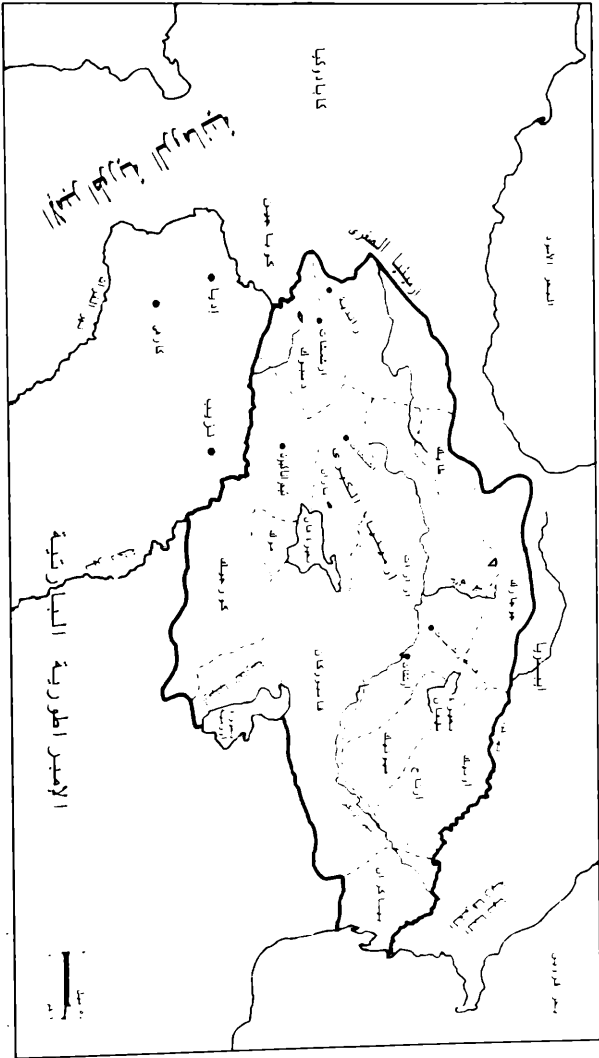
6- أرمينيا اليرقانية (250 ق. م) .



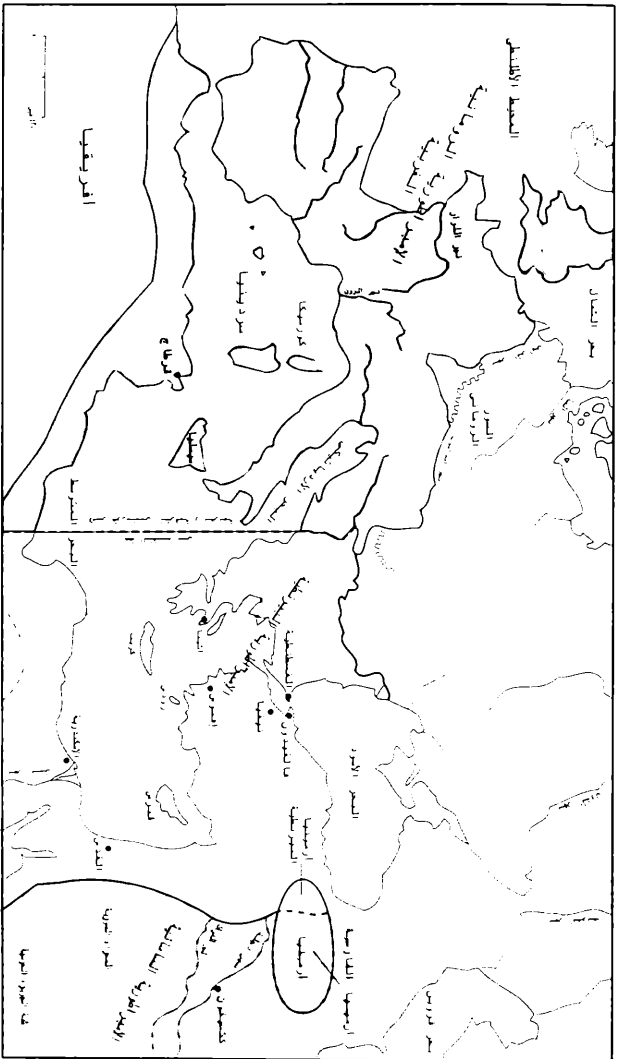
7- أرمينيا الأرتاشيزية (تقريباً 150 ق.م).



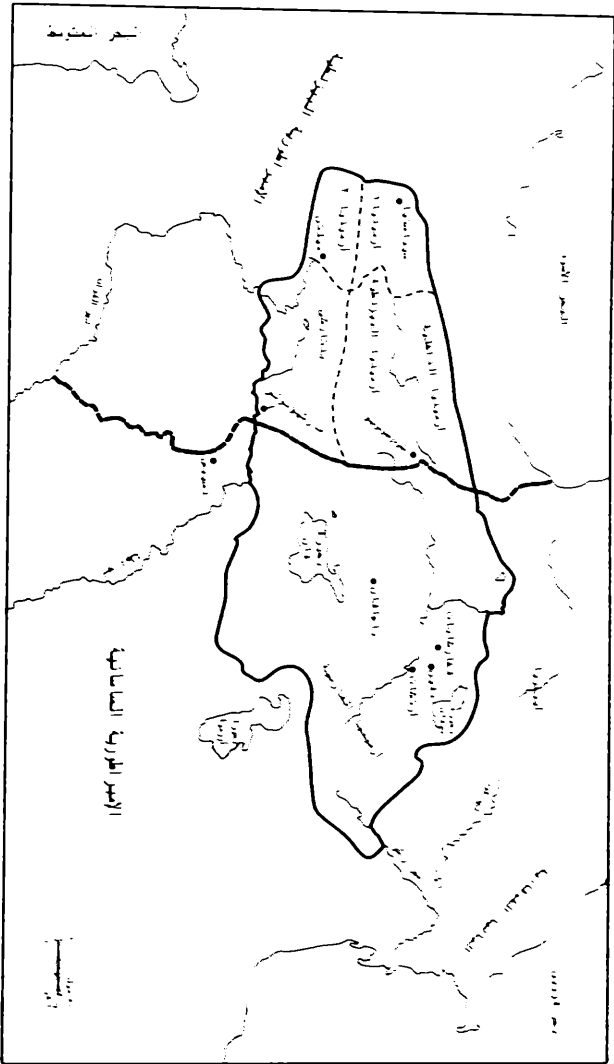
8- الامبراطورية الرومانية (تقريباً 80 ق.م).



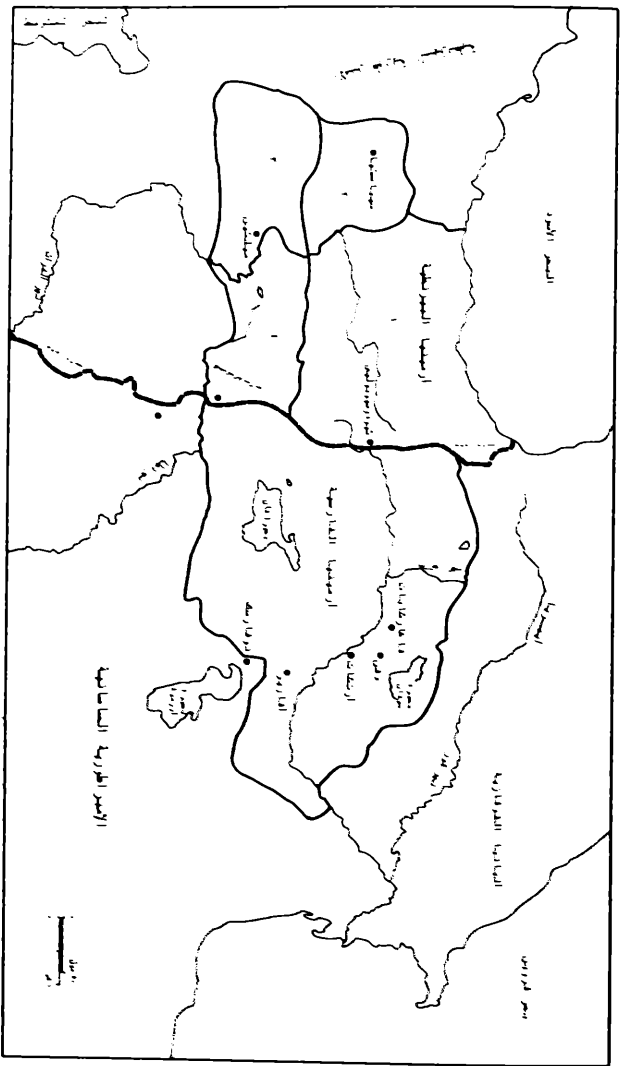
9- أرمينيا الأرتساكية (تقريباً 150 ق. م).



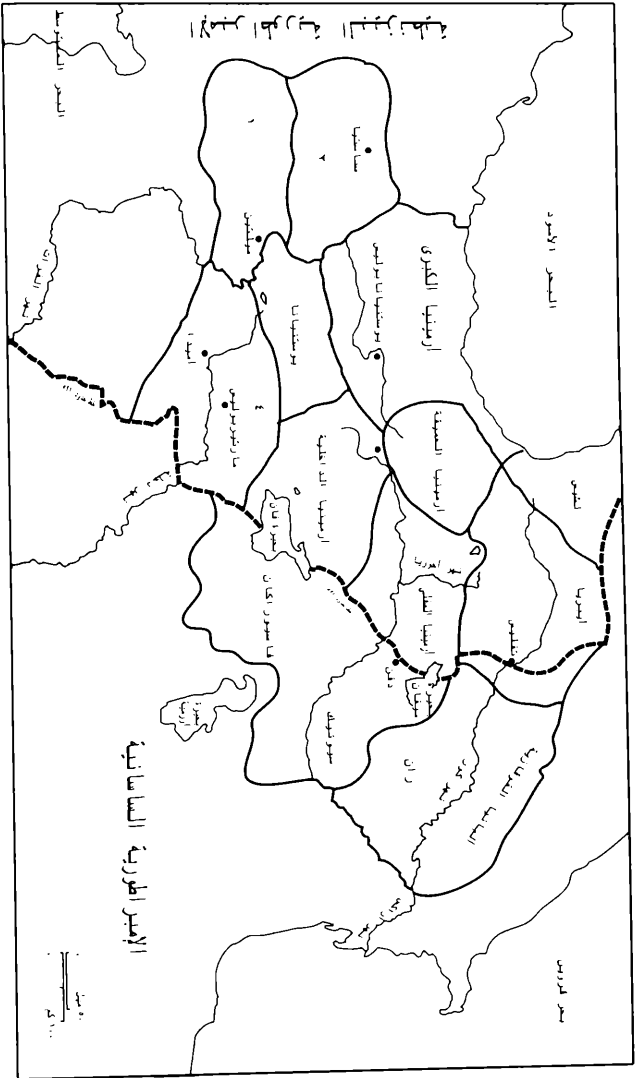
10- الإمبراطورية الرومانية (تقريباً 387 ق.م).



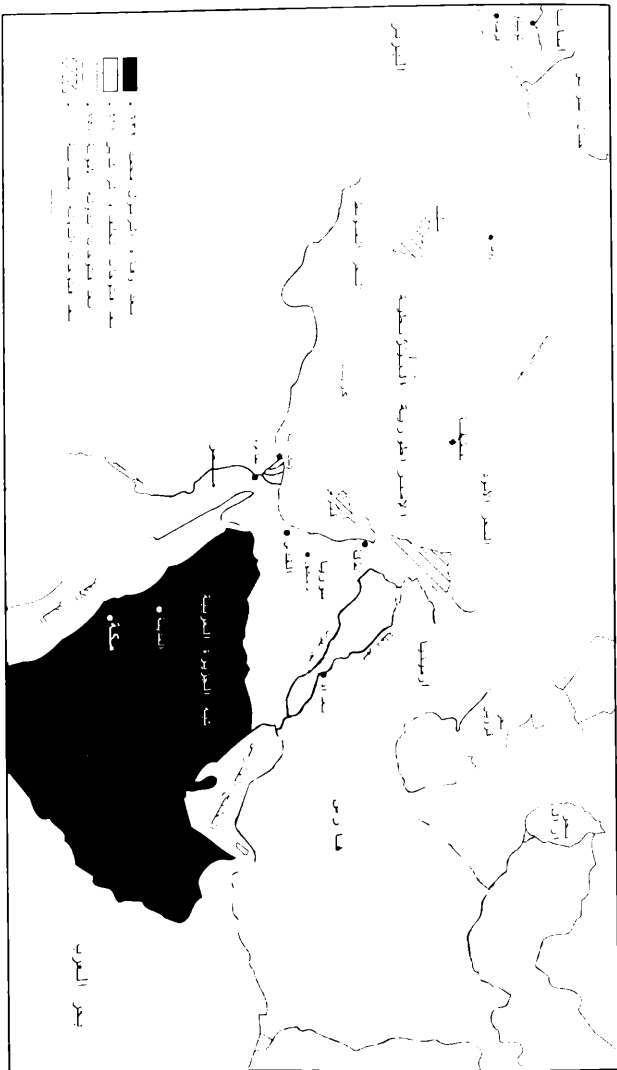
11 - التقسيم الأول للأزمك (387 م) .



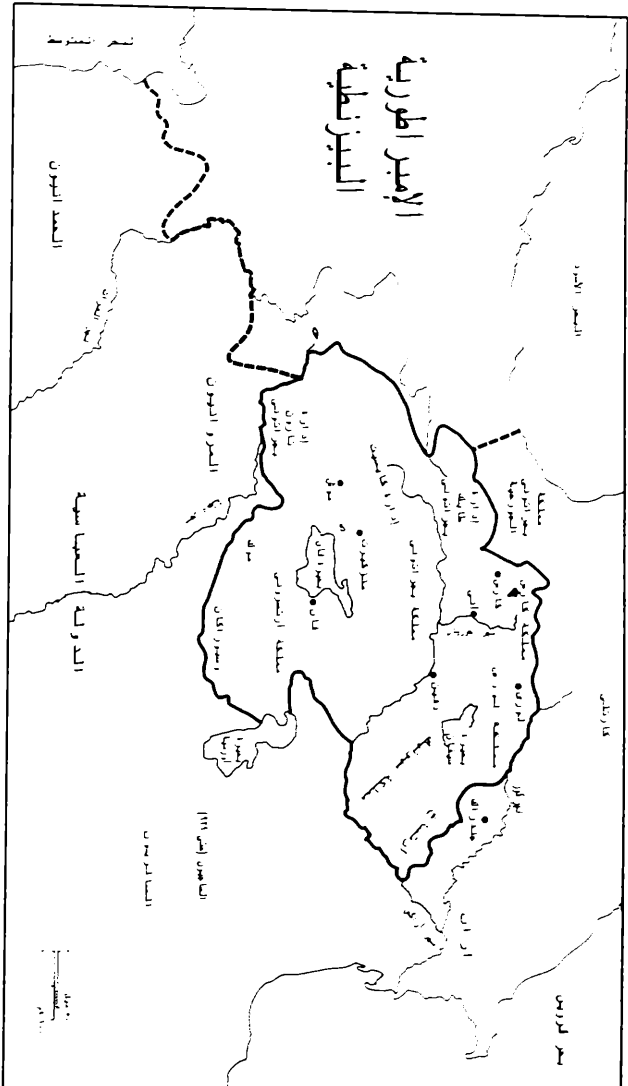
12- أرمينيا في عصر جستينيان (536 م) .



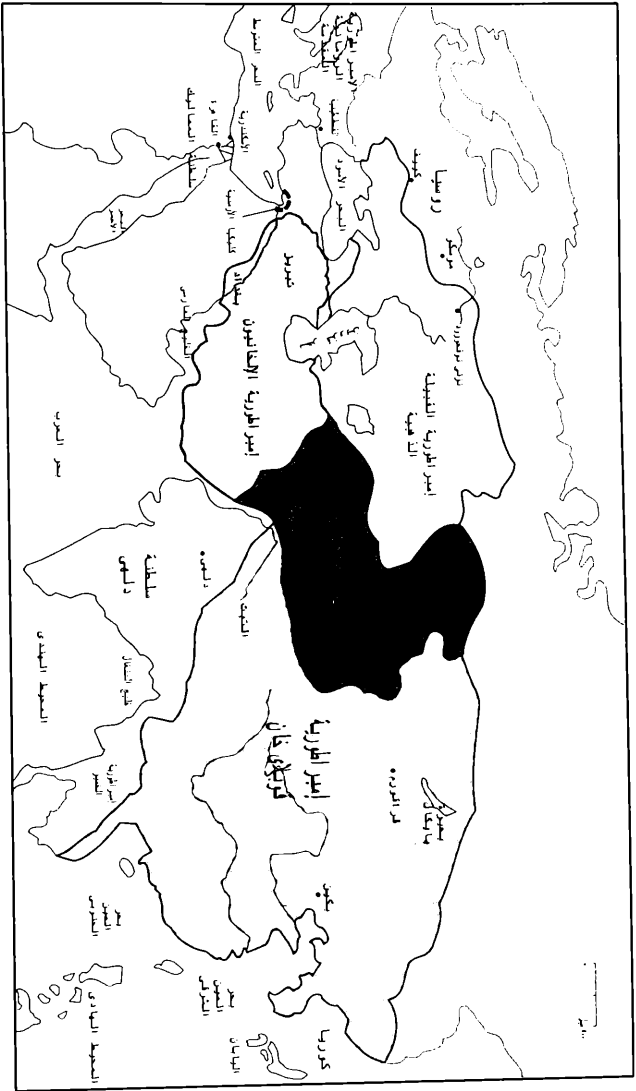
13- التقسيم الثاني لأرمينيا (591 م) .



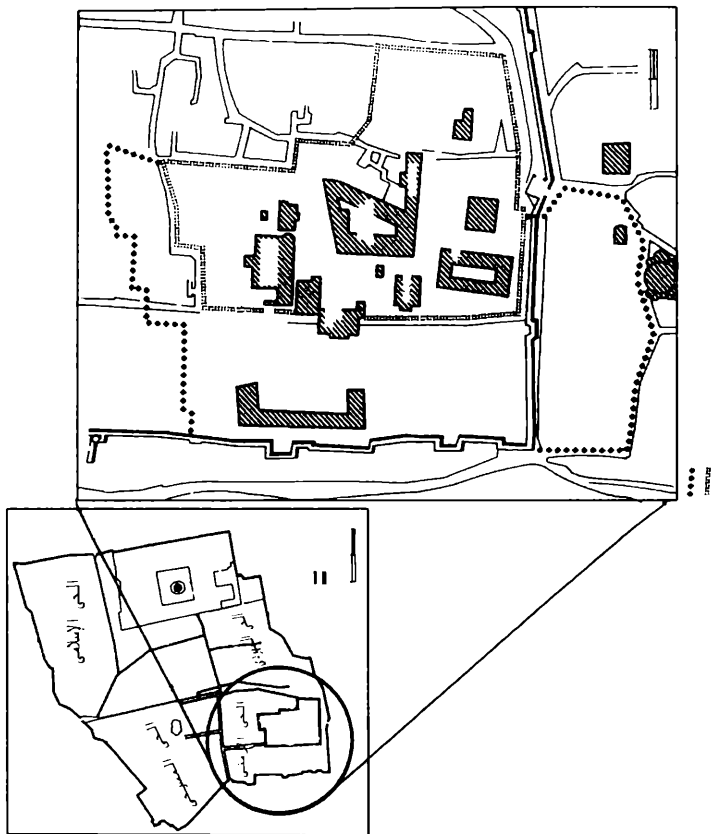
14 - انتشار الإسلام



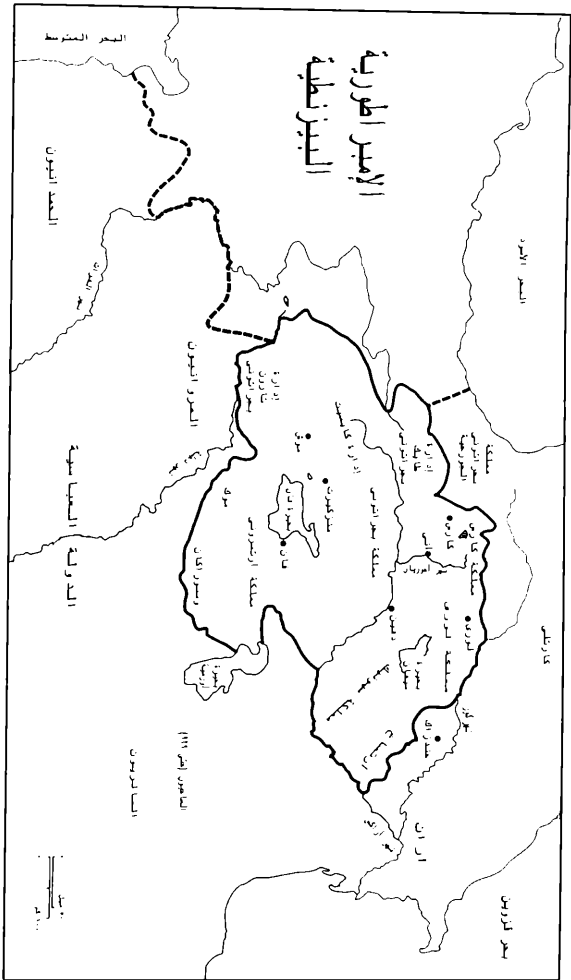
15 - مملكة بيجر التوني والممالك الأرمينية في العصور الوسطى (تقريباً 1000 م).



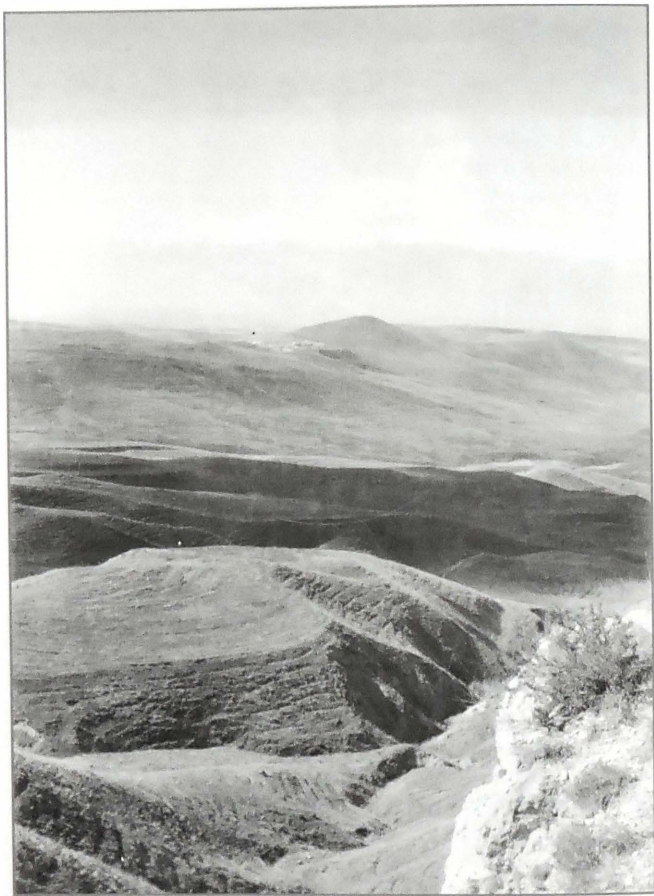
17- الإمبراطورية المغولية (تقريباً 1280 م).



18- الحى الأرميني في القدس.



19 - أرمينية الوكرارية (تقريباً 1200 م.)



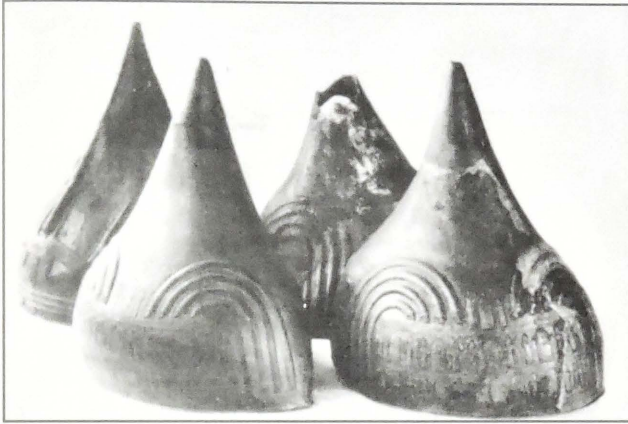
1- قمة جبل أراوات المزدوجة .



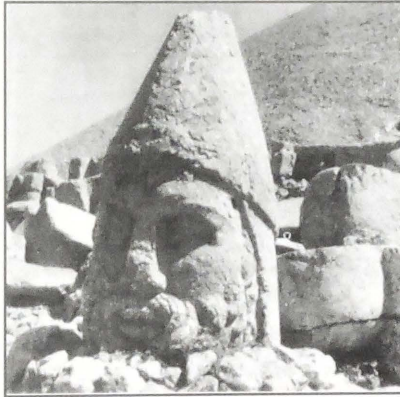
2- الثور المجنح ، برونز (العصر الأورارتي) .



3- نموذج أسد مجنح برأس إنسان (العصر الأورارتي).



4- خوذة أورارتية .



5- أثر في جبل نمرود ، تركيا .



6- نقش بيهستون ، إيران ، (العصر الإخميني اليرقاندي) .



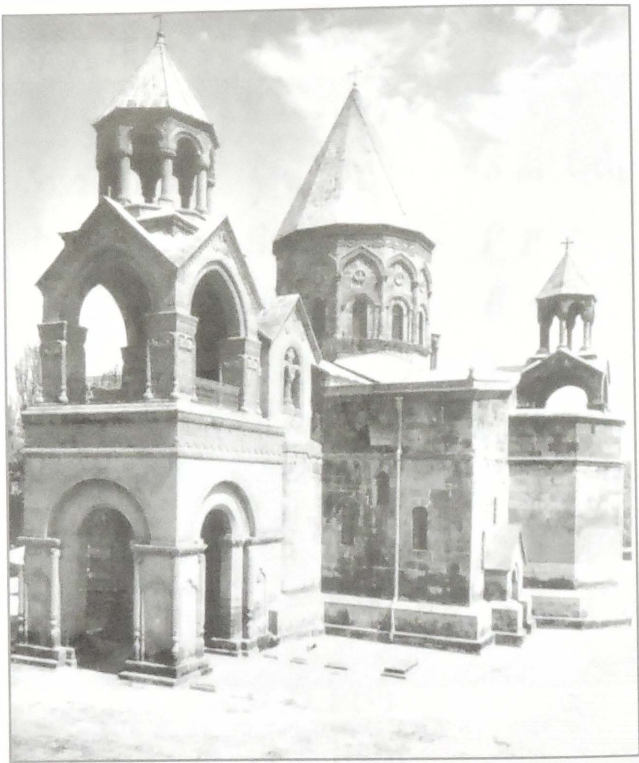
7- رأس برونزية لإله هيلينستي (العصر الأرتاشيسي) .



8- عملة تيرترا درخم فضية في حقيبة تيجران العظيم .



9- معبد جارني (العصر الأرتاشيسي).

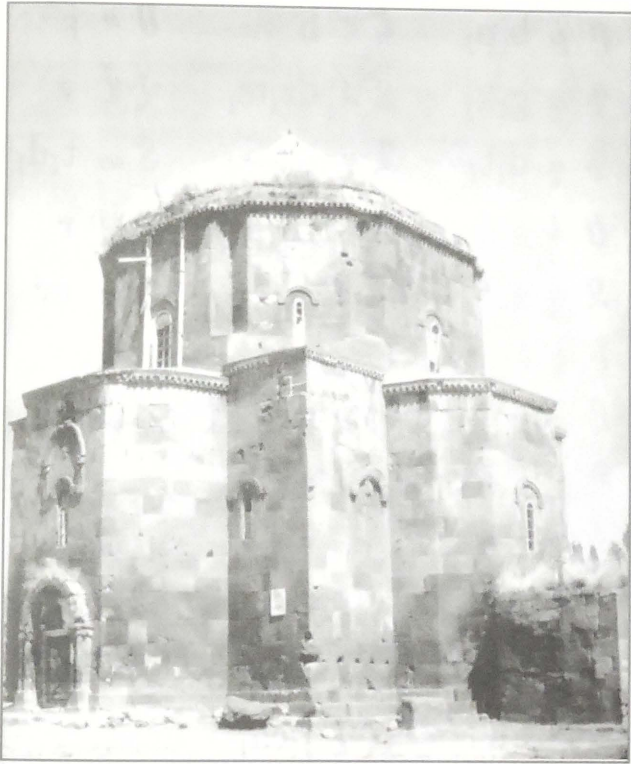


10- كاتدرائية إيتشميادزين (القرن الرابع) .

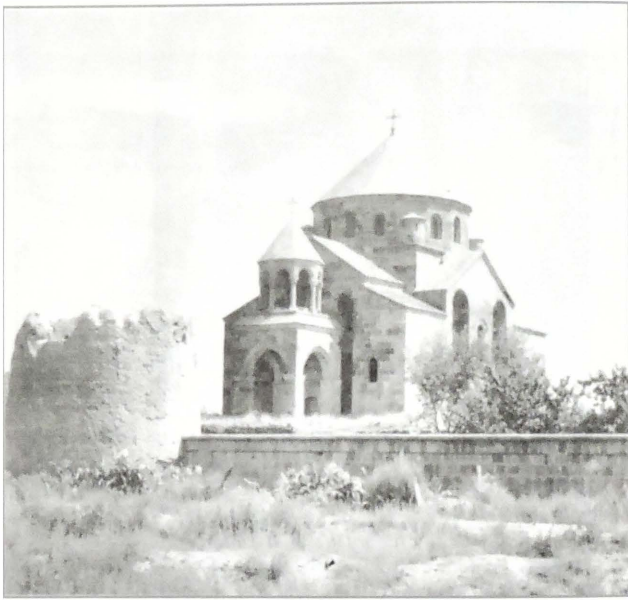


11- كنيسة إيريروك (القرنان الرابع والخامس) .

Ա ա	Կ կ k _[g]	Ռ ռ rh
Բ բ b _[p]	Հ հ h	Ս ս s
Գ գ g _[k]	Ձ ձ dz _[ts]	Վ վ v
Դ դ d _[t]	Ղ ղ gh	Տ տ t _[d]
Ե ե e	Ճ ճ ch _[j]	Ր ը r
Զ շ z	Մ մ m	Տ զ ts'
Է է ē	Թ յ y	Խ լ w
Ը լ ě	Ն ն n	Փ փ p'
Թ թ t'	Շ շ sh	Գ գ k'
Ժ ժ zh	Ո ո o	Օ օ օ
Ի ի i	Չ չ ch'	Ֆ ֆ f
Լ լ l	Պ պ p _[b]	
Խ խ kh	Ջ ճ j _[ch]	
Ս ծ ts _[dz]		



13- كاتدرائية ماستارا (القرن السادس) .



14- كنيسة القديسة هريسيمة (القرن السابع).



15- أثر في أودزون (القرن السابع) .



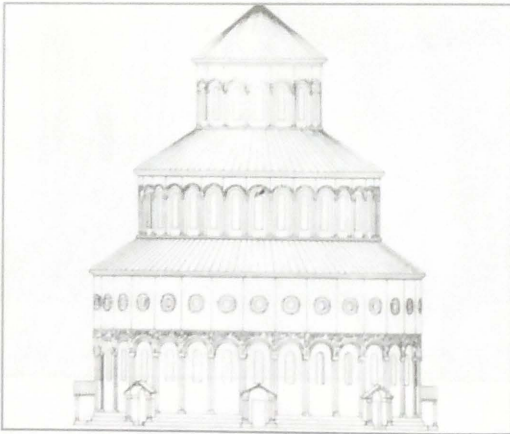
16- كنيسة القديسة جايانيه (القرن السابع) .



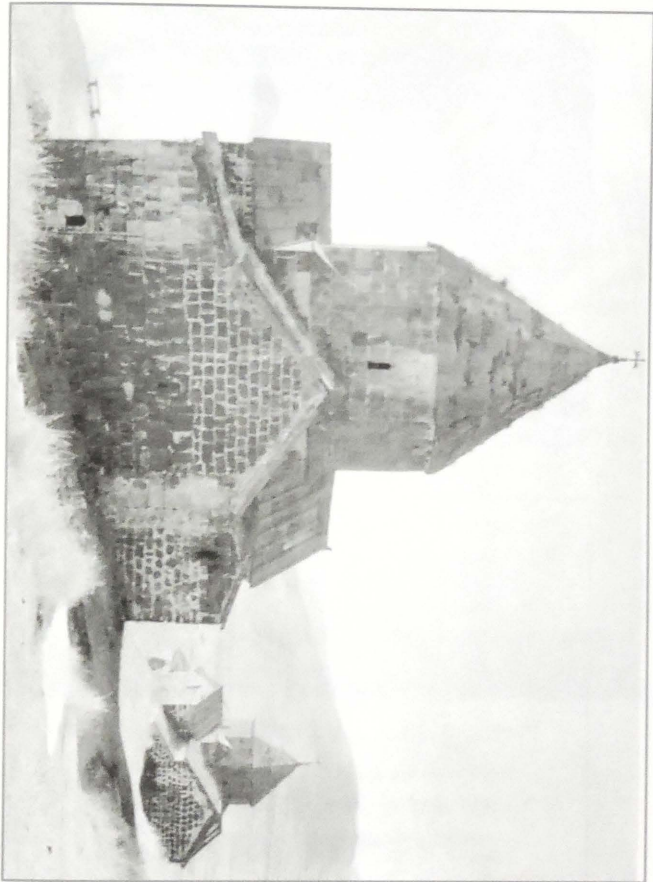
17- كاتدرائية زفارتشوتس (أطلال) (القرن السابع).



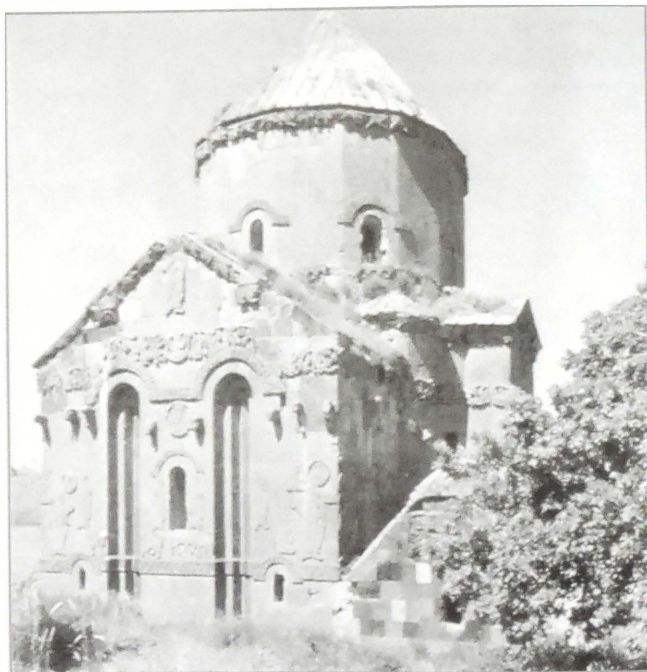
18- تاج عمود على هيئة نسر ، زقارتوتوس .



19- تخطيط لإعادة بناء (كنيسة زقارتوتوس) .



20- كنيسة عند بحيرة سيفان (القرن التاسع).



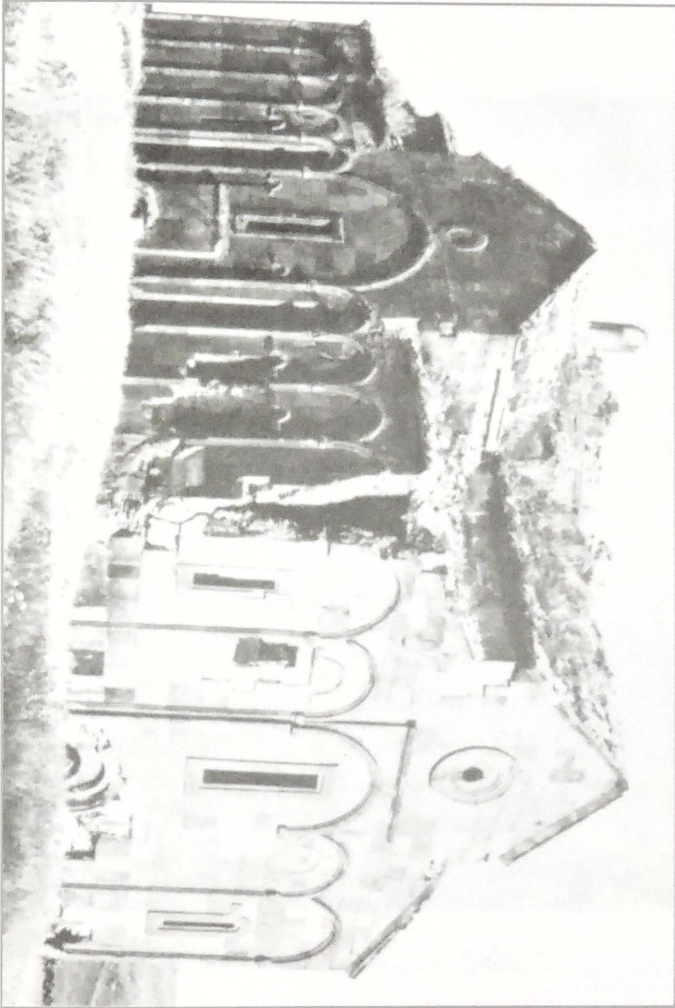
21- كنيسة الصليب المقدس في أغماتمار (بحيرة فان) (القرن العاشر).



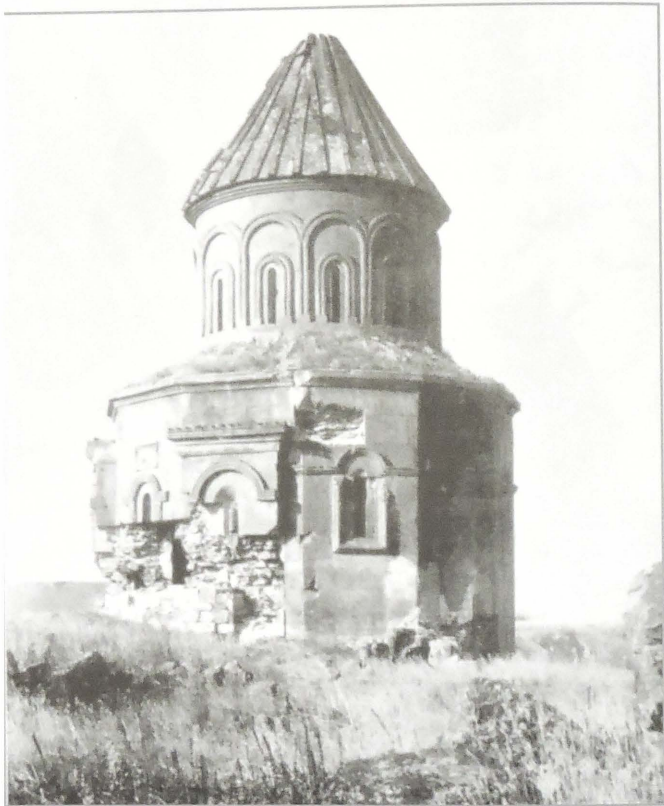
22- داود وجليات ، كنيسة الصليب المقدس أغممار .



23- كنيسة الرسل القديسين ، كارس (القرن العاشر) .



24- كاتدرائية أني (القرنان العاشر والحادي عشر).



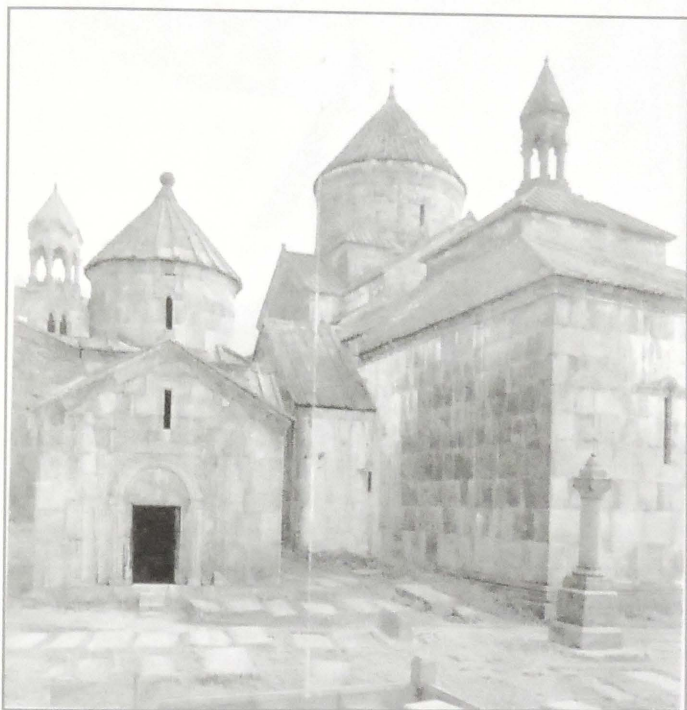
25- كنيسة في آني (القرنان العاشر والحادي عشر).



26- دير خدزكونك (القرون من التاسع حتى الحادي عشر) .



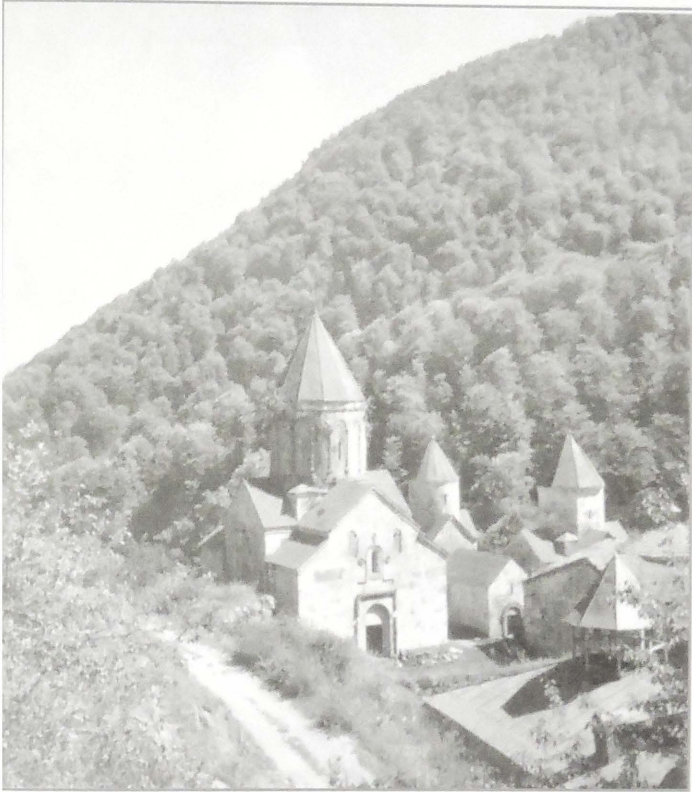
27- كنيسة بدير سناھين (القرون من العاشر حتى الثالث عشر).



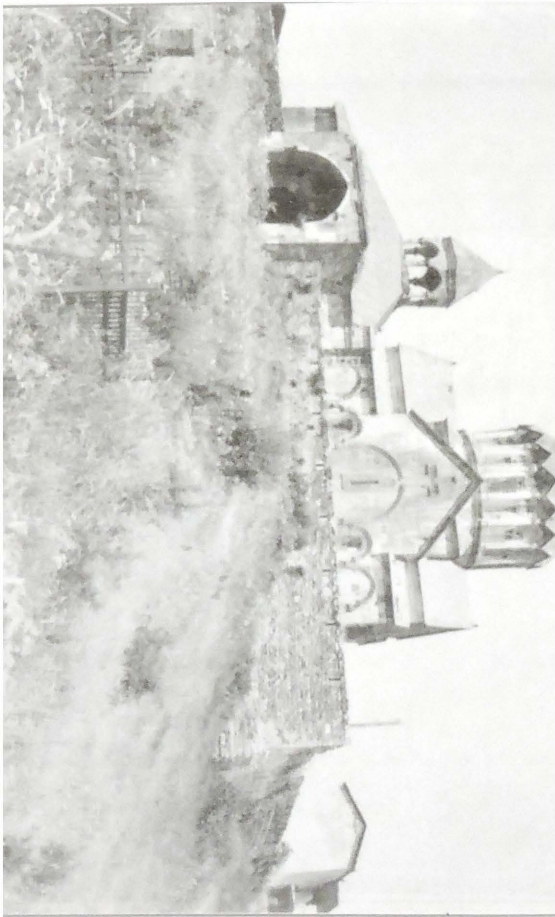
28- دير هاغبات (القرون من العاشر حتى الثالث عشر).



29- دير جيغارد (القرنان الثاني عشر والثالث عشر).



30- دير هاغاردزين (القرون من الحادي عشر حتى الثالث عشر) .



31- دیر جانتاسار ، قره باغ (القرن الثالث عشر).



32- خاتشکار (القرنان الثاني عشر والثالث عشر).



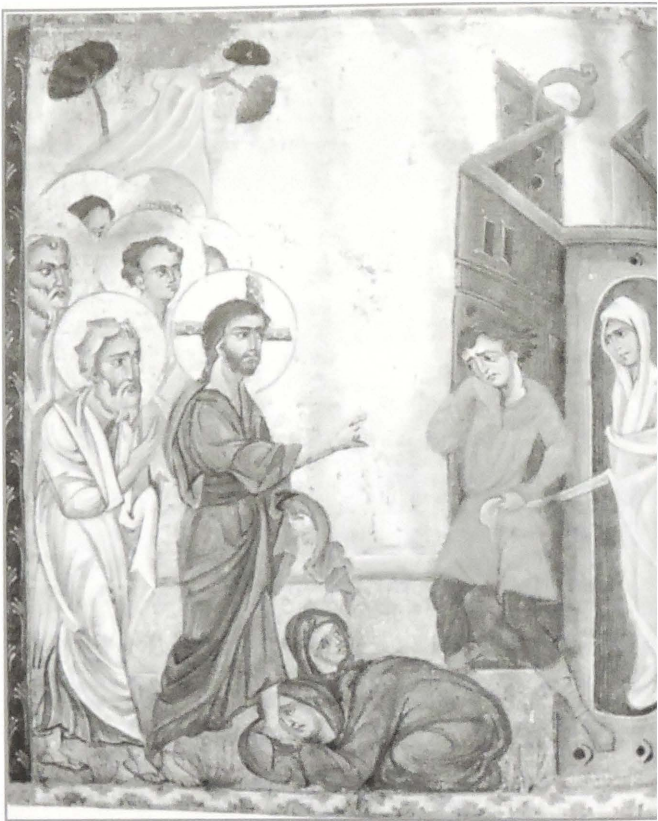
33- تفصيل عملة ليثون الأول (قيليقيية).



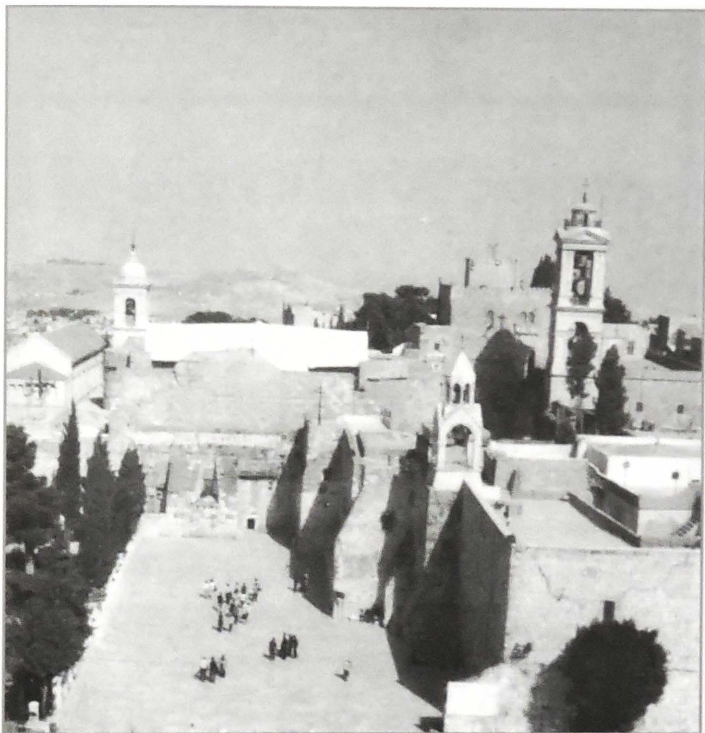
34- شاهد قبر ليثون الخامس (باريس).



35- قلاع فاهكا (قبليقية).

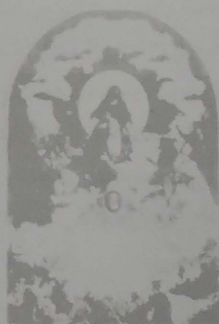


36- قيام لعازر ، طوروس روسلين ، (قيليقية) (القرن الثالث عشر) .



37- الكنيسة الأرمنية ، كنيسة الميلاد ، بيت لحم .

الجزء الثاني
من الحكم الأجنبي إلى الاستقلال
(1500-2005)



مقدمة الجزء الثاني

في فجر الفترة المبكرة من العصر الحديث. عندما بدأ الغرب يستكشف عالمًا جديدًا ويتبنى أفكارًا سياسية جديدة، دخل الشرق تدريجيًا في عصر من السبات والاضمحلال. وفصل العثمانيون أرمنية عن الغرب. وهي التي كانت في الماضي في صدر جبهة التبادل الثقافي: إذ إن الغزوات المتوالية من البدو الرحل طوال أربعة قرون حوّلت القسم الأعظم من أرمنية إلى بلاد منعزلة بلا قيادة. ولم يعد المسيحيون إلا جزيرة صغيرة وسط محيط من المسلمين، فوقعت أرمنية وثقافتها. فيما عدا مواقع قليلة في المرتفعات وفي منطقتي فان ويريغان، في فترة من الركود استمرت حتى القرن التاسع عشر.

وقد نتج عن التغيرات الديموجرافية التي حدثت على مر القرون هجرة طوعية أو جبرية لمعظم المهويين من أبناء أرمنية. وقد حفظ الأرمن كثيرًا من روحهم القومية في المدن الكبيرة لأوروبا وآسيا، وجرى إحياء الثقافة الأرمنية والفصل التالي من التاريخ الأرمني في الشتات. وقد يرى البعض تشابهًا بين الشتات الأرمني والشتات اليهودي. فمثل اليهود، هاجر الأرمن بعد انهيار ممالكهم إلى أجزاء من آسيا وأوروبا. وأصبحت قصتهم جزءًا من تاريخ المجتمعات المختلفة التي استقروا فيها: ولهذا كان ثمة انكسار في الرواية التاريخية حتى يحدث للأرمن. مثل اليهود، إحياء سياسي وثقافي وتأسيس لدولة جديدة. ولكن هناك فارقًا مهمًا، هو أن عددًا كبيرًا من الفلاحين والحرفيين الأرمن ظلوا في أرض أرمنية التاريخية بعد سقوط المملكة الأرمنية.

إن تاريخ الأرمن منذ بداية القرن السادس عشر. حتى وقتنا الحاضر. لا بد أن يركز على جماعتين مختلفتين: الجماعة الأولى هي الأرمن المشتتون في أنحاء العالم. تلك الجاليات، التي تسمى بالأرمنية spıurk، تشكلت وتزايدت أو تناقصت نتيجة للغزو، والمذابح والثورات والاستعمار والأفكار القومية. أما الجماعة الثانية فهي الأرمن الذين ظلوا في أرمنية التاريخية، وعمل معظمهم كمزارعين وحرفيين صفار. يقودهم رجال الكنيسة وصفار الإقطاعيين. أما أرمنية التاريخية نفسها فقد قسمت في البداية بين العثمانيين والفرس. وفيما بعد بين العثمانيين والروس. ورغم أن بعض المناطق، مثل فان ويريغان وكراباخ (قره

باغ) وسيونيك وساسون وزيتون وموش. قد احتفظت بأغلبية أرمنية حتى القرنين التاسع عشر والعشرين. فإن مناطق أخرى فقدت معظم سكانها الأرمن. وفي النهاية تحولت أجزاء من أرمنية الروسية إلى أول جمهورية أرمنية مستقلة (1918-1920م). ثم الجمهورية الأرمنية السوفيتية (1921-1991م). وجمهورية أرمنية الحالية (منذ 1991م).

كان الأرمن في الإمبراطوريات العثمانية والفارسية والروسية في وضع فريد. ورغم أن بعضهم عاشوا في وطنهم التاريخي داخل هذه الإمبراطوريات. فقد عاش البعض خارجها. في المدن الكبرى للإمبراطوريات نفسها. ومن ثم فقد كانت مدن تقليس وناختيشيقان الجديدة وأستراخان وأزمير والقسطنطينية⁽¹⁾ وأصفهان وتبريز وبأكو وموسكو وسان بطرسبرج كلها تضم جاليات أرمنية كبيرة وذات نفوذ. وكانت الأوضاع الاجتماعية - الاقتصادية والنشاطات السياسية لهؤلاء الأرمن. أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. لها وقع كبير على أرض أرمنية الأم التي يغلب عليها الطابع الريفي.

إن كتابة تاريخ الأرمن في العصر الحديث لا بد أن يضع في حسبانته أيضاً التقسيمات السياسية بين الأرمن بعد انهيار الجمهوريتين الأرمنيتين الأولى والثانية، وانهيار الاتحاد السوفيتي. وظهور دولة أرمنية جديدة مستقلة. بالإضافة إلى قضية كاراباغ.

وأخيراً. رغم أن الجزء الثاني من هذا التاريخ لا يغطي سوى خمسة قرون (مقارنة بخمسة وعشرين قرناً يغطيها الجزء الأول من هذه الدراسة). فإن الجزء الثاني من هذا التاريخ أطول. بسبب حقيقة بسيطة. وهي أن المصادر التي تتناول هذه الفترة أكثر بكثير.

11 في عام 1453م أطلق العثمانيون على القسطنطينية اسم -إسلامبول-. أي -مدينة الإسلام-. والذي حرف فيما بعد إلى -إسطنبول-. وكان النطق العربي لها في محضر في القرن التاسع عشر هو -الأسنانة-. وقد اتبع المؤلف تسمية -القسطنطينية- للمدينة في الكتاب بكامله. ولكي لا يشير الاسم لبناً لدى القاريء العربي. رأينا تعديل الاسم في القسم الثاني من الكتاب إلى -إسطنبول-. (فيما عدا مرات قليلة لدواعي السياق). (المراجع)

الأمراء والسلاطين الأرمن في الإمبراطورية العثمانية (حوالي 1460-1876 م)

أثناء الجزء الأخير من القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر، دخلت أوروبا في عصر النهضة، ونجحت في إخراج المسلمين من إسبانيا، واكتشفت العالم الجديد. وفي القرنين التاليين سوف تتحول أوروبا بفضل عصر الاستكشاف، والإصلاح والإصلاح المضاد، وتجدد الصراع بين الكنيسة والدولة. وسقوط الإقطاع، ونهضة الطبقات الحضرية وظهور الدول القومية المركزية والحكم الملكي المطلق. كان المسلمون والصينيون مساوين أو متفوقين على الغرب عسكرياً. فقد استطاع المسلمون رد الحملات الصليبية عن الشرق الأوسط، وأن يحكموا الشعوب المسيحية في آسيا الصغرى وأوروبا الشرقية والقوقاز والقبائل المحلية في شمال أفريقيا والهندوس في الهند. أما الصينيون فقد ظلوا يسيطرون على شعوب متعددة في وسط وشرق آسيا، وخضعت التجارة الحرة بين الشرق والغرب إلى تجارة بها مزيد من القيود من خلال طرق معينة وشركات معينة. وبينما أصبحت الصين معزولة ولم تستطع أسرta مينج وتشينج أن تمثلا تهديداً للغرب، فإن المسلمين في قالب الأتراك العثمانيين طرقتوا باب وسط أوروبا وسببوا عداوات استمرت قروناً بين بعض الدول الأوروبية والإمبراطورية العثمانية.

وفي أواخر العصور الوسطى، شهد العالم الإسلامي نفسه تغييرات كبيرة. الممالك في مصر، الأتراك العثمانيون في غرب الأناضول والبلقان، اتحادات لقبيلتي الكباش البيض والكباش السود في شرق الأناضول وشمال غرب إيران، والدولة التيمورية في شمال شرق إيران ووسط آسيا. كل هذه القوى انهمكت في صراع القوى الذي انتهى بظهور ثلاث إمبراطوريات إسلامية قوية: العثمانيون في آسيا الصغرى والعالم العربي والبلقان؛ والصفويون في إيران والقوقاز وأجزاء من آسيا الوسطى؛ والمغول في شبه القارة الهندية.

وفي القرن السادس عشر والجزء الأول من القرن السابع عشر، دارت الحرب بين العثمانيين والصفويين في شرق الأناضول وما وراء القوقاز وما بين النهرين. وجرى

أغلب الصراع في الأراضي الأرمنية . وهي أحداث تفجع عليها الشاعران هوفهانس من موش Hovhannes of Mush ، وسيمون من أبران Simeon of Aparan . وأخيراً انتهى الصراع عام 1639م . عندما أوقفت القوات العظميان عداوات مائة عام، وأبرمتا معاهدة زوهاب (وتعرف أيضاً بمعاهدة قصر شيرين). قسمت هذه المعاهدة أرمنية مرة أخرى إلى قسمين هذه المرة: أرمنية شرقية (وُعرفت أيضاً بأرمنية الفارسية)، وغربية (ويُشار إليها أحياناً باسم أرمنية التركية). وأصبح سهل شيرك نوعاً من الحدود بين الاثنتين. وقعت الأراضي غرب قلعة كارس (وتشمل القلعة) في أيدي العثمانيين. بينما أصبحت المناطق شرق آني ونهر أرباتشاي جزءاً من إيران. وانتهت بغداد ومدينتا نجف وكربلاء المقدستين، وغيرهما من المراكز المتنازع عليها، إلى أيدي العثمانيين.

وبالإضافة إلى ذلك، تمردت القوات فيما يُعرف بالثورة الجلالية بالأناضول في أواخر القرن السادس عشر (والتي وصفها الشعراء التوكاديون ستيبانيوس Stepanos، وهاكوب Hakob، وخاتشاتور Khachatur): مما تسبب في تدمير كثير من المراكز الأرمنية القديمة. وتسبب تدمير الممتلكات والمجاعات والأمراض وإجبار السكان على التحول إلى الإسلام وإعادة التوطن في قلة التعداد، كما أساء كل ذلك بشدة لقدرة الاقتصاد الأرمني. وفيما عدا أمراء قليلين في سيونيك ولوري، اختفت تقريباً طبقة النبلاء الأرمنية التي قامت على توارث ملكية الأراضي. وخضعت الكنيسة الأرمنية للحكم الإسلامي لكي تضمن بقاءها وبقاء رعاياها. وقد تعامل الحكام العثمانيون والصفويون والمغول مع الرعايا الأرمن كلُّ بطريقته وبشكل مختلف، منح العثمانيون والإيرانيون الكنيسة القيادة السياسية والدينية للرعايا الأرمن. أما المغول الأكثر تسامحاً، فلم تكن لديهم سياسة ثابتة. ولكنهم بشكل عام تركوا قيادة الجاليات الأرمنية للأرمن العلمانيين. وسوف نبحث في الفصول الأربعة التالية الحياة في تلك الجاليات، والتي كانت متناثرة في أرمنية التاريخية، وكذلك في المدن المختلفة للإمبراطوريات العثمانية والفارسية والمغولية.

كان الأرمن في غرب آسيا الصغرى قد هاجروا إلى هناك أثناء عصر الدولة البيزنطية. وفي وقت مبكر من العصور الوسطى، وأسسوا جاليات كبيرة في بعض المدن، خاصة إسطنبول. حيث اكتسبوا أهمية عسكرية وسياسية. ولكن بحلول القرن الحادي

عشر. تناقصت أعدادهم في إسطنبول. ورغم أن غزوات الأتراك السلاجقة على أرمينية أتت بسكان جدد إلى المدينة، فإن الوجود الأرميني ظل ضعيفاً، وتشير المصادر إلى أن السلطان محمد الثاني (1444-1446م، و1451-1481م)، بعد احتلاله للقسطنطينية بوقت قصير نقل عدداً كبيراً من الأرمن قسرياً من الأناضول وشبه جزيرة القرم إلى تلك المدينة. وقد استمرت مثل هذه الترحيلات في القرن السادس عشر، وزادت كثيراً من عدد الجالية الأرمينية في العاصمة العثمانية.

الملة الأرمينية

في نهاية القرن الثامن عشر، كان العثمانيون قد نظموا بالكامل ما كان الفاتحون العرب قد أسسوه بشكل غير محكم في الشرق الأوسط منذ قرون. أي تنظيم الشعوب المختلفة الخاضعة لإمبراطوريتهم ليس إلى جماعات سياسية أو عرقية، ولكن إلى طوائف دينية. وبهذا تم تجميع الإغريق (الروم) واليهود والأرمن في طوائف منفصلة سُميت "المِلَل"، كل ملة منها تحت إشراف قائدها الديني الخاص بها. وفي النهاية قصرت كل جماعة نفسها على الحي الخاص بها في إسطنبول وغيرها من المراكز الحضرية. وقد رفض الباحثون المحدثون أن يكون نظام الملل قد ظهر كمؤسسة كاملة التنظيم في القرن الخامس عشر أو بعد سقوط إسطنبول مباشرة. ويبدو من المؤكد الآن أن العثمانيين لم تكن لديهم سياسة متسقة تجاه غير المسلمين حتى ما بعد ذلك بكثير، وأن نظام الملل نشأ بشكل تدريجي. ونادراً ما استخدم العثمانيون مصطلح "ملة" حتى أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر، عندما استخدموه أساساً لوصف الجاليات الإغريقية والأرمنية واليهودية.

وألقى الباحثون المحدثون أيضاً بالشك على أن السلطان محمد الثاني كان له دور في إيجاد منصب البطريرك الأرميني للقسطنطينية. وكان المعروف أن السلطان في عام 1461م قام بتعيين الأسقف هوفاكيم من بورسا Hovakim of Bursa كأول بطريرك للأرمن في الإمبراطورية العثمانية. ولكن الواقع أن ظهور بطريرك أرميني في إسطنبول كان فيما يبدو عملية حدثت على مدى أطول. فحتى الربع الأول من القرن السادس

عشر. كان مقر الكرسي المقدس في إتشميادزين خارج حدود الإمبراطورية العثمانية. في منطقة مجاورة معادية، ولهذا فقد اعترف السلطان محمد الثاني بالأسقف الأرمني للقسطنطينية كقائد للآرمن الموجودين في تلك المدينة والمناطق المحيطة بها. وعقب ذلك، ولأن الإيرانيين كانوا متسامحين وكرماء نحو الهيئة الدينية الأرمنية، وخشية نفوذ إتشميادزين الموالية لإيران على أرمنية الغربية أو التركية، فإن السلاطين العثمانيين اللاحقين لم ينقلوا فقط كثيرًا من الأرمن من الدواخل إلى إسطنبول، ولكن أيضًا منحوا الأسقف الأرمني سلطة خاصة. وبهذا كان العثمانيون يأملون في ضمان ولاء الأرمن وإضعاف إتشميادزين في الوقت ذاته.

وفيما بعد، قامت جاليات أرمنية أخرى، مثل جالية أرضروم، بتأسيس أسقفيات ذات مكانة مماثلة. ولهذا فإن الأسقف الأرمني في إسطنبول لم تكن له سلطة في البداية على كل الأرمن في الإمبراطورية العثمانية. كان لبطريك الكنيسة الأرمنية في سبسي السلطة على الأرمن في قيليقية؛ وأسقف أغممار على أرمن قان والمناطق المحيطة بها، وكان لبطريك القدس السلطة على الأرمن في الأراضي العربية. ولكن بدخول القرن التاسع عشر، ونتيجة للتنافس بين أكثر من جاثليقوسية، ونهضة النخبة الأرمنية ذات النفوذ المالي (الأمرء)، وقيام الكاثوليك الأرمن وغير الأرمن بتأسيس مدارس، ودخول إتشميادزين في المنطقة الروسية، قام كبير الأساقفة الأرمني (archbishop) في إسطنبول بتولي السلطة القائمة في الواقع على كل الأرمن الرسوليين في الإمبراطورية العثمانية، وهكذا تم تأسيس بطريركية منفصلة، لها امتيازاتها السياسية والدينية. وقد شعر العثمانيون براحة كبيرة في التعامل مع منصب أكليركي أرمني. ليس مضطرًا للرجوع إلى المقر الجاثليقي أو أية سلطة أخرى للكنيسة الأرمنية. والواقع أن الجثالقة الأرمن في إتشميادزين وسبسي وأغممار، وبطريك القدس، كانت لهم سلطة أعلى في المسائل الدينية. لكن الوضع السياسي والمالي والجغرافي للقسطنطينية جعل البطريرك الأرمني شخصية تحظى بمكانة هائلة بالفعل.

ووفقًا للتفسيرات الأقدم، فإن العثمانيين قسموا المسيحيين بعد سقوط القسطنطينية إلى جماعتين رئيسيتين: القائلون بالطبيعتين، والذين جعلوا تحت سلطة البطريرك اليوناني، والقائلون بالطبيعة الواحدة، والذين وضعوا تحت سلطة البطريرك الأرمني. وهكذا، رغم

احتفاظ الكنائس الأرثوذكسية المتعددة في البلقان، مثل الكنيسة الصربية، ببعض الاستقلالية. فقد أصبحت تحت السلطة التشريعية للبطريرك الإغريقي للقسطنطينية؛ وأخضعت الكنائس اليقوبية المستقلة: القبطية والأثيوبية والسريانية عملياً للبطريرك الأرمني. وقد اعترض المؤرخون على هذه الفكرة أيضاً. ويبدو من المؤكد الآن أنه رغم بذل بعض المحاولات في هذا الاتجاه، فقد ثبت عدم جدواها. وعلى أية حال، في أواخر القرن الثامن عشر كانت الكنائس الأرثوذكسية والشرقية المختلفة قد أصبح لها سيطرة كاملة على مؤسساتها الدينية. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهرت ملتان جديدتان أيضاً. هما الكاثوليكية والبروتستانتية. نتيجة أنشطة الإرساليات المسيحية وضغوط حكومات هذه الإرساليات.

كانت الملة في الواقع ذاتية الحكم؛ إذ كان مسموحاً لها دائماً بالاحتفاظ بمؤسساتها الخاصة، مثل: المدارس والجمعيات الخيرية والمستشفيات. وكانت مسئولة أيضاً عن القانون والنظام وعن حل النزاعات داخل الجالية. وقد وافق السلطان على البطريرك الأرمني، فمارس سلطته الكاملة على شعب جاليته. وكانت له محكمته الخاصة واستطاع تنفيذ العدالة المدنية والدينية بين أفراد جاليته. كما كان يحتفظ بقوة شرطة صغيرة. وكذلك سجن. وبهذه الطريقة تمكن الأتراك، الذين كانوا أقلية في بعض أجزاء إمبراطوريتهم، من حفظ النظام بالسماح للجماعات الإثنية، التي احتلوا بلادها بالتمتع ببعض الاستقلالية وبإعطاء القادة الدينيين سلطات إدارية أكبر مما كانوا يتمتعون به تحت حكمهم السابقين. ولكن رغم كل شيء كان الأرمن والمسيحيون الآخرون شعوباً مهزومة. وعملوا على هذا الأساس. كانت أوضاعهم، خاصة في المناطق الداخلية النائية عن الشواطئ، هي وضعية "الرعية"، أي "المواطنين دافعي الجزية". وعلى سبيل المثال، حتى القرن الثامن عشر، فرض العثمانيون على القرى المسيحية، ومن ضمنها الأرمنية (كما وصف ذلك الشاعر الأرمني ثاديوس السيباستي Thaddeus of Sebastia)، على "الدفشمة" أو اختيار مجموعة من الشباب يتم تربيتهم كمسلمين، ويُدْرَجون إما في جنود الإنكشارية (المشاة المدربون على استخدام الأسلحة النارية). أو في الإدارة الحكومية. ولم يكن مسموحاً للأرمن، مثل غيرهم من غير المسلمين، بحمل السلاح، ولهذا تم إغناؤهم من الخدمة العسكرية. وكان مطلوباً منهم عادة أن يدفعوا ضريبة الرؤوس (الجزية) ونادراً ما كانت تقبل شهادتهم أمام المحاكم الإسلامية. وأخيراً، كان على الأرمن في الأناضول أن

يوفروا أماكن إقامة شتوية لأسراب الأكراد والبدو الرُّحل. الذين شجعهم العثمانيون على الانتقال من مراعيهم التقليدية إلى هناك. أو من الذين أقاموا في المناطق التي هجرها الأرمن. وفي أحسن حالات الدولة العثمانية. في عصرها الذهبي. كان نظام الملة يُعدُّ غير المسلمين بمعاملة أفضل وأكثر عدلاً مما كانت تتمتع به الشعوب المهزومة أو غير المسيحية تحت حكم الأوروبيين. أما في أسوأ حالاتها. في فترات الاضمحلال وسقوط الإمبراطورية. فقد خضعت الأقليات المسيحية للاغتصاب والمذابح.

وما أن بدأ السلاطين العثمانيون يفقدون التحكم الصارم في الأناضول. وبدأت غارات الأكراد وثورات الشيعة تخلق أحوالاً من عدم الاستقرار هناك. راح المزيد من الحرفيين الأرمن يجذبون إلى إسطنبول. وشجع عدد من السلاطين أيضاً الأرمن على الانتقال للإقامة هناك. ونتيجة لذلك وصل عدد السكان الأرمن في العاصمة العثمانية عند نهاية القرن التاسع عشر إلى 250 ألف نسمة. وبذلك كان بالمدينة أكبر جالية أرمنية في العالم. وتقول بعض الروايات أن البطريرك الأرمني أصبحت له مكانة مهمة وسلطة رسمية قوية. ولكن عندما بدأت الإمبراطورية العثمانية تضمحل. أصبح استقرار منصب البطريرك مهدداً كذلك. ورغم أن ستة عشر بطريركاً فقط شغلوا المقعد من عام 1461 إلى عام 1600م. فقد شغله أربعة وخمسون بين عامي 1600 و 1715م. وإذا انتشرت الرشوة والفساد والمحسوبية في كل مستويات المجتمع العثماني. سقطت البطريركية تحت نفوذ جماعات المصالح الكنسية.

الأمرء

وبحلول القرن الثامن عشر. عاد بعض الاستقرار إلى منصب البطريرك. وليس من قبيل المصادفة أن ظهرت في الفترة نفسها جماعة قوية من الصيارفة الأرمن. الذين عُرفوا بالأمرء. استطاعت هذه القلة غير الرسمية أن تصبح ذات نفوذ بإقراض الأموال للوزراء والباشوات والملتزمين وغيرهم. ممن كانوا بحاجة لشراء مناصب تدر دخلاً. بل إن بعضاً من أغنى الأمرء كانوا يقرضون نقوداً للسلطان. وبهذا كان لهم نفوذ كبير في البلاط. وإذا كان هؤلاء الأمرء من جماعات النخبة. فقد سُمح لهم بارتداء ثياب مخصصة فقط للنبلاء العثمانيين. وبركوب الجياد. وكان كلا الأمران من الامتيازات الممنوعة غالباً على غير المسلمين. وقد دعم هؤلاء الأمرء أعمال البر. ومولوا تعليم

الكثيرين ممن سيصبحون فيما بعد من أهم الزعماء الأرمن. وقد ذكر أحد المؤرخين حوالي 166 أميرًا ينتمون إلى 77 عائلة مختلفة.

شغل أعضاء عائلات الأمراء دوزيان Duzian وبالبيان Balian وداديان Dadian. بالترتيب، مناصب مدير دار سك العملة السلطانية، وكبير المهندسين السلطانيين، والمشرف على مصنع البارود، وبفضل ثرائهم ووضعهم في البلاط. كان للأمراء نفوذ عظيم في شؤون الملة الأرمنية وانتخاب البطريرك، وغالبًا ما كان الأمراء يتشاورون مع التجار والمتقنين الأرمن، ولكن بشكل عام، وحتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، كانت سلطتهم على الملة الأرمنية مساوية لسلطة البطريرك نفسه، وأحيانًا تفوقه.

المخيتاريون

قبل أواخر القرن الثامن عشر، اقتصرَت الأنشطة الأدبية الأرمنية في العالم العثماني على الأديرة مثل دير ليم Lim على بحيرة فان، أو الصليب المقدس في القرم. كُتبت أعمال صغيرة على أيدي فلاسفة ومؤرخين وشعراء مثل نيرسيس من موك Nerses of Mook، وديفيد من بيتليس David of Bitlis، وفاردان من كافا Vardan of Kaffa، وهاكوب من كارين Hakob of Karin. ورغم أن المطبعة الأرمنية كانت تعمل في الإمبراطورية العثمانية عند نهاية القرن السادس عشر، فإن قرنين من الحروب وإساءة معاملة الأرمن على أيدي الحكام المحليين في الأناضول قد أديا إلى تدهور حاد في التعليم. فلم تنشر إلا كتب قليلة، وكلها دينية. وأقدم دليل على تجدد نشاط ثقافي أرمني بدأ في القرن السابع عشر. ومن بين الشعراء الذين ذكرهم مؤرخو الأدب شعراء مثل غازار السيباستي Ghazar of Sebastia وديفيد من سالازور David of Salazor. لكن أهم مثقفي أرمنية في تلك الفترة هو إرميا تشيلبي كيمورجيان (1637-1695م) Eremia Chelebi Kiumurjian، الذي أسس مطبعة لم تستمر سوى فترة قصيرة في 1677م. ومن أعماله المهمة كتابه تاريخ القسطنطينية History of Constantinople، والذي كُتب باللهجة الأرمنية التي يتكلمها الأرمن في إسطنبول. ولقيت محاولاته لإصلاح الكنيسة الأرمنية مقاومة من رجال الدين وأثارت الاستياء بين العناصر التقدمية التي، في المقابل، أدت بشكل غير مباشر إلى تأسيس الأخوية المخيتارية Mkhitarist order.

ولد الأب مختيار Abbot Mkhitar في سيباستيا (سيفاس Sivas) عام 1676م. وبعد الالتحاق بالكهنوتية الرسولية الأرمنية، سافر إلى أرمينية الغربية واقتنع بأن التعليم الأرمني قد تدنى إلى أحط مستوياته في أرض الوطن، فسمى لتأسيس أخوية دينية تلبى الحاجات الروحية والثقافية لبني جنسه. لكنه لقي صدمًا من رجال الدين الأرمن. وبعد لقاء عدد من رجال الإرساليات اللاتينية، شعر بأن الكنيسة الغربية تمتلك الأدوات الضرورية والدعم لمهمته. وبعد أن تحول إلى الكاثوليكية في حلب عام 1695م، أسس مختيار أخوية كهنوتية جديدة في إسطنبول مع عشرة أعضاء في الثامن من سبتمبر 1701م. وأكد مختيار أنه من الممكن التمسك بالسلطة البابوية، مع البقاء مخلصًا للامة الأرمنية. لكن أنشطته لم تغضب البطريركية الأرمنية فقط، بل أيضًا الإرساليات اللاتينية التي رأت أنها غير مستحبة. والذين لم يقبل أحد منهم ولاءه المزدوج. وأجبر المختاريون على الرحيل إلى المورة في اليونان، والتي كانت في ذلك الوقت تحت حكم البندقية.

وفي عام 1705م رفع المختاريون التماسًا للبابا كليمنت الحادي عشر (1700-1721م) للاعتراف بأخويتهم. لكن الفاتيكان - الذي كان معنيًا بالإشاعات التي تنشرها الإرساليات الكاثوليكية - التي يوجهها مجمع التبشير، والتي اتهمت مختيار بالتلاعب بشعائر الكنيسة الكاثوليكية. أحرّ الاعتراف بهذه الأخوية حتى عام 1712م. وفي سنة 1715م، استولى العثمانيون على المورة، ودمروا دير المختاريين، وأجبروا الكهنة على الرحيل إلى البندقية. وبعد الاقتراع، وافق مجلس شيوخ البندقية على منح الأخوية جزيرة سان لازارو، التي كانت في السابق مستعمرة للجذام. وفي 8 سبتمبر من عام 1717م، بعد ستة عشر عامًا من تأسيس الأخوية، انتقل المختاريون إلى هناك. وفي 1718م، سافر مختيار إلى روما للدفاع عن أخويته ضد الإشاعات المستمرة. ونجح في إقناع الفاتيكان باستقامة معتقداته، وكرس بقية حياته للأنشطة الدينية والثقافية. وتوفي مختيار في سان لازارو في 27 إبريل 1749م. وفي 1773م، ترك عدد من الآباء المختاريين المتمردين البندقية، وفيما بعد أسسوا فرعًا منفصلًا من الأخوية عام 1803م في تريست. وبعد غزو نابليون لإيطاليا، هربوا إلى فيينا، حيث أسسوا مركزًا جديدًا عام 1811م.

كان المخابراتيون معنيين بشدة بالحفاظ على الثقافة الأرمنية. وكذلك بإحياء دراسة التاريخ الأرمني واللغة الأرمنية. وتمكنوا من أن يفعلوا أكثر من أية مؤسسة أرمنية أخرى لتحقيق هذه الغاية. فقد ترجموا الكلاسيكيات الأوروبية إلى الأرمنية. وبدأوا كتابة الأعمال الأدبية والتاريخية واللغوية والدينية. مستخدمين مصادر باللغات اللاتينية والإغريقية واللغات الأخرى. ونتج عن مجهودات الآباء تشامشيان (1738-1823م) Chamchian. وأفيتيكيان (1751-1827م) Avetikian. وبجراتوني (1790-1866م) Bagratuni. وأيتنيان (1824-1902م) Aytinian، وميناسيان (1799-1866م) Minasian. وأليشان (1820-1901م) Alishan، أعمالاً في القواعد اللغوية ومعاجم وكتباً تاريخية ومسرحيات وأعمالاً لغوية وجغرافية ولاهوتية عديدة. وتمكن المخابراتيون، بمساعدات مالية من الأرمن الإيرانيين وبخاصة التجار الأرمن الهنود، من تأسيس المدارس وإصدار دوريتين، هما بازماقيب Bazmavep، التي طبعت في البندقية اعتباراً من عام 1843م فصاعداً، وهانديس أمسوريا Handes Amsoreay، والتي طبعت في قيينا اعتباراً من سنة 1887م. وركز رجال الأخوية في البندقية مجهوداتهم على التاريخ والأدب الأرمنيين. بينما ركز كهنة قيينا على اللغة الأرمنية وفقهها. واستطاع المخابراتيون، ليس فقط تعريف أوروبا بالماضي الأرمني، ولكن أعمالهم أيضاً وجهت الفكر الغربي إلى الأرمن في الإمبراطوريتين العثمانية والروسية. ولعبت دوراً مهماً في تشكيل الإحياء الثقافي الأرمني في القرن التاسع عشر. وظلت الأخويتان المخابراتيتان في كل من البندقية وقيينا نشطتين في القرن العشرين وتوحدتا في أخوية واحدة عام 2000م.

المسألة الشرقية

منذ القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر، كان العثمانيون هم السادة بلا منازع لجزء كبير من أوروبا الشرقية والوسطى (انظر خريطة 20). وفي نفس الوقت، أكمل التوزاق العملية الطويلة من احتلال السلافيين لأراضي المراعي شمال البحر الأسود، وحولوا منطقة الدون إلى قاعدة عسكرية ستقوم روسيا بالتوسع منها شرقاً حتى البلقان. وبمرور الوقت، كانت هذه التصرفات من حكام روسيا ورجال دولتها مما شجع الشعوب السلافية والأرثوذكسية في شرق أوروبا، فبدأت تنظر إلى روسيا باعتبارها

المحرر من الحكم العثماني. وفي القرن السابع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية قد بدأت اضمحلالها التدريجي بعد موت السلطان سليمان (1566م). فعانت سلسلة من الهزائم أمام النمسا وپولندا وروسيا. وحاول بعض رجال الدولة العثمانية، خاصة الوزراء من عائلة كوپرولو Koprulu، أن يحولوا اتجاه المد، لكن فشلهم في أخذ قبينا بعد شهرين من الحصار عام 1683م. كان إيذاناً بنهاية التفوق العثماني. وفي بداية القرن الثامن عشر، نتج عن معاهدي كارلوفيتز (1699م) Karlowitz وپاساروفيتز Passarowitz (1718م) أن خسر العثمانيون لأول مرة مناطق واسعة في أوروبا؛ إذ استولت النمسا على المجر وترانسلفانيا وكرواتيا وسلوفينيا؛ وحصلت بولندا على بودوليا؛ وتقدمت روسيا حتى البحر الأسود. ونجا العثمانيون من تكبد مزيد من الخسائر؛ بسبب الخلافات بين الأوروبيين في المقام الأول، ومساندة فرنسا لهم في المقام الثاني.

وشهد القرن الثامن عشر عدداً من الحروب بين روسيا وتركيا. نجح فيها بطرس الأكبر (1689-1725م) Peter the Great، وكاثرين العظمى (1762-1796م) في توسيع النفوذ الروسي إلى البلقان وما وراء القوقاز. وأعاق محاولة النمسا لانتهاز الفرصة أو إيقاف التوسع الروسي انشغالها بروسيا. القوة الصاعدة في وسط أوروبا. ورغم خشية النمساويين من امتداد النفوذ الروسي إلى البلقان. فقد اضطروا للتعاون مع كاثرين خوفاً من أن تتحالف مع بروسيا ضدها. وكانت حرب كاثرين الأولى مع العثمانيين (1768-1774م) قد نتج عنها انتصارات كبيرة برًا وبحرًا. وسعت كل من ماريا تريزا (1740-1780م) ملكة النمسا، وفريدريك الأكبر (1740-1786م) ملك بروسيا، وكلاهما كان قلقاً من انتصارات روسيا، سعياً إلى إيقاف تقدمها. وفي عام 1772م، اتفقا مع روسيا على تقسيم بولندا. ورغم الضغوط التي مارسها الألمان. رفضت كاثرين إنهاء الحرب مع العثمانيين حتى عام 1774م. عندما أجبرتها ثورة البيوجاتشيف Pugachev في روسيا (1772-1774م) على التوصل إلى اتفاق.

وفي معاهدة كوتشوك كاينارجا (1774م) Küçük Kaynarga حصلت روسيا ليس فقط على عدد من القلاع في القرم وحرية الملاحة لسفنها التجارية في البحر الأسود، ولكنها أيضاً بفضل هذه المعاهدة ضمنت استقلال تتار القرم عن السيادة العثمانية.

والأهم من ذلك، أن العثمانيين وعدوا بمنح درجة أكبر من الحكم الذاتي لأهل مولدافيا ووالاتشيا (رومانيا الحالية)، مما فتح الطريق أمام روسيا للتدخل بالنيابة عنهم. وعلاوة على ذلك، وافق العثمانيون على حماية المسيحيين الأرثوذكس. وأن يسمحو ليس فقط بأن تبني روسيا كنيسة في إسطنبول. ولكن أيضاً أن يمنحوها امتيازات خارج أراضيها. وبذا، أمدت معاهدة كوتشوك كاينارجا روسيا بذريعة لكل تدخلاتها المستقبلية في البلقان. وكان تفسير الروس للمعاهدة يُعطيهما الحق في الدفاع عن قضية الأقليات السلافية والأرثوذكسية التي تعيش داخل الإمبراطورية العثمانية. ولم يوافق العثمانيون والقوى الغربية، خاصة بريطانيا، على هذا التفسير. فقد شعروا أن المعاهدة أعطت روسيا فقط الحق في كنيسة بإسطنبول، وأن بقية المواد الخاصة بالأقليات كانت غامضة للغاية.

كانت مشكلة كيف يتم التعامل مع النهوض المتنامي للقومية البلقانية والتنافس والرغبة التوسعية لروسيا والنمسا في المنطقة. وكيف يتم قياس التأثير المحتمل لذلك على الإمبراطورية العثمانية. أصبحت هذه المشكلة معروفة بـ "المسألة الشرقية". وكما اعتقد الكثيرون، إذا كان قد أن الأوان لموت "رجل أوروبا المريض". كما أصبحت الإمبراطورية العثمانية معروفة في القرن التاسع عشر، فبأية طريقة يمكن تقطيع أوصاله. دون أن يتغير توازن القوى في أوروبا والسبب في حرب بين كل دول أوروبا؟ ولأكثر من مائة عام، ظلت المسألة الشرقية في عقول السياسيين. الذين وضعوها في اعتبارهم في كل مؤتمر كبير وكل معاهدة. ونتج عن الفشل في حلها اغتيال الأرشيدوق فرديناند النمساوي في سراييفو (1914م)، والذي أطلق شرارة الحرب العالمية الأولى، ودمر الإمبراطوريات العثمانية والروسية والألمانية والنمساوية. المجرية.

ورغم أن المسألة الشرقية كانت تخص البلقان في الأساس. فإن اهتمام بريطانيا الشديد بالهند ومصر والخليج العربي أجبرها على تأييد الأتراك ضد التوسع الروسي في البحر المتوسط. وما هو أكثر، فقد كانت بريطانيا تشعر بخوف من حركة روسيا نحو وسط آسيا، وهي المنطقة التي كانت تربط بشكل غير مباشر المسألة الشرقية بـ "اللعبة الكبرى"، كما أصبح يُطلق على التنافس الروسي البريطاني في الشرق. كانت كل هذه المكائد السياسية لها عواقب هائلة، في بعض الأوقات، على مصير الأرمن.

عقب معاهدة كوتشوك كاي نارچا، فضلت النمسا تأخير أو رصد التوسع الروسي من خلال سياسة من التعاون. أملاً في عزل بروسيا. وفي 1781م ناقشت كاترين وجوزيف الثاني ملك النمسا (1780-1790م) ”مكيدة اليونان“ والتي كانا يأملان من ورائها في إخراج العثمانيين من أوروبا. ووفقاً لهذه الخطة، سوف تضم النمسا النصف الغربي من البلقان. بينما تأخذ روسيا بقية البلقان. وبذلك تستعاد الإمبراطورية البيزنطية. عندما يتم تنويع حفيد كاترين، قسطنطين، كإمبراطور جديد في إسطنبول.

ضمت كاترين القرم عام 1783م، وبعد عدة سنوات بدأت حربها الثانية مع العثمانيين (1787-1792م). وكانت النمسا وبروسيا حينئذ في حالة قلق بسبب الثورة الفرنسية. فسيتم إلى كيج توسع كاترين إلى شرق أوروبا. وبدأت بروسيا تتحرك نحو بولندا، وقامت النمسا بعمل سلام منفصل مع العثمانيين. وأجبرت روسيا على توقيع معاهدة جاسي Treaty of Jassy (1792م)، والتي لم تحصل من خلالها إلا على منطقة صغيرة. وبعد عام. أي في 1793م. وقعت روسيا وبروسيا اتفاقية التقسيم الثاني لبولندا، وبحلول عام 1795م. أنهيت استقلال بولندا بتقسيم ثالث لذلك البلد.

إصلاحات سليم الثالث وعصر التنظيمات (1789-1876م)

بينما هزت الثورة الفرنسية أوروبا بعنف، بدأ بعض القادة العثمانيين، تحسباً للتهديدات الخارجية. التفكير بجدية في إصلاح بنية بلادهم، التي كانت في يوم من الأيام إمبراطورية عظيمة. كان الحكام المسلمون المحليون، أو ”بكوات الوديان“ dercays، يحكمون أجزاء كبيرة من الأناضول، وكان سكان البلقان المسيحيون في تمرد مستمر: نتيجة إرهابهم بسبب ابتزاز الموظفين العثمانيين، بالإضافة إلى تشجيع روسيا لهم. وكانت الإنكشارية التي أثارت الخوف من قبل قد أصبحت جنوداً غير أكفاء يقومون بالجري وراء المصالح بدلاً من الانشغال بالحرب. ولذا، قاوم الإنكشارية ومعهم القادة الدينيون المحافظون أي تحديث للإمبراطورية، باللجوء إلى عزل أو قتل السلاطين الذين يفضلون هذا الاتجاه.

وفي السنة نفسها التي بدأت فيها الثورة الفرنسية، تولى سليم الثالث (1789-1807م) عرش الدولة العثمانية. وشعر في البداية، مثل بعض من سبقوه، أن الإمبراطورية يمكن

إنقاذها إذا أعاد تأسيس نظامها السابق. وباستثناء الأسلحة الحديثة. لم تكن هناك حاجة للتحديث؛ فالحكومة عليها مجرد إنهاء الإساءة والتعسف وقلة الكفاءة. ولكن بعد معاهدة جاسي، تحقق سليم من ضرورة عمل إعادة تنظيم أكثر عمقاً. فأعاد بناء قوة عسكرية صغيرة وفعّالة، سُميت ”نظامي جديد“. والتي تم تشكيلها على الطريقة الأوروبية. وأحيا أيضاً الأسطول العثماني، وأسس العديد من المصانع الجديدة لصناعة الأسلحة والبارود. ورغم أن إصلاحاته الإدارية والمالية والقضائية نجحت جزئياً على أكثر تقدير. فإنها فتحت الباب للأفكار والمؤسسات الغربية. ووضعت أساس تحديث تركيا.

وما أن حل القرن التاسع عشر. حتى كانت التغييرات الاجتماعية. السياسية التي أدخلها التنوير والثورة الفرنسية قد تغلغت في الإمبراطورية العثمانية. من خلال دخول المطبعة ووصول المستشارين الأوروبيين في التجارة والتقنية. ومن المفارقات أن الأقليات المسيحية. خاصة تلك الموجودة في البلقان. كانت أول من استفاد من تلك التغييرات: فقد استورد تجارهم الأفكار الجديدة إلى شرق أوروبا، بينما تسبب شتاتهم في تشجيع وتمويل الأنشطة الثقافية والثورية. رحب معظم المثقفين في البلقان بالقومية الثقافية لوضعي النظريات الأوروبية في القرن الثامن عشر. مثل: هرردر Herder وفيخته Fichte. وبدأت اللغات العامية من خلال الإحياء الأدبي تصبح هي الوعاء الأدبي الجديد بدلاً من اللغات الكلاسيكية. وهكذا تم التعبير عن الوعي القومي للأقليات العرقية، أولاً من خلال إحياء أدبي، ثم بعد انتشار الأفكار الثورية لنابليون من خلال الثورات ومطالب الحكم الذاتي والاستقلال. ونتيجة النفوذ السياسي والديني الروسي، نهضت بعض الجماعات، مثل الصرب واليونانيين. والرومانيين وسكان الجبل الأسود، ونالت هذه الجماعات الاعتراف بها في النصف الأول من القرن التاسع عشر. بينما بدأت جماعات أخرى، مثل البلغاريين والأرمن والعرب. نهضتها السياسية في أواخر ذلك القرن. ولكن بعض الجماعات الأخرى، مثل المقدونيين والألبان وأخيراً الأكراد، لم تعبر عن مطالبها الثورية إلا في أوائل القرن العشرين.

وفي الوقت نفسه، أنقذت حملات نابليون في أوروبا العثمانيين من المزيد من اعتداءات روسيا والنمسا. كما كانت هزيمة نابليون ومؤتمر فيينا عام 1815م، مما ساعد العثمانيين أيضاً، فقد وافقت القوى الأوروبية في رد فعل محافظ على الأفكار الثورية الفرنسية على

الاحتفاظ بوضعها القائم لقمع أية ثورات مستقبلية في أوروبا. ونتيجة لذلك، استطاع رجل الدولة الإنجليزي كاسلريج Castlereagh، ونظيره النمساوي ميترنينخ Metternich، إقناع القيصر الروسي ألكسندر الأول (1801-1825م) بعدم تدخل روسيا في ثورة الصرب (1815-1817م)، أو المرحلة الأولى من حرب اليونانيين من أجل الاستقلال، والتي بدأت عام 1821م. وفي الوقت نفسه، فإن تلك الثورات، وكذلك التصرفات الاستقلالية التي قام بها محمد علي باشا، الحاكم العثماني لمصر، أوضحت تمامًا للسلاطين الحاجة الملحة لإصلاحات جادة في الإمبراطورية العثمانية. ورغم قيام عناصر رجعية باغتيال سليم الثالث، فإن السلطان محمود الثاني (1808-1839م) ألقى أخيرًا الإنكشارية عام 1826م، وبدأ تشكيل جيش حديث تمامًا بمساعدة أوروبية.

ورغم أن القيصر الروسي الجديد، نيكولاس الأول (1825-1855م)، كان أوتوقراطيًا محافظًا، فإنه كان أيضًا مدافعًا عن الأرثوذكسية الروسية، ومتعاطفًا مع مسيحيي البلقان. وأخذ موقفًا أكثر حدة ضد العثمانيين، وفي عام 1828م بدأ حربًا ضدهم. وبعد عام، أبرمت معاهدة أدرنة Adrianople (وهي أدرنة Edirne الحالية)، والتي حصلت روسيا بموجبها ليس فقط على معظم جورجيا الغربية، ولكنها أيضًا منحت مولدافيا ووالاشيا استقلالاً ذاتيًا. وبعد بضعة أشهر، أي في 1830م، وبفضل المساعدة الروسية تمكنت اليونان، التي اجتذبت تعاطف كثير من الأوروبيين الليبراليين، من الحصول على استقلالها أيضًا. وبعد سنوات، زادت روسيا من نفوذها في البلقان، عندما قررت أن تساعد العثمانيين ضد غزو محمد علي لسوريا واتجاهه نحو آسيا الصغرى. وبمعاهدة أونكيار سكيليسي (1833م)، أصبحت روسيا حامية للسلطان في مقابل إغلاق المضائق. مضيق البوسفور الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمر، ومضيق الدردنيل الذي يصل بحر مرمر ببحر إيجه. أمام جميع السفن الحربية ما عدا الروسية منها.

لم تقبل بقية بلدان أوروبا، بقيادة بريطانيا، هيمنة روسيا على المنطقة. ومن أجل تحسين صورة الأتراك، وفي الوقت نفسه إضعاف الدور الروسي كحام للمسيحيين المضطهدين في البلقان، أقتع البريطانيون العثمانيين بإصدار مرسوم بالإصلاحات، وبالفعل، في 1839م قام السلطان عبد المجيد الأول (1839-1861م)، بناء على نصائح

بعض رجال الدولة، الذين كانوا يؤيدون الإصلاحات الغربية، بإصدار ”حظ شريف-جولخانه“⁽²⁾، والذي كفل حياة جميع الرعايا وحريرتهم وممتلكاتهم. ووعده بإصلاحات ضريبية وعسكرية، وإدارة مركزية، ومجلس للأعيان، وتأسيس مجالس محلية. وقضاء مختلط دينياً، وكليات تقنية. والواقع أن هذا المرسوم قد حقق بعض هذه الإصلاحات وأدخل البلاد في مرحلة «التنظيمات». التي استمرت حتى عام 1876م.

ورغم أن مواد المرسوم كانت تختلف مع التقاليد. ولقيت معارضة بشكل عام من الزعماء الدينيين المسلمين، فإنها لم تُطبق بناء على القانون، وإنما فرضها السلطان، الذي كان يستطيع إلغاءها حسب إرادته. والأكثر أهمية، أن وعد الإصلاح مكن العثمانيين من معارضة المطالبات الروسية في البلقان، وفي عام 1841م. عندما انتضى أمد معاهدة أونكيار سكيليسي، تم توقيع اتفاقية المضايق، والتي وقعتها القوى الأوروبية كلها، وكانت نتيجتها إغلاق المضايق أمام جميع السفن الحربية الأجنبية. وكان معنى ذلك في الواقع إنهاء نفوذ روسيا قصير العمر في الإمبراطورية العثمانية.

لم تكن الإصلاحات في مجموعها بعيدة الأثر، واستمرت الأقليات السلافية، التي أيقظها الإحياء الثقافي، وحظيت أحياناً بدعم روسيا، في المطالبة بالمزيد من التغييرات الحقيقية. وجاءت حرب القرم (1853-1856م) لتطيح بالسلام الوهمي. فقد بدأت الحرب ظاهرياً كنزاع بين الروس والفرنسيين على فرض الحماية على الأماكن المقدسة في القدس، لكنها كانت في واقع الأمر التحدي الأوروبي الموحد ضد مطالبات روسيا المستمرة القائمة على معاهدة كوتشوك كاينارجا.

ورغم أن القوات الروسية كانت منتصرة في الأناضول، فإن هزيمتها في القرم دفعت القيصر الجديد، ألكسندر الثاني (1855-1881م)، للسعي إلى السلام. وفي معاهدة باريس (1856م) تم السماح للعثمانيين أخيراً بدخول «الوفاق الأوروبي»، بينما كان على روسيا أن تعيد المناطق التي استولت عليها في أرمينية الغربية، وأن تفكك حصونها

(2) Hattı Şerif Gülhane: مرسوم أصدره السلطان العثماني عبد المجيد في 1839م. استهل به مرحلة التنظيمات. أو فترة الإصلاح وإعادة تنظيم الإمبراطورية العثمانية. صدر المرسوم بأمر رئيس الوزراء الإصلاحي مصطفى رشيد باشا. ووعده بإصلاحات مثل إلغاء ضريبة الزراعة، وإصلاح السخرة، ودرجة كبيرة من المساواة لأبناء الدبانات المختلفة. وكان هدف المرسوم تحديث النواحي العسكرية والاجتماعية للإمبراطورية حتى تستطيع منافسة القوى العظمى لأوروبا في ذلك الوقت. (المترجمة)

في البحر الأسود. ولكي يتم إيقاف أي تورط مستقبلي لروسيا في شؤون الأقليات في الإمبراطورية العثمانية، أجبر سفراء بريطانيا وفرنسا والنمسا السلطان عبد المجيد على إصدار مرسوم إصلاحى آخر («خط همايون» Hatt-ı Hümayun). وكفل المرسوم الجديد للرعايا المسيحيين تأمين الحياة والشرف والملكية وألغى الجزية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كبح بشدة السلطة المدنية لرؤساء الملل، وهو ما سيكون له وقع كبير على الجالية الأرمنية. وكفل المرسوم أيضاً الحرية التامة للاعتقاد، وأن يكون كل منصب مدني مفتوحاً أمام كل الرعايا. وأصبح المسيحيون مؤهلين للخدمة العسكرية، لكن مع منحهم حرية شراء الإعفاء. ومرة أخرى، أفادت الإصلاحات المراكز الحضرية الكبرى، ولم يكن لها تأثير أو كان تأثيرها ضعيفاً على أحوال الولايات.

الإحياء الثقافي الأرميني

بحلول القرن التاسع عشر، كان المؤرخون وعلماء الآثار والفنانون الأوروبيون قد بدأوا يظهرهم اهتماماً عميقاً بالثقافات الشرقية. فقد اجتذبت الثقافات البابلية والمصرية والفارسية والصينية والأرمنية المعجبين بها من الفرنسيين والألمان والإنجليز. وأصبح الاستشراق رائجاً، وراح الرحالة يزورون الشرق الأوسط وينتجون الكثير من الكتب المصورة عن رحلاتهم وتجاربهم هناك. وسهلت أنشطة المختارين دراسة التاريخ الأرميني واللغة الأرمينية في أوروبا. وقد درس الشاعر الإنجليزي لورد بايرون اللغة الأرمينية معهم في البندقية. وكتب الباحثون مثل لانجولا وبروسيه وهيوبشمان دراسات حول التاريخ الأرميني واللغة الأرمينية. وليس هذا فقط، بل قرر هيوبشمان أن اللغة الأرمينية فرع منفصل من شجرة اللغات الهندو أوروبية.

وثمة قوى أخرى كانت مسؤولة بشكل مباشر عن إيقاظ وعي الأرمن في الإمبراطورية العثمانية. ورغم أن أنشطة الإرساليات الكاثوليكية المبكرة واجهت مقاومة قوية من الكنيسة الأرمينية، فإن الإصلاحات التي جرت حتى القرن التاسع عشر أضعفت موقف زعماء الملل. وكسبت الدول الأوروبية تنازلات كبيرة ونفوذاً في الإمبراطورية العثمانية. فتحت الإرساليات الفرنسية والإيطالية، وكذلك الإنجليزيون والأمريكيون، إرساليات ومدارس ومنها مؤسسات للتعليم العالي في تركيا العثمانية. وأدى فشلهم في

تحويل المسلمين عن ديانتهم إلى تركيز مجهوداتهم على الأرمن والمسيحيين الآخرين. ورغم أن معظم الأرمن ظلوا ينتمون للكنيسة الأم مع الاستفادة بالتعليم الذي تقدمه الإرساليات، فإنهم قد تأثروا بالأفكار الأوروبية التقدمية. وازداد عدد الأرمن الكاثوليك نتيجة التأثير الفرنسي، ونتج عن ذلك تأسيس الملة الأرمنية الكاثوليكية في عام 1831م.

ووصلت الإرساليات الإنجيلية الأمريكية في أوائل القرن التاسع عشر. وبدأوا يطبعون الإنجيل باللغتين الأرمنية العامية والتركية. مع استخدام الحروف الأرمنية. وأرسلوا شخصيات تميز بالقدرة والالتزام مثل إيلي سميث. أحد أوائل الأمريكيين الذين زاروا أرمينية (1830-1831م). وويليام جودل. الذي افتتح مدارس في كل مدينة كبيرة من الأناضول وقيليقية؛ وبحلول أواسط القرن كان قد أسهم بتحويل أكثر من 8 آلاف أرمني إلى كنيسته. وفي سنة 1847م، تأسست الملة الأرمنية الإنجيلية نتيجة الضغوط الأمريكية والبريطانية. وكان تأثير هاتين الملتين منح الأرمن الكاثوليك والبروتستانت (وتعدادهم يصل اثنين أو ثلاثة بالمائة من تعداد الأرمن) فرصاً، ليس فقط في استكمال تعليم أعلى في بلادهم أو في الخارج. وفي الهجرة إلى أوروبا أو الولايات المتحدة. ولكن أيضاً أن يتمتوا في بعض الأوقات بحماية دبلوماسية من الأوروبيين أصحاب هذه المذاهب الدينية نفسها.

وفي الوقت نفسه، قامت الطبقة المثقفة الأرمنية في أزمير وهيئة رجال الدين في إسطنبول، بتأثير أنشطة المخياريين والجزويت، وكذلك بتأثير كتابات منتهى مدارس (انظر الفصل 14)، قاموا بتأسيس عدد من المدارس ومستشفيات وعشرة مطابع جديدة نشرت أعمالاً دينية وعلمانية. وقد مول الأمراء كثيراً من هذه المشروعات. ولعبت المدارس الأرمنية أيضاً دوراً حيوياً في النهضة الأرمنية.

أزالت إصلاحات سليم الثالث القيود الموضوعية على التعليم العام. وافتتح عدد صغير من المدارس الابتدائية التي تديرها الكنيسة الأرمنية في إسطنبول من عام 1790م إلى عام 1800م. وافتتحت مدارس للبنات بعد سنة 1820م. وأجبرت الكنيسة الأرمنية تحت ضغط التحديات، التي تواجهها من الإرساليات الكاثوليكية والإنجيلية على فتح مدارس أخرى كثيرة، ومنها كلية لمستوى أعلى من التعليم هي كلية جيماران في إسطنبول، التي افتتحت عام 1839م. وبفضل "التنظيمات". كان لدى إسطنبول وحدها، بحلول منتصف

القرن. ما يقرب من 5000 تلميذ أرمني في حوالي أربعين مدرسة وكليتين أرمنيتين. ودعمت الضرائب على الجالية. خاصة على الأغنياء، هذه المدارس. والتي كانت تتمتع بحرية خاصة. وأتاح حصول حوالي 24 طالباً على منح للدراسة في فرنسا كل عام.

وعند عودتهم. جاء هؤلاء الطلاب بالأفكار الأوروبية ونشروها من خلال التعليم والكتابة وإصدار الصحف. وبنهاية عصر التنظيمات (1876م). كانت المدارس الابتدائية والثانوية قد انتشرت في ولايات أرمنية الغربية الست: فان. بتليس. أرضروم. ديار بكر. خربوط. وسيفاس (انظر خريطة 21).

وفي الوقت نفسه. أسس الأرمن في أزمير كلية ميسروبيان Mesropian College. التي اجتذبت معلمين مثل ستيفان فوسكانيان (1825-1901م) Stepan Voskanian. الذي أثرى جيلاً كاملاً من المتعلمين بالأدب الفرنسي. وممن تخرجوا في الكلية أيضاً المترجم والروائي والصحافي ماتيوس ماموريان (1830-1901م) Matteos Mamurian. الذي فتح بعد دراسته في باريس مدرسة بأزمير عام 1851م. وفي سنة 1871م أصبح محرراً للدرورية الشهرية أريغاليان مامول Arevelian Mamul. ومن المعلمين المشهورين في تلك المدرسة أيضاً هوفهانيس الفاناندي (1772-1841م) Hovhannes of Vanand.

وكان معلمون آخرون ومترجمون ومحررو صحف مسؤولين عن بقية جيل كامل. ومن بين هؤلاء: جريجور پشتمالتشيان (1778-1837م) Grigor Peshtimalchian. الذي نشر عددًا من كتب القواعد اللغوية: وهوفهانيس تيروينتس (1888م) Hovhannes Teroyents (1801). الذي ترجم أعمال پاسكال وروسو. والذي كان يحرر الصحيفة الأسبوعية هاياستان Hayastan (أرمنية): وختشاتور ميساكيان (1815-1891م) Khachatur Misakian. الذي قام بالتدريس في كلية سكوتاري Scutari College. وانتخب فيما بعد في المجلس المَلّي الأرمني: ونهايت روزينيان (1819-1876م) Nahapet Rusinian. والذي كان هو وجريجور أوديان (1834-1887م) Grigor Odian من بين أولئك. الذين أعدوا مسودة الدستور المَلّي الأرمني (انظر فيما يلي): ونيقوغايوس زورايان Nikoghayos Zorayan (1821-1859م): وهاروتيون سفادجيان (1874-1931م) Harutiun Svadjian: وهوفسيب

شيشمانيان (دزيرنتس) (1822-1888م) Hovsep Shishmanian. والذين بالاشتراك مع الشاعر مكرتيش بشيكتاشليان Mkrtych Beshiktashlian. أسسوا الاتحاد القومي للثقافة والتعليم. وظهر أيضاً عدد من كبار مؤلفي المسرح: ومن بينهم هاكوب باروتيان (1843-1891م) Hakob Baronian وبيدروس توريان (1851-1872م) Bedros Turian. وظهر أيضاً عدد كبير من الشعراء والروائيين وكتاب المقالات. وكتاب القصة القصيرة. ومن بين هؤلاء ماتيوس ماموريان (1830-1901م) Matteos Mamurian. وسريوهي دوساب (1901-1841م) Grigor Zohrab. وجريجور زوهراب (1861-1915م) Grigor Zohrab: ويروخان (1870-1915م) Yerukhan: وأرتاشيس هاروتيونيان Artashes Harutiunian (1873-1915م): وروبين زارتاريان (1874-1915م) Ruben Zartarian: وميساك كويومدجيان (1877-1913م) Misak Kuyumdjian: وجيفام پارسيفيان Gegham (1883-1915م) Parseghian: ودانييل فاروجان (1884-1915م) Daniel Varuzhan: وتيجران تشوكيوريان (1884-1915م) Tigran Cheokiurian: وروبين سيفاج Ruben (1885-1915م) Sevag: وسيامانتو (1878-1915م) Siamanto: وهوفهانس هاروتيونيان (1860-1915م) Melkon Kiurchian: وميلكون كيورتشيان Hovhannes Harutiunian: وكثيرون آخرون. كانت أعمالهم تحاكي الأعمال القومية الرومانتيكية (1859-1915م): وكثيرون آخرون. وأدى مثل هذا النتاج الأدبي الهائل الذي قدمه رجال ونساء إلى ظهور الزارتونك zartonk. أي النهضة أو الصحوة الثقافية للأرمن في تركيا العثمانية. التي استمرت طوال القرن التاسع عشر وانتهت بمذبحة الإبادة الأرمنية.

وأُتاحت إصلاحات 1839م ظهور أول دورية باللغة الأرمنية العامية عام 1840م. فجر أارات Dawn of Ararat، التي كانت تنشر في أزمير. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان كثير من الكتاب الأرمن، قد تبنوا اللهجة العامية السائدة في إسطنبول، متجاهلين تحذيرات الكنيسة والأساقفة المحافظين. ونمت بينهم اللغة الأرمنية الغربية المعاصرة، التي يتحدث بها الأرمن اليوم في معظم بلدان الشرق الأوسط وأوروبا والأمريكتين. ونشأ نوع من التنافس بين أزمير، حيث بدأت الصحوة الأدبية الأرمنية. وإسطنبول، التي اجتذبت مثقفي أزمير بمناخها الكوزموپوليتاني. وفي عام 1852م أسست

عائلة ديديان Dedeyan مطبعة جديدة في أزمير. والتي نشرت في خلال ثلاثة عقود حوالي 200 ترجمة إلى الأرمنية من الأعمال الرومانتيكية الفرنسية والإنجليزية والألمانية. تلك الأعمال التي أثرت بدورها في بعض الكُتَّاب الأرمين المذكورين آنفًا. كما تُرجمت التراجميات الكلاسيكية إلى الأرمنية أيضًا. وتم أداؤها على أول مسرح أسس في إسطنبول تحت إدارة مكرتيش بيشيكاتاشليان (1828-1868م) Mkrtich Beshiktashlian.

ولعبت الصحافة دورًا مهمًا في إحياء الثقافة الأرمنية. فقد أسس الأرمين أول جريدة تنشر في تركيا العثمانية عام 1812م. وبين عامي 1840 و1866م أسست أربع عشرة دورية أرمنية في إسطنبول. ومن أهم هذه الدوريات: ماسيس Masis. التي كان يرأس تحريرها جرابيد أوتوجيان Garabed Utudjian: وبي Bee. تحرير هاروتيون سفاچيان Harutiu Svajian: وصحيفة هايريك Fatherland. تحرير أربيار أربياريان Arpiar Arpiarian (1851-1908م). وكانت أهم الصحف في أرمنية الغربية صحيفتين أصدرهما خريميان Khrimian. والذي سوف يكون الجاثليق المقبل. وهما: نسر قاسبوراكان The Eagle of Vaspurakan. ونسر تارون The Eagle of Taron. وأصدرهما في فان وموش على التوالي. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لعبت هذه الدوريات. ودوريات أخرى عديدة بعضها أصبحت يومية. دورًا مهمًا في الصحوة السياسية للجماهير الأرمنية التي تقطن الأناضول.

الدستور الملى الأرمينى

على عكس المسيحيين في البلقان. لم يتمرد الأرمين أو يثيروا القلاقل ضد الباب العالي (وهو الاسم الذي كان يطلق على محل الإقامة الرسمي للصدر الأعظم ومقر الحكومة). وكان العثمانيون يفضلونهم. حيث نعتوهم بالملة "الصادقة". وفي منتصف القرن التاسع عشر. كانت الجالية الأرمنية في إسطنبول وأزمير مقسمة إلى طبقات اجتماعية واقتصادية. وبعد استقلال اليونان عام 1830م. أصبح اليونانيون في الإمبراطورية العثمانية محل ارتياب ولذا حل الأرمين محلهم في كثير من الوظائف. مما زاد من نفوذ الأمراء. وكان التجار الأرمين. وكذلك الأمراء. قد اكتسبوا قدرًا طيبًا من الثروة. وأصبح

كثيرون منهم وكلاء للشركات الأوروبية. فتاجروا في التوابل والمجوهرات وانسجاجيد والأقمشة والمصنوعات الزجاجية والعنبر والأسلحة والفواكه المجففة والفراء مع إيطاليا وهولندا وفرنسا وإيران والهند وروسيا. وكانت الطبقة الوسطى الأرمنية تتكون من حرفيين وصناع مهرة. تم تقسيمهم إلى "أصناف". أو طوائف حِرْفِيَّة. وقد سُجِلت حوالي مائة طائفة حرفية أرمنية. تشمل 40 ألف عضو تقريباً. في أواسط القرن التاسع عشر. ومع ذلك. لم يكن كل الأرمن في إسطنبول وأزمير موسرين: فقد أدت إعادة توطين عشرات الآلاف من اللاجئين المسلمين من البلقان والقوقاز إلى تدهور الأحوال المعيشية في الولايات الشرقية من الأناضول. وبحلول 1860م. اندفعت أفواج تبلغ حوالي 20 ألفاً من العمال الأرمن المهاجرين. أو "البندوخت" باللغة الأرمنية (وتعني الغريب). إلى هاتين المدينتين. حيث عاشوا في مناطق سكنية مزدحمة. وعملوا في حِرَفٍ وضِيعَةٍ من أجل المعيشة. وماتوا من المرض والإهمال. ووصل عدد أكثر كثيراً بنهاية القرن.

وحيث إن "التنظيمات" ضمنت الحقوق الفردية والمساواة أمام القانون. فإن الأرمن الليبراليين. الذين طالبوا بتغييرات وقفوا وقفة معارضة لسلطة البطريرك والأمراء. وبدأ التجار الأقل نفوذاً. والمثقفون (الذين كان تعليم بعضهم بتمويل من الأمراء أنفسهم). والحرفيون. وحتى بعض العمال العاديين. بدأوا يطالبون بوضع نهاية لهذا الحكم الأوليجاركي (حكم القلة). وفي عام 1838م تمرد بعض أعضاء الطوائف الحرفية النشطين ضد الأمراء. وطالبوا بصوت في شئون الجالية. وأصبح الانقسام خطيراً لدرجة أن البطريركية والحكومة العثمانية اضطرتا للتدخل. وفي سنة 1841م. توصلت الطوائف إلى نصر كبير. عندما تأسست لجنة من أربعة وعشرين تاجرًا وحرفيًا لمساعدة الأمراء في إدارة أموال الملة الأرمنية الرسولية. وما أن حل عام 1847م حتى كان هناك كيانان آخران. مجلس ديني من أربعة عشر رجل دين. ومجلس مدني من عشرين رجلاً علمانيًا. قد بدءا الإشراف على شئون الجالية. وسرعان ما تأسست مجالس للتعليم والاقتصاد والشئون القضائية أيضاً. وفي عام 1848م حاول الأمراء إعادة تأكيد سيطرتهم بإجبار بطريرك محبوب شعبياً على الاستقالة. وهبَّ الأرمن في إسطنبول في احتجاج عام

وانتخبوا رجل دين شعبي آخر. ووفر العثمانيون الحافز الأخير للتغيير. وفي سنة 1856م، صدر "خط همايون". والذي قضى رسمياً بأن الجاليات التابعة يمكنها اختيار حكومة تمثلها. تُختار من بين أعضاء الجالية الدينيين والعلمانيين. وبذا كانت سلطة البطريرك الأرمني تتحسر كمتحدث وحيد باسم الملة الأرمنية الرسولية.

كان على كل جالية دينية أن تعد لائحة داخلية للحكم الذاتي وتسلمها إلى الباب العالي. وكان الأرمن أول طائفة تقوم بتسليم مسودة في عام 1857م، ثم لائحة منقحة عام 1859م. ورفض الأمراء ورجال الدين المحافظين كليهما. وأخيراً تم التوصل إلى حل وسط. وفي 24 مايو 1860 وافق مجلس دستوري من الأعضاء الدينيين والعلمانيين من الملة الأرمنية، على أن يقوم مجلس منتخب بتنفيذ الدستور الملى الأرمني، أو "دستورناهم الملة الأرمنية" *azgayin sahmanadrutiu*. ورغم أن المجلس ناقش مع بطريركية القدس ما يختص بهذه البطريركية من سلطة وتشريع، وكانت هناك بعض المشاكل في تصديق الباب العالي على اللائحة، وفي مارس 1863م قُدمت لائحة مع بعض التعديل الطفيف، وأصبحت جزءاً من القانون العثماني، فيما يتعلق بشؤون الملة الأرمنية.

كان الدستور ثمرة جهد نمط جديد من الأرمن: شباب زاروا أوروبا أو تلقوا تعليمهم في مؤسسات أوروبية، وتأثروا بالأفكار التحررية والدستورية لأواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وضعت اللائحة ستة مبادئ كإطار لحقوق والتزامات الجماعة والفرد كل منهما تجاه الآخر. فإذا كان الفرد سيقوم بدفع نصيبه من الضرائب، ويقدم الخدمات ويطيع المجلس الإداري، فيمكن له أن يتوقع تعليم أبنائه، والحفاظ على تقاليده وكنيسته، والأمان لطائفته. وتكوّن الدستور من تسع وتسعين مادة تغطي الشؤون الدينية والمدنية للطائفة على كل المستويات. وكان ينبغي أن يكون للمجلس الملى مائة وأربعون ممثلاً من الأرمن في كل مكان من الدولة العثمانية: عشرون من رجال الدين، وثمانون من العلمانيين في إسطنبول وأربعون في المراكز الحضرية الرئيسية الأخرى. لم يكن لمعظم الأرمن من الولايات الست، أي أرمينية الغربية، ارتباط بهذه الآلية، ولا كان لها تأثير عليهم. وشارك المجلس في انتخاب بطريرك إسطنبول وبتريرك القدس. رغم أن دورهم في انتخابات

الأخير موضع جدال. كما شاركوا أيضًا في انتخاب الجائليق في إشميادزين. وعلى عكس افتراضات المجلس في السابق. لم تكن جائليقوسية سيس أو جائليقوسية أغتمار تخضعان للمساءلة أمامه. ومن المهم أن نذكر أن الباب العالي استمر يحتفظ بحقه في التصديق على تعيين البطريرك، ورفض ضمان الحقوق الفردية أو الجماعية للأرمن رسميًا. وهي مسألة سوف تظهر بعد حوالي عقدين من هذه الأحداث.

وبحلول عام 1865م، تسببت أنشطة المسيحيين وتبسيط الرقابة نتيجة "التنظيمات" في ظهور جماعة من المثقفين الأتراك، عُرفوا باسم "العثمانيون الشباب". كان معظمهم قد درس في فرنسا، وتأثروا بالليبرالية الأوروبية، وسعوا لتأسيس حكومة دستورية. وأيضًا، شكل الشباب الأرمن من أبناء الموسرين، دوائر ثقافية وسياسية في أوروبا. ومثل نظرائهم من الروس (انظر الفصل 16)، سوف يبقون في أوروبا، وسوف يقودون أنشطة مضادة للحكومة في المنفى الاختياري. كما سيشكلون في النهاية أحزابًا ذات تطلعات قومية.

وهكذا، بعد خمسة قرون من سقوط آخر مملكة أرمنية في عام 1375م، امتلك الأرمن أخيرًا آلية لبدء صحوة سياسية. وقدمت الحركات السياسية في روسيا والحرب الروسية التركية الأخيرة في القرن التاسع عشر فرصة فريدة في هذا الاتجاه (انظر الفصل 18).

الخوجات والمليكات والشاهات

الأرمن في إيران

(1501-1896)

قبل القرن الثالث الميلادي، كان تأثير إيران (فارس) على الثقافة الأرمنية أكبر من أية دولة مجاورة أخرى. إذ كان الزواج بين النبلاء الإيرانيين والأرمن منتشرًا. لقد تشارك الشعبان في كثير من العناصر الدينية والسياسية واللغوية، وفي التقاليد، حتى أنهما، مرة واحدة، اشتركا في الأسرة الحاكمة نفسها. لكن سياسات الساسانيين من ناحية، ودخول الأرمن في الديانة المسيحية من ناحية أخرى في القرن الرابع، أبعدت الأرمن عن إيران الزرادشتية. ووجهتهم نحو الغرب.

وكانت الفتوحات العربية، التي قضت على الإمبراطورية الفارسية، ودخول بلاد فارس في الإسلام في القرن السابع، مما جعل الحاجز الثقافي بين الأرمن وجارتها أكبر وأقوى. وفي القرن الحادي عشر، ساق الأتراك السلاجقة آلاف الأرمن إلى أذربيجان الفارسية، حيث بيع بعضهم كعبيد، بينما عمل الآخرون حرفيين وتجارًا. ومكّن الغزو المغولي لإيران في القرن الثالث عشر الأرمن، الذين لاقوا معاملة طيبة من الغزاة، من القيام بدور رئيسي في التجارة الدولية في البحار الأسود وقزوين والمتوسط. واستقر الأرمن من التجار والحرفيين في المدن الفارسية الواقعة على حدود أرمينية التاريخية. وقد ذكر ماركو بولو أن هناك عددًا كبيرًا من الأرمن في كل من سلطانية ومراند وخوي وسلماس وماكو ومراغة وأورميا، وبشكل خاص في تبريز، المركز المغولي في أذربيجان الفارسية.

التنافس بين العثمانيين والصفويين

غزا تيمورلنك المنطقة في نهاية القرن الرابع عشر، ودارت الحروب بين سلالاتي قره قوينلو وأق قوينلو التركمانيتين في القرن الخامس عشر، وكان لذلك كله وقع مدمر على سكان أرمينية التاريخية. وشهد القسم الأخير من القرن الخامس عشر دخول أق قوينلو في حالة من الضعف. ومحاولات السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481-1512م) لانتهاز الفرصة ومد

هيمنته إلى أرمينية في الشرق وإيران في الشمال الغربي. وعند بزوغ فجر القرن السادس عشر، كانت إيران قد توحدت تحت حكم أسرة جديدة هي الأسرة الصفوية (1501-1732م). واستطاعت أن تكتسب شعوراً قومياً مرة أخرى. بعد حوالي تسع قرون، وهو شعور قومي استمر حتى الوقت الحاضر.

اكتسب الصفويون أهمية أثناء أوائل القرن الرابع عشر، عندما قام الشيخ صفي الدين بتأسيس طريقتة الصوفية في أذربيجان الفارسية. وبعد قرن، اكتسبت الطريقة التي أصبحت تُعرف في ذلك الوقت بالطريقة الصفوية شخصية شيعية تماماً. وبدأت تجمع المؤيدين من بين القبائل التركمانية في شمال غرب إيران وشرق الأناضول. وحصلت الطريقة على تأييد عدد من القبائل التركية المهمة، والذين أطلقوا على أنفسهم "قرل باش" ("الرؤوس الحمر"، وجاء الاسم من أغطية الرؤوس الحمراء التي كانوا يرتدونها). وفي عام 1501م، استولى إسماعيل، قائد الصفويين، على أجزاء من ما وراء القوقاز من آق قوينلو، وأعلن نفسه "شاهاً". وبعد عشر سنوات استطاع أن يبسط سيطرته على إيران وأرمينية التاريخية وكثير من مناطق ما وراء القوقاز، وأسس سلالة حاكمة دينية ادعت أنها من نسل علي، زوج ابنة الرسول، كما صورت الشاهات كتجسيد جديد للأئمة الشيعيين. وبذلك أصبح المذهب الشيعي، حتى الآن، هو العقيدة الرسمية للدولة الفارسية.

كان ظهور الصفويين وارتفاع مكانة الشيعة في شرق الأناضول يمثل تهديداً رئيسياً للعثمانيين، الذين رأوا في الأسرة الفارسية الجديدة تحدياً لادعائهم بالخلافة وزعامة العالم الإسلامي. وفي عام 1514م، قام السلطان سليم الأول (1512-1520م) بعبور نهر الفرات ودخل لأول مرة أرمينية التاريخية. ولم يكن الشاه إسماعيل مستعداً لمحاربة العثمانيين، فسحب قواته. وأحرق العديد من القرى في طريقه لإعاقة تقدم الجيش العثماني. وأجبر آلاف الأرمن على ترك أراضيهم. وتوغل العثمانيون في أرمينية. وفي 23 أغسطس 1514م، في معركة جالديران، قاموا بتدمير الجيش الإيراني حيث كانوا متفوقين عدداً وعدة. ورغم أن سليم استولى على تبريز، المركز الإداري للصفويين، فقد اضطر للانسحاب بعد أسبوع واحد، عندما رفض القادة العسكريون العثمانيون أن يقضوا الشتاء في تبريز، أو أن يطاردوا العدو داخل الجبال الفارسية. وسوف يتكرر الشيء نفسه عدة مرات. خاصة أثناء حكم الشاه طهماسب الأول (1527-1576م)، الذي لجأ أيضاً إلى سياسة حرق الأراضي، عندما اضطر لمواجهة السلطان سليمان القانوني (1520-1566م). وقد ساعد

المناخ القاسى لأرمنية وصعوبة النقل والاتصالات مع إسطنبول على تمكين الصفويين من تجاوز مثل هذه الهزائم بصفة متكررة. ورغم أن الصفويين استطاعوا استعادة تبريز، فإن إيران تخلت عن معظم مناطق شرق الأناضول. وتم عقد أول اتفاق سلام بين القوتين العظميين عام 1555م، وكانت نتيجة هذا الاتفاق ترك الأجزاء الغربية من أرمنية التاريخية في الأيدي العثمانية، بينما انتهت المناطق الشرقية إلى الوقوع تحت السيطرة الفارسية. وعندما تحقق طهماسب من أن تبريز موقع غير آمن، قام بنقل العاصمة جنوباً إلى قزوین. وبسبب الغموض الذي ساد حول من سيعقب طهماسب، تشجع العثمانيون على غزو أرمنية مرة أخرى عام 1578م، واستمروا في حملتهم حتى عام 1590م، فاستولوا على معظم ما وراء القوقاز، واحتلوا تبريز مرة أخرى.

وإذ حُصر الأرمن وسط هذا الصراع، والذي سجله بعض الشعراء الأرمن الذين شهدوه، ومنهم جريجوري من أغتمار Gregory of Aghtamar و كاراپيت من باغش Karapet of Baghesh. تم ترحيل بعضهم بالقوة إلى إسطنبول، والبعض الآخر إلى أذربيجان الفارسية.. وقام السلطان سليم ومن خلفه من السلاطين بتوطين قبائل كردية لتستقر في أرمنية محل من غادروها، وهي سياسة استمرت حتى القرن السابع عشر. وكان الأكراد يتحدثون لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات الهندية الأوروبية، مثل الأرمن، وينقسمون إلى مذاهب إسلامية سنية وشيعية ويزيدية. وكانوا قبائل من البدو الرحل تم إعفاؤهم من دفع الضرائب النقدية. ولكن كان عليهم تقديم حصة من قطعانهم وحراسة مناطق الحدود. وكان استقرارهم في أرمنية التاريخية من شأنه أن يخلق مشكلة كبيرة فيما بعد للأرمن. عندما كانت الدولة ضعيفة بحيث لا تقدر على حكم الأكراد، أو على العكس، عندما كانت في الواقع تستخدمهم ضد الأرمن. كانت الحروب الطويلة بين العثمانيين والصفويين والتهجير القسري قد تسببا في تناقص سكان بعض أجزاء من أرمنية التاريخية، وغير توطين الأكراد في هذه المناطق من التوازن الاجتماعي والعرقى.

الهجرة الكبرى

وكان الشاه عباس الأكبر (1587-1629م) هو الذي ترك أكبر الأثر على الجالية الأرمنية في إيران. فإذ أدرك الضعف النسبي في الجيش الإيراني، سارع بعقد معاهدة مع العثمانيين عام 1590م، تخلى فيها عن أرمنية الشرقية وأجزاء من أذربيجان الفارسية. ثم بدأ تشكيل

قوة جديدة، جُنِّد فيها المرتزقة من الأرمن والـجورجيين. وكذلك من تحولوا إلى الإسلام. ليكونوا رماة بارعين، وبمساعدة أوروبا، أقام سلاح المدفعية، وبدأ بذلك إقامة جيش حديث. ونقل عاصمته من قزوین إلى أصفهان كموقع أكثر أماناً. وكانت أصفهان أيضاً أقرب إلى بغداد، نقطة ضعف الإمبراطورية العثمانية.

وعند بداية القرن السابع عشر، شعر الشاه عباس أنه وصل إلى مستوى من القوة. يمكنه من نقض معاهدة السلام التي أبرمها مع العثمانيين عام 1590م. وانتهز فرصة الثورات الجلالية في الأناضول، فتقدم في خريف 1603م لاستعادة أذربيجان الفارسية وإخراج العثمانيين من ما وراء القوقاز أيضاً. ونجح في أخذ مدن تبريز وماراند وأوردوباد وأجوليس، ومقاطعة ناخيتشيفان، التي كانت تشمل مدينة جولفا. واستقبل الأرمن الشاه كمحرر، إذ كانوا لا يستطيعون تحمل الضرائب العثمانية أكثر من ذلك. كما استقبله المسلمون الشيعة كذلك، والذين كانوا قد أنهكهم الاضطهاد الديني. وكان التجار الأرمن في جولفا، والذين كانوا في السابق يشاركون في التجارة الدولية لبعض الوقت، أكثر سعادة باستيلاء الإيرانيين على جولفا. ووفقاً لأحد المصادر الأصلية، أن الجيش الصفوي قتل السنّة في مقاطعة ناخيتشيفان ومحا قراهم تماماً. ويصف المصدر نفسه أن عباس قام حينئذ بترحيل التجار الأرمن في جولفا إلى إيران: لكي يمنع المنطقة من استعادة القدرة على النمو الاقتصادي. لكن بقية المصادر المعاصرة لا تشير إلا إلى أن القلعة الرئيسية لناخيتشيفان قد دُمرت عام 1603م. وأن السكان الأرمن لم يتم نقلهم حتى عام 1604م. في نوفمبر 1603م، حاصر عباس قلعة يريفان، والتي كانت حصناً هائلاً بناه العثمانيون. واستمر الحصار لمدة سبعة أشهر. وجند الشاه أكثر من عشرة آلاف من السكان الأرمن والمسلمين: مما أدى إلى تدهور اقتصادي لتلك المقاطعة. وفي صيف 1604م، عندما جاءت أنباء بهجوم عثماني مضاد، قام عباس بتدمير أغلب المنطقة الواقعة بين كارس وأني، وأجلى السكان الأرمن فيها إلى أذربيجان الأرمنية. وتقول بعض المصادر إن عباس كان واثقاً من أن العثمانيين لن يهاجموا والثناء على الأبواب، فقام بتسريح أغلب جيشه في الخريف. لكن العثمانيين تقدموا بالفعل، وفاجأوا الشاه وهو غير مستعد. وجاءت الأوامر من عباس بإجلاء قسري لكل السكان المقيمين في مناطق بايزيد وغان وناخيتشيفان، وباللجوء إلى سياسة حرق الأراضي.

ووفقاً لمصادر أصلية. تم إجماعاً من 250 ألف إلى 300 ألف من السكان الأرمن من المنطقة في الفترة ما بين عامي 1604 و1605 م. ومات الآلاف وهم يعبرون نهر آراكس. وأقام عدد كبير من الأرمن في النهاية في أذربيجان الفارسية؛ حيث كان أرمن آخرون قد استقروا قبل ذلك. وبعضهم انتهى إلى منطقة مازاندران وإلى مدن سلطانية وقزوین ومشهد وهمدان وشيراز. وتم إحصاء الأرمن الأثرياء من جولفا إلى العاصمة الصفوية أصفهان. وتم إيلاء عناية خاصة لجالية مدينة جولفا، ويبدو أنهم عانوا بدرجة أقل في هجرتهم. وتم تسكينهم على شواطئ نهر زيانده رود، وفي سنة 1605 م أقاموا في مدينة بنيت خصيصاً من أجلهم، وأطلق عليها جولفا الجديدة. وقام البناءون من الفرس، مع الحرفيين الأرمن، ببناء المنطقة السكنية الجديدة. وبنى فيها عديداً من الكنائس، منها ثلاثة عشر لا تزال قائمة حتى اليوم. وكان للأرمن حقوق حرمت منها الأقليات الأخرى: إذ كانوا ينتخبون عمدة خاصاً بهم. أو "كالانتاد". ويقرعون أجراس الكنائس، ولديهم احتفالاتهم الدينية العامة، وأقاموا محاكمهم الخاصة. ولم تكن هناك قيود على الملابس أو صناعة النسيج. ولم يكن أي مسلم يستطيع الإقامة في جولفا الجديدة. وتسلم العمدة الأرمني أحد أختام الشاه الملكية؛ لكي يتمكن من تخطي الإجراءات البيروقراطية، وكانت له السلطة القضائية على أربعة وعشرين قرية أرمنية حول أصفهان. وكان يجمع الجزية من الذهب ويدفعها للتاج، والتي كانت تُجمع من كل رجل بالغ، وبمرور الوقت، ازداد تعداد الأرمن في جولفا الجديدة والقرى المحيطة إلى حوالي 50 ألف نسمة.

وساعدت نهضة جولفا وحالة السلام التي تلت معاهدة عام 1639 م على ظهور شخصيات أدبية أرمنية في جولفا وأرمنية الفارسية. ومن بين هؤلاء الفيلسوف وعالم اللغة سيمون من جولفا Simeon of Julfa؛ والمؤرخ الشهير أراكيل التبريزي Arakel of Tabriz. والذي كان كتابه كتاب التواريخ Book of Histories هو أول كتاب تاريخ ينشره قوسكان من يريفان Voskan of Yerevan في أمستردام عام 1669 م؛ وحوليات the Chronicle لـ«ديكون زكريا الكانكري» Deacon Zakaria of Kanaker، ومذكرات التاجر الرحالة زكريا من أجوليس Zakaria of Agulis. وتاريخ الحروب of the Wars بقلم أبراهام من يريفان Abraham of Yerevan، والذي يصف الغزو العثماني لأرمنية الشرقية بعد سقوط الدولة الصفوية، ويوميات الجاثليق أبراهام

الكريتي Catholicos Abraham of Crete. وكتاب أراكيل له قيمة خاصة لما يحتويه من رواية مفصلة عن الهجرة الأرمنية القسرية إلى إيران. أما كتاب الجاثليق أبراهام فيضم الرواية الأكثر تفصيلاً عن تتويج نادر شاه.

مُنح الأرمن امتيازات تجارية واحتكاًراً لتجارة الحرير: مما جعل الجالية ثرية وذات نفوذ، وحول جولفا الجديدة إلى مركز رئيسي للتجارة بين إيران وأوروبا. ومُنح الأرمن أيضاً قروضاً معفاة من الفوائد لبدء الأعمال والصناعات الخفيفة.

وسرعان ما أصبح الأرمن. الذين تمتعوا بحماية الشاه. يتداولون جزءاً رئيسياً من تجارة إيران مع أوروبا وروسيا والهند. وأقام تجار جولفا الجديدة شركات تجارية. نافست شركات الليفانت والهند الشرقية والموسكوفية. وأسست أعمال الاقتصاد في كابل وهرارة وقندهار ومرسيليا والبندقية وجنوا وموسكو وأمستردام. وفي مدن السويد وبولندا وألمانيا والهند والصين وأندونيسيا والفلبين. وكان عباس يزور جولفا الجديدة. ويقضي بعض الوقت في منازل أهم التجار الذين عرفوا باسم ”الخوجات“ (المفرد: خوجة). والتي تعني الوجهاء، والذين كان احتكار الحرير قد منحهم ثراء وازدهاراً كبيرين. وتصف المصادر بيوتهم الخيالية، المزدانة بالأعمال الفنية الشرقية والغربية، والمناضد التي تُصَف عليها ألقم الطعام من الذهب الخالص. كان الأرمن يدفعون مقابل كل بالة من القطن ضريبة إفراج. وظلت معظم أرباحهم داخل إيران. وتراجعت أرباح العثمانيين من التجارة عبر البحار. وأصبح الخليج العربي مركزاً تجارياً مع الغرب.

وشجع التدهور العسكري للإمبراطورية العثمانية الغرب على إقامة علاقات جديدة في الشرق. فأرسل الديبلوماسيين والرجال البارزين والتجار إلى إيران. وكان معظمهم يقيمون في جولفا الجديدة. لقد جعلت الاتصالات مع هؤلاء الأوروبيين من التجار الأرمن قناة اتصال استطاع الشاه من خلالها أن يضمن تحالفات دبلوماسية وتجارية ضد العثمانيين.

كانت هناك نواحي أخرى أيضاً جعلت الأرمن في جولفا الجديدة جزءاً فريداً من المهجر. فقد شكلوا وحدة إكليريكية منفصلة تحت قيادة أسقفهم الخاص. والذي جاء تعيينه من إشمادزين، وكانت له الولاية الدينية على كل الأرمن في إيران والعراق. ولهذا سرعان ما أصبحت جولفا الجديدة مركزاً ثقافياً. إذ فتحت مدرسة. ليست لأبناء الخوجات وحدهم.

وإنما أيضًا لبعض الأولاد الموهوبين من العائلات الأرمنية الأقل مكانة. وكان من خريجي هذه المدرسة الجاثليق هاكوب من جولفا (1655-1680م) Hakob of Julfa، وكذلك عدد من المؤرخين والمترجمين. وأحد خريجي هذه المدرسة، والذي أصبح قسًا فيما بعد، أرسل إلى إيطاليا لتعلم فن الطباعة، وجاء معه بأول آلة طباعة في إيران. وفي عام 1638م، طبع في إيران أول كتاب على الإطلاق، بصرف النظر عن لغته، وهو الترجمة الأرمنية لـ "سفر المزامير". وقام ناسخو المخطوطات بابتداع أسلوب خاص بجولفا الجديدة، بدءًا من النصف الأول من القرن السابع عشر، بأعمال ميسروب من خيزان Mesrop of Khizan، الذي كان أصلًا من أرمينية. وبدأ قليل من الفنانين ينسخون اللوحات الأوروبية التي أحضرها الخوجات إلى جولفا الجديدة. وقبل عام 1600م، كان التجار الأرمن ينقلون التكنولوجيا الشرقية إلى أوروبا على مدى خمسمائة عام. وبدءًا من القرن السابع عشر فصاعدًا، ابتداءً من تجار جولفا الجديدة، كان الأرمن إحدى القنوات الأساسية لنقل التكنولوجيا والثقافة الغربية إلى غرب آسيا.

تصور المصادر الغربية للقرن السابع عشر الشاه عباس كحام عظيم للأرمن. أنقذهم من الانقراض التركي. وأتاح لهم الازدهار في جولفا الجديدة. لكن المؤرخين الأرمن المعاصرين مثل أراكيل من تبريز Arakel of Tabriz، يظهرون ما فعله الشاه عباس من ترحيل للأرمن، والصراع التركي الإيراني في أرمينية بمثابة كارثة عظيمة، تم أثناءها حرق الأراضي، وتعرض الكثيرون للمعاناة والموت، وجعل الأرمن أقلية في جزء من أراضيهم التاريخية. لقد كان لسياسات عباس آثار مدمرة بالفعل. وعلى المدى الطويل، وضعت الترحيلات القسرية أساس مهجر الأرمن في إيران والهند، وهي طوائف لعبت، كما سنرى، دورًا مهمًا في الإحياء الثقافي والسياسي للأرمن في القرن التاسع عشر.

ومن الفوائد غير الملموسة لنفوذ الاقتصاد الأرمني في إيران، هو تحويل صورة الأرمن عن أنفسهم ووعدهم القومي. فأخيرًا، بعد قرون من الحكم الأجنبي، حصل الأرمن على امتيازات مساوية وأحيانًا أكبر من نظرائهم من الغزاة أنفسهم. هذه الزيادة في النفوذ والمكانة امتدت إلى الكنيسة أيضًا، ومكنت القادة في إتشميادزين من استعادة بعض السيطرة على الأسقفيات والجاليات البعيدة عن المركز. كما مكنتها من عمل روابط مع بطريركية إسطنبول وبتريكية القدس. وأتاح هذا الوضع الجديد أيضًا لعدد من الزعماء

العلمانيين الأرمن الحصول على الاعتراف وجمع التأييد المحلي. وكان هذا صحيحاً خاصة بالنسبة للقادة، أو "الميليكات"⁽³⁾. في كاراباغ وسيونيك، فتحت رعاية الشاه والكنيسة والتجار الأرمن، استطاع هؤلاء الميليكات استعادة وتوسيع إقطاعياتهم الموروثة عن أسلافهم في كاراباغ. وكان هؤلاء الميليكات هم آخر سلاسل للنبلاء الأرمن في أرمينية الشرقية. وكانوا يعيشون في المناطق الجبلية. ويدفعون الجزية عادة للشاه مباشرة. وعلى عكس قادة الكنيسة، كانوا يفتقدون إلى الوحدة، وكان عليهم أن يتملقوا الحكام المسلمين. الذين كانوا ينظرون إلى أي نبلاء مسيحيين مسلحين ويمتلكون أرضاً كتهديد. ولكن حكمهم الذاتي، ووقوفهم وقمة التحدي أحياناً، قد جذب بعض التأييد الشعبي، وهم الذين بدأوا. مع بعض التجار ورجال الدين الأرمن، حركة التحرير الأرمينية.

أرمينية الشرقية (1639-1804م)

أدت معاهدة زوهاب (معاهدة قصر شيرين) إلى تقسيم أرمينية التاريخية عام 1639م بين العثمانيين، الذين أخذوا أرمينية الغربية، والصفويين. الذين أخذوا أرمينية الشرقية. وقُسمت أرمينية الشرقية نفسها إلى "بيجلاربيجي"⁽⁴⁾ شوخور سعد (مناطق يريفان وناخيتشيفان)، وبيجلاربيجي كاراباغ (مناطق كاراباغ وسيونيك وجنجه). وهكذا، كانت الأولى تتكون من أقسام من بعض مقاطعات أرمينية التاريخية وهي أراتات وجوجارك وفاسبوراك، والثانية تتكون من أرتساخ وسيونيك وأوتيك (انظر الخريطة 22). كانت المنطقة، التي كان يديرها الخانات، وهم غالباً من قبيلة قاجار، تحت إشراف حاكم عام مقره في مدينة تبريز بأذربيجان الفارسية. وكانت بيجلاربيجي شوخور سعد لها أهمية خاصة، لأن مدينتها الرئيسية يريفان كانت مركزاً دفاعياً إيرانياً ضد العثمانيين.

(3) ميليك Melik: مستمدة من العربية "ملك". لقب أرمني للنبلاء أو الأمراء. كان يستخدم في الإدارات المحلية الشرقية لأرمينية والتي كانت تسمى Melikdoms. وكانت تتمتع بما يشبه الحكم الذاتي. وقد استمر استخدام هذا اللقب منذ العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر. (المترجمة)

(4) Beglarbegi: لقب بيجلاربيجي يعني "الحاكم العام". وهو مصطلح مشتق من لفظ "بايلرباي" التركي. ويعني "رئيس الرئيس". وفي إيران. كان البجلاربيجي يحكم ثلاثة حكام فرعيين لمقاطعة، ومن ضمنهم نائب الحاكم وموظفين أدنى من ذلك. (المترجمة)

ورغم أن عباس كان يحمي الأرمن في جولفا الجديدة. ومنع الإرساليات الكاثوليكية من التوغل داخل الجالية. فإن وفاته والتدهور النهائي لحكم الصفويين في النصف الثاني من القرن السابع عشر اضطر بعض الخوجات للهجرة إلى الهند وإيطاليا، حيث أسسوا فروعاً لبيوتاتهم التجارية. وكان غياب أسطول تجاري إيراني يعني أن التجار الأرمن في جولفا الجديدة لا يستطيعون، بمرور الوقت، الاستمرار في منافسة الشركات المساهمة الكبرى الإنجليزية والألمانية مثل شركة الهند الشرقية. التي كانت عند أواسط القرن الثامن عشر قد استولت على كثير من تجارة المنطقة. وعند بداية القرن الثامن عشر. تسبب تعصب الشيعة المتزايد والقوانين الجديدة غير الملائمة للأرمن في خلق أحوال صعبة للخوجات. ولذا هاجر المزيد منهم إلى روسيا والهند والشرق الأوسط وأوروبا الغربية. وكان عدم الأمان في الوطن يعني أيضاً أن يتجه الأرمن إلى أوروبا الكاثوليكية. وخاصة إلى روسيا الأرثوذكسية بحثاً عن الحماية. أو حتى لمجرد النجاة. وكان سقوط الدولة الصفوية واحتلال الأفغان لأصفهان وجولفا الجديدة عام 1722م علامة على نهاية نفوذ الخوجات. ولكنه لم يمه الوجود الأرمني في إيران. فقد بقيت طوائف أرمنية كبيرة في أصفهان وجولفا الجديدة. وعدد من المدن الفارسية.

وشجع سقوط الصفويين بطرس الأكبر على غزو المناطق الساحلية المطلة على بحر قزوين. بينما نقض العثمانيون معاهدة زهاب وغزوا أرمنية الشرقية وجورجيا الشرقية عام 1723م. وفي مدى سنتين. كان العثمانيون قد استولوا على المنطقة بالكامل. فيما عدا كاراباغ وسيونيك. حيث صمد الميليكات الأرمن تحت قيادة أقان يوزباشي Avan Yuzbashi وديفيد بك David Bek ومختيار سباراپت Mkhitar Sparapet لفترة بلغت ما يقرب من عشر سنوات. ووضع الأتراك حاميات في تفليس وناخيتشيفان وجنجه ويريفان. وتم ترميم قلعة يريفان واستخدمت مقرّاً إدارياً للحاكم العسكري العثماني لأرمنية الشرقية.

وبحلول عام 1736م. جاء حاكم جديد هو نادر شاه (1736-1747م). وبدأ حكم أسرة جديدة هي الأسرة الأفشارية. واستطاع نادر شاه استعادة النظام في إيران. وأقع الروس بالانسحاب ودفع العثمانيين إلى التقهقر إلى حدود عام 1639م. وكمكافأة للميليكات الأرمن على موقفهم ضد العثمانيين. أعفاهم من الجزية واعترف باستقلالهم. وكان الجائليق أبراهام

الكرتي (1734-1737م) صديقاً لنادر شاه. وحضر تتويجه كضيف شرف. وقام الشاه الجديد . ليس فقط بزيارة إتشميادزين. ولكن أيضاً بإعادة تأكيد وضعها بالإعفاء الضريبي. وأزال نادر عدداً من القبائل التركية من أرمينية الشرقية. خاصة من كاراباغ. وقسم المنطقة إلى أربعة خانات: يريفان وناخيتشيفان وجنجه وكاراباغ (انظر الخريطة 23).

لكن اغتيال نادر عام 1747م أطلق الفوضى لفترة. بلغت خمسة عشر عاماً في أرمينية الشرقية. فقد عادت القبائل التركية المنفية. وبقيادة عشيرة جاقانشير أسست وجوداً قوياً في سهول كاراباغ. وكان الميليكا الأرمين كما ذكرنا يحكمون الأراضي المرتفعة لقره باغ. والتي تتكون من خمس مناطق هي جولستان Gulistan وخاتشين Khachen وجرابيرد Jraberd وفراندا Varanda وديزاك Dizak. بالإضافة إلى عدد من المناطق في سيونيك (والتي عُرفت فيما بعد بقره باغ وزانجيزور الجبلية). وكان للمنطقة كرسى ديني خاص بها في جاندزاسار. أما السهول التي تمتد إلى نهر كور. فكانت تقيم فيها تجمعات كردية وتركية. استطاع باناح خان جفنشير وابنه إبراهيم خان. بالتحالف مع المليك شاهنازاريان حاكم فراندا. الذي كان في نزاع مع الميليكا الآخرين. وضع أقدامهم في جزء من الأرض. التي كان يسيطر عليها الأرمين وحدهم في قره باغ الجبلية.

وبحلول عام 1762. استولى حاكم آخر وأسرته أخرى. هو كريم خان زاند (1779م) (1750) على معظم إيران واعترف خانات أرمينية الشرقية به كسلطة عليهم. وكان مركز حكمه في جنوب إيران. فظلت ما وراء القوقاز مع إبراهيم خان حاكم كاراباغ والمليك إريك الثاني (1762-1798م) ميليك جورجيا الشرقية. وكان كلاهما قد اقتطع أجزاء من أرمينية الشرقية كمناطق نفوذ. وأدى موت كريم خان في 1779م إلى بدء خمسة عشر عاماً أخرى من الصراع بين إبراهيم وإريك و خانات يريفان وجنجه والميليكا الأرمين. وهاجر المزيد من الأرمين من خانيات يريفان وكاراباغ إلى روسيا وجورجيا. وأصبحت تفليس. المدينة الرئيسية في شرق جورجيا. مركزاً رئيسياً للأرمين.

ومرة أخرى. جاء ضم روسيا للقرم. وخاصة معاهدة جورجيفسك Treaty of Georgievsk مع إريك عام 1783م. لتورط روسيا مرة أخرى في شؤون ما وراء القوقاز. واندفع خانات المنطقة لإبرام معاهدات سلام منفصلة مع بعضهم البعض ومع جورجيا أو روسيا أو إيران. وفي الوقت نفسه. كانت إيران في غمرة صراع آخر على العرش. وفي عام

1790 م. استطاع الأغا محمد خان، قائد عشيرة قاجار، إخضاع كل المتنافسين الآخرين لورثة العرش. وأقسم على استعادة المناطق التي كانت للدولة الصفوية السابقة. وسرعان ما استسلم معظم خانات أرمينية الشرقية، لكن إريك ملك جورجيا رفض اعتماداً على الحماية الروسية. وقام الأغا محمد بغزو جورجيا، ودمر تفليس في عام 1795 م، وفي طريق عودته تم تويجه شاهاً (1796 م).

ولاستعادة اعتبار روسيا، أعلنت الملكة كاثرين العظمى الحرب على إيران؛ وأرسلت جيشاً إلى ما وراء القوقاز. لكن موتها بعد ذلك بوقت قصير وضع نهاية لتلك الحملة. وسرعان ما فكر الأغا محمد في إبعاد السكان المسيحيين من جورجيا الشرقية وأرمينية الشرقية. وبدأت حملته الجديدة في كاراباغ، حيث تم اغتياله عام 1797 م. وكان الأغا محمد خان قد تعرض للإخلاء على أيدي أعداء عشيرته في شبابه، ولهذا فقد خلفه ابن أخيه فتح على شاه قاجار. وعند فجر القرن التاسع عشر، كان على الشاه الجديد أن يواجه اجتياحاً روسياً ثالثاً وأخيراً.

الأحوال الاجتماعية الاقتصادية في أرمينية الشرقية

(من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر)

أثناء القرن السابع عشر غيرت الدولة الصفوية من اقتصاد إيران: إذ كان هناك عدد من المدن في أرمينية الشرقية تقع على طرق التجارة بين آسيا وأوروبا. قامت بدور مراكز للبضائع القادمة من الهند والصين وإيران، والتي كانت تتخذ طريقها - بدورها - إلى أسواق روسيا والإمبراطورية العثمانية وأوروبا الغربية. وساعد في نقل البضائع طرق آمنة تتمتع بالعناية والصيانة، ووضع رسوم جمركية متماثلة، وخانات مريحة. وكانت أرمينية الشرقية نفسها تصدر الحرير والقمح من كاراباغ والفاكهة المجففة والملح والجلود المدبوغة والنحاس من يريفان. وأتاح وجود قسم كبير من السكان الرعاة الإمداد بالصوف والسجاد القوقازي والأقمشة التي ينسجها الحرفيون الأرمن والأتراك، والتي كان لها قيمة كبيرة بسبب ألوانها وتصميماتها البديعة.

كان سكان أرمينية الشرقية قبل الاحتلال الروسي يتكونون من أغلبية مسلمة وأقلية أرمنية (رغم أن الأرمن كانوا أغلبية في بعض المناطق). وكان المسلمون ينقسمون إلى

فرس، ويتشكل منهم معظم رجال الإدارة وجزء من الجيش: والجماعات القبلية التركية المتوطنة أو شبه المتوطنة. والذين كانوا يعملون إما في الزراعة أو يشكلون معظم أفراد الجيش؛ والأكراد، الذين كانوا يعيشون حياة رعوية بدوية تقليدية، ويتشكل منهم جزء من الخيالة الفارسية. ورغم أن الأرمن كانوا يعملون بالتجارة ويشكلون أغلبية الحرفيين. فإن معظمهم كانوا فلاحين.

كان الخانات مسئولين عن الدفاع وعن جمع الضرائب. وكانوا في العادة هم السلطة الوحيدة في خانياتهم. وهم أنفسهم كانوا معفيين من الضرائب. وينالون الأراضي من التاج في مقابل خدماتهم. وعندما كانت الحكومة المركزية ضعيفة أو انهارت. كان الخانات يلجأون لأن يكونوا الملاك المتوارثين لضيعاتهم. وكان الموظفون الآخرون. مثل: جامعي الضرائب والمحاسبين والكتابة وضباط البوليس والقضاة. يتولون الأعمال الإدارية. وكانت ضرائب الملكية المتعددة. والنظام الإقطاعي الصارم. ضماناً للعوائد ولدفع أجور الموظفين الإداريين. وكانت العمالة بالسخرة إجبارية لمعظم الفلاحين. وكانت القرى الأرمينية يديرها كبارها، أو تنتمي إلى الكنيسة كأوقاف أو ملكية خيرية معفاة من الضرائب. وكان كبار المسلمين (الكتخدا) يشرفون على قراهم. وحيث إن أرمينية الشرقية كانت منطقة جافة. فقد لعب الري دوراً حاسماً في حياة السكان. فكانت القنوات التي يمتد بعضها عشرين ميلاً أمراً منتشرًا. واتبع الموظفون المسئولون عن الري قواعد صارمة لمد كل الفلاحين بالماء.

وكانت القرى الكبيرة تُزرع بشكل جماعي. بينما كانت العشائر الكبيرة تزرع مناطق صغيرة بشكل عام. وكانت الأراضي الزراعية تتبع نظاماً بدائيًا ثنائي الدورة: نصف القطعة يزرع. ويترك النصف الآخر للراحة. وكانت تستخدم الفئوس والمعايير الخشبية. واستخدم السماد الطبيعي لتسميد الأرض وكوقود. وكانت المحاصيل الرئيسية هي العسل والبنديق والدخن والشعير وبذور زيت مختلفة. وكانت الخنافس القرمزية. مصدر الصبغة الأرمينية الحمراء. ذات قيمة عالية. كانت الحدائق والبساتين كثيرة بشكل خاص وتنتج مجموعة كبيرة ومتنوعة من الفاكهة. خاصة الكروم والخضروات. ولأن الفلاحين كانوا يدفعون معظم محاصيلهم كضرائب للدولة أو للحاكم. فقد كانت حياتهم متقسفة للغاية.

فالأرز واللحم والقمح عالي الجودة هي أطعمة الأعياد. وتتكون الوجبة الرئيسية من الزبادي والجبن والعيش المخبوز في أفران الطين، مع الخضروات المطبوخة والطازجة. وكان قليل من الناس يمتلكون سريرًا، إذ كان الأغلبية ينامون على الحصير ويستخدمون أدوات خشبية.

كانت الحياة العائلية ذات نظام أبوي. يعمل الرجال في الحقول أو المراعي، بينما تقوم النساء. بإشراف أكبر الإناث (تانتكين)، بتزيرة الحبوب وغزل الصوف وصنع السجاد. كان أكبر الذكور (أغا أو تانمتز أو تانيوتر) يرأس العشيرة، وله الكلمة الأخيرة في معظم الأمور. وكان الذكور يرثون، بينما تأخذ الإناث عادة دوتلة. ومثل نظيرتها المسلمة، كانت المرأة الأرمنية معزولة. نادرًا ما تتكلم في حضور الرجال أو الغرباء، وتغطي وجهها. وفيما عدا الدين والعادات الخاصة بالزواج والطلاق، كانت الفروق قليلة بين المسلمين والأرمن، فقد كانت الطائفتان كلتاهما تشتركان في العادات الخاصة القديمة نفسها، والتحيزات والمعتقدات الخرافية نفسها.

الأرمن في إيران خلال القرن التاسع عشر

في عام 1801، ضمت روسيا جورجيا الشرقية وبدأت توغلها الأخير فيما وراء القوقاز. وفي عام 1804. بدأت روسيا أول الحروب الروسية الفارسية (1804-1813م). وبعد عام، بمساعدة أرمن كاراباغ، استولت على نصف أرمينية الشرقية. وأصيب اقتصاد يريفان، مركز الدفاع الإيراني فيما وراء القوقاز. بالتدهور بسبب الأحوال المضطربة سياسياً واقتصادياً في القرن السابق، ورحيل كثير من الأرمن إلى جورجيا. ولكي ينقذ الإيرانيون بقية أرمينية الشرقية. دعموا المنطقة بشدة وعينوا حاكمًا قديرًا، هو حسين قوللي خان. لإدارتها. وبادر الخان مع الأمير الإيراني المتوج. عباس ميرزا، بعدد من الإصلاحات الإدارية والعسكرية، وبمساعدة حملات نابليون، استطاع إعاقة خطط روسيا بالنسبة للمناطق الباقية في أرمينية الشرقية لمدة عقدين. وفي النهاية، استطاعت القوات الروسية المتفوقة احتلال كل الأراضي شمال نهر أراكس أثناء الحرب الروسية الفارسية الثانية (1826-1828م). وأصبحت ما وراء القوقاز جزءًا من الإمبراطورية الروسية، وقُدِّر لأرمينية الشرقية، والتي أصبحت تُعرف من ذلك الوقت فصاعدًا بأرمينية الروسية، أن ترتبط رباطًا لا فكاك منه

بروسيا (انظر الخريطة 24). وفي سنة 1830م، ترك حوالي 30 ألف أرمني شمال إيران واستقروا في روسيا (انظر الفصل 16).

ازدهر المجتمع الأرمني في إيران خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. بفضل الروابط التجارية مع التجار الأرمن في روسيا. وظهرت مرة أخرى جولفا الجديدة وكذلك مجمعها من كاتدرائية ودير "المخلص المقدس"، ونظمت مكتبة ممتازة. وصدرت أول دورية أرمنية وكتاب عن تاريخ الأرمن في جولفا الجديدة عام 1880م. وتلقت المدرسة الأرمنية في جولفا الجديدة إعانة مالية حكومية. وأغني رجال الدين الأرمن والكنائس الأرمنية من الضرائب، وأعيدت أملاك الكنيسة المصادرة. وفتح التجار الأرمن بيوتاً تجارية في مناطق قزوین والخليج العربي. وتاجروا مع روسيا والهند وأوروبا. صدرت الفاخرة المجففة والجلد والسجاد. وتم استيراد الآلات والمصنوعات الزجاجية والأقمشة. وأحضر نصر الدين شاه (1848-1896م) الأرمن إلى طهران. حيث استخدمهم، مستفيداً بقدراتهم اللغوية واتصالاتهم الأجنبية. كرسل إلى أوروبا. وكان بعضهم. مثل ميرزا مالكوم خان Mirza Malkum Khan. وديفيد خان ميليك شاهنزار David Khan Melik Shahnazar. وهوفهانيس خان مسيحيان Hovhannes Khan Masehian. كانوا مسئولين عن جلب الأفكار البنائية المتحررة، والفكر السياسي الغربي. والمخترعات التكنولوجية إلى إيران. ونقل التريزية والجواهرجية الأرمن الموضحة الأوروبية. وكان المصورون الفوتوغرافيون الأرمن من أوائل من عملوا بهذه الحرفة. كان الأرمن أيضاً من أوائل الفنانين المصورين والموسيقيين بالأسلوب الغربي. وبنهاية القرن التاسع عشر. كان هناك حوالي 100 ألف أرمني يعيشون في اثنتي عشرة مدينة في إيران (انظر الخريطة 25). وسرعان ما تعرض الأرمن في أذربيجان الفارسية للأفكار القومية والسياسية للأرمن فيما وراء القوقاز، وكما سوف نرى، كان لهم أن يلعبوا دوراً مهماً في تاريخ إيران إبان القرن العشرين.

من المغول إلى الهند البريطانية

الأرمن في جنوب آسيا

(تقريباً 1550-1858م)

للجالية الأرمنية في الهند مكانة خاصة في تاريخ المهجر الأرمني. ورغم أنها لم تكن جالية كبيرة، فإن ثراءها وتطلعاتها القومية كان لها وقع مهم على الصحوّة الثقافيّة والسياسية الأرمنية. وفي الوقت نفسه، فإن صعودها واضمحلالها يُعد نموذجاً مثاليّاً على تأثير القوى السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية على بقاء جالية في المهجر.

ورغم أن بعض التجار الأرمن أداروا تجارة مع الهند منذ القرن الثامن الميلادي. ويرجع إليهم الفضل في اكتشاف موقع مقبرة القديس توماس الرسول، فقد كانت السياسات المتسامحة والمحبة للخير للسلطان المغولي جلال الدين أكبر (1556-1605م) هي التي شجعت التجار الأرمن على الاستقرار هناك. كان السلطان أكبر يثق بالأرمن ويفضلهم. وعينهم في عدد من المناصب الإدارية المهمة، ومن ضمنها منصب قاضي القضاة، والذي عين فيه أرمنياً يدعى عبد الحي. وكانت إحدى زوجات السلطان، البيجوم مريم. أرمنية أيضاً. وبُنيت أول كنيسة أرمنية في الهند عام 1562م في أكرا. المركز الرئيسي للدولة المغولية. وكان أحد أحفاد عبد الحي. واسمه ميرزا ذو القرنين Mirza Zul-Qarnain. قد تربى في البيت السلطاني. وشغل منصب المحافظ، وفيما بعد خدم السلطان جهانكير. ابن جلال الدين.

جاء أكبر تدفق للأرمن في القرن السابع عشر عندما فتح تجار جولفا الجديدة فروعاً تجارية في مختلف المدن الهندية. وكان كثير من هؤلاء التجار بارزين. وعملوا وكلاء للبلاط الإيراني. واستمر الحكام المغول. جهانكير (1605-1627م) و جهان (1628-1657م) في السياسات الكريمة نفسها لسلفهم. مما جذب المزيد من الأرمن إلى الهند. كان الأرمن يستوردون الملابس الصوفية والعنبر والمصنوعات الزجاجية من البندقية والمرايا

والبنادق والسيوف والساعات. وكانوا يصدرون التوابل واللؤلؤ والأحجار الكريمة والقطن. وكانت تجارة الجوت كلها تقريباً في أيدي التجار الأرمن في البنغال الذين كانوا يعيشون في الحي الأرمني من دكا (عاصمة بنجلاديش الحالية)، حيث بنوا كنيسة القيامة الكبيرة جداً. وأصبح الأرمن الهنود حلقة وصل مهمة في التجارة بين جنوب آسيا وإيران وأوروبا. ومثل أقرانهم في جولفا الجديدة، منحهم الحكام المسلمون امتيازات خاصة وحرية دينية.

كان للأرمن حي خاص في أكرا، أقاموا فيه خاناً. وكانت لهم مدافنهم الخاصة. وبصفتهم مسيحيون، طلب من الأرمن أن يقوموا بمهمة الاستضافة أو الترجمة لمختلف الرسل الأوروبيين الذين يأتون إلى الهند. وتزوج عدد من الأوروبيين الذين استقروا في الهند من أرمنيات. وازداد حجم الجالية. وثرأؤها وأهميتها طوال القرن السابع عشر. وفي النهاية أقيمت مراكز تجارة أرمنية في اثني عشرة مدينة بالهند، منها سرات ودلهي وتشينسورا، ولاكنو ودكا وسيداباد وحيدرآباد وبنارس ودهلي (في باكستان حالياً). وكلكتا ومدراس وبومباي (انظر خريطة 26). وأخيراً، بنيت كنائس أرمنية في سرات وتشينسورا ودكا وكلكتا ومدراس وبومباي؛ ولا تزال بعض هذه الكنائس موجودة حتى يومنا هذا ولديها صلة منتظمة بالكروني البابوي في إشميدزين. لقد أقام الأرمن وشكلوا أحياءهم. ولا تزال هناك أماكن في تلك المدن تحمل أسماء "الشارع الأرمني". أو "الحي الأرمني"، أو "المرفأ الأرمني".

وعلى عكس أسلافه المتسامحين، كان آخر حاكم مغولي كبير. أورنجزيب Aurangzeb، ويعرف أيضاً باسم علمجير (1658-1707م). شديد العداء للهنود، واتخذ عدداً من الإجراءات المعادية للمسيحيين. ومع ذلك، لا يبدو أن الأرمن واجهوا أية مشاكل كبيرة أثناء فترة حكمه. والواقع أن سياسات إيران المعادية للمسيحيين في بداية القرن الثامن عشر كانت أسوأ كثيراً، واضطرت عدداً من الأسر التجارية الأرمنية لأن يلحقوا بأقاربهم في الهند. ولكن تعصب آخر السلاطين المغول كان له على المدى البعيد عواقب كبيرة بالنسبة للتجار الأرمن الهنود، فقد شجعت الهندوس على التعاون مع البريطانيين، وعجلت بالاحتلال البريطاني للهند. والتحكم في أنشطتها التجارية.

وطد الإنجليز وجودهم في سرات في بدايات القرن السابع عشر. وأصبح الأرمن - الذين استخدموا النقل البحري البريطاني في أنشطتهم التجارية، وكانت لهم علاقات بعدد من الشركات البريطانية - وسطاء بينهم وبين عدد من الحكام الهنود. وفي عام 1661م، حصل الإنجليز على بومباي كجزء من دويلة إنفانتا Infanta ابنة ملك البرتغال، التي تزوجت الملك الإنجليزي تشارلز الثاني. وعندما تحقق الإنجليز من الدور الأرمني المهم في التجارة الهندية، وجهوا لهم الدعوة للاستقرار هناك. في عام 1688، وقعت شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) مع الخوجة بانوس كالانتر Panos Kalantar، ممثلاً عن التجار الأرمن في الهند، اتفاقية رسمية، نقلت بمقتضاها التجارة من الطرق التقليدية إلى الممرات البحرية التي تسيطر عليها بريطانيا في الخليج العربي وطريق رأس الرجاء الصالح. وفي عام 1715م، ساعد الأرمن البريطانيون في توطيد وجودهم في البنغال، وجعل كلكتا المركز التجاري الجديد للمنطقة. وساعد الإنجليز في بناء الكنائس الأرمنية، ومثل المغول، وظفوا الأرمن في إدارتهم المدنية وسمحوا لهم بالتجارة في المناطق التي يسيطرون عليها في جنوب آسيا. ونشط الأرمن في الخدمات القانونية والطبية والعسكرية، بل إنهم أصبحوا خبراء في صناعة البنادق. وبحلول القرن الثامن عشر، ظهرت بومباي وكلكتا ومدراس بمثابة مراكز تجارية جديدة للنشاطات الأرمنية. مع إقامة كنائس كبيرة ومدرسة في كلكتا، لم يعمل الأرمن في خدمة المغول فقط، ولكنهم أيضاً عملوا في خدمة عدد من الراجات Rajas المستقلين في الهند. وكذلك عديد من الكبراء في بورما وماليزيا، وبنى التجار الأرمن عدداً من الكنائس في بورما وماليزيا في القرن السابع عشر. وقام التجار الأرمن في جاوة وسومطرة (أندونيسيا الحالية) بتجارة البهارات وأثروا من ذلك كثيراً، وفي أندونيسيا سُجلت جالية تبلغ حوالي ألفين من الأرمن في جاوة وسومطرة في القرن السابع عشر. وبنى الأرمن كنائس في أندونيسيا. وقد بُنيت كنيسة سانت جون في م في جاكارتا، وفي عام 1961م تم هدمها بناء على مرسوم حكومي. وكنيسة أخرى للقديس جورج أيضاً بُنيت في سورابايا بعد الحرب العالمية الأولى. وكان مجئ الهولنديين إلى المنطقة خلال النصف الأول من القرن السابع عشر مما تسبب في تغيير الأهمية الاقتصادية للأرمن هناك، حيث تضاءلت مكانتهم إلى مجرد موظفين وأصحاب متاجر تحت الحكم الاستعماري الهولندي.

واستقر بعض التجار الأرمن أيضاً في الفلبين وكانوا الأجانب الوحيدين المسموح لهم بالاستمرار في التجارة. بعد أن احتل الإسبان المنطقة في القرن السادس عشر. وبحلول القرن التاسع عشر. تم إعادة نقل عدد كبير منهم إلى إندونيسيا.

ورغم أن وصول الإنجليز إلى جنوب آسيا كان له تأثير سلبي على الاحتكارات التجارية الأرمنية بمرور الوقت. فإنه جعل الأرمن يتصلون بالتعليم والأنظمة السياسية الإنجليزية. وأمدهم بالأفكار الخاصة بالحكم البرلماني وغيره من التقاليد السياسية الإنجليزية. وقد تأثر القادة الأرمن في كلكتا ومدراس بالليبرالية الإنجليزية. فبادروا بإحياء ثقافي أرمني في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وأصبح يوسف أمين. وهو أرمني هندي جاءت عائلته مهاجرة من إيران. مقتنعاً بأن الإستراتيجية المتفوقة والأسلحة هي التي مكنت الأوروبيين. خاصة الإنجليز. من السيطرة على أجزاء كبيرة من آسيا. درس يوسف أمين في إنجلترا. والتحق بالجيش الإنجليزي. وصادق الليبراليين الإنجليز مثل إدموند بيرك. وزار أرمينية عام 1760م ودهش من سلبية الأرمن وقادتهم الدينيين. الذين بدأ أنهم يقبلون خضوعهم بصفته مشيئة الله.

عاد أمين إلى إنجلترا. وعندما تحقق من أن الإنجليز لا يهتمون بمساعدة الأرمن. ذهب إلى روسيا في أواخر سنة 1761م. وزار موسكو وسان بطرسبرج. وسافر إلى أرمينية الشرقية وجورجيا. وظل في المنطقة طوال ستينيات القرن الثامن عشر. محاولاً إقناع الروس أن جيشاً أرمينياً جورجياً موحداً. يموله التجار الأرمن الهنود. ويستطيع تحت قيادة روسيا تحرير القوقاز من سيطرة المسلمين. ودافع أمين أيضاً عن إقامة مدارس حديثة وإجراء إصلاحات إدارية في القوقاز لدعم أهدافه. والتقى أمين مع كبار الموظفين الرسميين الروس. ومع الملك الجورجي إريك الثاني. ومع الجائليق الأرمني سيمون (1763-1780م). لكن أفكار أمين لم تلق حماساً. ولم يكن الروس مستعدين لإجراء إصلاحات ليبرالية. فقد كان انشغالهم بمحاربة العثمانيين يمنهم من التفكير في تقديم مساعدة عسكرية للأرمن. وأصر الجائليق الأرمني وإريك على أن تكون هناك ضمانات ملموسة للدعم قبل أن يقوموا بتمرد ضد حكامهم المسلمين (انظر الفصل 16).

ترك أمين المنطقة في نهاية 1768م. وعاد إلى كلكتا في أوائل 1770م. ولكنه لم يتخلَّ

عن حلمه. فبعد سنوات قليلة، عندما أوقعت كاثرين هزائم قاسية بالعثمانيين، سافر إلى مدراس. حيث أفتح التجار الأرمن بالتعهد بتقديم كمية كبيرة من الذهب لإقامة جيش أرمني. ثم ذهب إلى جولفا الجديدة لجمع تبرعات من الخوجات، الذين كانوا يواجهون مستقبلًا غامضًا في إيران التي تمزقها الحروب، فكانوا أكثر استعدادًا للمساهمة في خطته لتحرير أرمينية. ومرة أخرى، كانت مجهوداته غير مثمرة، وفي 1783م عاد إلى الهند، حيث مات في عام 1809م.

مؤل التجار الأرمن الهنود تأسس أول مطبعة في إتشميادزين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكما رأينا، مولوا المجهودات التعليمية والطباعية للمختارين في البندقية. وفي الوقت نفسه، أقامت مجموعة من الأرمن في إيران اتحادًا سياسيًا في مدراس وكانوا مسئولين عن طباعة أول بيانات سياسية أرمنية. كانت هذه الأعمال جمعًا وإعدادًا للأجندة التي وضعها يوسف أمين لتحرير الأرمن من الحكم الإسلامي، وإقامة دولة ديمقراطية مستقلة تقوم على مبادئ التنوير. وقادة هذه الجماعة، شاهامير شاهاميريان (1723-1797م) Shahamir Shahamirian، وابناه هاكوب وإغيازار Eghiazar، ومعلمهم موقسيس باغراميان Movses Baghramian، وهذا الأخير عمل مع أمين في روسيا. ولم يكن هؤلاء القادة محاربين من أجل الحرية، ولكنهم كانوا ليبراليين، يتمنون ترقية ونشر أفكارهم من خلال ما تمثله المطبعة ومطبوعاتها من نفوذ.

في 1771م، أسس هاكوب شاهاميريان مطبعة في مدراس. وبين عامي 1772 و1789م نشر ثلاثة وثائق سياسية كتبها والده ومعلمه، وهي: موعظة كتيب جديد Exhortation: a New Pamphlet، و بريق العظمة The Snare of Glory، و كتيب المشورة A Booklet of Counsel. وتتميز هذه الأعمال بنغمتها العلمانية، التي اختلفت كثيرًا عن الكتابات السياسية الأرمنية السابقة التي كانت دينية النغمة. ولأول مرة عبّر الأرمن عن رغبة في المساواة الفردية والجمعية والحرية في المساعي من أجل الحقوق المدنية والثقافية.

ولكتاب "بريق العظمة" أهمية خاصة، فقد قدم 521 بنداً لدستور جمهورية أرمنية مستقلة. ففي الدولة الجديدة، سيكون هناك تعليم إلزامي للبنات والبنين على السواء. وبرلمان منتخب، ونظام لجمع الضرائب، ونظام قضائي. وأهم شيء أن الجمهورية سيحكمها قانون طبيعي يتم صياغته بروح العقل وينفذه ممثلون منتخبون. ومع الاستشهاد بالجمهورية الرومانية القديمة، دافع شاهاميريان عن عقد اجتماعي بين الحكومة والمحكومين. هذه الوثيقة تسبق كلاً من الثورتين الأمريكية والفرنسية، وتؤسس كثيراً من أفكارها على ثورة 1688⁽⁵⁾ في إنجلترا وعلى أفكار التنوير الفرنسي. خاصة كتاب جان جاك روسو «العقد الاجتماعي»، الصادر عام 1762م.

وبنهاية القرن الثامن عشر، صدرت أول دورية أرمنية بعنوان أزدارار (الراصد *Azdarar*) في مدراس بين عامي 1794-1796م، على يد قس أرمني من إيران هو هاروتيون شماقونيان Harutiun Shmavonian. ومن خلال أزدارار (الراصد)، بذرت فكرة حقوق الإنسان وفكرة حق تقرير المصير بين جمهور القراء الأرمن. وفي أوائل القرن التاسع عشر، وجدت هذه الأفكار طريقها إلى الجاليات الأرمنية في أوروبا وروسيا والإمبراطورية العثمانية. وكان نظام المخيترابين في البندقية، والملوك الأرمن في كاراباغ، وكذلك أفراد مثل هوفسب أرغوتيان Hovsep Arghutian (Iosif Argutinskii). الأسقف الأرمني في روسيا، وعائلة التجار لازاريان (لازاريف) في موسكو، كل هؤلاء كانت لهم اتصالات بجماعة مدراس وتأثروا بهذه الأفكار (انظر الفصل 16). ورغم أن مدراس كانت أهم المراكز الثقافية الأرمنية في الهند لمعظم القرن الثامن عشر، فإنها سرعان ما خبت أمام أنشطة جالية كلكتا. في سنة 1797م، أسس الأرمن في كلكتا مطبعتهم. وفي عام 1818م، كانوا يصدرون مجلة أسبوعية أرمنية بعنوان مرآة كلكتا *Mirror of Calcutta*. وأنشئت مطابع أخرى نشرت أعمالاً لمؤلفين أوروبيين بترجمة أرمنية. وفي عام 1821م أُقيمت كلية أرمنية. وفي عام 1845م، ظهرت دورية مهمة بعنوان أزجاسير (مجد الوطن *Azgasir*). ثم تغير اسمها فيما بعد إلى أزجاسير أراتياتان (محب الوطن الأراتياتان *Azgasir Araratian*).

(5) الثورة العظمى *The Glorious Revolution*. وتسمى أيضاً ثورة 1688م. كانت نتيجتها الإطاحة بجيمس الثاني ملك إنجلترا في 1688 على يد اتحاد من البرلمانيين بالتعاون مع نائب الملك الألماني ويليام الثالث. ويسمىها البعض الثورة البيضاء، قائلين بأنها كانت خالية من إراقة الدماء. لكن الواقع أنه كانت هناك حرب وخسائر في الأرواح في أيرلندا وسكوتلندا. ولذلك يعتبر هذا الرأي ينطلق من مركزية، إنجليزية. وبالتالي يعتبر البعض على تسميتها بالثورة العظمى أيضاً. (الترجمة)

وكان هذا بفضل نشاط ميسروب تاغياديان (1803-1859م) Mesrop Taghiadian الذي تخرج من كلية بيشوب في كلكتا، وقام بالتدريس في الكلية نفسها، وفيما بعد أسس مدرسة أرمنية للأولاد والبنات، وفي أواسط القرن التاسع عشر، كانت تطبع في الهند عشرة صحف أرمنية. وكذلك أصدر الأرمن في مدراس أول كتاب باللغة الفارسية يطبع خارج إيران.

ولكن كانت هناك مؤثرات أخرى تقوم بعملها، وهو ما سوف يغير من وضع الجاليات الأرمنية في الهند. أثناء القرن التاسع عشر، تغير موقف البريطانيين تجاه ممتلكاتهم في الهند. ورغم أن إنجلترا كانت قد ضمنت سيادتها على شبه القارة بعد معاهدة باريس في 1763م، فإن الفرنسيين استعادوا اقتصادهم ومراكزهم الثقافية في الهند. وخلق غزو نابليون لمصر حالة عامة من "الفرانكو فوبيا" (الخوف من الفرنسيين) في إنجلترا. ورغبة في تخلص الهند من كل نفوذ فرنسي. وفي الوقت نفسه، كان اللورد ريتشارد ويلزلي، الحاكم العام البريطاني، عازماً على تخلص الهند من حكامها الأهليين وجعل شبه القارة بكاملها خاضعة للتاج البريطاني. وأثناء توليه لمنصبه (1789-1805م) بدأ عملية سوف تستمر طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتحول الهند إلى "درة التاج" للإمبراطورية البريطانية. وفي الوقت نفسه، وسع الإنجليز من نفوذهم في أماكن أخرى من جنوب آسيا، خاصة بورما (ميانمار الحالية)، والبنجاب وأفغانستان. وأصبح تحويل الجاليات الأرمنية في الهند إلى الثقافة الإنجليزية، بدرجة أو بأخرى، أمراً حتمياً.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت قد مدت سكك حديدية وخط تلغراف في الهند: مما سهّل قيام الحاكم العام الجديد ماركيز دالهوسي، بتحدي التقاليد الهندية وانتهاك عدد من الإمارات المستقلة. ووصل التوتر إلى نقطة حرجة في م عندما قدم البريطانيون بندقية جديدة لتستخدمها القوات الهندية التابعة للجيش البريطاني في الهند، والتي كانت خراطيشها تُشعّم بدهن الخنزير والبقر. وقبل إدخال الذخيرة داخل البنادق، كان يُطلب من جنود القوات المحلية (ويُسمون "سباهي") أن يقضوا طرف الخرطوشة بالفم. وبدا أن الإنجليز غير مدركين لحقيقة أن الدين الإسلامي يمنع أكل الخنزير، وأن الديانة الهندوسية تقدس البقر. وحدث تمرد عُرف باسم تمرد السباهي في الهند كلها، وقُتل عدد من الجنود البريطانيين وعائلاتهم. وفقد التجار الأرمن، الذين نظر الهنود إليهم كشركاء

للبريطانيين، ممتلكاتهم فيما جرى من نهب للأعمال الأوروبية، خاصة في كلكتا. وفي عام 1858م، تمكنت الحكومة البريطانية من التحكم التام في الهند وجعلت منها مستعمرة للتاج البريطاني. واستمر حكم بريطانيا للهند، والذي يُسمى الراج⁽⁶⁾، حتى عام 1947م. وجاء بنظام جديد. غطى رجال الأعمال والإداريين البريطانيين كل مكان في الهند. وتم تدريب الهنود على العمل تحت الإشراف البريطاني، وقد الأرمين امتيازاتهم الاقتصادية. وكانت الجالية الأرمنية في كلكتا هي الوحيدة، التي استمرت في حالة حيوية. ويرجع الفضل أساساً في ذلك إلى شركة تعاونية تجارية، شكلها عدد من التجار استطاعت منافسة البريطانيين. واستطاعت المؤسسات الأرمنية: الكلية والكنيسة والنوادي والمؤسسات الخيرية، أن تحافظ على حوالي ألف من الأرمين في كلكتا بنهاية القرن التاسع عشر.

لكن الأرمين في أجزاء أخرى من الهند، بدأوا يهاجرون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولحق بعضهم بعائلاتهم وشركائهم في بورما وماليزيا أو أندونيسيا. واستطاع الأرمين في بورما الحصول على احتكار لعدد من حقول البترول، وفتحوا شركات لبناء السفن والنقل البحري. وأصبح أرمني يدعى الكابتن مانوك Manouk على شهرة كبيرة بالتوغل في البحار. ومنحته الحكومة البورمية وساماً. وفي النهاية اشترى الأرمين فندق ستراند الشهير في رانجون وفتحوا أعمالاً وفنادق في ماليزيا أيضاً. ولا تزال كنيسة القديس يوحنا المعمدان الأرمنية قائمة في رانجون. وأصبحت سنغافورة مركزاً أرمنياً مهماً، عندما جعلها البريطانيون أحد النقاط المركزية لإدارتهم الاستعمارية. وفي أواسط القرن التاسع عشر، كان الأرمين في الهند قد بنوا أول كنيسة مسيحية (كنيسة القديس جريجوري المُنوّر) في سنغافورة، وكانوا ينشرون دورية منتظمة في سنغافورة.

وهاجر بعض الأرمين الهنود إلى الصين، حيث كان التجار الأرمين الذين استقروا هناك قبل ذلك قد بنوا كنيسة أرمنية في كانتون عام 1307م. واستقر التجار والحرفيون الأرمين في شنغهاي، ودرس بعضهم الثقافة الصينية، مثل هوفهانيس غازاريان Hovhannes Ghazarian.

(6) راج Raj. كلمة نمي حاكم في اللغة السنسكريتية، وتُستخدم في اللغة الإنجليزية كمصطلح يعني "الحكم البريطاني للهند". (المترجمة)

ولا تزال ترجمته للإنجيل من اللغة الأرمنية إلى الصينية عملاً يحظى باحترام الباحثين. واستقر عدد من التجار الأرمن في هونج كونج ومكاو. وقد شارك أحد الأرمن هو پول تشاتر Paul Chater في تصميم ميناء هونج كونج. كما كان أرمني آخر هو خاتشيك أسفادزادريان Khachik Asvadzadarian، أحد مؤسسي جامعة هونج كونج.

وقد أظهرت الدراسات الحديثة وجود جالية صغيرة من التجار في أفغانستان (كابول وهرات وقندهار). وعملت جماعة أخرى من الأرمن كمدفعيين عديد من الأمراء الأفغان. ولكن بحلول القرن التاسع عشر لم يكن للأرمن قس، وكانوا يتكلمون اللغة الفارسية، وقد تبنوا أسماء فارسية. وأدت القلاقل في أفغانستان أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى إنهاء الوجود الأرمني هناك.

في كل مكان من جنوب وشرق آسيا خلال القرن التاسع عشر، بدأت الحكومات الاستعمارية الأوروبية بتعيين موظفيها ومسؤوليها وتجارها لإدارة المنطقة. وفقد الأرمن، الذين لعبوا دوراً مهماً في السابق، نفوذهم وبدأت أعدادهم تقل بشدة عند نهاية القرن التاسع عشر.

أقليات مَحْمِيَّة الجاليات الأرمنية في العالم العربي وأثيوبيا (من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر)

كان الأرمن جزءاً من الشرق الأوسط منذ بداية تاريخهم. فقد جاءوا إلى المنطقة بصفتهم من مواطني الدولة الفارسية، وعملوا بالتجارة واستقروا هناك أثناء العصور الهيليني والروماني. وكانوا في بعض الأحيان يُنقلون قسراً داخل المنطقة أثناء العصر البيزنطي. وبعد ظهور الإسلام والفتوحات الإسلامية استقر نظام جديد، ففي الدولة الإسلامية. كان مكان الفرد في المجتمع يتقرر أساساً وفقاً لديانته. وكان كل غير المسلمين، ومنهم الأرمن، يدخلون تحت تصنيف "الذميين". وهم الأقليات التي كانت تحظى بالتسامح والحماية، والذين لهم وضع التابعين، وعليهم أن يدفعوا ضريبة رءوس خاصة، هي الجزية، ولكنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية.

وبعد احتلال العثمانيين للأراضي العربية، كانت هناك جيوب أرمنية في كل مكان من المنطقة. وكان الحكم العثماني على الأراضي العربية أحياناً ضعيفاً، وكانت الجاليات الأرمنية تتطور فيها بشكل مختلف إلى حد ما عن الجاليات الأخرى في شرق أوروبا أو الأناضول، الواقعة تحت الاحتلال العثماني. وبالإضافة إلى ذلك، كان لوصول الفرنسيين والبريطانيين في القرن التاسع عشر تأثير مهم على الأرمن في الأراضي العربية.

الجاليات الأرمنية في مصر وأثيوبيا

كان للأرمن علاقات تجارية مع مصر منذ أقدم العصور؛ فقد استقر بعض الأرمن في الإسكندرية أثناء العصر الهيليني. وكان المصريون يفضلون الأرمن الراضين لقرارات خلقيدونية على الإغريق، فكانوا يرحبون بهم. ولا توجد معلومات كافية عن الأرمن في مصر بعد الفتح العربي، فيما عدا وصف يرجع إلى القرن السابع الميلادي عن مجموعة من الجنود تبلغ خمسمائة أرمني تحت قيادة ضابط أرمني. وهناك ثناء موجه لشخص

يدعى فارتان الرومي Vartan Rumi. لبنائه سوقاً مسقوفة تُدعى ”سوق فارتان“ في القسطنطينية. وفي القرن التاسع هناك ذكر لحاكم أرمني يدعى علي بن يحيى أبو الحسن الأرمني.

نمت الجالية الأرمنية وحازت أهمية تحت حكم الدولة الفاطمية (969-1117م). وهي فترة احتفظ العرب أثناءها بعلاقات سلام مع بيزنطة وتعاونوا معهم ضد التهديد التركي في سوريا والأناضول. والواقع أنه فيما عدا الجزء المبكر من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (996-1021م). كان المسيحيون واليهود يعاملون معاملة طيبة نسبياً في مصر. وكان الفاطميون يسيطرون على الشام. ومن ثم فقد كانوا يجاورون الأراضي التي تحكمها أسرة بجاتوني الأرمنية. واتجه التجار والجنود الأرمن إلى القاهرة. وقد ذكرت بعض المصادر العربية عدداً من الوزراء الأرمن. وأشهرهم بدر الجمالي (1070-1094م). وبعض هؤلاء الوزراء الأرمن كانوا عبيداً أسلموا وتسلقوا سلم السلطة المصرية. وابن بدر الجمالي. الأفضل. أمقب والده في منصبه (1094-1121م). وكانا كلاهما يدعمان الفنون والعلوم ببناء المكتبات والمراسد. وهناك أرمني آخر. هو بهرام الأرمني (فهرام پهلانوني) Bahram al-Armani (Vahram Pahlavuni). والذي كان ينتمي إلى رجل الدين الكنسي العظيم نرسيس شنورحالي Nerses Shnorhali والذي كان من قبليقية. وقد شغل بهرام منصب قائد الجيش. وكان وزيراً أيضاً. وبنى المهندسون الأرمن عدة بوابات في سور القاهرة. وكانت هناك روابط تجارية وسياسية بين قبليقية والدولة الفاطمية. وكان الفاطميون يجندون الجنود الأرمن من قبليقية. واستقر بعض التجار والحرفيين من أرمن قبليقية في القاهرة والإسكندرية. وهناك تقديرات بوجود حوالي 30 ألف أرمني في مصر أثناء ذروة الحكم الفاطمي.

ولم تكن الدولة الأيوبية في مصر (1169-1250م) مواتية للأرمن. الذين كان يُنظر إليهم باعتبارهم حلفاء للفاطميين المخلوعين وأصدقاء للصليبيين. ولم يكن صلاح الدين الأيوبي (1169-1193م). مؤسس الدولة الأيوبية وبطل الإسلام ضد الصليبيين. ودوداً تجاه الأرمن. ورغم أنه اتخذ عدداً منهم في خدمته. فإنه تسبب في رحيل عديد منهم إلى قبليقية وأثيوبيا.

ساعات أحوال الأرمن المصريين أكثر أثناء العصر المملوكي (1250-1517م)؛ إذ عامل المماليك كل المسيحيين معاملة عدائية. وهاجموا قيلية والدول الصليبية الباقية بعد الحروب الأيوبية. وجاءوا بالعبيد الأرمن من قيلية وسوريا كأسرى. وحدث هجوم على قلعة الروم نتج عنه أخذ عدد كبير من الأرمن بمثابة أسرى وعبيد. وكان الأطفال المسيحيون يؤتى بهم من روسيا وأرمينية كعبيد ويجندون في الجيش المملوكي. كما أسر المماليك بعض الأرمن من قبرص.

وبعد احتلال العثمانيين لمصر في عام 1517م. تدهورت أحوال الجالية الأرمنية أكثر. لكن في القرن السابع عشر. تسببت النجاحات العسكرية العثمانية والاستقرار في المنطقة في زيادة التجارة. فجاء بعض التجار والحرفيين الأرمن من حلب واسطنبول. وكانت فترة الازدهار قصيرة، ففي نهاية القرن الثامن عشر. كانت معظم الكنائس الأرمنية في مصر قد أصبحت أطلالاً، ولم يبق إلا القليل من العائلات الأرمنية، التي اضطرت لاستخدام الكنائس القبطية. وهناك ما يدل على أن الأرمن عملوا في مهن وضيعة وعاشوا في أفقر أحياء القاهرة.

وتحسنت أحوال الأرمن في النصف الأول من القرن التاسع عشر أثناء حكم محمد علي باشا، وخاصة أثناء فترة حكم ابنه إبراهيم باشا، الذي شجع الأرمن على زراعة القطن في أضنة. وبالإضافة إلى ذلك، جذبت القاهرة والإسكندرية التجار والحرفيين من المورة وآسيا الصغرى والشام، حيث كان الولاة التقدميون يقومون بإصلاحات تعليمية واقتصادية وعسكرية. هاجر إلى مصر صياغ وترزية وصانعو أحذية من الأرمن، ووصل بعض الأرمن إلى مراكز بارزة.

وأبرز الأرمن في مصر عائلات نوباريان. الذين كانوا في الأصل من كاراباغ، واستقروا في أزمير والقاهرة. ويوسفيان وتشراكيان. وكان أهم أعضاء عائلة نوباريان هو نوبار (باشا)، الذي درس في أوروبا، وفي عام 1842م. عندما كان في السادسة عشرة. دعاه خاله بوغوص بك إلى مصر. وكان بوغوص بك في منصب حكومي يتولى شئون التجارة والشئون الأجنبية. وأصبح نوبار سكرتيراً لخاله. وبعد موت الخال عام 1844م، حصل على

لقب بك. وأصبح سكرتيراً للمحمد علي. وبعد موت إبراهيم باشا، عمل نوبار في خدمة عباس وسعيد في مفاوضاتهما مع فرنسا وإنجلترا. والتقى نوبار مع رجل الدولة الإنجليزي جورج كاتينج. وأرسل إلى لندن من قبل الوالي المصري لمناقشة العلاقات المصرية الإنجليزية مع اللورد بالمستون في 1851م. وأثناء حكم إسماعيل (1863-1879م) ارتفعت مكانة نوبار والأرمن المصريين كثيراً.

منح إسماعيل نوبار لقب باشا اعترافاً بمواهبه، وأسبغ عليه امتيازات الوضع الدبلوماسي. وأرسله في عدد من المهام. وفي عام 1867م، استطاع إسماعيل أن يحصل من السلطان العثماني على لقب الخديو. وورثة العرش لنسله. ورغم أن مصر كانت تابعة للدولة العثمانية رسمياً، فإنها أصبحت مستقلة فعلياً، وبدأت تتوسع في أثيوبيا والسودان. وسرعان ما وضعت مثل هذه المغامرات، بالإضافة إلى حفر قناة السويس، اقتصاد مصر تحت سيطرة الدائنين الأوروبيين، وبنهاية القرن أدت إلى فرض بريطانيا حمايتها على البلاد. عمل نوبار باشا مع اثنين من الخديوية بعد إسماعيل، وكان رئيس نظار مصر ثلاث مرات. وتبنى عدداً من الإصلاحات الاجتماعية والزراعية والقضائية المهمة. لكن بعض المصريين لم يكونوا يحبونه ويعتبرونه ذا نزعة غربية. لكن نوبار في الواقع كان ذا نزعة مصرية. فهو لم يؤسس فقط محاكم بممثلين محليين، ولكنه أيضاً عارض بيع أسهم قناة السويس للبريطانيين. ودخل في صراع مع الموظفين الأجانب، عندما بدأوا يتدخلون في إدارة مصر. وأدت مؤامرات وزارة الخارجية البريطانية لإقالته في عام 1888م. وعاد نوبار في عام 1894م رئيساً للنظار، وخدم في الحكومة عاماً آخر.

وأثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مصر. انتعشت أحوال الأرمن من الصياغة والتجار والحرفيين والمزارعين. مثل هوفهانيس يوسفيان Hovhannes Yusufian. وبُنيت الكنائس والمدارس والمراكز الاجتماعية الأرمنية في القاهرة والإسكندرية. حيث كان يعيش ما يقرب من 50 ألف أرمني. ورغم أن الأوروبيين كانوا يفضلونهم. فإن الأرمن غالباً ظلوا موالين للأسرة الحاكمة المصرية. وكان لهم أثر كبير في تحديث البلاد.

تاجر الأرمن مع أثيوبيا منذ القرن الأول الميلادي. ولكنهم بدأوا يستقرون هناك أثناء الفتح العربي للشرق الأوسط في القرن السابع. واستمرت الجالية الأرمنية في أثيوبيا على علاقة بالعالم العربي، اقتصادياً وثقافياً. وقد رحبت الكنيسة الأثيوبية، مثل الكنيسة القبطية المصرية، بالأرمن بسبب موقفهم المناهض لقرارات خلقيدونية. وأسس الأرمن علاقات طيبة مع الأسرة الحاكمة، وبعضهم تولوا مناصب كبيرة. وكانت الكنيسة الأثيوبية بشكل خاص تدين بالفضل للكنيسة الأرمنية: لأنها سمحت لهم بإقامة القداديس في الكنائس التي يسيطر عليها الأرمن بالقدس. وفي القرن السادس عشر كان أحد الأرمن الأثيوبيين واسمه ماتيفوس Matevos مبعوثاً للبرتغال، وقام آخر اسمه مراد بالتفاوض على اتفاقيات في هولندا نائباً عن الأثيوبيين.

وفي عام 1875 م، وصل من الشرق الأوسط المزيد من المهاجرين. وعمل عدد منهم حكاماً للأقاليم، كما عملوا موظفين في عدد من السفارات الغربية. وكان معظم الأرمن الأثيوبيين يعملون بالتجارة، يستوردون المعادن ويصدرون الجلود والقهوة. وبنيت في العاصمة الأثيوبية، أديس أبابا، كنيسة ومدرسة أرمنية. وبمرور الوقت كانت هناك زيجات بين الأرمن والأثيوبيين، ونتيجة هذه الزيجات ولد عدد من الأرمن ذوي البشرة السوداء.

الجاليات الأرمنية في الشام وما بين النهرين

يرجع تاريخ الجاليات الأرمنية في الشام، وما بين النهرين إلى ما قبل التاريخ الميلادي. كانت الأراضي الأرمنية على حدود المنطقة، واعتاد التجار الأرمن الذهاب إلى سوريا في عصر الدولة الأخمينية، واستمروا يأتون في العصر الهيليني. خاصة في عهد الدولة السلوقية، عندما استقر أرمن كثيرون في أنطاكية. وأثناء حكم تيجران الثاني، كان جزء من سوريا تحت الحكم الأرمني. واستقر في الشام إدرايون وحرفيون وتجار أرمن. واستمروا يعيشون هناك بعد استيلاء الرومان على المنطقة. وكان الأرمن يقيمون في مدن أنطاكية و"إديسا" (والتي ذكرها العرب باسم "الرُها"، وهي أورفا الحالية)، وعميدا (ديار بكر الحالية)، ويتعلمون في عدد من مؤسسات التعليم العالي. وتقول المصادر الأرمنية أن ميسروپ ماشوتس وعديداً من تلاميذه ذهبوا إلى الرها وعميدا بحثاً عن نموذج للأبجدية الأرمنية.

لكن المهجر الأرمني يمكن تتبع بداياته في الشام بشكل أكثر تأكيداً إلى القرن السادس الميلادي. ففيما بين عامي 529-540م، ومرة أخرى في عام 544م، قام الملك الإيراني خسرو، بعد هزيمته للبيزنطيين، بنقل بعض الأرمن - مع بعض المسيحيين النسطوريين - في الرها وأنطاكية ليكونوا حائط صد ضد بيزنطة. وهاجر عدد من الأرمن البيزنطيين إلى الشام، ضيقاً بسياسة فارس تجاههم. وقام البيزنطيون، الذين أرادوا إضعاف النبلاء الأرمن، بإجبار آخرين على الرحيل إلى الشام أيضاً.

وبعد الفتوحات العربية وتأسيس الخلافة الأموية في دمشق، أصبح الأرمن في سوريا تحت حكم الأمويين. وبشكل عام، كانت العلاقة بين الحكام العرب والأمراء والنبلاء في أرمينية تحدد الظروف المعيشية للأرمن في الشام. كان الأرمن تحت الحكم الأموي أكثر نجاحاً بشكل عام من عصر الدولة العباسية. وفي الوقت نفسه، بدأ البيزنطيون إعادة توطين المواطنين الأرمن المتمردين على حدودهم مع سوريا. وكانت هذه السياسة أسهل عندما استولى البيزنطيون على الجزء الشمالي من سوريا في القرن التاسع. وبدءاً من القرن العاشر، وطّن البيزنطيون مزيداً من الأرمن في المنطقة ليكونوا بمثابة حائط صد ضد العرب، وأدى سقوط البجراتونيين إلى مجيء المزيد من الأرمن إلى المنطقة، ونتج عن ذلك قيام قيلية الأرمنية.

وأثناء الحملات الصليبية، كانت سوريا مقسمة تحت الحكم المتعاقب للفاطميين والصليبيين والأيوبيين. وكان الأرمن يعيشون تحت مختلف الحكام المسيحيين والمسلمين. وكانوا يقيمون في مدن عديدة. وبنوا عدداً من الكنائس، وعملوا تجاراً صغاراً وحرفيين. وفي القرن الثالث عشر، التحق الأرمن في قيلية بالمغول، أملاً في دولة أقوى، وهاجموا القوات المملوكية في سوريا. ورغم أن ذلك نجح في البداية، فإن المماليك هزموا الجيوش المغولية الأرمنية عام 1260م، واتحدت سوريا مع مصر. وفي القرن الرابع عشر، تسبب انهيار الخانيين، حكام المغول في الشرق الأوسط، وتحولهم إلى الإسلام، في تمكين المماليك من الاستيلاء على قيلية والدول الصليبية الباقية.

واستقر هؤلاء الأرمن الذين بقوا بالمنطقة أساساً في الشمال الغربي، خاصة في الإسكندرونة و حلب. وكانت هناك أحياء أرمنية صغيرة في أنطاكية ودمشق واللاذقية

وبيروت وجبل موسى (موسى داغ، أو موسى لير). وأضاف إقامة مقر جاثليقوسية أرمنية لقيليقية في سبب عام 1446م (انظر الفصل الحادي عشر) مزيداً من الاعتبار للجالية. وأصبحت حلب، الواقعة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، هي المركز الأرمني الرئيسي في سوريا. وعانت الجاليات الأرمنية الأخرى في سوريا تحت الحكم المملوكي. فأخذ منهم المساجين والعبيد إلى القاهرة وأجير العديد من الأرمن على الهجرة إلى أوروبا الغربية أو إسطنبول.

وجاء الاحتلال العثماني بالاستقرار ونمو التجارة، وهو أوضح ما يكون في حلب. فمنذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، كان المهاجرون الأرمن يأتون إلى حلب من مرعش وزيتون وساسون وأرزروم وإرزنجان. وبنيت بضعة كنائس في حلب أثناء تلك الفترة. وفتحت الاتفاقية الفرنسية العثمانية عام 1535م وغيرها من الاتفاقيات مع مختلف الدول الأوروبية المنطقة للتجارة والنشاط الإرسالي. وحصل الأوروبيون على المزيد من الحقوق في المنطقة، وتاجروا تحت حماية قناصلهم من خلال وسطاء مسيحيين ويهود من أهل البلاد. وقام تجار جولفا بدور بارز في حلب وسيطروا على معظم تجارة الحرير. وبعد انتقالهم إلى جولفا الجديدة، استمر جزء من تجارتهم عبر حلب. وأقام العثمانيون داراً لسك العملة في حلب، وفي القرن السابع عشر عمل عدد من الأرمن مديريين لهذه الدار. وكان الأرمن واليهود هم أهم من يتولى أعمال تبديل العملة في هذه المدينة أيضاً. وتأثرت أعمال الأرمن في الشام نتيجة تدهور جولفا الجديدة، والحروب النابليونية، وحملات محمد علي باشا وإبراهيم باشا إلى سوريا، وافتتاح قناة السويس. ورغم تراجع اقتصاد حلب، فقد احتفظ التجار الأرمن ببعض قوتهم الاقتصادية. وفي نهاية القرن التاسع عشر، ازدهرت المدينة مرة أخرى بفضل الأنشطة التجارية والمصرفية للأرمن في إسطنبول. وأقيمت في حلب مدارس أرمنية ومراكز ثقافية، وجاء إلى المدينة سكان أرمن جدد.

وعلى العكس، لم يشكل الأرمن في دمشق قواعد تجارية مهمة، لكنهم كانوا أساساً أصحاب محال وحرفيين. أما الأرمن في أنطاكية والإسكندرونه وحمص واللاذقية وكسب وجبل موسى، فقد كان من بينهم تجار قليلون: فقد كانوا يعملون أساساً بالزراعة والحرف.

وكان عدد من القرى في المنطقة يعمرها الأرمن وحدهم. وكانوا يزرعون الدخان وينتجون الزيت من أوراق الغار.

كانت هناك أيضاً جاليات أرمنية صغيرة فيما بين النهرين، وهي المنطقة المعروفة اليوم بالعراق. وقد تركز الأرمن في بغداد والموصل والبصرة، وبنوا كنائس عديدة. وقد استقبلت هذه الجاليات. كما سوف نرى، مهاجرين جدد في النصف الأول من القرن العشرين.

تشكلت الجالية الأرمنية في لبنان بعد سقوط فيلقية، عندما استقر بعض الأرمن في طرابلس وصيدا. وكانت لبنان فريدة لأنها تحت حكم السادة الدروز والمارونيين. الذين كانوا يسعون أحياناً لتحرير أنفسهم من الحكم العثماني المباشر. وفي عام 1736م، اتحدت الكنيسة المارونية مع روما وفتحت مناطقها للجائين اليونانيين والأرمن والشوام، خاصة أولئك الذين تحولوا إلى الكاثوليكية. وبدأ الأرمن الكاثوليك، الذين اضطهدهم الكنيسة الأرمنية في الإمبراطورية العثمانية، يستقرون في لبنان. وفي عام 1742م، أقام الفاتيكان بطريركية كاثوليكية أرمنية هناك. وانتهى النزاع الطائفي بين الدروز والمارونيين بمذابح للمسيحيين. والذين في المقابل حثوا الفرنسيين على إرسال قوات إلى لبنان في عام 1861م. وأجبرت القوى الأوروبية العثمانية على قبول وضع خاص بالنسبة للبنان؛ ليكون منطقة مستقلة تحت حاكم عام مسيحي. وأمد هذا الاتفاق المنطقة ببعض الاستقرار، فأفاد منه الأرمن؛ وفيما بعد تولى اثنان من الأرمن، كلاهما كاثوليك، منصب الحاكم العام. وبنهاية القرن التاسع عشر، كانت بيروت تجذب الأرمن الذين ينتمون إلى الكنيسة الرسولية الأرمنية، والذين كانوا يهربون من الاضطهاد الديني والسياسي في الأناضول.

وقد تناولنا من قبل تاريخ الجالية الأرمنية في القدس حتى العصور الوسطى. وقد وقعت الجالية تحت حكم المماليك، وعانت بالدرجة نفسها ككل المراكز الأرمنية في المنطقة. وبدأ الحكم العثماني عام 1517م، واستمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وانجر الأرمن إلى نزاعات بين الكنيسة الكاثوليكية (التي تدعمها فرنسا) والكنيسة الأرثوذكسية (التي تدعمها روسيا) فيما يختص بحقوقهم بالنسبة للأماكن المقدسة. واستغل العثمانيون هذا الوضع. ورغم أنهم في بعض الأوقات كانوا يؤيدون البطريركية الأرمنية، فعلى المدى الطويل خسر الأرمن بعض تميزهم التاريخي في النزاعات الكاثوليكية والأرثوذكسية.

كان من بين الأرمن المقيمين في المدينة رجال الدين والمدنيون. وكان دير سانت جيمس يخدم، واستمر يخدم كمركز تعليمي وثقافي للجميع. ولم يكن سكان القدس من الأرمن عددًا كبيرًا أبدًا، ويبدو أن عددهم تناقص بعد الاحتلال العثماني. ونشطت الجالية إلى حد ما في القرن التاسع عشر. عندما تم تأسيس معهد تعليمي عام 1843م. كانت المكاسب الاقتصادية للأرمن في مصر وسوريا، ونهضة الأمراء الأرمن في إسطنبول في القرن التاسع عشر، مما مكن الأرمن الأثرياء من دعم البطريركية الأرمنية في القدس. وساعد الأرمن على الاحتفاظ بدورهم التاريخي من الإشراف على بيتي حنَّان وقيافا⁽⁷⁾. والاشترك في الإشراف على كنيسة القيامة، ومقبرة مريم في «الحديقة الجثمانية». وكنيسة الصعود في جبل الزيتون، وكنيسة الميلاد في بيت لحم. ويأتي الأرمن في المكانة الثالثة في حق الإشراف على الأماكن المقدسة في القدس بعد كنيسة الروم الأرثوذكس. والكنيسة الرومانية الكاثوليكية. واعتبارًا من عام 1866م. دعمت الإعانات المالية من الأمراء الأرمن أيضًا إصدار الدورية الشهرية سيون Sion، التي كانت تصدر في القدس. كانت معظم الجاليات الأرمنية في الأراضي العربية (انظر الخريطة 27) في حالة تدهور عند نهاية القرن التاسع عشر. ولم يعرف الإقليلون أن أرمينية التاريخية والأرمن الذين بقوا هناك سوف يضطرون إلى تحمل كارثة أخرى. ولكن أحداث السنوات الأخيرة من ذلك القرن، والعقود القليلة في بداية القرن التالي جعلت الموت والتدمير الذي سببته الغزوات السابقة على أرمينية في صورة باهتة، مقارنة بما جرى في هذه الفترة التي جاءت بآلاف من المهاجرين الأرمن الجدد إلى الشرق الأوسط، حيث بدأوا. بفضل الضيافة العربية، فصلًا جديدًا في قصة كفاح الشعب الأرمني.

(7) في حياة السيد المسيح كان حنَّان رئيس الكهنة ثم ترك منصبه لقيافا، والذي كان زوج ابنته. وفي مجلس قيافا حكم على السيد المسيح بالموت. (المترجمة)

وَعُودُ الْحَرِيَّةِ الْأَرْمَنِ فِي الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرَّوسِيَّةِ (حِوَالِي 1550-1828 م)

كان للأرمن اتصالات بروسيا الكييفية Kievan Russia⁽⁸⁾ منذ القرن العاشر. لكن وجودهم في موسكو لم يُسجل إلا عند نهاية القرن الرابع عشر. ومنذ القرن الخامس عشر فصاعدًا، هناك أدلة تؤكد نشاط التجار والحرفيين الأرمن هناك؛ إذ كان الأرمن إحدى الجماعات العرقية المتعددة، التي استخدم المغول من القبيلة الذهبية أبناءها كتجار ورسل وجامعي ضرائب. ومن ثم فقد بدأوا يسافرون في أنحاء القوقاز والقرم، وخاصة على طول نهر الفولجا حيث استقروا في العديد من مدن تلك المنطقة.

وعندما هزم إيفان الرهيب المغول واستولى على كازان عام 1552 م، وأستراخان عام 1556 م، كانت هناك بالفعل مجموعة كبيرة من الأرمن في المدينتين. وبنهاية القرن، وصل الروس إلى القوقاز وأقاموا مستعمرات على نهر تريك Terek. وأثناء القرن السابع عشر، رفع الأرمن والجورجيون التماسًا إلى الروس المسيحيين لمد وجودهم إلى ما وراء القوقاز. لكن رجال القبائل المسلمين في داغستان أحاطوا بالجيوش الروسية، وسرعان ما تراجع الروس وراء نهر تريك.

لم تؤثر هذه الهزيمة العسكرية بالسلب على التجارة، أو على الجزء الذي كان يعمل فيه الأرمن. وأوجد تحكم الروس في الطرق المائية للمنطقة، بحر قزوين وبحر الشمال ونهر الفولجا، طرقًا مستقرة آمنة بين أوروبا وآسيا، والتي كانت أقل تكلفة من الممرات البحرية التي تسيطر عليها السفن الأوروبية. واستفاد التجار الأرمن جيدًا من تلك الطرق الأرخص. وشجعت الأحوال المواتية للجالية الأرمنية في إيران تصدير البضائع الآسيوية إلى

(8) روسيا في عصر كييف: كانت روسيا الكييفية دولة قديمة أغلبها من السلافيين الشرقيين. تسيطر عليها مدينة كييف منذ عام 880م تقريبًا، وحتى القرن الثاني عشر الميلادي. (المترجمة)

روسيا وبقية أوروبا. واستيراد البضائع الأوروبية إلى روسيا وإيران والهند والإمبراطورية العثمانية. وأقام الأرمن محطات تجارية. وليست جاليات بالمعنى الحقيقي. في كازان ونوفجورود Novgorod واستراخان وسمولينسك Smolensk ونجني. نوفوجورود Niz-hni-Novgorod وموسكو. وأصبحت أستراخان بؤرة تجمع هذه التجارة. وبحلول عام 1639م بدأت جالية أرمنية تتشكل بها.

تكونت الجالية الأرمنية الكبيرة في روسيا الحديثة أصلاً عام 1660م. عندما سعى التجار الأرمن من جولفا الجديدة. والذين يمثلون التجار الأرمن في إيران والهند. إلى زيادة أنشطتهم التجارية مع روسيا. فأهدوا القيصر ألكسيس الأول (1645-1676م) بالعرش الألماسي الشهير (وهو معروض حالياً في متحف الكرملين) وهدايا أخرى نادرة. وفي النهاية، تم إبرام اتفاقية بين التجار الأرمن وحكام روسيا عام 1667م. وبمقتضى هذه الاتفاقية. حصل الأرمن على احتكار بيع بضائع فارسية معينة في روسيا. على رأسها الحرير. وبنهاية القرن السابع عشر، كان الأرمن قد بنوا مدبغة للجلود أيضاً في موسكو.

وسرعان ما اتسعت فرص الأرمن في روسيا لما هو أبعد من التجارة. فقد وجد الأرمن وظائف في الجهاز الدبلوماسي الروسي. ووظف البلاط الروسي عدداً من الفنانين الأرمن. ونتيجة هذا الأمان والدعم من الدولة. نشأت عدة جاليات أرمنية في القرن الثامن عشر. وفي عام 1716م مُنحت الكنيسة الأرمنية في روسيا اعترافاً رسمياً، لأهداف بعضها سياسي، وأقيم منصب أسقفي في مركزها في أستراخان. وأُعفي الأرمن من الخدمة العسكرية. وسمح لهم ببناء كنائسهم. وممارسة شعائرتهم. وبناء المدارس. وإقامة المطابع. وسوف تعزز هذه الفرص في النهاية قيادة جديدة وروحاً جديدة. أدت بعد قرون من الاحتلال والتفسخ إلى آمال وخطط للتحرر السياسي.

بطرس الأكبر والأرمن

بحلول أواسط القرن السادس عشر، كان عدد من الجثالثقة في إتشميادزين قد بادروا ببيع وفود إلى أوروبا لإقناع الحكام الغربيين بتحرير الأرمن من الصفويين والعثمانيين المتحاربين. ووصلوا إلى درجة النظر في الاتحاد مع روما لإحراز ذلك. ورغم أن الشاه

عباس وخلفاءه المباشرين حسنوا أوضاع الأرمن كثيراً، فكما رأينا أنه بحلول أواخر القرن السابع عشر، كانت الامتيازات السياسية والاقتصادية للأرمن في إيران قد بدأت في التدهور. وفي عام 1677م دعا الجاثليق هاجوب الجولفاوي Hakob of Julfa إلى اجتماع سري لملوك كاراباغ والقيادات الدينية في أرمينا الشرقية. وعرض أن يرأس وفدًا إلى أوروبا لبحث مساعدة تحرير الأرمن من الحكم الإسلامي. وانتهى المشروع بسبب وفاة الكاثليق أثناء سفره. لكن أحد أعضاء الوفد، هو إسرائيل أوري Israel Ori، ابن أحد ميليكات سيونيك، استمر إلى أوروبا على مسؤوليته. وتقدم إلى البندقية وفرنسا، حيث بقى عدة سنوات يعمل تاجرًا، وأحياناً مرتزقة. وفي النهاية تزوج ودخل في خدمة يوهان فيلهلم Johann Wilhelm، أمير إحدى المقاطعات البلاطينية⁽⁹⁾. واتخذ أوري مبادرة تقديم تاج مملكة أرمنية مستعادة للأمير. وفي المقابل، أعطى الأمير أوري رسائل تأييد موجهة إلى ملك جورجيا وإلى الميليكات الأرمن في كاراباغ. وعاد أوري إلى كاراباغ عام 1699م. ورغم أنه قوبل بالشك، ولم يلق أي تشجيع من الجاثليق الجديد، فقد لقي أوري دعمًا من عدد من الميليكات. وعاد إلى أوروبا، حيث أرسله يوهان فيلهلم إلى من يعلوه، ليوهولد إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، في فيينا، وأبدى الإمبراطور بعض الاهتمام بمشروع أوري، ولكنه أشار إلى أنه من الصعب إنجاز شيء دون تعاون روسيا، حيث لا بد من عبور أراضيها للوصول إلى أرمنية.

استمر أوري المثابر أبداً إلى روسيا، وفي عام 1701م استطاع أن يأخذ موعدًا مع بطرس الأكبر (1682-1725م). ووعد بطرس، الذي كانت له خططه الخاصة للقوقاز، بأن روسيا ستكون مستعدة للمساعدة في الخطة المقترحة ما أن تنتهي من حربها ضد السويد. وفي الوقت نفسه، دخل أوري في خدمة بطرس. وعُين رسولاً إلى بلاط إيران، وأُرسل أوري إلى أصفهان لتقييم حالة الفوضى في إيران، وربما للحصول على تعاون الأرمن الإبرانيين لتنفيذ خطته. وقضى أوري عامين في إيران (1709-1711م) دون أي نجاح يُذكر لمجهوداته. وفي عام 1711م، كان في طريق عودته إلى سان بطرسبرج عندما توفي في

(9) البلاطينية Palatinat هي منطقة يديرها "كونت بلاطين". وكان في الأصل ممثلاً مباشرًا للملك. ولكن فيما بعد أصبح حاكمًا وراثيًا على مقاطعة حاصصة لأحد لوردات التاج. وهي بولندا ظلت البلاطينات غير متوازنة أو متوازنة حربيًا. ويقوم الملك بتعيين حاكمها مدى الحياة، وعادة تظل داخل أسرة واحدة. (الترجمة)

أستراخان، ودُفن في الكنيسة الأرمنية هناك. كان أوري أول مدافع عن تحرير أرمينية من الحكم الإسلامي، وإن لم يكن الأخير. فقد كان هناك آخرون من ذوي الإرادة القوية وبدافع ذاتي مثله، من الدينيين والعلمانيين على السواء، والذين لعبوا دورًا في لم شمل الأرمن وجذب انتباه القوى الأوروبية إلى محنة شعبيهم.

وفي الوقت نفسه، جاء انهيار الدولة الصفوية ومقتل عدد من التجار الروس في القوقاز ليعطي بطرس، الذي كان قد أنهى لتوه حربه مع السويد، الذريعة لغزو ما وراء القوقاز. مرة أخرى عبرت القوات الروسية نهر تريك في عام 1722م، واحتلوا المنطقة الساحلية لبحر قزوين. ولحق الأرمن من جورجيا وإيران وكاراباغ بحملة بطرس، وشكلوا فرقةً أرمينية. واعترض العثمانيون على ذلك، خشية من التواجد الروسي على حدودهم الشرقية، وبعد أن اكتشفوا أن روسيا تركز في توسعها على بحر قزوين، نقضوا معاهدة 1639م مع إيران، وغزوا أرمينية الشرقية وجورجيا في عام 1723م. ورغم أن بطرس منح ملاذًا آمنًا لكلتا الجماعتين المسيحيتين في روسيا، فإن مطالبات الأرمن والجورجيين بالمساعدة لم تلق استجابة. لم يكن بطرس يريد أن يخاطر بحرب مع الأتراك، وتوصل إلى اتفاقية معهم عام 1724م. ومن المثير للسخرية أنه، طبقًا لشروط تلك الاتفاقية، تستولي روسيا على المناطق التي كانت تسكنها أغلبية مسلمة في الجانب الشرقي من ما وراء القوقاز، بينما يستولي العثمانيون على مناطق تسكنها أغلبية مسيحية في الجانب الغربي من ما وراء القوقاز. أو أرمينية الشرقية وجورجيا. وهكذا انتهى الأمر بالأرمن دون الدعم الموعود من روسيا، وأرغموا على الاعتماد على أنفسهم. وجاء موت بطرس في 1725م لإنهاء الاهتمام الروسي بالمنطقة، وتراجع خلفاؤه إلى ما وراء نهر تريك.

ولم يجد الأتراك عناء في الاستيلاء على القلاع في يريفان، وناخيتشيفان وجنجة وجورجيا. وكذلك معظم أذربيجان الفارسية. لكن الميليكات الأرمن في كاراباغ وسيونيك (كما أشرنا في الفصل 13) استطاعوا إقامة دفاعات قوية من قلاعهم الجبلية، واحتفظوا باستقلالهم حتى أجبر نادر شاه الأتراك على الخروج من المنطقة عام 1735م. وفاوض نادر أيضًا الروس على الانسحاب من ما وراء القوقاز، وطوال الخمسين عام التالية ظلت روسيا خارج تلك المنطقة. ورغم أن الإمبراطورة أنا الروسية استمرت في سياسة دولتها

بتشجيع الأرمن على الاستقرار في مملكتها، وممارسة شعائهم الدينية تحت الحماية الملكية. فإن سياسة «الروسنة» التي اتبعتها الإمبراطورة إليزابيث قد أوقفت بناء الكنائس الأرمنية في موسكو وسانت بطرسبرج.

كاثرين العظمى والأرمن

شهد حكم كاثرين العظمى (1762-1796م) نهضة كبرى في العلاقات الأرمنية الروسية. ونمو الجاليات الأرمنية في روسيا (انظر خريطة 28). ففي عام 1763م. اعترفت كاثرين بالأرمن في روسيا وبمطرانهم كرئيس لجالية مستقلة دينياً. وبعد حربها مع العثمانيين (1768-1774م). أعادت كاثرين توطين الجالية الأرمنية، التي كانت في القرم إلى منطقة سكنية جديدة على نهر دون في عام 1779م. وبعد عام طلبت من رئيس الأساقفة يوسف أرجوتينسكي Iosif Argutinskii. مطران الأرمن في روسيا. بناء مدينة للمهاجرين الأرمن. وأصبحت المنطقة السكنية. المعروفة باسم "نور". أو "ناخيتشيفان الجديدة" (وهي حالياً تقع في الروستوف على نهر دون). أصبحت مركزاً كبيراً للأرمن بها ست كنائس ومسرح ومدرسة. وبعد الحرب الروسية التركية بين عامي 1787-1792م. أمرت كاثرين بوتمكين Potemkin⁽¹⁰⁾ ببناء مدينة جريجوريوبول Grigoriopol في بسارابيا (مولدافيا الحالية). لتوطين اللاجئين الأرمن القادمين من رومانيا الشرقية. كان للأرمن كنائسهم الخاصة. ومنحوا الكثير من الاستقلال. كانت لهم حرية اتباع تقاليدهم. وكانت لهم مجالسهم الأهلية الخاصة بهم. ومكنت سياسات كاثرين الكريمة تجاه الأرمن الروس عدداً منهم من الحصول على وظائف عليا في روسيا. ومن العائلات التي ازدهرت عائلة لازاريف Lazarevs (لازاريان Lazarians). الذين أسسوا معهد لازاريف للغات الشرقية في موسكو (وهو حالياً السفارة الأرمنية في روسيا). وسمحت كاثرين ببناء الكنائس الأرمنية في موسكو وسان بطرسبرج. ومكنت الأرمن من أن يصلوا إلى المناصب العليا الدبلوماسية والعسكرية والإدارية في القرن التاسع عشر. وشجع اهتمام كاثرين بالقوقاز

(10) الأمير جريجوري ألكسندروفيتش بوتمكين (1739-1791م) Grigori Alexandrovich Potemkin-Tavricheski. كان جنرال فيلد مارشال. ورجل دولة. والرجل المفصل لدى كاثرين الثانية (العظمى). ويذكر له جهود في محاولة توطين السكان المتفرقين في جنوب أوكرانيا. التي أصبحت من ممتلكات روسيا بعد معاهدة كونشوك كاينارجي في 1774م. ومن المدن التي أقامها جيرسون. نيكولايف. سيفاستوبول. وبيكارينوسلاف.

وانتصاراتها على العثمانيين القادة الجورجيين والأرمن. مثل يوسف أمين Joseph Emin وميليكات كاراباغ مرة أخرى على وضع آمالهم في روسيا. وأن يعدوا بالتعاون المالي والعسكري في مقابل الاستقلال تحت حماية روسيا.

وفي الوقت نفسه. دفعت الأحوال الصعبة في إيران وما وراء القوقاز اللاجئين الأرمن إلى جورجيا وروسيا. وفي عام 1783م. نتيجة ضعف العثمانيين. وحرب أهلية جديدة في إيران. تجددت الالتماسات من القادة الجورجيين والأرمن. والحث من مستشاري كاثرتين. بوتمكين والمطران أرجوتينسكي. اقتنعت كاثرتين بالتصرف. وفي ذلك العام. ضمت القرم. وأبرمت اتفاقية جورجيفسك Treaty of Georgievsk. التي وضعت جورجيا الشرقية تحت حماية روسيا. وشعر الخانات المسلمين في القوقاز بالخوف بسبب هذه المعاهدة. فتدافعوا لإبرام اتفاقياتهم الخاصة مع روسيا أو جورجيا. وكان الأغا محمد قاجار يستجمع قواه في إيران. فذكر الجورجيين بأنهم ولاية تابعة لإيران. وتجاهلت كاثرتين تهديدات الأغا محمد خان. وخشية الجورجيين من هجوم فارسي. فقد كانت مقتنعة بأن "المخصي" كان يتجه فقط.

وفي عام 1795م. هاجم الأغا محمد خان جورجيا. ودمر تفليس. وأخذ حوالي 15 ألف من الجورجيين والأرمن أسرى وعبداً. وقتل الفرس عدداً كبيراً من المسيحيين. ومنهم رجال دين. ومن بين القتلى كان الشاعر الغنائي الأرمني سايات نوفا. والذي تقع مقبرته في الكنيسة الأرمنية في تفليس. وأصيبت كاثرتين بصدمة لتدمير عاصمة دولة تحت الحماية الروسية. فأمرت الجيش الروسي بعبور نهر تريك مرة أخرى. وعندما توفيت كاثرتين كانت القوات الروسية متقدمة فيما وراء القوقاز. وكان ابنها Paul يعارض سياسة أمه ويكره جنرالها الأثريين. فقام باستدعاء القوات الروسية للعودة.

الحروب الروسية الفارسية واحتلال أرمينية الشرقية

عند بداية القرن التاسع عشر. بدأت روسيا تتحرك خلف جبال القوقاز للمرة الثالثة والأخيرة منذ حكم بطرس الأكبر. في عام 1801م. ضمت جورجيا، التي كانت تحت الحماية الروسية منذ 1783م. ولكنها كانت عملياً تحت السيادة الفارسية. وفي عام 1804م.

بذريعة أن مدينة جنجة ملك للچورجيين، غزت روسيا تلك الخانية، وأوقدت شرارة الحرب الروسية الفارسية الأولى (1803-1813م). وتلقى الجنرال تسيستيانوف Tsitsianov القائد الروسي، مساعدة من الأرمن المقيمين في جنجة وكاراباغ، الذين كانوا ينتظرون وصول الروس منذ سنوات. وبحلول عام 1805م، كان نصف أرمينية الشرقية في أيدي الروسية. ولم ينجح تسيستيانوف في أخذ يريفان، وسرعان ما تحولت روسيا عن الجبهة القوقازية بسبب مغامرات نابليون في أوروبا. ووقعت إيران معاهدة قصيرة العمر. وهي معاهدة فنكينشتاين (1807م) مع فرنسا، والتي جاءت بالضباط الفرنسيين إلى إيران لتدريب جيش جديد. وحاول الروس أخذ يريفان مرة أخرى في عام 1808م، ولكنهم فشلوا. ونشأ عن ذلك مأزق استمر حتى عام 1812م.

وفي الوقت نفسه، غادر المزيد من الأرمن يريفان إلى تفليس. وكانت أعدادهم تتزايد بالتدريج أثناء الجزء الأخير من القرن الثامن عشر والفترة المبكرة من القرن التاسع عشر. فأصبحوا أكثرية في المدينة. لكن فيما عدا جالية تفليس، كانت القيادة الأرمينية المؤثرة في الإمبراطورية الروسية خارج القوقاز، في أستراخان وناخيتشيفان الجديدة وموسكو وسان بطرسبرج، وكذلك في القرم وأوكرانيا وپولندا، وهي المناطق التي كانت قد أصبحت آنذاك تابعة لروسيا.

وبعد إبرام الروس معاهدة السلام في بوخارست (1812م) مع العثمانيين، وبعد أن صدوا نابليون، ركز الروس على القوقاز بإخلاص. وفي عام 1813م هزموا الجيوش الفارسية في عدة معارك. وفي ذلك العام جاءت معاهدة جولستان بضم روسيا لخانيات كاراباغ وچنجة وشيرقان وشاكي وكوبا وباكوتاليس (انظر الخريطة 24). وبالسيطرة على كاراباغ وچنجة، أصبحت روسيا مسيطرة على نصف أرمينية الشرقية. لكن القادة الأرمن لم ينتهزوا فرصة أوضاعهم والحالة المناسبة للضغط على سان بطرسبرج لإقامة وحدة إدارية منفصلة لچنجة وكاراباغ، ولكن على العكس، في بداية صراع روسيا للسيطرة على نصف أرمينية الشرقية. كان اهتمام القيادة الأرمينية الروسية ينصب على تحرير النصف الثاني، أي خانيات ناخيتشيفان ویريفان، التي تشمل إتشميادزين، البؤرة الدينية لكثير من الأرمن الروس.

لم يكن أحد يتنبأ في ذلك الوقت أنه عندما تضم روسيا بقية أرمينية الشرقية، فإن التصورات المبكرة للإدارة الروسية سوف تضم جنحة إلى جورجيا وتضع كاراباغ، بكل ما فيها من تعداد سكاني أرمني كبير، ضمن مقاطعة قزوین، أو المقاطعة المسلمة.

وكما سبق الذكر، حاول الخان الجديد في يريفان، حسين خان قاجار، أن يقلب الانتهاكات الماضية، ونجح في الحصول على تأييد بعض الشعب الأرمني. ولكن، بحلول العقد الثاني من القرن التاسع عشر، كانت العلاقات الأرمينية الفارسية في يريفان قد تدهورت، وغادر الجاثليق إتشميادزين إلى جورجيا، وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن كل من إيران وروسيا راضية عن معاهدة جولستان، وخطط الروس لمزيد من التوسع، وكان الفرس يأملون في استعادة خسائرهم، وقام بعض القادة الأرمين، بقيادة رئيس الأساقفة نيرسيس الأشتاراكى Nerses of Ashtarak، والذي كان قد غادر إتشميادزين إلى تفليس عام 1814م، بقيادة حملة لاستئناف الحرب وتحرير بقية أرمينية الشرقية.

وانتهز الفرس فرصة موت القيصر الكسندر الأول وثورة ديسمبر في روسيا (1825م)، ففوزوا كاراباغ في بدايات عام 1826م، وبدأوا الحرب الروسية الفارسية الثانية (1826-1828م)، وقبض الفرس على القائد الروسي الجنرال أليكسي إرمولوف General Alexei Ermolov، فأحرزوا عدداً من الانتصارات الأولية، وثار المسلمون المحليون ضد الروس، بينما وقف الشعب الأرمني وقفه قوية إلى جانب الحاميات الروسية الأقل عدداً. وشكل الأرمين لواءات تطوعية في جورجيا وكاراباغ، تحت قيادة علم أرمني صُمم حديثاً، ولحقوا بالقوات الروسية، وعين نيقولاس الأول، القيصر الجديد، قائداً آخر هو إيفان باسكيفيتش Ivan Paskevich، الذي وصل مع تعزيزات ومدفعية، وفي خلال سنة، كان الروس قد استولوا على عباس آباد وأردوباد وساردارباد وناخيتشيفان ویريفان. وعندما عبر الروس نهر أراكس، واقتربوا من تبريز، عاصمة أذربيجان الفارسية، سعى الشاه للسلام، ووافق على معاهدة ترکمانشاي (1828م)، وأصبح خانيات يريفان وناخيتشيفان، أو معظم الجزء المتبقي من أرمينية الشرقية، جزءاً من روسيا، وأصبح نهر أراكس هو الحدود بين إيران وأرمينية (انظر خريطة 24). ومنحت المعاهدة روسيا أيضاً تعويضاً قدره عشرين مليون روبل وحقوق ملاحية مقصورة على بحر قزوین، وامتيازات اقتصادية وسياسية أخرى في إيران، مما قيد أسرة قاجار بالنزوات الروسية طوال بقية القرن التاسع عشر.

تشكيل مقاطعة أرمنية روسية

في نهاية الحرب. دافع بعض الأرمن والروس ذوي النفوذ. مثل رئيس الأساقفة نيرسيس الأشتارياكي. والتاجر الأرمني الروسي الثري كريستوفر لازارييف Christopher Lazarev. والكونت أرجوتينسكي دولجوروكي Count Argutinskii-Dolgorukii. والكاتب ورجل الدولة ألكسندر جريبويدوف Alexander Griboedov. عن تأسيس "مقاطعة أرمنية". أو كما سُميت باللغة الروسية "أرميانسكايا أوبلاست": إذ كانوا يشعرون بأهمية ما قام به المتطوعون الأرمن أثناء الحرب. وأن الروابط الأرمنية الروسية التاريخية قد أثبتت أن الأرمن كانوا جماعة يمكن أن يعتمد عليها الروس فعلاً. وبدأوا حملة سريعة لاستعادة وطن أرمني تحت إشراف الكنيسة وحماية روسيا. وكانت المشكلة الرئيسية هي حقيقة أن جزءاً كبيراً من الشعب الأرمني كان في القرون الثلاثة السابقة قد ترك أرمينية الشرقية وأن الأرمن قد أصبحوا أقلية في منطقة يريفان. ولحل هذه المشكلة. قام القادة الأرمن. ومؤيدوهم الروس. بإقناع القادة والديبلوماسيين الروس أن يضموا مفاوضاتهم مع إيران شرط إعادة الأرمن. الذين أخذوا قسراً إلى إيران في عصر الشاه عباس.

وتم تنفيذ الفكرة. وتم تضمين هذا الشرط رسمياً في الفقرة 15 من اتفاقية ترقمانشاي التي سمحت لفترة زمنية معينة بنقل السكان عبر نهر أراكس. وفي النهاية. عاد إلى أرمينية الشرقية أكثر من 30 ألف من الأرمن. واستقر معظمهم في المقاطعة الأرمنية الروسية. والتي تشكلت رسمياً في 1828م من مجموع المناطق الخاصة بخانيات يريفان وناخيتشيفان (انظر الخريطة 29). وبعد عام. أنهى الروس الحرب الروسية التركية لعامي 1828-1829م. وفي اتفاقية أدرنة (1829م). ضمت روسيا مناطق أخالكالاك Akhalkalak وأخالنسيخ Akhalsikh في غرب جورجيا. وكانت كلتاها تضم عدداً كبيراً من السكان الأرمن. ورغم أن الروس احتلوا جزءاً كبيراً من أرمينية الغربية. فإن المعاهدة أرغمتهم على إرجاعها كلها تقريباً. وترك حوالي 20 ألف أرمني من أرمينية الغربية مدن كارس وأردهان وبايزيد وأرضروم. إلى يريفان وناخيتشيفان وتفليس. وفي الوقت نفسه. غادر حوالي 50 ألف من الفرس والأكراد والأتراك أرمينية الشرقية إلى إيران والإمبراطورية العثمانية. وعاد أيضاً عدد كبير من الأرمن إلى يريفان

وجنحة وكاراباغ من مفاهيم المؤقت في جورجيا. وهكذا، بعد قرنين. أخذ عدد السكان الأرمن في المقاطعة الأرمنية يزيد قليلاً على المسلمين. ولكن مدينة يريفان استعادت تعدادها السكاني الكبير من المسلمين حتى أوائل القرن العشرين. وبدأت هذه الهجرات اتجاهاً استؤنف بعد حرب القرم، وكذلك بعد آخر حرب روسية عثمانية في الربع الأخير من ذلك القرن. وفي النهاية خلقت أغلبية أرمنية في جزء من أرض الوطن الأرمني. وهي حالة سرعان ما سوف يكون لها أهمية سياسية كبيرة.

بين الأرثوذكسية والكاثوليكية تشنت الأرمن في أوروبا الشرقية والغربية (من أواخر القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر)

تكونت معظم جاليات المهجر الأرميني الأوروبية، عندما تدهورت الأحوال في أرمينية التاريخية وسقطت مملكة قيليقية، فاضطر الأرمن إلى ترك وطنهم بأعداد كبيرة. ومن ثم، أصبحت الجاليات الأرمينية الأوروبية التي تكونت قبل ذلك أكبر عددًا، واكتسبت أهمية جديدة. ولم تكن بضعة القرون التالية لسقوط آخر مملكة أرمينية "عصورًا مظلمة" عكس المعتقد السائد. وبالتأكيد لم تكن كذلك بالنسبة للفنون والعلوم الأرمينية. فكما كانوا في الشرق الأوسط، أنتج الأرمن أعمالاً فريدة من الفن والبحث العلمي في المهجر الأوروبي. وبالإضافة إلى ذلك، قام الأرمن الأوروبيون بدور في إحياء النهضة السياسية والثقافية للشعب الأرميني فيما بعد: مما مهد الطريق في النهاية إلى الاستقلال.

الجاليات الأرمينية في شرق أوروبا

تكونت الجاليات الأرمينية في شرق أوروبا، عندما بدأ الأرمن في الإمبراطورية البيزنطية، والذين يشكلون أول مهجر كبير، يتركون تلك المنطقة في العصور الوسطى. ولحقهم مهاجرون من أرمينية التاريخية، وشكلوا حوالي ست جاليات كبيرة. ظل بعضها قائمًا حتى اليوم.

الجالية الأرمينية في قبرص

أسس التجار الأرمن من بيزنطة كيانًا صغيرًا في قبرص في القرن الخامس. لكن في عام 578م، قام القائد البيزنطي موريس، والذي أصبح إمبراطورًا فيما بعد، بنقل كثير من الأرمن قسرًا إلى قبرص أثناء محاولته تهدئة أرمينية البيزنطية، مما أوجد بؤرة الجالية الأرمينية على تلك الجزيرة وكذلك في اليونان. وأصبحت قبرص تحت حكم الخلافة العربية في الفترة من عام 648 إلى 958 م (فيما عدا فترة قصيرة كانت فيها تحت الحكم البيزنطي من 868 إلى

874م). وفي عام 958 م استعادت بيزنطة قبرص، وقامت بترحيل معظم السكان المسلمين، واستبدلتهم بسكان من الإغريق والأرمن. والواقع أن عددًا من الأرمن البيزنطيين أصبحوا حكامًا عسكريين للجزيرة.

وأقامت مملكة قيليقية الأرمنية علاقات تجارية مع أرمن قبرص، الذين ازدادت أعدادهم. وبحلول القرن الثاني عشر، كان التعداد الأرمني قد ازداد لدرجة أنهم طالبوا بإقامة وحدة إدارية منفصلة ("ثيم"). تحت إدارتهم، وقد دلل على أهمية الجالية حقيقة أن أسقفها حضر مجلس الكنيسة في قلعة الروم، بقيليقية عام 1179م. ولا يبدو أن تدمير ريتشارد قلب الأسد لقبرص أثناء الحملة الصليبية الثالثة قد أثر على الجالية الأرمنية، فقد استمرت في أنشطتها التجارية مع كل من قيليقية وأوروبا، وتركز التجار والحرفيون الأرمن في مدن ليماسول وفاماجوستا ونيقوسيا وبافوس. وقامت روابط أقوى بين قيليقية وقبرص أثناء حكم لوزينيان Lusignans، وهي أسرة قبرصية صليبية من أصل فرنسي، والذين كانت بينهم وبين نبلاء قيليقية زيجات قبل ذلك، وحصلوا على عرش قيليقية في أواسط القرن الرابع عشر. وتسبب الضيق من النفوذ الروماني الكاثوليكي في قيليقية، وسقوط قيليقية أمام المماليك، ثم ما أعقب ذلك من سياسات قمعية، في نزوح كثير من الأرمن إلى قبرص. وفي الربع الأول من القرن الخامس عشر، كان هناك ما يقدر بحوالي 50 ألف أرمني مقيمون في قبرص.

في عام 1426م، استولى المماليك على قبرص، وسببوا دمارًا هائلًا للجالية الأرمنية، وأخذوا حوالي 5 آلاف أسير إلى القاهرة كمبيد. وتحسنت الأحوال عندما احتل البنادقة المدينة عام 1489م، واعترف البرلمان البندقي بحقوق الأرمن في إدارة جالياتهم. وفي عام 1570م استولى العثمانيون على قبرص، ورغم أن الأحوال لم تتغير كثيرًا في البداية، فإنها بدأت تتدهور في القرن السابع عشر: خاصة في القرن الثامن عشر. وبدأ الأرمن يهاجرون من الجزيرة إلى أماكن أكثر أمنًا، خاصة اليونان وإيطاليا.

الجالية الأرمنية في القرم

كانت الجالية التي وطنها البيزنطيون في القرم من أكبر جاليات الأرمن وأطولها عمرًا في المهجر الأرمني. كانت الجالية الأرمنية في القرم تتألف في البداية من الجنود الأرمن

وعائلاتهم. والذين تركزوا هناك في خدمة الدولة البيزنطية اعتباراً من القرن الثامن. وبحلول القرن الحادي عشر. عقب سقوط آني وغزو الأتراك السلاجقة لأرمينية، ازدادت الجالية حجماً بالمهاجرين الأرمن، الذين جاءوا من أرمينية نفسها ومن إسطنبول. وكانت هذه المجموعة الأخيرة تواجه اضطهاد كنيسة الروم الأرثوذكس في بيزنطة. وكانت الأنشطة التجارية اليونانية والإيطالية قد جعلت من القرم مركزاً تجارياً رئيسياً مع أوروبا. وهكذا أصبحت جذابة بشكل خاص للتجار الأرمن. وأصبحت كافا Kaffa، والتي تعرف أيضاً باسم ثيودوسيوپوليس Theodosiopolis (حالياً فيودوسيا Feodosia)، المركز التجاري والثقافي الأرمني الرئيسي في القرم.

ولم يؤثر الغزو المغولي للمنطقة عام 1239م إلا قليلاً على هؤلاء التجار. فقد دفعوا ضرائبهم للقبيلة الذهبية، التي كانت قد استقرت في روسيا. واستمر الأرمن في مؤسساتهم التجارية. وأثناء النصف الثاني من القرن الثالث عشر، أبرمت جنوه عدداً من الاتفاقيات مع المغول والبيزنطيين، وحصلت على احتكارات تجارية أعطتها السيطرة الفعلية على أجزاء من البحر الأسود. ووجد التجار الأرمن الوجود الجنوبي مفيداً، فجاء المزيد من الأرمن واستقروا في المنطقة. ومن ضمنهم أولئك الذين طردهم المغول من آني. وبحلول القرن الرابع عشر، كانت هناك عدة كنائس أرمنية، من ضمنها كنيسة كاثوليكية. تعمل في المنطقة بالفعل. وعقب سقوط قيليقية، وغزو أرمينية من قبل آخر الغزاة الأتراك الكبار، أي تيمورلنك، والصراع العثماني الصفوي، كل ذلك دفع المزيد من الأرمن للاستقرار في المنطقة. ويقدر من جاءوا إلى شبه جزيرة القرم بحوالي 200 ألف من الفلاحين والتجار والحرفيين والجنود وعدد من النبلاء، وأسسوا مراكز جديدة من ضمنها المراكز في كاراسوبازار Karasubazar (بيلوجورسك Belogorsk الحالية)، وكازارات Kazarat، وأكميخت Akmechit (سيمفروبول Simferopol الحالية)، وبخشاسراي Bakhchesarai وأودابازار Odabazar (أرميانسك Armiansk الحالية). وكان في كافا وحدها أكثر من أربعين كنيسة أرمنية، وآخرها دير القديس سركيس. وكان الوجود الأرمني في القرم من القوة لدرجة أن بعض المصادر الأوروبية، في النصف الأول

من القرن الخامس عشر. تشير إلى شبه جزيرة القرم باسم "أرمينية البحرية". كما تطلق على بحر أزوف "البحيرة الأرمينية".

وفي كافا وكازارات كان للأرمن أحياءهم الخاصة، وكانوا يختارون الموظفين الرسميين بأنفسهم، واستطاعوا أن يحتفظوا بثقافتهم. وأصبحت القرم مركزاً مهماً من مراكز الفن الأرميني. وقد صنع الفنان نيكوغوس Nikoghos عدة مخطوطات فريدة. مواصلاً بها تقاليد زخرفة المخطوطات التي أبدعها الفنان القليلقي العظيم توروس روسلين Toros Roslin. ورغم أن الأرمن كانوا يتحدثون لغتهم. فإنهم كانوا يقومون بالأعمال باللغات الإيطالية واليونانية، وفي كثير من الأحيان بالتركية الكيبشاكية، وهي لغة الأتراك المغوليين (التتار). وظلت الكيبشاكية الأرمينية، التي تكتب بالحروف الأرمينية. واحدة من اللغات الأساسية للتجار الأرمن في أجزاء من شرق أوروبا حتى القرن السابع عشر.

ولم يفرض الجنويين الكاثوليك، ولا التتار المسلمين على الأرمن. ولا شجعوهم على التحول عن عقيدتهم. ومُنحت الجالية الأرمينية في القرم مطرانيها الخاصة. وأصبحت مدينة سورخات، وفيها دير الصليب المقدس، مقراً للمطرانية. ومن أهم الموروثات المهمة للجالية الأرمينية في القرم حق التصويت، الذي حصل عليه الحرفيون والمزارعون في أواخر القرن الخامس عشر في انتخابات أساقفتهم. وقد أسهم هذا التطور لاحقاً في المناخ السياسي للقسطنطينية، خلال القرن التاسع عشر، حيث طالب سلاسل الأرمن القرميون بمشاركة الحرفيين والعمال في انتخابات بطريك المدينة الأرميني.

وفي عام 1475م هاجم العثمانيون القرم، وأنهوا حكم جنوه فيها. وظهر في عام 1478م خان تترى، خاضع للسلطان العثماني، ومنذ ظهوره تضاعف الازدهار الأرميني. وتم تحويل بعض الكنائس الأرمينية إلى مساجد؛ وكانت هناك إعدامات وإرغام على الإسلام. وهرب كثير من الأرمن إلى أجزاء أخرى من أوروبا الشرقية، وأساساً إلى أوكرانيا وبولندا، حيث ساندوا الجاليات الأرمينية الصغيرة التي كانت هناك بالفعل. والبعض الآخر وقع في أسر العثمانيين ولحق بالجالية الأرمينية المتزايدة في إسطنبول. لكن حدث إحياء للجالية في القرن السابع عشر، عندما جاء مهاجرون آخرون هاربون من استئفاف الحروب العثمانية الصفوية في شرق

الأناضول. واستقروا في القرم. وقد سجل المؤرخون الأرمن دافيد ومارتيروس من القرم David and Martiros of Crimea. وختاشاتور الكافاوي Khachatur of Kaffa تاريخ الأرمن القرميين في القرن السابع عشر.

وفي عام 1778م. هاجر إلى روسيا حوالي 12 ألف أرمني من القرم نتيجة معاهدة كوتشوك كاينارجا (1774م). التي أجبرت العثمانيين على قبول استقلال خانية التتار القرميين. وبعد عام 1774م. وقعت المنطقة تحت النفوذ الروسي. ولكي تضعف الاقتصاد القرمي. شجعت كاثرتين العظمى من بقى في القرم من تجار أرمن ويونانيين على الهجرة إلى روسيا. قبل أن تضم القرم في سنة 1783م. وسمح للأرمن بتأسيس مركزهم الخاص في ناخيتشيفان الجديدة. لإحياء ذكرى الجالية في أرمنية التاريخية حيث هرب أسلافهم منذ أكثر من قرن. وكما ذكر أنفأ. فإن الأرمن في ناخيتشيفان الجديدة كان مقدراً لهم القيام بدور مهم في التطور الثقافي للأرمن. فيما وراء القوقاز. خلال القرن التاسع عشر (انظر الفصلين 16، 19).

الجاليات الأرمنية في بولندا

كانت الجاليات الأرمنية في بولندا مستقرة أساساً في الجزء الشرقي من تلك المملكة. أي في المناطق الموجودة اليوم في أوكرانيا. وكان أسلاف بعض التجار والمرتزة الأرمن. الذين جاءوا فيما بعد إلى بولندا. قد استقروا في المنطقة التي يشير إليها المؤرخون باسم روسيا الكييفية في القرن العاشر. وبعد غزو السلاجقة لأرمنية في القرن الحادي عشر. وصل إلى كيبف المزيد من الأرمن. وفي ذلك القرن نفسه أسست أول جالية أرمنية مهمة في مدينة كامنيتس-بودولسك Kamenets-Podolsk. وأثناء الفترة نفسها. هاجر الأرمن من آني إلى روسيا الحمراء⁽¹¹⁾. والتي أصبحت فيما بعد جزءاً من بولندا. وأدت الغزوات

(11) روسيا الحمراء Red Ruthenia هو الاسم الذي استخدم منذ العصور الوسطى للإشارة إلى منطقة عرفت بـ جاليشيا الشرقية، Eastern Galicia قبل الحرب العالمية الأولى. ويعترض بعض المؤرخين الأوكرانيين على هذه الصفة (الحمراء)، باعتبارها من اختراع الاستعمار البولندي. وليس لها سياق تاريخي في كل أوكرانيا الغربية. وأنها أضيفت عند تقسيم جاليشيا بين أوكرانيا وبولندا لإسعاد الشخصية البولندية على تلك المنطقة. (المرتجمة)

المغولية في القرن الثالث عشر لمجىء المزيد من الأرمن إلى كييف. وسرعان ما أجبر الكثير من الأرمن. عقب تدمير المغول لكييف عام 1240م. على الانتقال إلى بولندا. حيث استقروا في مناطق جاليشيا Galicia. وپودوليا Podolia. وڤولهنينا Volhynia وفي مدينة لڤوف Lvov أو لمبرج Lemberg. والتي أصبحت عام 1303م المركز الثاني في الأهمية للأرمن البولنديين مع كنيسة الخاصة. وداغت القوات الأرمنية عن كامنيتس پودولسك ضد المغول. وأقيمت كنيسة أرمنية هناك في أواسط القرن الثالث عشر. وبعد مائة عام. جاء الأرمن من منطقة جنوب الفولجا مما زاد من تعداد الجالية هناك. وفي عام 1340م. احتل ملك بولندا. كازمير الأكبر Casimir the Great. جاليشيا وڤولهنينا. ولدى اكتشافه مساهمة الأرمن في التجارة منحهم حق وضع قوانينهم وتقاليدهم. وبنيت في لڤوف عام 1363م كاتدرائية لا تزال قائمة حتى اليوم. وفي القرن الخامس عشر. وصل إلى شرق بولندا المزيد من الأرمن من قبليقية ومن القرم. وأثناء الحروب الفارسية العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. لحق بهم آخرون من أرمنية التاريخية.

كان للأرمن نقاباتهم الحرفية في بولندا. وكان البولنديون يعتبرونهم من الحرفيين المهرة. ونظروا باعتبار كبير إلى الجواهرجية والرسامين والنساجين الأرمن. ولعب تجارهم دوراً رئيسياً في التجارة مع روسيا وإيران والإمبراطورية العثمانية. وكان لكثير من بيوت التجارة في لڤوف فروع في موسكو وأصفهان وإسطنبول. وأقام الأرمن في كل أنحاء بولندا (في مدن: لڤوف وكامنيتس. بودولسك وبالتا Balta وڤار Var وبيرجني Berejni وبروتي Broti وڤيرميني Virmeni وكورودينكا Korodenka ودوبنو Dubno وزاموسك Zamosc وپاجكوف Bajkov وستوتيانيتسا Stoutianitsa وستانيسلاف Stanislaw وديسمنيتسا Dismenitsa وڤلاديمير Wladimir). وتطلب هذا العدد الكبير إقامة مطرانية أرمنية منفصلة.

ورغم أنه كانت هناك تقديرات تزيد عن 300 ألف أرمني في بولندا في ذروة الجالية. فإن الأرقام الفعلية ربما كانت أقل (حوالي 200 ألف). وكان للأرمن موظفون الرسميون المنتخبون وقضاتهم (12 فرداً) وأسسوا محاكمهم الخاصة في لڤوف وكامنيتس. بودولسك. والتي استخدمت المدونة القانونية لمختار جوش Mkhitar Gosh الخاصة بأواخر القرن

الثالث عشر. وكانت وثائق المحاكم الأرمنية تكتب باللغة الكاثوليكية التركية، التي استمرت لغة الأعمال. والبولندية. كلتاهما مكتوبتان بالحروف الأرمنية. وأسست في لقوق مطبعة في 1616م. وعرضت هناك أول مسرحية مكتوبة باللغة الأرمنية في عام 1668م. والتحق الأرمن البولنديون بالبحيش. وشاركت كتيبة أرمنية في رفع حصار قيينا عام 1683م. وكتب المثقفون من الأرمن البولنديين مثل ستيبانوس البولندي Stepanos Lehatsi. وستيبانوس روشكا Stepanos Roshka. وجون الكامنيتي. أعمالاً تاريخية ودينية ولغوية. ومن الأعمال المهمة ذكريات السفر The Travel Notes لسيميون البولندي Simeon of Poland. والذي يفصل فيه الأحوال الاجتماعية الاقتصادية للأرمن في لقوق وروما والبنديقية والقاهرة والقدس وحلب واسطنبول. ومدن عديدة في الأناضول عند بداية القرن السابع عشر. جذبت لقوق رجال الدين الأرمن من الوطن. والذين جاءوا في القرن السابع عشر للدراسة في معهداها اللاهوتي ولنسخ المخطوطات في الدير. وعند عودتهم نقلوا الأفكار الغربية إلى القادة العلمانيين والدينيين في أرمنية التاريخية. ونشط التجار الأرمن في لقوق. وكانت 22 شركة تجارية من أصل 38 شركة مملوكة لأرمن.

وبحلول العقد الثالث من القرن السابع عشر. شعر الأرمن البولنديون بتأثير الخطوات المتخذة من الكاثوليك ضد حركة الإصلاح. فقد أسست الكنيسة الكاثوليكية معهداً لاهوتياً في لقوق لإعداد شباب رجال الدين الأرمن الكاثوليك، الذين بموافقة التاج البولندي سرعان ما حلوا محل رجال الدين الأقدم. الذين ينتمون للكنيسة الرسولية الأرمنية. وبدأ القادة العلمانيون الأرمن يتحولون إلى الكاثوليكية أيضاً. ولأن الأعضاء العلمانيين كانوا يتحكمون في كل ممتلكات الكنيسة، فقد كان تحولهم يعني استيعاب الأرمن وكنيستهم تدريجياً داخل المجتمع البولندي. وفي عام 1629م. قبلت الأسقفية البولندية. تحت قيادة رئيس الأساقفة نيكولاس توروسفيتش أن تكون تابعة لروما، مع الاحتفاظ بروابطها مع إتشميادزين (وولانها أيضاً. حسب بعض المؤرخين) حتى عام 1635م. لكن ترسيم شباب القسس الأرمن الكاثوليك في 1664م نتج عنه في النهاية اتحاد كامل مع روما. وفي 1689م. قام رئيس الأساقفة فارदान هونانيان Vardan Hunanian بقطع كل الصلات مع الكرسي الجاثليقي في إتشميادزين، ونتيجة لذلك قطعت كل الصلات التجارية مع جاليات التجار الأرمن الرسوليين أيضاً. وهكذا

فقد التجار الأرمن في بولندا قوتهم، وبنهاية ذلك القرن. لم يكن هناك سوى بيتين تجاريين أرمنيين في لثوف، وضمحللت الجالية منذ ذلك الحين لأسباب أخرى أيضاً. وقاد استيلاء الأتراك على بودوليا عام 1672م إلى انهيار اقتصادي كامل، والذي نتج عنه بالتالي هجرة أرمنية إلى إسطنبول وعدد من المدن الموجودة حالياً في رومانيا وبلغاريا. وكانت الضربة الأخيرة هي احتلال كاثرين العظمى لبولندا الشرقية، أثناء أول تقسيم لبولندا في 1784م واحتلالها لبودوليا في 1793م. وأدى ذلك إلى عزل الأرمن البولنديين عن لثوف، التي كانت قد أعطيت للنمسا وسُميت لمبرج Lemberg. وكانت نتيجة هذه الأحداث تراجع الجالية ثم اضمحللتها في النهاية. والواقع أنه بحلول عام 1820م، لم يكن باقياً في لثوف إلا مائة عائلة أرمنية، وأقل من ذلك في المدن البولندية الأخرى.

الجاليات الأرمنية في بلغاريا ورومانيا والمجر

بدأت الجالية الأرمنية في بلغاريا، عندما قام بعض الأباطرة البيزنطيين مثل جوستيان (527-565م) وموريس (582-602م) بإعادة توطين عدد من الحكام الأرمن هم وأتباعهم في تراقيا ومقدونيا؛ لإضعاف نفوذ الأرمن في أرمينية الغربية، ولإيجاد منطقة تكون حائط صد ضد غزوات البدو الرّحل في البلقان. وسرعان ما لحق الأرمن البولسيين وغيرهم من المهاجرين بهذه الجماعات الأولى من المهاجرين الأرمن، وفي القرن الحادي عشر ظهر في بلغاريا عنصر أرمني مهم، خاصة في بيرجاس وصوفيا وفيليبوبوليس (وهي بلوفديف الحالية)، حيث تم تأسيس مطرانية. وكان الأرمن يعملون أساساً بالتجارة، وشكلوا فيما بعد جاليات في بيرجاس وقارنا وصوفيا. وبين عامي 1363 و 1393م، قام العثمانيون بغزو بلغاريا، وفيما بعد، أصبح الأرمن هناك ضمن "الملة الأرمنية".

وجاء مهاجرون جدد من أرمينية التاريخية أثناء الحروب التركية الفارسية في القرن السادس عشر. وبعد الإجراءات المضادة للإصلاح، جاء الأرمن الذين رفضوا التحول إلى الكاثوليكية من بولندا إلى بلغاريا؛ حيث سمح لهم نظام الملة العثماني بممارسة ديانتهم بحرية. وبعد عام 1878م، تسبب تدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تركيا، واستقلال بلغاريا في جذب المزيد من الأرمن إليها.

وتشكلت جالية رومانيا نتيجة الهجرات من جنوب الفولجا إلى مولدافيا ووالاشيا وبوكوفينا في القرن الرابع عشر. وهنا أيضاً بنيت الكنائس وأسست مطرانية في مولدافيا. وجاء سقوط القسطنطينية (1453م) وكافا (1475م) ليحضر المزيد من الأرمن إلى الأراضي الرومانية. وكان على الأرمن في بوكوفينا ومولدافيا أن يتحملوا غزوات الإمبراطوريات البولندية والعثمانية والروسية والنمساوية المجرية. وفي عام 1654م، أُجبر البعض على الهجرة إلى ترانسلفانيا نتيجة الاضطهاد الديني والصعوبات الاقتصادية. ولكن الأرمن في والاشيا كانوا أفضل حالاً. وقد ركزوا على التجارة بين العثمانيين وشمال أوروبا، وفي أوائل القرن السابع عشر بنوا كنيسة في بوخارست. واحتفظ الأرمن بلغتهم ودينهم، وشاركوا في الحياة الثقافية والسياسية لرومانيا.

وكان من نتائج معاهدة أدرنة (1829م) حصول روسيا على بيسارابيا Bessarabia. وهنا قام الأرمن في بيسارابيا بعمل اتصالات بالجمالية الأرمنية القوية في روسيا، وبعد ذلك مباشرة استطاعوا أن تكون لهم مطرائتهم. واستفاد الأرمن في بقية رومانيا من الإصلاحات المختلفة التي أجراها حكام تلك الإمارات الدانوبية. وعلى عكس بلغاريا، كانت روسيا تدعم رومانيا. وحصلت على استقلالها في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وازدهرت الكنائس والأديرة الأرمنية، وبنيت المدارس، ونشرت الجرائد والمجلات بأعداد كبيرة هناك. وأصبح الأرمن في رومانيا أكثر يسراً من نظرائهم في بلغاريا، وشاركوا في الحياة السياسية والثقافية في وطنهم البديل.

ورغم أن هناك دلائل على وجود الأرمن في المجر منذ القرن العاشر، فإن التدفق الرئيسي وصل إلى ترانسلفانيا. التي كانت حينئذ جزءاً من المجر. في القرن السادس عشر نتيجة الاضطهاد الديني في مولدافيا. وجاءت موجة ثانية من المهاجرين بعد الزيادة الضريبية في مولدافيا أثناء القرن السابع عشر. وانضم الأرمن إلى المجرين في صراعهم ضد العثمانيين. وبعد توحيد المجر، منحو استقلالية داخلية وحق ممارسة الأنشطة التجارية. وسُمح لهم أيضاً بانتخاب قضااتهم. وبأن تكون لهم محاكمهم الخاصة. وكانت المدينتان الترانسلفانيتان غيريا Gheria (والتي تدعى أيضاً أرمينوبوليس Armenopolis) واليزابثوبوليس Elizabethopolis (دومبرافيني الحالية Dumbraveni) هما المركزان

الرئيسيان للأرمن، حيث استقر بهما حوالي 20 ألف أرمني. وعملوا في صناعة الجلود والشمع والتجارة.

وأُجبر الأرمن في المجر على التحول إلى الكاثوليكية. عندما استولت أسرة هابسبيرج⁽¹²⁾ على ترانسلفانيا في بداية القرن الثامن عشر. واستولى الأساقفة الأرمن الكاثوليك في لوفوف، بعد أن أصبحوا تحت الحكم النمساوي على الكنائس الأرمنية في ترانسلفانيا. ومن ثم انقطعت الصلة بين الأرمن الرسوليين في المجر عن روسيا وعن بقية البلقان، ومع افتقارهم الحماية الدينية، التي كان يوفرها نظام «الملة»، فتحولوا إلى الكاثوليكية. ولكن الأرمن المجرين استطاعوا أن يؤسسوا مطرانية منفصلة، وبمساعدة الأخوية المخيطارية في البندقية، أقاموا مدرسة واحتفظوا ببعض الاستقلال كأرمن كاثوليك.

وانهمك الأرمن المجرين في الحياة السياسية للمجر، وشاركوا في ثورة عام 1848م ضد أسرة هابسبيرج. وبعد قمع التمرد، عاقبت هابسبيرج القيادة الأرمنية بإعدام اثنين من الجنرالات الأرمن (وهرب الثالث إلى الأرجنتين)، وألغوا المطرانية، وطالبوا بمقدار كبير من التعويضات لإزالة آثار الحرب. وفقد الأرمن في المجر الحق لأن تكون لهم مدارس. وسرعان ما نسوا لغتهم، مما ثبت هجرات جديدة ونتج عنه استيعاب الأرمن في المجر.

الجاليات الأرمنية في أوروبا الغربية

ترجع أصول الجاليات الأرمنية في أوروبا الغربية إلى القرن السادس الميلادي. ولكن التدفق الرئيسي للأرمن وصل أثناء الحملات الصليبية وعصر قبايقية، منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر؛ ومرة أخرى في القرن السابع عشر، كما رأينا، عندما قام التجار الأرمن من إيران بإقامة بيوتات تجارية في مدن عديدة من أوروبا الغربية.

(12) هابسبيرج والعائلة التي أعقبتها هابسبيرج لورين Hapsburg-Lorraine. كانت العائلة الحاكمة للنمسا (والإمبراطورية النمساوية) لفترة تزيد على ستة قرون. وحكمت عديدًا من الدول الأوروبية. كانوا ملوكًا لألمانيا (لعدة قرون حتى 1806م). وغالبًا كأباطرة للإمبراطورية الرومانية المقدسة. حكموا أيضًا النمسا (أباطرة من 1804-1918م)، وبوهيميا والمجر وكرواتيا (كل منها عدة مرات آخرها 1526-1918م). حكموا أيضًا إسبانيا (1516-1700م). البرتغال (1580-1640م). ترانسلفانيا (1690-1867م). كما كان منهم جراند دوقات وأرشيدوقات في عدد من الدول الأوروبية. بالإضافة إلى حصولهم على عروش أخرى لفتحات قصيرة. منها إنجلترا والمكسيك. (المرتجمة)

الجاليات الأرمنية في إيطاليا

وصل الأرمن إلى إيطاليا. كجزء من جيش الإمبراطورية البيزنطية، أثناء القرن السادس الميلادي. حارب جنرالات أرمن مع فرق ممثلة للأرمن في صقلية أثناء القرن السابع تحت قيادة الإمبراطور كونستانس. وقد حضر اثنان من الأساقفة الأرمن من إيطاليا مجلس لاتيران عام 649م. ولكن الجاليات الأرمنية الرئيسية في إيطاليا تشكلت في القرن الثالث عشر. وكان ذلك أساساً نتيجة اتفاقية التجارة التي عقدها الملك ليو الأول ملك قيليقية مع المدن الدول الإيطالية. جنوه والبندقية. في عام 1201م، ومع بيزا في عام 1216م. أصبح التجار الأرمن والإيطاليون. الذين تعارفوا من خلال تجارة البحر الأسود، مشتركين في تجارة واسعة النطاق في البحر المتوسط، وسرعان ما بدأت جاليات أرمنية صغيرة تنمو في روما والبندقية وجنوه وأنكونا ولوجانو ومانتوا وبيزا. وتسببت غزوات المماليك على قيليقية واضمحلال تلك المملكة. مع التقدم التركي في آسيا الصغرى. في قدوم مزيد من الأرمن إلى أوروبا الغربية. خاصة إيطاليا. وكانت التدخلات المهمة التي قامت بها الكنيسة اللاتينية بين النبلاء الأرمن والتجار في قيليقية، بالإضافة إلى معرفة هاتين الجماعتين بالفرنسية والإيطالية. مما جعل أوروبا الغربية بشكل عام، وإيطاليا بشكل خاص. اختياراً منطقياً للهجرة. وسهلت تحولهم إلى مجتمع غربي.

وجاء سقوط قيليقية في عام 1375م بفيضان كبير من اللاجئين الأرمن إلى إيطاليا عبر قبرص. ووفقاً للمؤرخ غيفوند أليشان Ghevond Alishan، كان يعيش في إيطاليا 30 ألف أرمني بحلول الربع الأول من القرن الخامس عشر. وأصبحت البندقية، حيث أطلقت أسماء أرمنية على شارع وجسر. هي المركز الرئيسي لهم. وأقيمت "البيوتات الأرمنية"، حيث يجتمع التجار والحرفيون. في عدد من المدن الإيطالية. وبنيت كنائس أرمنية عديدة، منها كنيسة الصليب المقدس في البندقية. ولأن إيطاليا لم تكن دولة موحدة، وكانت كل مدينة إيطالية تعمل كدولة مستقلة. كانت الجاليات الأرمنية في تلك المدن تضي على هواها. فكانت تعمل كوحدات مستقلة. ولم تكون شخصية أرمنية إيطالية جمعية.

ويمكن إرجاع الفضل لأرمن البندقية لطباعة أولى الكتب باللغة الأرمنية: ففي عام 1512م. قام هاكوب ميغهارت Hakob Meghpart بطباعة كتابين، أحدهما كتاب

صلوات، والآخَر تقويم رسمي (Urbatagirk and Parzatumar). وسرعان ما طُبعت كتب مهمة أيضاً، وبحلول النصف الثاني من القرن الثامن عشر. أصبحت إيطاليا مركزاً للطباعة الكتب العلمانية الأرمنية. وانتقلت حرفة الطباعة الأرمنية من إيطاليا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، عندما ترك أبكار التوكاتي Abkar of Tokat روما نتيجة السياسات الصعبة للبابا بيوس الخامس (1566-1572 م) Pope Pius V ضد الأرمن غير الكاثوليك. وأقام مطبعته في إسطنبول، وكانت أول مطبعة بأية لغة في الإمبراطورية العثمانية.

وأثناء القرن السادس عشر، ازداد تعداد الجاليات الإيطالية نتيجة وصول تجار الحرير من جولفا في ناخيتشيفان. وازدادت أكثر في القرن السابع عشر عندما أرسل الشاه عباس، الذي نقل التجار الأرمن من جولفا إلى جولفا الجديدة، وفدًا رسميًا إلى البندقية في عام 1607 م لشراء مختلف البضائع. وفي عام 1610 م، أرسل الشاه التاجر الأرمني خوجه سافار Khoja Safar، مبعوثًا له لعقد اتفاقيات تجارة وتحالف ضد الأتراك. وزار خوجه سافار البندقية وروما وفلورانس وعاد باتفاقيات تجارية وعسكرية. وسرعان ما سيطر الأرمن على تجارة الحرير بين إيران وإيطاليا، ومُنحوا وضع الإعفاء الضريبي في عدد من المدن الإيطالية. وتركز الأرمن الإيرانيون في فينيسيا حول كنيسة سانت ماري في فورموزا، والواقعة في شارع أصبح معروفًا بشارع جولفا. وكذلك سرعان ما ترك التجار الأرمن الفنادق التقليدية وبدأوا في شراء منازل خاصة بهم.

وبنهاية القرن السابع عشر، بنيت كنيسة حجرية كبيرة في البندقية. حيث كان الأرمن المقيمون فيها قد وصلوا إلى ألفي نسمة. وأقام الأرمن كذلك في بيروجيا Perugia وأنكونا Ancona وسينا Siena وميلان وفيرارا Ferrara. وبُنيت عدة كنائس أرمنية، باسم سانت جريجوري، في ناپولي وناردو Nardo وليفورنو Livorno. وكانت الكاثوليكية ذات قوة كبيرة في إيطاليا، وتحول معظم الأرمن إلى الكنيسة الرومانية. وبنهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، عندما تدهورت أحوال الأرمن في إيران، انتقل عدد من الخوجات البارزين إلى البندقية. وأهم هؤلاء كانت عائلات شاهوميان (1650-1757 م) Shahumians، ومارتيروسيان (1690-1737 م) Martirosians، وشاريمانيان (1697-1800 م) Sharimanians، ونورادونجيان (1717-1757 م) Noradungians.

وأقام التجار الأرمن أيضًا، من هولندا وفرنسا وروسيا، بيوتات تجارية في البندقية. وكذلك استقر عدد من البحارة والحرفيين الأرمن في الموانئ الإيطالية.

وأجبر كثير من الأرمن عند نهاية الجمهورية البندقية على الرحيل، وبحلول القرن التاسع عشر لم يبق في المدينة الكبيرة إلا حوالي 12 عائلة. وأهم حدث في تاريخ الأرمن في البندقية هو نقل الأخوية المختيارية، التي وصفناها قبلاً إلى هناك. وبفضل كرم التجار الأرمن الأثرياء في الهند، أقام المختاريون كليتين، واحدة في البندقية (مراد رافائيليان Murad Raphaelian)، والأخرى في يادوا (ونقلت فيما بعد إلى باريس ثم إلى سيفر (Sèvres)). وضمن نشاط المختاريين وجوداً مستمراً للأرمن في البندقية.

الجاليات الأرمنية في فرنسا

بدأت العلاقات التجارية الأرمنية مع فرنسا منذ القرن السابع، وازدادت أثناء القرن العاشر. وقيل إنه كان هناك عدد من الأرمن بين المبعوثين، الذين أرسلهم الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى بلاط شارلمان عام 807م. وأرسل البيزنطيون أيضًا مبعوثين أرمن إلى فرنسا. وفي القرن التاسع، وصل عدد من الأرمن البولسيين عن طريق دالماتيا وإيطاليا إلى فرنسا، حيث من المحتمل أنه كان لهم بعض التأثير على نهضة حركة ألبيجينسيان⁽¹³⁾ في الجنوب التي قامت في فترة لاحقة. وبعد سقوط أني في القرن الحادي عشر، هرب كثير من الأرمن إلى أوروبا وأقاموا جالية في فرنسا أيضًا. لكن العلاقات الأرمنية الفرنسية كانت متقطعة حتى الحملات الصليبية. لقد جاءت الحروب الصليبية وما تبعها من تجارة بين فرنسا وقيليقية ليس فقط بالاتفاقيات التجارية، ولكن العسكرية أيضًا. وكذلك زيجات بين التجار والنبلاء الأرمن والفرنسيين، منذ القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر. وحصل التجار الفرنسيون على امتيازات خاصة من أوشرين ملك قيليقية في 1314م. دفعوا بمقتضاها رسوماً جمركية لا تزيد على اثنين بالمائة فقط. وكانت السفن الفرنسية والتجار الفرنسيون يقفون في مراسي آياس Ayas وتاروسوس Tarsus ومرسين

(13) أطلق هذا الاسم على حركة دينية ربما تكون لها أصول غنوسية. قامت الحركة الكاثارية أو الألبيجينية في جنوب فرنسا. والاسم يعني «التطهيرية». وفي مقابلها شنت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الحملة الكاثارية (1209-1229م) Cathar Crusade. التي كانت حملة عسكرية استمرت عشرين سنة للنضاء على الكاثار. الذين اعتبرتهم الكنيسة مهرطقين. كانت الحملة شديدة الفسوة والعنف. وأدت إلى ظهور الطائفة الدومينيكانية ومحاكم التفتيش في العصور الوسطى. (المترجمة)

Mersin وسيس Sis، وقد زار الأرمن الموانئ الفرنسية. وكان الفرنسيون يجلبون المرايا والصابون وشمع النحل، بينما جلب الأرمن الحرير وغيره من السلع الشرقية النادرة إلى مرسيليا وناربون ونيم. وبعد سقوط قيليقية، انتقل العديد من التجار الأرمن إلى المدن الفرنسية، ومنها مدينة أفينيون. وفي عام 1389م، جاء ليو الخامس، آخر ملوك قيليقية بعد أن أفتدى من مصر، إلى فرنسا وحاول التوسط بين فرنسا وإنجلترا. وشجعهما على التخلي عن صراعاتهما (حرب المائة عام)، وعلى بدء حملة صليبية جديدة لتحرير المسيحيين في الشرق الأوسط. لكن ذلك لم يؤد إلى أية نتيجة، وتوفي في 29 نوفمبر 1393م. وكما ذكرنا، كان ليو من أصل فرنسي وعلى علاقة قرابة بملوك فرنسا، فتم دفنه في دير السلسطينيين.

جاء إلى فرنسا أيضاً بناءون وحرفيون أرمن. وفي أوائل القرن التاسع بنى مهندس أرمني كنيسة جرميني دي پريه Germigny des Prés في أورليان، وهي أقدم كنيسة من الطراز الكارولنجي⁽¹⁴⁾ في فرنسا. وتجسد الكنيسة كلاً من الطرازين المعماريين الأرمني والقوطي الغربي. وفي عام 1453م، بعد سقوط القسطنطينية، وصل عدد من الأرمن إلى باريس ومرسيليا. وفي القرن السابع عشر، أقام الخوجات الأرمن من إيران تجارة جديدة مع فرنسا. وقد اعترف الوزراء الفرنسيون العظام، ريشيليو ومازارين وكولبرت، بأهمية التجار الأرمن وشجعوهم على الاستقرار في مرسيليا. وبحلول عام 1622م، كان التجار الأرمن يتنافسون جيداً؛ لدرجة أن نظراءهم الفرنسيين اشتكوا وأجبروا الحكومة على وضع قيود على البضائع الأرمنية، ومنع السفن الفرنسية من حملها، ومن ثم تم منع الحرير، وتم منع أخذ العملات الذهبية والفضية الفرنسية خارج البلاد. واشتكى التجار الأرمن للشاه عباس، الذي أرسل رسالة مع أنطوان أرمني Antoine Armeni، الذي كان وسيطاً تجارياً عينته فرنسا، إلى لويس الثالث عشر عام 1629م، وكانت نتيجته رفع بعض تلك القيود. وفي ستينيات القرن السابع عشر، قام كولبرت بإلغاء معظم القيود، رغم اعتراض تجار مرسيليا الفرنسيين. ولا يزال موجوداً في مرسيليا شارع يسمى ”شارع أرمني“.

(14) الطراز الكارولنجي Carolingian art: هو طراز فني انتشر لمدة تقارب 120 سنة من حوالي 780 إلى 900م. أثناء حكم شارلمان وورثته المباشرين. وتشتهر تلك الفترة باسم «النهضة الكارولنجية». فلأول مرة، يقوم ملوك شمال أوروبا بدعم الأشكال الفنية الرومانية الكلاسيكية الخاصة بالبحر المتوسط. وتم خلط القوالب الكلاسيكية والقوالب الجرمانية، مما خلق إبداعات جديدة تماماً في رسم الشخصيات ومهد لظهور «الطراز الرومانسكي». والذي تلاه مباشرة «الطراز القوطي» الغربي. ويعتبر «العصر الكارولنجي» هو أول مرحلة من مراحل حركة الفن في العصر الوسيط. المعروفة بـ «ما قبل الرومانسك». (المرجمة)

فتح الأرمن مشروعات في داخل البلاد، في باريس وليون، وكذلك في مواني نيس (كانت عندئذ جزءاً من ساقوى) وتولوز. وفي أواسط القرن الثامن عشر، قدم أرمني من ناخيتشيفان. هو هوفهانس ألتون Hovhannes Altoun (جان ألتين Jean Altin) إلى صابفي الأقمشة في أفينيون نبات المادر madder، وهو نبات صغير يمكن استخلاص صبغة حمراء من جذوره. وحتى اختراع الصبغة الصناعية، كان وادي الرون مركزاً رئيسياً لإنتاج هذه الصبغة. وكما في إيطاليا، أقامت الجالية الأرمنية مطبعة في فرنسا، وأصدرت قاموساً للغتين الأرمنية واللاتينية في سنوات 1630م. وقام المطبعي الأرمني الشهير فوسكان اليريفاني Voskan of Yerevan، والذي كان قد انتقل من أمستردام إلى ليفورنو، جاء إلى مرسيليا، وابتداء من عام 1673م بطبع حوالي ثلاثين كتاباً باللغة الأرمنية. واستمر الأرمن في الهجرة إلى فرنسا أثناء القرن الثامن عشر، وخاصة في القرن التاسع عشر. عندما جاء بعض الأرمن من الإمبراطورية العثمانية والأراضي العربية واستقروا هناك. وكان التأثير الكاثوليكي على الأرمن قوياً في فرنسا، وبمرور الوقت، تحول معظم هؤلاء الأرمن إلى الكاثوليكية.

الجالية الأرمنية في هولندا

هناك ما يدل على وجود الأرمن في "الأراضي المنخفضة"، أي بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج. بداية من القرن الحادي عشر. لكن التجارة نشطت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. عندما وصل التجار الألمان والفلامنكيون إلى قيليقية. وفتحت بيوتات تجارة أرمنية في الأراضي المنخفضة. وقد أحضر الأرمن السجاد والصبغة والقطن والتوابل، وركزوا تجارتهم على مدينة بروج Bruges، خاصة في ميدان كنيسة سانت دونالد، حيث كانوا يقايضون بضائعهم مقابل الملابس الصوفية والفراء الروسي والزيت الإسباني، وغير ذلك من البضائع التي تأتي من جميع أنحاء أوروبا. وبعد سقوط قيليقية، وصل إلى بروج لاجئون أرمن، حيث حصلوا على دعم بعض الجمعيات الخيرية المسيحية الفلامنكية. وفي 1478م، بنى الأرمن نزلاً كبيراً في بروج، والذي أصبح معروفاً بـ «التكية الأرمنية». وبنهاية ذلك القرن، بدأ الأرمن في الانتقال إلى أمستردام. المركز الجديد للتجارة في المنطقة. وتسجل المصادر الهولندية تجاراً أرمن يبيعون اللؤلؤ والماس هناك في النصف الثاني من القرن السادس عشر. ولقيت التجارة

الأرمنية في أمستردام دفعة كبيرة، عندما بدأ تجار أرمن من إيران يتاجرون في أوروبا الغربية في النصف الأول من القرن السابع عشر. وذهب تجار هولنديون إلى أصفهان، حتى أن بعضهم استقر في جولفا الجديدة، بينما فتح الأرمن بيوتات تجارية في أمستردام. ورغم أن أول كتاب أرمني طبع في البندقية (1512م)، فإن أول دار طباعة ونشر أرمنية تم تأسيسها في أمستردام، عندما بدأ فوسكان اليريفاني طباعة أول إنجيل أرمني عام 1666م في تلك المدينة. كانت هولندا تتمتع بالتسامح الديني، وطبعت بعض الكتب الأرمنية الأخرى في أمستردام، أثناء النصف الثاني من القرن السابع عشر. لكن المطبعة وقعت في الديون، وفي الجزء الأول من القرن الثامن عشر بيعت إلى المختارين البنادقة. وكذلك أدخل الأرمن من أمستردام أول ماكينة طباعة إلى إيران.

وفي 1612م، بعد إبرام اتفاقية تجارية بين الأتراك والهولنديين، وصل تجار أرمن من الإمبراطورية العثمانية إلى أمستردام أيضًا. وكما في بقية أوروبا، كان الحرير هو المادة الرئيسية التي يتاجر فيها الأرمن هناك، واستمروا في السيطرة على تجارة الحرير الهولندية حتى أواسط القرن الثامن عشر. ووفقًا لمصادر هولندية، كان هناك حوالي خمسمائة أرمني يعيشون في أمستردام، متركزين في شوارع مونيكينسترات، وديكسترات، وكايسرسترات، ويبيعون بضائعهم في السوق الشرقي.

في عامي 1713-1714م، بنى الأرمن كنيسة أرمنية في أمستردام، وتلقوا تصريحًا من إتشميادزين بأن يكون لهم قس خاص بهم. وكان عدد من التجار الأرمن أثرياء بما يكفي؛ لتكون لهم سفنهم التي ترفع العلم الهولندي، وأن ترافقهم سفن شرعية مسلحة في رحلاتهم إلى أزمير. ولكن بعد مائة عام، نتيجة الصراعات الأوروبية المتعددة، خاصة الحصار الذي فرض أثناء الحروب النابوليونية، وكذلك نهضة شركات التجارة الإنجليزية، فقدت الجالية الأرمنية نفوذها الاقتصادي في هولندا. وبحلول أوائل القرن التاسع عشر، أغلقت الكنيسة الأرمنية في أمستردام، وبيعت في النهاية إلى إحدى الأخويات الكاثوليكية.

وبنهاية القرن التاسع عشر، كانت معظم الجاليات الأرمنية في أوروبا (انظر خريطة 30) قد وصلوا إلى الحد الأدنى من نفوذها الاجتماعي والاقتصادي، ولم يستطع أحد أن يتنبأ بأن كوارث أعوام 1895-1896م، و1915-1922م سوف تأتي بهاجرين أرمن جدد، ومختلفين جدًا، إلى شواطئ أوروبا الشرقية والغربية.

القضية الأرمنية والحل النهائي

الأرمن في تركيا العثمانية

(1876-1918م)

لم تحل الإصلاحات التي قررها سليم الثالث، والتي بلغت ذروتها في ”الفرمان السلطاني“ لعام 1856م، المتابع الاقتصادية الاجتماعية والسياسية لتركيا العثمانية. ورغم أن الشعب الحضري في إسطنبول قد استفاد من الإصلاحات، فإن معظم السكان، أي الفلاحين، لم يتأثروا. ولم يكن قادة الجالية الأرمنية قد سعوا لاستقلال أو انفصال عن العثمانيين، رغم وجود صحوه ثقافية. وفي البلقان، كان معظم الجماعات القومية الرئيسية الأخرى. فيما عدا البلغارين قد حصلوا، بالفعل، على الاستقلال أو الحكم الذاتي. لكن الأرمن كانوا يتوقون فقط لحكومة مستقرة وعادلة. وثمة عدد من الأسباب وراء سلوك الملة الصادقة. كان ألف عام أو يزيد من الغزو، والهجرات الأرمنية، وتوطن القبائل التركية والكردية في الأناضول، قد أدت إلى حقيقة أن الأرمن لم يكن لهم، إلا أكثرية مسيحية في بعض الأماكن، وأغلبية في عدد ضئيل من مناطق أرمينية الغربية. وهكذا، على عكس العرب أو مسيحيي البلقان، لم يكن الأرمن يشكلون أغلبية في وطنهم الأم. والأكثر أهمية، أن القيادة الأرمنية كانت تتكون من تجار حضريين، لا يقيمون في أرمينية التاريخية. بين الفلاحين الذين لا يزالون في حالة استياء. وبحلول أواسط القرن التاسع عشر، كان معظم هؤلاء القادة تقريباً يعيشون في إسطنبول وأزمير والقاهرة والإسكندرية وحلب وتفليس وباكوا وناخيتشيفان الجديدة وموسكو وسانت بطرسبرج، أو غيرها من المراكز الحضرية في أوروبا وآسيا. فلم يكونوا فقط بعيدين جغرافياً عن العمال والفلاحين الأرمن، ولكن أيضاً لم يكن بينهم، وبين هؤلاء الكثير من الأشياء المشتركة. وباستثناء بعض الأقاليم الجبلية القليلة، لم يكن للأرمن في الداخل قادة عسكريين أو نبلاء لحشد الشعب. وكانت النخبة الحضرية الأرمنية تحظى باحترام عام، في الدول التي يعيشون فيها. وفي الواقع أنهم وجدوا العمل مع القوى الحاكمة له مزاياه لأوضاعهم

الاجتماعية والاقتصادية. وكانت الهيئة الكنسية، في معظم الأحوال، أيضاً مبتعدة عن معظم الأرمن. فهي أيضاً كانت تدافع عن الأصولية وتنصح الشعب بقبول أحوالهم. بدأت اليقظة السياسية الأرمنية في المهجر، ولم تجد طريقها إلى المناطق الريفية بالوطن الأم، إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الأحوال الاجتماعية الاقتصادية في أرمينية الغربية

كان شعب أرمينية الغربية، على عكس شعب أرمينية الشرقية، متناثرًا على منطقة كبيرة، يفصله عديد من المناطق السكنية التركية والكردية أو المراعى. وهناك بعض الملامح المشتركة سادت حياة القرية في أرمينية الغربية. مثل معظم فلاحى تلك الفترة، كان الأرمن في شرق تركيا، حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أميين بشكل عام. وكانوا يتكلمون اللهجات المحلية الأرمنية أو الكردية أو التركية. وكانت العائلة أبوية البنية وذات خط وراثي أبوي، مع تقسيم الملكية بالتساوي بين الأبناء الذكور. كانت هناك مراعاة صارمة للتقاليد المحلية والعادات الإقليمية، وفيما عدا الأشياء الخاصة بالاستخدام الشخصي، مثل: الأسلحة والأدوات والمجوهرات، كانت معظم الملكية مشتركة بين أفراد العائلة الممتدة. كانت البيوت صغيرة، وتبنى من الطوب اللبن، ويتوسطها الفرن الطيني، الذي كان يُحفر في الأرض. وكان أغنى الرجال وأكثرهم خبرة عادة يُنتخب كبيرًا للقرية. فكان يفصل في النزاعات، ويشرف على تنفيذ العدالة، ويحدد الحصص الضريبية المفروضة على كل عائلة. وكان تعويضه عن هذا العمل يأتي في شكل عمالة حرة وهبات. وقبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت عائلات قليلة (في كل من أرمينية الشرقية والغربية) لها أسماء عائلة، فيما عدا تلك العائلات ذات الأصول النبيلة. وبعد ذلك العصر، اتخذ الأفراد جذور أسمائهم العائلية، إما من الاسم المسيحي لمؤسس العشيرة أو مهنته (إن كان حرفيًا أو تاجرًا)، أو مكان ميلاده. وأضيف إلى هذا الجذر اللاحقة "يان" ian (وتكتب أحياناً yan أو ean) أو iants أو uni.

وفيما عدا التحدث بلهجات أرمينية مختلفة عن نظرائهم الشرقيين، كان سكان قرى أرمينية الغربية يختلفون كثيرًا في شكل بيوتهم. فلأنهم كانوا دائمًا على حذر من الإغارات

الكردية. فقد عاشت العائلات الأرمنية الممتدة في تقارب كبير، فالبيوت متصلة بأزقة مغطاة وأسطح متجاورة. وكما يظهر في صور بلدة زيتون، ربما تبدو قرى أرمنية الغربية متاهة واحدة لا نهاية لها من البيوت العشوائية. وقد أدى هذا الشعور الطبيعي بعدم الأمان أيضًا إلى زواج المرأة الأرمنية الغربية في سن صغيرة عادة، من ثلاث عشرة سنة إلى خمس عشرة سنة. وحرص الرجال والنساء على السواء. على الاختلاط مع جيرانهم المسلمين بارتداء ثياب مشابهة لثيابهم. ولهذا، تبدو المرأة الأرمنية الغربية في رداؤها أكثر تطيرًا واتساحًا بالجواهر. أكثر من نظيرتها الشرقية: وفي بعض المناطق كن يرتدين البراقع.

لم تحسن عقود الإصلاح من أحوال الأرمن الغربيين، بل إنها زادت سوءًا من الناحية الفعلية. كان الرؤساء المحليين الأتراك أو الأكراد يكرهون أي تدخل من العاصمة، وشعروا أن الإصلاحات تهدد سيطرتهم على فلاحيهم من المسلمين والأرمن. وكان رؤساء القرى الأرمنية ورجال الكنيسة المحليين - وقد شجعتهم الإصلاحات - يسعون إلى تصحيح الأوضاع بكتابة التماسات إلى الباب العالي أو البطريرك الأرمني في إسطنبول. لكن التراخي المألوف للحكومة المركزية، قد يشجع الأغا أو البك أو الباشا المحلي على الانتقام من الأرمن. بدفعهم خارج أراضيهم. وقد تزايد عدد الأرمن الذين فقدوا أراضيهم وهاجروا إلى المدن بشكل مثير بعد عام 1856م. أما أكثر الذين بقوا، فقد تحولوا إلى ما يمكن وصفه فقط بالقنانة أو العبودية.

تمرد زيتون

أهلكت الغزوات العربية والبيزنطية والتركية والمغولية والتركمانية سلالات الأرمن من الأمراء الملاك الإقطاعيين والقادة العسكريين. وكان سقوط الممالك الأرمنية في أرمنية وقيليقية قد أزال تقريباً أية قوى متبقية من الأمراء أو النبلاء. فقد غادر بعضهم: وتحول آخرون إلى الإسلام أو دخلوا في خدمة الحكام الجدد للبلاد. ولكن بعض النبلاء استطاعوا الهروب إلى الوديان الجبلية لأرمنية: خاصة كاراباغ وزيتون، حيث ظلوا مستقلين. هاجم الأتراك بلدة زيتون، الواقعة في شمال شرق قيليقية، ولكن سكانها البالغ تعدادهم 25 ألف نسمة. يحكمهم أمراء حكمًا ذاتيًا، دافعوا عن أنفسهم ضد الغارات التركية، التي لم تستطع هزيمتهم. وفي النصف الأول من القرن السابع عشر. وافق السلطان مراد الرابع

(1623-1640م) على ترك أهالي زيتون في سلام. في مقابل أن يدفعوا ضريبة من الزيت لإشغال قناديل مسجد آيا صوفيا، ولم يُرسل أي موظف رسمي تركي إلى هناك. واحتفظ السكان، الذين كان بعضهم مسلحين، بحكمهم الذاتي.

وبحلول أواسط القرن التاسع عشر، أدت اليقظة القومية في البلقان، والانتهاكات الروسية في منطقة البحر الأسود وما وراء القوقاز إلى نزوح ما يقرب من نصف مليون لاجئ مسلم إلى الأناضول. ولأنهم طُردوا من بيوتهم على يد المسيحيين، فقد طالبوا الحكومة المركزية بأن تجد لهم مكاناً يعيشون فيه. وتم توطين الذين جاءوا إلى الولايات الغربية حول قيليقية، بينما وجد أولئك القادمون إلى المناطق الشرقية وطناً جديداً في أرمينية الغربية. وكانت الحكومة المركزية قد حاولت، مرة أخرى، أخذ زيتون بالقوة ولكنها فشلت. ولذا فقد رأت أن وصول هذه الجماعات يمكن أن يساعد في إعاقة تنامي استقلال زيتون. وتم توطين الجراكسة والمهاجرين الآخرين في الولايات الغربية، أملاً في أن يتمكنوا من إحراز ما فعله الأكراد والتركمان في أرمينية الغربية. وعندما ثبت فشل ذلك، قرر الأتراك الاستيلاء على زيتون عام 1862م. وقد أثار حذرهم الغزو الفرنسي على لبنان قبل عام. وبدعوى أن أهل زيتون لم يدفعوا ضرائبهم، تحرك جيش تركي كبير وهاجم المنطقة. وفي 2 أغسطس 1863م، هزم الأرمن الجيش التركي، وسببوا له خسائر فادحة. واستولوا على مدافع وذخيرة. هنا ضرب الأتراك حصاراً حول زيتون. بأمل تجويعها حتى تخضع. لكن الأرمن طلبوا مساعدة نابليون الثالث. كما فعل المارونيون في لبنان. وأجبر الفرنسيون الأتراك على رفع الحصار، ولكن سُمح للأتراك ببناء قلعة في زيتون ووضع قوات فيها.

لكن تمرد زيتون ترك أثره: إذ توالى التمردات في فان (1862م)، وأرضروم (1863م)، وموش (1864م)، ويرى بعض المؤرخين أن تمرد زيتون ربما كان الإشارة الأولى لليقظة السياسية لدى الأرمن في تركيا العثمانية. وبين عامي 1862 و1878م. تكونت وحدات وجمعيات صغيرة للدفاع الذاتي في قيليقية وفان. وتكونت جماعات مثل اتحاد الخلاص (1872م) The Union of Salvation، وجمعية الصليب الأسود Black Cross Society (1878م). وكلتاها أُسست في فان. ومهدت المسرح لإقامة أول حزب سياسي أرمني.

القضية الأرمنية

وفقًا لمؤرخ واحد على الأقل، ترجع أصول القضية الأرمنية إلى عام 1071م، عندما هزم الأتراك السلاجقة البيزنطيين في معركة مانزيكرت، وأصبحوا أول جماعة أجنبية تستقر بشكل منظم في أرمينية. لكن المسألة لم توضع على الأجندة الدولية حتى عام 1878م. وحتى ذلك الوقت لم تكن مشكلات الأرمن في الأناضول معروفة في الغرب، ولم تكن تدخل ضمن أية مناقشات، فيما يختص بأحوال المسيحيين الذين يعيشون تحت الحكم التركي.

وكان الفلاحون البوسنيون والبلغاريون قبل ثلاث سنوات، وتحديداً في عامي 1875-1876م، قد تمردوا ضد الحكم التركي. وتم ذبح سكان عديد من القرى بالكامل في عملية انتقامية لهذا التمرد. وطالبت أوروبا وصحافتها بحل فوري لشكاوى المسيحيين في البلقان على مدى قرن كامل. وكانت الحكومة البريطانية في أيدي المحافظين، بقيادة بنجامين ديزرائيلي Benjamin Disraeli، والذي كان يعتقد أن الأتراك بصفتهم الحصن الوحيد ضد تغلغل روسيا في حوض البحر المتوسط، يجب دعمهم مهما بلغت التكاليف. لكن الضغوط التي مارستها المعارضة الليبرالية، بقيادة ويليام جلادستون، وكذلك الرأي العالمي المتصاعد، أجبر ديزرائيلي على الدعوة إلى عقد مؤتمر.

وفي ديسمبر 1876م، اجتمعت القوى الأوروبية الكبرى في إسطنبول للنظر في «المسألة الشرقية»، وحلها، ولدهشتهم، قُدم إليهم دستور كتب مسودته الشبان العثمانيون. وكان الأرمن أيضاً، ويمثلهم جريجور أوديان Grigor Odian، قد أسهموا في كتابة هذه الوثيقة. ووقع السلطان الشاب الجديد، عبد الحميد الثاني (1876-1909م) على الدستور. وكان الدستور العثماني مؤسساً على نهج الدستور البلجيكي لعام 1830م، مع إضافة بعض التعديلات لضمان نفوذ السلطان. قدم الدستور لجميع المواطنين ضمان الحقوق المدنية، والحرية الدينية، والأمان في الحياة والملكية للجميع. كما احتوى على مواد، تكفل استقلال الفروع التشريعية والقضائية والتنفيذية، وكفل مساواة جميع المواطنين أمام القانون.

عندئذ، شعر الدبلوماسيون، خاصة الإنجليز، أن مثل هذا الدستور الليبرالي جعل أية مناقشة بخصوص مسيحيي البلقان لا ضرورة لها، وانفض المؤتمر. وشعر البلغاريون

وغيرهم من الأرثوذكس. أو الأقليات السلافية في البلقان بالخيانة. وظلت المسألة الشرقية في حالة غليان مكبوت. وأصبح يطلق عليها ”الأزمة الشرقية“. كانت المشاعر السلافية في روسيا عالية للغاية. وشجعت الحكومة القيصيرية على حل القضية بالحرب. وحسب الروس أن هذا هو أفضل وقت لإلغاء معاهدة باريس 1856م بالكامل. وكانوا قد بدأوا بالفعل ينقضون بنود المعاهدة في عام 1870م. عندما انتهزوا فرصة الحرب الفرنسية البروسية. وألغو البنود الخاصة بالبحر الأسود. وبدأوا مرة أخرى يحصنون موانئهم على البحر الأسود. وكانت هزيمة فرنسا وظهور ألمانيا كقوة جديدة في عام 1871م. مما أشعر روسيا بأنها حرة التصرف. وفي 1872م نتج عن ذلك تحالف الأباطرة الثلاثة. الذي وافقت بمقتضاه ألمانيا والنمسا وروسيا على دعم بعضها البعض ضد الهجمات الخارجية. ووجدت روسيا في رفض الأتراك مناقشة الوضع في بلغاريا مبرراً لدخول مولدافيا في عام 1877م. وبدأت آخر الحروب الروسية التركية لذلك القرن. ومرة أخرى. دارت الحرب على جبهتين. في أوروبا الشرقية وأرمينية الغربية. ولم تكن هيئة السلطة الأرمينية في إسطنبول تثق بالروس. ولا بالمشاعر الروسية المؤيدة للقومية السلافية، ولا بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية. فأعربت عن تأييدها العلني للعثمانيين. لكن الأحوال كانت لا تُطاق في أرمينية الغربية. وأدت إلى إرهاب الشعب الأرمني هناك. وانتهز الأكراد فرصة الحرب. فهاجموا القرى الأرمينية مرة أخرى. وكانت النتيجة ترحيب الأرمن بالجيش الروسي، تحت قيادة الجنرالات الأرمن، وبمشاركة متطوعين من الأرمن الروس. وبحلول عام 1878م، كانت كل أرمينية الغربية، تقريباً قد تحررت. وكان الجيش الروسي في أوروبا على وشك الوصول إلى إسطنبول. فوافق الأتراك على وقف إطلاق النار وبدأت المفاوضات. وبعد أن وصلت للمتقنين الأرمن في إسطنبول أنباء. عن تعرض قرى أرمينية الغربية لانتهاكات ومخالفات من الأكراد والجراسكة والأتراك، طالبوا قادتهم بالتخلي عن حذرهم. وأن يناشدوا السفير الروسي السابق في إسطنبول وغيره من الموظفين الرسميين الروس أن يتبنوا مستقبل الأرمن الغربيين في مفاوضات السلام القادمة.

وفي معاهدة سان ستيفانو (3 مارس 1878م) منحت رومانيا وصربيا والجبل الأسود⁽¹⁵⁾ استقلالاً تاماً، وأضيفت إلى الأخيرتين مناطق إضافية من البوسنة والهرسك ومقدونيا. وأقيمت أيضاً دولة بلغاريا كبلد كبير مستقل، وضمت معظم مقدونيا وأصبح لها مدخل على بحر إيجة. أما بالنسبة لأرمينية الغربية، فقد ضم الروس كارس وأردهان والأشكيرت وبايزيد (انظر خريطة 31). ورغم أن بقية أرمينية الغربية كان يجب إعادتها للسلطان. فإن المادة 16 من المعاهدة اشترطت أن تظل القوات الروسية في الولايات الأرمينية. حتى تقوم الحكومة التركية بالإصلاحات التي طالب بها السكان الأرمن. وأن تحميهم ضد الغارات الكردية والجركية.

وأعلن البريطانيون برئاسة ديزرائيلي، ووزير الخارجية روبرت سالزبري Robert Salisbury، والنمساويون برئاسة الكونت أندراسي Count Andrassy شجبهم للمعاهدة. وهددوا بشن الحرب. كان القيصر ألكسندر الثاني قد أعتبه الثورات، وأقتعه المستشار الألماني أوتوفون بسمارك Otto von Bismarck (الذي وعد بأن يقوم بدور "الوسيط الأمين")،. فوافق على تجمع أوروبي ببرلين خلال شهرين. وتم تشكيل وفد أرمني بقيادة بطريك إسطنبول السابق (والجائليق فيما بعد) خريميان Khrimian، وقام الوفد بزيارة العواصم المختلفة في أوروبا: لإقناع الدبلوماسيين الأوروبيين بمنح أرمينية الغربية الوضع نفسه الذي مُنح للبنان. أي حاكم مسيحي، وحكم ذاتي محلي، واستخدام عواندها في مشروعات محلية. ومحاكم مدنية، وقوة بوليس مشتركة من الأرمن والمسلمين. لكن القوى العظمى قضت الوقت السابق على المؤتمر في اجتماعات سرية، أبرمت فيها بريطانيا والنمسا وروسيا والأتراك اتفاقيات منفصلة. وعندما وصل الوفد من أجل مؤتمر برلين (13 يونيو - 13 يوليو 1878م)، كان مصير البلقان والأرمن قد تقرر بالفعل.

قررت معاهدة برلين إقامة دولة مستقلة في بلغاريا، ولكن أصغر ودون مخرج على بحر إيجة. مع بقاء معظم مقدونيا تحت الحكم التركي. وأصبحت صربيا والجبل الأسود

(15) الجبل الأسود Montenegro: دولة تقع في جنوب أوروبا، ولها ساحل يطل على البحر الأدرياتي إلى الجنوب. تحدها كرواتيا غرباً. بوسنيا وهرزيجوفينا (البوسنة والهرسك) في الشمال الغربي، وصربيا في الشمال الشرقي، وألبانيا في الجنوب الشرقي. كانت دولة مستقلة منذ العصور الوسطى. ثم أصبحت جزءاً من يوغوسلافيا، ثم من صربيا. ثم أعلنت استقلالها في 2006م. وفي العام نفسه أصبحت عضواً في الأمم المتحدة. وعضواً في الاتحاد الأوروبي في 2007م. (المترجمة)

مستقلين، لكنهما لم تحصلا على أراضٍ أخرى. وأصيب الصرب بضربة قاسية. عندما أعطيت النمسا انتداباً لإدارة البوسنة والهرسك (والتي ظلت تحت سلطة السلطان). وأن تضع حامية في سنجق نوفا بازار Sanjak of Novi Bazar. وهو شريط من الأرض يقع بين صربيا والجبل الأسود. وفاز البريطانيون بقبرص. وهي قاعدة مهمة في البحر المتوسط. يستطيعون منها أن يحتفظوا بمراقبة قناة السويس. وفي المقابل. وعدوا أنه إذا نفذ الأتراك إصلاحات جديدة، فسوف يدافعون عنهم أمام أي هجوم روسي آخر على الأناضول (أرمنية الغربية). وأشعبت طموحات فرنسا بإعطائها حق احتلال تونس. وأصبحت رومانيا مستقلة، ولكنها تخلت عن بيسارابيا الجنوبية لروسيا. وفي الأناضول. ضم الروس كارس وأردهان وباتوم. ولكن بايزيد والأشكريد. اللتين يمر خلالهما الطريق التجاري الرئيسي البري، من إيران إلى ميناء طرابزون على البحر الأسود (انظر خريطة 31)، عادتا إلى الأتراك. ولم يُناقش الحكم الذاتي الأرمني. وبدلاً من ذلك ألغت المادة 61 القوات الروسية، ووضعت بدلاً منها «مسئولية» أوروبية جماعية، دون إشراف مباشر، لتطبيق الإصلاحات في أرمنية الغربية. وقد عبر خريميان عن خيبة أمله في خطبته الطويلة الشهيرة عن «المعرفة الحديدية»، والتي قارن فيها الحالة الجارية بوعاء من الثريد تعرف منه أمم متعددة. كل واحدة بمفرقتها الحديدية. ولكن عندما جاء دور الأرمن لأخذ نصيبهم من الثريد، كان كل ما يملكونه لتناول الثريد به مجرد ورقة تافهة (معاهدة سان ستيفانو)، والتي لم تستطع حمل أية كمية من الثريد. وحث الأرمن على أن يتناولوا بمفرقة حديدية، أي النضال المسلح.

الحركات السياسية والثورية الأرمنية

وطوال العامين التاليين، نفذت القوى العظمى مسؤولياتها، ومن حين لآخر كانت تذكر الباب العالي بوعوده تجاه الأرمن. وأصبح جلاستون، الذي كان مؤيداً للمسيحيين في الإمبراطورية العثمانية، رئيساً للوزراء في عام 1880م، وربما ضغط على العثمانيين لتنفيذ الإصلاحات الجديدة. ولكن سرعان ما تسببت الأحداث الدولية في تحويل أوروبا إلى اتجاهات أخرى: إذ كانت الأنشطة الشاملة للسلافيين في النمسا والمجر، والقلق من إمكانية حدوث تحالف فرنسي روسي، جعل ألمانيا والنمسا تتوصلان إلى تفاهم وتأييدان الأتراك.

واغتيل القيصر ألكسندر الثاني، ولم يكن ابنه ووريثه ألكسندر الثالث (1881-1894م) يثق بالأرمن أو الأقليات الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك، انشغلت القوى العظمى عن القضية الأرمنية، بتوسعها الاستعماري في أفريقيا وجنوب شرق آسيا والصين.

وفي الوقت نفسه، فإن مؤتمر برلين لم يغب فقط آمال الأرمن، ولكنه أيضاً تركهم في حالة محفوفة بالمخاطر. فالملة "الصادقة" أصبحت آنذاك موضعاً للشك بأن لها مشاعر موالية للروس. واستأنف الأكراد والجراسكة غاراتهم على القرى الأرمنية. وحاول البطريرك تخفيف هذا التوتر، بإعلان ولائه وتذكير الأتراك بأن الأرمن على عكس مسيحيي البلقان، لم يرغبوا أبداً في الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية. كان يأمل أن تحل الإصلاحات الموعودة القضية الأرمنية. ولم يقبل السلطان عبد الحميد تأكيدات البطريرك. فشجع الموظفين المحليين على إطلاق يدهم في أرمينية الغربية، واثقاً من أن القوى الأوروبية لن تتدخل. وقوبلت الالتماسات التي رفعها القادة الأرمن في الولايات بالتجاهل التام، والتي تختص بقيام الأكراد والجراسكة بعمليات ابتزاز واغتصاب وخطف وطرده، وانتهاك للقانون والنظام. وفقد معظم الأرمن الشجاعة للدفاع عن أنفسهم، أو إعلان رفضهم للظلم. ومثل اليهود في روسيا، قبلوا مصيرهم. وبالإضافة إلى ذلك، جند السلطان عبد الحميد بعض الأكراد في وحدات خيالة غير نظامية (عُرِفَت بالفرق الحميدية)، لتنفيذ مذابح ضد الأرمن مثل تلك التي ارتكبتها القوزاق في روسيا ضد اليهود. ورغم أن القيادة الأرمنية المسؤولة لم تؤيد الوحدات الأرمنية للدفاع عن النفس، حيث كانت شعاراتهم الاشتراكية والمعادية لرجال الدين، تثير قلق الكنيسة والنخبة التجارية على السواء، فإن السلطان عبد الحميد كان يعتبر كل الأرمن موضع تهديد. وراح يحرف ويشوه أفكار المصلح الإسلامي جمال الدين الأفغاني (1838-1897م) لتناسب أهدافه. فبينما كان الأفغاني، الذي زار إسطنبول واتصل بالسلطان، يدعو إلى توحيد الشعوب والقيم الإسلامية: لمقاومة وطرده الإمبريالية الغربية، استخدم عبد الحميد وضعه كخليفة لتوحيد المسلمين في الإمبراطورية ضد الثوار المسيحيين في البلقان والأناضول.

أثرت خيبة الأمل الناجمة عن مؤتمر برلين على الثقافة الأرمنية أيضاً؛ إذ كان العصر الرومانتيكي للأدب في نهايته، وحلت محله مدرسة الواقعية. وكتب هاكوب بارونيان Hakob Baronian مسرحيات ساخرة. وألّف جريجور زهراب Grigor Zohrab

قصصاً قصيرة حيوية، وجمع روبين زارتاريان Ruben Zartarian أساطير ريفية وحكايات شعبية. ومن أبناء هذا الجيل أيضاً سيامنتو Siamanto وفاروجان Varoujan ومدرسارينتس Medsarents وأوديان Odian. وتبعت الصحافة هذه الحركة. وفي 1884م، أصدر أربيار أربياريان Arpiar Arpiarian صحيفة "الشرق" The Orient لتكون منبراً للكتاب الواقعيين.

وفي عام 1881م، عندما تحقق بعض القادة المحليين الأرمن من أن ضمانات أوروبا فيما يختص بأرمنية الغربية لا تعني إلا القليل، تجاهلوا نصائح كبارهم، وبدأوا تنظيم جماعات دفاعية في عدد من المواقع، مستلهمين حركة مقاومة في البلقان والكفاح المسلح للأرمن في زيتون. كانت أشهر هذه الجماعات جمعية كارين (أرضروم). للدفاع عن أرض الآباء Defense of the Fatherland Society of Karin. وهي جماعة أقسم فيها الشباب على حماية أهاليهم. وبحلول عام 1885، تم تشكيل أول حزب سياسي أرمني (وهو الوحيد الذي تشكل في أرمنية الغربية)، حزب أرميناكان Armenakan. على يد تلاميذ مكرديتش پورتوجاليان Mkrtich Portugalian. الذي كان مدرساً في فان. وكان البرنامج السياسي لحزب أرميناكان من وضع مكرديتش ترلميزيان Mukrtich Terlemezian. الذي كان متأثراً بأفكار خريميان القومية، ويدافع عن التعليم العام، والمقاومة المسلحة، والاستعداد من أجل حكم ذاتي في النهاية. وكان پورتوجاليان قد نفي من تركيا قبل أشهر قليلة. وفي العام نفسه أسس جريدة "أرمنية" في مرسييا.

أثرت نشاطات پورتوجاليان في أوروبا على عدد من الأرمن الروس. الذين يدرسون في الخارج، كما سوف نرى، وسرعان ما بدأوا منظمتهم الثورية هم أيضاً، أي حزب هنشاك الاشتراكي الديمقراطي، في جنيف. واستمر حزب أرميناكان في أنشطته في فان. وجند أعضاء من بين الأرمن في أذربيجان الفارسية والقوقاز وبلغاريا. ولم يكن كل من پورتوجاليان ولا حزب أرميناكان ينادون بالاستقلال. وإنما ظلوا طوال العقد التالي ينظمون جماعات مسلحة: للدفاع عن منطقة فان ضد الغارات الكردية. وبنهاية القرن، التحق عدد من أعضاء الأرميناكان بالأحزاب السياسية الأرمنية الأكبر والأفضل تنظيمًا، مثل الهنشاك Hnchaks والاتحاد الثوري الأرمني، أو الطاشناق Dashnaktsutiu، والذي

ظهر فيما بعد في تفليس (انظر الفصل 19). وفي النهاية، التحق الجزء الرئيسي من حزب أرميناكان بجماعة ساهمانادير رامكافار (والتي أصبحت فيما بعد حزب رامكافار (Ramkavar party)).

لم يتفق الثوريون الأرمن على تحديد مسار حركتهم. فقد شعر الهنشاك أن المظاهرات المضادة للحكومة ستؤدي رسالة للقوي الأوروبية. بأن الأرمن لم ينسوا الوعود التي تضمنتها المادة 61 من معاهدة برلين. ولم يوافق الشباب العثمانيون، الذين سرعان ما أسسوا جماعتهم في جنيف باسم "تركيا الفتاة". على أغلب برنامج الهنشاك، لكنهم قرروا أن ينضموا للأرمن: على أمل الإطاحة بالسلطان وتكوين حكومة دستورية. وفي عام 1890م. تحدى الهنشاك قادتهم الدينيين، ونظموا مظاهرات في أرضروم، وأمام الكاتدرائية الأرمنية في إسطنبول في كوم كابو Kum Kapu. وجذبت هذه الاحتجاجات المنظمة أعضاء جددًا، ولكنها أيضًا انتهت بالقمع وموت العديد من المتظاهرين وقيادات الحزب. وقام الأرمن في روسيا بأفعال أيضًا، وفي العام نفسه، قامت قوة مسلحة صغيرة، ومن الواضح أنها بأمر من الطاشناق، تحت قيادة سر كيس جوجونيان Sarkis Gougounian، للإغارة على تركيا. ورغم أنها فشلت، فإن الرسالة كانت واضحة: الأرمن في روسيا أيضًا لم ينسوا القضية الأرمنية.

وفي عام 1894م، كانت الإحباطات من الضرائب الباهظة والخدمات، التي يطلبها الخانات والباشوات الأتراك والأكراد. وكذلك تشجيع الهنشاك. سببًا في قيام الأرمن من سكان جبل ساسون بتمرد مسلح. ورغم أنهم استطاعوا الصمود لمدة شهر، فإن الوعود بالعمو العام وتقديم التماس رسمي إلى السلطان أغراهم بالاستسلام. لكن الاتفاق لم يكن إلا مجرد خدعة، وقتل حوالي ثلاثة آلاف من أهالي ساسون. واحتجت أوروبا، لكنها لم تفعل شيئًا، ووقعت أحداث قتل في مناطق أخرى. وفي سبتمبر 1895م، قاد الهنشاك مظاهرة ضخمة أمام الباب العالي (مشهورة باسم مظاهرة الباب العالي)، لكي يجبروا الأوروبيين على فعل شيء. وانتهت هذه المظاهرة بإراقة دماء مريعة، وفقدان مئات من الأرمن لحياتهم. لكن الحدث أجبر البريطانيين على طلب بعض التغييرات، والتي وافق عليها السلطان عبد الحميد، بعد بعض المماطلات.

على أية حال، لم يكن لدى السلطان نية لتغيير سياسته إزاء الأرمن. وفي ذلك الوقت، تخلت روسيا، تحت حكم القيصر الجديد نيكولاس الثاني (1894-1917م)، عن دورها الفاعل في البلقان والأناضول. بينما كانت لى القوى الأوروبية الأخرى قضايا أخرى تهتم بها. ولكن اهتمام هذه الدول بالبلقان والأناضول، قد يعود إلى الظهور في أي وقت، وفي مواجهة تنسخ إمبراطوريتها في البلقان والشرق الأوسط وأفريقيا، اعتبر السلطان عبد الحميد حدوث يقظة قومية وسياسية أرمنية في الأناضول ظاهرة خطيرة للغاية. فإذا نجح الأرمن في الحصول على الاستقلال أو الحكم الذاتي، كما حدث مع المسيحيين الآخرين في البلقان، فسوف يفقد الأترك جزءًا كبيرًا مما كانوا يعتبرونه في ذلك الحين وطنهم الأم. وعلى أية حال، لم يستمر إلا عدد قليل نسبيًا من الأتراك في الأراضي العربية أو البلقان: واستقرت غالبيتهم في الأناضول. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الأناضول بالنسبة للأتراك هي القاعدة الرئيسية للزراعة واستخراج المعادن، وكانت تشمل طرقهم التجارية الرئيسية. وطالما كان الأرمن يقبلون وضع التابع، فيمكن أن تظل الإمبراطورية تستفيد منهم. وبعبارة أخرى، ينبغي تعويد الأرمن على الإذعان.

وفي أكتوبر 1895م، بدأت قوات تركية وكردية، بأوامر من إسطنبول، تقوم بهجوم منظم على القرى الأرمنية، وعلى الأحياء الأرمنية بمدن الولايات الأرمنية الست. وأجبرت المذابح تحول البعض إلى الدين الإسلامي، واستمر النهب حتى صيف عام 1896م. وتقدر المصادر أن القتلى من الأرمن بلغوا ما بين مائة ألف إلى مائتي ألف، وأن ما يزيد على نصف المليون تركوا في حالة فقر مدقع. وتم هدم وتدمير مئات الأديرة والكنائس، أو تحويلها إلى مساجد، وأجبرت قرى عديدة على التحول إلى الإسلام. أما منطقتا فان وزيتون، حيث واجه الأرمن المسلحون الحرب بالحرب، فكان الدمار فيها أقل. وفي خلال كل ذلك، قام مندوبو بريطانيا وفرنسا وروسيا بالاحتجاج، لكنهم رفضوا التدخل. وفيما عدا قيام عدد قليل من الرجال المسلحين، بقيادة القادة الشعبيين في ساسون وبيتليس وقان وموش بالمقاومة والرد، كانت أغلبية الأرمن في حالة ذهول منعتهم من أي رد فعل. وهاجر عشرات الآلاف منهم إلى الأراضي العربية وأوروبا والولايات المتحدة، وانتهت المظاهرات السياسية بشكل مفاجئ.

هك القسم الأعظم من كبار رجال حزبي الهنشاك والأرميناكان: وظل الطاشناق وحده المنظمة السياسية الأرمينية القادرة على الاستمرار. وكانت لامبالاة الأوروبيين سبباً في تحريك الطاشناق. الذين حتى هذا الوقت لم يكونوا قد شاركوا في المظاهرات العامة التي نظمها الهنشاك. وفي 26 أغسطس 1896 م. قام ستة وعشرون من الطاشناق. مسلحون بالمتفجرات. وتحت قيادة شاب صغير هو بابكين سيوني Babken Siuni. بالاستيلاء على البنك العثماني في إسطنبول. وهددوا بتدميره. وطالبوا بالفعو العام الكامل. واستعادة الملكية. وتطبيق فوري للإصلاحات تحت إشراف موظفين رسميين أوروبيين في المقاطعات الستة. وتعيين قوة شرطة مشتركة من المسلمين والأرمن في أرمينية الغربية. وأثناء الحصار. قُتل عشرة من الرجال. وبعد تأكيدات من الديبلوماسية الغربية بأن مطالبهم سوف تلقى الاعتبار. ترك الباقون البنك وتحت حراسة مضمونة آمنة. أبحروا إلى أوروبا. وكان رد الفعل التركي سريعاً: إذ قامت الحكومة بالتحريض على الشعب في إسطنبول. وقُتل ستة آلاف أرمني أثناء هذا الشعب. وكان رد الفعل التركي على الاحتجاجات الأوروبية. ضد هذا الفعل. هو الإنكار والقاء اللوم على ”الإرهابيين“ الأرمن.

ثورة 1908 م

في ذلك الوقت. كانت شرطة السلطان عبد الحميد أيضاً نشطة ضد المنشقين والتمتقين الأتراك أنفسهم. واعتقلت عدداً من قياداتهم. ونتيجة لذلك. أقامت جماعة تركيا الفتاة خلايا سياسية في أوروبا بين عامي 1891 و 1896 م. وفي عام 1895 م قامت جماعة أخرى هي ”جمعية الاتحاد والترقي“. في باريس بقصد تنظيم انقلاب ضد السلطنة. ولكن اكتشفت مؤامرتهم. ونُفي معظم القادة إلى أوروبا حيث التحقوا بتركيا الفتاة. وفي عام 1902 م. انضمت تركيا الفتاة إلى الأرمن الطاشناقيين والعرب والألبان واليهود والأكراد في أول مؤتمر للأحرار العثمانيين والذي أقيم في باريس. ورغم أنهم اتفقوا على العمل من أجل إقامة دولة دستورية في المستقبل. تحصل فيها كل الجنسيات والأديان على حقوق المساواة. فإنهم اختلفوا حول التدخل الأوروبي لصالح الأقليات (معاهدة برلين المادة 61). واستمر الأرمن يطالبون بالتدخل الأوروبي. ورفض الطاشناق الاستمرار في المساهمة.

وجاء انتصار اليابانيين على روسيا، وهو أول انتصار لأمة آسيوية على دولة أوروبية عظمى، ليقنع المثقفون الأتراك والعرب والإيرانيون بأن اتباع الأسلوب الغربي سوف يضع نهاية لتخلفهم ويجعلهم مستقلين عن الغرب. وفي الوقت نفسه، كان تحالف الأرمن والأذربيجانيين الإيرانيين في الثورة الفارسية عام 1906م، مما قارب بين الأرمن والثوريين الأتراك، وبدأوا يخططون أنشطة مشتركة ضد السلطان. وفشلت المحاولات الأولى للأرمن في اغتيال السلطان، فتحركت تركيا الفتاة بقيادة جمعية الاتحاد والترقي إلى تراقيا في عام 1906م لجمع تأييد ضباط الجيش في سالونيكًا. وفي سنة 1907م، أثناء المؤتمر الثاني للآحرار العثمانيين، والذي أقامه الطاشناق في باريس. اتفق الأرمن والأتراك على العمل معاً للإطاحة بالسلطان عبد الحميد وبناء دولة حديثة. هذه المرة دون مساعدة أوروبية. ووجه الهنشاك، الذين رفضوا حضور المؤتمرين، اتهاماً للطاشناق بالتعاون مع العدو. وبعد عام، قام الجيش في مقدونيا، تحت قيادة تركيا الفتاة، بالسير إلى إسطنبول. وخلع السلطان عبد الحميد (الذي احتفظ بلقبه كخليفة)، ووضع حكومة دستورية في 24 يوليو 1908م.

وبعد بضعة أشهر، سعت مجموعة من الآحرار الأرمن وبعض أعضاء الطبقة المتوسطة الأرمنية، مستلهمين الدستور العثماني ومعارضين للأساليب الإرهابية، سعوا إلى تأسيس منظمة سياسية من نوع مختلف. وكان الثوريون قد وطموا أنفسهم بالفعل في روسيا وإيران وتركيا. وجعل هذا الجالية الأرمنية في مصر، هي الجالية الأرمنية القوية الوحيدة في المهجر التي لم تتأثر بالحمية الثورية؛ إذ كانت أوضاعهم السياسية والاجتماعية، وكذلك الوجود البريطاني، قد أرسى مناخاً مثاليًا لتشكيل حزب سياسي جديد يمكن أن يدافع عن التقاليد الليبرالية الأوروبية ويمثل الطبقة المتوسطة الأرمنية في المهجر. وجمع بقايا حزب أرميناكان والجمع بين الهنشاك والطاشناق القليلين، الذين ارتابوا في قادتهم الوطنيين، استطاع هؤلاء الأرمن المهنيون تأسيس الحزب الدستوري الديمقراطي الأرمني (ساهمانادير رامكافار Sahmandir Ramkavar) في 31 أكتوبر 1908م بالإسكندرية. وفتح الحزب فرعاً في إسطنبول. حيث اجتذبوا كثيراً من الأعضاء الجدد، وحيث ظهروا فيما بعد (1921م)، تحت اسم مختلف قليلاً (رامكافار أزاتاكان، أو رامكافار Ramkavar Azatakan or Ramkavar)، كمنظمة سياسية أرمنية كبرى.

وفي الوقت نفسه، احتفل القادة الأرمن والأتراك في العاصمة بنهاية حكم عبد الحميد، وتطلعوا إلى عصر جديد من التعاون التركي الأرمني. وأصبح عدد من المثقفين الأرمن أعضاء في البرلمان، وتبأ الجميع بمستقبل مشرق. وحتى الهنشاك، الذين رفضوا التعاون مع تركيا الفتاة، قرروا التخلي عن النشاط السري، وأن ينتظروا الإصلاحات. لكن شهر العسل استمر أقل من سنة، فقد قامت النمسا، منتهزة فرصة الثورة، بضم البوسنة والهرسك، وأعلنت بلغاريا استقلالها، وأعلنت كريت اتحادها مع اليونان. وكان رد الفعل في تركيا هو انقلاب، وعودة عبد الحميد لمدة عشرة أيام في إبريل 1909م. وأثناء تلك الأيام العشرة، وفور عودة تركيا الفتاة، قام القوميون والرجعيون الأتراك بقتل ما يزيد على 25 ألف أرمني في قيليقية. وبمجرد استعادة النظام، نُفي عبد الحميد، ووُضع أخوه الضعيف، محمد الخامس (1909-1918م)، بدلاً منه.

ورغم معاقبة عديد من المجرمين الثانويين من مرتكبي المذابح، فالحقيقة أن بعض أعضاء تركيا الفتاة في قيليقية قد أيدوا، بل وشاركوا في الإفساد المرعب للعلاقات الأرمنية التركية. ورغم هذا، استمرت البطريركية الأرمنية وحزب الطاشناق - والذي كان في هذا الوقت أبرز الأحزاب السياسية الأرمنية وأكثرها ظهوراً. في التعاون مع تركيا الفتاة والأرمن الذين كانوا في الجيش التركي، وشاركوا باسم الأتراك أثناء حرب البلقان الأولى (1912م). لكن قيادة تركيا الفتاة كانت في حالة تغير. وكانت الطورانية المؤيدة للعنصر التركي والعنصرية والقومية المناضلة في حالة تصاعد، وأصبح أنصارها، مثل ضياء جوك أنب Zia Gokalp، جزءاً من اللجنة المركزية للاتحاد والترقي. وكان هدف مؤيدي الطورانية هو تحويل الأقليات وإدماجها مع الشعب التركي في الأناضول وإيران وما وراء القوقاز وروسيا وآسيا الوسطى إلى إمبراطورية طورانية. وأحرزت الفكرة مناصرين أكثر بعد رحيل مئات الآلاف من المهاجرين الأتراك من البلقان أثناء سنوات 1908-1912م. وقضت الخسائر التركية في حروب البلقان وإعلان استقلال ألبانيا على ما تبقى من قوة للمعتدلين والأحرار في الحكومة. وفي 23 يناير 1913م، حدث انقلاب بقيادة القوميون المتطرفين أعطى سلطات ديكتاتورية لمجموعة صغيرة بقيادة حكومة ثلاثية لأنور باشا Enver Pasha، وزيراً للحربية، وطلعت باشا، وزيراً للداخلية، وجمال باشا، حاكمًا عسكرياً للقسطنطينية. وقمعت الحكومة الجديدة كل أنواع المعارضة متجاهلة مواد الدستور.

نتيجة تخوف الأرمن من هذه التطورات، وفي مواجهة وصول أكثر من 500 ألف من المهاجرين المسلمين، الذين طردوا من مواطنهم في البلقان، ويشعرون بعداء سافر للمسيحية إلى أرمينية الغربية، بدأ القادة الأرمن مرة أخرى يتطلعون إلى مساعدة دبلوماسية خارجية، ولكن في ذلك الوقت، كانت الحالة السياسية الدولية قد تغيرت كثيراً. ففي عام 1894م تحالفت روسيا مع فرنسا، وفي عام 1907م أبرمت معاهدة مع بريطانيا تم فيها تحديد مناطق النفوذ في آسيا، مشكلين بذلك الحلف الثلاثي. وسعت البلدان الوسطى، أو ألمانيا والنمسا وإيطاليا المترددة، لعمل تحالفاتها العسكرية والاقتصادية ضد الحلف الثلاثي. ونظر الأتراك، الذين فقدوا بريطانيا حليفهم التقليدي، نحو ألمانيا، وسرعان ما كانوا يشترون أسلحة ألمانية، وينتدبون المستشارين العسكريين الألمان، ويبرمون اتفاقيات تجارية، ويخططون لمد خط سكة حديدية من بغداد إلى برلين.

وبحلول عام 1913م، تجدد النشاط السياسي الأرميني، وأيضاً أنمش الوضع الدولي المتوتر القضية الأرمينية مجدداً، وحثت روسيا الدول العظمى على عقد مؤتمر آخر. وكانت الخطة الروسية ترمي إلى تجنب حرب أخرى، ولذا تضمنت عدداً من الشروط، هي: وضع أرمينية الغربية تحت إشراف حاكم غير تركي، وإقامة قوة شرطة مختلطة، وحل "الفرق الحميدية"، وإنهاء استقرار المهاجرين المسلمين، القادمين من البلقان في الولايات الأرمينية، وتقديم تعويضات عن الخسائر الاقتصادية الأرمينية الأخيرة، والاحتفاظ بالموائد التي تجمع من أرمينية للمشروعات المحلية مثل المدارس. وبالإضافة إلى ذلك، دخلت قيليقية في هذه الخطة. ولم يطالب الأرمن ولا الروس بفصل أرمينية الغربية عن تركيا العثمانية.

لكن اعتراضات ألمانيا والنمسا أدت إلى عدد من التسويات والحلول الوسط، وفي أوائل 1914م تم التوصل إلى اتفاق قبلته القوى العظمى، ووقعته روسيا وتركيا. تضمن الاتفاق القليل من المطالب الأصلية، وبموجبه، سوف يتم تقسيم أرمينية التركية إلى ولايتين، يشرف عليهما حاكمان عامان أوروبيان محايدان، واللذان سيشرهان على قوة الشرطة المختلطة، وعدد من الإصلاحات الإدارية والضريبية. ولم تشمل الخطة قيليقية. وفي

صيف 1914م، وصل حاكمان نرويجي وهولندي إلى تركيا، ورغم أن الأرمن شعروا بخيبة الأمل، فإنهم أملوا أن تكون الإصلاحات التي طال انتظارها بسببها إلى التطبيق أخيراً في الولايات الأرمنية الست. لكن الأتراك خشوا حتى مثل هذه الإصلاحات المتواضعة، والذين رأوا فيها حكماً ذاتياً متتامياً يمكن أن تصل، في النهاية، إلى استقلال أرمينية الغربية كما حدث في دول البلقان.

وفي الوقت نفسه، أُجريت عشية الحرب العالمية الأولى مفاوضات على تحالف سري تركي ألماني، شريطة أن يساعد الألمان على تحقيق حلم الطورانية. وكان هذا يعني أن الجورجيين والروس، والأرمن على وجه الخصوص، يمثلون العقبة الأساسية في توحيد الشعب التركي. ولذا، كان لابد من القضاء عليهم. وسوف يسهم القضاء عليهم في تمكين المهاجرين المسلمين، الذين طردوا من البلقان من الاستقرار في القرى الأرمنية، وعلى تعويضهم عن أية ثروات فقدوها في أوروبا الشرقية. وبالإضافة إلى ذلك، شعر الأتراك أنه لكي يتم خلق بورجوازية تركية، فلا بد من القضاء على الطبقة الوسطى الأرمنية. ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا في خريف 1914م، رغم تحذير بريطاني قوي. وفي بداية الحرب، بدأت الخطوة الأولى لهذه الخطة بانتقال أنور باشا مع جيش كبير نحو ما وراء القوقاز وأذربيجان الفارسية. وكانت حملة شتاء 1914-1915م كارثة بالنسبة لأنور، إذ عانى جيشه خسائر مهولة على كلتا الجبهتين، وترك الجبهة وعاد إلى العاصمة. ولإنقاذ ماء وجهه، ألقى اللوم على الأرمن في الأناضول مدعياً تسببهم في فشله. وكانت اللجنة المركزية للاتحاد والترقي قد أصبحت آنذاك شديدة القلق من هجوم روسي مضاد، والذي كان سيأتي بكل تأكيد بعد ذوبان جليد الشتاء.

وبعد فشل الحملة مباشرة، وتحديدًا في فبراير، تم تجريد الجنود الأرمن من السلاح، وإنزالهم إلى مرتبة العمال النظاميين. وتم تجريد المواطنين الأرمن، الذين سُمح لهم بحمل السلاح بعد ثورة 1908م، من أسلحتهم. وأخذ كثير من الرجال لتفنيذ أحقر الأعمال في الجيش. وفي مارس، قررت الحكومة أن تتعمق أو تدمر مركزي القوة الأرمينيتين الرئيسيتين، وهما زيتون وفان. وكان أول من تعرض للقتل والترحيل هم الأرمن في زيتون وعدد من المدن الأخرى في قيليقية. ورغم أن القليل منهم قاوموا وهربوا إلى

الجبال، فإن معظم السكان سيقوا إلى الصحراء السورية. وعلى الفور، استولى المهاجرون المسلمون الذين جاء أغلبهم من تراقيا وبلغاريا على ممتلكاتهم. وكان الأرمن في ولاية فان هم التالين، وفي أواسط إبريل نجح الأتراك في قتل أو ترحيل معظم سكان تلك الولاية. لكن مدينة فان، بأغليبيتها الأرمنية البالغة 30 ألفاً، كانت استثناء. فقد قام أبناء الحي الأرمني بإقامة حواجز محصنة، واستطاعوا، مسلحين بالقليل من الأسلحة تحت قيادة أرام مانوكيان Aram Manukian وأرميناك إركانياك Armenak Erkanian. الصمود حتى وصول القوات الروسية في أواسط مايو 1915م.

وفي نهاية إبريل، كان المسرح قد أُعد للحل النهائي للقضية الأرمنية. وفي ليلة 24 إبريل 1915م، أخذ أكثر من مائتين من الكتاب والشعراء ومحرري الصحف والمدرسين والمحامين وأعضاء البرلمان، وغيرهم من قادة الجالية الأرمنية في إسطنبول قسراً من بيوتهم، ثم قتلوا فيما بعد. ومن بين هؤلاء كثير من الكتاب، الذين ولدوا أثناء أو في بدايات النهضة الأدبية الأرمنية. وبنهاية السنة كان قد تم القبض على حوالي 600 من الأرمن المتقنين، وبضعة مئات من العمال، وتم ترحيلهم إلى الداخل. ومن الأرمن القلائل الذين نجوا المؤلف الموسيقي وجامع الأغاني الشعبية جوميداس، الذي عانى بعد أن شهد هذه الكارثة. من انهيار نفسي لم يشف منه أبداً. وكانت الأوامر المباشرة قد أُبرقت للحكام والقادة العسكريين للولايات الأرمنية الست بنقل الأرمن بالقوة من أرض أسلافهم. واتبعت سياسة التطهير العرقي النموذج نفسه في كل ولاية. أولاً، استدعاء كل الرجال القادرين إلى مراكز قيادة البلدية، حيث تم احتجازهم، أو سجنوا لفترة قصيرة، ثم أخذوا خارج المدينة وقتلوا رمياً بالرصاص. وبعد ذلك أُخبر الرجال العجائز والنساء والأطفال بأن أمامهم ساعات قليلة أو بضعة أيام لكي يرحلوا إلى أماكن جديدة. ورغم أن بعض هؤلاء جُمعوا في الكنائس ثم أشعلت فيهم النار، فإن الأغلبية سيقوا. تحت حراسة فرق خاصة، تم تشكيلها من المجرمين والمشاغبين العاطلين الأتراك. في مسيرات طويلة، حيث مات كثيرون بسبب نقص الماء أو الطعام أو من الإجهاد. ومات معظم من نجوا من هذه المسيرات في معسكرات الصحراء بـ «دير الزور». واغتُصبت النساء. وتعرض الرجال العجائز والصبية للحرق أو التشويه أو الضرب. وأجبر أتراك وأكراد النساء الشابات على أن يصبحن زوجات

أو خليات، وأخذ أطفال كثيرون، وتمت تربيتهم كمسلمين (ووفقاً لأحد المصادر، تحول إلى الإسلام أكثر من 250 ألف). وأهلكت حوادث الانتحار والتعذيب والقتل صفوف المرحلين الذين سيقوا إلى حلب والموصل. ووصل قليلون إلى المكان المقصود، ووفقاً لمعظم المصادر، فني أكثر من مليون أرمني كانوا يعيشون في الولايات الست. وفي عام 1916م، كان قد تم استئصال السكان الأرمن المقيمين في فان وموش وساسون وبيتليس، وإرزنجان وبابيرت وأرزروم، وطرابيزون ومالاطيا وشابين كاراهيسار وخربوط وسيفاس وأنقرة ودياربكر ومارسوفان والرها، وكذلك قبليقية (انظر خريطة 32).

سار الأرمن إلى حتفهم بلا سلاح، محاطون بمن يفوقونهم عدداً وعدة، محاصرون، ودون رجالهم القادرين، وبأقل مقاومة. واستطاع أفراد قليلون أن يردوا الضرب أو أن يهربوا. وعندما رأى سكان القرى الأرمنية الواقعة على جانب جبل موسى على سواحل شرق المتوسط من مصير جيرانهم، قرروا المقاومة. وفعلاً، قاوموا قوة تركية كبيرة لمدة أربعين يوماً، وتم إنقاذ حوالي 4 آلاف منهم فيما بعد على يد الأسطول الفرنسي. وفيما بعد، خلد الكاتب الألماني فرانز فيرفل Franz Werfel وقفتهم البطولية في روايته ”الأيام الأربعون لجبل موسى“ The Forty Days of Musa Dagh.

أنقذ المبشرون الأجانب بعض الأرمن الكاثوليك والبروتستانت، لكن عدداً كبيراً من هؤلاء واجهوا مصير إخوانهم الرسوليين نفسه. وتم تجاهل التماسات عديد من الديبلوماسيين والمبشرين الأجانب، خاصة السفير الأمريكي هنري مورجيثناو Henry Morgenthau، الذي حاول أن يتشفع للأرمن ويوقف المجزرة. ورغم أن الضباط الألمان والنمساويين لم يكن لهم دور في التحريض على الإبادة، فقد كانوا على علم تام بالتحضير لها. ورغم أنهم شهدوا أو تلقوا أخبار الأحداث، فقد رفضوا أن يفعلوا أي شيء حاسم تجاه المسألة. باستثناء القائد الألماني في أزمير. كان الأرمن المقيمون في إسطنبول وأزمير ضمن الخطة أيضاً. لكن فيما عدا بضعة آلاف تم القبض عليهم في البداية، فقد نجوا أساساً بسبب وجود عديد من المستشارين الأوروبيين وتدخلات الديبلوماسيين والقيادات العسكرية من الأمريكيين والألمان. وعندما وصل عدد من فقدوا حياتهم إلى ما يقرب من مليون ونصف مليون إنسان، أصبحت القضية الأرمنية في الأناضول وقد حُلّت. وفيما بعد،

في عام 1922م، تم القضاء على الجالية الأرمنية الكبيرة في أزمير . مع معظم اليونانيين. وفي الحين نفسه، غادرت المجموعة الأرمنية المقيمة في مقاطعة في قيليقية. والمعروفة بسنجق الإسكندرون، والتي أصبحت جزءاً من سوريا بعد 1918م، غادرت المنطقة بعد أن أعادها الفرنسيون إلى الأتراك عام 1939م. وبعد الحرب العالمية الثانية. أسهم التمييز العنصري والانتهاك والمذابح والضرائب الجزافية في دفع عدد كبير من الأرمن الكثيرين الموجودين في إسطنبول إلى الهجرة.

وعند عقد مقارنة بين الإبادة الأرمنية والهولوكوست اليهودي الذي جري بعد عدة عقود، يظهر عدد من الملامح المشتركة. ففي كلتا الحالتين، كانت حكومة ديكتاتورية تسيطر على الدولة، وكانت الطاعة للدولة جزءاً أساسياً من الثقافة القومية. وكان هناك تأييد للقومية وعداوة عرقية واستعدادات للقضاء على أقليات معينة، تتناسقان مع استعدادات مقدمة جرت في سرية. واستخدمت وسائل خداعية لمنع المقاومة، وكان يتم إقصاء الموظفين الرسميين الذين يرفضون أو يترددون. وشكلت فرق ولجان: للإشراف على الخطة، واستخدم الجيش لتنفيذ القرارات السياسية. وتم توصيف كل من الأرمن واليهود بالخونة والمستغلين، ونهبت ممتلكاتهم أو صودرت. وقام كلاهما بدور كبش الفداء لفشل الجماعة المهيمنة. وجرت التجارب الطبية على كلتا المجموعتين، إلا أن الأرمن الذين تعرضوا لهذه التجربة المرعبة كانوا أقل عدداً. وفقدت المجموعتان حوالي خمسة وستين بالمائة من مجموع شعبيهما. وفيما بعد أنكر المؤرخون المراجعون ما جرى في الحالتين، أو اختلفوا وقللوا عدد الضحايا. وقام عدد من الأتراك والأكراد، مثل ”الصالحين من غير اليهود“⁽¹⁶⁾، بمساعدة بعض الأرمن على الهرب بالتحذير أو الإخفاء أو تركهم يذهبون، وأولئك الذين نجوا في كلتا الكارثتين عانوا من الشعور بالذنب لأنهم عاشوا دون الآخرين، وكانت استجاباتهم الأدبية متشابهة للغاية. وأقام المنتصرون الأوروبيون، كما فعلوا بعد عام 1945م. محاكمات في إسطنبول (في عام 1918م)، وأعلنوا أحكاماً بالموت أو السجن على من ارتكبوا الإبادة.

16) righteous gentiles، وهو تعبير يستخدم للإشارة إلى الأشخاص من غير اليهود، الذين ساهموا في إنقاذ حياة بعض اليهود من الهولوكوست. وإذا كان التعبير يشير على الأغلب إلى المسيحيين بالنسبة لليهود، فإن الكاتب يشير إلى أنه كان هناك مسلمون قاموا بالدور نفسه بالنسبة للأرمن. (المترجمة)

وهناك عدد من الاختلافات المهمة أيضاً، فبينما نقلت القطارارات اليهود الأوروبيين إلى معسكرات الموت، فإن أغلبية الأرمن إما قُتلوا داخل قراهم، أو أخذوا في مسيرات إلى حتفهم. وغالباً عرايا، أو تُركوا ليموتوا ببطء في معسكرات الصحراء. والأهم أن الأرمن. على عكس اليهود، انتزَعوا من أرض أسلافهم منذ ثلاثة آلاف عام. وأهم من هذا وذاك. أن الحكومة الحالية لألمانيا، عكس حكومة تركيا، قد اعترفت بالهولوكوست. ودفعت تعويضات مالية.

وقد أنكر معظم المؤرخين الذين يتبنون الموقف الرسمي التركي. الأتراك والمؤيدين للأتراك من الأمريكيين، الإبادة المخططة للأرمن، والتي يري معظم المؤرخين الجادين أنها أول إبادة جنس في القرن العشرين. يؤكد الأولون أن الأنشطة السياسية للأرمن، وخاصة التمرد في فان. أجبر الدولة على نقل الأرمن غير الموثوق فيهم من طريق الجيش الروسي المتقدم: لكي لا تساعد خيانتهم الأعداء. وهم يدعون أنه لم تكن هناك خطة لإبادة الأرمن: ولكن كان يتم إجلاؤهم فقط عن المنطقة الحربية. كما يضيفون أيضاً أن الشعب الأرمني في تركيا. على عكس ما يأتي في المصادر الأوروبية والأرمنية، لم يكن يزيد على 2 مليون أكثر من نصفهم في أرمينية الغربية، ولكن كانوا حوالي 1.3 مليون، وكان في أرمينية الغربية حوالي 650 ألف فقط. ويضيفون أنه رغم أن 300 ألف أرمني فتوا على أيدي الأكراد أو ماتوا: نتيجة أعمال غير قانونية على أيدي الخارجين على القانون، ونتيجة الترحيلات التي نظمت على عجل. فإن معظمهم مات بسبب الأوبئة، ونقص الموارد والملجأ. وغير ذلك من كوارث الحرب. ويحتجون بأن نفس الحرب قتلت أيضاً مليونين من الأتراك. قتل بعضهم على أيدي عصابات أرمنية مسلحة. وأخيراً، يرفضون ما توصل إليه القضاء بعد الحرب، وكذلك تقارير عديد من الموظفين الرسميين، بوصفها بأنها متحيزة. وذات طبيعة مضادة للقومية التركية.

وتوافق المصادر الموضوعية على أن الأرمن الأتراك، الذين قدموا أية مساعدة للروس كانوا نسبة ضئيلة للغاية. فقد كانت الأغلبية الساحقة وفية، وكان هناك حوالي 100 ألف مجندون أو طلبوا للتجنيد في الجيش التركي. ويتجاهل المؤرخون المراجعون حقائق أن الترحيلات بدأت مبكراً عن الدفاع عن فان. وأن أرمن المناطق الأخرى البعيدة عن

منطقة الحرب تم ترحيلهم وقتلهم أيضًا. وحقيقة أن مسار الأحداث كان متطابقًا تقريبًا في كل قرية أو مدينة في الولايات الأرمنية لا تدع مجالاً لإنكار أنها كانت تتفق مع خطة منظمة جيدًا. ويتجاهل المراجعون أيضًا التقارير، التي جاءت من الضباط الألمان في تركيا، الذين يقرّون بوضوح أن ادعاء أنور باشا بأن الأرمن الذين ماتوا لا يزيدون عن 300 ألف هو رقم غير صحيح، وأن الرقم الحقيقي، وفقًا لتقاريرهم، تخطى المليون كثيرًا. وهناك آلاف التقارير الرسمية من الدبلوماسيين الأمريكيين والإيطاليين. وغيرهم من الدبلوماسيين المحايدين، وكذلك من الممثلين الدبلوماسيين الألمان والنمساويين الذين كانوا حلفاء للأتراك. وهناك أيضًا روايات وشهود العيان من العرب، بل ومن الأتراك والأكراد. كل هذا بالإضافة إلى روايات الكثير من الصحفيين، وأعضاء الإرساليات، والذين نجوا من هذا الجحيم. يجعل من غير الممكن إنكار الإبادة. وصحيح أن الأتراك الذين ماتوا في الحرب العالمية الأولى أكثر من الأرمن، لكنهم ماتوا نتيجة الحرب وليس نتيجة إبادة جماعية. وبالمثل، فإن الألمان الذين ماتوا في الحرب العالمية الثانية أكثر من اليهود، لكن لأسباب مختلفة تمامًا.

ومع إخلاء كثير من أرمينية التاريخية من الأرمن، وبعد أن أصبح جزء صغير منها تحت الحكم السوفيتي المُعادي للقومية، أصبحت التطلعات القومية والسياسية الأرمينية مقصورة على مراكز قليلة في المهجر. وقد استغرق الأرمن خمسين عامًا لبناء إطار اقتصادي وثقافي في أوروبا، وأمريكا الشمالية والاتحاد السوفيتي. ولكي يفيقوا من صدمة هذه العملية التي كادت تفتنيهم. وفي الوقت نفسه، فإن الدولة التركية الحديثة، بعد أن أعادت توطيد علاقاتها بفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة، سعت لإبعاد نفسها عن ماضيها وتصوير نفسها بصورة الأمة المسلمة الوحيدة ذات الطابع الغربي. وساعدها موقعها الاستراتيجي على الحصول على عضوية الناتو. وأن تصحح حليفًا عسكريًا مهمًا للولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة.

وفي عام 1965م، في الذكرى الخمسين للإبادة، تظاهر الأرمن في كل مكان، وشمل ذلك أرمينية السوفيتية، لإعلان إحباطهم، وبدأوا يطالبون بالعدالة. واعتُبل عدد من الدبلوماسيين الأتراك على أيدي أرمن تأثروا بحركات التحرير القومية حول العالم، واعتبروا

الإرهاب هو الطريقة الوحيدة لإيقاظ ضمير العالم. وفي عام 1975م، قامت مجموعة من الشباب تدعو نفسها الجيش الأرمني السري لتحرير أرمينية (أسالا ASALA) بالعمل في لبنان، وتعاونت مع بعض الجماعات التحريرية القومية الأخرى. ورغم فشلهم، والإساءة إلى الصورة الأرمينية. كما يرى الكثيرون، فإنهم نجحوا في لفت أنظار عدد من الأرمن الشباب إلى النضال المسلح. وسرعان ما قام الطاشناق، الذين فقدوا عددًا من الأعضاء الشباب عندما انضموا إلى أسالا، ببناء قواتهم. كوماندوز العدالة للإبادة الأرمينية the Justice Commandos of the Armenian Genocide. والذين كانوا أكثر نجاحًا في استهداف منظمات وهيئات دبلوماسية تركية. وكانت الجماعتان أحيانًا تتصادمان مع بعضهما. وكان رد الفعل التركي على تلك التطورات، هو تكرار إنكار المذبحة. سواء في تصريحات الحكومة أو المؤرخين.

وعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة، قام أكاديميون أتراك وغربيون. ممن تلقوا منحًا من الحكومة التركية، بالمغالاة لدرجة اتهام الأرمن بذبح الأتراك. وكانت هناك تكتيكات أخرى من الأتراك لنشر فكرة أن ما يسمى بأولى مذابح القرن العشرين هي إساءة لذكرى ضحايا الهولوكوست اليهودي. وأنقذت الحكومة التركية على هذه الحملة أموالًا طائلة أتت بثمارها، فيحلول عام 1980م، بدأ ما كان يُعرف بالمذبحة الأرمينية يُسمى ”المذبحة المزعومة“. أو ما يُسمى ”بالمذبحة“ في تصريحات بعض الأمم ومن ضمنها الولايات المتحدة وإسرائيل. ولأن الولايات المتحدة لا تريد الإساءة لعلاقاتها بتركيا، فقد ضغطت على حلفائها والأمم المتحدة لعدم الاعتراف بالمذبحة الأرمينية. ولم تؤد مثل هذه الأفعال فقط إلى حشد النشطاء الأرمن بشكل خاص، ولكن أيضًا أيقظت أولئك الأرمن الذين عزلوا أنفسهم عن الشؤون القومية الأرمينية. بدأ الأرمن، أفرادًا ومنظمات، البحث عن الوثائق وجمعها، وعمل أفلام سينمائية، ونشر كتب ومقالات وعمل تسجيلات لمن يعيشون ممن نجوا من المذبحة. وأسس عدد من المعاهد خاصة للوقوف ضد الإنكار التركي. وبدأ الأرمن يضعون خلافاتهم جانبًا. ويوحدون أصواتهم. ويطالبون بفحص الأدلة على أيدي رسميين منتخبين أوروبيين وأمريكيين.

وبعد عقدين بدأت جهودهم تأتي بنتيجة. عندما اعترف عدد من البلدان الأوروبية. رغم الضغوط التركية الهائلة. بالمذبحة الأرمنية. واقترب مجلس الشيوخ الأمريكي من تمرير قرار أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن موضوع المذبحة الأرمنية تم تضمينه في عدد من مناهج المدارس العامة الأمريكية.

وإذا فشلوا في التموه على الحقيقة الخاصة بالإبادة الأرمنية، فقد قام بعض الموظفين الرسميين الأمريكيين والأتراك بتغيير منهجهم، وضغطوا على المنظمات والقادة الأرمن لكي يشاركوا في حوار بين جماعات مختارة من الأكاديميين الأرمن والأتراك. وقد تم الأتراك الحل الوسط التالي: لم تكن الترحيلات وحوادث القتل الجماعي متممة. وإنما تسببت حالة الحرب في أن يقوم بعض المسؤولين المحليين بالإشراف على الموقف بأنفسهم، وأثناء الفوضى. خرجت الأمور من أيديهم، وتسبب ذلك في موت حوالي 600 ألف أرمني من الأحوال السيئة أثناء الترحيلات. وإذا قبلنا هذه الحجة، يكون الأرمن قد ماتوا بسبب الحرب. ولم تكن هناك مذبحة مخططة. وكذلك بدأت الولايات المتحدة تحاول التأثير وجمع التأييد لعمل لجنة مصالحة أرمنية تركية (TARC). ولكنها سرعان ما حُلت: لأن الممثلين الأتراك رفضوا إدراج المذبحة الأرمنية في الأجندة. وقد بدأ عدد من الباحثين والصحفيين والمؤلفين الأتراك. مؤخراً، يناقشون المذبحة الأرمنية. وقد تؤدي جهود تركيا للحاق بالاتحاد الأوروبي إلى نوع من الاعتراف. ولا شك أن الأرمن والأتراك يجب أن يناقشوا الأحداث حول الفترة من 1915-1923م، ولكن محاولة إلقاء الشك على أن ما جرى كان مذبحة مدبرة، بالنظر للكمية الهائلة من الوثائق الأرشيفية الموجودة في كل مكان من العالم، تعتبر محاولة مفضوحة لإعادة كتابة التاريخ، ولا يمكن قبولها. فمثل الهولوكوست اليهودي، فإن المذبحة الأرمنية غير قابلة للدحض، ولا الإنكار، وليست مفتوحة للمناقشة والمجادلة.

رعايا القيصر

الأرمن فيما وراء القوقاز وروسيا

(1828-1918م)

في ختام الحرب الروسية - الفارسية الثانية، كان الأرمن يأملون في إقامة دولة تتمتع بحكم ذاتي في ظل حماية روسية. ورفض القيصر نيقولاس الأول هذه الفكرة. ولكن كنوع من التهدئة للأرمن ومؤيديهم، تم توحيد خانيات يريفان وناخيتشيفان (الخانات) لفترة زمنية قصيرة (1828-1840م): ليشكلوا مقاطعة أرمنية (انظر خريطة 29). ولكن سرعان ما أصيب الأرمن بخيبة أمل، لأن نيقولاس ومن عينهم في القوقاز كانوا من المحافظين. فكانوا يؤيدون بشكل عام تحويل المناطق غير الروسية إلى مناطق روسية الشخصية (زُوسَنَة) وتابعة للإمبراطورية. وإخضاعها لحكم الإدارة المركزية. وفي عام 1836م سنَّ الروس مجموعة من التشريعات، التي عرفت بالبولوجينا Polozhenie، والتي استهدفت الإشراف على مراقبة الشؤون الداخلية للكنيسة الأرمنية بدرجة أكبر كثيرًا مما حاوله الإبرانيون في أي وقت. وكان لابد أن يقيم مفوض روسي في إتشميادزين لمراقبة أنشطة الكنيسة. وبينما في الماضي، كان الممثلون الدينيون والمدنيون الأرمن يقومون باختيار الجاثليق، فبناء على تشريعات البولوجينا كان يتم ترشيح اثنين، ثم يتم رفع اسميهما إلى القيصر للاختيار النهائي. وعندئذ يقوم الجاثليق الجديد بالقسم على الولاء للقيصر. ومع ذلك، فمع البولوجينا كانت الكنيسة الأرمنية معترفًا بها ككيان مستقل، واحتفظت بدرجة من الاستقلال الذاتي. لم تتمتع بها الكنيسة الجورجية، التي أصبحت خاضعة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وظل رجال الدين الأرمن معفيين من الضرائب وأملاك الكنيسة آمنة. وعلاوة على ذلك، كان للكرسي الجاثليقي السلطة العليا على الأسقفيات الأرمنية في جورجيا وما وراء القوقاز وناخيتشيفان الجديدة وبيسارابيا واستراخان. ومع حلول عام 1840م، كان اسم "المقاطعة الأرمنية" يخدم مشاعر القيصر نيقولاس القومية الروسية. فأصدر قرارًا بإلغائه. وتم تقسيم أرمنية الشرقية بين مقاطعتين جديدتين فيما

وراء القوقاز. وأصبحت الأراضي السابقة لخانيات يريفان وناخيتشيفان وبنجه جزءاً من مقاطعة جورجية. إمبريتان Georgian-Imeretian. بينما تم ضم كاراباغ إلى مقاطعة قزوین (انظر الخريطة 34).

أضاف التوسع الروسي في القرن التاسع عشر مناطق ضخمة وسكان عرقيين جدد إلى الإمبراطورية. كان الهدف الرئيسي للدولة أن تُدمج هذه الأراضي وتوحد شعوبها تحت الإدارة الروسية. واستمرت القبائل الجبلية بمنطقة القوقاز في مقاومة الاحتلال الروسي حتى عام 1859م؛ ونظراً لأن المنطقة كانت أيضاً نقطة انطلاق للعمليات العسكرية ضد الأتراك العثمانيين، عيّنت روسيا حكاماً عسكريين لمنطقة ما وراء القوقاز. وكان إداريو القيصر نيقولا منقسمين إلى مجموعتين كبيرتين، كان يطلق عليهما في بعض الأحيان الإقليميون والوسطيون. وبينما كانوا جميعاً يؤيدون الحكم الروسي، فقد كان الإقليميون أكثر حساسية للتقاليد المحلية ويأملون في اندماج تدريجي. بينما كان الوسطيون يريدون تغييراً سريعاً تتحول فيه كل الأراضي الحدودية إلى أراضٍ روسية. ومن الناحية الاقتصادية، كانت المجموعة الأولى تؤيد تحسين الأوضاع المعيشية للمنطقة. بينما طالب الآخرون باستغلالها كمستعمرة.

الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية، ظهور الطبقة المتوسطة الأرمنية

في أعقاب الاحتلال الروسي، تدهورت في البداية الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية في أرمنية الشرقية. فالإدارة الجديدة - التي لم تكن تألف المنطقة - اعتمدت بقوة على المسؤولين وأصحاب الأراضي المسلمين. وانخفض مستوى النشاط التجاري. وازدادت الضرائب؛ مما أدى إلى عودة بعض الأرمن إلى إيران. وفي النهاية، دفعت الأهمية العسكرية للقوقاز، وحالة الاستياء والعداء للإدارة الروسية من جانب الأهالي، القيصر إلى تعيين رجل أكثر قدرة وحساسية كنائب أول للقيصر في منطقة القوقاز. وصل الكونت ميخائيل فورونتسوف عام 1845م، وتمكن خلال ولايته، التي استمرت تسع سنوات من كسب صداقة الجورجيين والأرمن وحتى معظم المسلمين. وقام فورونتسوف. مدركاً أن التقسيم الإقليمي العشوائي قد أدى إلى حدوث سخط بين السكان. ومن أجل توطيد سيطرة الحكم بشكل أفضل. بتقسيم منطقة ما وراء القوقاز إلى أربعة أقاليم أصغر. هي كوتيس Kutais.

وشيماخ Shemakh. وتقليس. ودريند Derbend. ثم تم تقسيم كل من هذه الأقاليم إلى مناطق وقطاعات. ووقع معظم أرمينية الشرقية ضمن إقليم تقليس (انظر خريطة 35).

وخفض فورونتسوف التعريفات الجمركية. وسمح للتجارة الأوروبية بالانتقال عبر منطقة ما وراء القوقاز. وتقديراً للخبرة الأرمينية في التجارة، منح التجار والحرفيين الأرمن امتيازات خاصة. وصُنّف رجال الأعمال الأرمن بمثابة "مواطنين جديرين بالاحترام في الإمبراطورية". وكانوا معفيين من الخدمة العسكرية والعقاب الجسدي وعدد من الضرائب. ولكي يحصل على المزيد من رضا الأرمن، قام فورونتسوف عام 1849م بفصل منطقتي يريفان وناخيتشيفان (أو أراضي المقاطعة الأرمينية السابقة). وأنشأ إقليمًا خامسًا، وهو إقليم يريفان (انظر خريطة 36).

واستمر خلفاء فورونتسوف في إعادة تنظيم منطقة ما وراء القوقاز. ففي عام 1862م تغير اسم إقليم شيماخ إلى باكو Baku. وكذلك ديريند أصبحت إقليم داغستان Daghestan. واستقل قطاع لوري الأرميني عن إقليم يريفان، وتم إلحاقه بإقليم تقليس. وفي عام 1868م، أنشأت روسيا إقليمًا جديدًا بأخذ مساحات من باكو ويريفان وتقليس، وسُمي إقليم إليزافيتبول Elizavetpol. وأصبحت كاراباغ وسيونيك بالإضافة إلى جنجه جزءًا من إقليم إليزافيتبول (انظر الخريطة 37). وفي عام 1875م حدث تغيير صغير أفضى إلى إعادة تقسيم إقليم يريفان إلى سبعة قطاعات. وفي أعقاب الحرب الروسية التركية 1877-1878م، أنشأت الروس مقاطعتين جديدتين من المناطق الغربية في كل من أرمينية وچورجيا. والتي تم انتزاعها من الأتراك. وهكذا تم ضم إقليم باطوم Batum وكارس Kars إلى إدارة ما وراء القوقاز (انظر الخريطة 38). وحدث التغيير الأخير في عام 1880م. عندما استُحدث قطاع جديد هو بورشالو Borchalu في إقليم تقليس. وكانت نتيجة هذه التغييرات أن بعض الأقاليم والقطاعات، ضمت سكانًا مختلطين من الجورجيين والأرمن والأتراك التتريين، وأدى ذلك الوضع إلى حدوث عواقب وخيمة في القرن العشرين.

أدى وصول آلاف المهاجرين الأرمن، وسياسات فورونتسوف، وتحويل بعض مراكز ما وراء القوقاز الحضرية إلى مناطق صناعية، إلى وجود مناخ عام ساعد الأرمن - مع ما

يتميزون به من اتصالات تجارية ومواهب . على تحقيق إنجازات أفضل كثيراً من جيرانهم الجورجيين أو الأتراك التتر . بالإضافة إلى أن الفتحاح الروسية جعلت الجاليات الأرمنية في القرم وبولندا وبيسارابيا وروسيا وجورجيا وأرمينية الشرقية، بما في ذلك الكرسي الجاثليقي في إشميادزين، تحت حكم دولة واحدة. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نشأت طبقة متوسطة أرمنية، ومع نهاية ذلك القرن كان رجال التجارة الأرمن قد هيمنوا على تفليس وباكو وإيزاقتبول، وغيرها من المراكز الحضرية فيما وراء القوقاز. وعلى غرار الأرمن في إسطنبول، أصبح الأرمن الحضريون الرعايا الأكثر ولاءً في الدولة. لكن على خلاف الأرمن في تركيا، بدأ الأرمن الحضريون في روسيا يرون الثقافة الروسية أرفع مقاماً من ثقافتهم.

لكن أكثر من نصف الأرمن، فيما وراء القوقاز، لم يشاركوا في المنافع الاقتصادية للحكم الروسي. فبالنسبة للفلاحين الأرمن، بقيت الحياة كما كانت في السابق. تلتهم فيها الضرائب والرسوم معظم إنتاجهم. وكما كان الحال في تركيا العثمانية، ظهرت الفروق الطبقيّة بين الأرمن في كل من الريف والحضر. وحتى عام 1870م، كان الفلاحون أقتاناً، وكان الكثير من أراضيهم مسلم بأنها ملكية، مورثة لملاك الأراضي من المسلمين والمسيحيين، أو تخص الكنيسة التي كانت هي والدولة المالك الأكبر لهذه الأراضي. ولم يبدل الإصلاح الزراعي لعام 1870م هذه الأوضاع كثيراً. فرغم أنه سمح للفلاحين بأن يملكوا الأراضي، فقد كان لا بد أن يشتروها من سادتهم من ملاك الأراضي، وكان معظم الفلاحين فقراء جداً ولا يستطيعون ذلك. ولهذا لم يحدث إلا تحسن طفيف في حياة الفلاحين خلال النظام الإمبراطوري.

أدت الهجرة من أرمينية الغربية، وضم روسيا لكارس وأردهان، بالإضافة إلى تحسن الأوضاع الاقتصادية، إلى زيادة عدد السكان الأرمن من نصف مليون عام 1840م إلى أكثر من مليون في عام 1897م، وإلى أقل قليلاً من مليونين في عام 1917م. واستمر المسلمون يشكلون الأغلبية في مدينتي ناخيتشيفان وأردوباد. وحققت يريفان فقط أغلبية أرمنية قبل الحرب العالمية الأولى. وفي كل المراكز الحضرية الأخرى لمقاطعة يريفان، حافظ الأرمن على الأغلبية بصورة ثابتة على أية حال. ورغم أن مدينتي يريفان وألكسندروبول (التي

سُميت فيما بعد لينيناكان Leninakan، وفي الوقت الحاضر جومري (Gumri)، ومنطقة الأفيدي Alaverdi اجتذبت بعض المتعهدين الذين أقاموا صناعة النبيذ والكونياك. والتجارة الخارجية واستخراج النحاس. لم تكن الطبقة الأرمنية المتوسطة متركرة في المراكز الحضرية القليلة في أرمينية الشرقية، ولكن في تفليس وباكو. فكانت تفليس مركز الإدارة الروسية للقوقاز. ومن دواعي السخرية أن الأرمن هم الذين كانوا يمثلون الأغلبية في تلك المدينة. وليس الجورجيين. وهيمنت طبقتهم المتوسطة على التجارة والمعاملات البنكية والوظائف الحكومية والأعمال الحرفية. ورسم الفنانون الأرمن مثل هاكوب هوفناتانيان (1806-1881م) Hovnatanian عدداً كبيراً من البورتريهات لأبناء النخبة من الروس والجورجيين والأرمن في تفليس. وسيطرت عائلات أرمنية اتخذت ألقاباً روسية مثل تومانوف Tumanovs وجيفوركوف gevorkovs ويجيازاروف Yegiazarovs على صناعة الجلد والطباقي والنسيج على التوالي. وكان محافظ المدينة ومعظم مجلس المدينة من الأرمن. كما اجتذبت باكو، من ناحية أخرى. متعهدين جدد من الأرمن. فإلى جانب إغراء التجارة عبر بحر قزوين مع إيران وآسيا الوسطى وروسيا، كان احتياطي بترول باكو من بين أكبر الاحتياطيات في العالم. ومع حلول القرن العشرين امتلك رجال النفط من الأرمن. وعلى رأسهم مانتاشيف Mantashev ثلاثين بالمائة من البترول في باكو. وبينما تقدم الأرمن: ليهيمنوا على الوظائف الحكومية والأعمال المصرفية والصناعة، تدهورت طبقة النبلاء الجورجيين الذين غرقوا في الديون، وفقد الزعماء المسلمون المحليون امتيازاتهم السياسية. وخلقت التفاوتات بين المجموعات العرقية خصومة وشعوراً بالحسد ضد الأرمن من جانب الجورجيين وعلى وجه الخصوص من جيرانهم المسلمين.

النهضة الثقافية الأرمنية

كان الأرمن الروس الذين يعيشون في المدن. مثل نظرائهم في الإمبراطورية العثمانية، من بين الأقليات الأولى التي استفادت من النفوذ الأوروبي. الذي دخل روسيا خلال عهد كاترين العظمى وألكسندر الأول. فأقيمت مطبعة أرمنية في سان بطرسبورج عام 1780م. وتُرجم عدد من الكلاسيكيات الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر. ومع العقد الثاني من القرن التاسع عشر. كان الأرمن قد افتتحوا مدارس في ناخيتشيفان الجديدة واستراخان.

ويضم معهد لازارييف Lazarev المشهور . الذي أنشئ في موسكو عام 1815م مكتبة معروفة بالإضافة إلى مطبعته الخاصة. وكان المعهد يركز على دراسة اللغات والثقافات الشرقية. بما في ذلك الألمانية، وعلمٌ عدداً ممن أصبحوا بعد ذلك من المفكرين الأرمن. ومن بينهم جيفورج دودوخيان (1830-1908م) Gevorg Dodokhian. والتحق الأرمن بالأكاديميات الروسية والأوروبية، وحقق عدد منهم شهرة كبيرة، مثل الرسام إيفازوفسكي Aivazovskii (1817-1900م). وفي أعقاب ضم جورجيا، افتتحت الدولة مدرسة روسية، ومعهداً لاهوتياً أرثوذكسياً في تفليس. وشجع ذلك الكرسي الجاثليقي الأرمني على فتح معهد في إتشميادزين، والذي تحول مع نهاية القرن إلى أكاديمية جيفوركيان Gevorkian الشهيرة.

وفي عام 1824م، افتتح رئيس الأساقفة، نيرسيس الأشتاراكى، الذي كان له دور أساسي في إنشاء المعهد في إتشميادزين، والذي رحل إلى تفليس لتنظيم تحرير بقية أرمينية الشرقية . افتتح أكاديمية نيرسيسيان، التي أصبحت المركز التعليمي الأرمني الرئيسي فيما وراء القوقاز، واجتذبت تربويين، مثل هاروتيون ألامدarian Harutian (1795-1834م) Alamdarian. ومع حلول منتصف القرن التاسع عشر، كان للأرمن نحو أربع وعشرين مدرسة، وعدد من المطابع منها واحدة في كاراباغ.

وأدى عصر ألكسندر الثاني الأكثر تحرراً إلى إيجاد فرص جديدة مكنت الأرمن الحضرين من أن يكونوا على اتصال بالتطورات السياسية والاجتماعية في أوروبا وروسيا. وعلى غرار نظرائهم في تركيا العثمانية، سعى عدد من المثقفين الأرمن للتعليم وخلق شعور بالقومية بين أبناء شعبهم. لكن المعلمين الأرمن في أرمينية الشرقية واجهوا المشكلات والضغوط نفسها التي واجهها نظراؤهم في أرمينية الغربية. حيث حاول زعماء الكنيسة التحكم في المدارس والمناهج. وبالإضافة إلى ذلك، شعر بعض المسؤولين الروس بالارتياح، وحاولوا الحد من سطوة الغرب. واصطدم المتزوجون من القساوسة أو من المدنيين، الذين كانوا أفضل تعليماً ومن جيل أصغر سناً، اصطدموا مع إدارة الكنيسة الرسمية، عندما حاولوا استبدال الولاء والطاعة للتقاليد بالعقل والعلم والأدب الحديث والأفكار الجديدة عن التاريخ الأرمني. ومع ذلك، فخلال الخمسين عاماً التالية، نجح هذا الجيل الأصغر في تأسيس نحو 500 مدرسة في روسيا، التحق بها عشرون ألف طالب وحوالي ألف معلم.

كان الهم المباشر للمتقنين الأرمن الروس في ذلك الحين مماثلاً لما كان يشعر به نظراؤهم في تركيا العثمانية، وهو كيف يُعلّمون بأفضل طريقة ويصلون إلى غالبية شعبهم. وكانت العقبة الأولى التي واجهوها تتمثل في استمرار الكنيسة في استخدام "الجرابار" Grabar. وهي اللغة الأرمنية القديمة في كل الطقوس والقداس الكنسية، والإصرار على استخدامها في كل الإصدارات الأرمنية. وشعر عدد من المعلمين والصحفيين الشباب أن الأرمن بحاجة إلى لغة أدبية حية. وعلى غرار ما فعله الأرمن في تركيا العثمانية، قرر أرمن روسيا أن يتبنوا وسائل تعبير نموذجية حديثة.

كان ستيفانوس نازاريان (1812-1879م) Stepanos Nazarian أحد الكتّاب الأوائل الذين كتبوا باللهجة الحديثة. كما كان كل الإنتاج الأدبي لخاشاتور أبوقيان (1805-1848م) وجابرييل باتكانيان (1802-1889م) باللهجة العامية المحلية أو بلهجة أشخارهابار Ashkharhabar. التي يتحدث بها الناس في منطقة أرارات. وأدت جهودهم وجهود تلاميذهم، في النهاية، إلى استحداث لغة أدبية أرمنية شرقية حديثة، والتي استخدمها الأرمن اليوم في روسيا وما وراء القوقاز وإيران. درس أبوقيان في جامعة دوربات (وهي حالياً جامعة تارتو في إستونيا)، وعاد إلى أرمنية ليصبح معلماً، وكانت روايته جراح أرمنية Verk Hayastani عملاً وطنياً، حيث مجدت اللغة الأرمنية، وعبرت عن الرثاء للهيمنة الأجنبية على أرض الوطن. وقد اصطدم مع كل من رجال الدين الأرمن المحافظين والمسؤولين الروس، ثم اختفى بصورة غامضة عام 1848م.

وتربى باتكانيان في تفليس على يدي والده، الذي كان هو نفسه قد تعلم في البندقية على أيدي المخيترين. وانتقلت العائلة إلى أستراخان، حيث قام والده بالتدريس في المدرسة الأرمنية، والتحق باتكانيان بمدرسة روسية: حيث تعلم الروسية والفرنسية، ثم قام بعد ذلك بالتدريس في عدد من المدارس بناخيتشيفان الجديدة وفي القرم، حيث تم ترسيمه قسيساً. وقد اصطدم برجال الدين المحافظين، ونفي إلى أحد الأديرة، وفي عام 1846م سُمح له بالتدريس في أكاديمية نيرسيسيان: حيث ساعد أيضاً في إصدار صحيفة "كوفكاز" (القوقاز) (Kovkas). وكانت الصحيفة المطبوعة بالأرمنية الكلاسيكية القديمة تحاكي صحيفة كوفكاز الروسية التي تصدر أيضاً في تفليس. وكانت القوقاز تنشر مقالات

تاريخية ومقالات في أدب السيرة، بالإضافة إلى ترجمات لروايات شعبية أوروبية. ومع حلول عام 1850م، نشر باتكانيان آراءات، أول صحيفة باللغة الأرمنية الشرقية الحديثة، والتي سرعان ما تم إغلاقها بسبب ضغط من الكنيسة، بالإضافة إلى تعرضها للشكوك من جانب رجال الرقابة الروس. وانتقل تأثير أبوقيان وتعاليمه، وعلى نحو خاص باتكانيان، إلى جيل جديد، كان من بينهم ابن جابريل، رافاييل باتكانيان (واشتهر باسم مستعار هو جامار كاتيبا (1830-1892م)، وتلميذ جابريل، ميكائيل نالبانديان (1829-1866م). ودرس نالبانديان علم اللاهوت بالإضافة إلى اللغات الروسية والغربية والأدب في المدرسة التي يديرها جابريل باتكانيان في ناخيتشيفان الجديدة. ودافع عن معلمه في مواجهة قادة الكنيسة، ولهذا أُجبر على الذهاب إلى موسكو؛ حيث درس في معهد لازاريف وجامعة موسكو. وفي عهد القيصر ألكسندر الثاني، صدر قرار جدير بالاعتبار برفع الرقابة، مما أتاح لنالبانديان وصديقه ستيبانوس نازاريان أن يصدرا صحيفة أورورا بورياليس Aurora Borealis العلمانية المعادية للكهنة في عام 1858م. وانتقد نالبانديان، الذي كان مناهضاً للكاثوليكية، حتى المختارين أيضاً وتأثيرهم على إحياء الثقافة الأرمنية. وكان ستيبان فوسكانيان ونالبانديان أول المثقفين الأرمن، الذين تأثروا حقاً بالثورات الأوروبية لعام 1848م، ودافعا عن أن الكنيسة يجب ألا تهيمن على النهضة القومية الأرمنية. كما شعرا بضرورة تأسيس مدارس قومية حديثة لتعليم أبناء الشعب الذين يشكلون الأمة في حقيقة الأمر. وفي السنوات الأخيرة من حياته، زار نالبانديان لندن، حيث قابل الروس الاشتراكيين وتأثر بهم. واعتُقل لدى عودته ونُفي إلى جنوب غرب روسيا، ومات في عام 1866م.

على الرغم من قيام مجموعة صغيرة من الليبراليين الأرمن عام 1869م في ألكسندروبول بتشكيل جمعية لتحرير أراضي وطنهم، ظلت تفليس هي مركز النشاط الثقافي الأرمني. ونشر المحافظون الأرمن - بقيادة پتروس سيمونيان Petros Simonian مدير أكاديمية نيرسيسيان - صحيفة نحلة أرمنية The Bee of Armenia، التي ساندت الحكم التقليدي للكنيسة كقائد للمجتمع، ومع ذلك، فإن أغلبية الأرمن فيما وراء القوقاز - ممن يميلون إلى الغرب - رحبوا بصحيفة الفلاح Mshak، التي أسسها في عام 1872م جريجور آرتسروني (1845-1892م).

وقد أشار أرتسروني، ومحرمون آخرون بعدد من الصحف التحررية الأرمنية الأخرى في روسيا، إلى أن الحكم الروسي لم يتح فقط إقامة نهضة ثقافية، ولكنه أتاح أيضاً مدّ الأرمن بنمو اقتصادي اجتماعي، ووفر لهم حماية من الغزو الخارجي. وأضافوا أن الأرمن البورجوازيين قد ظهرتوا في المجتمع، وحصل أطفالهم على الفرصة في الدراسة في روسيا أو خارج البلاد، وأن يلتحقوا بسلك الضباط الروس، أو يشاركوا في إدارة الإمبراطورية.

الشعب الأرمني والمذاهب الاشتراكية والقومية

على خلاف طليعة أهل الفكر في تركيا العثمانية، الذين درسوا في إيطاليا وسويسرا وفرنسا، والذين تأثروا بالثورة الفرنسية، والأفكار الفلسفية للاشركيين اليوتوبيين وبالنهضتين اليونانية والإيطالية، ذهب الأرمن المقيمون في روسيا، للدراسة في برلين وليبزيغ وسان بطرسبرج، وتأثروا مع المفكرين الروس بالأفكار الفلسفية الألمانية، لكن المفكرين الثوريين الروس، وفيما بعد الجورجيين الذين كانوا يعيشون فوق أرض أسلافهم، اجتذبتهم الاشتراكية. بينما كان الأرمن، الذين تفرقوا في المهجر وظلت معظم أراضي وطنهم ونصف شعبهم تحت الحكم التركي الجائر، يميلون إلى القومية.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى العقود الأولى للقرن العشرين، بدأ الروائيون وكتاب المسرح والصحفيون والمؤرخون والشعراء في أرمينية الشرقية يحاكون رومانتيكية الكتاب الغربيين، بتعظيم حب الوطن والعدالة والحرية. وتأثرت عاطفة الجيل الأرمني الأصغر بروايات راهي Raffi (هاكوب ملك هاكوبيان Hakob Melik Hakobian 1832-1888م، وبيرج پروشيان Berj Proshian (1837-1907م). وسميات شاهازيز Smbat Shahaziz (1840-1901م) وموراتسان Muratsan (1854-1908)، وجابرييل Ghazarosian (1825-1912م)، وغازاروس أغايان Gabriel Sundukian (1825-1912م)، وألكسندر شيرفانزاده Alexander Shirvanzade (1840-1911م)، وليو (أراكيل باباخانيان) Arakel Babakhanian (1858-1935م) وليفون Hovhannes (1864-1919م) وهوقهانيس هوقهانيسيان Hovhannes (1864-1929م) وألكسندر تزاتوريان Alexander Tzaturian (1864-1929م)، وهاكوب هاكوبيان (1866-1937م)، وأقيتيس أهارونيان Avetis Aharonian (1866-1937م).

(1866-1948م) وناردوس (1867-1933م) وهورفانيس تومانيان (1869-1932م). وعلى غرار نظرائهم في البلقان وبولندا وبوهيميا. تبنا هم أيضاً مفهوم التمرد ومقاومة الهيمنة الأجنبية.

مع حلول ثمانينيات القرن التاسع عشر وصلت. إلى ما وراء القوقاز. الأفكار الروسية المتعلقة بالمذهب الشعبي الذي يدعو إلى الانخراط وسط عامة الشعب، ومعرفة المزيد عنهم. وفي الوقت نفسه تعليمهم وإلهاب حماسهم بالأفكار الثورية. وأدرك المفكرون الأرمن أن تلك الأوضاع بالنسبة لمواطنيهم الأرمن الذين يعيشون في شرق الأناضول، كانت أسوأ كثيراً من أي حرمان يعايشونه في روسيا. وأدركوا أيضاً أن الأرمن في إسطنبول وأزمير كانوا بعيدين جداً عن شرق الأناضول، وأصبحوا مثل النبلاء الأرمن في باكو وتقليس، متحررين إلى حد بعيد من القومية المحلية. ومثل الروس من معتقي المذهب الشعبي، شعر هؤلاء الأرمن الشباب بالمسئولية. نحو مواطنيهم الأرمن، الذين يرونهم عبر الحدود في معاناتهم الشديدة. حوّل الأرمن شعار المذهب الشعبي الروسي. الذي يقول ”الذهاب إلى عامة الشعب“. إلى شعار depi erkire. أو ”الذهاب إلى أرض الوطن“.

لم يقر الشعبيون الأرمن اشتراكية أو ثورية الفلاح، وفيما بعد الأنشطة الإرهابية للشعبيين الروس. وعلى خلاف نظرائهم الروس، كانوا مستعدين لقبول الشمولية الروسية إذا كانت ستؤدي في النهاية إلى تحرير أرمينية الغربية. وخلال حرب القرم. التحقت وحدات أرمينية متطوعة بالجيش الروسي. وقام ضباط أرمن مثل بيبوتوف Bebutov وألخازوف Alkhasov ولوريس ميليكوف Loris Melikov بأعمال بطولية في هذه الحرب. وأدى الاحتلال الروسي لجزء صغير من أرمينية الغربية، أثناء الحرب، إلى انتعاش الآمال بأن أرمينية كلها سوف تصبح سريعاً تحت الحكم الروسي. ولم يُنقص من هذه الآمال الانسحاب الروسي من أرمينية الغربية بعد معاهدة سلام باريس. وبعد واحد وعشرين عاماً، أُلغيت روسيا كما رأينا معاهدة باريس المخزية، وخاضت الحرب الثالثة والأخيرة في القرن التاسع عشر بين روسيا وتركيا. وقاد الجنرالات الأرمن لوريس ميليكوف وتير جوكاسوف Ter Gukasov، ولازاريف الجيوش الروسية إلى أرمينية الغربية. ونظراً لأن أرمن ما وراء القوقاز، لم يكونوا خاضعين للقرعة العسكرية حتى عام 1887م، فقد تطوعوا مرة أخرى وقاتلوا إلى جانب الروس لتحرير وطنهم. وشعر المتطوعون الأرمن

أهم أخيراً يفعلون شيئاً من أجل شعبهم. ومع حلول عام 1878م، كانت كل أرمينية الغربية تقريباً في أيدي روسية، وبدأ الأرمن مرة أخرى يتخلون أرمينية موحدة تحت حماية روسية. وخلال مفاوضات السلام، استخدم القادة الدينيون والعسكريون والتجارون من أرمينية الشرقية والغربية على السواء، ومؤيدوهم الروس، كل ما يملكونه من نفوذ لتتضمن المعاهدة النهائية مصير الأرمن الغربيين.

وكما رأينا، جاءت المادة 16 في معاهدة سان ستيفانو لتقول إن القوات الروسية ستبقى في أرمينية الغربية. حتى يتم تنفيذ الإصلاحات السياسية التي وعدت بها التنظيمات هناك. ورغم أن المادة 61 من معاهدة برلين كبحت الطموحات الأرمينية، فقد سمحت لروسيا بضم جزء كبير من أرمينية الغربية، وجلبت نحو 100 ألف أرمني إلى الإمبراطورية الروسية. وفي أثناء جلاء الجيش الروسي غادر أكثر من 20 ألف أرمني آخريين فان وبليس وأرضروم. متجاهلين تأكيدات الدبلوماسيين الأوروبيين (بتوفير الحماية لهم في حالة بقائهم). ورغم الانسحاب الروسي من بقية أرمينية الغربية، رأى الأرمن الشرقيون أن تعيين لوريس ميليكوف رئيساً لوزراء روسيا يعد تأكيداً بأن روسيا - في الوقت المناسب - سوف تتجح في تحرير ما تبقى من أرمينية التاريخية.

أدى اغتيال ألكسندر الثاني إلى حدوث تغيرات هائلة فيما وراء القوقاز، حيث انشغل ألكسندر الثالث في سياسة الروسية، والاضطهاد الفعلي للقوميات غير الروسية. وقررت الإدارة الروسية فيما وراء القوقاز أن تستهدف الأرمن. وكانت الطبقة المتوسطة الأرمينية الناجحة تسيطر على المراكز الحضرية. وأدى النفوذ الاقتصادي، وإلى حد ما السياسي، للتجار الأثرياء ورجال الصناعة إلى نشأة نخبة أرمينية. والتي كانت موضع حسد وكراهية من جانب أهالي المنطقة من الروس، والجورجيين والأتراك التتريين. وفي عام 1885م، أغلقت كل المدارس الأرمينية واستبدلت بمدارس روسية. وعندما بدأ الأرمن في تنظيم فصول دراسية سرية، أعادت الحكومة فتح المدارس. ولكنها استبدلت كثيراً من المعلمين، وجعلت المناهج روسية.

دفعت إجراءات الحكومة الروسية بعض الأرمن إلى محاكاة الروس الثوريين في تبني الاشتراكية أو حتى الفوضوية. وفي عام 1887م، اجتمع ستة أرمن في جنيف، وأسسوا

حزب الهنشاك الثوري، والذي سُمي فيما بعد حزب الهنشاك الديمقراطي الاشتراكي (الماركسي). وأصدروا صحيفة هنشاك (الناقوس): وهو عنوان مقتبس من الصحيفة الديمقراطية الاشتراكية الروسية (كولوكول Kolokol أو الناقوس). التي كانت تُطبع في أوروبا. ودافع الحزب. بقيادة أفيتيس نازاربيكيان Avetis Nazarbekian وخطيبته مارو قاردانيان Maro Vardanian. عن أن الوصول إلى دولة أرمنية المستقلة والاشتراكية سيكون من خلال الكفاح المسلح. وأن هذه الدولة ستصبح آنذاك جزءاً من المجتمع الاشتراكي الدولي في المستقبل.

في ذلك الوقت، لم يكن الأرمن في روسيا متكاسلين. حيث تشكلت جماعات ثورية في يريفان وكاراباغ وموسكو وسان بطرسبورج وتفليس. وأصبحت الأخيرة مركزاً رئيسياً للأنشطة الثورية الأرمنية، عندما شكلت تحت قيادة كريستاپور ميكائيليان منظمة ثورية سُميت أرمنية الصغرى، ضمت أعضاء جدد في إيران وتركيا العثمانية. ومع حلول عام 1890م، قرر الثوريون الأرمن إنشاء منظمة. توحد كل الثوريين الأرمن. بما فيهم الأرميناكان والهنشاك في حزب سياسي واحد. ووضع الاشتراكية. القومية كبرنامج سياسي رئيسي للحزب. وتحت قيادة ميكائيليان Mikayelian وسيمون زافاريان Simon Zavarian وستيبان زوريان Stepan Zorian. شكلوا اتحاد الثوريين الأرمن أو الطاشناق (Hay Heghaphokhaganneri Dashnaksution or Dashnaks) في تفليس. وواجه الاتحاد منذ بدايته الأولى مجادلات بين فصائله الاشتراكية والقومية: إذ لم تكن قيادة تفليس اشتراكية بما يكفي لإرضاء المؤسسين الهنشاك في جنيف، بينما كانت مجموعة جنيف ترى أكثر انشغالاً بنجاح الاشتراكية الدولية من الاهتمام بتحرير أرمنية الغربية.

وحاول الهنشاكيون تجنيد أعضاء في روسيا وتركيا. ولكنهم استطاعوا جذب عدد كبير فقط في الأوساط. الأكثر ميلاً إلى الأوروبية. في إسطنبول وقيليقية. لم يفهم معظم الأرمن الاشتراكية. وشعروا بأن أفكارها لا يمكن أن توضع موضع التنفيذ. فكانت شعارات الشعبين والقوميين هي الأقرب إلى قلوبهم. وجرى السعي لعدد من الحلول الوسط. ولكن مع حلول عام 1891م ادعت قيادة الهنشاك في جنيف. وقد شعرت بالعزلة. أنهم لم يوافقوا على

اتحاد رسمي وسلوكوا طريقهم الخاص. وفي أعقاب مذابح 1895-1896م، تفرق الهنشاكيون أنفسهم إلى جناحين. راديكالي وإصلاحي. وشارك الهنشاكيون الراديكاليون في النضال من أجل الكادحين والثورة العالمية. واجتذبوا أعضاء في المراكز الحضرية للإمبراطوريتين العثمانية والروسية، بالإضافة إلى أوروبا والولايات المتحدة. واستمر الهنشاكيون الإصلاحيون في توجيههم الشعبي. وكان بعضهم مستوعباً بالكامل في "الطاشناق" الذي تمكن. بإخضاع الاشتراكية للقضايا القومية. من توحيد معظم الأرمن. ورغم بعض الانقسامات المتعلقة بمدى اشتراكية الحزب. فقد ظهر كحزب سياسي أرمني أكثر تأثيراً. وقد انضم الباقون من الهنشاكيين الإصلاحيين فيما بعد إلى الرامكافار.

وفي عام 1892م في تفليس. تبنى حزب الطاشناق. الذي تغير اسمه إلى الاتحاد الثوري الأرميني (Hay Heghapokhagan Dashnaktsutiun). برنامجاً سياسياً يدعو إلى إقامة حكومة بالانتخاب الحر. والمساواة بين جميع المجموعات العرقية والدينية، وحرية التعبير والنشر والتجمع. وتوزيع الأراضي على الفلاحين، الذين ليست لهم أراضي. ووضع ضرائب على أساس القدرة على الدفع. والمساواة في التجنيد الإلزامي، والتعليم الإلزامي. وتأمين العيش وحق العمل. ويمكن أن يدافع الحزب عن الأرمن بتسليح الشعب وتشكيل وحدات قتالية. وبانتهاج سبل الدعاية والجاسوسية. وقتل المسئولين الفاسدين والخائنين والمستغلين. كان برنامج الطاشناق يشبه من جوانب متعددة جناح "الإرادة الشعبية" المتعصبة للحركة الشعبية الروسية. ومن المثير للسخرية أنه بينما دعا الهنشاكيون الماركسيون الأرمن إلى استقلال أرمينية الغربية (ثم استقلال أرمينية الشرقية). فإن الطاشناق الأكثر قومية وصحيفتهم الراهية. أيدوا حصول أرمينية على حكم ذاتي داخل إطار تركيا العثمانية.

وفي بداية القرن العشرين كان هناك ما يزيد على مليون أرمني فيما وراء القوقاز. وكان نصف هؤلاء فلاحين يعيشون في إقليم يريفان. وكان هناك أيضاً عشرات الآلاف من الأرمن الذين يعملون في حقول البترول. وفي مصانع باكو وتفليس. وغيرهما من المراكز الحضرية. وعلى الرغم من أن حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي نجح في تجنيد مثقفين وعمال من الروس والجورجيين. وحتى بعض المثقفين والعمال

المسلمين، لتشكيل مجموعات ماركسية وللإضراب. فإنهم لم يجتذبوا إلا عددًا ضئيلاً من الأرمن. وسرعان ما انقسم الأرمن الماركسيون إلى قسمين. انضم أحدهما للاتحاد القوقازي متعدد القوميات، وتبعوا الماركسية المتشددة مبشرين بالصراع الطبقي. مثل ستيبان شاهوميان Stepan Shahumian. وشكل القسم الآخر منظمة العمال الأرمن الديمقراطيون الاشتراكيين، والتي يُشار إليها باسم ”التخصصيون“. وأصرت هذه المنظمة على أن الوضع الأرمني يختلف مع أوضاع بقية العمال في روسيا. ويتطلب أن يؤخذ في الاعتبار بشكل ”خاص“ تقرير المصير القومي والثقافي داخل الحركة الماركسية.

وأثر انشقاق الروس الديمقراطيين الاشتراكيين إلى فصائل منشقية وبلشغية في عام 1903م على الأرمن الماركسيين كذلك. فتبع البعض مثل شاهوميان طريق البلشغية. واتفق البعض مع أفكار المنشفيك. بل إن آخرين شكلوا مجموعات اشتراكية مستقلة. وانضم عدد صغير من الأرمن أيضاً إلى الحزب الثوري الاشتراكي، وهو مجموعة شعبية دعت مثل الطاشناق إلى تطبيق الاشتراكية على ملكية الأرض. وعلى خلاف طبقة المثقفين الجورجيين، الذين تبنوا أفكار المناشفة بصورة مطلقة. وتبع أغلبية الأرمن في روسيا حزب الطاشناق.

أزمة الكنيسة الأرمنية والنزاع الأرمني الأذربيجاني (1903-1907م)

على الرغم من أن برنامج الطاشناق أيد الثورة والإرهاب. فإنه كان ضد الإطاحة بالدولة الروسية. ومنع أعضاءه من مهاجمة أو قتل مسئولين روس. واعتبروا أن وجود روسيا قوية أمر ضروري للإسهام في تحرير أرمينية الغربية. لكن الأحداث التي وقعت، في العقد الأول من القرن العشرين. أجبرت الطاشناق على تغيير أساليبهم. ولأول مرة يعارضون الحكومة الروسية بصورة فعلية. ففي 12 يونيو 1903م، تنفيذاً لنصيحة الأمير جوليتسين Golitsyn الحاكم العام للقوقاز. ألغى القيصر نيقولاس الثاني مجموعة التشريعات المعروفة بالبيولوجينيا الصادرة عام 1836م. وأمر بمصادرة ممتلكات الكنيسة الأرمنية. وتحويل مدارسها إلى السلطة الروسية. ظن جوليتسين على نحو دقيق أنه بإبعاد الكنيسة والمدارس عن السيطرة الأرمنية. فإن عملية التحويل إلى الروسية يمكن أن تحرز تقدماً بصورة أسرع، ويفقد الأرمن الثوريون قوتهم.

والمواقع أن قرار القيصر كان له تأثير معاكس؛ حيث اتحد الأرمن خلف الكنيسة. فالمواطنون، الذين ظلوا خارج النشاطات السياسية والثورية، انضموا إلى لجنة الدفاع المركزي التي نظمها الطاشناق. كما انضمت معظم الأحزاب السياسية الأرمنية الأخرى أيضًا إلى اللجنة. وعدلت حركة الطاشناق من سياستها تجاه روسيا، فتبنت وجهة نظر اشتراكية، وتعهدت بالدفاع عن الحقوق الأرمنية ضد الدولة القيصرية. وساند الجاثليق خريميان الثاني (مكرديتش الأول المعروف بخريميان هيريك 1892-1906م)، والذي كان نتاج النهضة القومية الأرمنية في تركيا العثمانية. ساند اللجنة، ورفض قبول المرسوم الروسي الجديد.

وشهد العامان التاليان مظاهرات عنيفة وإضرابات وأعمال إرهاب متعددة من جانب الأرمن الثوريين، الذين قتلوا وشوهوا وجرحوا مئات المسؤولين الروس، بما فيهم جوليتسين الذي طُعن على أيدي ثلاثة من الهنشاك.

وفي 9 يناير 1905م حدث في روسيا ما غيّر الصورة بكاملها؛ حيث تجمعت مجموعة كبيرة من الروس في مظاهرة سلمية أمام القصر الشتوي في سان بطرسبرج ملتسمين من القيصر التخفيف من معاناتهم الاقتصادية غير المحتملة. وتم إطلاق النار على هؤلاء الروس، فقتل وأصيب الكثيرون. كان هذا الحدث الذي عُرف بـ "الأحد الدامي" بداية ثورة عام 1905م. واتحد هذا الحدث مع الخسائر البشرية في الحرب الروسية اليابانية (1904-1905م) والكساد الاقتصادي العام، مما أدى إلى انتشار التمرد إلى كل ركن من روسيا. ووعد القيصر، أمام هذا الوضع الخطير، بتشكيل مجلس الدوما (المجلس التشريعي في روسيا القيصرية) والبدء في إصلاحات. كما عيّن أيضًا الكونت فورونتسوف داشكوف Vorontsov Dashkov (1837-1916م)، وهو رجل داهية وقريب من النائب الأول، ليحكم ما وراء القوقاز. وفي أغسطس عام 1905م أنفى القيصر قرار عام 1903م، بل وأعرب عن تعاطفه الخاص مع رعاياه الأرمن. وعلى الفور أعرب الزعماء الأرمن عن دعمهم الكامل للقيصر ولنايابه. وهكذا أحرز كل من الثوريين الأرمن، وعلى الأخص الطاشناق، نصرًا بارزًا.

لكن الثورة، التي بدأت في عام 1905م، استمرت عامين آخرين. وخوفًا من امتداد جذوة التمرد إلى ما وراء القوقاز، قام بعض المسؤولين الروس - لصرف انتباه القوقازيين عن

الجيشان السياسي في روسيا - بإثارة صراعات عرقية ودينية في المنطقة. كانت الأحقاد الاجتماعية والاقتصادية موجودة هناك بالفعل. وكما رأينا كان الأرمن موضع حسد من جانب السكان الجورجيين والأتراك التتريين الأقل ثراء. وفي ذلك الوقت كان السكان الجورجيون والأتراك التتريون قد أسسوا أحزابهم الاشتراكية والقومية. واستيقظ أيضًا من الناحية السياسية الأتراك التتريون، الذين كانوا في أدنى السلم الاجتماعي الاقتصادي، وتأثروا بالأفكار التقدمية والقومية المنتشرة بين التتار الروس والإيرانيين والأتراك العثمانيين، فسعوا إلى تأسيس هوية قومية.

ومع بداية القرن الجديد، بدأت الأفكار الخاصة بعالم إسلامي وعالم تركي تكسب بعض الأنصار بين مسلمي ما وراء القوقاز. ورغم أن عددًا من المفكرين كانوا يفضلون الروابط الدينية مع شيعة إيران، فإن الأغلبية شعروا بأنهم أقرب إلى تركيا. وتبنى بعض زعمائهم اصطلاح "الأتراك الأذربيجانيين"، وهو مسمى الناس في أذربيجان الفارسية المجاورة، الذين يتحدثون اللهجة نفسها. وبعد عقد من الزمان سيعلنون استقلالهم، ويطلقون على الأراضي التي يعيشون فيها اسم أذربيجان.

أدت التقسيمات الإدارية الروسية، كما رأينا، إلى تكون جيوب من السكان الأرمن والأذريين في عدد من الأقاليم والمقاطعات. وبتشجيع من بعض المسؤولين الروس الذين استغلوا الصراعات الدينية والعرقية القديمة، وحالة الغضب الناتجة عن التفاوت الاقتصادي بين الجانبين، تفجر الوضع المشحون في روسيا إلى حرب عرقية استمرت عامين بين الأرمن والأذريين. وصدرت أوامر للجيش الروسي بعدم التدخل حتى عام 1907م، عندما كانت أحداث الثورة الروسية الأولى توشك أخيرًا على الانتهاء. ورغم أن الحرب قد تسببت في سقوط آلاف القتلى والجرحى، وتدمير الكثير من الممتلكات على الجانبين، فقد علمت الأرمن أنهم بحاجة ألا يكونوا ضحايا دائمًا، فقد كانوا مقاتلين حقيقيين، ولم يكن المسلمون الفئة التي لا تُقهر. وفي الوقت نفسه، اكتسب الأذريون وعيًا قوميًا.

أعطى تكوين المجلس التشريعي (الدوما) في روسيا القيصرية صوتًا لمجموعة سياسية أرمنية أخرى. ونظرًا لأن الطاشناق والهنشاك قاطعوا الانتخابات البرلمانية، لم يكن الأرمن

الأربعة. الذين انتخبوا في المجلس أعضاء في أي حزب سياسي، ولكنهم كانوا يمثلون عناصر الطبقة المتوسطة الليبرالية في تقليس، الذين أقاموا سلاماً مع مسؤولي القيصر ورفضوا الثوريين رفضاً مطلقاً. وهكذا، تماثل الأرمن في أول مجلس تشريعي مع حزب كادت Kadet الليبرالي الروسي. ومع حلول عام 1907م شعر القيصر أنه قوي بما يكفي لحل المجلس التشريعي. وفي غضون ذلك، كان الطاشناق قد حلوا خلافاتهم، وتبنوا برنامج عمل اشتراكي أكثر وضوحاً، وفي عام 1907م انضموا للأمية الاشتراكية الثانية. وضم المجلس التشريعي الثاني خمسة أعضاء أرمن جميعهم من حزبي الطاشناق والهنشاك. وكان النواب الأرمن الخمسة يصوتون مع الأعضاء الراديكاليين الآخرين في المجلس التشريعي الثاني. وقام القيصر بحل المجلس التشريعي الثاني في العام نفسه الذي انعقد فيه، وغير قانون الانتخاب ليساند مؤيدي النظام. ومع المجلسين التشريعيين الثالث والرابع (1907 و 1912م) كان مسموحاً بمقعد واحد فقط في البرلمان لكل مجموعة قومية، وانتخب الأرمن هوفهانيس ساغاتليان Hovhannes Saghatelyan الطاشناقي في المجلسين.

وفقد الثوريون الأرمن روح المبادرة بعد عام 1907م. وبدأ ستوليبين، أحد وزراء القيصر. والشرطة السرية في اعتقال الزعماء السياسيين المشتبه فيهم. وسُجن كثيرون حتى عام 1912. عندما تم تقديمهم إلى المحاكمة أخيراً. وتولى الدفاع عنهم كيرينسكي Kerensky الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء روسيا، وتم الإفراج عن معظم المساجين، وتلقى الباقون أحكاماً مخففة. وفي هذه الأثناء كان أغلبية الأرمن قد وصلوا إلى نتيجة، مؤداها أن روسيا هي أمهم الوحيد في تحرير أرمينية التركية. وشعر فورونوسوف داشكوف أنه يستطيع استخدام الطبقة المتوسطة الأرمينية لتهدئة ما وراء القوقاز وضمان ولائه. وقدم الجاثليق جيفورج الخامس (1911-1930م) التماساً للقيصر بالألا يتجاهل مصير الأرمن في تركيا العثمانية. وبينما اتخذت تركيا خطوات للتقرب من ألمانيا، جددت روسيا كما رأينا مطالبها بتطبيق الإصلاحات في أرمينية الغربية.

روسيا والقضية الأرمينية 1914-1918م

أدى اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى تزايد الآمال بالنسبة للأرمن. حيث تطلمعوا . بعد تأكيد القيصر ونائبه والجاثليق . إلى تحرير أراضي وطنهم. وشارك نحو 150 ألف

أرمني أو ما يقرب من عشرة بالمائة من أرمن ما وراء القوقاز في الجيوش الروسية. ونظراً لأن أغلبية الأرمن الروس قد أرسلوا إلى الجبهة الأوروبية، قام فورونستوف داشكوف بمساعدة الكنيسة والنشطين الاجتماعيين بقيادة ألكسندر خاتيسيان Alexander Khatisian المحافظ الأرمني لتفليس. بتجنيد أربع وحدات من بين الأرمن المهاجرين من تركيا، ومجموعة صغيرة من أرمن ما وراء القوقاز. وقاد تلك الوحدات قادة شعبيون مثل أندرانيك ودررو وكيري. وبعد أشهر قليلة كوّن متطوعون أرمن من أوروبا وروسيا والولايات المتحدة ثلاث وحدات أخرى.

ومع منتصف عام 1916م، كان الجيش الروسي قد احتل معظم أرمينية الغربية. ولكن الإبادة الجماعية التي قام بها الأتراك لم تُبق على أرمن هناك. وفي هذه الأثناء غيرت الحكومة الروسية من موقفها تجاه الأرمن وأرمينية الغربية. وقسمت اتفاقية سايكس-بيكو الإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا، وفيما بعد بين روسيا وإيطاليا. وبموجب هذه الاتفاقية، تحصل بريطانيا على معظم الأراضي العربية، وتتحكم فرنسا في مناطق لبنان وسوريا الحالية، وقيليقية، ونصف أرمينية الغربية. وتسلم روسيا مقاطعة طرابزون وبقية أرمينية الغربية وإسطنبول (انظر خريطة 33). وتم تغيير فورونستوف داشكوف فوراً، وحظر الصحافة الأرمينية. ومُنع الأرمن الأتراك اللاجئون من العودة من روسيا إلى وطنهم. وتم حل وحدات المتطوعين الأرمن وتحويلها إلى جزء من الجيش الروسي.

لكن الجيش الروسي لم يكن ناجحاً على الجبهة الأوروبية. ومع حلول فبراير 1917م، أدت الهزائم الروسية الكبيرة، والعجز في الطعام، إلى قيام ثورة روسية أخرى. وتزعم كيرينسكي الحكومة المؤقتة، وتم طمأنة الأرمن بأن النظام الجديد سيؤدي إلى أرمينية مستقلة تحت حماية روسية. ولكي تظهر الحكومة الجديدة نواياها الطيبة، بدأت في إعادة رسم خريطة ما وراء القوقاز. والتي تضمنت وضع المناطق ذات الكثافة الأرمينية الكبيرة، مثل كاراباغ ضمن مقاطعة أرمينية جديدة. وسمحت الحكومة النيابية الجديدة أيضاً بعودة حوالي 150 ألف لاجئ أرمني لإعادة بناء حياتهم في أرمينية الغربية. وتحولت إدارة ما وراء القوقاز أيضاً إلى لجنة من الأرمن والجهورجيين والأذريين.

شكلت الخسائر الروسية المستمرة والدعاية الانهزامية للبلاشفة قلقاً عظيماً للأرمن، الذين كانوا يعلمون أن الانسحاب الروسي من أرمينية الغربية سيجلب الجيوش التركية إلى

أرمينية الشرقية. ولذلك دعا الزعماء الأرمن فيما وراء القوقاز إلى عقد مجلس النواب في تفلين. وعلى غرار ما فعله نظراؤهم الروس، قاطع الأرمن البلاشفة القليلون الاجتماع. ورغم أن الطاشناق كانت لهم أغلبية النواب، فإن حزب الشعب الأرمني. الذي كان قد شكّل حديثاً (Zhoghovrdakan Kusaktsutium) وهو حزب شعبي، كان قد حل محل كادت كمثل للطبقات الأرمينية المتوسطة الليبرالية فيما وراء القوقاز. كان له ثاني أكبر تمثيل. وكان نواب الهنشاك والثوريين الاشتراكيين والمستقلين يعدون على الأصابع. وتشكل مجلس قومي من الطاشناق بقيادة أفيتيس أهارونيان، وإذ تحقق من خطورة الوضع الناتج عن الأنشطة البلشفية. حث هذا المجلس الحكومة المؤقتة أن تعجل بإطلاق سراح القوات الأرمينية. التي تقاتل في أوروبا: حتى يستطيع أفرادها العودة إلى ما وراء القوقاز.

تحطم الطموح الأرميني بعد ستة أشهر. عندما تولى البلاشفة السلطة: حيث أنهت ثورة أكتوبر (25 أكتوبر بالتقويم الجولياني، 7 نوفمبر بالتقويم الجريجوري) حكومة روسيا النيابية. واستبدلتها بمفوضين بلاشفة. وفيما عدا باكو التي كانت تحكمها لجنة ثورية بلشفية برئاسة ستيان شاهوميان، رفضت بقية ما وراء القوقاز الاعتراف بالحكومة الجديدة. وبدلاً من ذلك شكلوا اتحاداً له هيئته الخاصة التنفيذية (قوميسارية Commissahriat) وهيئته التشريعية (سايم Seim) والمكونتان من جورجيين وأذريين وأرمن. ورغم أن بعض الأعضاء الجورجيين والأذريين اعترموا إقامة دولة منفصلة، اعتقد الأرمن أن استعادة روسيا الديمقراطية هو السبيل الوحيد لخلاصهم. وقد ثبت أنهم كانوا على حق. فمع نهاية عام 1917م نقل البلاشفة الجيش الروسي من أرمينية التركية، وبدأوا في التفاوض من أجل سلام منفصل مع ألمانيا.

كانت معاهدة بريست ليتوفسك Brest Litovsk. التي أبرمت بين البلاشفة وألمانيا في بداية عام 1918م تتضمن الهلاك لأرمينية الغربية. فرغم أن المعاهدة شملت الجبهة الأوروبية. ضغط الأتراك على الألمان لتضمين مكاسب إقليمية لهم أيضاً. ولم يكن على روسيا أن تسحب فقط من الأراضي التي احتلتها أثناء الحرب. ولكنها أجبرت أيضاً على إعادة كارس وأردهان وباطوم. وهي المناطق التي كسبتها روسيا عام 1878م. ووافق

لينين رغبة في السلام بأي ثمن، ورغم أن الأرمن أصروا على أن الحكومة البلشوية لا تمثل الإمبراطورية الروسية. تقدم الأتراك لاحتلال مكاسبهم الإقليمية. ومع حلول منتصف شهر أبريل، كانوا قد دفعوا الآلاف القليلة من المتطوعين الأرمن والجورجيين إلى حدود ما قبل عام 1878م. وفي الوقت نفسه، بدأت حرب أهلية في روسيا. وتُركت منطقة ما وراء القوقاز لمصيرها.

ومع رحيل الجيوش الروسية، تُركت القوات الأرمنية، والمتطوعون. بقيادة قادة مثل توماس نازاربيكيان وأندرانيك ودرو. مع قوة جورجية صغيرة للدفاع عن الجبهة. واقترح الأتراك إجراء مفاوضات سلام، وهم يعلمون أن الأذريين لن يدافعوا عن المناطق الأرمنية أو الجورجية، ورغبة في اختبار مدى التزام أعضاء الاتحاد الفيدرالي بالدفاع عن بعضهم البعض. وسرعان ما اكتشفوا أن الجورجيين كانوا يرغبون في التضحية بأرمنية الغربية. طالما كانت منطقتهم غير مهددة. وأجبر الأرمن على قبول هذه التسوية. لغلبة الأصوات الأخرى، ولأنهم كانوا بمفردهم. وتوجه وفد مكون من جورجيين وأرمن وأذريين إلى طرابزون، للتفاوض حول تسليم أرمنية الغربية. وهناك في طرابزون عرف الجورجيون والأرمن تفاصيل معاهدة بريست ليتوفسك، وأدركوا أن الأتراك يطالبون الآن بعودة مناطق كارس وأردهان وباطوم بالإضافة إلى أرمنية الغربية، التي رحلت عنها الجيوش الروسية. وكان الجورجيون يأملون في إنقاذ باطوم مقابل التضحية بكارس، ولكن الأتراك تشددوا في الرفض. وعاد الوفد إلى تفليس، ورغم أن أذربيجان رفضت المساهمة بقوات. فإن مجلس النواب في تفليس صوت في صالح الحرب مع تركيا.

ولم تقع الحرب على أية حال، ودفع سقوط باطوم في أيدي الأتراك الجورجيين إلى قبول شروط معاهدة بريست ليتوفسك، وبالإشتراك مع النواب الأذريين والنواب الأرمن خائبي الرجاء، أعلنوا استقلالهم عن روسيا، وتشكيل جمهورية ما وراء القوقاز الفيدرالية في 22 إبريل 1918م. وطالب الجورجيون بمعظم المناصب الإدارية المهمة، وأصدروا أوامر للجيش الأرمني بتسليم كارس. ولكي ينقذوا أرمنية الشرقية، اضطر الطاشناق- بقيادة خاتيسيان Khatisian وهو فنانيس كاتشازنوني Hovhannes Kachaznuni. إلى التعاون مع الجورجيين المنشقيك والبقاء في الفيدرالية. وذهب ممثلو ما وراء القوقاز إلى

باطوم لقبول شروط معاهدة بريست ليتوفسك، ولكنهم أصيبوا بالدهشة، عندما اكتشفوا أن الأتراك حينئذ أصبحوا يطالبون بأخالكالاك وأخالتيسخ، بالإضافة إلى النصف الغربي من إقليم يريفان. ودون أن ينتظروا استجابة الآخرين، قام الأتراك بغزو ألكسندروبول واستولوا عليها، ثم ساروا في اتجاه تفليس ويريفان. وطلبت ألمانيا - خشية حدوث توتر في العلاقات الروسية الألمانية - من الأتراك عدم انتهاك حدود معاهدة بريست ليتوفسك، وأرسلت مراقبًا ألمانيًا إلى باطوم، والذي نقل ما يفيد بأن الأتراك كانوا يخططون لقتل كل الأرمن فيما وراء القوقاز، وإقامة دولة تركية موحدة مع أذربيجان. وعندما أخفقت الضغوط الألمانية على تركيا، تخلى الجورجيون مرة أخرى عن الأرمن، ووضعوا أنفسهم تحت الحماية الألمانية. ولكي يفعلوا ذلك كان لابد أن ينسحبوا من الجمهورية الفيدرالية. وفي 26 مايو 1918م، أعلن الجورجيون استقلالهم، ورُفعت أعلام ألمانية في تفليس. وبعد يومين أعلن الأذريون استقلال أذربيجان. وحيث إن باكو كانت في أيدي الائتلاف المكون من البلاشفة والطاشناق. فيما يشبه الجماع بين نقيضين. فقد اختاروا إلبزافيتبول (فيما بعد كيروفاباد، وفي وقتنا الحالي جنجه) كعاصمة مؤقتة. وانتظروا وصول القوات التركية لتحرير باكو. وترك الأرمن ليحلوا مشكلاتهم بأنفسهم. وفي 28 مايو لم يكن أمام المجلس الوطني الأرميني في تفليس أي خيار آخر، يمكنه من التفاوض مع الوفد التركي في باطوم وإنقاذ ما تبقى من أرض الوطن، سوى أن يعلن استقلال أرمينية.

ألف يوم

الجمهورية الأرمنية الأولى
(1918-1921م)

رغم أن المجلس الوطني الأرمني تولى السلطة المطلقة على المقاطعات الأرمنية في 28 مايو 1918م، فإن الإعلان الرسمي لم يصدر حتى 30 مايو. وحتى عندئذ، لم يتضمن الإعلان كلمة "استقلال"؛ إذ لم يكن أحد يعرف هل ستكون هناك دولة أرمنية. وإذا كانت، فماذا سوف تكون حدودها بالضبط. فقبل أسبوعين، غزت الجيوش التركية أرمنية الشرقية، وارتكبت مذابح في ألكسندروبول وعدد من المدن والمناطق السكنية الأخرى. وطوقت القوات التركية منطقة يريفان. وأصبحت نهاية أرمنية التاريخية مسألة متوقعة. وكان ما أتخذ أرمنية هو الموقف البطولي للأرمن من جميع الأعمار والطبقات الاجتماعية، بما في ذلك النساء وكبار السن في معارك ساردار آباد. وكارا كيليسا -Kara Kilisa وباش أباران Bash-Aparan. وفي 2 يونيو تأكدت الأنباء حول هزائم الأتراك في هذه المواجهات، وانسحابهم من يريفان؛ وبعد يومين تم توقيع اتفاقية باطوم بين الأرمن والأتراك. وعندئذ فقط أعلن بشكل غير رسمي، في تفليس. عن قيام جمهورية أرمنية مستقلة.

ولكن إعلان الجمهورية لم يكن دلالة على قيامها بالفعل، فبينما كان آرام مانوكيان Aram Manukian، والجنرال درو يشرفان على الدفاع عن يريفان، كان المجلس الوطني الأرمني موجوداً في تفليس، عاصمة الجمهورية الجورجية المستقلة حديثاً. وحالت الخلافات بين زعماء الأحزاب السياسية الأرمنية المختلفة. التي كانت جميعاً في تفليس. دون إقامة حكومة ائتلافية حتى آخر يوم من شهر يونيو، عندما دفعت المعارضة المستمرة للأحزاب الأرمنية الصغيرة، المجلس الوطني الذي يسيطر عليه الطاشناق إلى التفاوض عن الأصول الديمقراطية، وتشكيل مجلس وزراء خاص به. وغادرت المجموعة الأرمنية الحاكمة، التي لم تلق ترحيباً في تفليس، إلى يريفان، والتي كانت بعد سقوط ألكسندروبول المركز الحضري الوحيد الباقي للأرمن. ووصلت الحكومة الأرمنية بزعامة رئيس الوزراء

هوفهانيس كاتشازنونني Hovhannes Kachaznuni إلى يريفان في 19 يوليو، وتولى الحكم بدلاً من القائد العسكري آرام مانوكيان. وبدأت رسمياً جمهورية أرمينية المستقلة. جعلت معاهدة باطوم أرمينية منطقة صخرية مساحتها 4500 ميل (انظر الخريطة 39) يقطنها 700 ألف من السكان، منهم نحو 300 ألف من اللاجئين الجوعى، القادمين من أرمينية الغربية. و 100 ألف من الأذريين والأكراد. ولم تتضمن الجمهورية مركز ألكسندروبول الصناعي وحقول شارور وناخيتشيقان الخصبة، وكذلك معظم خطوط السكك الحديدية. وأدى فقدان الحيوانات والآلات الزراعية أيضاً إلى خفض الإنتاجية الزراعية في المنطقة. وكانت يريفان. التي لم تكن قط مركزاً رئيسياً في الإمبراطورية الروسية. بلدة ريفية متربة، بها مكاتب حكومية قليلة، وتقريباً بلا صناعة. كما كانت الجمهورية يطوقها ويحيط بها جيران معادون، بالإضافة إلى أنها كانت مهددة أيضاً بوبائى الكوليرا والتيفوئيد. وكانت أغلبية المثقفين والحرفيين ورجال الأعمال الأرمن في تفليس أو باكو، أو في روسيا. كان العجز في الطعام والدواء ووجود العصابات المسلحة التي تهاجم في وضح النهار ينذر بمستقبل غير مشرق للجمهورية الجديدة.

ومع الشعور بأن الانتخابات لا يمكن إجراؤها في ظل هذه الأوضاع، كان المجلس الوطني الموسع يقوم بدور هيئة برلمانية. ومع ذلك، لم تكن المبادئ الديمقراطية مهمة تماماً؛ لأنه رغم أن الطاشناق كانوا يسيطرون على مجلس الوزراء وكان لهم معظم أعضاء البرلمان. فقد كانت الأحزاب الأخرى ممثلة، وجرت مناقشات حامية. وكان للأقليات المسلمة والروسية ممثلهم. كان الاستقلال قد تحقق بصورة غير متوقعة، وكانت معظم قيادات الطبقة المتوسطة للجمهورية قد نشأت خارج أرمينية التاريخية، ولم تكن قد زارت حتى يريفان. ومضت الشهور الأربعة التالية في محاولة إقرار بعض التعقل بعيداً عن التشوش. وتعود العيش في الظروف الصعبة، وتقديم الالتماسات إلى ألمانيا لكبح الأتراك عن تقديم مطالب أخرى.

في هذه الأثناء استولت القوات التركية والأذرية على باكو في سبتمبر، ورغم أن عديداً من الأرمن كانوا قد فروا بالفعل من المدينة، تم ذبح أكثر من 15 ألف أرمني. ودخل الأتراك بعد ذلك منطقة كاراباغ الجبلية، وأصبح الوضع منذراً بالسوء بالنسبة لهذا

الإقليم الأرمني، وأيضاً بالنسبة للجمهورية الأرمينية. وبدأ الجنرال أندرانيك ومتطوعوه في سيونيك. رانجيزور باتخاذ إجراءات عاجلة لطرد الأتراك من كاراباغ. وقطع أندرانيك الذي لم يوافق على التفاوض مع الأتراك في باطوم. علاقاته مع حكومة الطاشناق. وذهب إلى زانجيزور، وبدأ عملية طرد الأذريين خارج المنطقة. ومع ذلك. فقبل إمكانية حل أي شيء، وضع الاستسلام التركي للحلفاء نهاية للحرب العالمية فيما وراء القوقاز. ووصلت القوات البريطانية إلى باكو.

فرضت هدنة مودروس على الأتراك ترحيل قواتهم من ما وراء القوقاز وأذربيجان الفارسية، وتسليم السيطرة على المضائق إلى الحلفاء. وانسحب الأتراك إلى حدود ما قبل الحرب، مفسحين المجال لتمكين القوات الأرمينية. تحت قيادة الجنرال درو. من توسيع المنطقة التابعة للجمهورية بعد ذلك مباشرة. وخلال تعامل روسيا مع الحرب الأهلية، أخذ الأرمن كارس وباطوم الجورجية، ولكن مقاطعات أردهان وأولتي Olti. التي كانت واقعة بين البلدين، والتي كانت تسكنها أغلبية من الأرمن. طالبت بهما كل من جورجيا وأرمينية. وأدت نزاعات إقليمية أخرى. ستأتي مناقشتها فيما بعد. إلى حدوث توترات بين الجارتين المسيحيتين (انظر الخريطة 40).

كان للهزيمة التركية تأثير نفسي إيجابي على الأرمن، فكثير ممن كان يخامرهم الشك، أدركوا آنذاك أن الفرصة مواتية أمام الجمهورية للبقاء. وقرر عدد من القيادات الفكرية والمالية. الذين بقوا في تفليس. الانتقال للإقامة في يريفان وأن يقدموا خدماتهم إلى الجمهورية. والأكثر أهمية من ذلك أن حزب الشعب الذي أصبح الحزب القوقازي المعادل للحزب الديمقراطي الدستوري (رامكافار)، والذي كان يمثل الطبقة المتوسطة، قرر آنذاك المشاركة في مجلس الوزراء. وقام الطاشناق، الذين كانوا بحاجة إلى خبرة المهنيين من الطبقة المتوسطة، والذين رغبوا في أن يثبتوا للحلفاء أن أرمينية لا يحكمها الراديكاليون، باحتضان الليبراليين، وأعطوهم نصف مناصب الوزارة، وإن كانت تلك المناصب الأقل أهمية.

ورغم هذا الوضع السياسي الذي يدعو إلى التفاؤل، كان على أرمينية أن تتحمل شتاء قاسياً في 1918-1919م. فقد تسبب العجز في الخبز والوقود والدواء والملجأ في حدوث

مشاغبات وأوبئة ومجاعة. أكل الناس الحشائش والحيوانات النافقة والجلود المسلوقة. كما ترددت أنباء عن أكل لحم البشر أيضاً. ومع مرور الوقت، مات أكثر من 200 ألف شخص بسبب الجوع والتجمد والتيفويد. لكن المساعدات وصلت في النهاية. وجمعت هيئة الإغاثة الأمريكية للشرق الأدنى، التي أنشأتها الجماعات التبشيرية، ويرأسها جيمس بارتون، الملايين من أجل "الأرمن الجوعى". ومع حلول الربيع بدأت إمدادات الغذاء والدواء والملابس في الوصول. والأهم من ذلك كانت المساعدات التي منحتها حكومة الولايات المتحدة. ومع نهاية الصيف، أرسلت إدارة الإغاثة الأمريكية، التي يرأسها هربرت هوفر، حوالي 50 ألف طن من الطعام، والتي أنقذت آلاف الأرواح، ومكنت الجمهورية من زراعة بعض المحصولات. ولم تكن الحكومة الأرمنية أيضاً قد وقفت مكتوفة الأيدي. فقد عالجت المشكلات المتعلقة، بوضع نظم لإنشاء هياكل القضاء والصحة العامة والتعليم، بالإضافة إلى وضع نظام ضريبي وميزانية للدولة. وتم تأميم الصناعات القليلة الموجودة، مثل معامل صناعة النسيج والكونياك في يريفان. وعدد من المطاحن. كما تم إصلاح خطوط التفريغ والسكك الحديدية وجرت عمليات لاستكشاف مناجم جديدة.

وكانت ثلاث قضايا في مقدمة الأولويات بالنسبة للحكومة: مؤتمر السلام بباريس الذي كان قد بدأ في يناير عام 1919م، والنزاعات الإقليمية مع كل من جورجيا وأذربيجان. كان المؤتمر في العاصمة الفرنسية يقام لصياغة شروط السلام مع ألمانيا والإمبراطوريتين النمساوية - المجرية والعثمانية. ولضمان السلام في المستقبل، من خلال إنشاء عصبة أمم، وللإسعاء لقضايا القوميات المختلفة التي شجعتها النقطنان الخامسة والثانية عشرة من النقاط الأربع عشرة التي أعلنها الرئيس الأمريكي ويلسون في خطابه أمام الكونجرس (8 يناير 1918م). فسعت إلى حق تقرير المصير من خلال الحكم الذاتي أو الاستقلال. وأرسلت الجمهورية الأرمنية وفدًا برئاسة أفيتيس أهارونيان، وكانت مهمة الوفد التأكيد على مطالبة الجمهورية بأرمنية الغربية. أو الولايات الأرمنية الستة في تركيا، بالإضافة إلى إقناع الحلفاء بمنح الجمهورية منفذًا على البحر الأسود.

ولدى وصوله، التقى الوفد بمجموعة أرمنية أخرى: الوفد القومي الأرمني برئاسة بوغوس نوبار باشا، ممثلًا عن الأرمن الغربيين بالإضافة إلى أرمن المهجر. وكان معظم

أعضاء هذا الوفد ينتمون إلى الحزب الديمقراطي الدستوري. وأسهمت منزلة بوغوص نوبار الرفيعة بين رجالات الدولة الأوروبيين في تمكينه من الضغط بصورة غير رسمية للاستجابة لعدد من المطالب الأرمنية. وأقنع أهارونيان بأن المطالب الأرمنية يجب أن تتضمن قيلية مع منفذ على البحر المتوسط. واتحد الوفدان عندئذ وقدا التماساً مشتركاً بتوسيع جمهورية أرمينية: لتمتد من ما وراء القوقاز إلى البحر المتوسط.

ومع ذلك، كان هناك عدد من التعقيدات المتعلقة بالمطالب الأرمنية. حيث وضعت خطة سايكس بيكو قيلية، ونصف أرمينية الغربية من نصيب فرنسا. وكانت الحرب الأهلية الروسية لا تزال على أشدها. وإذا انتصرت روسيا البيضاء، فإن روسيا وفقاً للاتفاقية نفسها سوف تظفر بطرايبزون، والنصف الآخر من أرمينية الغربية. وعلاوة على ذلك، تضاربت المطالب الإقليمية الكردية مع المطالب الأرمنية. هذا بالإضافة إلى أن الجيش التركي في الأناضول لم يكن منزوع السلاح. ومع ما كانت تعانيه الجمهورية الأرمنية الصغيرة من نقص في الأسلحة والموارد، لم تكن قادرة على الدفاع عن أرمينية التي تجاوزت مساحتها 100 ألف ميل مربع. وكانت بحاجة إلى دولة قوية لمساعدتها في مثل هذه النقلة الكبيرة. وعلى الرغم من أن الرئيس ويلسون كان ميالاً إلى وضعها تحت الانتداب الأمريكي، كان على الأرمن أن ينتظروا أولاً نتيجة حدثين: السلام مع ألمانيا. والذي كان لا بد أن يحدث قبل أن تتقرر أية قضايا أخرى: وموافقة مجلس الشيوخ الأمريكي على التسوية السلمية وعلى عصبة الأمم. ولم تُعطَ أرمينية، مثل معظم القوميات الصغيرة، مقعداً في المؤتمر، كما لم تكن مطلعة على المناقشات الخاصة. بين ديفيد لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، وجورج كليمنصو، زعيم فرنسا، وفيتوريو أورلاندو زعيم إيطاليا.

كان الفرنسيون عنيدين في رغبتهم في معاقبة ألمانيا، واستعادة المناطق التي كانت قد فقدت خلال الحرب الفرنسية البروسية، وتسلم تعويضات الحرب، فركزوا على المعاهدة مع ألمانيا. ووقعت معاهدة فرساي في 28 يونيو 1919م. وأعطيت بولندا وفرنسا عدداً من المناطق التي كسبتها ألمانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كما تسلمت فرنسا، بشكل مؤقت، السيطرة على المناطق الصناعية لألمانيا. وفقدت ألمانيا مستعمراتها،

وسُمح لها فقط بجيش محدود. وكانت أهم العواقب هي إجبار ألمانيا على قبول أن تكون هي وحدها المملومة على هذه الحرب، وهو الأمر الذي حَمَلها مسؤولية التكاليف الباهظة لإصلاح ما أفسدته الحرب. كانت هذه المذلة مريرة على الشعب الألماني، وفقد الاقتصاد الألماني قوته، مما أدى إلى ظهور أحزاب يسارية ويمينية متطرفة، ووضع أوروبا على بداية الطريق إلى الحرب العالمية الثانية.

لم تكن فرنسا وإنجلترا في عجلة لحل تقسيم الإمبراطورية العثمانية، بعد أن تمكنتا - ولو بصورة مؤقتة - من كسر تهديد القوة الألمانية مستقبلاً. وقدم مشروع سايكس بيكو لهما إمكانات التوسع الاستعماري في آسيا الصغرى والأراضي العربية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت بريطانيا وفرنسا في موقف محرج. فقد أعطى الإنجليز اليهود (في إعلان بلفور) والعرب (من خلال لورانس العرب وآخرين) وعوداً متضاربة وغامضة. وحصل الأكراد والأشوريون أيضاً على وعود بتحقيق درجة من الحكم الذاتي. وأعطت كلتا القوتين القيادة الأرمنية فيما وراء القوقاز وأوروبا والشرق الأوسط عهداً أقوى وأكثر صدقاً بأن مظالم الماضي لا بد من تصحيحها في النهاية، وأن يؤخذ بالتأثر من الإبادة الأرمنية، وأنهم لن ينسوا بسالة الفيلق الأرمني. المكون من أربعة آلاف من القوات المكونة من اللاجئين من جبل موسى، بالإضافة إلى متطوعين من أوروبا والشرق الأوسط والهند والولايات المتحدة. التي شاهدت الأحداث في فلسطين وقيليقية. وأن إقامة دولة أرمنية الحرة المستقلة تحت حماية الحلفاء هي مكافأتهم للشعب الأرمني. وتسبب سفر الرئيس ويلسون إلى أمريكا لعرض الاتفاقية الأوروبية على الكونجرس في تأخير عملية السلام مع العثمانيين. وأصبح مصير وسط أوروبا، بالإضافة إلى أرمنية، مرهوناً بالمؤتمرات والمعاهدات المستقبلية. وانتظرت أرمنية والقوميات المضطهدة الأخرى مناقشة الرئيس ويلسون مع مجلس الشيوخ حول معاهدة فرساي وعصبة الأمم والانتداب الأرمني. وفي الوقت نفسه، بدأ الواقع السياسي يأخذ الصدارة على الوعود، وبدأت الحرب الأهلية الروسية يشتعل أوارها.

وخلال الأشهر الستة التالية، قامت أوروبا. أثناء ترقب قرار الكونجرس. بالتخلص من الإمبراطورية النمساوية. المجرية عن طريق اتفاقية سانت جرمين (10 سبتمبر 1919م)، والتي بها تم الاعتراف باستقلال بولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا، وخسرت النمسا

مناطق لصالح بولندا وإيطاليا ويوغوسلافيا. وعاقبت معاهدة نوبلي (الموقعة في 27 نوفمبر 1919م) بلغاريا بفقدان منطقة (جزءاً كبيراً من مساحة مقدونيا، وتراقيا كلها) أعطيت لدولتي اليونان ويوغوسلافيا، بالإضافة إلى دفع مصروفات الإصلاحات. وانهار المجريون تحت المشكلات الاقتصادية، وأعلنوا العصيان. ووضعوا نظاماً بلشقياً تحت قيادة بيلا كون، ودخلت الحكومة قصيرة الأمد حرباً للحفاظ على سلامة المجر. وهُزمت بعد أشهر قليلة، ووقعت الحكومة الجديدة معاهدة تريانون، (4 يونيو 1920م)، والتي بموجبها فقدت المجر ترانسلفانيا وأراض أخرى لصالح رومانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا. وتحملت جزءاً من التعويضات النمساوية - المجرية.

في غضون ذلك، كان الوضع فيما وراء القوقاز أبعد ما يكون عن الهدوء: إذ إن تقطيع المنطقة إلى ثلاث جمهوريات مستقلة وضع أرمينية في مواجهة قضاياها الحدودية التي لم تُحل بعد. وكما رأينا، تعود أصول هذه القضايا إلى قرارات إدارية للإمبراطورية الروسية صدرت خلال القرن التاسع عشر. كان أولها النزاع الأرمني الجورجي حول مقاطعتي أخالكالاك ولوري، وكلاهما تتمتع بأغلبية أرمنية، وكانت جزءاً من أرمينية التاريخية، ولكنهما كانتا جزءاً من مقاطعة تفليس، وطالبت بهما جورجيا كجزء من الجمهورية الجديدة. وأفضى النزاع إلى وقوع معارك حربية صغيرة بين الدولتين المسيحيتين، والتي تم حلها بموجب حل وسط تمكنت أرمينية بمقتضاه من السيطرة على نصف لوري، وأصبح النصف الآخر منطقة محايدة، بينما احتفظت جورجيا بالسيطرة على أخالكالاك.

كانت المشكلة الثانية خطيرة إلى حد بعيد: إذ تضمنت نزاعات إقليمية بين أرمينية وأذربيجان، ومن وجهة النظر الأرمينية، كان الفارق ضئيلاً بين الأذريين الأتراك والأتراك أنفسهم. كما أن التعاون الأذري- التركي خلال عامي 1917-1918م كان سبباً في أن ترى الجمهورية الأرمينية أن المشاعر القومية الأذرية والتركية تهدد لوجودها. ومن ناحية أخرى، رأى الأذريون أرمينية مجرد نسخة أصغر معدلة لمقاطعة يريفان عام 1849م. واعتبرت أذربيجان نفسها وريثة لمقاطعتي باكو وإيزاقيتبول، ولهذا كانت كاراباغ وزانجيزور في نظرها مناطق أذرية. كما اعتبروا أيضاً شمال شرق أرمينية، ومعظم الأجزاء الشرقية من جورجيا، والتي تحتوي على جيوب من المسلمين جزءاً من أذربيجان. وطالب الأذريون أيضاً بتلك المناطق التابعة لغربي أرمينية التي كانت قد احتلتها روسيا بعد عام 1878م.

وقد تصوروا أساساً دولة من بحر قزوين إلى البحر الأسود، مع أرمينية صغيرة محجوزة بين تلك الدولة وتركيا. ولتعقيد الأحداث إلى أبعد من ذلك. كان هناك عشرات الآلاف من المسلمين يعيشون في الجزء الجنوبي من أرمينية وأيضاً في يريفان، ومئات الآلاف من الأرمن يعيشون في منطقة كاراباغ الجبلية وزانجيزور وفي مدن وضواحي باكو واليزاقيتبول. وخلال الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، كانت قوات أرمينية تحت قيادة الجنرال أندرانيك. كما رأينا. مستعدة للاستيلاء على كاراباغ الجبلية. وانتهت الحرب. وعندما طلبت بريطانيا من أندرانيك وقف تقدمه وانتظار مؤتمر السلام بباريس، شعر الأرمن بتقته أن حججهم التاريخية والإثنوجرافية سوف تحرر لهم كاراباغ (انظر خريطة 40).

ومع ذلك. بدأ القائد البريطاني في باكو في ضخ وبيع بتروال المنطقة. بمجرد وصول قواته إلى هناك. ولم يكن من المدهش لهذا السبب أنه كان مؤيداً للمسلمين. وهذا بالإضافة إلى أنه كان للإمبراطورية البريطانية كثير من الرعايا المسلمين، الذين كانوا يعتبرون السلطان مثل الخليفة. ويتوقعون معاملة كريمة للأتراك المهزومين من جانب التاج البريطاني. ولهذا ساند البريطانيون المطالب الأذرية في كاراباغ وزانجيزور. وقامت زانجيزور. التي كانت بفضل أندرانيك تحت السيطرة الأرمينية الكاملة، بطرد القوات المسلحة الأذرية وجميع موظفي الإدارة الأذريين الذين وصلوا إلى هناك. وانتهى رفض كاراباغ قبول السيطرة الأذرية بوقوع مذابح في عدد من القرى الأرمينية، قيل أن يتم التوصل إلى وساطة. وأعطيت المقاطعات التي يقطنها الأرمن في إقليم كاراباغ حكماً ذاتياً داخلياً. ولكن كانت في الوقت نفسه واقعة تحت السلطة الأذرية. ومنذ البداية، انتهك الأذريون الاتفاقية. وأفضى تمرد أرمني إلى قيام الأذريين بإحراق شوشي، عاصمة إقليم كاراباغ الجبلي. ولم تكن الحكومة في يريفان قوية بما يكفي للتدخل. وظلت مشكلة كاراباغ مع قضايا إقليمية أخرى تتعلق بأرمينية في انتظار مفاوضات سلام.

وفي الوقت نفسه. كانت هناك مشكلة أخرى. تمثل عائقاً أمام الشئون الداخلية للجمهورية. فرغم وجود حفنة قليلة من الاشتراكيين في الحكومة. فإن القيادة السياسية كما رأينا كانت موزعة بين الطاشناق الذين سيطروا على المناصب الوزارية العليا، وحزب الشعب الليبرالي الذي شكل النصف الآخر من مجلس الوزراء. كان لكل منهما فلسفة مختلفة. كان حزب الشعب ذا بنية مرنة ويؤيد حكومة أكثر انفتاحاً. وكان الطاشناق

ثوريين ناشطين، وكانوا يستخدمون، بين الحين والآخر، ما يعتبره البعض أساليب غير ديمقراطية ضد الأرمن وغير الأرمن لكي يحققوا أهدافهم. وكان تنظيمهم الحزبي. وعلى وجه الخصوص المكتب المركزي لقيادتهم، صارماً، ويطالب أعضاءه بالطاعة التامة. وكان الزعماء المفكرون والسياسيون، لكلتا المجموعتين، يهدفون إلى تحقيق صالح أرمينية والشعب الأرميني، ولكنهم جاءوا من خلفيتين مختلفتين اجتماعياً واقتصادياً. وسعوا لتحقيق أهدافهم بأسلوبين مختلفين. كان أعضاء حزب الشعب قد نشأوا وسط التقاليد الليبرالية للطبقة المتوسطة العليا في تفليس وباكو وموسكو وسان بطرسبورج. بينما كان الطاشناق نتاج الطبقات المتوسطة الدنيا، وكذلك الفلاحين والعمال. الذين كانوا متأثرين بالحماس الثوري والطموحات القومية السائدة في شرق أوروبا.

وقبل ربيع عام 1919م، كان الليبراليون. الذين كانت برامجهم غير مهيأة للتعامل مع مشاكل الجهل والجوع التي تعاني منها الجماهير الأرمينية في يريفان. يأملون رغم هذه الصعوبات أن يفيد وجودهم بالحكومة الجماهير الأرمينية بتوفير الوظائف ومنحهم المزيد من التمثيل البرلماني. ولكن بعد ستة أشهر بدأت علامات توتر في الظهور بين الحزبين. شجع وصول بوغوص نوبار ووفده الليبرالي إلى باريس أعضاء حزب الشعب في يريفان، الذين شعروا أن لهم الآن صوتاً أكبر مما كان من قبل. وجاءت الصدمة الأخيرة قبيل أول انتخابات وطنية مباشرة. ففي أول ذكرى سنوية لإعلان الجمهورية، أعلن خاتيسيان Khatisian. المتحدث باسم الحكومة. التوحيد المستقبلي لأرمينية الشرقية والغربية. ولم يعلق الائتلاف الليبرالي في ذلك الوقت، ولكن بعد أيام قليلة استقال من الحكومة. زاعماً أن بوغوص نوبار وحزبه، الذين يمثلون الأرمن الغربيين، لم يتم التشاور معهم قبل هذا الإعلان، وأن الطاشناق يعودون، مرة أخرى، إلى هدم المبادئ الديمقراطية في محاولة لاغتصاب الحكومة المستقبلية لأرمينية الموحدة.

وأدت مقاطعة الليبراليين للانتخابات إلى تحقيق حزب الطاشناق نجاحاً ساحقاً (90% من الأصوات). ونجحت الأحزاب الاشتراكية المختلفة، التي كانت عناصرها في جورجيا وأذربيجان وروسيا وأوروبا أكثر من أرمينية، في الفوز بأصوات الـ 10% الباقية. وأكد الاشتراكيون والليبراليون أن عملية الاقتراع كلها كانت تمثيلية من الطاشناق لكسب السيطرة على الجمهورية، وأدرك خاتيسيان، الذي شكل الحكومة الجديدة، أن التوتر قد

تكون له عواقب وخيمة. ولكي يقلل من توتر الوضع، وبناء على اقتناعه، سعى لضم بعض العناصر غير المنتمية لحزب الطاشناق في مختلف المواقع. واصطدم مع المكتب المركزي لحزب الطاشناق، الذي لم يوافق على سياسته، بل وسعى إلى إحداث تغييرات سريعة. يمكن بها تقوية الحزب وتعزيز الإصلاحات الاشتراكية التي تكسبه تأييد الجماهير. وخشى رؤساء المكتب أن تفقد الطبقات العاملة والأكثر فقراً في أرمينية صبرها في النهاية وتشارك البلاشفة الذين كانت دعاياتهم وانتصاراتهم في الحرب الأهلية قد بدأت تترك أثرها على العامل العادي. ووقع الصدام الرئيسي بين الحزب والحكومة في أواخر عام 1919م. خلال مؤتمر الحزب، حيث دافع خاتسيان عن أنه إذا أصر الحزب على إدارة الدولة، فلن يكون هناك اختلاف بينهم وبين البلاشفة. وأضاف أن الحكومة يجب أن تكون مستقلة عن الحزب، وعلى الحزب أن ينفذ برنامجه من خلال ممثليه في الهيئة التشريعية. إلا أن العناصر القديمة في الحزب أصرت على أنه دون سيطرة الحزب، لن تكون الدولة قادرة على تخطي الأيام الصعبة القادمة. وقرر الحزب في النهاية أنه على أعضاء المكتب المركزي الذين دخلوا الحكومة أن ينسحبوا من المشاركة الفعالة في تلك الهيئة خلال توليهم مناصبهم. ورغم أن هذا الحل الوسط لم يتم تنفيذه جيداً، فقد كان إيحاءة مكنتهم من تجنب كل مواجهة خارجية.

وبدأ العام الثاني للجمهورية واعدًا، مع عودة السكك الحديدية والتلغراف إلى العمل. ونهضة طفيفة في الصناعة. كانت هناك مشكلات مع التضخم. ومع السكان المسلمين، واطعام وتسكين اللاجئين، والأكثر أهمية توزيع الأرض على الفلاحين، وهو شيء وعد به الطاشناق. ولكنه لم يتحقق بعد. وأعطى هذا الموضوع الأخير المبررات للتوربين الاشتراكيين لتجنيد بعض الفلاحين الساخطين، والفرصة لكسب مزيد من الأعضاء في المستقبل. وكانت المشكلة الرئيسية هي أن الجمهورية الأرمنية لم تكن لديها البنية التحتية الموجودة في باكو أو تفليس، فالحرب، بالإضافة إلى الاحتلال التركي قصير الأمد لنصف الإقليم. تسبب في القضاء على الحيوانات والمعدات. وكانت هناك خطط لإقامة مشروعات زراعية وبناء سدود ومدارس والإمداد بالعلاج البيطري وعمليات إعادة زراعة الغابات، وموضوعات أخرى. لكنها كانت خططاً على المدى الطويل ولن تأتي ثمارها إلا في المستقبل. وكان يجري إنشاء محاكم حديثة، وتنظيم إدارة ذاتية ريفية، وكانت

هناك حتى جهود لجعل اللغة الأرمنية لغة رئيسية للإدارة. ولكن حيث إن معظم المثقفين كانوا يستخدمون اللغة الروسية. فقد استخدمت الحكومة كلتا اللغتين. وافتتحت مدارس ابتدائية وثانوية وجامعة حكومية في عدد من المراكز الحضرية. ولكن نقص الوقود والعجز المالي أثر على الحضور المدرسي. ومع ذلك كان هناك تفاعل. وتم تصميم وإصدار طابع بريدية وعمليات مالية. وفي تلك السنة نفسها، بعث الرئيس ويلسون بلجنة برئاسة جيه. جى. هاربورج J. G. Harbord. الذي قضى شهرين في أرمينية الغربية والجمهورية الأرمنية لتقييم إمكانية الانتخاب. وشهدت اللجنة مناقشات متوازنة من أجل وضد الانتخاب الأمريكي. وقرروا أنه على الرغم من أن ذلك أفضل من وجهة نظر إنسانية. فإن التكلفة سوف تكون هائلة، وسوف تورط الولايات المتحدة في عدد كبير من المشكلات.

وطالما كانت نتيجة الحرب الأهلية الروسية محل شك، رفضت القوى الأوروبية الاعتراف بأرمنية أو أية جمهوريات أخرى بمنطقة ما وراء القوقاز. ومع بداية عام 1920م، جاءت هزيمة جيوش روسيا البيضاء تحت زعامة الجنرال دينيكن Denikin لتجعل من الواضح ضرورة الاعتراف بجمهوريات ما وراء القوقاز كدول واقعية، وأن يتم تسليحها لمقاومة البلاشفة. وكان اللورد كيرزون وزير الخارجية البريطاني، إلى جانب مد أرمينية بالأسلحة، ولكن وينستون تشرشل وزير الحربية لم يوافق، قائلاً إن تلك الأسلحة سوف تسقط في أيدي البلاشفة، الذين كان انتصارهم مؤكداً.

وفي تلك الأثناء، وضعت الحكومة الأرمنية كل آمالها في أوروبا والولايات المتحدة. وفي ربيع 1920م رفض مجلس الشيوخ الأمريكي معاهدة فرساي وعصبة الأمم. وحيث أن هذا الحلف كان سيقوم بإدارة الانتدابات، أصبحت قضية الانتخاب الأرميني ميتة في الواقع بشكل عام. ومع ذلك استمر تأييد قوي لأرمنية في الولايات المتحدة، وفي مجلس الشيوخ، وتم الاعتراف رسمياً بالجمهورية الأرمنية، ومبعوثها أرمين جارو Armen Garo (جارجين پاسدرمانجيان Garegin Pasdermandjian). وهناك حقيقة زادت الوضع تعقيداً بالنسبة للأرمن، وهي أن الولايات المتحدة لم تعلن أبداً الحرب على تركيا، وبالتالي، بعد هزيمة ويلسون في مجلس الشيوخ، انسحبت الولايات المتحدة من المناقشات حول تقسيم الإمبراطورية العثمانية. وكان التأخير في تطبيق تسوية تركية له نتائج كارثية

بالنسبة لأرمنية. وخلال هذا الوقت، كان القوميون الأتراك في الداخل ينظمون معارضة قوية للخطط الأوروبية لتقسيم تركيا. فلم يتم تسريح أو نزع أسلحة الجيش التركي. بل تمت إعادة تنظيمه على يد مصطفى كمال (الذي عُرف فيما بعد بأتاتورك) وجعله قوة مؤهلة وقوية. وفي الوقت نفسه، شعر رجال الأعمال الأوروبيون، وفيما بعد الأمريكيون، أنه يمكنهم أن يجنوا فوائد من دولة تركية قوية. ومن طرفها التجارية أكثر من دولة أرمنية. التي تموت جوعاً والمحرومة من منفذ بحري. وعلاوة على ذلك، استمرت الدوائر الاستعمارية في أوروبا تفكر فيما سوف تكون عليه مشاعر المسلمين في مستعمراتهم إذا عوملت تركيا. موطن الخلافة. مثلما حدث مع ألمانيا والنمسا. ولم تكن لبريطانيا وفرنسا مصالح متعارضة في الأناضول، ولكن كان بينهما خلافات كبيرة فيما يتعلق بالأراضي العربية. وتضاربت الطموحات اليونانية والإيطالية في الأناضول. وقام اليونانيون بموافقة بريطانيا بإنزال قوات في أزمير في شهر مايو عام 1919م. ولما لم يكن لدى الفرنسيين أو البريطانيين وسيلة أو نية لمهاجمة القوميون الأتراك في الأناضول النائية. فقد كان رجاؤهم أن يجبر الغزو اليوناني الأتراك على التوصل إلى تفاهم وقبول المقترحات الأوروبية. التي كانت تُناقش بصورة غير رسمية.

وعلى الرغم من أنه كان هناك تعاطف مع الأرمن. فقد كان الوقت ينفد بالنسبة لهم. فبينما كان مجلس الشيوخ الأمريكي يعد لهزيمة ويلسون. بدأت القوى الأوروبية أخيراً في مناقشة معاهدة السلام مع الإمبراطورية العثمانية في سان ريمو بإيطاليا. وفي الوقت نفسه. وصلت أنباء تشير إلى أن القوميون الأتراك يقتلون الأرمن الذين عادوا إلى قيليقية. وأثارت عملية الإنزال اليوناني غضب القوميون الأتراك. فتجاهلوا القرارات الصادرة من إسطنبول. واعتبروا أنفسهم الحكومة الفعلية لتركيا. وهاجم الأتراك المواقع الأرمنية والفرنسية في مرعش وسييس وهاچن وأورفا وعينتاب. وكان رفض الفرنسيين الدفاع عن قيليقية يعني في النهاية القضاء على قيليقية الأرمنية. واضطر أولئك الذين نجوا من القتل أو الأسر أن يتركوا وطنهم مرة أخرى إلى لبنان أو سوريا. ومع نهاية عام 1921م. قام الديبلوماسي الفرنسي فرانكلين بوليون بتسليم قيليقية إلى القوميون الأتراك. مقابل الاحتفاظ بسوريا.

في غضون ذلك، كانت لا تزال هناك فرصة لأن تقوم إسطنبول أو الجيوش اليونانية بإقناع القوميين الأتراك بالموافقة على دولة تركية أصغر. وفي الوقت نفسه مع حلول شهر إبريل 1920م، وافق الحلفاء في سان ريمو على إعطاء أرمينية قان وأرضروم وبتليس، ومنفذ على البحر الأسود. لكن الحلفاء أدركوا تماماً أن الاتفاقية كانت مجرد حبر على ورق، لأنه لم يكن أحد في أوروبا مستعداً لأن يودع قوة لمساعدة الأرمن في إحكام السيطرة على تلك المنطقة الضخمة. وواجهت كلاً من الفرنسيين والبريطانيين معضلة تتعلق بكيفية تنفيذ تعهداتهم الكثيرة للأرمن أثناء الحرب، وبعد أن رفض البلاشفة الاعتراف بمشروع سايكس بيكو، منح البريطانيون الأرمن نصف أرمينية الغربية، التي كانوا قد وعدوا بها الروس. وشعر البريطانيون أنهم حلوا مشكلتهم، وتمنوا أن ينجح اليونانيون وجمهوريات ما وراء القوقاز في مقاومة القوميين الأتراك والبلاشفة.

ومع ذلك، استمر الفرنسيون والبريطانيون يأملون أن يكون لدى ولسون والولايات المتحدة استعداد لتحمل مسئولية إقامة دولة أرمنية أصغر في المساحة، وطلبوا من ولسون أن يرسم الحدود النهائية لأرمينية، في نطاق الخطوط، التي تمت الموافقة عليها في سان ريمو. ورغم أن ولسون لم يسلم الحدود النهائية لأرمينية حتى شهر نوفمبر (انظر الخريطة 41)، ففي 18 إبريل عام 1920م أعلنت القوات المنتصرة في سان ريمو أنه تم التوصل أخيراً إلى اتفاق، وبعد ذلك مباشرة رفض مجلس الشيوخ أيضاً فكرة الانتداب الأمريكي.

أجبر سقوط أدنة في أيدي اليونانيين في يونيو 1920م إسطنبول على قبول شروط سان ريمو. وبعد ثلاثة أشهر من سان ريمو، في 10 أغسطس 1920م، وقّع الأتراك والحلفاء الأوروبيون والأرمن، الذين مثلهم أقيتيس أهارونيان وبوغوص نوبار باشا، معاهدة سيقر (انظر خريطة 41). ووافقت المعاهدة على الحدود التي سيضعها ولسون (والتي كانت تضم مقاطعات قان وبتليس وأرضروم ومنفذاً على البحر الأسود في طرابزون)، ووعدت بتعويضات وإعادة الملكية لمن نجوا من أحداث إبادة الجنس الأرمني. كما وافقت أيضاً على عودة النساء والأطفال الأرمن، الذين قام الأتراك والأكراد بأخذهم أو تبنيهم. وفي النهاية اعترفت المعاهدة باستقلال أرمينية، ووعدت بمعاينة المسؤولين عن الإبادة الأرمنية، ووعد الأرمن في المقابل بضمان الحقوق العقائدية والثقافية للمسلمين الذين

سببوا في أرمينية الغربية. وهكذا، بعد واحد وعشرين شهراً من نهاية الحرب العالمية الأولى، انتهت رسمياً المفاوضات حول حدود ما بعد الحرب.

وفي صيف عام 1920م. كانت لدى الجمهورية الأرمنية أسباب عديدة للرجاء والخوف. فأرمينية الآن معترف بها رسمياً من جانب بلجيكا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وشيلي والأرجنتين والبرازيل. ودول أخرى عديدة. بالإضافة إلى الولايات المتحدة. اعتبرت جوازات السفر الأرمينية سارية المفعول. وبدأ الدبلوماسيون الأرمن عملهم في الصين واليابان وأثيوبيا واليونان وتركيا ورومانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا وإيران والعراق وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا.

لكن في هذه الأثناء. كانت تتجمع سحب منذرة بالسوء. فقد أعلن مصطفى كمال. وقد أدرك أن الاتفاقات التي تم التوصل إليها في سان ريمو تعني دولة تركية ضعيفة مبتورة. أن الحكومة في إسطنبول لا تمثل الشعب التركي. وأن أية اتفاقيات وقعتها باطلة ولاغية. وبينما كان أسطول الحلفاء في إسطنبول. أقام مصطفى كمال حكومة انفصالية في أنقرة. وأعلن مصطفى كمال. السياسي الداهية. ساحر الجماهير. والزعيم البارز، والقائد العسكري الكفء. أنه لا يهمه إلا الحفاظ على أرض الوطن الخاصة بالأتراك. أو آسيا الصغرى: وبتعبير آخر. لم يكن مصرّاً على الوحدة الإقليمية للإمبراطورية العثمانية السابقة. كانت منطقة البلقان مقسمة بالفعل إلى دول مستقلة، ومن الممكن فصل الأراضي العربية عن الدولة التركية الجديدة. وبذلك سوف تحتفظ الحكومتان البريطانية والفرنسية بمناطق نفوذهما. وسيكون من الأفضل بالنسبة لهما وجود تركيا قوية. بدلاً من دويلات ضعيفة فيما وراء القوقاز. والتي يمكن أن تقع فريسة في أيدي البلاشفة. وعندئذ تحول كمال، وهو على ثقة من تراخي الحلفاء. إلى وقف تكوين أرمينية الويلسونية. وكذلك صدّ الغزو اليوناني.

ولعدم قدرته على القتال على جبهتين في وقت واحد. تقرب مصطفى كمال من البلاشفة عن طريق أنور باشا، الذي فر إلى تركستان الروسية. وأكد كمال للبلاشفة أنهم إذا أمدوه بالأسلحة والحبوب والذهب. فسوف يجعل أذربيجان بمستشاريها وضباطها الأتراك الكثيرين تقف إلى جانبهم. وسوف يقضي على الأرمن "الإمبرياليين". ودخل

البلاشفة باكو في نهاية شهر أبريل، واستقبلوا بالترحاب من جانب الرعاء الأذربيين، الذين تناسوا حماسهم القومي السابق، وصوروا أنفسهم كممثلين عن الطبقة العاملة. وأجبر سقوط باكو حكومة يريفان على إرسال بعثة إلى موسكو في مايو؛ لإقناع البلاشفة أن أرمينية المستقلة والصديقة ستكون أفضل بالنسبة للمصالح الروسية في المنطقة. وفي أثناء ذلك، وصلت الحركة البلشفية ببطاء إلى أرمينية، ورغم أنهم كانوا أقلية صغيرة، فإن صوتهم كان مسموعاً، وتمكنوا من إشعال ثورة صفرى في مايو بألكسندروبول. مطالبين بتأسيس جمهورية سوفيتية، وكان رد فعل الطاشناق سريعاً: حيث تم إعدام بعض البلاشفة الأرمن، وفر الباقون إلى باكو. وكانت النتيجة الرئيسية لهذه الثورة الصفرى نهاية خاتيسيان كرئيس للوزارة ونهاية سياساته، وتولى المكتب المركزي لحزب الطاشناق الحكومة، وعُين همازاسب أوهانجانيان Hamazasp Ohanjanian رئيساً للوزراء. وبعد تطهير البلاد من البلاشفة، أمر المكتب بترحيل كل المسلمين، الذين لم يقبلوا سلطة الحكومة، وغادر عديد من المسلمين المناطق الجنوبية من الجمهورية، وعلى الرغم من عدم احتجاج الاشتراكيين على سياسات الطاشناق، فإن هذه الأحداث أبعدت الليبراليين أكثر. وتم الاحتفال بالذكرى الثانية لإعلان الجمهورية بروح مختلفة تماماً.

كانت هناك تفسيرات مختلفة للأحداث التي تلاحت بعد ذلك، حيث ادعت مصادر متعاطفة مع الطاشناق أن البلاشفة أعطوا الأرمن تأكيدات زائفة. بينما كانوا يترقبون نتائج المفاوضات السوفيتية التركية في موسكو. أما المصادر المعارضة للطاشناق، فقد أشارت إلى أن اللوم يقع على حكومة يريفان. فقد رفضت أغلبية الطاشناق العمل مع موسكو. ومن ثم أجلت الحكومة الأرمينية ردها على موسكو، فأجبرت الروس على الاتفاق مع الأتراك. ورد الطاشناق بأن أي اتفاق مع موسكو سوف يقلب الغرب ضدهم. ونظرًا لأن معاهدة سيفر لم يتم توقيعها حتى أغسطس، فقد حاولوا تأجيل التقارب مع البلاشفة. وتشير وجهة نظر الهنشاك إلى أن استيلاء المكتب المركزي للطاشناق على حكومة يريفان وقمع الحركة البلشفية الوليدة في أرمينية، لم يقض فقط على أي آمال في إجراء مفاوضات مع البلاشفة، ولكنه جعلهم يفقدون الثقة للأبد في الطموحات القومية الأرمينية.

في أثناء ذلك، استمرت المفاوضات بين البلاشفة والأترک. ورغم أن عدداً من البلاشفة أصروا على ضرورة أن يعطي الأترک للأرمن بعض مناطق من أرمينية الغربية، رفض الأترک مناقشة قضية الحدود. وأصروا على أن يتم التفاوض بشأن التحالف، دون إشارة إلى الحدود. ووافق كل من ستالين الذي لم يكن متعاطفاً مع الأرمن، ولينين الذي كان قلقاً من أحداث أكبر آنذاك. وبعد وقت قصير من معاهدة سيفر، وقع الروس والأترک اتفاقية في موسكو في 20 أغسطس 1920م، والتي لم تلغ فقط كل المعاهدات السابقة التي وقعتها الحكومة الإمبراطورية. ولكنها أعلنت أيضاً أن أية معاهدة دولية مثل معاهدة سيفر لم تقبلها أنقرة، لن يتم الاعتراف بها من جانب موسكو. وقام الأترک، ليوضحوا للعالم رفضهم التام لسيفر، وهم على ثقة من التعاون الروسي، والحياد الأمريكي، والتراخي الأوروبي. بمهاجمة أرمينية في أواخر شهر سبتمبر. ومع نهاية سبتمبر كان الجيش التركي قد استولى على سريكاميش، وفي 30 أكتوبر 1920م أخذوا كارس. وفي نوفمبر، دخل الجيش التركي ألكسندروبول بقيادة الجنرال قره بكير. وطالب بأن تقبل أرمينية هدنة تعتمد على حدود بريست. ليتوفسك.

أصيب الروس بالدهشة أمام التقدم التركي السريع، وخشوا من فقدان الموانئ الجورجية الواقعة على البحر الأسود وخط السكك الحديدية الوحيد الذي يربطهم بإيران. فقاموا بالتقرب إلى حكومة يريفان، وعرضوا التوسط لمصلحتهم. ورفض الأترک أي تدخل روسي. وقام المكتب المركزي للطاشناق، الذي وجه إليه اللوم آنذاك بسبب الانتصارات التركية. بتسليم سلطات الحكومة إلى مجلس وزراء جديد. برئاسة سيمون قراتزيان Simon Vratzian. وكان مجلس الوزراء الجديد لا يزال يهيمن عليه الطاشناق، ولكنه يضم عضوين من الثوريين الاشتراكيين. وفي نهاية شهر نوفمبر دخل البلاشفة المنطقة الأرمينية. وأصروا على أن إنقاذ أرمينية يتوقف على جعلها دولة بلشفية، وفسخ معاهدة سيفر، وقطع روابطها مع الغرب. واستمر الأترک في تقدمهم. واستولوا على شارور وناخيتشيقان. وبعثت الحكومة الأرمينية. وهي تواجه خطر الإبادة التامة. بخاتسيان إلى ألكسندروبول للتفاوض مع الأترک، وعينت فريقاً برئاسة الجنرال درو لنقل الحكومة إلى البلاشفة. وفي 2 ديسمبر أصبحت أرمينية دولة سوفيتية "مستقلة". ووعد البلاشفة باستعادة حدود ما قبل سبتمبر 1920م. وعلى عكس الاعتقاد السائد. لم تنته الجمهورية الأرمينية مطلقاً في ذلك التاريخ. فرغم أن

الجمهورية غيرت قيادتها السياسية، فقد تم ضمان حرية الطاشناق وكذلك ممثلي الأحزاب الأخرى، واستمروا يخدمون الدولة في عدد من المواقع.

وفي اليوم نفسه، طلبت تركيا أن توقع أرمينية فوراً معاهدة للتنازل عن حقها في معاهدة سيفر، وكل ما تطالب به في أرمينية الغربية. بما في ذلك كارس وأردهان. وذلك بالإضافة إلى أنه على أرمينية أن تقبل سلطة تركية مؤقتة في ناخيتشيفان وشارور (انظر خريطة 42). وفي المقابل، سيضمن الأتراك استقلال القسم الباقي من الجمهورية. وأجل خاتسيان. وهو يدرك مفاوضات درو مع البلاشفة. قبول أرمينية لهذه الشروط حتى منتصف ليلة الثاني من ديسمبر. ووقع آنذاك اتفاقية ألكسندروبول في ساعات مبكرة من يوم الثالث من سبتمبر. وهكذا تم إنقاذ جزء صغير من أرمينية من الاحتلال التركي. ولما كانت حكومته لن تبقى بعد 3 ديسمبر، قدّر خاتسيان أن البلاشفة سوف يشجبون المعاهدة. ويعتبرونها باطلة ولاغية، ويطلبون عودة الأتراك إلى الحدود السابقة. وفي الوقت نفسه. كان الطاشناق يأملون أنه إذا لم يحافظ البلاشفة على وعودهم وحاولوا الهيمنة الكاملة على الجمهورية. فإنهم سيعتمدون على ضمان تركي لصدهم. وهكذا أمل الأرمن أن يستخدموا إما الروس أو الأتراك لصالحهم. وكانت حركة محسوبة ولكنها فشلت في نهاية الأمر.

بعد عدة أيام وصل إلى يريفان الجيش الأحمر. مع عدد من البلاشفة المتحمسين من شباب الأرمن وغير الأرمن التابعين للجنة الثورية. وبالتناقص مع الاتفاقية المعقودة مع درو. ألقوا القبض على عدد كبير من المسؤولين والضباط. وحلت في أرمينية الفترة المعروفة بـ "الشيوعية الحربية". بمصادراتها المزعجة وعقوباتها وهجمات على القيم التقليدية. وتحت قيادة سر كيسان Sarkis Kasian وأقيس نوريچانيان Avis Nurijanian. نشرت الدمار والفضى على مدى الشهرين التاليين. ثم تحرك البلاشفة والأتراك بعد ذلك إلى جورجيا، آخر منطقة مستقلة فيما وراء القوقاز. ومع رحيل الجيش الأحمر، قام السكان. وقد سأموا من الشيوعية الحربية. واعتراهم الغضب من خداع البلاشفة، ويواجهون ضياع أرمينية الغربية. بالتمرد في فبراير 1921م. وقاموا تحت قيادة الطاشناق، ومسلحين غير حزبيين، بطرد الأرمن البلاشفة وأقاموا حكومة إنقاذ وطنية برئاسة فراتزيان Vratzian.

وكان نصرهم مؤقتًا، لأنه بعد انضمام جورجيا إلى الدولة السوفيتية، عاد الجيش الأحمر في مارس. ومع بداية شهر إبريل أجبر المتمردون على الانسحاب إلى زانجيزور حيث استمروا في القتال تحت قيادة نجتيه Njdch. وأعلنوا المنطقة دولة أرمنية الجبلية المستقلة (Lerna-Hayastan). وفي غضون ذلك، وبعد سقوط يريفان في أيدي الجيش الأحمر. خلال شهر مارس. تفاوض الأتراك والروس دون حضور أي ممثلين لأرمنية أو جورجيا حول مصير أرمنية وبقية منطقة ما وراء القوقاز. وفيما يختص بالأرمن. اتبعت البنود الخطوط العامة لاتفاقية ألكسندروبول. ولكن مع بعض التغييرات المهمة. فناختيشقان وشارور لن تعودا إلى أرمنية. ولكنهما سوف تصبحان جزءًا من أذربيجان. حتى تكون لديها حدود مشتركة مع تركيا. وطلب الأتراك أيضًا بمقاطعة سورمالو Sumalu مع جبل أرارات. الذي كان دائمًا جزءًا من أرمنية الفارسية والروسية. ووافق الروس على ذلك مقابل باطوم وأخالكالاك وأخالتسيخ. التي كانت أجزاءً من المناطق التي احتلتها تركيا. وفيما بعد. في عام 1932 م. تبادلت تركيا وإيران قطعًا صغيرة المساحة من الأرض: فتسلمت إيران مناطق غرب بحيرة أورميا، بينما حصلت تركيا على جبل أرارات الصغير وضواحيه. وبالتالي أصبحت قمة أرارات المزدوجة. رمز أرمنية. جزءًا من تركيا. وأخيرًا، تم الاتفاق على أن المعاهدة سيتم فيما بعد توقيعها والتصديق عليها من جانب جمهوريات ما وراء القوقاز. كانت معاهدة موسكو التي وقعت في 16 مارس 1921 م تمثل النفس الأخير للجمهورية الأرمنية الأولى. بعد نحو ألف يوم من بدايتها الرسمية.

في هذه الأثناء. ركزت تركيا كل جهودها على الجيوش اليونانية في آسيا الصغرى. ومع نهاية 1922 م نجحت القوات التركية في هزيمة اليونانيين وإخراجهم من آسيا. واحترق الحيان الأرمني واليوناني في مدينة أزمير. وتعرض السكان الأرمن واليونانيون للقتل الوحشي أو الفرار. فوق سفن غربية إلى اليونان.

وجاءت الضربة الأخيرة بعد عام. عندما وضعت القوى الأوروبية وعودها الكلامية جانبًا. وتخلت عن الأرمن. وتفاوضوا من جديد حول معاهدة سيقر. ولم تذكر معاهدة لوزان (24 يوليو 1923 م) القضية الأرمنية من قريب أو بعيد. ولم تدفع تركيا أية تعويضات. ولم يوجه إليها اللوم على أي من الأعمال الوحشية التي ارتكبتها خلال الحرب.

ولكنها وافقت مع ذلك على حماية أقليتها المسيحية. أولئك القليلون الذين بقوا في تركيا. وخضعت المضائق للإخلاء من أي سفن حربية، وفتحت أمام كل السفن في وقت السلام. وأمام السفن المحايدة في وقت الحرب. ورغم أن تركيا كانت قد هُزمت في الحرب العالمية الأولى، فإنها بالمساعدات البلشقية والأوروبية وعلى حساب أرمنية. لم تستعد فقط مناطق فقدتها عام 1878م، ولكنها أيضاً ربحت مناطق من أرمنية الروسية. ومكنت أذربيجان السوفيتية من التوسع على حساب أرمنية.

من السياسة الاقتصادية الجديدة إلى البيريسترويكا أرمنية السوفيتية أو جمهورية أرمنية الثانية (1991-1921م)

تم إنقاذ قلب الجمهورية السابقة، وكانت مرة أخرى تحت حماية وحكم روسيا، وإن كانت سوفيتية. ومع حلول شهر يونيو عام 1921م كان معظم زانجيزور Zangezour⁽¹⁷⁾ إما قد تم الاستيلاء عليه، أو تم تهدئته بعد تأكيد ممثل لينين الدبلوماسي ألكسندر مياسنيكيان Miasnikian أن أرمنية ستحتفظ بزنجور وسيتم العفو عن المتمردين. وبقي آخر معقل للباشناق في ميغري Meghry نشطاً حتى 13 يوليو. عندما عبر أعضاؤه نهر آراكس إلى إيران. وعلى مدى العقود السبعة التالية كان لدى أرمنية حزب رسمي واحد فقط، وهو الحزب الشيوعي الأرمني. وتخلّى عدد من أحزاب الأقلية الاشتراكية، مثل حزب الثوريين الاشتراكي، وحزب المنشيفك والخصوصيين عن نشاطاتهم السياسية. وتم تطهيرهم فيما بعد أو انضموا للحزب الشيوعي الأرمني.

وظل عدد من الأحزاب نشطاً في المهجر، أصغرها حزب الهنشاك. ومثل الاشتراكيين والشيوعيين الأوروبيين. كان لدى الهنشاك فصائل عارضت السوفيت. ولكنها في النهاية تم حلها وأصبح الحزب يؤيد بشدة كل سياسات أرمنية السوفيتية الجديدة تقريباً. وكانت هناك مجموعة من الأرمن الاشتراكيين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الاتحاد التقدمي (هاراتشديماكان Harachdimakan). ولم يكونوا على وفاق دائم مع موسكو. ولكنهم عموماً أوجدوا حواراً مشتركاً مع الهنشاك.

كان الحزب الليبرالي الديمقراطي الأرمني (رامكافار أزاتاكان كوستاكتسوتيون Ramkavar Azatakan Kusaksutition) حزباً أكبر بكثير. ورغم أنه تأسس عام 1921م

(17) منطقتان جبلية واقعة على حدود إقليم سيونيك في جنوب أرمنية. وتصل بينه وبين جمهورية ناخيتشيفان، العاصمة على الحكم الذاتي والناطقة لأذربيجان. وتغطي الغابات حوالي 200 من جبال زانجيزور. وترتفع ما بين 2200 إلى 2400 متر فوق سطح البحر. (المنترجمة)

بعد دخول أرمينية في الاتحاد السوفيتي. فإن الحزب كما رأينا تم تشكيله. في الواقع. بدمج أقدم وأحدث مجموعات سياسية أرمينية. أي الأرميناكان والهنشاك الإصلاحية. وحزب الشعب. والديمقراطيين الدستوريين. وكان الحزب يتألف من المحافظين والليبراليين والحرفيين والمهنيين ورجال الأعمال والمثقفين. ورغم أن أعضاء الرامكافار كانوا تحريريين ورأسماليين. فإنهم شعروا أنه ما دامت أرمينية السوفيتية هي الدولة القومية الأرمينية الوحيدة في هذه المرحلة. فلا بد أن تحظى بالدعم والمساندة: لأن أرمينية المحاطة باليابسة والأعداء لا يمكن أن تبقى دون حماية روسية.

أما أكبر الأحزاب وأكثرها نشاطاً. وهو حزب الاتحاد الثوري الأرميني. أو الطاشناق. فلم يحجم فقط عن تأييد أرمينية السوفيتية. بل أيضاً شعر أنصاره أن البلاشفة خدعهم. فأعلنوا صراحة أنهم سيعملون مع أعداء الاتحاد السوفيتي. ولن يستريحوا حتى تتحرر كل أرمينية السوفيتية والتاريخية (انظر الفصل 23).

سياسة اقتصادية جديدة في أرمينية

حولت الشيوعية الحربية كثيراً من مؤيدي البلاشفة إلى معارضين لهم. وفي 15 مارس عام 1921م. اعترف لينين أن بعض البلاشفة أصبحوا متحمسين بصورة مبالغ فيها. فتم تطبيق سياسة جديدة من شأنها أن تؤدي إلى تحول أبطأ إلى الشيوعية. ولم تتخل هذه السياسة التي سُميت بالسياسة الاقتصادية الجديدة عن الأهداف الشيوعية. ولكنها سمحت ببعض الحوافز الاقتصادية. بالإضافة إلى إقامة مشروعات تجارية مشتركة مع الغرب. فيما أصبح معروفاً برأسمالية الدولة.

وقد وُضع مسئولون بلاشفة أكثر إحساساً بالتقاليد والثقافات المحلية بدلاً من رفقاتهم المتعصبين للشيوعية. وكما رأينا، أرسل مياسنيكيان وهو رجل قريب من لينين. لأرمينية كأول سكرتير للحزب لتهدئة المنطقة وقيادتها برفق إلى الطوق السوفيتي. كتب لينين أن أرمينية وبقية دول ما وراء القوقاز لها أن تتحول إلى الاشتراكية على نحو أبطأ من روسيا نفسها. ووعد مياسنيكيان. عضو الحزب المحنك. بأن يحاول استرداد بعض المناطق خلال المفاوضات القادمة مع تركيا. وكان ناجحاً في تهدئة زانجيزور التي بقيت بمساندة

لينين جزءاً من أرمينية. وربما تحققت موسكو في النهاية بأن زانجيزور كانت الحاجز الوحيد بين تركيا والشعوب التركية في الاتحاد السوفيتي.

ونظراً لأن دول ما وراء القوقاز، كان لابد وأن تصدق على معاهدة موسكو، فقد اجتمعوا مع ممثلين للروس والأترک في كارس. واستمرت المفاوضات نحو ثلاثة أسابيع، ورغم أن الوفد السوفيتي حاول استعادة آني وكوغب (حالياً تولوتشا Tushluha) إلى أرمينية، فقد رفض الأترک. وأسفرت معاهدة كارس (13 أكتوبر 1921م) عن استمرار الحدود نفسها التي تمت الموافقة عليها في موسكو، وهي الحدود التي تفصل اليوم أرمينية وجورجيا عن تركيا (انظر الخريطة رقم 43).

مع حلول عام 1924م. ألغت تركيا السلطنة والخلافة، وأصبحت جمهورية، وأصبح مصطفى كمال أول رئيس لها. وفي غضون عقد من الزمان، تمكن مصطفى كمال المعروف حالياً بأتاتورك، من تحسين صورة تركيا أمام الغرب، حيث استخدم الأبجدية اللاتينية، وغير أسماء الأماكن إلى أسماء تركية، ومنح المرأة حق التصويت في الانتخابات، وحول تركيا إلى العلمانية. وبدأ إصلاحات زراعية وصناعية من خلال خطة خمسية (قامت على نهج النموذج السوفيتي ولكن بصورة غير دقيقة) وبدأ مفاوضات لعودة سنجق الإسكندرونة (والذي عاد بواسطة فرنسا في عام 1939م).

وبالنسبة للأرمن، فقد انتهت أخيراً حيرتهم. فقد تمكنوا من استعادة زانجيزور، وكان وجود الدولة السوفيتية الجديدة ضماناً لاستتباب أمن أرمينية. وكما رأينا، عاش كثير من الأرمن خارج أرمينية السوفيتية. معظمهم في تفليس وياكو، وفي عدد من المدن في روسيا. وظلت أرمينية في أشد الحاجة. التي كانت من الناحية الاقتصادية أكثر جمهوريات ما وراء القوقاز تخلفاً، وبلا صناعة رئيسية. إلى دعم روسيا ومساعدة أكبر جارتين لها، واللتين كانتا تتحكمان في الطرق الداخلة إلى. والخارجة من. الجمهورية المحاطة باليابسة.

وتم الضغط على أرمينية لتشكيل اتحاد مع جورجيا وأذربيجان، فقد أراد ستالين، المفوض المسئول عن القوميات السوفيتية، أن يجمع ما وراء القوقاز في وحدة واحدة، وأن يربطها سياسياً واقتصادياً بموسكو. وقاومت جورجيا مثل هذه الروابط، ولكنها وافقت في النهاية. مدركة أن استمرارها في هذه المقاومة سيبقيها معزولة. وأن موافقتها ستسهم

خاصة في تسهيل حل المشكلات الحدودية بين الجمهوريات. وكوفئت الجمهوريات الثلاث بالأسلوب التالي: تسلمت أرمينية لوري، ولكن جورجيا تسلمت أخالكالكاك Akhalkalak: واستعادت أرمينية زانجيزور، ولكن أذربيجان أخذت كاراباغ وناخيتشيفان. وكاستجابة لاحتجاجات الشيوعيين الأرمين، تم تصنيف كاراباغ الجبلية (وتسمى في المصطلحات الرسمية السوفيتية، "ناجورنو كاراباغ") كإقليم مستقل مع أذربيجان. أما ناخيتشيفان، التي كانت على مدى قرون جزءًا لا يتجزأ من إيران وأرمينية الروسية. فقد اقتطعت من أرمينية السوفيتية، وأصبحت جمهورية ذات حكم ذاتي خاضعة لأذربيجان (انظر الخريطة 44). بالإضافة إلى أنه كما رأينا فإن منطقة شارور، وهي جزء من إقليم يريفان، تم التنازل عنها لناخيتشيفان، وبقي كاراباغ. الذي كان جزءًا من أرمينية التاريخية ومعقلًا للنشاطات الموالية لروسيا والمضادة للمسلمين، منذ القرن الثامن عشر، ويتمتع بأغلبية أرمنية ساحقة. خارج حدود أرمينية السوفيتية أيضًا⁽¹⁸⁾. وقد أفلقت مشكلة كاراباغ زعماء الجمهورية الأرمينية الأولى. والواقع أن الجنرال أندرانيك Andranik زحف بجيش أرمني للاستيلاء عليها، ولكن البريطانيين أوقفوه واعدن بحل المشكلة في فرساي. وفي عام 1921م، قامت الحكومة السوفيتية لكسب ود المسلمين، فيما وراء القوقاز، وتحت ضغط من تركيا بالاستسلام للمزاعم الأذربيجانية ووضعت كاراباغ تحت الحكم الأذربيجاني. ومع ذلك أدت يقظة الأغلبية الأرمينية إلى اعتبار كاراباغ (دون شريط جولستان Gulistan) منطقة حكم ذاتي داخل أذربيجان عام 1923م.

وفي ربيع عام 1922 شكلت الجمهوريات الثلاث اتحادًا فيدراليًا منحها بعض الحكم الذاتي إزاء موسكو. ورغم أن ستالين لم يكن راضيًا عن هذا الوضع، وأراد تبعيتها الكاملة، أصر لينين على احتفاظ الجمهوريات بدرجة من الحكم الذاتي. وفي خريف العام نفسه، أعلن عن قيام "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية" USSR. وانحل الاتحاد الفيدرالي لدول ما وراء القوقاز، وحل محله الجمهورية الفيدرالية لما وراء القوقاز. وتشكل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية من روسيا (التي كانت تشمل أيضًا تركستان،

(18) نلاحظ أن الكاتب يكثر في هذا الجزء الثاني من المقابلة بين "الأرمن" و"المسلمين". والواقع أن هذا ليس دليلًا على عداة ديني بقدر ما يُقصد به عداة تاريخي بين الأرمن وبعض شعوب المنطقة؛ خاصة الأتراك، ومما يؤكد هذا الرأي أن الكاتب يعترف في أكثر من موضع في الكتاب بأن الأرمن تمتعوا، في ظل بعض الحكومات الإسلامية على مر التاريخ، بحرية دينية لم يتمتعوا بها في ظل حكومات أخرى. (المترجمة)

أو جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية الخمس) مع أوكرانيا وروسيا البيضاء ودول ما وراء القوقاز. وكان لكل جمهورية دستورها الخاص، والذي تم وضعه على نموذج دستور الجمهورية الروسية. وأصبحت الأحزاب الشيوعية المحلية تابعة لرؤساء الحزب (لجنة تنفيذية مركزية) في الكرملين، التي سيطرت على المجلس الأعلى للرئاسة. وكانت ميزانية كل جمهورية جزءاً من ميزانية الاتحاد ككل. وكانت السياسة الخارجية والتجارة الخارجية والتشريع المدني والجنائي وخدمات التعليم والصحة والجيش موحدة للاتحاد السوفيتي بأكمله. وفيما يتعلق بما وراء القوقاز، كانت القرارات المتعلقة بالاتحاد الفيدرالي لجمهورياتها تابعة لقرارات موسكو. واضطرت أرمينية باعتبارها العضو الأصغر في الاتحاد إلى الاستسلام. من حين إلى آخر، لجبرائها الأقوى، ولكن قرب مياسنيكيان من ممثل لينين وستالين فيما وراء القوقاز، بالإضافة إلى مقاومة جورجيا لموسكو أكسبت أرمينية بعض النفوذ.

أثرت سنوات السياسة الاقتصادية الجديدة تأثيراً عظيماً على الاقتصاد والثقافة الأرمينيين. كان أحد قرارات لينين المهمة، قبل مرضه، يتعلق بمفهوم الانتماء المحلي nativization (korenizatsiia)، الذي كان يهدف إلى تشجيع القوميات المختلفة على إدارة جمهورياتها بنفسها. بحيث تستخدم كل الصحف المحلية والمدارس ودور المسرح لكل جمهورية لغتها القومية. وتقوم الدولة بدعم ومساندة اللغة والثقافة الخاصة بكل جمهورية. وظن لينين أن هذه هي الطريقة الوحيدة لجلب المثقفين في كل جمهورية إلى الحزب. وإقناع القوميات أن الشوفينية الروسية كانت شيئاً من الماضي، وأن الشيوعية ستعامل الجميع على قدم المساواة.

وتشجع الأرمن في مناطق أخرى على الهجرة: حيث واجه مثقفون أرمن من تفليس وباكو ثقافة "الانتماء المحلي" في جورجيا وأذربيجان، فانتقلوا إلى يريفان. كما وصل أيضاً مهاجرون من أوروبا والشرق الأوسط، وتضاعف عدد السكان في يريفان، وبدأت بعض الصناعات في التطور، رغم أن سكان أرمينية ظلوا مرتبطين بالزراعة في المقام الأول. وأصبحت اللغة الأرمينية لأول مرة هي اللغة الرسمية للجمهورية. وكان على كل المواطنين تحت سن الخمسين أن يسجلوا أنفسهم في مدارس ليتعلموا لغتهم الوطنية.

وأنشئت مدارس خاصة لتخريج معلمين. وافتتحت مدارس في المدن والقرى. وأسست جامعة حكومية في يريفان. كما أقيم معهد علمي، وبعد أكثر من خمسمائة عام استخدمت اللغة الأرمنية مرة أخرى في المطبوعات والمحاضرات العلمية. ولكن اللهجات المختلفة للمهاجرين واللهجة المحلية سببت مشكلة، ولذلك أصبحت اللهجة المستخدمة في يريفان هي اللغة الأدبية السائدة المعمول بها، وابتكرت قواعد هجائية مبسطة أيضاً. وجاء إلى أرمنية مؤرخون وعلماء لغة ومؤلفون موسيقيون ورسامون ونحاتون وروائيون وشعراء. مثل: ليو Leo وأجاريان Ajarian وأيفغيان Abeghian وسبنداريان Spendarian وساريان Sarian، وحصلوا على دعم الدولة لمتابعة فنونهم على تراب وطنهم. وتم أيضاً إنشاء معهد للموسيقى ومسرح قومي وأستوديو تصوير سينمائي. لم يكن الدين مشجوباً، ولكن الدعاية المضادة للدين كانت مؤيدة بشدة من جانب الحكومة. وكان سكان المدن - الأقل عدداً - أقل تديناً من سكان الريف. ورغم اعتراف جاثليق الكنيسة الأرمنية بجمهورية أرمنية السوفيتية، كانت العلاقة متوترة بين الكنيسة وزعماء الحزب الشيوعي الأرمني. وأخيراً، كان دور المرأة التقليدي يتغير كثيراً، وهو ما كان يكدر معظم الرجال الأرمن، وظهر الإجهاض والطلاق ووجود الأنثى في قوة العمل. ولم تكن المشاعر القومية والمضادة للسوفيت مقبولة، ولكن عمليات التحويل إلى الانتماء المحلي، ورحيل المسلمين إلى أذربيجان جعلت أرمنية أكثر تجانساً. واستمرت اللغة والأدب والفنون الأرمنية في توحيد وإنعاش الأمة داخل الحدود التي فرضتها الشيوعية. وخلال الفترة ما بين 1920 و 1937م تمكن كُتّاب وشعراء أرمن. مثل: تومانيان Tumanian وإيساحقيان Isahakian وتيريان Terian وأرمن Armen ويسايان Yesayan وماهاري Mahari وتوتوفنتس Totovents والأزان Alazan وزوريان Zorian وباكونتس Bakunts وديميرجيان Demirjian وتشارنتيس Charents، تمكنوا من الجمع بين الاشتراكية وطبيعتهم القومية، وأن ينعشوا التقاليد الأدبية الأرمنية الشرقية لأبوقيان Abovian ورافي Raffi.

في هذه الأثناء، كانت هناك تغيرات سياسية تحدث في أرمنية. ففي نهاية عام 1923م أنهى حزب الطاشناق وجوده رسمياً في أرمنية. وتم طرد جميع أعضائه مع الاشتراكيين المستقلين خارج الحزب الشيوعي، ومن المناصب الحكومية: كما تم اعتقال بعضهم. وخَلَفَ أشوت هوفهانسيان Ashot Hovhannesian مياسنيكيان الذي مات في

حدث تحطم طائرة عام 1925م. وحل هايك هوفسيبان Haik Hovsepian محله عام 1927م واستمر عامًا واحدًا، ثم حل محله هايجاز كوستانيان Haigaz Kostanian الذي تولى السلطة لعامين. كانت التغييرات المتتالية انعكاسًا لصراعات السلطة في الكرملين.

ستالين والأرمن

شهدت السنوات الثلاث، التي أعقبت موت لينين في روسيا عام 1924م بزوغ نجم ستالين وطرده تروتسكي من الحزب ثم نفيه. في أثناء ذلك لم تكن السياسة الاقتصادية الجديدة قد أنتجت ثمارها المرجوة؛ فالصناعة لم تكن تنمو بصورة كافية، والأسعار المنخفضة للمحاصيل الزراعية دفعت الفلاحين إلى عدم بيع منتجاتهم. ومع حلول خريف عام 1928م، وضع العجز في المواد الغذائية الذي تعاني منه المدن نهاية للحجج التي يتذرع بها من يفضلون استمرار هذه السياسة. كان ستالين قد أعد نفسه لنصرة بوخارين، الذي يؤيد السياسة الاقتصادية الجديدة، وبهدف تدمير تروتسكي وكامينيف Kamenev وزينوفيف Zinoviev، لكنه تراجع وخلص نفسه من بوخارين. كما دعم ستالين سلطته عن طريق ترقية الموالين له، وخفض درجات الباقين أو نقلهم. وفي ربيع عام 1929م وضعت اشتراكية ستالين للدولة الواحدة موضع التنفيذ كبديل للسياسة الاقتصادية الجديدة. وتم اعتماد خطته الخمسية لجعل روسيا بلدًا صناعيًا. ولدعم عملية التحول السريع إلى التصنيع، كان لابد أن يشارك الفلاحون في مزارع جماعية، ويقومون بتسليم محاصيلهم من الحبوب وحيواناتهم إلى الدولة. وكانت النتيجة مقاومة الفلاحين. حيث قام المزارعون بقتل حيواناتهم وتدمير محاصيلهم بدلًا من تسليمها. قُتل في أرمنية وحدها ما يقرب من مليون حيوان، وعلى المدى الطويل أصبحت المقاومة غير ذات جدوى. وبعد تهديدات واعتقالات وإعدامات، بالإضافة إلى إجراءات أخرى، مثل: حدوث مجاعة من تدبير الدولة في أوكرانيا، انضم الفلاحون الأرمن، مثل كل الآخرين، إلى المزارع الجماعية، ودفعت الأوضاع القاسية في المزارع والقرى عديدًا من الأرمن للهجرة إلى المدن. وظهرت طبقة عاملة جديدة. وازدهرت الصناعة تحت رعاية كاملة للدولة وتخطيط اقتصادي مركزي. وكان الاقتصاد برمته تحت سيطرة الدولة. ونمت طبقات عاملة أرمنية. وسرعان ما أصبحت تشكل ثلث عدد السكان. وارتقى الفلاحون في صفوف الحزب أيضًا. وبدأت طبيعة الحزب تتغير بالكامل. وكانت الخطوة التالية

هي التخلص من أي شخص يرتاب في النظام الجديد أو يعارضه. وحل أنصار ستالين والواقعون تحت حمايته. محل الشيوعيين القدامى. وفي عام 1930م عين ستالين. أغاسي خانجيان Aghasi Khanjian رئيسًا للحزب الشيوعي الأرمني.

كانت جهود خانجيان لمصلحة أرمنية وقلقه من فقدان إقليم كاراباغ مما جعله زعيمًا شعبيًا في أرمنية، ولكن الشيء نفسه جعله غير محبوب في نظر بریا. الشيوعي الجورجي القوى صديق ستالين المقرب وكتب الحراسة غير الرسمي للحكومة فيما وراء القوقاز. وفي عام 1936، استُدعى خانجيان إلى تفليس. وهناك "انتحر". وحل محله هايك أماتوني Haik Amatuni، الذي طهر أرمنية من أنصار خانجيان. وبعد عام تم التخلص من أماتوني ومجموعته لأنهم لم يبذلوا جهدًا كافيًا في تطهير أرمنية من أعداء الشيوعية. وفي ذلك الوقت، وصل إلى يريفان ميكيان Mikoyan، الأرمني ذي المنزلة الرفيعة في الكرملين ومعه بریا، وقاما بتعيين جريجور هاروتيونيان Grigor Harutiunian. وهو من تفليس ومن أنصار بریا السياسيين. رئيسًا لأرمنية. وتم اعتقال كل الشيوعيين الأرمن ذوي المنزلة الرفيعة تقريبًا، بالإضافة إلى عديد من المثقفين، وتم إعدام البعض ونفي البعض الآخر إلى سيبيريا. وكان من بينهم: كاسيان Kasian ونوريچانيان Nurijanian وهوفسيبان Hovsepian وأماتوني Amatuni ويسايان Yesayan وباكونتس Bakunts وتوتوفنتس Totovents وماهاري Mahari وتشارنتس Charents. ومع حلول عام 1939 كانت عمليات التطهير قد انتهت، وقضى ستالين والبوليس السري (القوميسارية الشعبية للشئون الداخلية NKVD)⁽¹⁹⁾ على كل المعارضة. وحل محل الجيل الماركسي القديم. الذي كان معظمه من طبقة المثقفين غير العاملين. جيل أصغر، إما من الطبقة العاملة أو من المهنيين البيروقراطيين. كانوا موالين لستالين، وبقوا في السلطة حتى أواخر السبعينيات. لقد قضت الدولة على كل أشكال المقاومة. واحتكرت كل مظاهر الحياة السياسية الاجتماعية الاقتصادية والثقافية للمواطنين.

كانت نهاية إحياء وتعزيز ثقافة الانتماء المحلي ضربة أخرى لأرمنية، ولقوميات أخرى أيضًا؛ إذ أصبحت اللغة الروسية إلزامية على كل الطلبة. وتم تشجيع الطلبة على الالتحاق بالمدارس الروسية الجديدة، التي افتتحت في أرمنية. فكان أي شخص يرغب

(19) القوميسارية الشعبية للشئون الداخلية (Narodny Kommissariat Vnutrennikh Del). الجهاز المسئول عن القمع السياسي أثناء حكم ستالين.

في أن يُرقى أو يتقدم في موسكو يشعر أن التحاقه بمدرسة أرمينية سوف يؤدي به إلى طريق مسدود. كما حلت أيضًا الكلمات الروسية محل تعبيرات أرمينية معينة. فقد أصبح الانتماء المحلي محل شجب وإدانة، وحلت محله الوطنية السوفيتية، التي كانت نفسها شكلاً من أشكال القومية الروسية. كما تعرضت روايات رافي الشعبية للإدانة باعتبارها قومية. ووفقاً لما قاله أحد الباحثين، فإن عمليات التطهير أوقفت تماماً عملية إحياء الأدب الأرميني الشرقي. ولم تُستثن الكنيسة أيضاً، فقد تزايدت النشاطات المعادية للدين، وعندما جاءت التقارير بشنق الجاثليق خورين الأول (1933-1938م) Khoren I في إشميادزين، لم يُنتخب جاثليق جديد للكنيسة (حتى عام 1945م). وتعرض الفن التجريدي أيضاً للإدانة. وأصبحت الواقعية الاشتراكية هي المعيار لكل الفنون. وبمرور الوقت، تولى الروس بعض المناصب العليا في الحكومة، وبدأوا ينظرون إلى أنفسهم، ويراهم الآخرون أيضاً. باعتبارهم أعلى مقاماً من غيرهم.

أحدثت الحرب العالمية الثانية تغييرات متعددة في أرمينية: حيث أجبر التهديد النازي ستالين على المصالحة مع الكنيسة، والسعي إلى دعم كل القوميات من أجل الحفاظ على وطنهم الجماعي. فنُشرت مرة ثانية أعمال رافي، وافتتحت الكنائس والمطابع في إشميادزين. وسُمح بإنشاء معهد جديد لتدريب القساوسة. وسُمع لبعضهم أيضاً بالعودة من سيبيريا. وأدى الرعب الذي اجتاح الشعب نتيجة الأعمال الوحشية للنازية إلى نسيان انتهاكات الماضي. واحتشد المواطنون حول الدولة. كانت تركيا تغازل النازيين، ولم تكن زيارات فون بابن المتكررة لأنقرة موضع تجاهل. ودفع الخوف من قيام تحالف تركي-ألماني الأرمن إلى رفض أي تصرف آخر محتمل. كان معظم الرجال الأرمن من أقوياء البنية على الجبهة مع الجيش الأحمر. ولم تكن هناك حماية كافية ضد أي هجوم محتمل من جانب تركيا. وكانت ذكريات الظروف المشابهة خلال الحرب العالمية الأولى لا تزال حية.

شاركت مجموعة صغيرة من الطاشناق في أوروبا الشرقية مع النازيين في مبادرة نابعة منهم. ليس بدافع التعاطف مع هتلر. ولكن ضد روسيا الشيوعية. بهدف تحرير أرمينية. وعلى أية حال كانت أغلبية الأرمن في الاتحاد السوفيتي، وفي المهجر. معارضين لهتلر وشاركوا في القوات المسلحة الأمريكية والمقاومة الفرنسية، وعلى وجه الخصوص في الجيش الأحمر. حيث اشتبكت قوات أرمينية قوامها نصف مليون في أعنف المعارك.

وشملت هذه القوات ستين جنرالاً وأربعة مارشالات من مارشالات الاتحاد السوفيتي العشرة. وكان من بينهم المارشال باغراميان Baghramian. وفقدت أرمينية ما يقرب من 175 ألف في حرب. أسفرت طبقاً لبيانات حديثة عن مقتل نحو 30 مليون سوفيتي. ومع نهاية الحرب، انتخب الجائليق الجديد جيغورج السادس (1945-1954م) Gevorg VI، الذي تعاون عندما كان أسقفاً مع السوفيت في المجهود الحربي. وسُمح له بالإقامة في إشميادزين. وبدأت الكنيسة والدولة حملة إعادة اللاجئين إلى الوطن. وأيد كثير من الأرمن في المهجر، وعلى وجه الخصوص أنصار الرامكافار والهنشاك، العودة إلى أرض الوطن. وجلبت الحملة أكثر من مائة ألف أرمني. معظمهم من اليونان والشرق الأوسط. وكان معظم هؤلاء من المهاجرين، الذين تم ترحيلهم خلال الفترة من 1915-1922م. ولم يرحب السكان المحليون بهم كثيراً، فقد كانوا يشعرون بالاستياء من مشاركتهم في القليل الذي تبقى بعد الحرب. وكانوا قد وصفوهم بسخرية . K Aghbar (والتي تعني بتعبير أفضل ” الأقارب الفقراء“). وفي عام 1948م، مع بداية الحرب الباردة، أدى عدم قابليتهم للتكيف مع الحياة والتفكير بالأسلوب السوفيتي إلى جعلهم محل ريبة، ونفي عديد منهم إلى سيبيريا.

أثار ستالين القضية الأرمينية من جديد. وبدأت تركيا، التي كانت علاقاتها طيبة مع السوفيت حتى منتصف الثلاثينيات، تتقارب مع النازيين في أواخر الثلاثينيات. وبعد الحرب كانت معزولة دولياً. وطلب ستالين إعادة كارس وأردهان، اللتين كان يراهما من المناطق الروسية، التي اكتسبت عام 1878م وفُقدت عام 1921م. ولم يكن حافز ستالين له علاقة بالأرمن، حيث قيل إن المنطقة سيتم ضمها لجمهورية جورجيا. بل إن القضية الأرمينية استُخدمت كمجرد غطاء لسياسة ستالين التوسعية في الشرق الأوسط (والتي ظهرت أيضاً في ردود الأفعال السوفيتية، المتعلقة بدعم الشيوعيين الأذربيجانيين الإيرانيين)، وهكذا أقرت موسكو عودة الأرمن إلى الوطن. ونشر أحداث إبادة الأرمن. ودفعت سياسة ستالين تركيا للسعي للحصول على مساعدة من الولايات المتحدة، وانتهى الأمر بدخول تركيا في التحالف الغربي. فانضمت إلى منظمة حلف شمال الأطلسي NATO، ووضعت القضية الأرمينية على الرّف. وسرعان ما تغيرت أيضاً سياسة الكرملين تجاه الأرمن، فتعرض العائدون إلى الوطن للاشتباه. وحُظرت الكتب الخاصة بالإبادة

الأرمنية. ومع حلول عام 1950م وضعت الشيوعية في الصين والحرب الكورية نهاية للتعاون السوفيتي مع حلفاء سابقين، وتزايد التفكير بعقلية الحرب الباردة. ومثلما كان الأمر في العصور القديمة والوسطى، أصبحت أرمنية معلقة مرة أخرى بين قوتين عظميين. وفي حالة حدوث حرب، فإن الصواريخ الأمريكية في أرمنية الغربية (شرق تركيا) سيتم نشرها في مواجهة أرمنية الشرقية والعكس بالعكس. وتوقف عملياً الاتصال بين أرمنية والمهجر. وبدأ ستالين في تشديد الأحكام على أية تعبيرات متعلقة بثقافة الانتماء المحلي. وتم حظر أعمال راقي مرة أخرى، وتم إبلاغ الكُتّاب والمؤلفين الموسيقيين العصريين، مثل أرام خاتشادوريان، أن أعمالهم تتسم بثقافة الانتماء المحلي أكثر مما يجب، وتفتقر إلى روح الطبقة العاملة. وأدت عملية تطهير جديدة إلى نقل أنصار الطاشناق محل الريبة من أرمنية إلى آسيا الوسطى.

كان لسياسات ستالين تأثير اجتماعي اقتصادي عظيم على أرمنية: حيث شُجعت الصناعة. وبدأ الفلاحون في الوصول إلى المدن. وتزايد التعداد السكاني في الحضر. وتغيرت أرمنية ببطء من الاقتصاد الزراعي إلى الصناعي. واستمرت عملية التغيير حتى أواخر السبعينيات. وتغيرت يريفان أيضاً. فقد تحولت المدينة المتربة إلى مركز مدني رئيسي. حيث صممها المخطط المدني والمعماري ألكسندر تامانيان Alexander Tamanian. فخططت الطرق وأنشئت دار الأوبرا، ومتاحف، وسجلات وأرشيفات قومية، ومباني حكومية. وتم تعبيد العديد من الطرق. كثير منها بالأحمر والأحمر البرتقالي والأصفر وحجر القوفة البركاني ذي اللون الأرجواني الساحر. الذي يعطي يريفان منظرها المتميز. كان تخطيط الاقتصاد السوفيتي قد وضع بحيث يعزز الاعتماد المتبادل بين الجمهوريات. بتخصيص إنتاج منتجات معينة لكل منطقة، ولم تشعر أرمنية وجمهوريات صغيرة أخرى بالتأثير الكامل لهذه الإجراءات إلا مع استقلالها بعد أربعة عقود من تلك الأحداث.

خروشتشيف والأرمن

كان موت ستالين عام 1953م بداية عصر جديد لأرمنية وبقية الاتحاد السوفيتي. وكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل. هي نزع السيطرة الهائلة للشرطة السرية. فتم إعدام برياً. وأطيح بقيادة أنصار القوميسارية الشعبية للشئون الداخلية في الاتحاد السوفيتي

وشمل ذلك أرمينية، وأصبح سورين توفماسيان Suren Tovmasian الزعيم الجديد للحزب الشيوعي الأرمني، وتولى السلطة حتى عام 1960م. وكان توفماسيان متشددًا. وهكذا لم يكن هناك إلا القليل من التغيير من الناحية السياسية في أرمينية. خلال فترة رئاسته للحزب. لكن حدثت تغيرات على المستويات الاجتماعية والثقافية. وأدى هجوم نيكيتا خروشتشيف على ستالين وجرائمه، بمساندة ميكويان Mikoyan ، الذي كان في ذلك الوقت عضوًا رفيع المنزلة في المكتب السياسي للحزب. إلى رد اعتبار الشيوعيين الذين ماتوا، مثل خانجيان Khanjian وتشارنتس Charents. وإطلاق سراح الآلاف من المنفى السيبيري (gulag)، وإعادة نشر أعمال رافي وپاتكانيان Patkaniyan. ونُقل جثمان ستالين من قبر لينين في الميدان الأحمر؛ وأزيل تمثاله الضخم من أرمينية. وفيما بعد أُقيم مكانه تمثال يمثل "أرمينية الأم". وأقر الحزب مرة أخرى اللغة والثقافة الأرمينية. وظهرت سياسة جديدة "للانتماء المحلي". وجاء الأرمن من مناطق أخرى بالاتحاد السوفيتي إلى يريفان، كما جاء بعض الأرمن من إيران. وأدت تلك الأوضاع إلى تحسين سبل العيش بالنسبة للعائدين السابقين إلى الوطن، حتى أن البعض سُمح له بالهجرة إلى الغرب.

وكانت تغييرات خروشتشيف في القطاعات الاقتصادية ذات شأن أيضًا بالنسبة لأرمينية؛ حيث قُسمت المزارع الجماعية الكبيرة إلى مزارع أصغر. وسُمح لأرمينية بأن تزرع محاصيل أخرى إلى جانب الحبوب. وتم زراعة الطباق والخضروات والعنب وفواكه أخرى. كانت مناسبة أكثر للتربة والمناخ في أرمينية. ومُنح الوزراء المحليون المسؤولون أمام موسكو مزيدًا من سلطة صنع القرار. وتم تعيين مديرين أفضل من الناحية الثقافية. كان المستهلك السوفيتي قد ضحى طوال عقود بحاجته من السلع الأساسية من أجل تحقيق النمو الصناعي والدفاع عن البلاد. ورغب الفلاحون والعمال من كل القوميات بقوة في التخلص من هذا الحرمان. وفي عصر خروشتشيف، بدأت السلع الاستهلاكية في الظهور. وسُمح للفلاحين بزراعة مساحات صغيرة للاستخدام الشخصي. وأدى إنتاج الثروات الحيوانية ومشروعات أخرى مختلفة إلى زيادة الناتج الزراعي لأرمينية. لكن نقص الأرض الزراعية كان يعني أن مزارع أرمينية أقل إنتاجًا من جيرانها. فكان لابد من الاعتماد على جمهوريات أخرى: للحصول على ما يكفي من الغذاء. كانت قوة أرمينية في القطاع الصناعي الذي تفوق على مثيله في جورجيا وأذربيجان. وعند بداية

أرمنية السوفيتية. كان 80 في المائة من سكانها يشتغلون بالزراعة. وبعد سبعة عقود من الزمان أصبح ما يقرب من 80 في المائة من سكانها يعيشون في مراكز حضرية ويشتغلون بالصناعات الثقيلة والإدارة والخدمات. بدأت جهود خروشتشيف لتفكيك البيروقراطية الستالينية وإطلاق تجارب في القطاعات الاقتصادية والسياسية. تؤدي إلى نشأة صراع حول السلطة في بداية الستينيات. عُين ياكوف زاروبيان Iakov Zarobian. الذي لم يكن على صلة بالنظام القديم. مسئولاً في أرمينية. وصعدت إلى السلطة مجموعة من المفكرين والمديرين. ورغم تبعيتهم لموسكو. فإنهم وضعوا مصلحة أرمينية في مقدمة أولوياتهم. وفي عام 1965م بزغ نوع جديد من القومية. اعتزاز واثق بالتقدرات والمهارات والإنجازات الأرمينية. وكان لهذا تأثير ثقافي وسياسي كبير على الأرمن خلال العقدين التاليين.

بريچنيف والأرمن

أدى إقصاء خروشتشيف عام 1964م إلى مرور الاتحاد السوفيتي بفترة طويلة من الركود حيث توقفت فجأة الإصلاحات والمنهج التجريبي. وتحت قيادة ليونيد بريچنيف تم ببطء إعادة عديد من البيروقراطيين الستالينيين إلى الكرملين. وأيضاً إلى بقية البلاد. وفي عام 1966م. أعلن وضع أنطون كوتشنيان Anton Kochinian موظف الحزب النموذجي. مسئولاً عن أرمينية. لكن الباب الذي فتحه خروشتشيف. المتعلق بطلب السلع الاستهلاكية والحرية الفنية. بالإضافة إلى الاعتزاز القومي. أصبح من الصعب إغلاقه آنذاك بالكلية. وعلى العكس. بدأ نظام بريچنيف عهداً من "إهمال النفع العام". فكان مسموحاً لقيادات الأحزاب المحلية. المنتمين إلى موسكو. والذين يحظون بحماية كبار الموظفين الستالينيين. بدرجة كبيرة من الاستقلال في إدارة شؤون جمهورياتهم. وطالما تم إنجاز حصص الإنتاج ولم يكن هناك اضطراب. كان المركز نادراً ما يتدخل في الأحداث المحلية. وكنوع من التنازل أمام المشاعر القومية الأرمينية. وأهل الفكر الأكثر تحرراً. سمح زعماء الحزب ببناء صروح تذكارية لأبطال ساردار آباد. وضحايا الإبادة الأرمينية. وجنرال أندرانيك Andranik وفاردان ماميكونيان Vardan Mamikonian. وطُبعت كتب عديدة عن التاريخ والأدب الأرميني. وكانت أحداث الإبادة الأرمينية وتاريخ العشرينيات من القرن الماضي تُناقش بصورة أكثر صراحة من ذي قبل. ولو أن ذلك كان مع استمرار بعض القيود.

وبدأ جيل جديد من الكُتّاب والفنانين . مثل: باروير سيفاج Baruir Sevag وجيفورج أمين Gevorg Emin وهوفهانيس شيراز Hovhannes Shiraz وميناس أفتسيان Minas Avetisian وهاجوب هاجوييان Hagop Hagopian . عصرًا جديدًا من الفنون والأدب الأرمني . وكشف إحصاء للسكان . أجراه السوفيت في السبعينيات . أن أكثر من 99 بالمائة من الأرمن في الجمهورية يعتبرون لغتهم القومية هي اللغة الأرمنية . لا الروسية . حتى الأكراد والأشوريين⁽²⁰⁾ والأذربيجانيين . الذين يعيشون في أرمينية كانوا يتحدثون اللغة الأرمنية . ولم تحظ جمهورية أخرى بما حظيت به أرمينية من ارتفاع نسبة السكان . الذين يعتبرون لغتهم القومية الوسيلة الأساسية لهم في الاتصال . ومع حلول السبعينيات . أصبح الأرمن يشكلون 90 بالمائة من التعداد السكاني للجمهورية . وهي نسبة أعلى من أية مجموعة عرقية أخرى تعيش في جمهوريتها .

ولكن بقيت حقيقة مزعجة . وهي أنه رغم هذا كان الأرمن لا يزالون . بعد اليهود . أكثر القوميات تفرقًا في الاتحاد السوفيتي . حيث عاش في أرمينية الثلثان فقط من مجموع الأرمن في الاتحاد السوفيتي . وظل الثلث الباقي بصورة أساسية في جورجيا وأذربيجان وروسيا . ولذلك . بينما كان الأرمن في أرمينية يتقدون حماسًا مع اعتزازهم بقوميتهم . كان الكثير من الأرمن خارج الجمهورية يتحولون إلى مواطنين روس .

أصبحت السياحة جزءًا مهمًا جدًا من اقتصاد أرمينية السوفيتية . حيث تشجع الأرمن من المهجر على القدوم إلى أرض الوطن . ومشاهدة أولى مراحل التقدم . وفتحت فنادق ومتاحف ووُضعت نظم لتبادل العملة . وشكلت لجنة خاصة لتوثيق العلاقات الثقافية مع الأرمن في كل مكان خارج البلاد . واتخذت مبنى حكومة الطاشناق المستقلة السابقة في يريفان مقرًا لها بصورة رمزية . وحتى الطاشناق تم الترحيب بقدومهم إلى أرمينية لرؤية تلك التغييرات الكبيرة بأنفسهم . وطُبعت كتب دراسية أرمينية للمدارس الأرمينية في المهجر وتم إرسالها مجانًا وبلا مقابل . وكذلك الصحف والدوريات والكتب الأخرى . التي كانت تُطبع في يريفان .

(20) في العصر الحديث . الأشوريون هم مجموعة عرقية . تنتمي إلى أصول آشورية وأرامية . لكن خلال القرن الماضي هاجر كثير منهم إلى القوقاز وأمريكا الشمالية وأوروبا الغربية . ونتيجة الاضطهاد العرقي . يعيش الآن مئات الآلاف منهم في المهجر . وفي مجتمعات اللاجئين العراقيين في أوروبا والاتحاد السوفيتي السابق والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا وسوريا والأردن ولبنان . وقد تعرضوا لمذابح وإبادة جنس . مثل الأرمن إبّان الحكم العثماني التركي . في أوائل القرن العشرين . (المترجمة)

استمرت الصناعة تتقدم بخطوات كبيرة في أرمينية، وانتقل مزيد من الناس إلى المدن. كان مفاعل ميدزامور النووي قد أنشئ في السبعينيات لتلبية الحاجة للحرارة والكهرباء ليس فقط في أرمينية، ولكن أيضاً في جورجيا وأذربيجان. وكما تزايد الإنتاج الصناعي الأرمني وفاق مثيله في جورجيا وأذربيجان، تزايدت معدلات التلوث والأضرار البيئية. وأصبح من الصعب على المرء أن يرى من يريفان جبل أرارات، الذي أصبح يحجبه ستار كثيف من الدخان، كما أصبحت معدلات الإصابة بمرض السرطان في تزايد. وأعلن أن كل نهر رئيسي في أرمينية قد أصبح مدمراً من الناحية البيئية. وأدت المشروعات رديئة التخطيط إلى انخفاض مستوى المياه في بحيرة سيفان.

ومن التطورات المزعجة الأخرى، التي أدت إليها سياسة إهمال النفع العام التي اتبعتها بريجنيف. تجمعات وقواعد السلطة التي تشكلت من القيادات الشيوعية المحلية. انتشر الفساد. وأدى نمو اقتصاد تحتي إلى نشأة سوق سوداء. تخدم الذين يستطيعون تحمل قيمة البضائع الأجنبية والامتيازات المطلوبة. وظهر على قوائم الرواتب عمال غائبون. ونال بعض الأفراد أكثر من وظيفة واحدة. وأصبحت المواد والبضائع المسروقة من الحكومة شيئاً مألوفاً. وبنيت منشآت رديئة، وتم إنتاج المنتجات المتواضعة لمجرد الوفاء بالحصص المطلوبة. وراح الأسمت والصلب يحول من المدارس وغيرها من المباني الحكومية إلى البيوت الخاصة. وسُرقت مواد الطلاء والأبواب والنوافذ وأطعم الحمامات ومواد أخرى: حيث تم بيعها أو استخدامها مقاولون من القطاع الخاص. ووافقت قيادات الحزب من أجل منافع شخصية وترقيات على مشروعات ضارة بأرمينية اقتصادياً وبيئياً. وأصبحت المضاربة والرشوة شيئاً مألوفاً. وشكلت شبكة العلاقات والاتصالات بين الأفراد أهمية أكبر كثيراً من التدريب أو المعرفة أو الموهبة. حتى الجامعات لم تكن مستثناة من الفساد. وكان هناك أساتذة جامعيون، معروف عنهم أنهم يمنحون الدرجات مقابل المنافع الشخصية. وهاجر المثقفون والمثزمون - الذين لم يستطيعوا التأقلم مع زُمر يريفان - إلى جمهوريات أخرى حيث كانت مواهبهم وإمكاناتهم محل تقدير، وحيث حصلوا على مناصب رفيعة في الإدارات المحلية. وفي الوقت نفسه، أوجد هذا المناخ الذي اتم بحرية أكبر، نخبة جديدة من أهل الفكر والثقافة، الذين احتقروا الأوضاع السائدة،

والذين شعروا أن الفساد وهجرة الموهوبين والتلوث والانحطاط العام للأخلاق قد وضع أرمينية على طريق كارثة: فالفساد فيما وراء القوقاز وآسيا الوسطى تجاوز مثله في كل الجمهوريات الأخرى، ووصل في النهاية إلى أبعاد لا يستطيع الكرملين أن يتجاهلها.

أدت الأنشطة المضادة للسوفيت. من قبل قليل من المنشقين. إلى تحية كوتشنيان Kochinian عام 1974م. وحل محله كارين ديميرجيان Karen Demirjian. الذي كان قد تعلم في روسيا وكانت مهمته هي ”تطهير“ الجمهورية. اتخذ ديميرجيان إجراءات صارمة ضد الفساد، وبدأ تنفيذ مشروعات كبرى، مثل: إنشاء مترو الأنفاق والمجمع الرياضي والمطار الجديد. وضاعفت وعود ونشاطات ديميرجيان من آمال المتقنين، الذين كانوا يطالبون في ذلك الوقت بتغييرات ملموسة. وأعطى عدد منهم دوراً في الإدارة. وبدأ نوع من التحالف المضطرب. لكن النظام السوفيتي كان محصناً جداً. ولقيت حكومة ديميرجيان انتقادات من بعض الأرمن لتحررها ببطء شديد.

وفي عام 1978م. وخلال الجدل حول دستور سوفيتي جديد. تقدم آلاف الأرمن بالتماس فاشل لموسكو لفصل إقليميّ كاراباغ الجبلي وناخيتشيفان عن أذربيجان. وفي الوقت نفسه، وعندما كانت موسكو تدرس اقتراحاً بتغيير جزء من الدستور والغاء استخدام اللغات القومية كلفات رسمية للجمهوريات، احتج الأرمن والجورجيون معاً بعنف، وهزموا الاقتراح. وسرعان ما بدأت الكلمات الأرمينية تحل محل المصطلحات الروسية. وعاودت القومية الأرمينية الظهور من جديد، ولكن ليس مثل القوميات في جمهوريات البلطيق وجورجيا، فلم تكن موجّهة ضد الروس. ولكن ضد الأتراك، وسمحت حكومة ديميرجيان بالتعبير عنها طالما أنها لم تكن بصورة صريحة جداً. أصبح يوم 24 إبريل يوماً رسمياً للحداد، ونُشرت كتب عدة حول الأوضاع في كاراباغ وتدمير الصروح الأرمينية في ناخيتشيفان. وفتحت القضية الأرمينية أيضاً بصورة غير رسمية في بعض الدوائر. وأصبحت الكنيسة تحت قيادة الجاثليق فازجن الأول (1955-1994م) Vazgen I أكثر نشاطاً، وزار الجاثليق كثيراً من الجاليات الأرمينية في المهجر. وفي أرمينية، بُنيت كنائس جديدة ورُممت كنائس قديمة ومعالم تاريخية، وظهرت أعمال دينية. وجاءت أعداد من

الكهنة الأرمن من الخارج للدراسة في إشميادزين. وكذلك رجال ونساء أرمن من المهجر، معظمهم من الشرق الأوسط. خصوصاً أولئك المنتمين إلى الهنشاك والرامكافار، جاءوا ليدرسوا في جامعة يريفان. ويُنظر الآن إلى سنوات حكم دميروجيان (1974-1988م) على أنها العصر الذهبي لأرمنية السوفييتية.

الانشقاق السياسي في أرمنية السوفييتية

ما لم يكن يدركه معظم الأرمن في المهجر، هو بداية حركة انشقاقية في أرمنية. والتي أعلنت عن نفسها مع حلول عام 1967م. حيث شكلت مجموعة من الشباب الأرميني. الذين كانوا قد ضجروا من الشيوعية. واستاءوا من الأنشطة العقيمة للأحزاب السياسية الأرمنية في المهجر. والتي كانت أحياناً من أجل مصالح شخصية. شكلوا حزباً سرياً في أرمنية. ومما يدعو إلى السخرية أن هذا الإعلان جاء في الذكرى الخمسين لقيام الثورة البلشوية. وطالب الحزب الذي أطلق على نفسه اسم حزب الوحدة الوطنية باستعادة ناخيتشيقان وإقليم كاراباغ الجبلي وأرمنية الغربية. وإقامة دولة ديمقراطية مستقلة. وفي عام 1974م. تمكن هذا الحزب من أن يُصدر بشكل غير قانوني عدداً واحداً من صحيفة. ومظاهرة احتجاج قام خلالها أعضاء الحزب بحرق صورة لينين بالميدان الرئيسي في يريفان. وتم توجيه اللوم لكوتشنيان لعدم قمع الحركة. وتم إعاؤه من منصبه. وقام البوليس السري باعتقال بعض الناشطين الأرمن.

وسرعان ما انقسمت المجموعة إلى فصيلتين. أولاهما بقيادة ستيبان زاتيكيان Stepan Zatikian. والذي دعا إلى القيام بأعمال عنف ضد النظام السوفييتي. وقيل أنهم وضعوا قنبلة في نفق المترو بموسكو. واعتقل بعض أعضاء هذه الفصيلة وتم إعدامهم. أما الفصيلة الأخرى التي كانت تتكون من المعتدلين. فأصبحت ناشطة كمجموعة لحقوق الإنسان. تراقب الحقوق المدنية بناء عن اتفاقية هلسنكي عام 1975م. وطالبت بدرجة من حق تقرير المصير لأرمنية. وتحرير كاراباغ من السيطرة الأذربيجانية. ووضع نهاية للفساد والتلوث الصناعي والنووي. وظلت قضية كاراباغ هي أكثر القضايا تَجَرُّاً. ومع

ذلك، فقد بقي الإقليم . بما يضمه من أغلبية أرمنية تصل إلى 80% من عدد سكانه . تحت هيمنة السلطة الأذربيجانية التي . بالتناقض مع وعدهم بالحكم الذاتي للإقليم . ربطته بشكل وثيق مع عاصمتها باكو. كان نحو 125 ألف أرمني. رغم كل النوايا والمقاصد. منقطعين عن ثقافتهم. وأدى رفض يريفان أو باكو أو موسكو التحرك لحل قضية كاراباغ إلى تقوية المعارضة الأرمنية.

جورباتشوف والأرمن

كان موت بريجنيف في عام 1982م فاتحة لعصر من التغيير. لم يسبق له مثيل. حيث أصبح رئيس المخابرات السوفيتية (KGB). يوري أندروبوف. رئيساً للاتحاد السوفيتي محل بريجنيف. وبدأ في إحكام سيطرة الدولة على المجتمع. وقام بمحاولات جادة لقمع الفساد. وبعد وفاته في 1984م. قام وريته قسطنطين تشيرنكو. الذي انتخب من جانب الأعضاء الأكبر سناً في اللجنة المركزية للحزب. بمحاولة فاترة لتحريك إجراءات أندروبوف الصارمة في الاتجاه المعاكس. ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان. فقد كانت الدولة تتخلف تدريجياً عن الغرب اقتصادياً وتكنولوجياً. وبرزت زعامة مثقفة جديدة لشخص. كان قد سافر وتعلم خارج البلاد. شعر أن النسيج الكلي للمجتمع السوفيتي لا بد وأن يتغير. إذا كان يرغب في المنافسة بنجاح ضد الغرب في القرن الحادي والعشرين. وقدم موت تشيرنكو بعد عام الفرصة لنخبة جديدة من المفكرين السياسيين لفرض نفسها. حيث انتخب ميخائيل جورباتشوف. الذي حظي بمساندة الجيل الجديد من الزعماء الشيوعيين. ليقود البلاد عبر طريق مختلف تماماً، حيث وضع جورباتشوف. ”الشيوعي الجديد“. مخططاً للإصلاح الكامل للنظام السوفيتي. واعترز أن يعيد بناء النظام الاقتصادي (البيروسترويكا) ويسمح بالتعبير الاجتماعي الحر (الجلازنوست) ويدخل نظام اللامركزية السياسية في الحكم. ورغم أنه عارض انفصال الأقليات عن الاتحاد السوفيتي. وعد جورباتشوف بمنحهم استقلالاً ذاتياً أكبر من الناحيتين السياسية والثقافية.

وفي بداية عام 1988م. شجعت تصريحات جورباتشوف. بالإضافة إلى عدد من التصريحات للزعماء الأرمن في أرمنية وروسيا. الأرمن في إقليم كاراباغ الجبلي على القيام بمظاهرات سلمية. وطالبوا بأن يكون الإقليم جزءاً من أرمنية. وفي يوم 20 فبراير

أدلى المواطنون السوفيت في كاراباغ بأصواتهم، خلال استفتاء وافقوا فيه بأغلبية ساحقة على ضم الإقليم لأرمنية. وتبع ذلك في اليوم نفسه مظاهرات ضخمة في يريفان. وفي الأيام القليلة التالية، قامت مظاهرات أخرى في يريفان وستيبانكيرت عاصمة إقليم كاراباغ الجبلي إبان العصر السوفيتي. ولم يستجب للمطالب لا موسكو ولا السلطة في يريفان. وجاءت الإجابة من أذربيجان، عندما سُمح للأذريين في سومجيت Sumgait. وهي مدينة صناعية شمال باكو. خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر فبراير، بتنفيذ مذبحه مدبرة قاموا خلالها بقتل واغتصاب وإعاقة وحرقت مئات من الأرمن ودمروا ممتلكاتهم. وأعدت هذه المذبحة، التي وقعت بتشجيع من باكو (عاصمة أذربيجان) وتحت مرأى ومسمع من رجال البوليس، إلى الذكرى المذابح التي جرت بين عامي 1895 ، 1896م. وأدت نظرة موسكو المتراخية تجاه أحداث سومجيت إلى إثارة حنق الأرمن في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي وتحولهم ضد جورباتشوف. ولأول مرة منذ عشرات السنين، أصبحت القومية الأرمنية. رغم معارضتها في الأصل في الكرملين. أصبحت معادية في لهجتها للقومية الروسية. وكانت هناك تقارير غير مؤكدة تشير إلى أن هذه الأحداث لقيت ترحيباً من جانب جورباتشوف، الذي رغب في نزع الثقة عن الأجهزة الفاسدة، فيما وراء القوقاز ووسط آسيا، وهي الأجهزة التي كانت محصنة جيداً وتقف بقوة وحزم ضد إصلاحاته.

وفي أواسط عام 1988م، تم تعيين سورين هاروتيونيان Suren Harutiunian محل دميروچيان. وكان الرئيس الجديد قد خدم في موسكو، وكان غير تابع لما يسمى ”بالمافيا“ في يريفان. وكان الشعب يراه كمجرد شيوعي آخر، يخدم نظاماً فقد مصداقيته مع الشعب الأرمني. ومع نهاية العام انقسم الأرمن من أهل الرأي: حيث طالب البعض الجماهير بأن تهدأ وتعتمد على إصلاحات جورباتشوف في إحداث تغيير تدريجي. مذكرين إياهم بأن وضع الأرمن التقليدي هو الاعتماد على روسيا. والبعض الآخر. الذي كان تحت قيادة لجنة كاراباغ والاتحاد: من أجل حق تقرير المصير القومي والاتحاد القومي. والذين اتخذ جميعهم من يريفان مقراً، بالإضافة إلى لجنة كركي في كاراباغ. والذين كانوا على قناعة بأن موسكو لن تغير اهتماماً لأية اعتبارات تاريخية أو سكانية أو ثقافية أو حتى قانونية لمصلحة دمج كاراباغ مع أرمنية. طالبوا بمزيد من التغييرات العاجلة، ولكن ليس بالانفصال. وفي أعقاب أعمال العنف التي وقعت بين القوات السوفيتية والمتظاهرين في يريفان، فقد هاروتيونيان أي تأييد كان قد حصل عليه. ورغم أن موسكو اعترفت بأن

الأذربيجانيين قد انتهكوا الحقوق الدستورية للأرمن في كاراباغ. ووعدوا بإرسال مبعوثين من موسكو لتقييم الوضع، فإن رفض مجلس السوفيت الأعلى لطلب كاراباغ بالانضمام إلى أرمينية ضاعف من حالة التوتر. واندلعت مسيرات حاشدة وإضرابات في يريفان. ومظاهرات مضادة في باكو. ومع نهاية عام 1988م، فرضت الحكومة حظر تجول يومي في أنحاء أرمينية. وبينما فقدت الحكومة الشيوعية المصداقية. كسبت لجنة كاراباغ الاحترام، وفي الواقع أصبحت اللجنة حكومة غير رسمية.

وفي ظهر 7 ديسمبر 1988م، ضرب زلزال رهيب شمال غرب أرمينية، وأسفر عن موت 25 ألف شخص، وإصابة وتشريد مئات الآلاف. كان جورباتشوف في نيويورك. وأدت عودته العاجلة، بالإضافة إلى ما تبع هذه العودة من تغطية الصحافة الدولية للحدث إلى جذب أنظار العالم تجاه أرمينية. وتحدث لجنة كاراباغ بقيادة أشوت مانوتشاريان Ashot Manuchrian، وليغون تير پتروسيان Levon Ter Petrossian، وفازجن مانوكيان Vazgen Manoukian، سلطات الدولة بتنظيم جهود إغاثة ذاتية، ورغم الكارثة. استمرت تطالب بحل مشكلة كاراباغ. واعتقل أعضاؤها الأحد عشر بأوامر من موسكو. وأعلنت الأحكام العرفية، وحث جورباتشوف وأيضاً الجائليق الأرمني وعدد من المثقفين الشعب الأرمني على التزام الهدوء، ووعدوا بإعادة نظر شاملة للوضع في كاراباغ.

وفي شهر يناير عام 1989م، أرسلت موسكو أركادي فولسكي Arkady Volskii الذي تولى إدارة كاراباغ من أذربيجان. وفي الوقت نفسه، كان جورباتشوف يواجه معضلة. فإذا وقف بجانب المصلحين الأكثر راديكالية (الداعين إلى إصلاحات جذرية) - مثل بوريس يلتسين الرئيس السابق للحزب في موسكو. فسيكون مجبراً على تأسيس دولة تتمتع بمزيد من الديمقراطية، مع خفض سلطة الحزب. ومثل هذا الإجراء سيؤدي حتماً إلى الاستقلال التام لبعض الجمهوريات، وخصوصاً دول البلطيق. وإذا وقف إلى جانب المحافظين فلا بد وأن يفرض بالقوة سطوة الحزب. ويحتفظ بالوضع الراهن ويقمع الانشقاقات القومية. وأدى هذا الصراع إلى تقسيم الاتحاد السوفيتي. ورغم أن الانتخابات الجديدة جلبت مزيداً من الليبراليين إلى مجلس السوفيت الأعلى، كان جورباتشوف لا يزال مجبراً على الاحتفاظ بالتوازن الحساس بين هؤلاء الذين يرغبون في التغيير السريع، وأولئك الذين يفضلون تغييراً أبطأ، وأولئك الذين يعارضون إحداث أي تغيير على الإطلاق.

ومع حلول شهر مايو 1989م، تحققت موسكو من أنه ليس لديها خيار سوى إطلاق سراح أعضاء لجنة كاراباغ، الذين كانوا بمثابة أبطال قوميين بالنسبة للأرمن. وفي غضون ذلك، أدى إضراب عام في كاراباغ إلى تفاقم مشكلات الحصار الأذربيجاني ضد أرمينية، وتأخير الإمدادات الخاصة بإعادة إعمار ما دمره الزلزال، وتسبب في بعض العجز في الغذاء والوقود. وفي أثناء ذلك، بدأ الأرمن في أذربيجان (ما يقرب من 250 ألف نسمة) في الهجرة إلى روسيا وأرمينية. ومع حلول فصل الخريف شكل مختلف المنشقين الأرمن والمجموعات القومية. أو ما يسمى "الحركة القومية الأرمينية" (ANM) Hayots Hamazgayin Sharzhum، وعلى مدى الأشهر الخمسة التالية، تعايشت الحركة القومية تحت قيادة الأكاديمي ليفون تير پتروسيان Levon Ter Petrossian مع الشيوعيين بزعامة هاروتيونيان. ومع حلول صيف 1989م ازدادت فكرة الاستقلال شعبية، ودافع بعض المنشقين الأرمن السوفيت، بالإضافة إلى أعضاء حزب الطاشناق في المهجر عن استعادة أرمينية التاريخية (التي تضم كاراباغ وناخيتشيفان وأرمينية الغربية). واستمر أرمن آخرون في الإصرار على أن إنقاذ أرمينية يتوقف على الروس، وأن كل ما هو تركي يمثل تهديدًا عظيمًا.

لم توافق قيادة الحركة الوطنية الأرمينية التي يتزعمها تير پتروسيان على ذلك. كانوا يرون من وجهة نظرهم أن استعادة أرمينية الغربية، وحتى ناخيتشيفان مسألة غير واقعية، ولم يحن أوانها بعد. ولن تستطيع أرمينية أن تحقق مثل هذا الهدف دون مساندة قوة عظمى. وهو ما ثبت تاريخيًا أنه وهم. لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة لإقليم كاراباغ، فقد طالب أرمن كاراباغ أنفسهم بحكم ذاتي. لم تكن هذه قضية نزاع حول إقليم، ولكنها كانت إحدى قضايا تقرير المصير. وكان لا بد أن يضع فولسكي في اعتباره رغبات المجلس الأرميني لكاراباغ. وفي الوقت نفسه، استمرت أذربيجان في مطالبتها بإبعاد فولسكي واستعادة السيطرة الأذرية على الإقليم. وفي نوفمبر، أجرى مجلس السوفيت الأعلى تصويتًا لصالح أذربيجان. وأعاد كاراباغ للسيطرة الأذرية.

ومع نهاية عام 1989م، شجع سقوط الأنظمة الحاكمة في أوروبا الشرقية على وقوع اشتباكات بين القوميين والشيوعيين في أذربيجان وجورجيا، وبدأت أنشطة انفصالية

خطيرة في جمهوريات البلطيق. وتسبب موقف موسكو الموالي لأذربيجان في ظهور حركة انفصالية في أرمينية أيضاً. ولم يستطع الزعماء القوميون في أذربيجان السيطرة على الجماهير في باكو أو جنجه. وفي يناير عام 1990م. نظمت الفوغاء مباح مدبرة. قاموا خلالها بقتل وإعاقة مواطنين أرمن، ونهب ممتلكاتهم في تلك المدن. وأرسلت روسيا قوات إلى باكو، واضطر الأرمن الأذريون الباقون إلى ترك كل متعلقاتهم، وفروا إلى روسيا أو أرمينية. وقام الأرمن بالرد على ذلك بمهاجمة مزارعين أذربيجانيين، كانوا يعيشون في أرمينية، وأجبروا عشرات الآلاف على مغادرة البلاد إلى أذربيجان. وهكذا وجد كلا الجانبين أنفسهما أمام أعداد ضخمة من اللاجئين، وفشلت كل الجهود لحل الأزمة من خلال المفاوضات، وبدأ الوضع يخرج عن السيطرة.

وقامت موسكو. خشية حدوث انبعاث قومي وإسلامي في أذربيجان، أكثر من خشيتها من حدوث إحباط أرمني. باستغلال أحداث العنف المدني في باكو لتعيين الشيوعي أياز موتاليبوف Ayaz Mutalibov رئيساً جديداً لأذربيجان. وخلال الأشهر الأربعة التالية، حصلت أذربيجان على مباركة موسكو لسحق المقاومة الأرمينية في كاراباغ. ونشرت القوات الروسية لإخراج الأرمن من قراهم وتوطين أذريين مكانهم.

أدى فقدان أرمينية التام لثقتها في موسكو إلى تحقيق مرشحي الحركة القومية الأرمينية مكاسب كبيرة في انتخابات مايو. وحل علم الجمهورية المستقلة السابقة، ذو الألوان الثلاثة، محل علم أرمينية السوفيتية. وأصبح يوم 28 مايو عيداً قومياً للجمهورية الأرمينية. ورد الكرملين على ذلك بإعطاء باكو مزيداً من السيطرة على كاراباغ، وإرسال دبابات إلى يريفان. أصيبت العاصمة الأرمينية والمقيمون فيها بالذهول وخيبة الأمل، وجاء هذا الفعل بأثر عكسي. ومع حلول شهر أغسطس انتخب ليفون تير پتروسيان رئيساً للبرلمان الأرمني. ثم أعلن أنه في غضون عام ستشهد أرمينية إقامة استفتاء عام على موضوع الاستقلال. لكن تير پتروسيان كان يحاول تجنب المواجهة، فاستخدم تعبير ”مسألة الاستقلال“ بدلاً من ”الاستقلال“، وأيضاً الالتزام بالحدز بقوانين الدستور السوفيتي. كان يعني أن أرمينية كانت الجمهورية الوحيدة في الاتحاد السوفيتي، التي تستخدم الديمقراطية وتجري عملية استفتاء

تمتع بحرية التعددية الحزبية حول هذه القضية. ويتطلب مثل هذا الاستفتاء الحصول على موافقة ثلثي الناخبين على الانفصال عن الاتحاد السوفيتي. شعر عديد من المراقبين الغربيين أن حكومة أرمينية باتباعها الدقيق جداً لنص الدستور قد أوجدت. بشكل متعقل. وضعا يمنع جورباتشوف من إرسال قوات روسية. كما فعل في ليتوانيا. كما أن هذا التصرف سوف يلزم العالم بالاعتراف باستقلال أرمينية. إذا جرت نتائج الاستفتاء ضد موسكو.

كان الشيوعيون الأرمن قد فقدوا ثقة الشعب تماماً في ذلك الوقت، وفرضت الحركة القومية سريعاً سيطرتها على أرمينية. وعلى خلاف الفترة من 1918 إلى 1921م. لم يكن هناك نزاع داخلي خلال الانتقال. ورغم جهود موسكو لخلق صراع تبرر به وجودها العسكري. قام الشيوعيون الأرمن بتسليم مناصبهم دون مقاومة، ولم ينتهز البرلمان الجديد الفرصة للانتقام من الزعماء السابقين. ولا تستطيع جمهورية أخرى أن تفخر بمثل هذا التحول المنظم مثل أرمينية.

انقضت أشهر يتروسيان الأولى كزعيم للبرلمان في نزع سلاح أولئك الأرمن الذين قاموا. نتيجة إبطائهم من الحصار الأذربيجاني والترحيل الإجباري من كاراباغ. ليس فقط بالسيطرة على مراكز شرطة وتكنات عسكرية. ولكن سعوا أيضاً لتفجير نزاع مباشر مع أذربيجان.

وخلال الأشهر الثمانية الأولى من عام 1991م. قام الأذربيجانيون. بمساعدة الجيش الروسي والأسلحة والمعدات الروسية. بإخضاع أرمن كاراباغ لوابل من القذائف والهجمات. والتي وفقاً لما ذكره صحفي ومؤرخ بريطاني كانت مشابهة لأعمال النازية الانتقامية أثناء احتلالها لأوروبا. ومنذ الإجراءات المعادية للأرمن في الفترة من 1903 إلى 1907م. لم يكن هناك أبداً مثل هذا الشعور الخبيث المعادي للأرمن من قبل الحكومة الروسية: حيث قامت طائرات هليكوبتر ودبابات بعمليات قتل ونزع سلاح وطرده مواطنين أرمن من مناطق شاهوميان Shahumian وهادروت Hadrut في كاراباغ. وتم إخلاء قرى عديدة من سكانها الأرمن. وقام الأذريون بقصف مدن جوريس Goris وغانبان Ghapan وسيسيان Sisian ومغري Meghri في زانجيزور داخل الجمهورية الأرمينية. ووقفت صحافة العالم والأمم المتحدة والقوى العظمى صامتة. بينما كان الأرمن من الرجال والنساء والأطفال

يُحاصرون ويقتلون في كاراباغ. وفي غضون ذلك، كان الحصار الأذري يعوق عملية إغاثة اللاجئين من أذربيجان وكاراباغ ومنطقة الزلزال. وأعدت تلك الأوضاع في أرمينية إلى الأذهان بعضًا مما شهدته في عام 1920م، عندما كانت الجمهورية الأولى تحت الحصار.

في هذه الأثناء، كان جورباتشوف يحاول إنقاذ الاتحاد السوفيتي بالتوصل إلى اتفاقية تربط الجمهوريات السابقة مع روسيا. ولكن الجمهوريات السلافية والإسلامية فقط هي التي كانت مستعدة لتوقيع تلك الاتفاقية. في الوقت الذي رفضتها كل من أرمينية وجورجيا ومولدافيا وجمهوريات البلطيق. وقد دفعت أرمينية ثمنًا غاليًا لرفضها. حيث استمرت روسيا في مساعدة أذربيجان واشتد الحصار حول أرمينية. ولما كانت أرمينية تصدر معظم منتجاتها الصناعية إلى روسيا، وتستورد كثيرًا من طعامها من جيرانها، لذلك أصبحت تواجه عجزًا شديدًا. وفي فصل الربيع، أعلنت جورجيا استقلالها وتبعتها أذربيجان في الصيف التالي. وكانت أرمينية مرة أخرى هي آخر منطقة من القوقاز تقرر مسارها المستقبلي، ولذلك كان الاستفتاء المرئى على جانب عظيم من الأهمية.

وقبل توقيع اتفاقية الاتحاد الجديدة، قام المتشددون الشيوعيون، الذين لم تكن لديهم رغبة في رؤية الاتحاد السوفيتي ممزقًا، بمحاولة انقلاب في موسكو في شهر أغسطس 1991م، وتم تحديد إقامة جورباتشوف، الذي كان يقضي عطلة في القرم. ورغم ترحيب الرئيس الأذربيجاني موتالبيوف بالانقلاب، وعدم التزام زعيم جورجيا الجديد زفيد جامساخورديا، فإن أرمينية أعلنت في صراحة مطلقة رفضها الاعتراف بالحكومة التي تولت السلطة. ورغم كل سياسات جورباتشوف المضادة للأرمن، احتفظت أرمينية بمبادئها الديمقراطية، وأعربت عن تأييدها لرئيس روسيا الشرعي ضد المتشددين. ولم ينجح الانقلاب، وعاد جورباتشوف إلى موسكو، وفي يوم 20 سبتمبر أدلى الشعب بأصواته بأغلبية ساحقة (99%) لصالح الاستقلال، خلال الاستفتاء العام الذي جري في هذا اليوم. وفي يوم 21 سبتمبر 1991م، أعلن البرلمان الأرمني بإجماع جميع أعضائه البالغ عددهم 213 عضوًا أن أرمينية دولة ذات سيادة ومنفصلة عن الاتحاد السوفيتي. وهكذا، أعلنت أرمينية أخيرًا استقلالها، وولدت جمهورية أرمينية جديدة. ومن ثم، كانت الخطوة التالية انتخاب حكومة جديدة.

المهجر الجديد

الجالية الأرمنية في العالم أجمع خلال القرن العشرين

مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت الجاليات الأرمنية خارج الإمبراطوريتين العثمانية والروسية وإيران ومصر، إما قد تم استيعابها داخل القوميات الأخرى، أو فقدت تأثيرها الاقتصادي والسياسي وتقلصت إلى تجمعات ضئيلة في عدد من المراكز الحضرية. ودفعت مذابح عامي 1895-1896م، وسياسات السلطان عبد الحميد المعادية للأرمن، عديداً منهم إلى الهجرة من الأناضول، حيث انضم البعض إلى الجاليات الأرمنية في أوروبا والشرق الأوسط، بينما رحل آخرون إلى الأمريكتين. وأدت إبادة الجنس التي تعرض لها الأرمن إلى تدفق آلاف اللاجئين، الذين استقروا في نهاية الأمر في العالمين القديم والجديد. ورغم ذهاب عدد كبير منهم إلى الجمهورية الأرمنية في 1918-1919م. وفي بداية الثلاثينيات، فإن البعض، كما رأينا، هربوا خلال عامي 1920-1921م أو تم ترحيلهم بالقوة على يدي ستالين منذ عام 1936م حتى عام 1939م. كما وصلت أرمنية السوفييتية موجة ثانية من العائدين إلى الوطن فيما بين عامي 1945-1948م تقدر بحوالي مائة ألف نسمة. وثمة موجة ثالثة أقل عدداً في السنوات من 1953 إلى 1965م. ولكن مع حلول عام 1985م، كان ما يقرب من نصف عدد العائدين إلى أرمنية فيما بعد الحرب العالمية الثانية قد هاجر مرة أخرى إلى الغرب. وأدت الثورات والحروب الأهلية التي اجتاحت آسيا وشمال أفريقيا، على مدى العقود الأربعة التي تلت الحرب العالمية الثانية، إلى تناقص أعداد الجاليات الأرمنية هناك. وتضخم حجم المهجر الأرمني في أوروبا وأستراليا والأمريكتين. وأجبر الحرمان الاقتصادي الذي أعقب سقوط الاتحاد السوفيتي نحو مليون أرمني على الهجرة إلى روسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا. وهكذا، أفضت الأحداث التاريخية التي وقعت في الأعوام المائة الأخيرة إلى النموذج، الذي بواسطته استعاد المهاجرون الجدد شباب المهجر الأول بإحياء الهوية الأرمنية لتلك الجاليات. وفي الوقت الحاضر، فإن الأرمن واليهود وعدة جماعات أخرى هم فقط الشعوب التي لديها من

يعيشون في المهجر أكثر ممن يعيشون في بلدهم²¹. حيث يُقدَّر تعداد الأرمن في العالم كله بأكثر من سبعة ملايين أرمني. لا يعيش منهم داخل الجمهورية الأرمنية إلا نحو 2.5 مليون نسمة. وعلى غرار اليهود. فإن الأرمن موجودون تقريباً في جميع دول العالم. وفيما يلي أقدم مسحاً يبين بالتفصيل معظم هذه الجاليات.

أوروبا الشرقية

واجهت الجاليات الأرمنية الكبيرة في أوروبا الشرقية . والتي تم تناولها بالتفصيل في الفصل السابع عشر . ضغوطاً عظيمة بعد عملية الإصلاح المضاد، واندمجت ببطء ولكن بثبات في هذه القوميات. ومع حلول القرن العشرين، تضاعف عدد الأرمن في أوروبا الشرقية من نحو ما يزيد على نصف مليون إلى أربعين ألفاً بالكاد. جاء معظمهم نتيجة زواج مختلط، فكانت معرفتهم بتراثهم الأرمني قليلة أو منعدمة.

بولندا

رغم أن بولندا كانت مركزاً الأكبر جالية أرمنية في أواخر القرون الوسطى. فقد تناقصت الجالية الأرمنية البولندية قبيل الحرب العالمية الثانية. وتركز الأرمن في مدينة لفوف Lvov. حيث كانت كاتدرائية أرمنية وقسيس أرمني يلبيان احتياجات الجالية. لكن معظم الأرمن البولنديين تحولوا إلى الكاثوليكية. وفي عام 1938م مات الأسقف الأرمني الكاثوليكي. وبعد ذلك مباشرة أهلكت الحرب العالمية الثانية الجزء الأكبر من الجالية الأرمنية (كاثوليك ورسوليون) في بولندا، وأصبحت لفوف في أعقاب الحرب جزءاً من أوكرانيا.

لكن الروابط الأرمنية مع بولندا استمرت وثيقة: حيث انجذب بعض الطلاب الأرمن من الاتحاد السوفيتي وأرمنية السوفيتية إلى الحرية النسبية التي كانت تتمتع بها بولندا الشيوعية، فترجوا بولندياً واستقروا في وارسو. وفي أعقاب انهيار النظام الشيوعي تدفق مهاجرون أرمن إلى بولندا بطريقة غير شرعية. ويوجد هناك حالياً نحو 100 ألف أرمني يعيشون في حوالي ست مدن بولندية من بينها جدانسك ووارسو وكراكوف. وعمل

(21) مرة أخرى نؤكد على اختلافنا مع المؤلف في اعتبار اليهود أصحاب قومية واحدة. لها وطن أصلي. حيث إن الدبابات تنتشر في جميع البلدان. ولا علاقة لها بالقومية. (المترجمة)

كثير من هؤلاء بائعين جائلين، بينما افتتح آخرون مقاهي وحانات صغيرة، وجذبت الأعداد الكبيرة انتباه الكنيسة الكاثوليكية، وتحولت كنيسة كاثوليكية في جليفايس Gliwice. أنشئت في القرن الخامس عشر. مؤخرًا إلى كنيسة كاثوليكية أرمنية. وهذه هي الكنيسة الأرمنية الوحيدة في بولندا، ويخدمها كاهن بولندي يتحدث الأرمنية، وبلا شك سينشئ الوجود الأرمني الكبير في بولندا لنفسه مراكز ثقافية ودينية جديدة. وربما يبدأ هناك مهجر أرمني جديد.

أوكرانيا

لم تنس لقوق، التي هي جزء من أوكرانيا السوفيتية منذ عام 1945م، وكذلك القرم، الوجود التاريخي للجاليات الأرمنية (انظر الفصل 17). ومنذ انهيار الاتحاد السوفيتي تم ترحيل الأرمن من أجزاء من روسيا، وأيضًا من أرمنية إلى أوكرانيا، حيث يوجد هناك حاليًا 150 ألف أرمني. والجالية الأرمنية في لقوق مؤلفة من نحو 3 آلاف نسمة، وتقوم حاليًا بعملية استعادة حياة الكاندرائية الأرمنية، التي أغلقها الشيوعيون عام 1946م. وعينت إتشميادزين كبير أساقفة في أوكرانيا. وبدأت عملية إحياء ديني. وكما رأينا في الفصل 17. كان للأرمن وجود كبير في القرم. وتعد الكنائس الأرمنية السبع التي بُنيت خلال القرنين الثاني عشر والخامس عشر علامات للتذكير بالنشاطات التجارية الأرمنية القوية في المنطقة. ورغم أن ستالين قام بترحيل كل السكان الأرمن تقريبًا، قسرًا. من القرم عام 1944م. فإن الوجود الأرمني في القرم عاود التدفق. خصوصًا في فيودوسيا Feodosia التي كان بها نحو عشرة آلاف أرمني. ويضم متحف الفنان أيفازوفسكي Aivazovskii في فيودوسيا لوحات الفنان الأرمني الشهير. ويعيش الأرمن أيضًا في أجزاء أخرى من القرم. ويوجد حاليًا هناك أكثر من سبعة آلاف أرمني في سيمفروبول Simferopol. والذين يخططون لإنشاء كنيسة أرمنية لتحل محل الكنيسة، التي هدمها الشيوعيون. وفي يالتا يتعبد الأرمن المؤلفون من نحو سبعة آلاف نسمة في كنيستهم الحجرية الضخمة، التي شُيدت في أوائل القرن العشرين، والتي أهملت إبان العصر السوفيتي. ولكنها الآن يتم تجديدها. ويعد الأرمن في القرم، الذين يبلغ تعدادهم 25 ألف نسمة في طليعة من يقومون بإحياء النهضة الاقتصادية للمنطقة.

وتُعد أوديسا وكييف أكبر المراكز الأرمنية في أوكرانيا. وقد اجتذبت أوديسا، وهي ميناء كبير ومدينة عالمية تقع على البحر الأسود، الأرمن من روسيا وأرمينية، ويوجد بها حاليًا ما يزيد على 30 ألف أرمني. وقد بُنيت كنيسة جديدة، لتحل محل الكنيسة الأرمنية القديمة، التي دمرت تدميرًا تامًا خلال الفترة الشيوعية. ويتركز بقية الأرمن في أوكرانيا بمدن كييف وخرسون Kherson وسيفاستوبول Sevastopol.

المجر

كان أرمن المجر، قبل تسعينيات القرن العشرين، أقل الجاليات الأرمنية نشاطًا في أوروبا الشرقية. فكان معظمهم لا يتحدث الأرمنية، وكانت كنيسة صغيرة للأرمن الكاثوليك المختارين في بودابست، ولا تزال. دار العبادة الأرمنية الوحيدة في البلاد. ودرس عدد من الأرمن المجرين في أرمينية السوفيتية، ولدى عودتهم تقلدوا مناصب رسمية مختلفة، محتفظين بجذورهم الأرمنية بقدر ما يستطيعون. وتغير الوضع عندما قامت المجر. بعد سقوط الشيوعية عام 1994م بمنح الأقليات حق الحكم الذاتي. وليس هذا فقط، بل خصصت اعتمادات مالية أيضًا لتحقيق هذا الغرض. وبعد أربعة أعوام، أصبح الأرمن إحدى مجموعات الأقليات الثلاثة عشرة المعترف بها في البلاد. وبعد ذلك مباشرة بدأ الأرمن في بودابست في بث ساعة كل أسبوع بالإذاعة المجرية. وبرنامج تلفزيوني نصف شهري، وصحيفة تُطبع باللغتين الأرمنية والمجرية. وكان أحد الأهداف الرئيسية للقيادة الأرمنية، هو جعل المجرين يألفون التاريخ والثقافة الأرمنية. فبالإضافة إلى الكتب والمهرجانات السينمائية والنشاطات الثقافية الأخرى، نجح الأرمن في نشر حقيقة أن ثلاثة أرمن كانوا ضمن الأبطال الثلاثة عشر، الذين حاربوا ضد النمساويين خلال عامي 1848-1849م (انظر الفصل 17). ويوجد حاليًا هناك ما يزيد على 12 ألف أرمني. قليل منهم وصل مؤخرًا. في بودابست وقسبريم Veszprém وسيكشمهيرفار Székesfehérvár.

مولدافيا

رغم تاريخها الطويل فيما كان يُطلق عليها بيسارابيا Bessarabia (انظر الفصلين 16، 17)، دفعت الجالية الأرمنية الضخمة، التي أسستها كآثرين العظمى في القرن الثامن عشر، ثمنًا فادحًا خلال الثورات، التي انغمست فيها المنطقة، وأعاد تقسيم الإمبراطورية الروسية بيسارابيا إلى رومانيا. ووضعت معاهدة ستالين، هتلر المنطقة تحت السيطرة السوفيتية لوقت قصير: حيث احتلتها ألمانيا خلال غزو هتلر للاتحاد السوفيتي. وبعد الحرب، ضم السوفييت المنطقة وجعلوها جمهورية مولدافيا. وشجع سقوط الاتحاد السوفيتي المولدافيين (الذين يشكلون 60% من تعداد السكان) على إعلان المنطقة جمهورية مولدافيا المستقلة. وفي الوقت نفسه، قامت الأقلية الروسية والأوكرانية الكبيرة (التي تشكل نحو 30% من التعداد) خشية سعى المولدافيين إلى الاتحاد مرة أخرى مع رومانيا، بحمل السلاح. وبعد حرب أهلية، انفصلوا وشكلوا جمهورية ترانسنيستريا Trans-Dniester.

مع بداية التسعينيات، انخفض عدد الجالية الأرمنية، التي كان بعض أبنائها من نسل أسلاف جاءوا في القرن الثامن عشر، واستقر البعض الآخر هناك خلال الفترة السوفيتية، إلى أقل من خمسة آلاف نسمة. يعيشون بشكل رئيسي في تشينو Chisnau (كيشينيف Kishinev السابقة)، وبلتسي Beltsy وجريجوريوبول Grigoriopol. وتقع المدينة الأخيرة ضمن منطقة ترانسنيستريا. وقد تغير الوضع بشدة عندما وصل من أذربيجان وناخيتشيفان الجديدة وكاراباغ حوالي 25 ألف أرمني. وانتعشت الجالية وسيطرت على الكنائس الأرمنية، التي توقفت العمل بها خلال الفترة السوفيتية. وبدأت النوادي والجمعيات والأنشطة الثقافية الأخرى في العمل ببطء. ولربما يُعنى الأرمن أيضًا هذه الجالية، التي كانت قوية في يوم من الأيام.

بلغاريا

استقبلت الجالية الأرمنية في بلغاريا عددًا من اللاجئين: نتيجة الثورات السياسية التي وقعت في روسيا وتركيا المجاورتين خلال الأعوام من 1915 إلى 1922م. استقر معظمهم في صوفيا وبلوفديف Plovdiv وبورجاس Burgas. وكانت الجالية المؤلفة

من 30 ألف نسمة في طريقها لتحقيق انتعاش اقتصادي. عندما أبرقت الحرب العالمية الثانية تقدمها. وفي أعقاب الحرب. أغلق الشيوعيون معظم المشروعات الخاصة التي يملكها هؤلاء الأرمن. وسافر بعض الأرمن البلغار إلى الأمريكتين بينما عادت أعداد كبيرة إلى أرمينية السوفيتية. ومنذ عام 1946م حتى عام 1991م. كان الأرمن البلغار تشرف عليهم جمعية يريفان الشيوعية. وهي منظمة تنفق عليها الحكومة وقامت بنشر صحيفة يريفان. وأدى سقوط الشيوعية إلى تشييط الجالية الأرمينية المؤلفة من 20 ألف نسمة. ووجد اللاجئون الأرمن القادمون من الاتحاد السوفيتي السابق الأسواق البلغارية لبيع السلع الرخيصة في مدينة روسه Russe مربحة. مما ساعد على زيادة حجم الجالية. وتم نشر صحيفتين جديدتين: واحدة في بلوفديف. والأخرى في بورجاس. وأعيد فتح المدرسة الأرمينية في بلوفديف (التي أنشئت في القرن التاسع عشر). وتوجد حالياً سبع كنائس أرمينية في بلغاريا. وأصبح العجز في رجال الدين الأرمن قضية خطيرة.

رومانيا

تجددت الجالية الأرمينية في رومانيا أيضاً بموجة اللاجئين القادمين من تركيا. خلال الأعوام من 1915م إلى 1922م. حيث استقروا في بوخارست وكونستانتزا Constanza وسوسيفا Suceava. وباكوا Bacau وغيرها Gherla. وبيتشتي Piteshti وتولكا Tulca. وبوتوشاني Botoshani. ووصلت بعدد الأرمن في رومانيا إلى 60 ألفاً. وغادر البعض مثل مواطنيهم من بلغاريا واليونان وسوريا ومصر ولبنان إلى أرمينية عام 1946م. وغادر عدد أكبر إلى الولايات المتحدة عقب تأسيس الشيوعية عام 1947م. وأدت سياسة التأميم إلى فقدان عديد من الأرمن مشروعاتهم الخاصة. كما فقد عدد كبير من رجال الصناعة الأرمن الأثرياء كل شيء. ورغم أن نحو 4000 أرمني فقط بقوا في رومانيا. فلهم تمثيل في البرلمان. ويضم المتحف الأرميني في بوخارست مواد مهمة. ترجع إلى سقوط آني في القرن الحادي عشر. والكنيسة الأرمينية (التي أعيد بناؤها في موقع كنيسة أقدم (1911-1915م) والجبانة الأرمينية التي بنيت عام 1856م في بوخارست. وأيضاً 21 كنيسة أرمينية أخرى. تم بناؤها فيما بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر. تقيم كلها الدليل على الوجود التاريخي القوي للأرمن في رومانيا رغم عددهم الحالي.

جمهورية التشيك

هناك أكثر من 13 ألف أرمني في جمهورية التشيك. جاء جميعهم تقريباً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. كان عديد منهم من الشباب، الذين يتطلعون إلى التوظيف أو فنانين وحرفيين يبيعون سلعهم في الشوارع. وتزايدت الجالية ببطء، وافتتحت مؤخراً مدرسة ومطعم أرمني في براغ. ووجد البعض وظيفة في راديو أوروبا الحرة، الذي استمر في البث مع صوت أمريكا، رغم انهيار النظم الشمولية في أوروبا الشرقية.

ألبانيا

استقر أرمن ألبانيا هناك في الغالب، خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وأسهم مستوى تعليمهم في منحهم الأفضلية على الشعب الألباني غير المتعلم بصورة عامة، وأنشأوا جالية من الطبقة المتوسطة في العاصمة، تيرانا. وأدت السيطرة الشيوعية في عام 1945م إلى فقدان الملكية، وأحياناً السجن عديد من الأرمن. وقبل عام 1985م، كان يعيش في ألبانيا بضع مئات من الأرمن في عزلة تامة. وحافظت سياسات أنور حوجه Enver Hoxa على عزل ألبانيا ليس فقط عن الغرب، ولكن أيضاً عن كل الدول الشيوعية الأخرى. ودفع انهيار الشيوعية الـ 150 الأرمن الباقين في ألبانيا إلى السعي للجوء السياسي إلى ألمانيا وإيطاليا.

اليونان

قبل عام 1895م، كان في اليونان كلها حوالي 500 أرمني فقط، استقر جزء كبير منهم في سالونيك. كان هؤلاء أصلاً من موش، واستأجرهم الألمان في عام 1872م لإقامة خط سكة حديد يربط سالونيك بإسطنبول ولمشروعات أخرى، ولم يعودوا. ووصل العديد من الأرمن بعد مذابح عامي 1895-1896م، وشارك البعض مع اليونانيين في حرب البلقان الأولى ضد الأتراك. ووصلت المجموعة الأرمنية الأكبر بعد عام 1922، في أعقاب طرد المسيحيين من أزمير. وجاء إلى اليونان نحو 150 ألف أرمني، منهم 17 ألف يتيم سوياً مع نصف مليون لاجئ يوناني من أزمير. وأدى ذلك إلى توتر الأوضاع الاقتصادية في اليونان في ذلك الوقت. ولم يرغب معظم الأرمن في البقاء، وفي عام 1924م غادر نحو 100 ألف منهم إلى دول أخرى. ولم يؤد الاحتلال الألماني، خلال الحرب العالمية الثانية،

إلى تحسن معيشة الأرمن الباقين والبالغ تعدادهم 60 ألفاً. والذين كانوا قد بداوا للتو في إعادة بناء حياتهم المحطمة. وبعد الحرب العالمية الثانية. غادر الآلاف منهم إلى أرمينية، وأمريكا الشمالية وأستراليا وأوروبا. ولم يبق في اليونان إلا عشرة آلاف أرمني تقريباً. ورغم صغر الجالية، فقد أصبحت أكثر تعليماً وُسرّاً. وأدى انهيار الشيوعية إلى جلب أرمن من روسيا وأرمينية وجورجيا، ويصل عدد الجالية الآن إلى ما يزيد على 25 ألف نسمة. ويقوم عدد من الكنائس - بما فيها كنيسة الأرمن الإنجيليين - والنوادي على خدمة الأرمن في اليونان، الذين يعيش معظمهم في أثينا. ومكنت العلاقات الدبلوماسية الممتازة بين اليونان والجمهورية الأرمينية الجالية من إحياء ذكرى الإبادة الجماعية. ومن لعب دور أكثر حيوية في السياسة اليونانية.

قبرص

والجالية الأرمينية في قبرص هي أيضاً نتاج اللاجئين، الذين وصلوا إليها منذ عام 1895م حتى عام 1922م، وفي عام 1926م، أنشئ معهد ميلكونيان Melkonian التعليمي لتعليم وإيواء الأيتام الذين تمخضوا عن الإبادة الأرمينية. وخلال الحرب الأهلية اللبنانية، التحق بمعهد ميلكونيان عديد من الطلبة القادمين من تلك الدولة التي مزقتها الحرب، واليوم يدرس به عدد كبير من الأرمن القادمين من بلغاريا. وقد تأثرت الجالية الأرمينية بصورة خطيرة نتيجة الغزو التركي لقبرص عام 1974م؛ حيث وقع معظم الحي الأرمني في نيقوسيا بنوايه والمدرسة والكنيسة داخل القطاع الذي احتلته تركيا. والوضع نفسه حدث لسوء الحظ في فاما جوستا، التي تركت الكنيسة الأرمينية بها دير القديس مقار Surb Makar في حالة خراب، وتحولت إلى مخزن. وانخفضت الجالية الأرمينية في قبرص، التي كان عددها قبل الغزو 15 ألف نسمة، إلى ألفين فقط، بعد أن هاجر الآخرون إلى الغرب. وترددت أنباء عن إغلاق معهد ميلكونيان، الأمر الذي سوف يكون ضربة أخرى للأرمن في قبرص.

أوروبا الغربية

انخفض أيضاً حجم الجاليات الأرمينية في أوروبا الغربية مع نهاية القرن التاسع عشر. وأدى وصول اللاجئين من تركيا والشرق الأوسط والاتحاد السوفيتي إلى توسع بعض مراكز تجمع الأرمن القائمة، ونشأة مراكز جديدة أيضاً.

إيطاليا

قبل القرن العشرين لم يكن في إيطاليا، إلى جانب القساوسة الأرمن الكاثوليك في سان لازارو سوى اثنتي عشرة عائلة أرمنية. واختفى العدد الكبير من الأرمن الوارد في الفصل 14. وجلبت الإبادة الأرمنية مئات قليلة من الأرمن إلى إيطاليا، وجاء البعض من رودس، وزاد حجم الجالية إلى نحو 2000 نسمة مع نهاية القرن. ويوجد حاليًا مركزان رئيسيان للأرمن في إيطاليا: ميلانو والبندقية. وجالية ميلانو هي الأكبر والأكثر ثراءً والأكثر نشاطًا في الشؤون الثقافية الأرمنية. وقد عبر الفنانون والمعماريون والصناع والصحفيون الأرمن عن بلادهم وثقافتها للشعب الإيطالي. وظلت البندقية، بسبب وجود المختارين في جزيرة سان لازارو ومدرسة مراد- رافائيليان Murad-Raphaelian (مغلقة حاليًا) في الجزيرة الرئيسية. المركز التاريخي للأرمن في إيطاليا (انظر الفصل 17).

فرنسا

استقبلت فرنسا عددًا كبيرًا من اللاجئين والأيتام الأرمن، في أعقاب معاهدة لوزان عام 1923: بسبب العجز في العمالة بعد هلاك عدد كبير من الفرنسيين القادرين على العمل خلال الحرب العالمية الأولى. واستقر أكثر من 200 ألف أرمني في مرسيليا وفالانس وجرينوبل وليون ونيس وباريس ومدن أخرى قبل الحرب العالمية الثانية. وخدم الأرمن بالجيش الفرنسي. وشاركوا في حركة المقاومة خلال الاحتلال الألماني. كما وصل مهاجرون جدد. الكثير منهم ممن درس الفرنسية. من العالم العربي في أعقاب الثورات، التي قامت في الفترة من 1956 إلى 1958 م: ومن تركيا بعد المظاهرات المعادية للأرمن عام 1955 م: ومن لبنان بعد الحرب الأهلية التي بدأت عام 1974 م، ومن إيران بعد الثورة الإسلامية عام 1979 م.

ومع نهاية القرن، أصبحت الجالية الموجودة في فرنسا أكثر الجاليات الأرمنية نشاطًا في أوروبا، ورغم وجود ضغوط كبيرة من تركيا، اعترفت فرنسا بإبادة الجنس الأرمني. ويوجد في فرنسا ما يزيد على 300 ألف أرمني. ويمكن أن تجدهم في كل المهن المهمة، بما في ذلك تصميم الأزياء والقانون والسياسة وأبحاث الإيدز والتعليم والسينما والموسيقى.

ويخدم الجالية خمس وثلاثون كنيسة أرمنية، من بينها عشرون كنيسة رسولية. كما ازدهرت الصحف والمنظمات والمدارس ومعاهد التعليم العالي الأرمنية والتي شملت المدرسة المختيارية في سيفر. وأنجبت الجالية الأرمنية الفرنسية فنانيين، مثل: هنري فيرنوي Henri Verneuil وجريجوار أصلان Grégoire Aslan. وشارل أزنافور. وكارزو Carzou وجانسم Janssem، وأكاديميين مثل سيراربي دير نيرسيسيان Sirarpie Der Nersessian. ونشرت في باريس المجلة العلمية ريفيو دي إيتود أرمنية Revue des Etudes Armeniennes (باللغة الفرنسية) ذات المكانة الكبيرة. وتضم مكتبة نوباريان مجموعة ضخمة من الكتب والصحف الأرمنية.

بلجيكا

قاست الجالية الأرمنية في بلجيكا ويلات الحروب العالمية، التي شهدتها أوروبا؛ فخلال الحرب العالمية الأولى غادر كثير من الأرمن. الذين كانوا لا يزالون مواطنين أترك. بلجيكا إلى هولندا، هرباً من الاجتياح الألماني، وخشية إعادتهم إلى تركيا ليتم تجنيدهم. وعاد معظمهم بعد الحرب، وتم إنشاء درجة الأستاذية في الدراسات الأرمنية بجامعة بروكسل عام 1931م، وكان أول من حصل على هذه الدرجة الأستاذ الجامعي المشهور نيقولاس أدونتز Adontz. ووصل الأرمن إلى بلجيكا بأعداد كبيرة بعد الحرب العالمية الثانية. وسرعان ما سيطروا على صناعة ومنتجات السجائر. وعلى خلاف الجاليات الأرمنية الأخرى، نأى الأرمن البلجكيون بأنفسهم بعيداً عن مشكلات الانقسامات السياسية الأرمنية الداخلية. وقد استقبلت الجالية المؤلفة من خمسة آلاف نسمة مهاجرين جدد من إيران ولبنان وأرمنية، وفي عام 1985م استقبلوا 1500 أرمني، كانوا يعيشون في قريتين كريدتين (سيرناك Sirmak وسيلوب Silope) في شرق تركيا، والأرمن في بلجيكا مجموعة متماسكة، يعمل أعضاؤها في مهن القانون وصناعة الماس، والواقع أن هناك نحو خمسين متعامل أرمني في صناعة الماس في منطقة أنتورب Antwerp المتخصصة في الماس. وأصبحت الكنيسة الأرمنية في بروكسل والمركز الاجتماعي الأرمني أيضاً نقطة تجمع المهاجرين الجدد من أرمنية.

هولندا

كانت الجالية الأرمنية في هولندا قد اختلفت تقريباً، حتى وصلت عائلات أرمنية قليلة في بداية خمسينيات القرن العشرين من أندونيسيا، بعد استقلالها عن هولندا، وجاء آخرون إلى هناك، خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات في أعقاب الحرب الأهلية في لبنان والثورة الإسلامية في إيران وحرب الخليج. كما جاء أرمن من تركيا، وخاصة من قرية سيرناك الكردية. واتخذوا من هولندا وطنًا جديدًا، ووصل مهاجرون أرمن جدد أيضًا من روسيا وأرمينية. وتم إنشاء مركز ثقافي أرمني، وكانت كنيسة الأرمنية في أمستردام قد بيعت إلى الكنيسة الكاثوليكية عام 1828م. فأعيد شراؤها عام 1987م. ويوجد حاليًا نحو ثمانية آلاف أرمني في هولندا، بعضهم مهاجرون غير شرعيين أو لاجئون، ورغم العدد الصغير للأرمن، يوجد في هولندا برنامج للدراسات الأرمنية بجامعة لندن الشهيرة.

ظهر عدد من الجاليات الأرمنية الجديدة في غرب أوروبا؛ نتيجة لتغيرات السياسة التي قامت في الشرق الأوسط، وتزايدت بثبات نتيجة الهجرة الأرمنية الأخيرة من الاتحاد السوفيتي السابق. وتخدم ست كنائس وعدد من المراكز الثقافية 50 ألف أرمني يعيشون ضمن هذه الجاليات، وتوجد أهم تلك الجاليات في النمسا وإنجلترا وألمانيا والسويد وسويسرا. وكان القليل من الأرمن يعيشون في النمسا في بداية القرن السابع عشر. ويُقال أن أول مقهى في فيينا أقامه أرمني، واستقر في فيينا عدد من الأرمن من الجيش البولندي بعد أن أسهموا في صد الأتراك عام 1683م. وفتح وصول المختارين عام 1811م الأبواب لعدد صغير من الطلبة من روسيا وتركيا، ويعود الوجود الأرمني في السويد إلى القرن التاسع عشر. عندما قام أرمني مصري ببناء كنيسة صغيرة خارج ستوكهولم. وهناك نحو 9000 أرمني في السويد، معظمهم لاجئون من أرمينية. ومن الاضطراب في الشرق الأوسط، يقيم أغلبهم في ستوكهولم وأوسالا. واستقبلت إنجلترا عددًا قليلًا من التجار الأرمن منذ القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، والذين أقاموا عام 1780م مطبعة أرمنية في لندن. ووصل آخرون بعد الحرب العالمية الأولى، وجاءت الأعداد الرئيسية بعد عام 1980م.

وشملت كثيراً من الأرمن في إيران، وبدأت نجانية مؤخرًا شطت تدفيع متعددة، وتعد جنيف هي المدينة الوحيدة في سويسرا، التي يوجد بها وجود رملي له شأن عرغم عدد الأرمن القليل في سويسرا، فإنهم نشطون سياسياً وثقافياً، وفي ألمانيا يقية معظم الأرمن في الشمال، وجميعهم لاجئون أو عمال غير شرعيين من أرمنية. كما ظهرت مجموعات أرمنية جديدة في مدن أوروبية أخرى أيضاً.

العالم العربي

عايشت النجانيات الأرمنية في الشرق الأوسط تغيراته الهائلة خلال الأعوام المائة الأخيرة. واستقبلت النجانيات الأرمنية في العالم العربي نسبة كبيرة من الناجئين والناجين من المذابح والإبادة، ومكنت الانتدابات الأوروبية الأرمن من إحراز تقدم في القطاعين الاقتصادي والإداري. ومن إنشاء مؤسسات ثقافية وسياسية.

مصر

كما جاءت الإشارة في الفصل 15، تمتع أرمن مصر بوجود قوي في هذا البلد. خلال القرن التاسع عشر، وتمتعت العائلة النوبارية على وجه الخصوص بامتيازات خاصة. ولم يؤثر رحيل الاتحاد الخيري الأرمني العام وبريطانيا بصورة سلبية على الجالية الأرمنية في مصر؛ فقد ساعد الدور الذي يقوم به الأرمن في الحكومة المصرية. وأيضاً مشروعات الأرمن التجارية الناجحة على بقاء هذا البلد مركزاً رئيسياً للأرمن. حيث خدمت المدارس المتعددة والكنائس والصحف 40 ألف أرمني يعيشون في القاهرة والإسكندرية. وأدت التغيرات السياسية، التي شهدتها مصر في أعقاب الحركة العسكرية لعام 1952م، والسياسات الاقتصادية للرئيس عبد الناصر بعد عام 1956م إلى هجرة الكثير من الأرمن إلى أوروبا وأستراليا والولايات المتحدة.

ويوجد حالياً في مصر نحو 5000 أرمني فقط. يعيشون في المقام الأول في القاهرة والإسكندرية. ورغم الانخفاض في حجم الجالية الأرمنية، تظل مصر مركزاً ثقافياً مهماً وحيوياً للأرمن. وحافظت ثلاث صحف أرمنية ومدرستان وأربعة نوادي رياضية

وكنيسة كبيرة على الوجود التاريخي للأرمن في مصر. والعلاقات الدبلوماسية بين مصر والجمهورية الأرمنية طيبة جداً، ولم يتعرض الأرمن لأي شكل من أشكال العنف على نحو ما يتردد عن الأقباط.

فلسطين، إسرائيل، الأردن

لم تكن الجاليتان الأرمنيتان في فلسطين والأردن كبيرتين أبداً، ولكنهما اجتذبتا أيضاً بعض اللاجئين من تركيا، والذين وضعوا أسس مراكز جديدة في القدس وحيفا وعمّان. وسرعان ما انهار الأمن قصير الأجل، خلال الانتداب البريطاني، مفسحاً المجال للصراع العربي - اليهودي⁽²²⁾. وفي أعقاب تأسيس دولة إسرائيل عام 1948م والحروب العربية الإسرائيلية، هاجر عديد من الأرمن إلى أوروبا والولايات المتحدة ومراكز أخرى في الشرق الأوسط تتمتع بسلام أكثر. ويرتبط أغلبية الأرمن هناك في المقام الأول بأنشطة دينية وعلمية في المناطق المحيطة بالبطريركية الأرمنية بالقدس. والمشكلة الرئيسية التي تواجه الأرمن في إسرائيل هي انتهاك الصهاينة المتشددين للممتلكات الأرمنية: خصوصاً خلال فترة تولي حكومة شارون اليمينية الحكم في إسرائيل.

سوريا

استقر معظم الناجين الأرمن من المذابح والإبادة في سوريا، وبصورة رئيسية في حلب. وقامت الإرساليات التبشيرية والمنظمات الخيرية، الأرمنية والأمريكية، بمساعدة الوافدين الجدد. ونجحت في إنعاش الجاليت المستقرة هناك من قبل، وأوجدت واحدة من أكثر الجاليت الأرمنية نشاطاً في القرن العشرين. أصبحت المدارس الأرمنية والكنائس والمراكز والمستشفيات في سوريا: خاصة في حلب وضواحيها مصدر إلهام ونماذج. تُحتذى بالنسبة للجاليت الأرمنية في بيروت وبغداد والقدس وعمّان خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت المنطقة تحت الانتدابين البريطاني والفرنسي. ولحسن الحظ، لم تصبح المنطقة مسرحاً للحرب خلال الحرب العالمية الثانية. واستفادت في الواقع من تركيز المعدات العسكرية والأفراد

(22) في الواقع أن الصراع ليس بين العرب واليهود، ولكن بين العرب وإسرائيل. (المتروحة)

فيها لصد الألمان من شمال أفريقيا. وكان الأرمن والأشوريون والعرب المسيحيون وعدد من الطوائف المسلمة غير السنية، مثل: الدروز والعلويين والإسماعيليين مفضلين لدى الأوروبيين ومتعاونين معهم. ولم يشكل الاستقلال السوري في عام 1944م تهديداً للحياة الطيبة التي كانت تعيشها الجالية الأرمنية، والتي ظلت تتزايد حتى نحو 75 ألف نسمة. لكن قيام ثورة عام 1958م، وإعلان الجمهورية العربية المتحدة مع مصر، ثم الانقلاب العسكري عام 1963م، كانت أحداثاً أدت ليس فقط إلى إلحاق الضرر بالمشروعات التجارية للأرمن، ولكن أيضاً إلى تقييد الأنشطة الثقافية الأرمنية. وهاجر البعض إلى لبنان، والبعض الآخر إلى الولايات المتحدة. ولحسن حظ الأرمن، تخلت سوريا سريعاً عن البرامج السياسية والاقتصادية لمصر، وبدأ الرئيس حافظ الأسد في عام 1971م إصلاحه للسياسات المتشددة لحزب البعث، والتي جعلت سوريا أكثر تسامحاً. وهنا كافتحت البرامج الاجتماعية والمشروعات التجارية لاستيعاب التضخم السكاني الكبير للدولة. وأصبحت الطائفة العلوية مسئولة عن المناصب الحكومية الرئيسية، وتعامل الجالية الأرمنية معاملة حسنة. ويوجد في حلب وحدها حوالي 40 ألف أرمني ينتفعون بالمراكز الأرمنية وعشر مدارس ومستشفى، ويقومون بتنظيم عديد من المناسبات التي تدعمها الجالية. كما تزايد حجم الجالية في دمشق خلال ربع القرن الأخير، وتمكنت مشروعات أرمنية جديدة من وقف الهجرة إلى الخارج، والواقع أن بعض الأرمن - من لبنان والعراق والكويت، والذين فروا من الاضطرابات في تلك الدول - قد استقروا في دمشق بصورة مؤقتة أو دائمة. وتعد الجالية الأرمنية في سوريا، التي يزيد تعدادها على مائة ألف نسمة، أكبر جالية أرمنية في العالم العربي. وساعدت الاتفاقيات الثنائية المختلفة والعلاقات السياسية الدافئة، بين سوريا والجمهورية الأرمنية، الأرمن هناك على الاحتفاظ بوجود قوي في هذه الدولة.

لبنان

كان أرمن لبنان لفترة من الزمن يشكلون الجالية الأرمنية الأكثر أهمية بعد إيران خارج نطاق الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. فقد وصل إلى لبنان جوهر الجالية الحديثة؛ نتيجة المذابح والإبادة الأرمنية في تركيا. ومع حلول عام 1926م كان حوالي 75 ألف أرمني موجودين في لبنان، ومنحهم الدستور اللبناني، مع أقليات أخرى،

حقوقاً مدنية مكنت الأرمن مع الوقت من انتخاب أعضاء لهم في البرلمان. وأسهم الموقع الجغرافي الذي تتميز به لبنان، والأمن الذي وفره الفرنسيون، وأيضاً الحكومة التي يهيمن عليها المسيحيون في جذب مزيد من الأرمن إلى هناك. وفي عام 1930م، انتقلت جاثليقوسية قيليقية إلى أنطلياس خارج بيروت. كما أنشأت الكنيستان الكاثوليكية والإنجيلية الأرمنيتان مركزين لهما في بيروت. وفي عام 1939م، كما رأينا، انتقل سنجق الإسكندرونه الذي يحتوي على جبل موسى ليصبح ضمن تركيا. ونتيجة لذلك انتقل 30 ألف أرمني إلى سوريا ولبنان. واستقر أرمن جبل موسى في عنجار Anjar. وحقق الأرمن بسرعة شديدة شهرة اقتصادية واجتماعية. وبفضل حكومة لبنان الليبرالية. تمكنت جميع الأحزاب السياسية الأرمنية من تأسيس نفسها. وخلال النزاع المدني اللبناني قصير الأمد عام 1958م انقسم الأرمن. وانضموا إلى كلتا الفصيلتين المتنازعتين. ومع حلول عام 1974م كان هناك ما يزيد على 200 ألف أرمني. وكان لديهم أربع وعشرين كنيسة، ونحو سبعين مدرسة. من بينها معاهد تعليم عالٍ. مثل كلية هايجازيان Haigazian، التي أنشأتها عام 1955م الجمعية التبشيرية الأرمنية في أمريكا. واتحاد الكنائس الإنجيلية الأرمنية في الشرق الأدنى. بالإضافة إلى ذلك. كان هناك ما يزيد على خمسين منظمة رياضية ووطنية وخيرية وعديد من الدوريات والصحف الأدبية والثقافية. ثم ضربت الحرب الأهلية اللبنانية البلاد من عام 1974م حتى عام 1989م. ورغم أن الأرمن ظلوا محايدين. وبقيت بعض مرافق البنية التحتية للجالية سليمة. فإن آلاف الأرمن غادروا لبنان إلى شواطئ أكثر أماناً. وخاصة الولايات المتحدة. وبقي نحو 75 ألف أرمني. وبفضل موقفهم المحايد من الحرب. وجهود زعمائهم. قاموا بدور في التوصل إلى وثيقة الاتفاقية القومية بمساندة من سوريا. ومرة أخرى نعم الأرمن بقوائد وضع لبنان الفريد. وهناك روابط دبلوماسية ودودة للغاية بين لبنان والجمهورية الأرمنية. وهناك 47 مدرسة أرمنية وعديد من المؤسسات والمنظمات. ومن ضمنها الصندوق الأرمني للتنمية الاقتصادية. تضع الجالية على طريق استرداد عاقبتها مرة أخرى بما لديها من أعضاء في البرلمان والحكومة المركزية. وربما يؤدي الاضطراب السياسي الأخير في لبنان مرة أخرى إلى تغيير هذا الوضع.

وصل معظم أرمن العراق بعد الحرب العالمية الأولى. وأسسوا جانيات في بغداد والموصل والبصرة. وانهك الأرمن في مشروعات خاصة. وعملوا في وظائف فنية وإدارية ومالية لشركة البترول البريطانية. أو شاركوا في التجارة بين الخليج العربي والبحر المتوسط. وكان لهم أيضاً دور فعال في إدخال الشيوعية إلى العراق. وحتى بعد حصول العراق على استقلاله عام 1932م. لم ينته الوجود البريطاني. واستمر الأرمن ينعمون بفوائد الاقتصاد العراقي الفني. ومنذ هذا الحين خاصة لم يتورطوا في أنشطة قومية أو مضادة للحكومة. على عكس الأثوريين والأكراد. فكان يُنظر إليهم كمواطنين مخلصين. وقد خدمت المنظمات والكنائس والمدارس الأرمنية 35 ألفاً من الأرمن في العراق. ودفعت ثورة 1958م، وما لحقها من سياسات متشددة. لحزب البعث عديداً من الأرمن إلى الهجرة من العراق إلى لبنان والكويت والولايات المتحدة ودول الخليج. وأثناء الحرب الإيرانية. العراقية. التي امتدت من عام 1980م إلى عام 1988م تم تجنيد بعض الأرمن وماتوا (كما تم تجنيد أرمن في إيران). واجتمعت الأوضاع السياسية والاقتصادية الصعبة مع الآثار الكارثية لحرب الخليج على العراق: لتضع نهاية الجالية الأرمنية هناك. وهاجر الكثيرون أو تركوا بصورة مؤقتة الوضع غير المستقر، وبقي أقل من عشرة آلاف أرمني في العراق. ومن المحتمل أن يؤدي الغزو الأمريكي الذي وقع على العراق عام 2003م إلى انخفاض حجم الجالية الأرمنية هناك إلى أقل من ذلك.

دول الخليج العربي

بدأت الجاليات الأرمنية في دول الخليج العربي وجودها بعد الحرب العالمية الثانية. وجاءت معظم هذه الجاليات من إيران ولبنان وسوريا، وجاء المزيد مؤخراً من أرمينية. ويوجد حالياً نحو 1500 أرمني في الإمارات العربية المتحدة، وهم غير قادرين على أن يصبحوا مواطنين رغم نجاحهم الاقتصادي، وهم يتمتعون بحرية كاملة ويعملون مديرين وتجار مجوهرات ومهندسين وتجار وفنيي ماكينات. وتوجد مدرسة أرمنية بها مائة تلميذ. ينتظمون في برامج تعليمية في أيام الأجازة الأسبوعية. وتقام القداديس الأسبوعية

الأرمنية بإحدى الكنائس المحلية ويشرف قسيس من أنطلياس على الاحتياجات الروحية للجالية. ويوجد أرمن أيضاً في البحرين وقطر، ولكن عددهم صغير جداً على تكوين جالية فعلية. وكانت أكبر جالية أرمنية في الخليج العربي هي جالية الكويت، والتي كُبرت خلال الازدهار الاقتصادي لتلك الدولة؛ حيث ساقطت القومية العربية والخدمة العسكرية الإلزامية في مصر وسوريا بعض الشباب الأرمن إلى الكويت. وسرعان ما أقيمت كنيسة ومدرسة أرمنية؛ مما أدى إلى تكوين جالية فعّالة. ولم يوقف عدم السماح بالحصول على الجنسية الأرمن عن التوق في إصلاح السيارات وأعمال السمكرة والكهرباء وخدمات أخرى. وقبل الغزو العراقي كان هناك أكثر من 12 ألف أرمني في الكويت، مع انتظام 700 طالب في المدرسة الأرمنية. وحدث الغزو العراقي خلال الصيف عندما كان عديد من العائلات الأرمنية وأطفالهم بعيداً في سوريا أو لبنان. وأغلبهم لم يعد. بينما فر آخرون. وبعد مضي عام (1991م) كان هناك 500 أرمني فقط باقون في الكويت. واليوم هناك نحو 2500 أرمني، والجالية تنتعش ببطء. والمدرسة الأرمنية التي كان بها 90 طالباً فقط بعد الحرب تضم حالياً أكثر من ثلاثمائة طالب.

الدول الإسلامية غير العربية

تركيا

دمرت الإبادة الأرمنية. كما رأينا. أرمنية الغربية وبعدياً من المراكز الأرمنية الأخرى في تركيا. كان ما تبقى من الجالية الأرمنية في تركيا يتركز أساساً في إسطنبول. ودفعت السياسات المعادية للأرمن التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. ضريبة الثروة عام 1942م التي فُرضت على الأقليات. وهجمات الغوغاء على المحلات الأرمنية واليونانية في إسطنبول وأزمير عام 1955م دفعت البعض إلى الهجرة. وتعلم الأرمن الباقون على أية حال أن يرتجلوا ويحافظوا على هويتهم بقدر ما يستطيعون. ولم يكن مسموحاً للمدارس الأرمنية أن تتحدث عن الإبادة أو قضايا وطنية أخرى. وغيرَ بعض الأرمن أسماءهم الأخيرة واستخدموا لاحقة "أوغلو" التي توحي بتركية الاسم. وتحسنت الأوضاع بصورة كبيرة بعد عام 1956م. وتم تجميع الأيتام الأرمن من داخل البلاد واحضارهم إلى إسطنبول. واستمر الأرمن في

مواصلة أنشطتهم الاقتصادية والثقافية دون أية عوائق تمييز عرقي قانوني. واليوم. تتألف الجالية الأرمنية من نحو 60 ألف نسمة. ولديها عدد كبير من المنظمات والهيئات وأكثر من ثلاثين كنيسة نشطة. وعشرين مدرسة. ومؤسستين رياضيتين. وتسع كورالات. ومستشفى كبير. ومما يثير الانتباه أن الجالية الأرمنية في إسطنبول لا تعتبر نفسها من المهجر. حيث كانت للأرمن بالفعل جالية كبيرة في إسطنبول. قبل وصول الأتراك عام 1453 م. والمشكلة الرئيسية التي تواجه الأرمن في تركيا، هي عدم وجود معهد لاهوتي حقيقي لإعداد قسيسين جدد. ولا معاهد تعليم عال لتعليم اللغة الأرمنية. ورغم أن لهم نحو خمسة آلاف طالب أرمني في مدارسهم العشرين. فإنهم لا يستطيعون توظيف مدرسين من خارج البلاد. ويجدون صعوبة في إرسال خريجي هذه المدارس إلى الجامعات أو مراكز التعليم الأرمنية. ويمكن للمدارس الأرمنية تدريس اللغة الأرمنية لمدة ست ساعات فقط في الأسبوع؛ ويتم تدريس بقية المنهج باللغة التركية بواسطة معلمين أتراك في المقام الأول. ويفضل معظم الأرمن التحدث بالتركية. وحدثت بعض الزيجات بين الأرمن والأتراك. وقد احتفظت البطريركية الأرمنية في إسطنبول والبطريرك الأرمني كذلك بمكانتهما اللاتقة. في المهجر وفي تركيا على السواء. ويتم تبادل الزيارات بصورة متكررة بينهم وبين مسؤولي الحكومة التركية. لكن النشاطات السياسية الأرمنية في أوروبا وأمريكا الشمالية. وأيضاً النزاع حول إقليم كاراباغ. ولدت أعمال عنف عديدة ضد الكنائس والمقابر الأرمنية هناك.

إيران

بحلول القرن العشرين كانت إيران، مثل مصر، مركزاً رئيسياً لحياة الأرمن في الشرق الأوسط. وكما رأينا، مع نهاية القرن التاسع عشر كان يوجد نحو 100 ألف أرمني في إيران. وساعد القرب المكاني للأرمن في أذربيجان الفارسية من ما وراء القوقاز وشرق الأناضول على تعرضهم لتنفيذ الأنشطة السياسية للأرمن الروس والأتراك. وبدأ الأرمنياكان والهنشاك والطاشناق في تكوين خلايا لهم في تبريز وسالماس. وسعى عدد من الثوريين الأرمن إلى اللجوء لإيران: فراراً من البوليس القيصري الروسي والتركي هناك، كما جلبت مذابح عامي 1895-1896 م لاجئين أرمن إلى شمال غرب إيران. وكان لثورة عام 1905 م في روسيا تأثير عظيم على شمال إيران. وفي عام 1906 م شارك

عديد من الأرمن تحرريين وثوريين إيرانيين في المطالبة بوضع دستور في إيران. ورغم أن الشاه وقّع هذه الوثيقة، فقد قام وريثه بحلّ المجلس أو البرلمان. وتمكن الثوريون فقط في عام 1909م من إجبار التاج على التخلي عن بعض امتيازاته. ويأتي ذكر دور الوحدات العسكرية الأرمنية، تحت قيادة زعماء مثل يبرم خان Yeprem Khan وكيري Keri في الحركة الدستورية الفارسية، وقد تم توثيقه جيدًا.

وفّر آلاف الأرمن إلى إيران خلال أحداث الإبادة الأرمنية. وأدى الغزو التركي لأذربيجان الفارسية، خلال الحرب العالمية الأولى، إلى تدمير عدد من الأحياء الأرمنية في المنطقة، مثل خوي Khoi. وعاشت الجالية مرحلة تجديد سياسي، مع وصول زعامة طاشناقية من أرمينية عام 1921م. وكان تأسيس سلالة بهلوي Pahlavi في الحكم بداية عصر جديد بالنسبة للأرمن ومنحت جهود التحديث، التي قام بها رضا شاه (1925-1941م) ومحمد رضا شاه (1941-1979م) الأرمن فرصًا كافية للتقدم؛ كما تمتع الأرمن، بفضل اتصالاتهم مع الغرب وقدراتهم اللغوية بأفضلية عن المواطنين الإيرانيين. وسرعان ما وصلوا إلى مواقع مهمة في الفنون والعلوم، وفي شركة البترول الإيرانية وصناعة الكافيار، وهيمنوا على بعض المهن. مثل: الحياكة وصناعة الأحذية والتصوير الضوئي وميكانيكا السيارات، بالإضافة إلى إدارة المقاهي والمطاعم. واستمر المهاجرون واللاجئون من روسيا في زيادة حجم الجالية حتى عام 1933م. ومنحت الحرب العالمية الثانية الفرص للأرمن لزيادة قوتهم الاقتصادية: حيث قرر الحلفاء استخدام إيران كجسر إلى روسيا. وتم شحن أسلحة وإمدادات غربية عبر إيران. ولعب بعض الأرمن الذين كانوا يعرفون الروسية دورًا رئيسيًا في هذا المسعى. كان الهنشاك على وجه الخصوص نشطين، وكان لدى الحزب الشيوعي الإيراني خلية أرمنية أيضًا. وظلت أغلبية الأرمن موالية للطاشناق، بينما كانت الأقلية من ذوي الميول الشيوعية يمارسون أنشطتهم بشكل سري. أو تركوا البلاد مع الاشتراكيين الإيرانيين. عندما فروا إلى روسيا عام 1946م في أعقاب تطبيق نظام شيوعي فاشل في أذربيجان الإيرانية. وفي عام 1953م، قام الشيوعيون الإيرانيون والأرمن بعودة قصيرة الأمد خلال حكومة مصدق. ولكن عودة الشاه مرة أخرى حطمت صفوفهم. لكن معظم الأرمن، تحت زعامة الطاشناق، ظلوا محايدين أو موالين للنظام. وكافأهم الشاه على ذلك. وخلال الربع التالي من ذلك القرن تزايدت الثروات الأرمنية في إيران. وأصبحت

طهران وتبريز وأصفهان مراكز رئيسية للأرمن تضم أكثر من 300 ألف أرمني. ووثق النشأة في رعاياه من الأرمن، وأصبحت طهران مثل بيروت مركزاً رئيسياً لحياة الأرمن.

وازدهرت الكنائس والمدارس والمراكز الثقافية والنوادي الرياضية والمؤسسات الأرمنية في إيران، وأصبح للأرمن نائب وأعضاء في البرلمان. ولبت ثلاثين كنيسة ونحو ثمان وأربعين من المدارس والمكتبات احتياجات الجالية. ونشرت المطابع الأرمنية عديداً من الكتب واليوميات والدوريات والصحف. لكن الطبقة الأعلى الأفضل تعليماً كانت أقل عدداً، وبالمقارنة مع نظرائهم في لبنان، كانوا نسبياً غير منتجين من الناحية الثقافية.

ورغم أن الثورة الإسلامية أنهت العصر الذهبي الثاني للجالية الأرمنية في إيران، فلم تتقدم الجالية وجودها هناك كلية. أدت قيود آية الله الخميني، والحرب العراقية الإيرانية. والمشكلات الاقتصادية الناتجة عن عزلة إيران إلى نزوح جماعي لما يزيد عن 100 ألف أرمني من إيران. والحكومة الحالية أكثر ملاءمة بالنسبة للأرمن، الذين على خلاف الأكراد والأذربيجانيين الإيرانيين، لهم مدارسهم الخاصة ونواديهم ويحتفظون بمعظم كنائسهم. وقد فتح عهد جديد للأرمن بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، بفضل الحدود الطبيعية لإيران مع أرمينية، بالإضافة إلى الاتفاقيات الدبلوماسية والاقتصادية الأرمنية الإيرانية.

إفريقيا

خارج نطاق مصر التي تحدثنا عن الجالية الأرمنية الموجودة بها، جاء الأرمن إلى القارة الإفريقية بعد الحرب العالمية الأولى. ورغم أن عدداً صغيراً منهم استقروا في السودان وجنوب أفريقيا، فقد اختار معظمهم إثيوبيا وطناً جديداً لهم. وقد اكتسب الأرمن الأثيوبيون حظوة لدى الإمبراطور هيلا سلاسي. حتى أن الأرمني كيثورك نالبانديان Kevork Nalbandian أُلّف النشيد الوطني السابق لأثيوبيا. أقام رجال الأعمال الأرمن الأثيوبيون مشروعات الطواحين والمدابع ومصانع الأحذية والمطابع. وفي عام 1934م، بنيت كنيسة كبيرة في أديس أبابا، وبعد عام افتتحت مدرسة أرمنية هناك أيضاً. لم تكن الجالية أبداً كبيرة، ووصل عدد أعضائها في ذروتها إلى 1500 نسمة، بعضهم من أبوين أحدهما أثيوبي والآخر أرمني. وأدت الثورة العسكرية، بالإضافة إلى الحرب الأهلية التي

استمرت من عام 1974م حتى عام 1991م، إلى تأميم المشروعات الأرمنية الخاصة. وخفضت حجم الجالية إلى نحو 150 شخصاً، وهاجر معظم الآخرين إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا. كان بالمدرسة الأرمنية أحد عشر طالباً أرمنياً فقط، ستة منهم من مختلطي الأبوين، بينما كانت الكنيسة بلا قسيس وتؤدي وظيفتها بمساعدة رئيس الشمامسة. لكن "نادي ومطعم مجتمع أراارات الأرمني" شائع الارتياح من جانب المجتمع الدبلوماسي، ويساهم دخله في دعم الكنيسة والمدرسة.

كانت الجالية الأرمنية في السودان متركزة في الخرطوم؛ حيث قامت ببناء كنيسة هناك. وجاءت الحرب الأهلية في السودان، التي بدأت في أواخر الثمانينيات، لنتهي قدرة الجالية على مواصلة الحياة هناك. وفي جنوب أفريقيا استقر معظم الأرمن في جوهانسبرج، ولكن الاضطرابات التي شهدتها جنوب أفريقيا شجعت معظم الأرمن على الهجرة إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا.

جنوب آسيا

تناقصت الجالية الأرمنية في الهند، بعد أن أصبحت الهند مستعمرة للتاج البريطاني. ورغم قيام بعض التجار الأرمن الأغنياء مثل جالستون Galstoun وتشاتر Chater بإنشاء مبانٍ وحدائق عامة، وتركوا أوقافاً ضخمة، فإن معظمهم بما فيهم تشاتر ترك المنطقة. وأدى الاضطراب خلال الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وتقسيم الهند إلى خفض عدد الأرمن أكثر. وخلال النصف الثاني من القرن العشرين، خلت مدن دلهي وأكرا وتشنسوراه ودكا وسُرات من الأرمن. وكافحت مدراس وبومباي للاحتفاظ بجاليات أرمنية صغيرة. وكانت الكنيسة الأرمنية الضخمة في بومباي (التي بُنيت عام 1796م) قد تهدمت، وشُيدت كنيسة جديدة متواضعة بالإضافة إلى مبنى تجاري سُمي "أراارات" على نفس الموقع عام 1957م. وبقيت كلكتا هي المدينة الوحيدة، التي يمكن أن تعيش فيها جالية أرمنية. حيث توجد فيها المدرسة الثانوية الأرمنية (التي أسست عام 1821م) ومدرسة داقديان للبنات، والنادي الرياضي الأرمني. ودفع النقص في الطلاب المدرستين إلى الاتحاد. وتكوين الأكاديمية الأرمنية. وجذب منهجها الدراسي البريطاني بعض الطلاب الأولاد من إيران ولبنان. ومع بداية الستينيات وصل عدد طلابها إلى أكثر من 200 طالب.

وأدى استمرار توافر الفرص الاقتصادية في أستراليا. بالإضافة إلى الزواج المختلط إلى تناقص عدد الأرمن في الهند. ومع نهاية القرن كان هناك فقط ثلاثة أرمن في مدراس وأربعة في بومباي، بينما كان بالأكاديمية الأرمنية في كلكتا ستة طلاب فقط. وفي الوقت الحاضر، رغم وجود ستة كنائس، يوجد هناك بالكاد 200 أرمني من الزواج المختلط في الهند، معظمهم في كلكتا. ولا يوجد أرمن في بنجلاديش. وبدأت الحكومة الأرمنية في برنامج تبادل طلابي مع الهند، وربما يعيد وجود سفارة أرمنية في نيودلهي شباب الأرمن الباقين في الهند.

الشرق الأقصى

في عشرينيات القرن العشرين، بدأ الأرمن الذين فروا من الثورة الروسية والحرب الأهلية والبلاشفة في الوصول إلى هاربن Harbin في مقاطعة منشوريا الصينية. وإلى شنغهاي. وتم بناء كنيسة أرمنية في هاربن، وافتتح تجار وحرثيون مشروعات في الصين وفي جنوب شرق آسيا. وعمل الأرمن متقاربين، وكانوا يتزوجون أحياناً من الأوروبيين الموجودين في الصين. ودمرت الحرب العالمية الثانية المراكز الأرمنية الباقية في المنطقة. وجمع اليابانيون شمل كل الأوروبيين في الصين وبورما وأندونيسيا والجزر الفلبينية وماليزيا وسنغافورة، بما فيهم الأرمن. وسرعان ما واجه الناجون من ويلات الحرب سياسات التمييز للحكومات القومية أو الشيوعية، والتي أعقبت خروج الاستعمار من جنوب وجنوب شرق آسيا. وهاجر معظم الأرمن إلى أستراليا وأمريكا الجنوبية. وبقي من الجالية التي كانت ناجحة، في وقت ما، أقل من 150 أرمنياً في ماليزيا وسنغافورة وهونج كونج وبانكوك، ومع ذلك فقد جذبت المنطقة مؤخراً مهاجرين جدد من الأرمن.

أستراليا

دفعت الثورات التي اجتاحت جنوب آسيا الأرمن، في تلك المنطقة، إلى تركها جماعات، والسعي إلى ملجأ في أستراليا، حيث كان عدد منهم قد هاجر بالفعل خلال عشرينيات القرن العشرين. وأدت التغييرات السياسية والصعوبات الاقتصادية في أوروبا الشرقية والشرق الأوسط إلى جلب مزيد من المهاجرين إلى أستراليا (وهاجر قليلون إلى نيوزيلندا). ومكنت سياسة الحكومة الأسترالية المؤيدة للتنوع الجالية الأرمنية من دخول

الحرف المختلفة. وأن يكون لهم صوت مسموع في سياسات وتمويل في المجتمع. وأدت الهجرة من الاتحاد السوفيتي إلى تزايد عدد الأرمن في أستراليا إلى 50 ألف نسمة، يقيم معظمهم في ملبورن وسيدني: حيث شجعت الكنائس والنوادي والصحف على قيام جالية مهنية مفعمة بالنشاط.

أمريكا الجنوبية

تكونت الجالية الأرمنية في أمريكا الجنوبية، مثل نظيرتها في أستراليا خلال النصف الأول من القرن العشرين بمهاجرين من جنوب آسيا، رغم أن عددًا منهم جاء أيضًا من تركيا. وذهبت الأغلبية إلى الأرجنتين والبرازيل وفنزويلا وأوروغواي. وعلى خلاف مواطنيهم الذين هاجروا إلى أوروبا أو أجزاء أخرى من آسيا، لم يكن لدى الأرمن في الأمريكتين اتصالات مسبقة، تجارية أو ثقافية. لمساعدتهم على التأقلم مع مثل هذه الثقافة المختلفة. ولكن مع حلول الأربعينيات، كان لدى كل دولة من هذه الدول معلمون ومهندسون وأطباء ومحامون أرمن. بالإضافة إلى ذلك، افتتح حرفيون أرمن مشروعاتهم الخاصة. وبفضل الازدهار الاقتصادي في المنطقة أصبحوا أغنياء. وشجع نجاحهم الاقتصادي أرمن آخرين على الارتحال إلى هناك من اليونان والشرق الأوسط والشرق الأقصى. ومؤخرًا من الجمهورية الأرمنية. ومع نهاية القرن العشرين، كان هناك ما يزيد على 20 ألف أرمني في البرازيل و 15 ألفًا في أوروغواي، تركزوا في ساو باولو ومونتيفيديو على التوالي. لكن الأرقام غير دقيقة إلى حد ما، لأنه باستثناء الأرمن الأرجنتينيين، فإن الأرمن في أمريكا الجنوبية ليسوا جالية متماسكة. وقد تأسست اثنتا عشرة كنيسة (بما في ذلك الكاثوليكية منها والإنجيلية) وعدد من المدارس والصحف والنوادي والمؤسسات. ولكن الاستيعاب (الأرمن في الجنسيات الأخرى) يقرع ناقوسه، كما أدى التضخم الاقتصادي المفرط، بالإضافة إلى عدم الاستقرار السياسي إلى هجرة البعض إلى أمريكا الشمالية.

والجالية الأرمنية في الأرجنتين هي الأكبر والأكثر تماسكًا. إلى حد بعيد. من نظيراتها في أمريكا الجنوبية. وقد شجعت الحكومة الأرجنتينية الهجرة، ومع منتصف الأربعينيات، كان هناك نحو 20 ألف أرمني في الأرجنتين. وقامت كل الأحزاب السياسية الأرمنية. بالإضافة إلى الاتحاد الخيري الأرمني العام والاتحادات الإقليمية بتأسيس أفرع

لها في بونوس آيريس، وُبنيت مدارس وكنائس وأنشئ مركز للجالية في شارع أسيفيدو Acevedo (حالياً الشارع الأرمني)، كما استغل الأرمن حقوق التعليم الأجنبي. وإمكانية الحراك الاجتماعي، وارتقوا إلى مواقع بارزة في كل تخصص بما فيها الموسيقى والطب والصحافة. ومع نهاية القرن، وصل تعداد الأرمن إلى مائة ألف مع عدة مدارس أرمنية، ينتظم فيها أكثر من ألفي طالب.

أمريكا الشمالية

الولايات المتحدة

تذكر المصادر أنه في النصف الأول من القرن السابع عشر، جاء إلى فرجينيا عن طريق أمستردام أرمني يُسمى مارتين، والذي كان أصلاً من جولفا الجديدة. لكن الجالية الأرمنية في الولايات المتحدة بدأت تتكون بعد ذلك بأكثر من قرنين. فبعد قيام منظمات تبشيرية أمريكية بتأسيس مدارس في تركيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شجعت بعض الأرمن على الذهاب للولايات المتحدة؛ لجذب مزيد من المهاجرين الأرمن إلى "الأرض الموعودة". وهكذا استقرت مجموعة صغيرة من الأرمن على الشاطئ الشرقي، وقاموا ببناء كنيسة عام 1861م في وورشستر، ماساتشوستس. ولكن أمريكا كانت بعيدة جداً، والوصول إليها مكلف جداً بالنسبة لمعظم الأرمن، وبعد مذابح عامي 1895-1896م فقط، أدرك فريق كبير من الأرمن الرجال أنهم لن يخسروا شيئاً، وبأدروا بالمخاطرة وسافروا إلى أمريكا. وبحلول عام 1900م، كان قد وصل إلى هناك نحو 15 ألف أرمني، استقر معظمهم في بوسطن ووترتاون. وبين عامي 1900 و 1916م، هاجر حوالي 70 ألف أرمني إلى الولايات المتحدة. وتشير الإحصائيات إلى أن الأغلبية العظمى منهم كانوا رجالاً تحت سن الخامسة والأربعين، وكانوا مهرة ومتعلمين، تركوا زوجاتهم وعائلاتهم سعياً وراء تحقيق ثروتهم. وقبل وضع قيود على الهجرة عام 1924م، كان حوالي 23 ألف أرمني آخرين قد وصلوا إلى أمريكا الشمالية. واستقر في الولايات المتحدة ما يزيد على 100 ألف أرمني أغلبيتهم الساحقة من تركيا.

وفي عام 1948م. وصل بضعة آلاف من الأرمن. قادمين من أوروبا في نطاق مرسوم ترحيل المواطنين لأسباب عرقية، المعروف بـ D.P.S، كان من بينهم أرمن هاربين من روسيا الغربية مع تفهقر الجيوش الألمانية. ووصل مزيد من الأرمن في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. في أعقاب المشكلات السياسية في الشرق الأوسط.

استقر المهاجرون الأوائل إلى الولايات المتحدة في المراكز المدنية والصناعية للشاطئ الشرقي: خاصة في نيويورك وماساتشوستس وكونكتيكت ونيو جيرسي. مع استقرار القليل في مدن الغرب الأوسط مثل ديترويت وشيكاغو وكليفلاند. واستقر آخرون في تكساس وأوتاوا. وكان الأرمن الذين لم يتبعوا هذا النموذج، هم فقط الذين استقروا مع نهاية القرن التاسع عشر في وادي سان جواكين في كاليفورنيا الوسطى. وهناك انخرطوا في الزراعة وفي إنتاج الكروم وعلى وجه الخصوص حول فريزنو. وعلى مدى نصف القرن التالي، عانى أرمن فريزنو من تمييز بغيض.. ظهرت لافتات تقول "غير مسموح بدخول الأرمن". معلقة على نوافذ المحلات ومكاتب العقارات. ورغم ذلك توسعت جالية فريزنو حتى فترة الكساد. عندما بدأت سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس في جذب مهاجرين جدد. وحتى ستينيات القرن العشرين. استقبل الشاطئ الشرقي والغرب الأوسط أكبر نسبة من المهاجرين الأرمن. وكما كان مألوفاً مع المجموعات الأخرى من المهاجرين، عمل الجيلان الأولان باجتهاد بالغ لتوطيد أنفسهم في الأرض الجديدة. وحاول البعض أن يندمج مع المجتمع بأسرع ما يمكن، بينما تثبت آخرون بتقاليدهم. وادخروا نقوداً لإحضار عائلاتهم ولفتح مشروعات صغيرة. كان تعليمهم ومهاراتهم تعني أنهم سوف يحققون نجاحاً كبيراً، عندما يحين الوقت المناسب. ولم يعق التمييز العنصري، الذي كان شديداً في بعض الأماكن وفي أوقات معينة، الأرمن الذين عاشوا خلال ظروف أسوأ بكثير.

ومع الجيل الثالث، أنجب الأرمن الأمريكيون أعداداً كبيرة من الأطباء والمحامين والمهندسين والأكاديميين. بالإضافة إلى مقاولين ناجحين جداً. وأدى ظهور سياسيين أرمن ورموز رياضية ومؤلفين موسيقيين وممثلين وفنانين وكُتّاب. مثل: آلان هوفهانيس Alan Hovhannes وروبين ماموليان Rouben Mamoulian وأرشيل جوركي Arshile Gorky وويليام سارويان William Saroyan إلى خلق شعور بالفخر بين الجيل الجديد من الأرمن الأمريكيين. وتبرع رجال أعمال ناجحون، مثل: أليكس مانوجيان Alex

Manoogian، وكيرك كيركوريان Kirk Kerkorian، وعائلة هوفنانيان Hovnanian وآخرين بملايين لتأسيس مراكز ومدارس للجيلية.

وفي السبعينيات والثمانينيات انتهز نحو 80 ألف أرمني من أرمنية السوفيتية. ومنهم بعض الذين عادوا إلى هناك في أواخر الأربعينيات. فرصة الانفراج وتبسيط قوانين الهجرة التي وضعت في المقام الأول لليهود الروس. وجاءوا إلى الولايات المتحدة. بالإضافة إلى فرار الأرمن من الحرب الأهلية في لبنان والثورة الإسلامية الأصولية في إيران والحرب العراقية الإيرانية، ورحلوا إلى الولايات المتحدة أيضاً. وجلب زلزال عام 1988م والأوضاع المتدهورة في أرمنية والاتحاد السوفيتي عدة آلاف أخرى من الأرمن إلى الولايات المتحدة. وتوجد جاليات أرمنية في كل ولاية رئيسية بما فيها أوريغون وسياتل وتينيسي وفلوريدا ووسكونسن وفرجينيا. لكن المهاجرين الأرمن. الذين جاءوا بتدفق كبير خلال العقود الثلاثة الأخيرة فضلوا الذهاب إلى الشاطئ الغربي وخصوصاً كاليفورنيا. وتعد منطقة لوس أنجلوس الكبرى، على وجه الخصوص، وطناً لما يزيد على 400 ألف أرمني.

ويوجد حالياً أكثر من مليون أرمني في الولايات المتحدة. ومع امتلاكهم أكثر من مائة كنيسة وعديد من المدارس والمؤسسات والبرامج الأكاديمية والجمعيات الثقافية والمجلات والصحف، بالإضافة إلى منظمات ذات نفوذ، أصبح أرمن الولايات المتحدة قوة لا يستهان بها. ونجحت لجان عمل سياسية أرمنية وعلماء ومهنيون في إبطال الجهود التركية لإنكار الإبادة الأرمنية. وبمساعدة الجمعية الأرمنية في أمريكا والمعهد القومي الأرمني، ومجموعة النواب الموالين للأرمن في الكونجرس، والمجلس القومي الأرمني، فإنهم يقومون بالضغط على الولايات المتحدة. المؤيد المخلص لتركيا. حتى تعترف رسمياً بالإبادة الأرمنية.

كندا

كان من بين الأرمن الذين تركوا الإمبراطورية العثمانية إلى الولايات المتحدة، في أواخر القرن التاسع عشر، عدد قليل استقر في كندا، وبصورة رئيسية في منطقة أونتاريو الجنوبية. ووصل مزيد من الأرمن في أعقاب مذابح عامي 1895-1896م إلى المنطقة. وفي عام 1930م بُنيت كنيسة أرمنية في سانت كاترين. واستقر أرمن آخرون في منطقة

كوبيك. كان معظم الوافدين الأوائل أرمن بروتستانت أو كاثوليك. وفي عام 1908م أغلقت كندا حدودها في وجه الأرمن، الذين تم تصنيفهم «آسيويين». وسُمح لبعض اللاجئين والأيتام بالدخول بعد أحداث الإبادة، ولكن الجالية لم تتجاوز أربعة آلاف نسمة. وفي عام 1948م - بفضل جهود المجلس الكندي الأرمني - تم إلغاء الحظر، وبدأ آلاف الأرمن في الوصول من أوروبا التي مزقتها الحرب. وبعد ذلك مباشرة أدت الثورات السياسية في الشرق الأوسط إلى هجرة آلاف أخرى من مصر ولبنان وسوريا وفلسطين وإيران. وافتتح الأرمن مختلف المهن الرائدة، وأصبحت الجالية قوة في الحياة السياسية والثقافية الكندية. وكانت الجالية نابضة بالحياة، وتمثّل ذلك في ظهور فنانيين، مثل: المصورين الضوئيين المشهورين كارش Karsh وكافوك Cavouk. ومخرج السينما أتوم إيجويان، بالإضافة إلى معهد زوريان Zoryan. ووصل عدد الجالية إلى أكثر من 60 ألف أرمني. يقيمون بصورة رئيسية في تورنتو ومونتريال، وتوجد مجموعات أصغر في كالغاري وفانكوفر وأدمونتون وأوتاوا وكيتشنر. وتخدم ست عشرة كنيسة وأربعة عشر مركزاً ثقافياً وسبع مدارس احتياجات هذه الجالية المتنامية.

ما بعد الاتحاد السوفيتي

روسيا

تمت مناقشة الوجود الأرمني، فيما قبل روسيا الثورية في الفصلين 16 و 19. وقد انتقل إلى روسيا عدد قليل من الأرمن قبل ستينيات القرن العشرين، كان معظمهم موظفون عسكريون أو حكوميون. كما تزوج معظمهم من نساء روسيات وأصبح روسياً. لكن الآلاف من الأرمن استقروا، فيما بين عامي 1960 و 1990م، في موسكو ولينينجراد (سانت بطرسبرج) وأركوتسك Irkutsk وخاباروفسك Khabarovsk ونوفوسيبيرسك Novossibirsk وسوتشي Sochi وساراتوف Saratov وروستوف - أون - دون Rostov-on-Don، وكراسنودار Krasnodar (إيكاترينوجراد Ekaterinograd) ومراكز مدنية أخرى. وسعى شباب أرمن متخصصون إلى العمل في مهن بالدوائر الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية في الجمهورية الروسية. واستطاع الأرمن الحاصلون على التعليم العالي، بالفعل، المنافسة على الوظائف في الجمهورية الرئيسية للاتحاد السوفيتي.

وبالإضافة إلى ذلك، اندفع آلاف الأرمن إلى موسكو وليننجراد، حيث باعوا بصفتهم مقيمين غير شرعيين سلعا في الأسواق المفتوحة بالإضافة إلى السوق السوداء.

فاجأ سقوط الاتحاد السوفيتي الكثيرين. ومنحت روسيا المواطنة لأي شخص. كان يقيم بصورة شرعية في روسيا قبل 6 فبراير 1992 م. ورغم أن عدداً من الأرمن انتهب فرصة القانون، فإن آخرين لم يفعلوا، أو لم يستطيعوا. ودفعت الأوضاع الاقتصادية السيئة جداً في أرمينية مئات الآلاف من الأرمن إلى السعي، للحصول على وظائف في روسيا. ومن الصعب تقدير عدد الأرمن المقيمين في روسيا، بصورة دائمة أو مؤقتة. وتزعم مصادر متعددة أن هناك حالياً نحو 2 مليون أرمني أو أكثر في روسيا؛ حيث يوجد في موسكو أكثر من 650 ألف؛ وفي روستوف 200 ألف. ونحو 300 ألف يعيشون في سانت بطرسبرج، و 100 ألف في سوتشي، و 50 ألف في كراسنودار، والباقيون في سيبيريا. بالإضافة إلى غيرها من المراكز الحضرية الروسية. وتشير هذه الإحصائيات إلى أن عدد الأرمن في روسيا يقارب عددهم في الجمهورية الأرمينية. وأدى التدفق الهائل للأرمن إلى استعادة المراكز الأرمينية لحيويتها في الماضي. وأعيد حالياً فتح كنائس أرمينية ومبانٍ أخرى منشأة منذ القرن الثامن عشر. والتي كانت قد صودرت أو أغلقت أو تعرضت للتخريب. وتواصل نشاطها في سانت بطرسبرج وموسكو وروستوف/ناخيتشيفان الجديدة. وبنيت كنائس جديدة في كراسنودار وسوتشي. وكما كان في الماضي، تواصل الجالية الأرمينية المؤثرة القيام، بدور رئيسي، في الاحتفاظ بالسياسة الروسية الموالية للأرمن بشكل عام.

ما وراء القوقاز ودول البلطيق وآسيا الوسطى

ترك انهيار الاتحاد السوفيتي مجموعات عرقية كبيرة - من ضمنها الأرمن. وقد وجدوا أنفسهم في دول ليست وطناً لهم. كان الأرمن يتمتعون بأسلوب الحياة المريح في الجمهوريات المختلفة للاتحاد السوفيتي، وخاصة في أوزبكستان وأذربيجان وجورجيا ولاتفيا ولتوانيا وأستونيا. وأقصت السياسات القومية الجديدة بشكل صريح، أو ثبطت بصورة مهذبة، أي شخص. إلا المجموعات العرقية المحلية. عن المشاركة في الحياة السياسية للأمم الجديدة. ولم يُمنح كثير من الأرمن المواطنة في الدول الجديدة. ورغم أن الأرمن - الذين كان معظمهم مهنيين - تمكنوا من الاحتفاظ بوجودهم ووظائفهم في بعض المناطق، فإنهم واجهوا في مناطق أخرى مشكلات هائلة.

وقضت المذابح البشعة للأرمن في باكو وسومجيت، وتدنيس الكنيسة الأرمنية في باكو. على الوجود الأرمني في أذربيجان، التي كان بها ثالث جالية أرمنية من حيث الحجم في الاتحاد السوفيتي السابق. كما تسببت القلاقل السياسية والحرب في جورجيا في خفض كبير للجالية الأرمنية الضخمة، التي كانت الجالية الثانية من حيث الحجم في الاتحاد السوفيتي السابق. وأصبحت الصحف والمسارح والكنائس الأرمنية هدفاً للمضايقات المستمرة.

كانت دول البلطيق، أستونيا ولاتفيا وليتوانيا، تجذب الحرفيين والجنود الأرمن أثناء العصر السوفيتي. وكان في أستونيا نحو ألفي أرمني قبل عام 1991م. ووصل المزيد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بحثاً عن وظائف في القطاع العلمي. ويبلغ تعداد الجالية الأرمنية نحو 3 آلاف شخص. وقد استأجرت مؤخراً كنيسة لوثرية قديمة لخدمة الاحتياجات الروحية لأبناء الجالية، الذين يقيمون كلهم تقريباً في العاصمة تالين Tallinn.

وكان عدد من الجنود الأرمن السوفيت قد أرسلوا إلى لاتفيا: حيث تزوجوا وبقوا في العاصمة ريجا Riga. واجتذبت الحرية النسبية لدول البلطيق مزيداً من الأرمن، الذين وصلوا هناك في ثمانينيات القرن العشرين. ووجد فنانون وتقنيون لاتفيا ملجأ لهم، ونمت الجالية ببطء. كما وصل المزيد من الأرمن بعد الاستقلال، وبدأوا في مغامرات تجارية صغيرة. وتخدم مدرسة وكنيسة أرمنيتان الآلاف الثلاثة من الأرمن الموجودين في لاتفيا. كما جاء أرمن ليتوانيا أيضاً بعد الحرب العالمية الثانية، واستقروا وتزوجوا نساءً محليات. كما وصلت أعداد أخرى كثيرة بعد زلزال عام 1988م وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي. ورغم وجود صعوبات كبيرة، كلها تتعلق بالإقامة الشرعية، فإن حوالي 3 آلاف أرمني يقيمون في العاصمة فيلنيوس Vilnius.

ويرجع الوجود الأرمني في آسيا الوسطى إلى عهد طريق الحرير. كان تيمورلنك قد قام بترحيل الحرفيين المهرة من الأرمن جبرياً إلى سمرقند. واندمج معظمهم ذابوا في شعوب المنطقة. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كان يوجد نحو 5 آلاف أرمني في المنطقة. اشتغل معظمهم بالتجارة وزراعة القطن والتعدين. وسرعان ما أصبح في آسيا الوسطى ثمانية كنائس أرمنية. وعدد من المدارس. وأنهت الثورة الروسية كل أشكال بروز الأرمن. ودمروا الكنائس. وخلال الحرب العالمية الثانية، بدأ أرمن جدد في الوصول إلى آسيا

الوسطى. عندما تم إجلاؤهم من منطقة الحرب في روسيا، وجاء آخرون نتيجة نفيهم أثناء حملات التطهير الستالينية. ولكن وصل المزيد بعد عام 1956م. ومع حلول عام 1980م تمتع الأرمن الحاصلون على تعليم عالٍ بمستوى معيشة مرتفع جداً في الجمهوريات الإسلامية. خاصة في أوزبكستان. وتم توظيف الأرمن في مناصب مهمة في الحكومة. والمجالات العلمية. وصناعة السياحة. ووصل آلاف الأرمن إلى أوزبكستان. قادمين من أذربيجان وكاراباغ في أواخر الثمانينيات وخلال التسعينيات. والجالية الأرمنية المؤلفة من أكثر من 40 ألف شخص. لها قاعدة في طشقند وسمرقند (بكنيستها الأرمنية). ويلقي الأرمن حتى الآن ترحيباً في أوزبكستان. ويشغلون وظائف ومديرين ومهندسين وأطباء ومحامين وقضاة.

من الصراعات الأيديولوجية إلى السياسات التحزبية

أحزاب ومنظمات المهجر

(من 1921 إلى 2005م)

أدى تأسيس أرمينية السوفيتية إلى وقوع انقسامات سياسية. تتسم بالتعصب والطلائعية بين الأحزاب السياسية الأرمينية. والتي كانت كلها باستثناء الحزب الشيوعي الأرميني منظمات مؤسسة خارج الوطن. وقد بذل أعضاء حزب الطاشناق. الذي كان أقوى أحزاب المهجر. كل ما لديهم من جهد لفرض القيادة من خارج أرمينية: حيث عارضوا أرمينية السوفيتية. واستمروا في المطالبة بدولة أرمينية حرة ومستقلة تشمل أراضي أرمينية التاريخية. أما الهنشاك. فقد كان أعضاؤه يؤيدون بصفة عامة الاتحاد السوفيتي. ويجمعون عن إصدار بيانات صريحة مؤيدة للقومية الأرمينية. أما أعضاء الرمكافار. الذين لم يكن لديهم برنامج حزبي ذو شأن. فقد قرروا قبول الوضع الراهن في أرمينية. وسعوا إلى الإبقاء على الهوية الأرمينية في المهجر من خلال ممارسة الأنشطة الثقافية.

وبعد أن أصبحت أرمينية سوفيتية. اتهم الهنشاك والرمكافار الطاشناق. وعلى وجه الخصوص مكتبهم المركزي. بحكم الجمهورية الأرمينية حكماً ديكتاتورياً. وأكدوا أن عناد الطاشناق وسياساتهم قد أدت ليس فقط إلى فقدان الجمهورية. ولكن أيضاً إلى فقدان مناطق إضافية لصالح الأتراك والأذربيجانيين. وقد فصل الهنشاك والرمكافار أنفسهم عن تاريخ الجمهورية الأولى. ورفضوا علم الجمهورية ذا الألوان الثلاثة الأحمر والأزرق والبرتقالي مثل شعار حزب الطاشناق. وقبلوا علم أرمينية السوفيتية. وفي الوقت نفسه. ادعى الطاشناق أنهم وحدهم يمتلكون العلم والسجل التاريخي للجمهورية الأولى. واتهم الطاشناق أعضاء الهنشاك بأنهم أتباع خانعون للبلشيفية. كما اتهموا الرمكافار بالابتعاد عن الأغلبية الكبيرة للأرمن. وعن واقع التاريخ الأرميني. وصوروا الرمكافار كرجال أعمال ليبراليين. يتجاهلون الكفاح من أجل استقلال أرمينية التاريخية. ويركزون جهودهم على نشاطات اجتماعية وثقافية. تلائم الطبقة فوق المتوسطة والأرمن الأثرياء.

وإذا تفحصنا الأمر عن قرب، سنكتشف أن كل الأطراف تجاهلت عدة حقائق في هذه العملية متعددة الأقطاب. فحتى منتصف عام 1920م لم تتضمن الحكومة الأرمنية أي أعضاء ينتمون للطاشناق باستثناء المناصب الوزارية العليا. ولم يكن العلم مثلك الأتوان علم الحزب، لكنه كان رمزاً للجمهورية. ولأن الطاشناق تحققتوا من أن الأيديولوجية البلشفية. كما كان يتم التبشير بها في ذلك الوقت. لم تكن تتسع للقومية الأرمنية. فقد وضعوا كل آمالهم في الحلفاء وفي الرئيس ويلسون. بالإضافة إلى ذلك. كان الطاشناق يعتقدون أن الحلفاء يستطيعون. بل وسوف. يرضون معاهدة سيفر. بينما سيرفضها البلاشفة. الذين لم يكونوا طرفاً في المعاهدة وكانوا يتفاوضون مع القوميين الأتراك. وكانت خيبة أملهم كبيرة. وشاركهم فيها كل الأرمن. ومن ناحية أخرى. لم يكن الهنشاك. وعلى الأخص الرمكافار. منزعجين عن الجماهير الأرمنية. ولكنهم كانوا عمليين. وأتاحوا إمكانية لإجراء حوار مع البلاشفة: مما مكن المهجر في بعض الأوقات من إمداد أرمنية السوفيتية بمساعدات ضرورية. وفضلاً عن ذلك. فإن السياسات الليبرالية الحذرة للرمكافار وجهت ثروات الطبقة المتوسطة. نحو قضايا أفادت من الناحية الثقافية المهجر الأرمني الكبير.

أدى اغتيال ليفونت توريان Levont Tourian. رئيس الأساقفة. في 24 ديسمبر 1933م في نيويورك على أيدي أعضاء من حزب الطاشناق إلى جعل المهجر أكثر انقساماً. ومع ذلك. فقد حدثت تطورات أخرى شجعت على الوحدة. مثل دعوة موسكو لعودة أرمن المهجر إلى أرمنية السوفيتية. والجهود السوفيتية لاستعادة كارس وأردهان. ولكن العائدين إلى الوطن لم يجدوا ترحيباً. والواقع أن أغلبهم تعرض للاغتراب أو النفي: وبقيت كارس وأردهان جزءاً من تركيا. وأدت النتائج المخيبة للأمال لكلتا المحاولتين. وما تلا ذلك من اندلاع الحرب الباردة. إلى انقسام المهجر مرة أخرى حول الأحزاب المختلفة. وأعلنت الجاليات الأرمنية في المهجر غير الشيوعي تعاطفها أو معارضتها لأرمنية السوفيتية. كما خططت الولايات المتحدة وحلفاؤها: للحد من انتشار الشيوعية. فقاموا باجتذاب وتمويل. وأحياناً تجنيد. أعضاء من مجموعات قومية. مثل: الأرمن والبولنديين والأوكرانيين والكرواتيين واللاتفيين واللوانيين والأستونيين. لمساعدتهم في جهودهم.

وكسب الطاشناق ثقة الغرب. رغم خلفية الحزب الاشتراكية والثورية. بسبب معارضتهم للحكومة الأرمنية السوفيتية. في حين أن الغرب وحلفاءه المعارضين للشيوعية

كانوا يرتابون في الهنشاك. بينما وقف الرمكافار في موضع وسط، واتهمهم الطاشناق بتأييد أن تظل أرمنية شيوعية. وكانوا أحياناً موضع شك من جانب الحكومة الأرمنية. ودفاعاً عن سياستهم. احتج الرمكافار بأن مساندتهم لأرمنية السوفيتية ليست قائمة على الأيديولوجيا. بل على الروابط الثقافية والوطنية، التي تربطهم بالوطن الأم. ورغم أن الأرمن في شرق أوروبا وشرق آسيا لم يكن لزاماً عليهم مواجهة مثل هذا التصدع، فقد تأثرت الجاليات الأرمنية الكبيرة والنشطة سياسياً في العالم العربي وإيران وأمريكا الشمالية بهذا الصراع الأيديولوجي، الذي نشأ فيما بعد الحرب العالمية الثانية.

ومع موت الجاثليق الذي كان يعتلي الكرسي الجاثليقي لقبليقية عام 1952م، استطاع الطاشناق انتخاب مرشح جديد يؤيد مبادئهم. وبعد رفض جاثليقوسية إتشميادزين الاعتراف بالانتخابات بتحريض من مسئولين أرمن سوفيت، والجماعات المعارضة للطاشناق في المهجر. انقسمت الكنيسة أيضاً. واستقطب هذا الانقسام الكنسي جاليات المهجر على نحو أكبر. تقالبت المجموعات الأرمنية. وحاكت المؤامرات. وقتل بعضهم البعض أحياناً في إيران عام 1953م، وفي لبنان عام 1958م، فقد كان الأرمن من الهنشاك والشيوعيين مؤيدين للفصائل المعارضة للشاه في إيران. وللمارونيين في لبنان، بينما كان الطاشناق منضمين إلى التحالفات الموالية للغرب. وفي هذه الأثناء بدأت جاثليقوسية قبليقية في مد نطاق سلطاتها إلى ماوراء لبنان وسوريا وقبرص. وأنشأت مناصب أسقفية منفصلة في الجاليات، التي اكتسب الطاشناق فيها تأييداً؛ خاصة في إيران واليونان وكندا والولايات المتحدة.

وبحلول عام 1960م، كان الرمكافار، رغم ضعفه السياسي، قد استطاع أن يكسب مناصب رئيسية في الاتحاد الخيري الأرمني العام AGBU وشبكة مدارسه العالمية الواسعة الانتشار. كما منحتهم اتصالاتهم بأرمنية السوفيتية صوتاً رئيسياً في كنائس المهجر، التي كانت تهيمن عليها كنيسة إتشميادزين.

ومع منتصف ستينيات القرن العشرين، كان الأرمن قد وطدوا أنفسهم في كل ركن من العالم. ولم تعد الاختلافات الأيديولوجية رغم عظمها هي وحدها القضية التي تحظى بالاهتمام. فإذ أصبحت الجاليات تشعر بالأمان والقبول من جانب الدول المضيفة.

فقد انشغلت بقضايا أخرى. خاصة الخوف من الاندماج. والإجباط الناتج عن الإنكار التركي للإبادة الأرمنية. وقد وجد الأرمن أنه من السهل نسبياً الاحتفاظ بثقافتهم في العالم الإسلامي. ولكن في العالم المسيحي: خاصة في أوروبا وأمريكا الشمالية. كان الأرمن يتزوجون من جنسيات أخرى بأعداد كبيرة. وهي الظاهرة التي وصفها البعض بـ "المذبحة البيضاء". وفي أمريكا خاصة. يعتبر الأرمن أنفسهم أمريكيين. ولم تعد لديهم رغبة في العودة إلى أرمينية. حتى ولو أصبحت حرة. لقد تغيروا من كونهم أرمن إلى مجرد الشعور بالأرمنية. كما واجهت القيم الأرمنية التقليدية تحدياً في كل مكان أيضاً من المهجر. وكانت معدلات الطلاق في تزايد مستمر. ولم يهتم الشباب بالتقاليد التي أصبحوا يرونها عادات قديمة عفا عليها الزمن. ومثل معظم اليهود فيما قبل إنشاء دولة إسرائيل، بدأ الأرمن في النظر إلى المهجر كوضع دائم. فقد ظهر الاتحاد السوفيتي هناك ليبقى. ولن تعيد الأمم المتحدة فتح ملف القضية الأرمنية، والأسوأ من كل ذلك أن الحكومة التركية التزمت بصمتها أو إنكارها التام للجرائم الوحشية. التي ارتكبت ضد الأرمن. ومع ذلك. ففي عام 1965م. وفي الذكرى الخمسين للإبادة الأرمنية. ومرة أخرى في أعقاب زلزال 1988م. طرح معظم الأرمن في المهجر انقسامات الماضي جانباً. وبدأت الفصائل السياسية والكنسية في التعاون بصورة غير رسمية.

فاجأ الاستقلال. وإقامة جمهورية أرمينية الجديدة. أرمن المهجر وأحزابهم السياسية بصفة خاصة. وسرعان ما حل الارتياح والجدل عقب مشاعر الحماس الأولية. فمع إقامة جمهورية مستقلة. كان لابد وأن تعاد دراسة الدور الكامل للمهجر. ورغم أن البعض اندفع فوراً لمساندة الجمهورية الجديدة بكل موارده المالية. اشتكى آخرون من أن مثل هذه الجهود كانت تستنزف الموارد المالية من مشروعات المهجر وأنشطتهم المهمة. خاصة المدارس. وكان على الكنائس المرتبطة بالمقعد الأسقفي في قيليقية أن تبرر استمرار انفصالها. وبدأت تظهر ضغوط من أجل توحيد إكليركي. وأخيراً أصبح وجود أحزاب المهجر نفسه لا ضرورة له. وتجلت الحيرة على وجه الخصوص بين المنتمين إلى كل من الطاشناق. الحزب الأكثر عدداً ونشاطاً. والهنشاك. الحزب الأصغر والأقل نشاطاً في المهجر. ومع زوال النظام السوفيتي فقد الأخير (الهنشاك) مصداقيته. ومع ذلك. فلأن عضويته أصبحت متوارثة تقريباً. استمر أعضاؤه في أنشطتهم السياسية. أما حزب

الطاشناق فأصبح في ورطة خطيرة، فعلى مدى سبعين عاماً كان بلوغ أرمنية حرة غير شيوعية، هو الدافع لوجود حزب الطاشناق. وقد أصبحت أرمنية حرة أخيراً، ولكن لم يكن الطاشناق هم من أنجزوا هذه المهمة.

وسرعان ما وافق الرمكافار والهنشاك على سياسات الحكومة الجديدة في أرمنية، وشعر أعضاء الطاشناق النشطين سياسياً بالتجاهل، فبعد سبعين عاماً من الجهود كان لديهم أمل في أن يكافأوا من جانب الدولة الأرمنية الجديدة، وأن يتقلدوا مناصب مهمة في الحكومة. وبعد أن حصلوا على أصوات ضئيلة جداً في انتخابات عام 1991م (انظر الفصل 24)، أصبح الطاشناق يمثلون المعارضة، فانتقدوا جهود أرمنية في كاراباغ، وترديد نعمة عدم الدخول في حرب ضد تركيا. وسرعان ما حُظر نشاط الحزب في أرمنية، ولكنه استمر في هجومه بالصحف الطاشناقية، وأعطت المحن والأخطاء الاقتصادية والسياسية الأرمنية الطاشناقيين مادة وفيرة، لزيادة هجماتهم على أرمنية. وبعد عدة سنوات، تم رفع الحظر وأصبح الطاشناق معتدلين في انتقاداتهم (انظر الفصل 24).

وإذ لم يكن لأي من أحزاب المهجر السياسية تأثير ذو أهمية تُذكر في أرمنية، استمرت الأحزاب الثلاثة في أداء عملها في المهجر. وهذه مصادفة فريدة، وبالنسبة للكثيرين غير منطقية، في وجود دولة أرمنية الحرة المستقلة. ودعا ذلك بعض الأعضاء إلى أن يتركوا الأحزاب. أو أن ينشقوا عما يرونه قيادة متعجزة، ترفض التخلي عن السلطة. كما احتفظ ذلك الجزء من الكنيسة الأرمنية في المهجر، الذي كانت تقوده جاثليقوسية بيت قيليقية الكبير في أنطلياس Antelias بلبنان. احتفظ أيضاً بما يعتبره وضعه المنفصل تاريخياً. وأحياناً كان البطريركان الأرمنيان في القدس وإسطنبول يرفضان التعاون بصورة كاملة مع إتشميادزين.

ومثل كل المؤسسات القومية الموجودة في الخارج، لم تعتمد أحزاب المهجر أبداً على انتخابات عامة. وكان يتم انتخاب زعمائها بواسطة دوائر داخلية صغيرة، دون الحاجة إلى الرجوع جمهور أكبر من الناخبين. كما أن الصحافة الأرمنية في المهجر، باستثناء حالات قليلة، يتم تمويلها أيضاً عن طريق المنظمات السياسية الثلاث، وتسير على مبادئ

الحزب الذي تتبعه. ومن دواعي السخرية أن تكون أحزاب وصحافة المهجر مماثلة تمامًا للنظام السوفيتي الميت الذي عارضته كلها بشدة. ولا يبدو أنها تعرف كيف تعمل بصورة ديمقراطية. ويأمل المرء ألا يكون من الضروري انتظار وقوع نكبة أخرى: حتى نشهد في النهاية اتحاد المؤسسات السياسية والدينية الأرمنية.

الاتحاد الخيري الأرمني العام

كما رأينا، كانت مصر، بجاليته الأرمنية القوية، مصدر الإرشاد للأرمن في العالم العربي. ففي بداية القرن العشرين، وجد الأرمن المصريون زعيمًا جديدًا هو بوغوص نوبار بن نوبار باشا. درس بوغوص الزراعة والهندسة في سويسرا وفرنسا، ولدى عودته عمل مديرًا وطنيًا بمجلس إدارة سكك حديد مصر. وأشرف على مشروع الري الحكومي في السودان، وأصبح من كبار رجال البنوك والشركات، وشارك بالعمل في عدد من الشركات. ومُنح مثل والده لقب باشا.

استقبل الأرمن من الطبقة المتوسطة في مصر أخبار مذابح الأرمن، التي وقعت خلال عامي 1895-1896م في تركيا، وعلى وجه الخصوص الاشتباكات الأرمنية الأذربيجانية فيما وراء القوقاز، والتي بدأت عام 1905م، بكثير من الاعتدال وضبط النفس والتفكير العملي. شعر الليبراليون والاشتراكيون الذين خاب ظنهم أن هناك حاجة لمنظمة خيرية أرمنية، على مستوى عالمي. وفي عيد الفصح الموافق يوم الأحد 15 إبريل 1906م التقى عشرة مهنيين أرمن في قصر بوغوص نوبار في القاهرة، وكتبوا مسودة تمهيدية للوائح المنظمة للاتحاد الخيري الأرمني العام (AGBU).

ورغم أنه في البداية كانت هناك بعض الخطط، التي تستهدف أن يعمل الاتحاد أيضًا كجمعية سياسية، لكن لم تلبث الفكرة أن طُرحت جانبًا. وكانت مهمة الاتحاد مساعدة الأرمن في أرمنية التاريخية بإنشاء ودعم المدارس والمكتبات والورش والمستشفيات وملاجئ الأيتام، وأن تمد الفلاحين بالأرض والبذور والحيوانات والأدوات، والمساعدة في أوقات الحرائق والمجاعات والزلازل والكوارث الأخرى الطبيعية، أو التي من صنع البشر. على أن توجه المساعدة لكل الأرمن، بغض النظر عن الانتماء الطائفي أو السياسي. ومع حلول عام 1913م كان للاتحاد الخيري الأرمني العام 142 فرعًا في أوروبا وأمريكا وأفريقيا

والإمبراطورية العثمانية. وخلال الإبادة الأرمنية. فقد الاتحاد كل فروعه الثمانين في تركيا العثمانية. وقد انقضى العقد الأول. بعد الحرب العالمية الأولى. في البحث عن الأيتام وإقامة الملاجئ والمستشفيات. وكان لابد من حماية اللاجئين، وعندما انسحبت جمعية إغاثة الشرق الأدنى Near East Relief من الأراضي العربية. حل محلها الاتحاد الخيري الأرمني العام ومنظمات أرمنية أخرى. ومثلما وحد البلاشفة سلطتهم في أرمينية. أصبح من الصعب بصورة متزايدة للمنظمات الخارجية أن تعمل هناك. ورغم أن الاتحاد تمكن من مساعدة أرمينية. فهو يركز حالياً أعماله الخيرية في المهجر.

وفي نهاية فترة الحماية البريطانية لمصر عام 1922م. انتقل مقر قيادة الاتحاد الخيري الأرمني العام إلى باريس. وبعد الحرب العالمية الثانية إلى الولايات المتحدة. حيث نما بدرجة كبيرة. ولديه الآن أكثر من أربع وعشرين مدرسة. علاوة على الفروع الموجودة في الأرجنتين وأستراليا والنمسا وبلجيكا والبرازيل وقبرص وبلغاريا وكندا ومصر وإنجلترا وأثيوبيا وفرنسا واليونان وهولندا وإيران وإيطاليا ولبنان وسويسرا وسوريا وأوروغواي. وما يزيد على عشرين فرعاً في الولايات المتحدة.

تمكن أعضاء حزب الرمكافار. كما رأينا. من الحصول على مناصب مهمة في المنظمة. وبدأوا تحويل الاتحاد الخيري الأرمني العام نحو برنامجهم السياسي. ورغم حقيقة أن قيادة الرمكافار حولت الاتحاد إلى منظمة. تخدم - إلى حد بعيد - عديداً من الأرمن. فإن الاتحاد فقد خلال ستينيات القرن العشرين كثيراً من أهدافه التي توازن بين الأحزاب. وأصبح في الجوهر منظمة رمكافارية. كما تعرض لهجمات متكررة من جانب الطاشناق. وأدى وقوع الزلزال الرهيب في أرمينية ومشكلاتها الاقتصادية المؤلمة بعد الاستقلال إلى إيقاظ القيادة الجديدة للاتحاد. وتنبهها إلى المهام الأصلية. التي قام من أجلها. فحاولت أن تتأى بنفسها عن حزب رمكافار. ولكنها لم تتمكن من أن تفعل ذلك على المدى الطويل. ومع هذا. أصبح الاتحاد الخيري الأرمني العام من أهم المنظمات. التي أعادت بناء أرمينية. وبميزانية سنوية تزيد على 30 مليون دولار. استطاع الاتحاد أن يكفل مؤسسات ونشاطات عديدة. تضمنت الجامعة الأمريكية في أرمينية. والأعمال الخيرية الأرمنية. ومطاعم الفقراء (وهي مؤسسات تقدم الحساء والخبز للفقراء).

والمناهج التعليمية والمستشفيات، وعديدا من المشروعات الخيرية والصناعية الأخرى. وواجه تحويل معظم موارد الاتحاد إلى أرمنية نقداً من جانب فروع الاتحاد المحلية، التي لا بد أن تكافح حالياً للاحتفاظ بميزانياتها السنوية. دون المساعدات المعتادة من المجلس المركزي.

النشاط الأدبي في المهجر

كما رأينا، أدت الإبادة الأرمنية إلى إهلاك معظم الكوادر الثقافية الأرمنية في تركيا. فما استغرق قرناً من الزمان ليتطور. تم تدميره في شهر واحد. في إبريل 1915م. ولكن نجحت مجموعة صغيرة في البقاء على قيد الحياة. ووفقاً لما قاله أحد الخبراء فقد شكلت هذه المجموعة جيلاً أدبياً انتقالياً. وأصبحت فرنسا والشرق الأوسط الوطن الجديد لأدب أرمنية الغربية. وفي عام 1930م شكلت مجموعة من الشباب. مثل: شاهان شاهنور Shahan Shahnur، وطوباليان Topalian، وفازكن شوشانيان Vazken Shushanian وبيشيك تاشليان Beshiktashlian، ونيكوغوس سارافيان Nikoghos Sarafian، وناردوني Narduni. شكلت هذه المجموعة حلقة ثقافية جديدة في باريس. وأصدرت مجلة مينك Menk الأدبية النقدية. ولم تتوقف أشعارهم وقصصهم القصيرة ورواياتهم ومقالاتهم في الماضي. وتنبأت بمستقبل مشرق. ولكن سرعان ما أنهت الحرب العالمية الثانية هذه النهضة قصيرة الأجل. واختار عدد من الكتاب. مثل: شانت Shant وهاجوب أوشاجان Hagop Oshagan وفاهان تيكيان Vahan Tekeyan الشرق الأوسط وطناً جديداً لهم. كتب شانت مسرحيات رومانسية وأصبح معلماً. وعاد أوشاجان إلى إسطنبول عام 1920م. والتي كانت لا تزال في ذلك الوقت تحت السيطرة الأوروبية. وأصدر مع تيكيان وكوستان زاريان Costan Zarian وآخرين بياناً أدبياً. بدأت المجموعة بإصدار جريدتي بارتسرافانك Bartsravank. وميهيان Mehyan الأدبيتين. وصحيفة تشاكانامارت Chakatamart. بهدف إحياء النشاطات الأدبية الأرمنية. وفي عام 1922م. تمكن القوميون الأتراك من السيطرة على إسطنبول. وانحلت المجموعة. وغادر تيكيان وأوشاجان تركيا وتوجلا في أوروبا. واستقرا في نهاية الأمر في الشرق الأوسط. استقر تيكيان في القاهرة. وأوشاجان في القدس. قام تيكيان بكتابة أعمال. تركز على تحليل الأدب الأرمني الحديث. وكانت كتابات أوشاجان. وفقاً

لما قاله أحد الباحثين. انعكاسات أدبية حقيقية لكارثة الإبادة الأرمينية. وقد نُشرت أعمالهم وأعمال كُتّاب آخرين بصحف مختلفة في بيروت (أهيكان Ahekan، وأكوس Akos) وفي حلب (نايري Nayiri) وفي بوسطن (هايرينيك Hayrenik) وفي نيويورك (نور جير Nor Gir). وسعى عدد من الكتاب الأرمين الغربيين، مثل: زايل يسايان Zabel Yesayan، وفاهان توتوفنتس Vahan Totovents، وجورجن ماهاري Gurgen Mahari إلى الهجرة أو اللجوء إلى أرمينية السوفيتية. وفقد أول اثنين من هؤلاء أرواحهم، خلال حملات التطهير الستالينية في ثلاثينيات القرن العشرين (والتي كما رأينا أودت أيضاً بحياة يفيشه تشارنتس Egishe Charents وأكسل باكونتس Axel Bakunts). وبسبب نقص التأيد الحكومي والشعبي، كان الناتج الأدبي الأرميني الغربي في مجموعه ضئيلاً، وأدت القيود الأرمينية السوفيتية على أدب المهجر إلى مزيد من تقييده. فهل الحرية الحالية في أرمينية قادرة على تنشيط إحياء أدبي جديد في المهجر؟ سؤال يبقى في انتظار الإجابة عنه .

اللام المتزايدة للاستقلال

جمهورية أرمينية الثالثة

(1991-2005م)

كانت الحملة الانتخابية لجمهورية أرمينية المقامة حديثاً مسالمة، رغم أنها شهدت جدلاً ساخناً؛ فلم تكن وجهة نظر ليفون تير پتروسيان Levon Ter Petrossian حول دولة أرمينية المستقلة تتفق في الرأي، مع تلك التي تبناها بعض جماهير ناخبيه، الذين عارضوا بشدة سياساته حول عديد من القضايا الحاسمة التي تواجه الدولة، وعلى الأخص رغبته في التوصل إلى حل وسط من نوع ما حول إقليم كاراباغ. واستقال عدد من أعضاء لجنة كاراباغ السابقة من الحكومة، وتركوا حزب الحركة القومية الأرمينية، وشكلوا أحزاباً منفصلة، أو أعلنوا ترشيح أنفسهم لمنصب الرئاسة. واستمر اتحاد تقرير المصير القومي بزعامة پاروير هايريكيان Paruir Hairikian، وهو الحزب الذي انشق قبل ذلك، في برنامج سياسي، الذي كان يلح بإصرار على أن أرمينية لا بد أن تقطع كل روابطها بالاتحاد السوفيتي، بعد الانتخابات القادمة.

وكان لانتخابات عام 1991م في أرمينية أهمية حيوية، فيما يتعلق بمستقبل الأحزاب السياسية الأرمينية في المهجر. ولإثبات وجودها، قامت أحزاب المهجر الثلاثة على الفور بالتسجيل للانتخابات الرئاسية المزمع إجراؤها. وفي الوقت نفسه صادق أعضاء حركة الرمكافار، التي كانت دائماً متعاونة مع الحكومة في أرمينية على ترشيح ليفون تير پتروسيان. وبعد أن فقد أعضاء الهنشاك الأمل في الحصول على صوت بالحكومة الجديدة، ساندوا أيضاً پتروسيان. وأما المنتمون لحزب الطاشناق، فوافقوا أساساً على برنامج هايريكيان السياسي، ولكن في تحرك محسوب، قدموا مرشحهم الخاص، وهو الممثل الوقور سوس سرجيسيان Sos Sargisian.

وفي 16 أكتوبر 1991م، وبعد مرور شهر بالكاد على الاستقلال، توجه الشعب الأرميني إلى صناديق الاقتراع. وفاز ليفون تير پتروسيان ممثل الحركة القومية الأرمينية؛ حيث حصل على 83 بالمائة من الأصوات. بينما حصل الباقون على نتائج هزيلة حقاً. حيث حصل مرشحو اتحاد تقرير المصير القومي والطاشناق مجتمعين على 12 بالمائة فقط من الأصوات. (حصل الطاشناق على 4.4 بالمائة فقط من مجموع الأصوات)، وحصلت الأحزاب الأخرى مجتمعة والمستقلين على ما مجموعه 5 بالمائة. ولكن لا الطاشناق ولا الشيوعيون قبلوا هزيمتهم: التي جاءت مع خسارة الأول لتفوقه السابق. وخسارة الآخرين لامتيازاتهم، ومن المفارقة أنهم بذلك وجدوا قضية مشتركة ضد حكومة ليفون تير پتروسيان.

ولم يكن تسليم حكومة ليفون تير پتروسيان تفويضاً خالصاً بالحكم يعني أنها سوف تتحرر من الضغوط الداخلية والخارجية؛ إذ كانت المشكلات الداخلية الرئيسية هي الحصار الفعلي لأرمينية. الذي تقوم به أذربيجان، ومأزق مئات الآلاف من اللاجئين الأرمين من أذربيجان. بالإضافة إلى منطقة الزلزال. أما القضايا المحلية الأخرى. فقد تضمنت تطبيق إصلاحات التحول إلى السوق الحرة. ووضع أسس البنية، الديمقراطية للحكم. وخصخصة الأرض. أما الهموم الخارجية. فتضمنت علاقات المستقبل مع روسيا وتركيا وجورجيا وإيران. بالإضافة إلى أن جهود جورباتشوف في مرحلة ما بعد الانقلاب للحفاظ على كيان الاتحاد السوفيتي كان يعني أن الغرب لن يعترف فوراً بالجمهورية الجديدة. أما المشكلة الملحة الراهنة. فكانت هي النزاع مع أذربيجان حول إقليم كاراباغ الجبلي والوضع السياسي الغامض في جورجيا. التي كان بها 400 ألف مواطن أرميني. وبشكل ما، كان سيناريو عام 1918م يكرر نفسه.

وفي الوقت نفسه. استمر جورباتشوف في دعم أذربيجان. كنوع من الضغط على أرمينية للدخول في اتحاده الجديد. وكانت مهمة تير پتروسيان الأولى هي تهدئة قلق موسكو. تجاه مستقبل العلاقات بين روسيا وأرمينية. وبعد يوم من إجراء الانتخابات. أشار پتروسيان. وقد واجهته الهجمات الأذرية المتعددة على إقليم كاراباغ وعلى أرمينية، إلى رغبته في التوصل إلى تفاهم ما مع موسكو. ومع الاستمرار في رفض المشاركة في اتحاد سياسي. وقعت أرمينية المعاهدة الاقتصادية، التي أنشأت منطقة تجارة حرة. واتفاقية

للتعاون في مجالات الغذاء والصناعة وإمدادات الطاقة. وحصل جورباتشوف على بعض النفوذ، وفي المقابل، عرض التوسط لوقف إطلاق النار في كاراباغ. ورفضت أذربيجان . التي كانت تتقدم على كل الجبهات في كاراباغ. الدعوة لوقف إطلاق النار. وكلها ثقة أن كلاً من أرمينية وكاراباغ سترضخان للاستسلام. لكن تير پتروسيان سجّل نصراً سياسياً. فقد أشار إلى أنه رغم الاستقلال، فإن أرمينية لم تكن تقطع روابطها مع موسكو. وقد أعلن أيضاً للفرب ولعديد من الأرمن في المهجر أن حكومته لم تكن متهورة، ولكنها كانت راغبة في التحرك تدريجياً وبحذر نحو حل النزاع.

كانت خطوة تير پتروسيان التالية أن يؤكد لتركيا أن أرمينية ليس لديها مطالب إقليمية ضدها، وأنها راغبة في إقامة علاقات اقتصادية ودبلوماسية ودية وحسن جوار. ووجهت الرسالة نفسها إلى جورجيا وإيران وأذربيجان. وبدلاً من اعتناق وجهة نظر فكرية جامدة لا تقبل النقاش، كان لابد أن تنتهج أرمينية سياسة خارجية مرنة وعملية. أما فيما يختص بإقليم ناجورنو كاراباغ، فقد كررت أرمينية - مرة أخرى - أن النزاع لم يكن بين أرمينية وأذربيجان، ولكنه بين الجيب الأرمني لكاراباغ الجبلية وبين باكو، وهي قضية تختص بحقوق الإنسان وتقرير المصير، ولا بد من أن يتم حلها عن طريق الاتصالات المباشرة.

وعلى المدى الطويل، لم تتحقق جهود أرمينية لإقامة علاقات سياسية واقتصادية مع تركيا؛ فالأتراك لم يكتفوا بالاستمرار في حصار أرمينية، ولكنهم أيضاً أصروا على أن قضية كاراباغ، لا بد وأن تحل قبل طرح أي شيء آخر للمناقشة. وقد أسفر الحصار الأذربيجاني عن حدوث نقص شديد في الغذاء والوقود، وتسبب منذ عام 1989م في توقف فعلى للمساعدات الموجهة لإعادة إعمار أثار الزلزال. وجاء إغلاق محطة ميدزامور للطاقة النووية في العام نفسه ليعني أن المواطنين في أرمينية، بما فيهم الكثير من اللاجئين، سوف يواجهون شتاءً صعباً. وكان الوضع السياسي والاقتصادي في روسيا وجورجيا يشير إلى أن أرمينية، فيما عدا جملة المساعدات الخارجية الضئيلة، عليها أن تعتمد بشكل رئيسي على جهودها الذاتية. وفي الحين ذاته، تعرضت سياسة تير پتروسيان تجاه تركيا للنقد الشديد، من جانب أنصار الطاشناق. بينما انتقد أنصار الهنشاك والشيوعيون علاقاته الفاترة مع موسكو.

كان جورباتشوف لا يزال يأمل في إنقاذ الاتحاد السوفيتي، فاقترح إنشاء اتحاد مجموعة الدول المستقلة. وتلقى موافقات شفاهية من زعماء سبع جمهوريات من ضمنها أذربيجان، ولكن ليس من بينها أرمينية وجورجيا ودول البلطيق، والدولة الأكثر أهمية: أوكرانيا. وقد استمر الرئيس الأذربيجاني موتالييوف Mutalibov في التعاون مع جورباتشوف، وتلقى مساعدات عسكرية روسية: لإجبار إقليم كاراباغ على الاستسلام. وفي بداية شهر نوفمبر 1991م، أغلقت أذربيجان أنابيب الغاز، الذي ترسله إلى أرمينية. وفي الوقت نفسه، أصبحت تركيا أول دولة تعترف بجمهورية أذربيجان. ومع نهاية شهر نوفمبر، شجعت النجاحات العسكرية والسياسية لأذربيجان برلمانها، محفوزًا بحزبه القومي المتطرف المسمى بحزب الجبهة الوطنية، والذي استحوذ على كثير من المؤيدين، فقام بإلغاء وضع الحكم الذاتي لكاراباغ، وصوّت لصالح فرض السيطرة المباشرة على الإقليم. وأدرك المجلس القومي، في موسكو، أن مثل هذا الإجراء لن يجبر فقط تير هتروسيان على التخلي عن موقفه المعتدل، ولكنه أيضًا سوف يثير رد فعل قوي من البرلمان الأوروبي، الذي كان متعاطفًا مع أرمينية. وتجاهل مجلس الدولة الروسية فكرة جورباتشوف الخاصة بمنطقة عازلة، ووجه أمرًا إلى أذربيجان بإلغاء قرارها. وكان موتالييوف يخشى شعبية حزب الجبهة القومية، فحثّ البرلمان على إعادة التفكير. أما تركيا، التي لم تكن ترغب في تجدد الوجود الروسي في المنطقة، فقد نصحت الجبهة القومية بالتراجع، وفي الوقت نفسه عرضت إيران التوسط بين الجانبين.

في أثناء ذلك، كانت جورجيا أيضًا قد تعرضت للعقاب: لرفض عرض جورباتشوف بالمشاركة في اتحاد الدول المستقلة. ومن ناحية أخرى، فإن المثقف الشعبي المنشق جامساخورديا Gamsakhurdia، والذي دخل السجن إبان الحكم الشيوعي، وأصبح رئيسًا لجورجيا في ربيع 1991م، واجه مشكلات أعظم مع الجيب المسلم لأوسيتيا الجنوبية، الذي أعلن رغبته في اللحاق بأوسيتيا الشمالية في الجمهورية الروسية. وكانت أوسيتيا قد بدأت حركتها الانفصالية عام 1990، ولكنها تلقت تحذيرًا من موسكو، التي كانت تعتبر جورجيا من بين أعضاء اتحادها. وفي عام 1991م، بعد مضي عام: نتيجة لتصرفات جورجيا المستقلة، تم إمداد الانفاليين في أوسيتيا بمساعدات عسكرية روسية، فبدأوا عندئذ حربًا ضد جورجيا. وبعبارة أخرى، فإن جورباتشوف، الذي كان يثبط من

عزيمة الحركة الانفصالية الأرمنية في كاراباغ، أخذ يشجع نوع الحركة نفسها في أوسيتيا الجنوبية. ولم تساعد القومية المتطرفة والحكم الجائر لجامساخورديا الأحداث، بل أدت من الناحية الفعلية إلى إثارة عداة الأقليات المسلمة، مثل الأبخازيين. وفي النهاية فجرت نظرتة المتدنية لمبادئ الديمقراطية تمرّدًا من جانب الحرس الوطني، الذي وضع جامساخورديا مع نهاية العام في موقف حرج. لكن الأحداث تحركت أسرع من كل التنبؤات، ولم تتحقق أبدًا خطة جورباتشوف بإقامة اتحاد دول مستقلة. وفي أول ديسمبر عام 1991م، وافق الأوكرانيون في استفتاء على الاستقلال، وفي 8 ديسمبر أعلن زعماء روسيا بقيادة بوريس يلتسين، وأوكرانيا وروسيا البيضاء إقامة كومنولث، ودعوا الجمهوريات الأخرى بالاتحاد السوفيتي السابق؛ للدخول في هذا الكومنولث كدول مستقلة. وكان يلتسين قد تمكن من القيام بمناورات، نتج عنها هزيمة جورباتشوف. وأعلنت أرمينية فورًا أنها ستشارك في الكومنولث، وفي 21 ديسمبر، تقدمت مع ثماني جمهوريات سابقة أخرى، من بينها أذربيجان بطلب رسمي للدخول في "كومنولث الدول المستقلة" (CIS). وفي مارس عام 1992م أصبحت رسميًا عضوًا في الكومنولث. وفي مايو من العام نفسه، اشتركت أرمينية أيضًا في معاهدة الدفاع الخاصة بالكومنولث.

في 25 ديسمبر 1991م، استقال ميخائيل جورباتشوف من الرئاسة، وتفكك رسميًا اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. وفي 6 يناير 1992م أعلن إقليم ناجورنو كاراباغ استقلاله. وقوبل التغيير في الزعامة الروسية بعدم ترحيب في أذربيجان، بينما لقي ترحيبًا عظيمًا في أرمينية. وكان موتالييوف شيوعيًا متشددًا، ويأمل في الامتثال لأوامر موسكو، طالما أقيمت عليه وعلى زمرة في السلطة، وطالما ظلت تدعم جهود أذربيجان لتدمير الحركة الأرمنية في كاراباغ. وبخروج جورباتشوف شارك في الكومنولث، وحاول أن يفوز بحظوة يلتسين، ولكن أفعاله الماضية، خاصة دعمه لانقلاب أغسطس وتعامله مع العرقين الروس في باكو، أفقدته شعبيته.

وقد دفع زوال الاتحاد السوفيتي مرة أخرى بأرمينية للخروج إلى المعترك الدولي. وفي 2 مارس 1992م، تم الاعتراف بأرمينية كدولة ذات سيادة، وأصبحت عضوًا في الأمم المتحدة. وفي عجلة، تم فتح مسار للبعثات الدبلوماسية الأرمنية في الدول، التي كانت بها

جاليات أرمنية. تستطيع مد يد المساعدة المالية والعملية إلى الدبلوماسيين الجدد. وبعد ذلك مباشرة تم استخراج جوازات سفر وطوابع. وفي النهاية تم سك عملة أرمنية جديدة، وتغيرت أيضاً أسماء الشوارع والأماكن. ورغم وضع اللاجئين والعجز في المواد الغذائية والطبية والوقود، والحصار الأذربيجاني، والاضطرابات الأهلية في جورجيا، وتركيا عدائية. ونشوء سياسات تحزبية. مما يذكرُ بعدد من أحداث 1919-1920م. فإنه كانت هناك اختلافات مهمة. فلم تكن روسيا بكل مشكلاتها تعاني من حرب أهلية. وكان لدى أرمنية حكومة أكثر تنظيمًا وأكثر تمثيلاً تحت حماية ميثاق الأمم المتحدة، وكان لديها بنية تحتية أفضل من الجمهورية الأولى.

ومع خروج جورباتشوف. كانت القوات الروسية قد انسحبت من كاراباغ. وبدأ الأرمن بالإقليم يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم، وبعد عام. تمكنوا ليس فقط من السيطرة على معظم الإقليم. ولكنهم استولوا أيضاً على كلباجار. التي كانت خارج المنطقة (انظر خريطة 44). وبدأت الجبهة الشعبية في أذربيجان. والتي كانت مثل اليمين الأرمني قد دعت إلى انفصال كامل عن روسيا، وطالبت بروابط أوثق مع تركيا. بدأت هذه الجبهة في كسب تابعين جدد في الحكومة. ورفض البرلمان الأذربيجاني التصديق على معاهدة كومنولث الدول المستقلة. وأجبر موتالييوف على الاستقالة. وحاولت حكومة انتقالية من الجبهة القومية والوزراء الشيوعيين أن تحكم البلاد؛ حتى يتم إجراء انتخابات رئاسة جديدة في أواخر الربيع. ولكن بعد شهرين سيطر الشيوعيون على البرلمان. وخشية فقدان السلطة، صوتوا لصالح إعادة موتالييوف. الذي أعلن فوراً حالة الطوارئ وألغى الانتخابات المقررة. إلا أن أعمال شغب اندلعت من جانب مسلحين. من أنصار الجبهة القومية، أجبرته على الفرار بعد يوم واحد. وفي بداية شهر يونيو فاز في الانتخابات أحد زعماء الجبهة القومية، الأكاديمي أبو الفيض التشيبي. وأصبح رئيساً جديداً لأذربيجان. وأدى رفضه المطلق للمشاركة في الكومنولث. وقربه من تركيا إلى إثارة قلق روسيا، بل وإيران أيضاً.

في الوقت نفسه. لم يستطع جامساخورديا احتواء التمرد القائم ضده، وفي أوائل يناير 1992م فر من تبيليسي. وعاد إلى جورجيا إدوارد شيفرنادزه. الذي كان زعيماً شيوعياً لجورجيا لمدة ثلاثة عشر عاماً (1972-1985م)، كما كان عضواً في مجلس وزراء

جورباتشوف ووزير خارجية الاتحاد السوفيتي. وقد أعطى رفضه الانضمام إلى الكومنولث الجديد فرصة للأقلية الأبخازية؛ للإعلان عن رغبة أبخازيا في الانضمام إلى الكومنولث. وأعطت روسيا بعض المساعدات للأبخازيين. لكي تؤكد وجودها في المنطقة. ولوقف النفوذ التركي. وتمكن الأبخازيون من مقاومة الجورجيين. وصمدوا في مواجهة الجيش الجورجي. وبحلول خريف عام 1993م. قررت جورجيا أنها كانت تدرس الانضمام إلى الكومنولث الجديد. وبدء مفاوضات مع أبخازيا.

في أثناء ذلك، أدت سياسات التشبيبي القومية ومواقفه المؤيدة لتركيا. ليس فقط إلى عزل روسيا وإيران، بل أدت أيضًا إلى بدء حركة الانفصال من جانب الليزجين Lezgis. وهم قبائل سنية، والتاليشيين Taleshis. وهم شعب شيعي إيراني. واستطاعت أرمينية كعضو في الكومنولث أن تعتمد على روسيا أكثر كثيرًا من أذربيجان، التي لم تكن عضوًا. ومع حلول صيف 1993م استولى أرمن كاراباغ علي شوشي، بالإضافة إلى الممر الواقع بين أرمينية وكاراباغ (انظر خريطة 44)، وقرر الجيش والمعارضة الأذريان إبعاد التشبيبي. وفي هذا الوقت استغل حيدر علييف الزعيم الشيوعي السابق لأذربيجان (1969-1989م) وكان من أعضاء المكتب السياسي في عهد جورباتشوف، استغل فرصة الوضع الراهن، فقد كان ينتظر الفرصة الملائمة في ناخيتشيفان: حيث كان قد أسس روابط وثيقة مع تركيا. وتم إنشاء جسرين عبر نهر أراكس، للربط بين ناخيتشيفان وتركيا؛ وزار الرئيس التركي المنطقة، ووعد بمساعدات اقتصادية، وحذر أرمينية من محاولة الهجوم على ناخيتشيفان. وفي أواخر الصيف، كان علييف المفضل من جانب موسكو عن التشبيبي على رأس الجمهورية، بينما سعى التشبيبي، المنتخب بالوسائل الديمقراطية، للجوء إلى ناخيتشيفان. وفي بداية الخريف، أصبحت أذربيجان عضوًا في الكومنولث الجديد. وفي أكتوبر 1993م كانت موسكو مرة أخرى الوسيط الرئيسي في القوقاز. ومع عودة نفوذ موسكو في القوقاز تحول دور روسيا إلى وسيط وأخ أكبر. ولكن، بخلاف الماضي، لم تصدر أية تصريحات حول التكامل الإقليمي للجمهوريات السوفيتية السابقة، وبدا أن موسكو تفضل حرب الاستنزاف.

في الوقت نفسه استمر الحصار الشديد لأرمنية. وسقط الناتج القومي الإجمالي بحوالي 60 بالمائة بين عامي 1991 و 1993 م. وشهدت عجزاً على الأخص في إمدادات الوقود والغاز. وكان شتاء 1992-1993 م قاسياً للغاية. واستمرت محطة ميدزمو النووية مغلقة. واضطرت المدارس والمكاتب والمصانع والمستشفيات لإغلاق أبوابها بسبب العجز في التدفئة والكهرباء. وتمت التضحية بكثير من الكتب والأشجار لمجرد الحصول على الدفء. وكان للمساعدات المقدمة من الولايات المتحدة وأوروبا والمهجر الأرمني دور كبير في مواجهة جزء من الأزمة. ولكن معدل الوفيات كان عالياً بين الأطفال وكبار السن. كما انخفض معدل المواليد أيضاً. وأسهم حسن التنظيم داخل أرمنية إلى جانب المساعدات الأجنبية. وكذلك الوقود الذي قدمته إيران وتركمانستان في تخفيف الأزمة، ولم تتكرر أزمة 1992-1993 م مرة أخرى.

وبحلول عام 1994 م، كانت أرمنية قد أبلت بلاء حسناً على الصعيد الدبلوماسي، وعينت بعثات إضافية في آسيا وأوروبا والأمريكتين. وتم أيضاً الالتزام باتفاقية هزيلة لوقف إطلاق النار في كاراباغ. وأدى الكفاح المسلح في كاراباغ إلى سقوط 20 ألف قتيل. ولكنه أدى إلى الاستيلاء على أعدام وفيزولي (انظر الخريطة 44). وكانت المشكلة التي تستمر في مواجهة أرمنية أن حوالي 300 ألف لاجئ من التطهير العرقي في أذربيجان والحرب الأهلية في جورجيا، وهؤلاء الذين فقدوا منازلهم وممتلكاتهم في زلزال عام 1988 م. وأعاق استمرار الحصار الأذري والتركي بشدة أي تحسن اقتصادي، وساعدت فقط الواردات من روسيا وإيران والمساعدات الخارجية على الإبقاء على الاقتصاد في حالة حركة. ولو أنها كانت حركة بطيئة للغاية. ومع نهاية عام 1994 م، غادر أرمنية ما يزيد على 500 ألف أرمني (بعضهم لاجئين من جورجيا وأذربيجان) بشكل مؤقت أو نهائي إلى روسيا أو مناطق أخرى في الاتحاد السوفيتي السابق وأمريكا الشمالية وأستراليا وأوروبا.

ولكي تكون مؤهلة للحصول على قروض من صندوق النقد الدولي، استمرت أرمنية في سياسة الخصخصة، وواصلت بسرعة كبيرة التوسع في تحرير الأسعار ووقف الدعم الحكومي. وبحلول عام 1995 م كان 40% من الناتج القومي الإجمالي مملوكاً للقطاع الخاص. لكن أسعار المواد الغذائية الأساسية ارتفعت بنحو 25%، وارتفع سعر الخبز أحد

عشر ضعفاً، وأصبحت تكلفة الكهرباء ستة أضعاف ما كانت عليه من قبل.

وعززت الأوضاع الاقتصادية الصعبة أحزاب المعارضة. وظهرت ائتلافات جديدة لأعضاء سابقين لحزب الحركة القومية الأرمنية. ووجهت للحكومة اتهامات بانتهاك حقوق الإنسان من جانب كل من الحزب الشيوعي الأرمني، ومنظمة التقدم القومي، وحزب أرمنية الديمقراطية، والاتحاد الديمقراطي القومي، وحركة تقرير المصير القومي، والاتحاد الثوري الأرمني. وشملت الاتهامات التعذيب الجسدي، واعتقال زعماء للمعارضة. وكذلك حظر حزب الطاشناق والصحف، التي يصدرها مما زاد من سخونة الاتهامات. ورغم الحصول على قرض قيمته 28 مليون دولار من البنك الدولي، بدأت عمليات إعادة إعمار المناطق التي دمرها الزلزال ببطء شديد للغاية، واستمر 450 ألف من المشردين يقيمون في مساكن مؤقتة، رغم مرور ستة أعوام على الزلزال. واتحدت أحزاب المعارضة وشكلت التحالف الائتلافي القومي، ونظمت عددًا من المسيرات الضخمة المعادية للحكومة خلال عام 1995م.

وكان الوضع في كاراباغ قد تحسن في هذه الأثناء بدرجة كبيرة، ورغم القصف المتقطع للقرى الحدودية من جانب الأذريين، فقد استمر الالتزام باتفاقية عام 1994م لوقف إطلاق النار، وعقد قادة أرمن وأذريون عدة لقاءات نظمتها المنظمة الدولية للأمن والتعاون في أوروبا (OSCE) بالإضافة إلى روسيا. وحاولت الحكومة الأرمنية أن تسلك مسارًا مستقلًا، رغم روابطها التاريخية مع روسيا. خشى الأرمن أن يؤثر عدم الاستقرار المدني الهائل في روسيا بصورة خطيرة على أرمنية، التي تحيط بها الأرض من جميع الجهات والمحرومة من أي منفذ بحري. فمشكلات يلتسين في الشيشان، ومشكلات جورجيا مع المسلمين والانفصاليين فيها، كلها جعلت أرمنية في حالة تأهب حذر؛ وكانت حكومة يريفان تعي جيداً الحالات المشابهة، التي أجهزت على الجمهورية الأرمنية الأولى. وإذا شعرت أرمنية بأن السياسة الأمريكية تفضل تركيا وأذربيجان، أخذت أرمنية تفتح بشكل حذر مع روسيا، ووقعت اتفاقية تسمح للقوات العسكرية الروسية باستئجار قاعدة في أرمنية لمدة خمسة وعشرين عامًا، وسرعان ما تحركت وحدات روسية لحراسة الحدود الأرمنية مع تركيا.

كان الحدثن الرئيسيان في عام 1995م. هما: إعادة فتح محطة ميدزامور النووية. وانتخاب جاتليق جديد للكنيسة الأرمينية. ورغم احتجاجات رجال البيئـة، بدأت محطة ميدزامور عمليات جزئية. وأمدت الدولة بكثير من الطاقة الكهربائية، التي هي في أشد الحاجة إليها. وانتهى تماماً الإظلـام المتكرر في يريفان. وفي شهر إبريل 1995م، انتخب كاركين الثاني جاتليق الكنيسة الأرمينية في قـيلية، ليحل محل فازكن الأول بعد وفاته. وليكون الجاتليق رقم 131 لكل الأرمـن. واتخذ لقب كاركين الأول. ورغم ما أشيع من أن الحكومة بقيادة الرئيس تير پتروسيان، مارست ضغطاً كبيراً حتى يتم انتخاب كاركين، فإن فصاحة كاركين وتفوفه اللاهوتي على كل المرشحين الآخرين جعله أفضل اختيار. كانت الانتخابات بالتأكيد خطوة موفقة غير متوقعة للحركة القومية الأرمينية (ANM). وكان الكرسي الجاتليقي لقيلية. يسيطر على طائفة على درجة كبيرة من الأهمية في الشرق الأوسط. وكان لها عدد كبير من الأتباع في المهجر الأرميني الكبير في أوروبا والأمريكيتين. وبدأت فوراً الدعوة لاتحاد الكنيستين. ولقي ذلك ترحيباً من الحبر الجديد. فأرمينية الآن دولة مستقلة. وكان جاتليق الكرسي الجاتليقي في إشميادزين، هو القائد السابق للكرسي الجاتليقي المعارض.

أصبح المنتمون للطاشناق والشيوعيون، يُنظر إليهم الآن بمثابة قوى تقسيم وتفرقة. بينما أصبحت الحركة القومية الأرمينية ANM هي المدافع عن الوحدة والتعاون. وحافظت الانتخابات البرلمانية، التي جرت في يوليو 1995م على استمرار الحركة القومية الأرمينية تحت السيطرة. وكان دستور أرمينية الجديد، الذي منح الرئيس مزيداً من السلطة قد تمت الموافقة عليه بنسبة 68% من أصوات الناخبين. واتهمت المعارضة الحكومة بالاحتيال والتلاعب في الانتخابات. وردت الحكومة على هذه الاتهامات باعتقال عدد من زعماء المعارضة. وتفتيش مقار قياداتهم. وبعد خمس سنوات في الحكم، أعلن تير پتروسيان أنه سيسعى لمنصب الرئيس مرة أخرى عام 1996م. وحقق الناتج القومي الإجمالي نمواً بمعدل 6%. (وظل بهذا المعدل حتى عام 1998م). وكان الرئيس محل تقدير من أجله. وشرع نفسه تحت لواء الكتلة الجمهورية، التي كانت تمثل الحركة القومية الأرمينية ANM. وبضعة مجموعات سياسية متحالفة أصغر. شملت الرمكافار. وشارك ستة مرشحين آخرين في الانتخابات الرئاسية التي جرت في سبتمبر 1996م، مثلوا

الاتحاد القومي الديمقراطي، والحزب الشيوعي، واتحاد الوحدة القومية. وحزب أرمينية الديمقراطي واتحاد تقرير المصير القومي، والاتحاد العلمي والصناعي والمدني، وحركة أرتساخ هاياستان.

وتضمن البرنامج السياسي لبتروسيان تقوية المؤسسات الديمقراطية، واستمرار عمليات القضاء على الفساد والجريمة، وتقوية الجيش ووكالات الاستخبارات، والتعجيل بالإصلاحات الاقتصادية مع زيادات إضافية في الأجور، وإقامة نظام تأمين اجتماعي قومي. ودعا أيضاً إلى زيادة التعاون مع روسيا وجورجيا وإيران، بالإضافة إلى تأسيس علاقات أكثر استقراراً مع أذربيجان وتركيا، وكان الأكثر أهمية. على أية حال، وعده بإيجاد تسوية لنزاع كاراباغ، وتحسين العلاقات مع المهجر الأرميني الضخم في جميع أنحاء العالم، وأضاف أن الأرمين يرغبون بصدق في إنهاء النزاع الطويل والمكلف حول إقليم كاراباغ، والذي أبطأ من حركة الإصلاح الاقتصادي. كانت أرمينية ترغب في إعادة كل المنطقة، التي استولت عليها خارج إقليم كاراباغ الجبلي، ما عدا ممر لاشين Lachin. مقابل ضمانات جادة، ومنح كاراباغ وضعاً خاصاً تتمتع فيه بالاستقلال الذاتي.

وفي سبتمبر انسحب من الانتخابات مرشحو الحزب الديمقراطي واتحاد تقرير المصير القومي، وكذلك مرشحو حركة أرتساخ هاياستان، وساندوا فازكن مانوكيان مرشح الاتحاد القومي الديمقراطي لمنصب الرئيس. كما وافق الطاشناق المحظورون أيضاً على مانوكيان. ودعا برنامج مانوكيان السياسي إلى الاستقلال الكامل لكاراباغ، وإلى إجراء انتخابات برلمانية جديدة، ودستور جديد يعطي السلطات التشريعية والقضائية مزيداً من القوة، في مواجهة السلطة التنفيذية القوية.

وجاءت نتائج الانتخابات لتعطي تبر پتروسيان نصراً بنسبة 51 بالمائة من الأصوات لصالحه. وحقق مانوكيان 37 بالمائة من الأصوات، بينما نال الشيوعيون الهزيمة الثالثة الكبيرة والمثيرة للدهشة، ومرة أخرى، اتهمت المعارضة الحزب الحاكم بالاحتيال الهائل في فرز أصوات الاقتراع، وقد شهد المراقبون الأجانب بوجود بعض المخالفات، ولكنهم قرروا في النهاية أن هذه المخالفات لم تؤثر بشكل ملحوظ على النتيجة. وأدت المسيرات المستمرة، والشغب، وبعض الطلقات النارية إلى الاعتقالات، وحظر قصير الأمد على كل التجمعات العامة، وعيّن پتروسيان مجلس وزراء جديداً برئاسة أرمين سرجيسيان، وعاد الهدوء إلى يريفان.

وكان أحد الأحداث المهمة التي وقعت عام 1996م فتح الجسر الممتد على نهر أراكس إلى إيران. وأصبح لدى أرمنية طريق سريع من ميغري إلى شمال إيران. التي تعد ثاني أكبر شريك تجاري لها بعد روسيا. وبدأ الغاز الطبيعي والمنسوجات والمواد الغذائية في الوصول بكميات كبيرة من إيران. وفتحت أرمنية مزيداً من مقرات البعثات الدبلوماسية في أوروبا وآسيا. وتقدمت بطلب عضوية في منظمة التجارة العالمية. وأسفرت المباحثات التي أجريت مع أذربيجان عن تبادل الأسرى بين الجانبين. كما أدت محادثات مع تركيا إلى زيادة إمكانية فتح الحدود بين البلدين. ومع حلول عام 1997م، كانت أرمنية رغم بعض الانتقادات تعمل بشكل جيد. فكان سجل حقوق الإنسان في أرمنية أفضل من مثيله في أذربيجان أو جورجيا. وحقق اقتصادها نمواً طفيفاً. واستمرت سياسة الخصخصة. وهبط معدل التضخم بشكل مثير إلى 20 بالمائة. وكانت البطالة لا تزال مشكلة رئيسية، وتزايدت حالات إدمان المخدرات والإيدز. وعلاوة على ذلك. ووفقاً للمسمح الذي أجراه برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة UNDP، غادر حوالي 700 ألف مواطن أرمني البلاد منذ استقلالها.

كانت استقالة أرمين سرجيسيان بسبب حالته الصحية بمثابة ضربة لتير پتروسيان: لأن سرجيسيان كان مسئولاً عن التقارب بين الحكومة والمعارضة. بالإضافة إلى زعماء المهجر. وعُين زوبيرت كوتشاريان رئيس كاراباغ رئيساً جديداً لمجلس الوزراء في أرمنية. واجتمع كوتشاريان فوراً مع زعماء المعارضة. بما فيهم الطاشناق. ووعد ببرنامج للوحدة القومية. في أثناء ذلك وقعت أرمنية وروسيا معاهدة ثنائية للتعاون الاقتصادي والعسكري الوثيق. وفي الوقت نفسه. طلبت أرمنية من منظمة حلف شمال الأطلسي NATO أن تكون ضمن برنامج للشراكة في السلام.

وهيمنت قضيتان على النصف الثاني من عام 1997م. وهما: رفع الحظر المفروض على الطاشناق. وترددت شائعات بأن الحكومة تمد العدة للتخلي عن كاراباغ وجعله تابعاً لأذربيجان. وقد اقترحت الخطة المرسله من قبل فريق منسك OSCE (The OSCE's Minsk Group) اقترحت انسحاب القوات الأرمنية من كاراباغ. قبل إجراء محادثات حول الوضع السياسي النهائي للإقليم. وكثف من الشائعات رفض كشف تفاصيل خطة السلام المقترحة

حول كاراباغ. كان الحزب المسمى بحزب كاراباغ في البرلمان. والمعروف بـ "يركراباه" (أي "المدافعون عن الأرض") من المحاربين القدماء. الذين انتخبوا في البرلمان وتمتعوا بتأييد فازكن سرجيسيان وزير الدفاع. ومع حلول يناير 1998م. وقع انشقاق كبير بين ليفون تير پتروسيان وأعضاء حكومته حول كاراباغ. حيث أصر كوتشاريان رئيس الوزراء. ومعه فازكن سرجيسيان وزير الدفاع. وسيرج سرجيسيان وزير الداخلية والأمن القومي. على أن إقامة اتحاد كونفيدرالي هو الحل الوحيد للنزاع حول كاراباغ. وسوف يتمتع كاراباغ وأذربيجان بوضعية متعادلة في المنطقة. وسرعان ما استقال مؤيدون آخرون للرئيس. من بينهم أرزومانيان Arzoumanian وزير الخارجية. وأتهم الرئيس وعائلته وزملاؤه المقربون أيضاً بالفساد والتریح من صفقات جرت في الظل.

في هذه الأثناء. أثرت الأزمة الاقتصادية في روسيا عام 1998م بشدة على أكبر شريك تجاري لأرمينية. وارتفع حجم الإنفاق العسكري لأرمينية إلى 9 بالمائة من الموازنة في الفترة ما بين عامي 1993 و 1998م. وفي 3 فبراير 1998م. استقال ليفون تير پتروسيان خشية حدوث زعزعة كلية للدولة. وأصبح كوتشاريان رئيساً مؤقتاً لحين إجراء انتخابات جديدة. ورفع كوتشاريان جزئياً الحظر المفروض على حركة الطاشناق. وأيد زعماء الحركة ترشيحه في الانتخابات المزمع إجراؤها. كما انتهج كوتشاريان أيضاً سياسة معاكسة لسياسة پتروسيان. التي تمنع الأرمن في المهجر من الحصول على جنسية مزدوجة. وأعلن ديمرجيان. الذي قاد أرمينية السوفيتية على مدى أربعة عشر عاماً والمحبوب بين عامة الشعب. ترشيحه أيضاً في الانتخابات. وفي نوفمبر 1998م. اقترحت منظمة الأمن والتعاون الأوروبي OSCE إقامة "دولة مشتركة" بحيث يظل كاراباغ جزءاً من أذربيجان اسمياً فقط. بينما تعطي سلطة مطلقة لحكومة ذاتية في الإقليم. ورفضت أذربيجان هذه الخطة.

استهدف برنامج كوتشاريان السياسي تقوية الصناعة. وتوفير مزيد من الوظائف. وزيادة الاستثمارات الأجنبية. واتخاذ إجراءات صارمة ضد السوق السوداء والتهرب الضريبي. ووعده بزيادة الأجور. وإصلاح أنظمة التأمين الاجتماعي والمعاشات. وتقديم رعاية صحية مجانية لذوي الحاجة. كما تضمن البرنامج تأييد إقامة روابط وثيقة مع

روسيا. وأثيرت من جديد قضية الإبادة الأرمنية. وأسفرت نتائج الانتخابات عن حصول كوتشاريان على أكثر من 38 بالمائة من الأصوات، وحصل ديميرچيان على أكثر من 30 بالمائة. وحصل فازكن مانوكيان مرشح الاتحاد القومي الديمقراطي على 12 بالمائة. وحصل المرشح الشيوعي على 11 بالمائة. ومرة أخرى صدرت الاتهامات بحدوث مخالفات. ولكن المراقبين الخارجيين قرروا أنه على الرغم من وجود أخطاء، فإن نتائج الانتخابات كانت في مجملها صحيحة. وبما أن أيًا من المرشحين لم يحصل على أكثر من 50 بالمائة، فقد تقرر إجراء انتخابات نهائية خلال أسبوعين، ومنحت الجولة الثانية للانتخابات كوتشاريان 60 بالمائة من الأصوات، بينما حصل ديميرچيان على 40 بالمائة. وقام الرئيس الجديد بتشكيل وزارته برئاسة أرمين داربنيان Armen Darbinian. ورفّع الحظر تمامًا عن الطاشناق. وشملهم كوتشاريان في حكومته. وبعد ذلك مباشرة حضر كوتشاريان اجتماعات منظمة التعاون الاقتصادي لدول البحر الأسود، التي شددت على الحاجة لتحرير التجارة، وإقامة علاقات اقتصادية أكبر بين الدول الأعضاء بما فيها تركيا وأذربيجان. ومع حلول صيف عام 1998م، حقق الاقتصاد معدل نمو قدره 6.4 بالمائة. وزادت الاستثمارات الأجنبية، وعلى وجه الخصوص من جانب الأرمن في المهجر. واختفت بشكل كبير الشائعات حول خيانة كاراباغ. وانحسر التنافس بين الأحزاب السياسية إلى حد كبير.

ومع نهاية عام 1998م، فقد كوتشاريان بريقه بسبب عدد من الجرائم السياسية، بالإضافة إلى الاتهامات بحكم النخبة وسيادة زمرة صغيرة. وأضاف مانوكيان وديميرچيان انتقاداتهما. وحتى الطاشناق أعربوا عن قلقهم تجاه هذه المشكلات. وسرعان ما أدرك كوتشاريان أنه لم يكن حتى يتحكم في هدفه الأساسي، المتعلق بمشكلة كاراباغ. وفي المقابل كان لأركادي غوكاسيان Arkady Ghukassian الذي اختاره رئيسًا لكاراباغ. تأثيرًا ضئيلًا على برلمانته. والذي كان يتحكم فيه سامقيل بابايان Samvel Babayan وزير الدفاع. وقد أعادت الانتخابات البرلمانية. التي جرت في مايو 1999م توازن السلطة. وفاز بالانتخابات التحالف الموحد، الذي يتزعمه فازكن سرجيسيان وحزب شعب أرمينية بزعامة كارين ديميرچيان. وأصبح كوتشاريان دون أية سيطرة على الأغلبية البرلمانية. وقام فازكن سرجيسيان. الذي أصبح رئيسًا للوزراء، بإبعاد سيرج سرجيسيان. الكاراباغي

والحليف الأقرب لكوتشاريان. من منصبه كوزير للدخالية. وفي غضون ذلك أصبح كارين دميرچيان رئيس البرلمان. وتمكن سرجيسيان من مساعدة أركادي غوكاسيان لفرض سيطرة كاملة على كاراباغ. وبدء إصلاحات ديمقراطية. وفقد سامقيل بابايان منصبه كوزير للدفاع. وأصبح رئيس جيش كاراباغ. وبمجرد فرض سيطرته على الحكومة. تعهد سرجيسيان فوراً بمحاربة التهرب الضريبي والفساد واقتصاد الظل. كما تصادم أيضاً مع كوتشاريان حول منح تأجيل للخدمة العسكرية لطلبة كانوا مؤهلين للتجنيد. وفي هذا الوقت، بدأ عليلف وكوتشاريان محادثات ثنائية مباشرة حول كاراباغ. وبدأت تظهر إمكانية التوصل إلى تسوية، والتي من خلالها سيحقق كاراباغ استقلالاً فعلياً داخل دولة أذربيجان ومن خلالها. ومع حلول شهر سبتمبر عام 1999م. كانت آمال كبيرة منعددة في أرمينية نحو تحقيق استقرار نهائى للأوضاع السياسية، وعودة الاقتصاد إلى حالته الطبيعية. لكن مما يدعو للأسى تَنجُح الجائليق كاريكن الأول، الأمر الذي قضى على أي آمال لتوحيد الكرسيين الجائليقيين المتعارضين. وكانت الكنيسة الأرمينية والزعماء العلمانيين منقسمين بشأن اختيار من يعقب كاريكن. ولم يكن أرمين المهجر يوافقون بالإجماع على المرشح المتقدم، كبير الأساقفة كاريكن نيرسيسيان من يريفان، الذي رغم نقص ثقافته اللاهوتية، كان مفضلاً من جانب الحكومة الأرمينية، بالإضافة إلى الشعب الأرميني في أرمينية وروسيا، والذين شعر معظمهم أن الأوضاع تقتضي أن يكون الجائليق من الوطن.

وبينما كانت الوفود مشغولة بانتخاب الكاثوليكوس الجديد، تبدد التفاوض لدى كثير من الأرمين، عندما دخل خمسة إرهابيين يوم 27 أكتوبر مبنى المجلس القومي الأرميني، وقتلوا فازكن سرجيسيان، وكارين دميرچيان واثنين من نواب رئيس البرلمان ووزيرين وأربعة نواب. وبرز وزير الدفاع فاغارشاك هاروتيونيان كزعيم رابط الجأش. ومنعت صلابته ورد فعله الثابت الجيش من الإطاحة بالحكومة. كما أنه طمأن البلاد أن القوات المسلحة الأرمينية كانت على أهبة الاستعداد؛ لمواجهة أي غزو محتمل من جانب تركيا أو أذربيجان. وأصبح يمثل حاجزاً بين الرئيس كوتشاريان وجنرالات الجيش. وسرعان ما أصبح صاحب دور فعال في طرد بابايان، بعدما قيل أنه أمر بشن هجوم مسلح على أركادي غوكاسيان رئيس كاراباغ. ولكي يحتفظ بالوحدة، بالإضافة إلى سلامة الأحزاب الرئيسية. قام كوتشاريان بتعيين أرام سرجيسيان، أخو فازكن المقتول، كرئيس للوزراء. وستيبان

دميرچيان بن كارين المقتول كرئيس لحزب الشعب. وتأجلت المحادثات مع علييف حول وضع كاراباغ. وانتخب رئيس الأساقفة كازكين الجاثليق الجديد (كاركين الثاني). وكان أول عمل رسمي له تولي مراسم جنازة السياسيين التسعة المقتولين.

وشهدت الألفية الجديدة الاحتفال العالمي بالذكرى الـ 1700 للمسيحية في أرمينية. واستكمل بناء كاتدرائية جديدة. سُميت على اسم جريجوري المنوّر. وتوافق إتمام بنائها مع الذكرى العاشرة لقيام الجمهورية الأرمينية (21 سبتمبر 2001م). وقام البابا يوحنا بولس الثاني بزيارة أرمينية. وتحدث عن ”الجريمة الكبرى“ عام 1915م. وشهدت الفترة أيضاً اعتراف عدد من الحكومات الأوروبية بالإبادة الأرمينية. ومع ذلك. تضاءلت حظوظ كوتشاريان السياسية. وأُتهمت حكومته بالفساد بمعدل لم يسبق له مثيل. ورغم أن الاقتصاد تحسن إلى حد ما بعد عام 2001م. فإن مشكلة كاراباغ كانت لا تزال قائمة. واستمرت الهجرة بلا انقطاع. وإن كانت بمعدل أبطأ. وفي هذه الأثناء، كان من الملح إجراء إصلاحات ديمقراطية ودستورية واقتصادية وقانونية بصورة عاجلة لجذب رأس المال الأجنبي. حاول كوتشاريان استعادة ثقة الشعب عن طريق وقف الهجرة. واستئصال الفساد والمحسوبية. وفي الوقت نفسه أعرب ستيفان ديمرجيان ومرشعون آخرون عن استعدهم لتحدي كوتشاريان في الانتخابات الرئاسية التالية. وكانت انتخابات عام 2003م مشوهة بالمخالفات والاعتقالات وجرائم القتل السياسية: لقد منحت كوتشاريان فترة حكم جديدة. وأسفرت عن احتجاجات كبرى في أنحاء يريفان.

وقد استمرت الفترة الثانية من حكم كوتشاريان تعاني من ضعف الاقتصاد. والاتهامات بالمحسوبية والفساد. وقضية كاراباغ. وجاءت الانتخابات الرئاسية في عام 2008م مرة أخرى تحييط بها الخلافات. واستهلت الفترة الرئاسية لسيرج سرجيسيان. وهو أحد حلفاء كوتشاريان. بالشغب. واعتقالات المعارضين.

كانت أرمينية يحدوها القلق خاصة من الضغط. الذي مارسته شركات البترول الأمريكية والأوروبية على حكوماتها: لدعم مطالب أذربيجان في كاراباخ. وأخيراً تراجعت الإشاعات عن إمكانية مقايضة ممر لاتشين. مقابل ممر مماثل في مغري لوصول أذربيجان بناختشيفان وتركيا. كان يمكن لمثل تلك المبادلة للأراضي أن تكون كارثية بالنسبة

لأرمنية، لأنها لن تغلق فقط النصلة الوحيدة لأرمنية بدولة صديقة، هي إيران. ولكنها سوف تصل تركيا بالشعوب التركية في القوقاز وآسيا الوسطى.

واستمرت الولايات المتحدة وأوروبا والأمم المتحدة في تجاهل حقيقة أن ناخيتشيفان وكاراباخ كانا دائماً جزءاً من أرمنية. كما تجاهلت أيضاً معاهدة سيفريه (1920م) وحقيقة أن معاهدتي موسكو وكارس (1921م). واللذان فصلنا جبل أراغات وكارس وآني وأردهان عن أرمنية. كاننا غير شرعيتين في الأساس. وقد قضى الأرمين وقتاً عصيباً في محاولة فهم كيف قامت الولايات المتحدة وأوروبا بتأييد استقلال كوسوفو. وهي منطقة لم تكن أبداً ألبانية. ويعتبر سكانها الألبان وافدين جدد نسبياً. بينما رفضا الاعتراف باستقلال إقليم كاراباخ. الذي كان دائماً جزءاً من أرمنية التاريخية. وكان يسكنه أغلبية أرمنية لمئات السنين. وقد شعر الأرمين أيضاً بخيبة الأمل: بسبب سلوك المرشحين الرئاسيين للولايات المتحدة. الذين يعدون بالاعتراف بالإبادة الأرمنية أثناء حملاتهم الرئاسية، ثم يرفضون فعل ذلك بعد أن ينتخبوا.

وكانت الإعلانات الأمريكية في تأييد أذربيجان وإقامة قواعد لمختلف الأنظمة التركية في آسيا الوسطى. عقب الهجمات الإرهابية في 11 سبتمبر 2001م. مصادر أخرى للقلق. كما كان تأييد الولايات المتحدة لادعاءات جورجيا بخصوص الأراضي. وتهديداتها لسوريا وإيران. مصادر محتملة لمزيد من القلق. وربما يقوم الغرب. كما فعل في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى. بالتخلي عن الأرمين مرة أخرى. ولهذا استمرت أرمنية في اعتمادها القوى على روسيا. وتوظيف الوحدات الدفاعية الروسية، وشراء طائرات ميج-29 الروسية المقاتلة. كما عقدت اتفاقاً عسكرياً مع اليونان. وتمهدت أواصر علاقات الصداقة مع الصين، وإيران، وسوريا، وحالياً مع العراق، والبلدان الثلاثة الأخيرة كلها من البلدان المجاورة لتركيا.

وتحت ضغط الولايات المتحدة. سعت الإدارة الجديدة إلى تحسين العلاقات مع تركيا. وأخيراً فتح الحدود بين الدولتين الجارتين. وقد قيل إن تلك النقلة سوف تقيد أرمنية واقتصادها، أكثر مما يمكن أن تقيد تركيا.

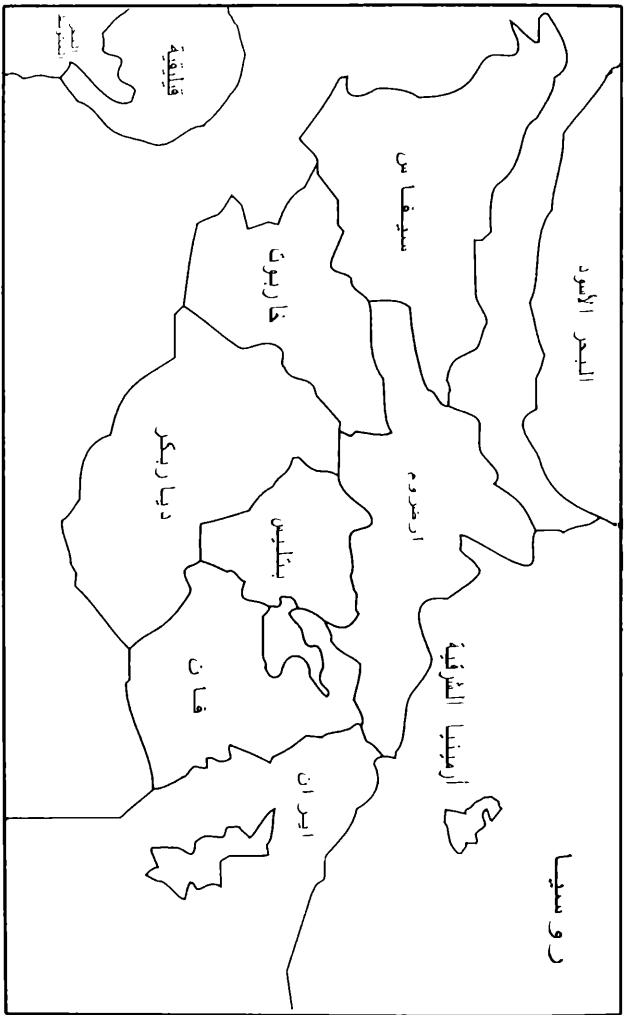
وبعد مناقشات مكثفة توسطت فيها الولايات المتحدة، وقعت أرمنية وتركيا في 4 سبتمبر 2009م، وثيقة تمهيدية لتطبيع العلاقات. وهذه الوثيقة، الخاضعة للتصديق من قبل برلماني الدولتين، تعد بفتح الحدود الطبيعية بين أرمنية وتركيا، وتطبيع العلاقات الدبلوماسية والتجارية. وبالنسبة للأرمن: خاصة أولئك الموجودين في المهجر، كان تعيين لجنة لفحص السجلات التاريخية الخاصة بأحداث عام 1915م نقطة مؤلمة. وبالإضافة إلى ذلك، شعر بعض الأرمن بأن الوثيقة تقبل بالحدود بين الدولتين، كما هو مبين في معاهدة كارس "غير الشرعية" لعام 1921م. وسرعان ما أصبح واضحاً لكلا الطرفين أن الوثيقة لا تحظى بتأييد الشعبين، وتأجل التصديق عليها في الوقت الحالي.

ورغم أن الاقتصاد قد تحسن قليلاً، تظل قضية ناجورنو كاراباخ دون حل، وقد أبلغ عن عديد من اختراقات وقف إطلاق النار من قبل الأذريين. وقد يفسر ذلك عقد سرجيسيان لعلاقات اقتصادية أقوى مع إيران، والأكثر أهمية، توقيع اتفاقية عسكرية روسية أرمنية، تعطي روسيا دوراً أكبر في حماية أرمنية طوال السنوات الأربع والعشرين القادمة. ولتهدئة ضيق أمريكا بهذه الاتفاقية، صرح سرجيسيان بأن الاتفاقية لا تمنع على الإطلاق تعاون أرمنية المتنامي مع الناتو. ووفقاً لسرجيسيان، فإن الاتفاقية الدفاعية الروسية الأرمنية سوف تقلل من احتمالات تجدد القتال في كاراباخ. كما سوف تقوم موسكو بإمداد الجيش الأرمني بالأسلحة الحديثة.

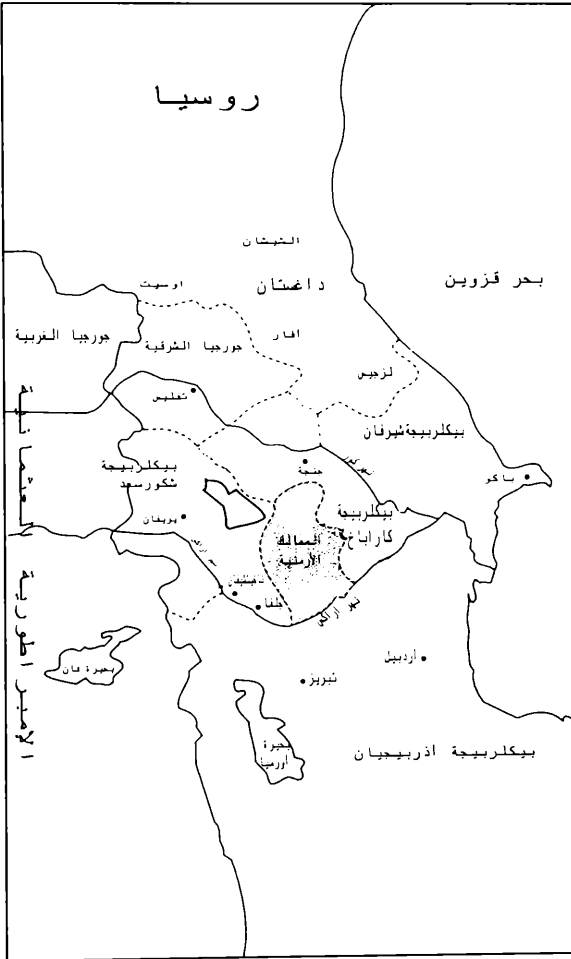
ولا تزال أرمنية اليوم (انظر الخريطة 45)، بعد عقدين من الاستقلال، تنقصها الموارد وعدد السكان الموجود في أذربيجان وجورجيا. وتدعي المصادر أن الأرمن مستمرون في الهجرة من الدولة. وقد غادر حوالي مليون ونصف من الأرمن أرض الوطن منذ 1989م. ويدعي البعض أن الأرمن، الذين يعيشون في روسيا والولايات المتحدة أكثر من الموجودين في أرمنية، ويقدر عدد السكان بما لا يتجاوز 2 مليون نسمة. والقضية الرئيسية هي الفساد، والهدف الرئيسي للحكومة الحالية، هو ضمان وحدة الدولة ضد الهجمات الأذرية. ويستمر الفساد في ابتلاء الجمهورية. وتستمر أرمنية في التأخر عن أذربيجان وجورجيا في إجمالي الناتج المحلي.

وهناك ملاحظات إيجابية أيضاً، فمجهودات الجائليق الجديد، في تجديد الكنائس القديمة، وإقامة وسائل جديدة، والحفاظ على علاقات دائمة مع الأرمن في المهجر.. كل ذلك ساعد على تجديد روح الكنيسة الأرمنية، وقد يبطئ من أنشطة الإرساليات الأجنبية المتعددة، وكان رد فعل الأتراك الأحرار على مقتل هرانت دينك، الناشر الأرمني لجريدة أجوس Agos، في إسطنبول: وكذا كتابات الصحفيين والمؤلفين الأتراك الأحرار، قد تكون بداية لعصر جديد في مناقشة الماضي، ولكن المشهد الرسمي التركي يظل دون تغيير، كما يتجلى في رفض وضع صليب على قمة الكنيسة في أغتمار.

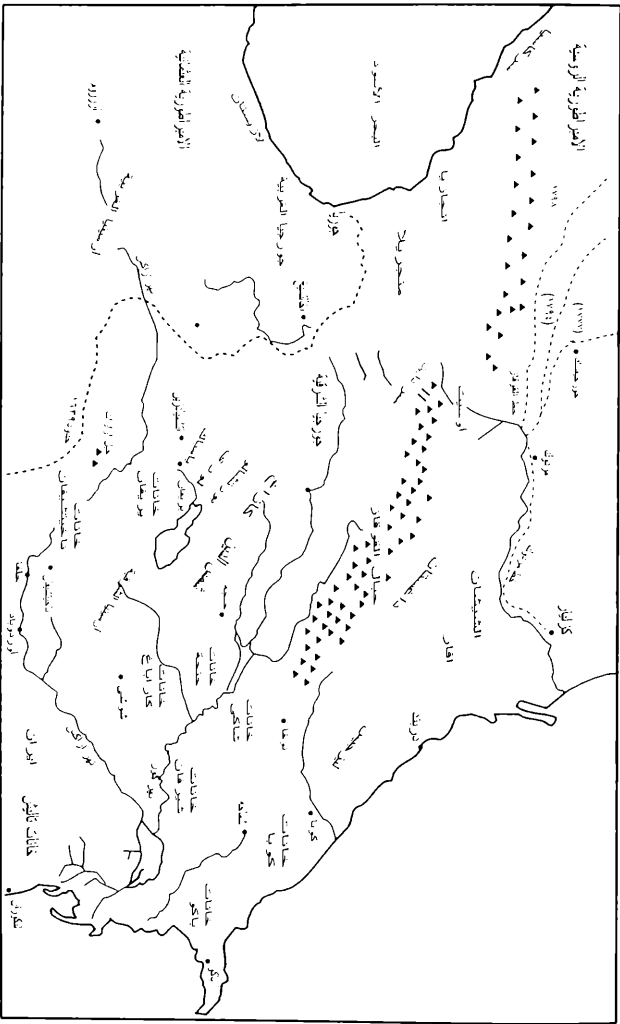
أرمنية دولة صغيرة، تحيط بها اليابسة وليس لها منفذ بحري، وفقيرة الموارد، ويحيطها عدد من الجيران المعادين الأقوياء، وتتحصر ثرواتها فقط في الروح التجاري لشعبها، ومستويات تعليمهم العالية، والمواهب الواعدة لعلمائها ومهجرها المتنوع الناجح المزدهر، ولن تنهض أرمنية من وضعها الحالي إلا ببناء دفاعات هائلة (حتى أن البعض يؤيدون امتلاك أسلحة نووية، على الطراز الإسرائيلي) واقتصاد فعّال، وبتأسيس دولة تُرى كضامن شرعي لحقوق شعبها، ويتبقى الكثير ليحدث ذلك، ويأمل المرء أن يكون التاريخ قد علّم أرمنية وشعبها أن اليقظة والاعتدال والحذر أدوات أكثر نجاحاً من إيمان أعمى وعقيدة جامدة.



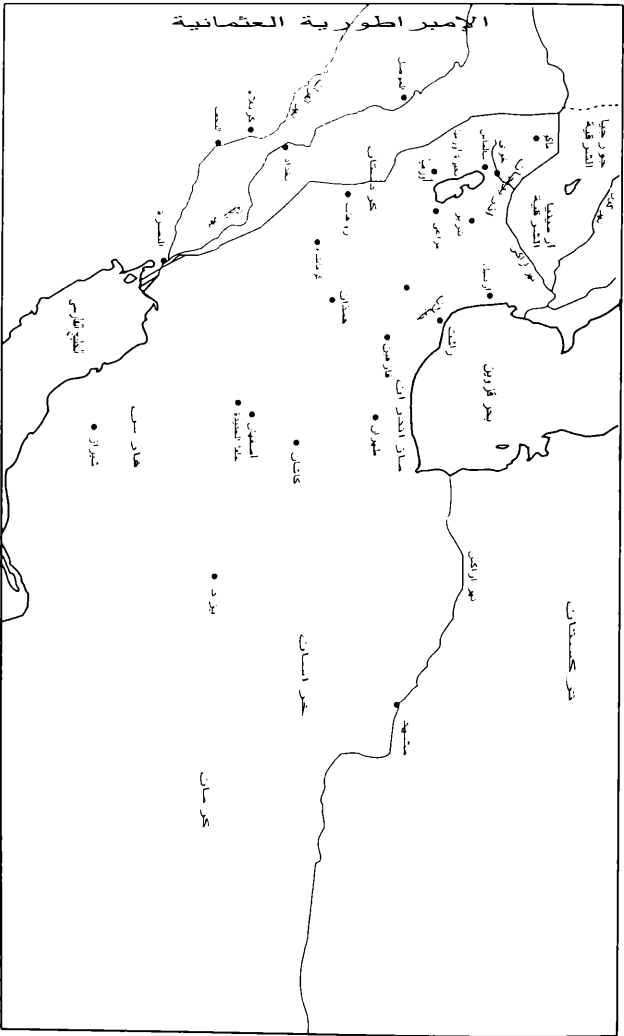
21- أرمينية الغربية (ست ولايات) وقليقية، في النصف الثاني، من القرن التاسع عشر .



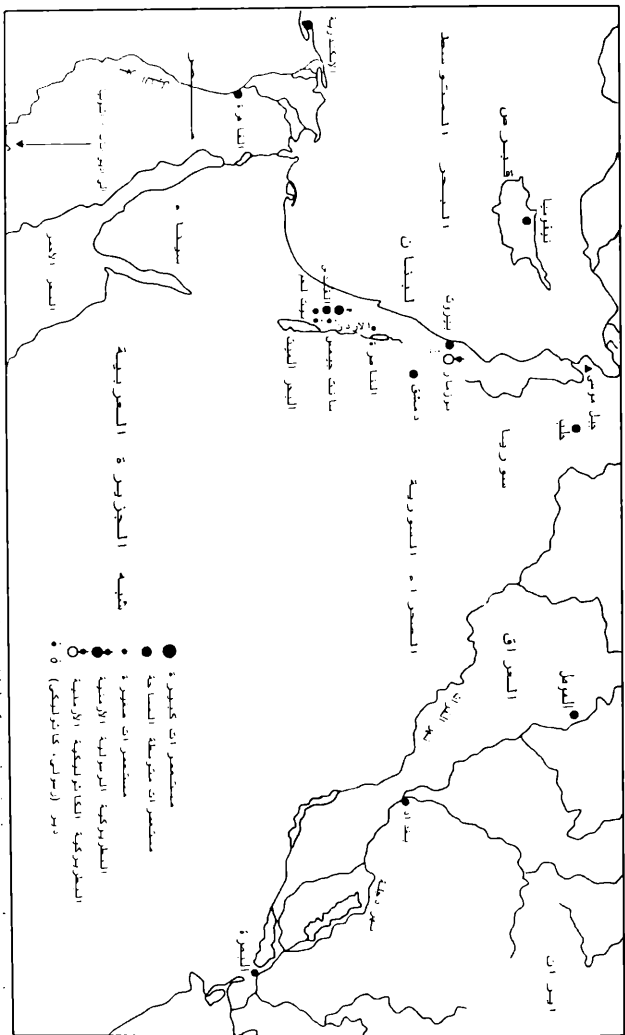
22- أرمينية الشرقية، بقية جنوب القوقاز . أرييجان الايرانية، في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .



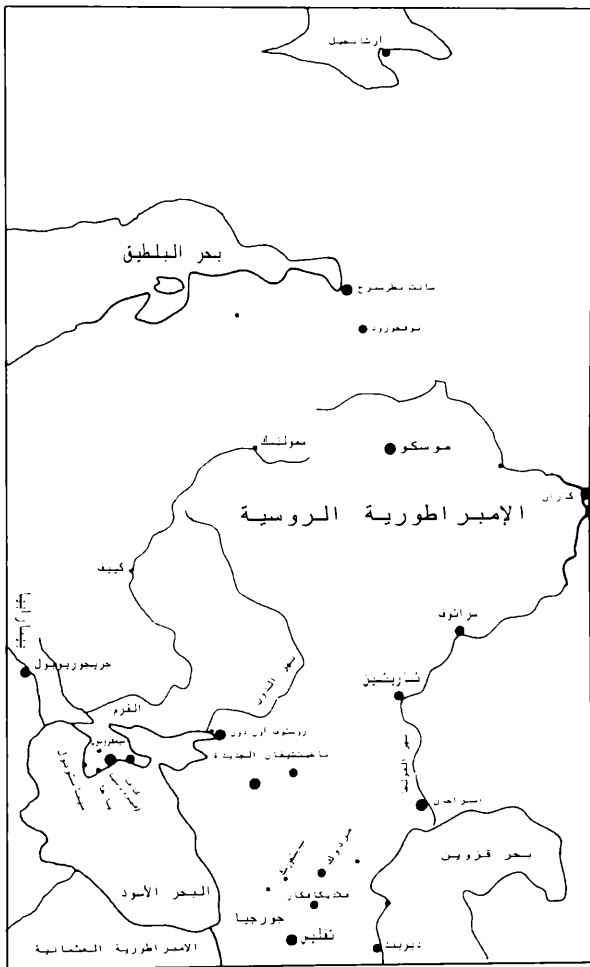
23- التقوا في أواخر القرن الثامن عشر .



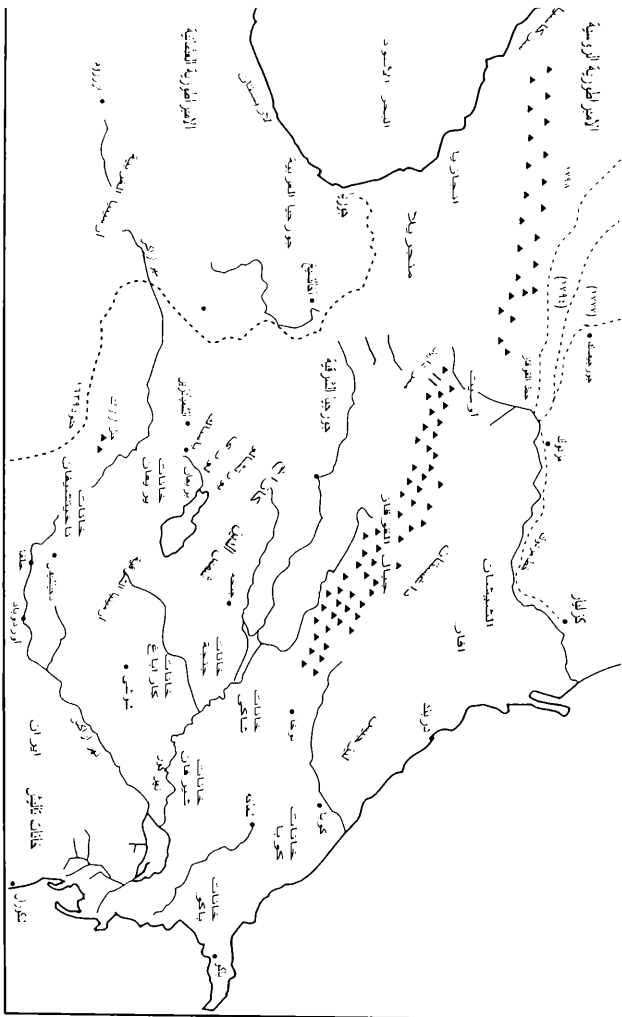
25- الجاليات الأرمينية في إيران (القرن التاسع عشر).



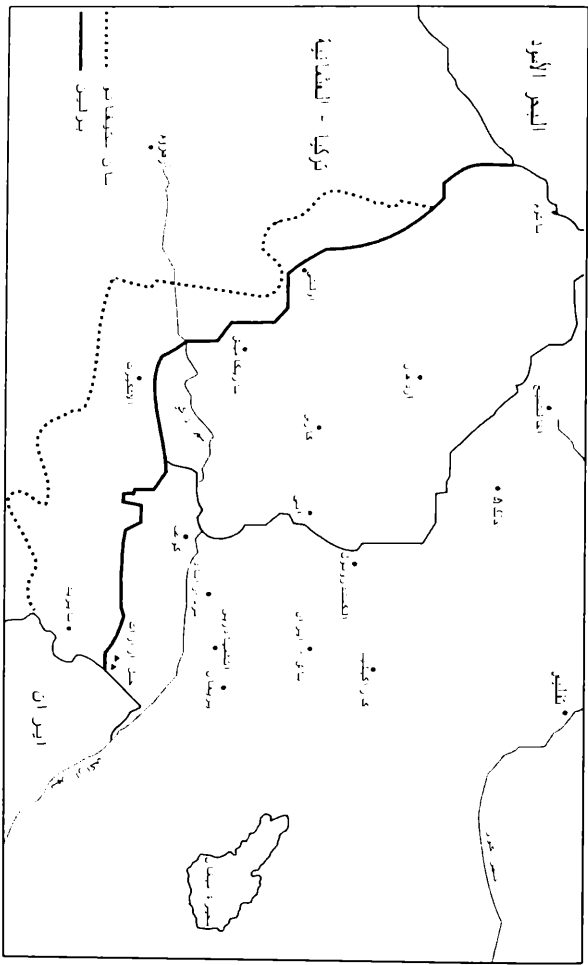
27- المهجر الأرميني في البلاد العربية (القرن التاسع عشر).



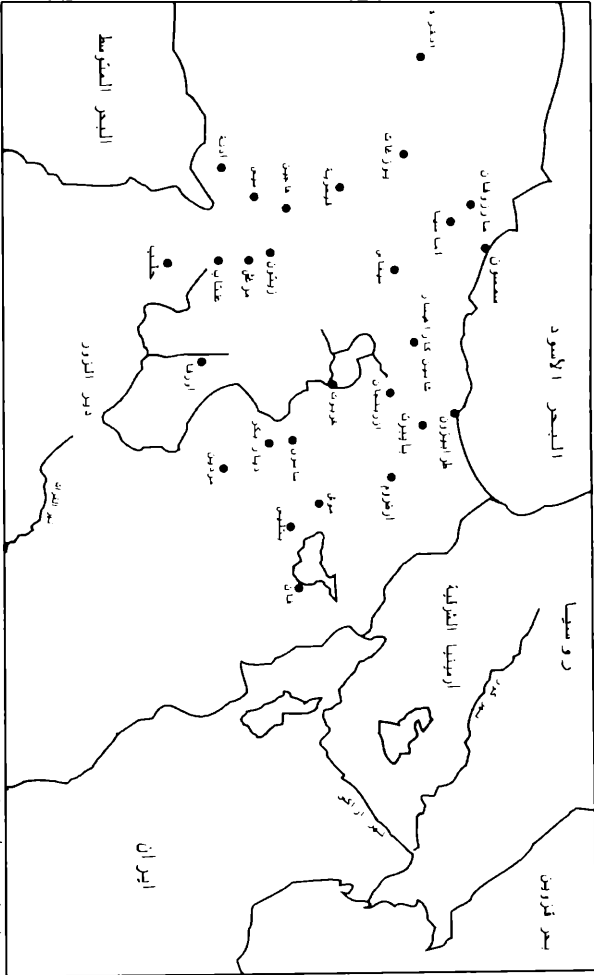
28- المراكز الأرمنية في روسيا، في القرن الثامن عشر



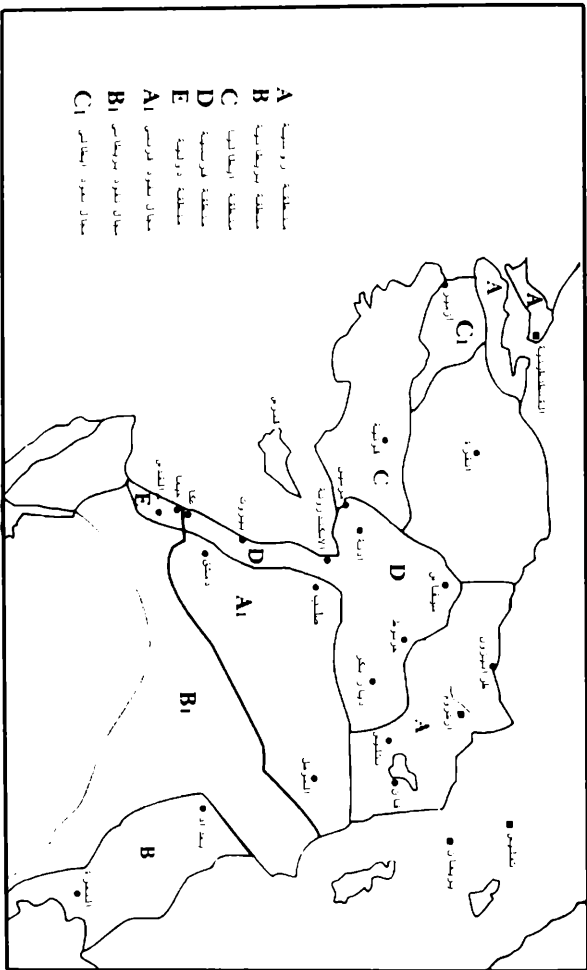
29- المنطقة الأرمينية (1828-1840م)



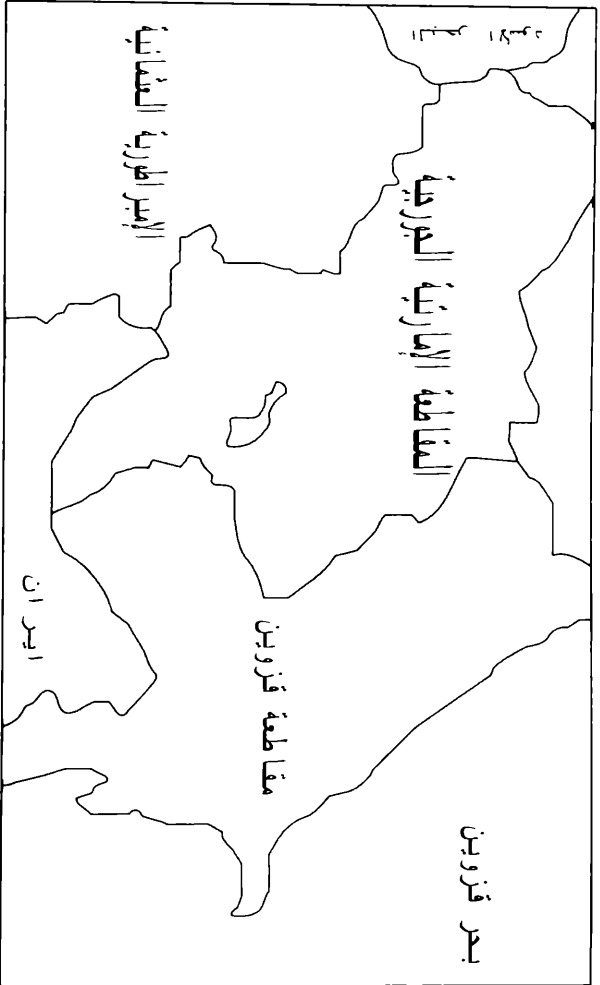
3- الحدود الروسية التركية بعد معاهدة سان ستيفانو وبرلين (1878م).

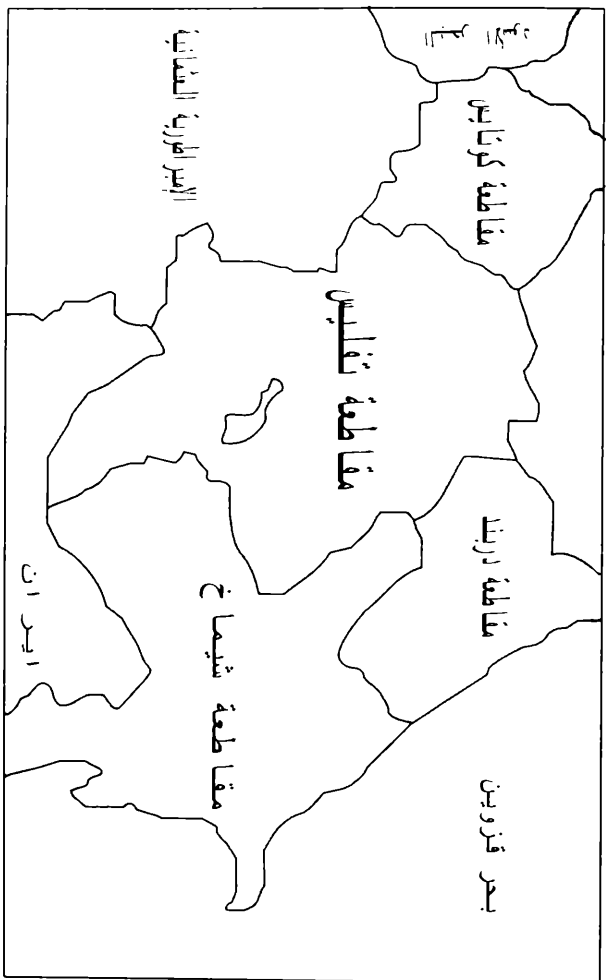


32- الجغيات الأرمينية في تركيا، التي دمرت في الإبادة العرقية.

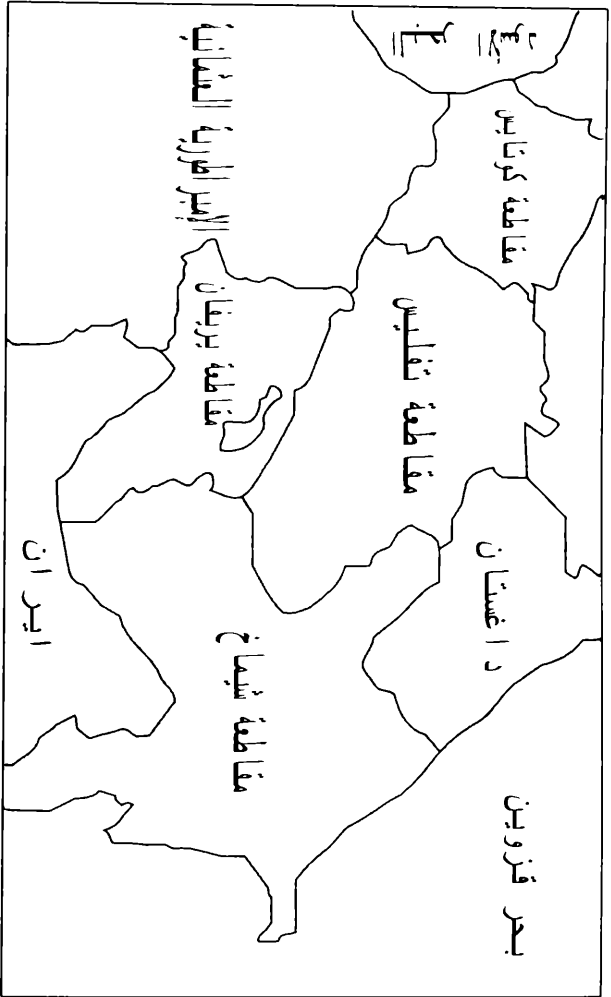


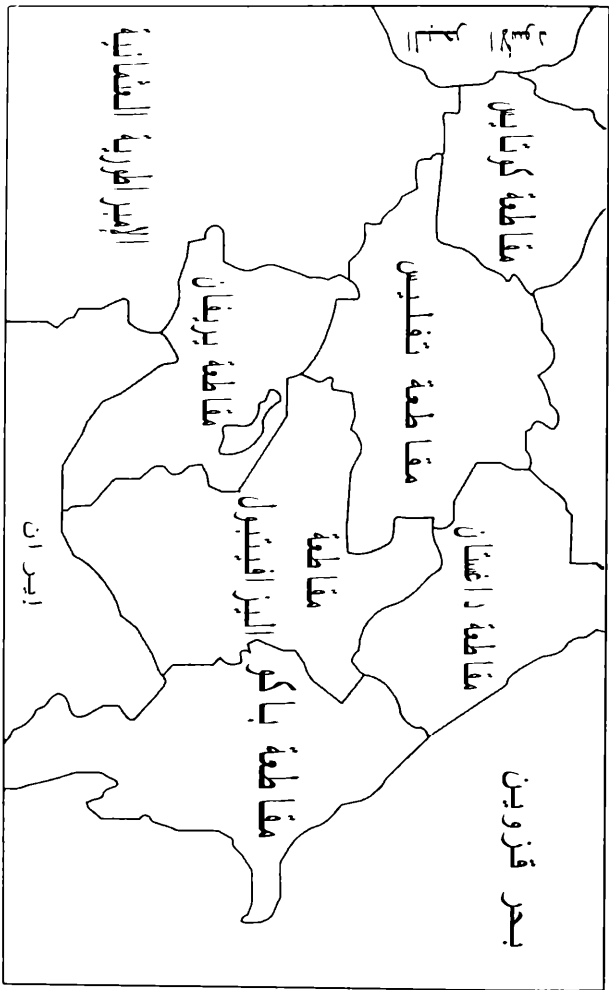
33- خطة سايكس بيكو لتقسيم الامبراطورية العثمانية (1915-1916م).



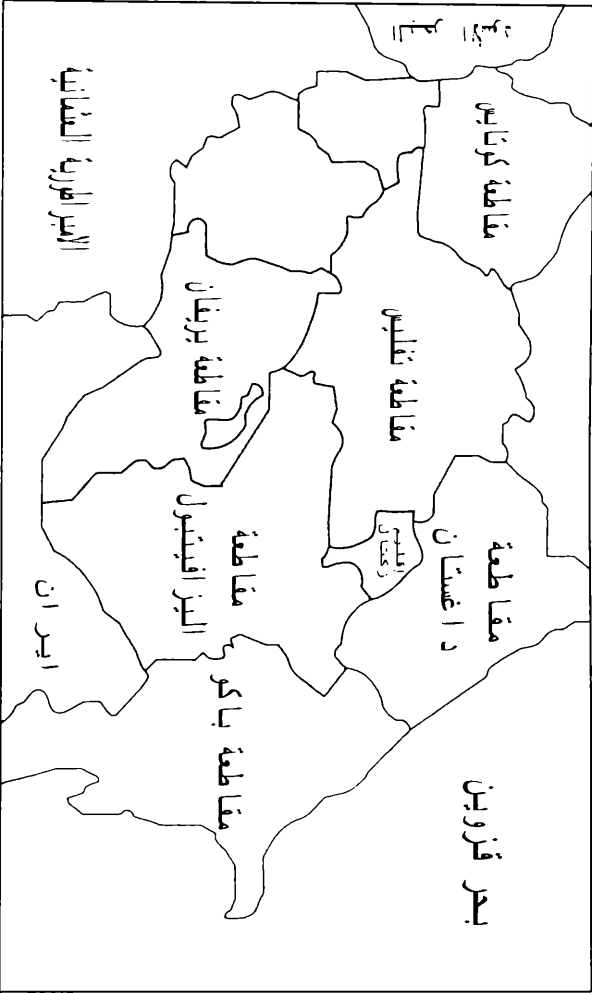


35- جنوب القوقاز (1845-1849م) .

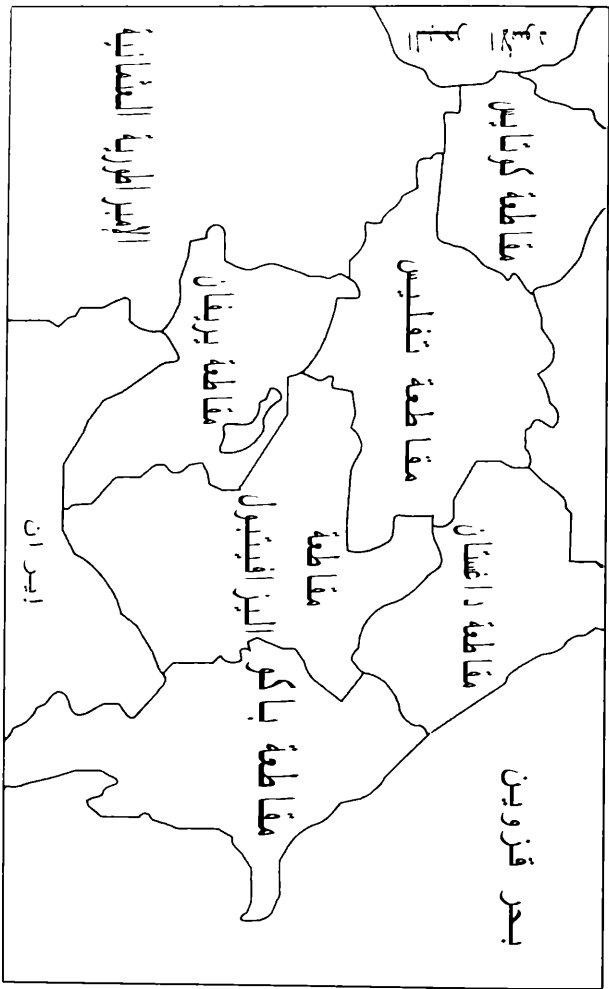




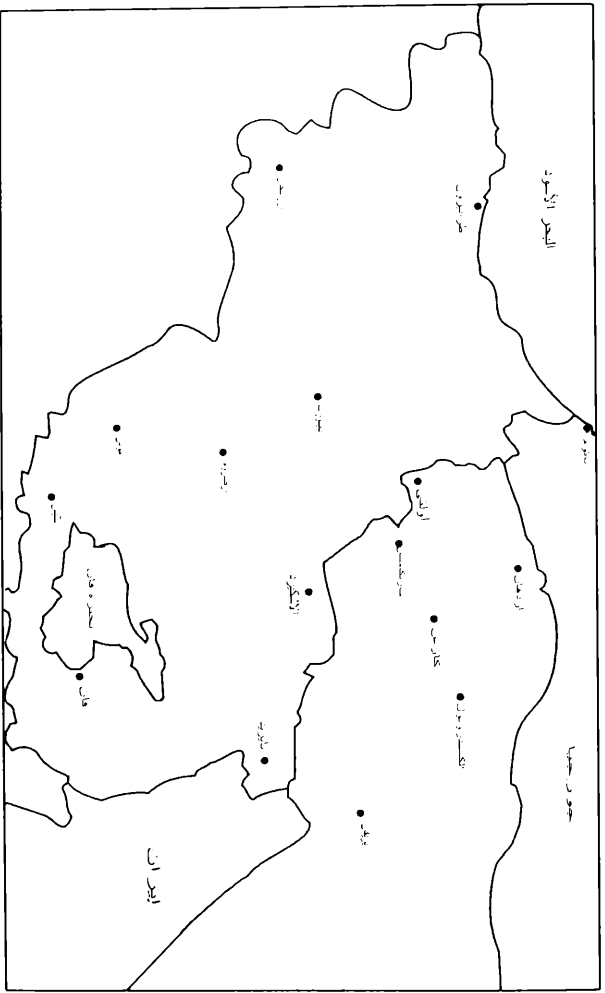
37- جنوب القوقاز (1868-1878م) .



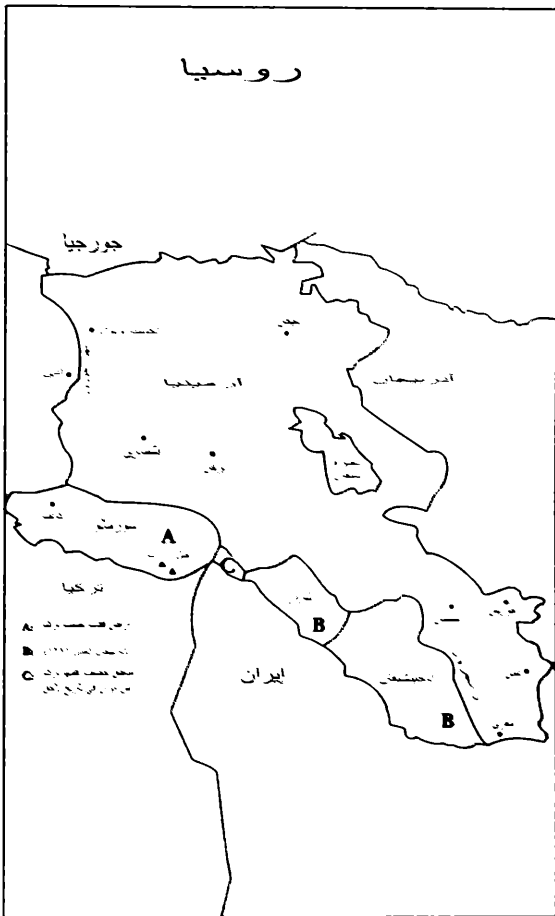
38- جنب القوقاز (1878-1918م).



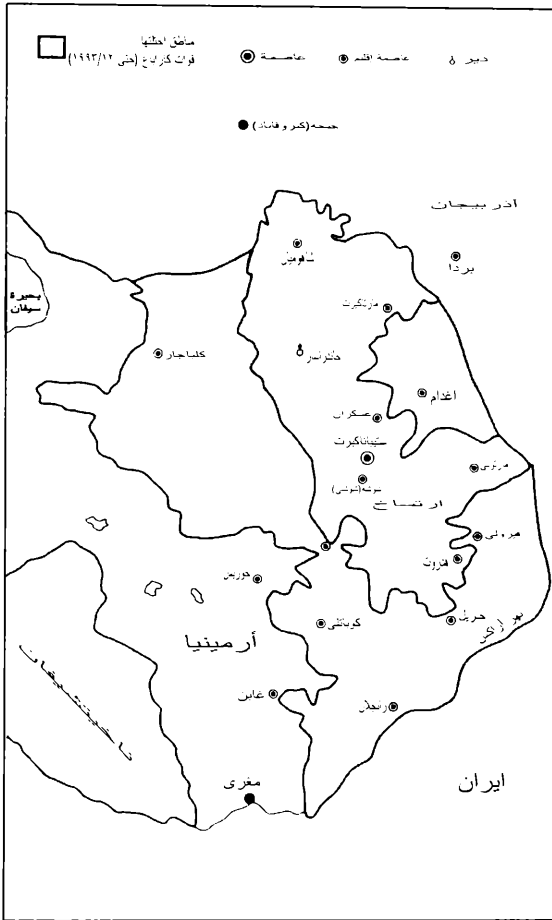
39- الجمهورية الأرمينية بعد معاهدة باتوم، يونيو 1918 م.



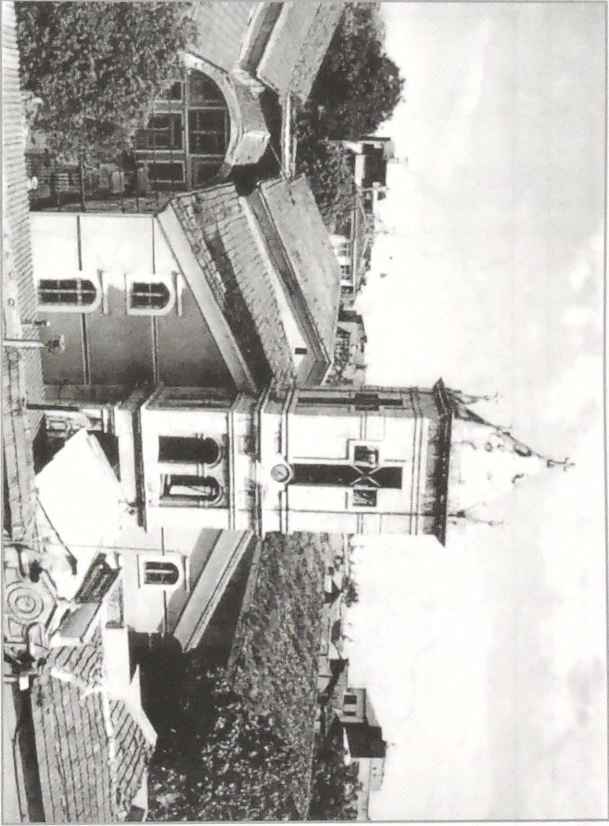
41- أرمينيا ولسون لمعاهدة سيفر 1920 م.



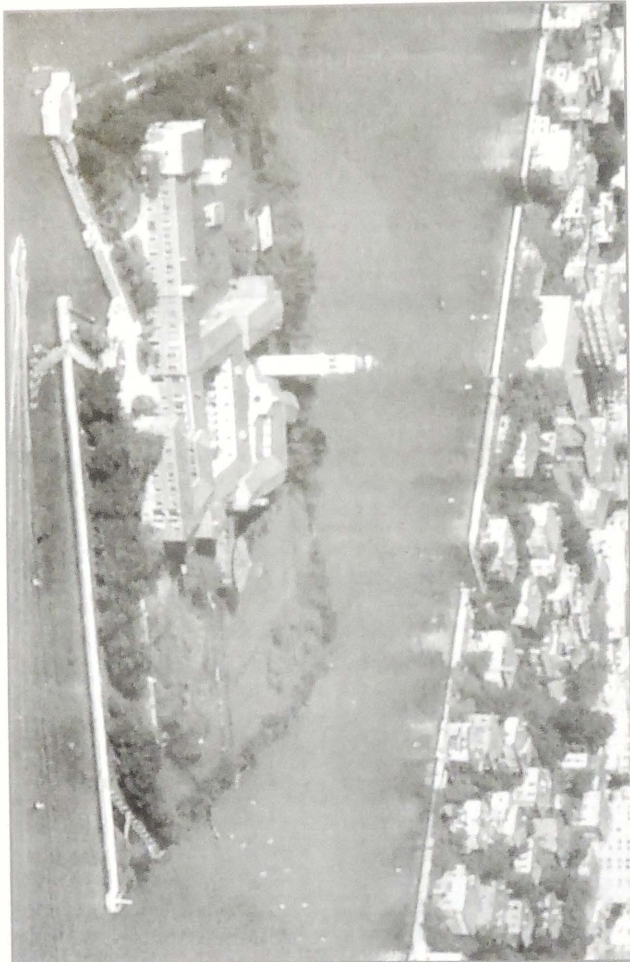
42- الجمهورية الأرمينية بعد معاهدة الكسندروبول (ديسمبر 1920م).



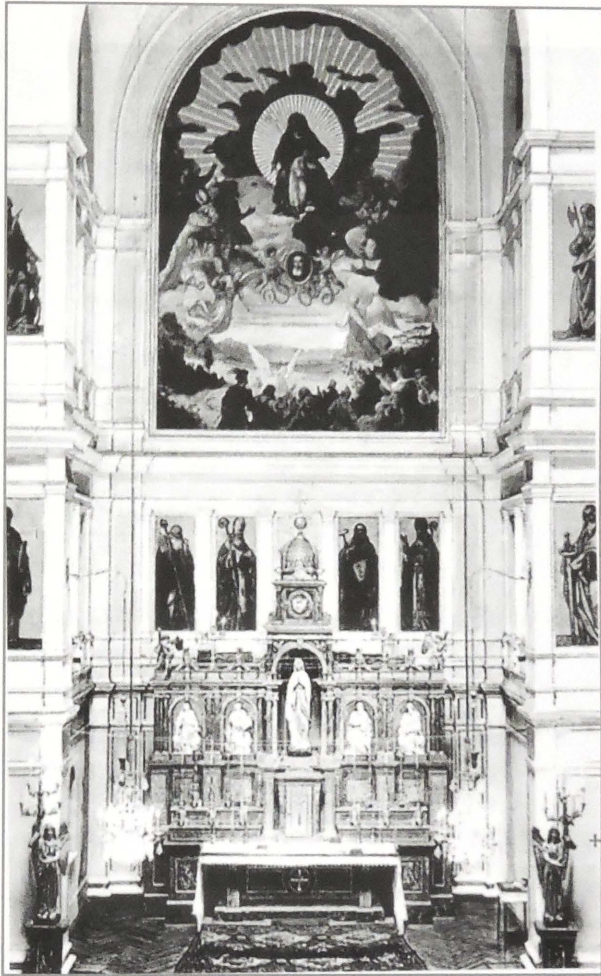
44- كارباغ الجبلية (1923-2003م).



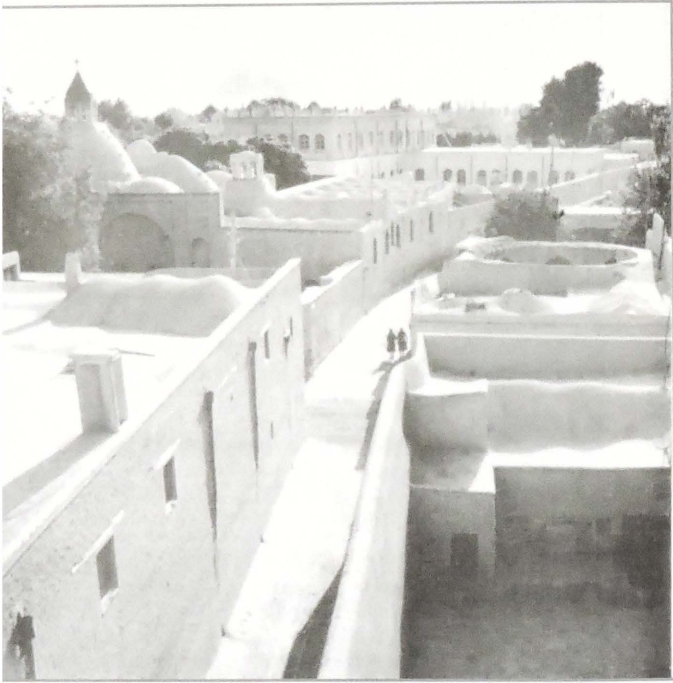
38- البطريركية الأرمنية ، إسطنبول .



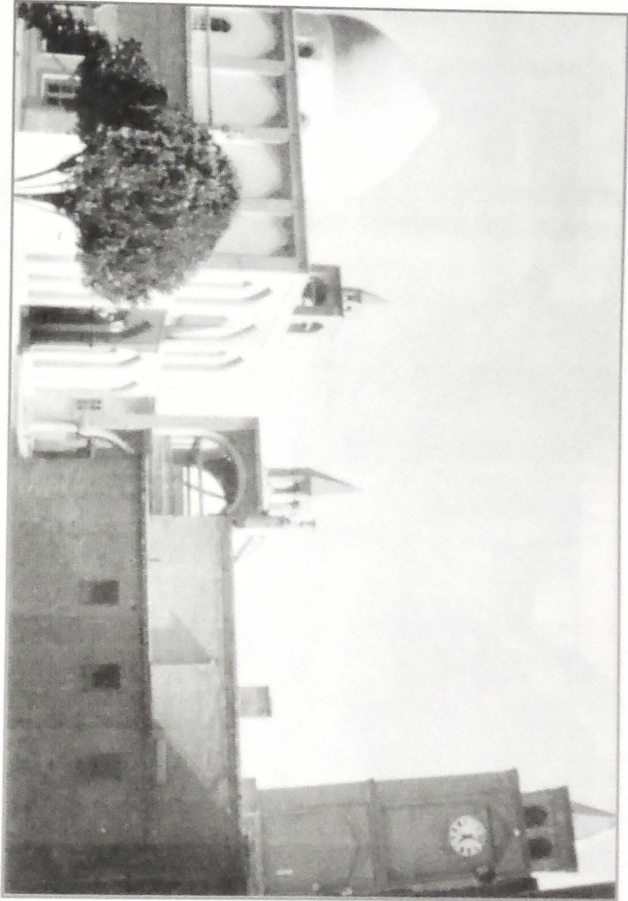
39- المركز المختاري ، سان لازارو ، البندقية ، إيطاليا .



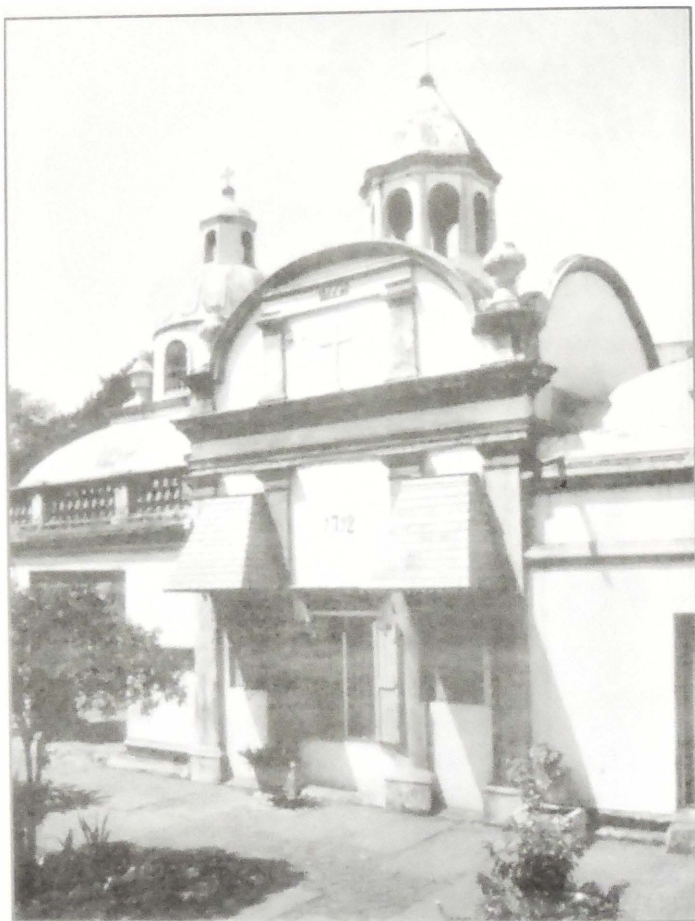
40- المركز المختاري ، فيينا ، النمسا .



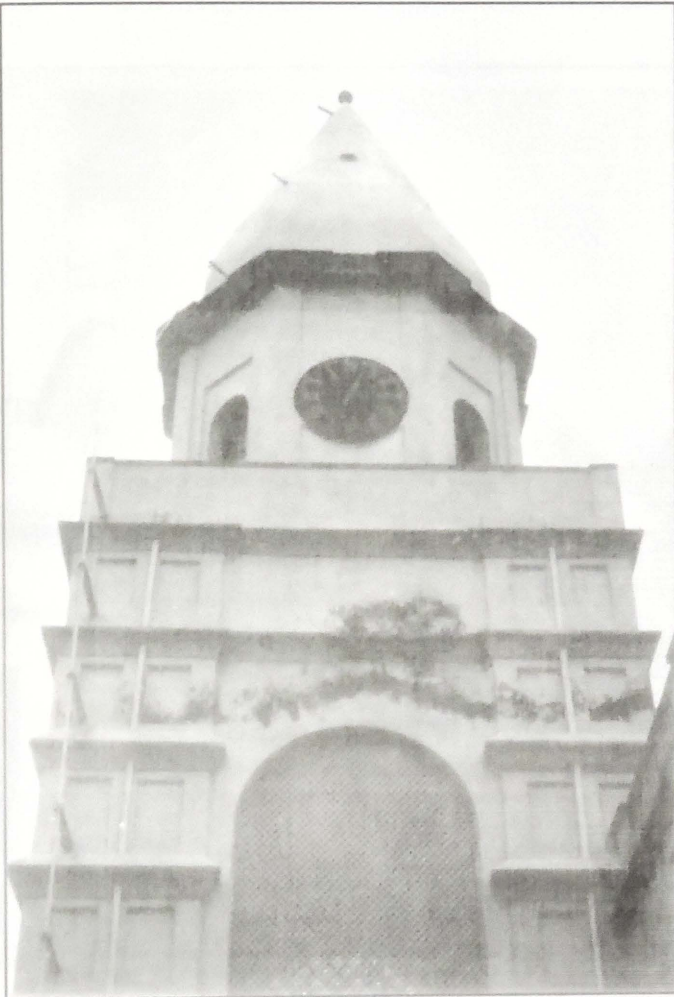
41- منظر لجولفا الجديدة ، إيران .



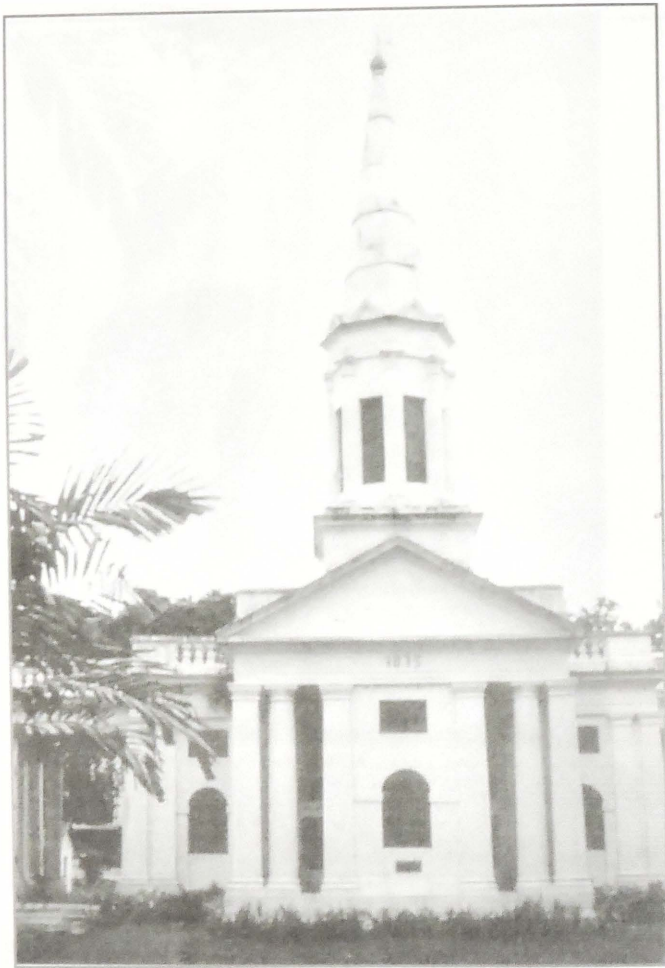
42- الكاتدرائية الأرمنية ، جولفا الجديدة ، إيران.



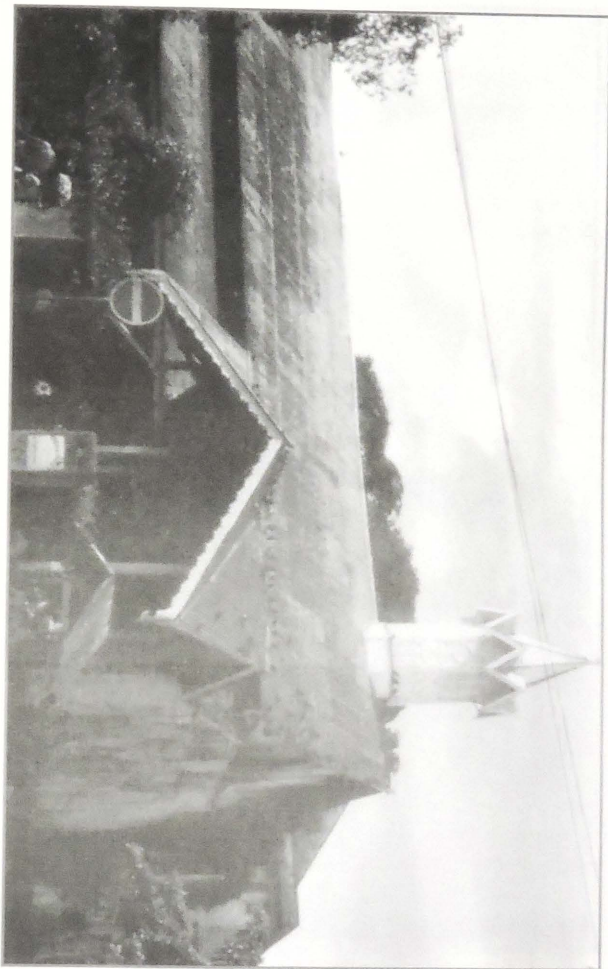
43- الكنيسة الأرمنية ، مدراس ، الهند.



44- الكنيسة الأرمنية ، كالكوتا ، الهند.



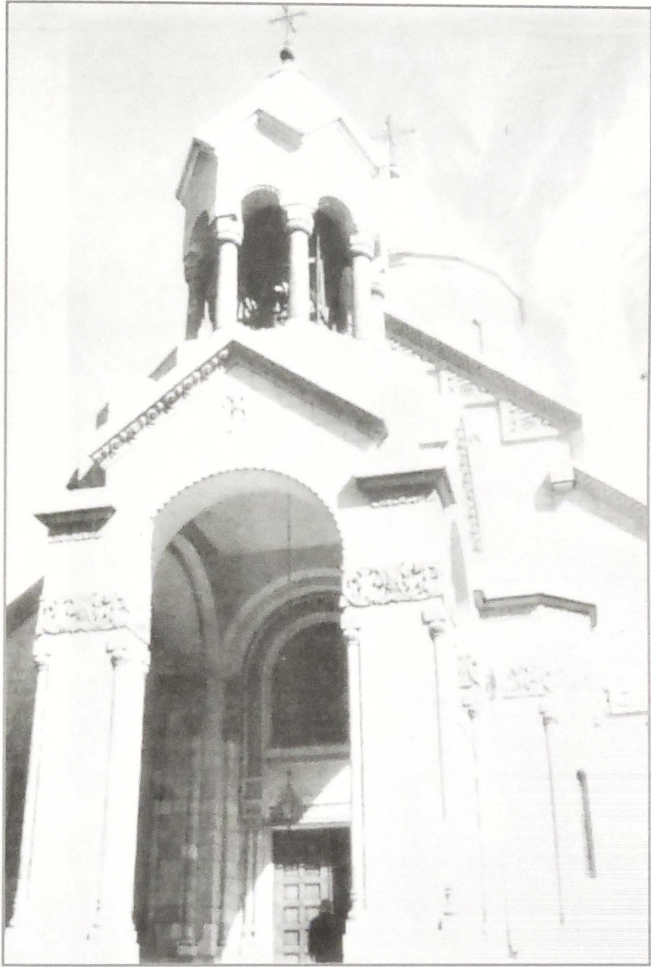
45- الكنيسة الأرمنية ، سنغافورة.



46- الكنيسة الأرمنية ، يانجون ، يانجون (ماياتماز (بورما).



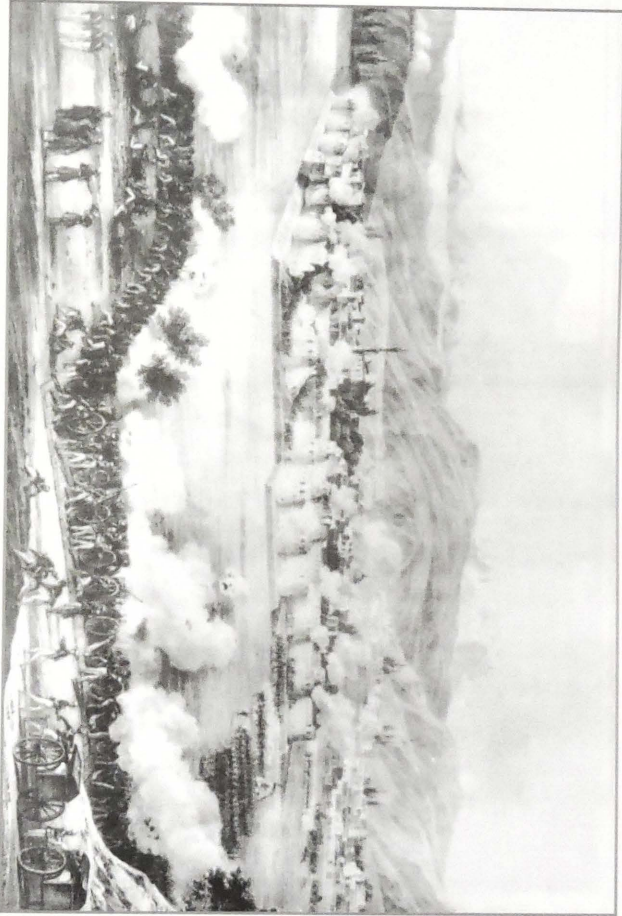
47- الكنيسة الأرمنية ، دكا ، بنجلاديش.



48- الكنيسة الأرمنية ، القاهرة ، مصر .



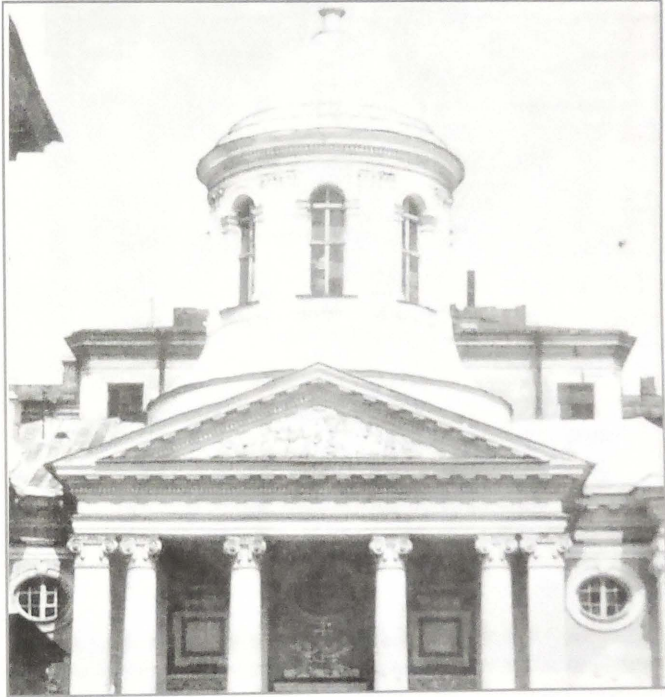
49- الكنيسة الأرمنية ، أديس أبابا ، أثيوبيا (الاتحاد الخيري الأرمني العام).



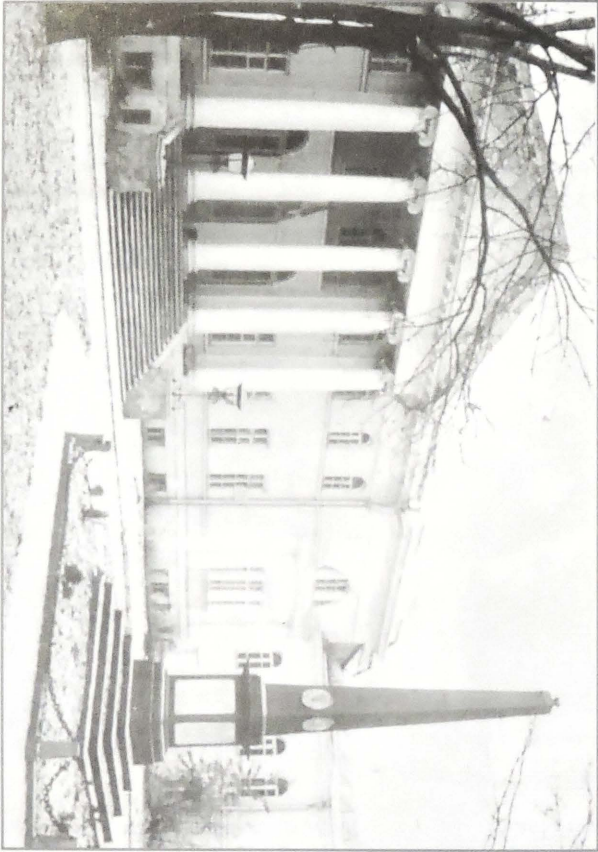
50- الهجوم على حصن بريشان، أكتوبر 1827م.



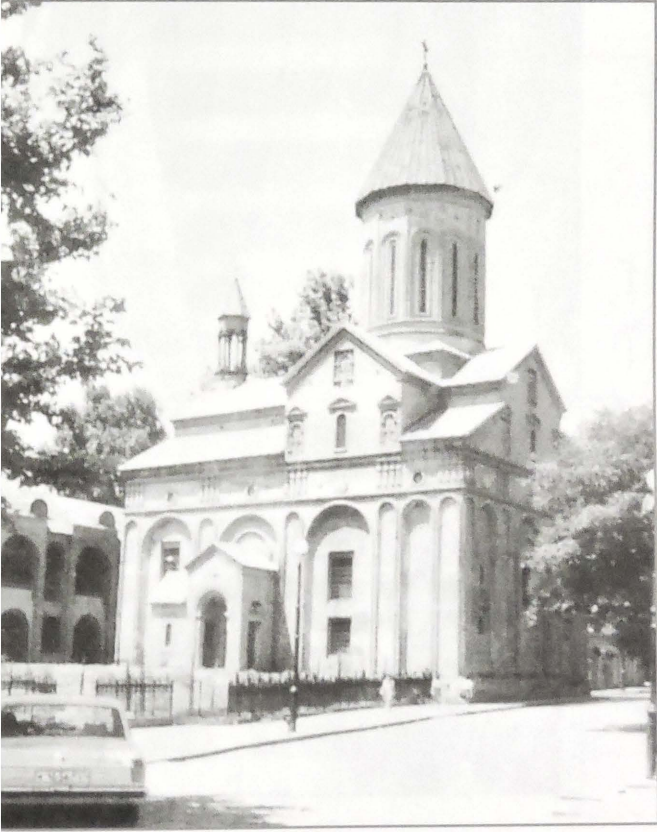
51- الكنيسة الأرمنية ، ناخيتشيفان الجديدة ، روستوف على الدون ، روسيا.



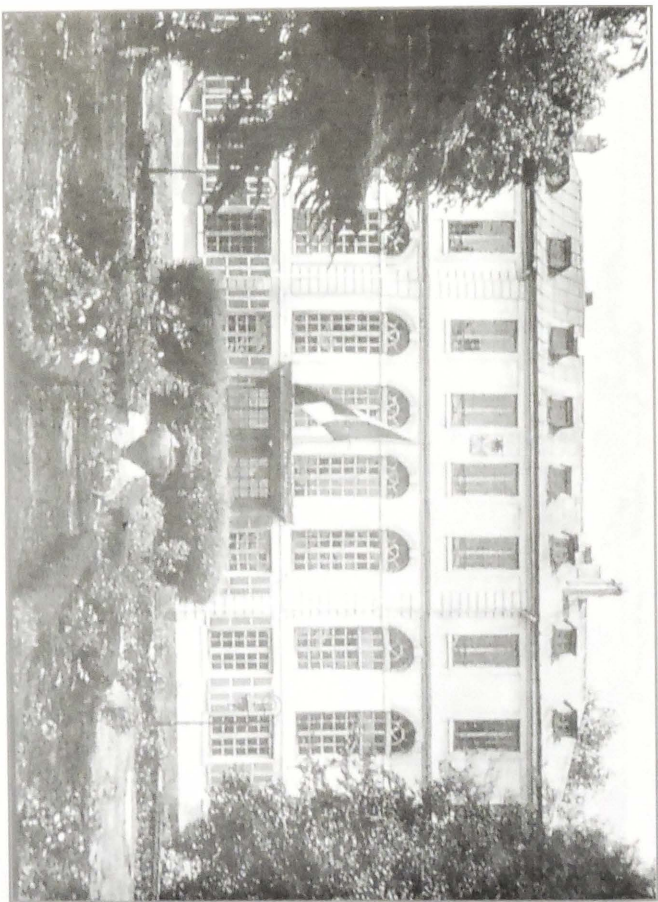
52- الكنيسة الأرمنية ، بطرسبرج ، روسيا.



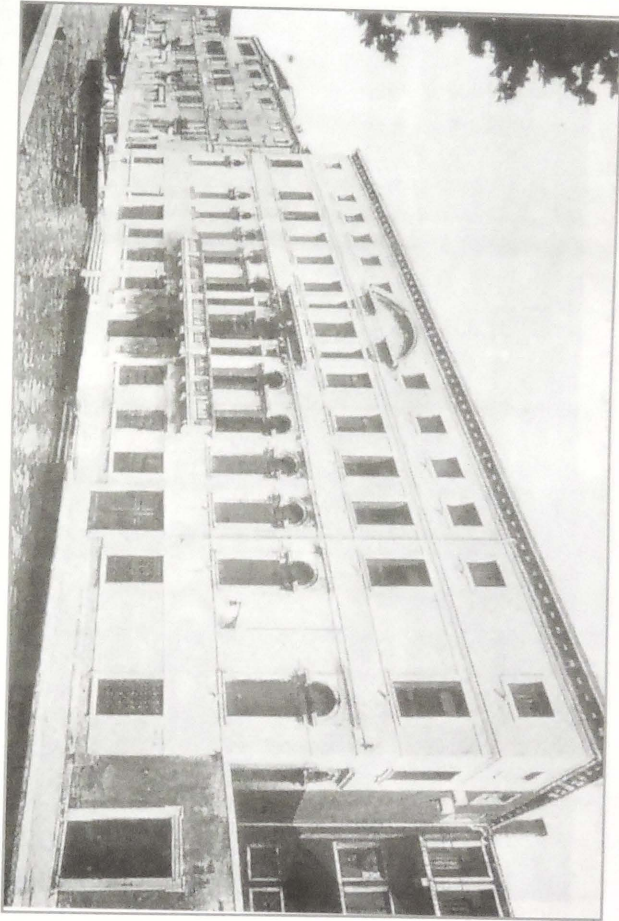
53 - مؤسسه لازاریان ، موسکو ، روسیا .



54- الكنيسة الأرمنية تفليس ، جورجيا .



55- مدرسة صموئيل - مراد الأرمينية ، سيقول ، فرنسا.



56-مدرسة مراد - رافائيليان ، البندقية ، إيطاليا .



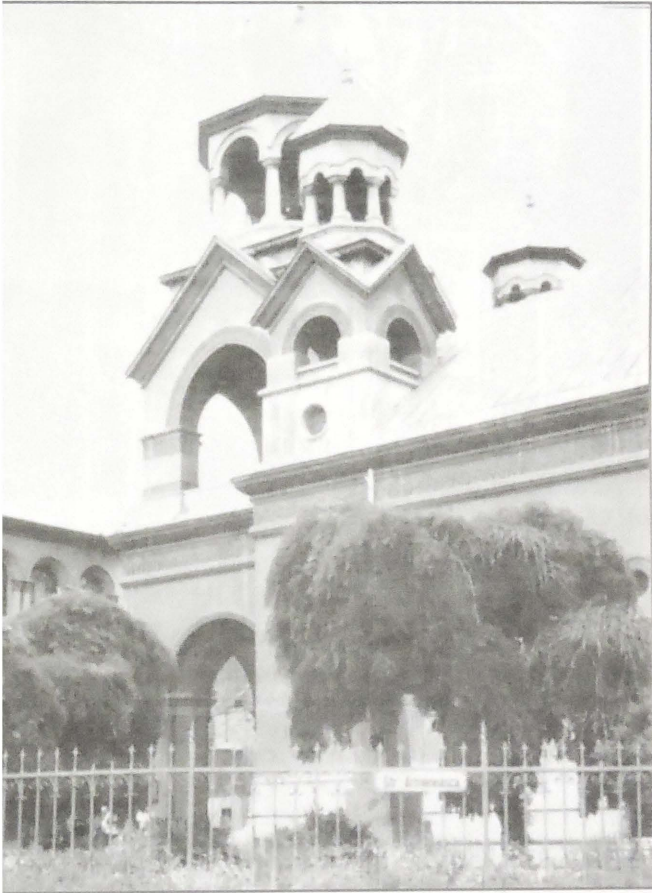
57- الكنيسة الأرمنية ، أمستردام ، هولندا.



58- الترانيم الأرمنية ، أمستردام 1665 م.



59- الكنيسة الأرمنية ، بودابست، المجر (الاتحاد الخيري الأرمني العام).



60- الكنيسة الأرمنية ، بوخارست ، رومانيا (الاتحاد الخيري الأرمني العام) .



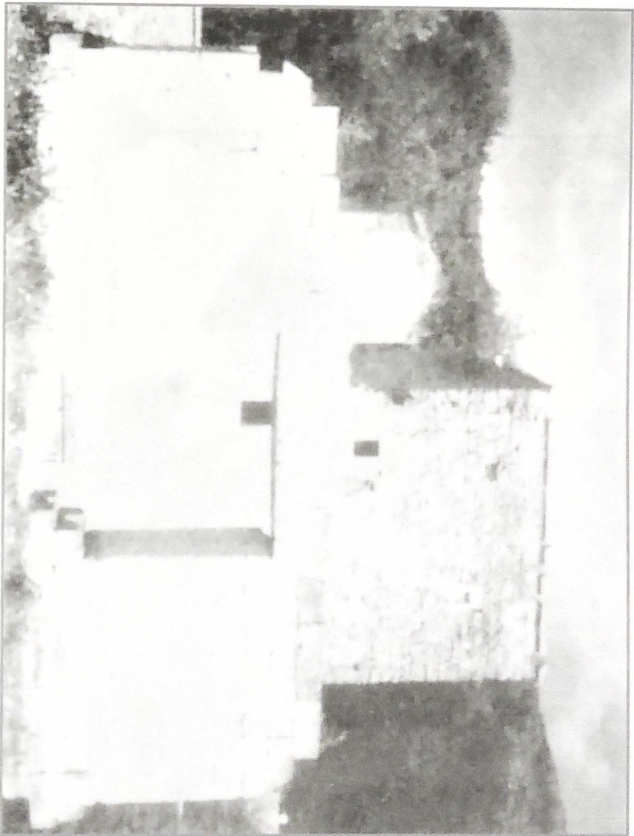
61- الكنيسة الأرمنية ، يالطا . روسيا (الاتحاد الخيري الأرمني العام) .



62- الكنيسة الأرمنية ، روسه ، بلغاريا (الاتحاد الخيري الأرمني العام).

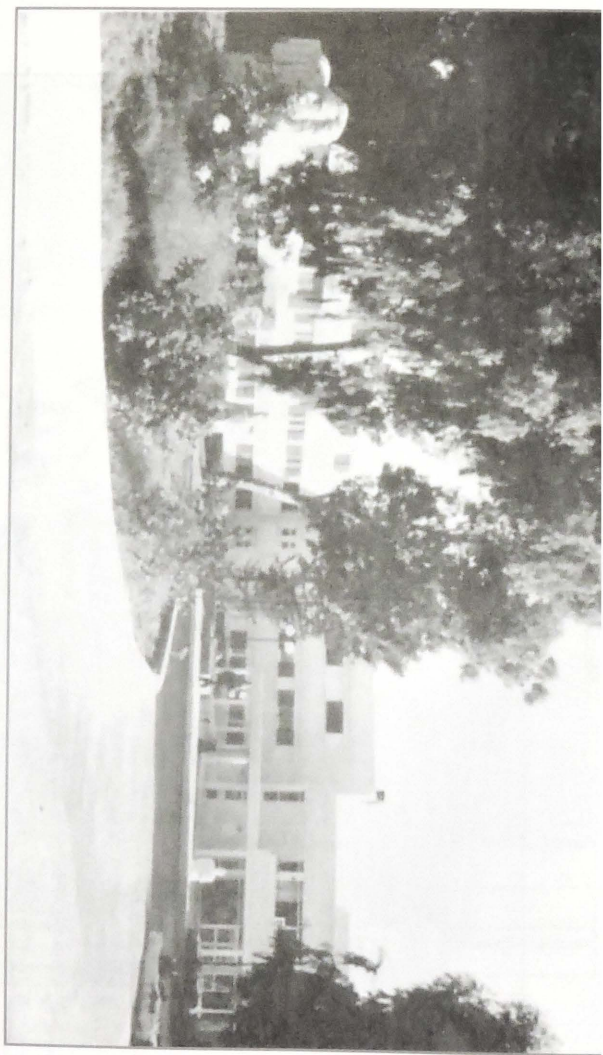


63- الكنيسة الأرمنية ، ماردوفا (الاتحاد الخيري الأرمني العام) .

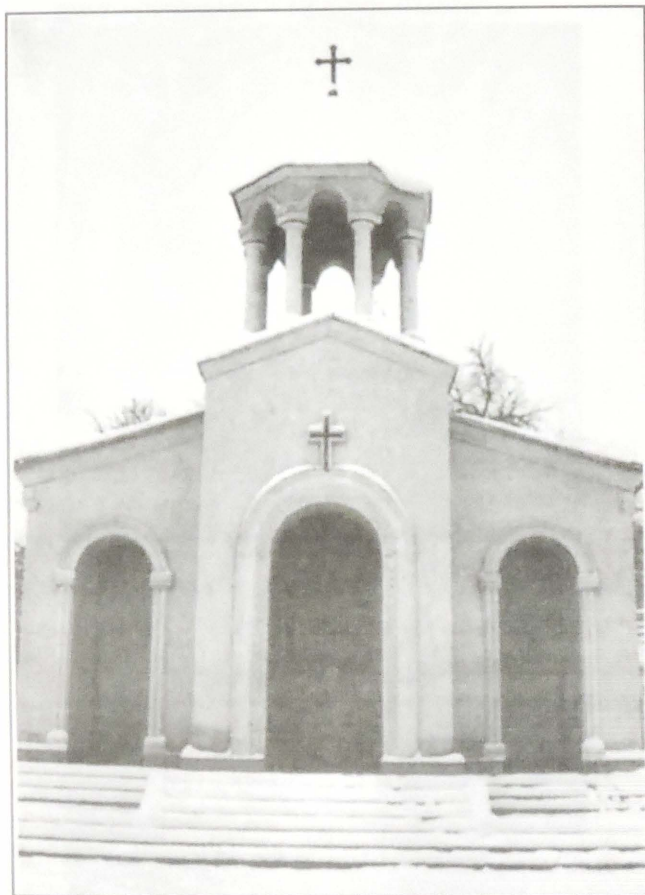


64- الكنيسة الأرمينية ، القرم ، أوكرانيا (مونتافان) .

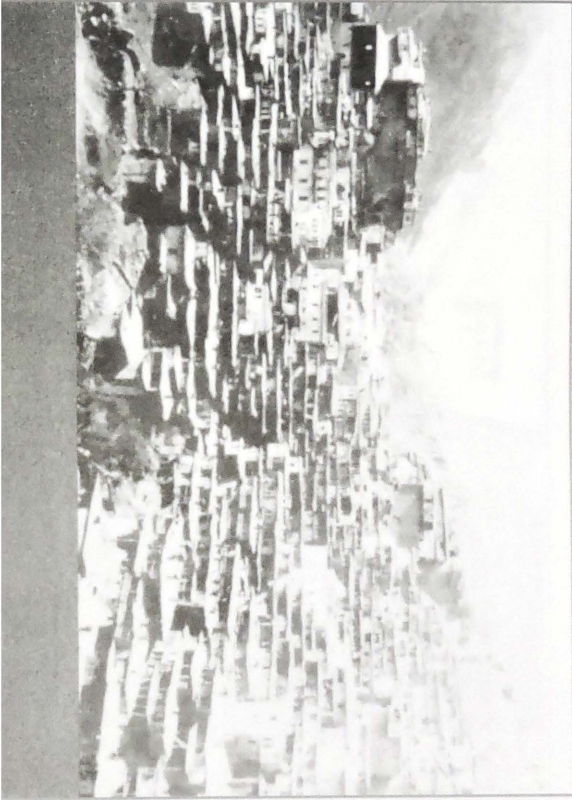
65- مدرسة ميلكويتان ، قبرص (الاتحاد السوفياتي الأرميني العام) .

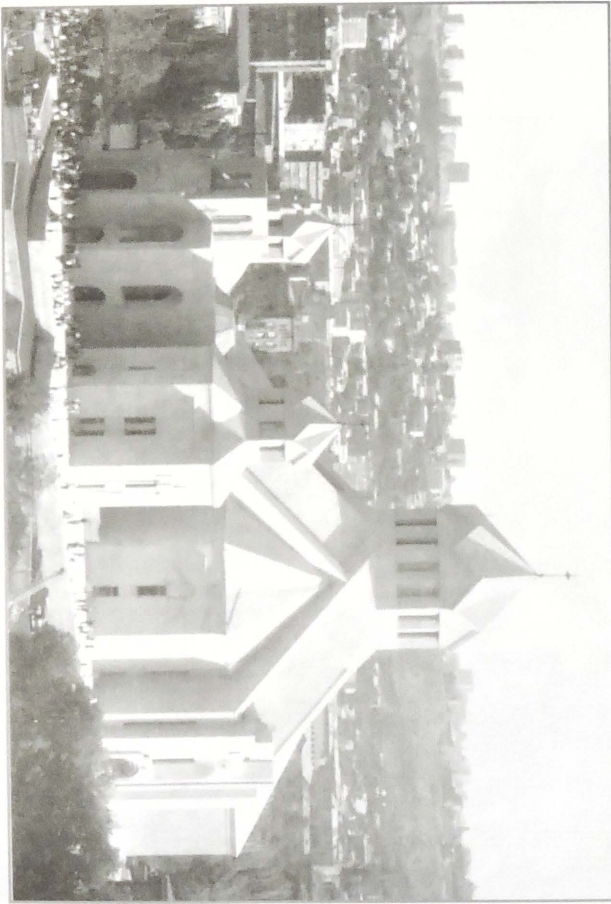




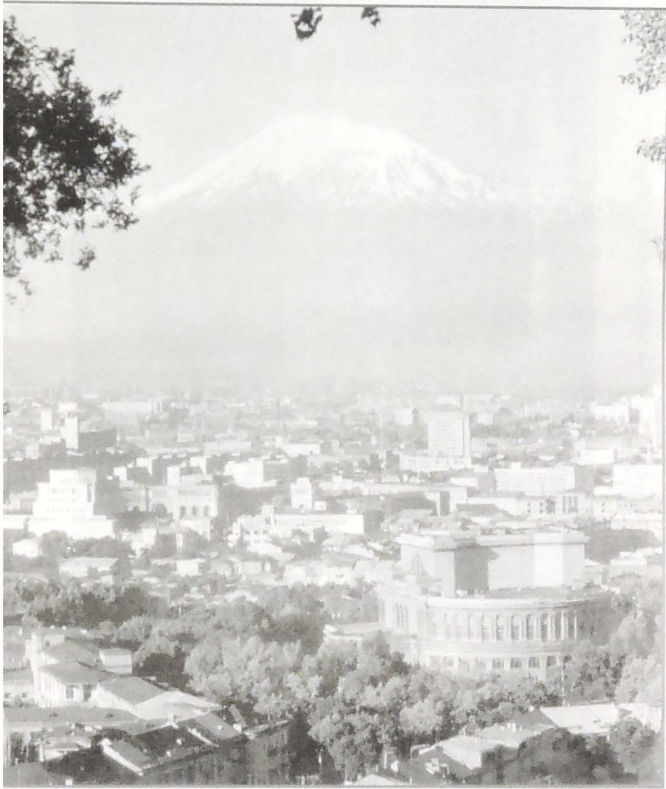


67- الكنيسة الأرمنية ، سمرقند (الاتحاد الخيري الأرمني العام) .





69- كاتدرائية القديس غريغوريوس الممّور ، بيروت، لبنان.



70- يريفان الحديثة .

قد يبدو الكتاب - من عنوانه - شديد الخصوصية، سواء في موضوعه أو في توجهه ؛ إذ ارتبط في الأساس بتحقيق إمكانية للأرمن، لاسيما في الولايات المتحدة، من النظر إلى تاريخهم بموضوعية .. ولكن الحقيقة الغائبة، ضمن طيات هذا الأساس، أن يتعرف جميع البشر - على اختلاف أطيافهم وأجناسهم وثقافتهم - تاريخ شعب عريق ، فقد معظم أرضه التاريخية وتشتت في أنحاء المعمورة...

الكتاب دعوة لقراءة تاريخ جدير بالقراءة، رغم منعطفاته الشديدة الوقع، وتعرجاته الطويلة التي ضمت جوانحها على انتصارات يسيرة النزر، وإخفاقات يندر أن يحتملها شعب أو جنس .. ولكي تسهل تلك المهمة من القراءة والمعرفة ، أضفنا مادة ثرية من الصور والخرائط ، التي تعين القاريء - الأرمني وغير الأرمني - على تحقيق تلك الألفة بشعب وثقافة غائبين من معظم المقررات والنصوص التاريخية التقليدية.

